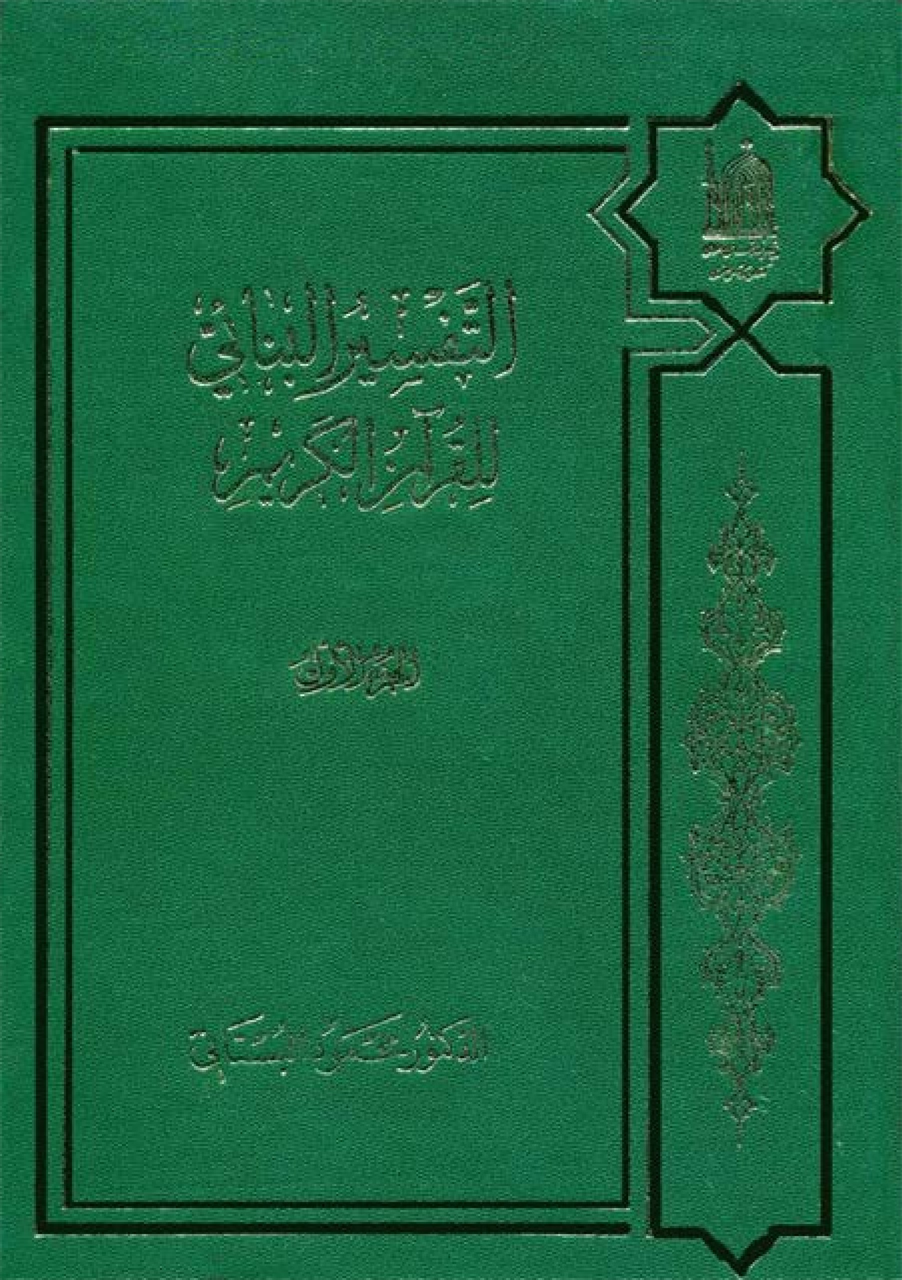
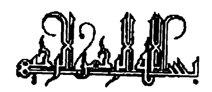

التفسير البنائي
للقرآن الكريم
المجلد الأول
الدكتور محمود البستاني



التفسير البنائي للقرآن الكريم

الجزء الأول



تأليف

الدكتور محمود البستاني

بستاني، محمود، ١٣١٦ -
التفسير البنائي للقرآن الكريم / محمود البستاني. - مشهد: مجمع البحوث الاسلامية، ١٤٢٢ق. = ١٣٨٠ ش.
٥ ج. (دوره). ISBN 5 Vol set 964-444-359-4
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا. (ج. ١) ISBN 964-444-364-0
عربى
كتابنامه
١. تفاسير شيعه -- قرن ١٤. ٢. قرآن -- مسائل ادبى. الف. بنياد پژوهشهاى اسلامى. ب. عنوان
٧ت ٥ ب / BP ٩٨ ٢٩٧/١٧٢
كتابخانه ملّى ايران ١٨٢٩٠ - ٧٩م



التفسير البنائي للقرآن الكريم

الجزء الأوّل

الدكتور محمود البستانيّ

الطبعة الاولى: ١٤٢٢ق. / ١٣٨٠ش
١٥٠٠ نسخة
الطباعة: مؤسّسة الطبع التابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة
الثمن ٢٠٠٠٠ ريال

مشهد - ص. ب ٣٦٦ - ٩١٧٣٥ الهاتف ٥ - ٨٢١٠٠٣٣ - E-mail: islreafn@emamreza.net
مركز التوزيع: شركة بهنشر، المكتب المركزي: مشهد، الهاتف ٧ - ٨٥١١١٣٦، الفاكس ٩٧٥٢٠

كلمة الناشر

نشأت حول القرآن الكريم حركة تأليفيّة واسعة و ضخمة، ابتدأت منذ قرون الإسلام الأولى، و مازالت تمضي قُدُماً في الأزمنة حتّى عصرنا الحاضر. و هي حركة تتّسم بما تتّسم به الحركات في البيئات البشريّة عادةً من تقدّم و انكفاء، و من إبداع و تقليد، و من تعمّق و تسطّح، و من اتّساع و ضيق.

و لم تنحصر حركة التأليف حول القرآن في نطاق محدود من نطاقات المعرفة البشريّة، فهي متعدّدة متنوّعة تعدُّدَ هذه النطاقات و تنوُّعها. و هي حركة كثيرة النتاج كثرة ظاهرة يستغرق إحصاء أسماء المعروف من نتاجاتها عدّة مجلّدات.

و من أبرز تيّارات الحركة التأليفيّة حول القرآن الكريم : تيّار التفسير الذي ابتدأ منذ الأيام الأولىٰ لنزول آيات القرآن علىٰ رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، و ما يزال متدفّقاً إلى الآن.

و لا ريب أنّ مناهج المفسّرين و مشاربهم ـ في قراءة المعنىٰ و الأسلوب و اللفظة ـ قد تنوّعت و تعدّدت؛ انطلاقاً من واقع البيئة الفكرية و التاريخية التي يعيش فيها المفسّر، و انطلاقاً من لون ثقافته و نمط اهتماماته و أبعاد أهدافه. من هنا لا تكاد تعثر علىٰ تفسيرٍ جامعٍ وافٍ يمكن الاستغناء به كلّ الاستغناء في التعرّف علىٰ كلام الله عزّوجلّ، و في التوصّل إلىٰ أغواره البعيدة و آفاقه الفسيحة. بَيْد أنّك لا تَعدِم أن تجد في التفسير الصالح مساحةً مُضاءة، تقدر أن ترىٰ من خلالها شيئاً ظاهراً أو باطناً

من أغوار هذا الكتاب الإلهيّ المقدس المُنزل للهداية و كشف الطريق و الغاية.

و هذا الكتاب الذي نقدّمه الآن ـ بأجزائه الخمسة ـ هو قراءة في سور القرآن الكريم من أوّلها إلىٰ آخرها، عُني مؤلفه بالتعرّف علىٰ بناء هيكل السورة الواحدة، من خلال ما بين أجزاء السورة من ترابط ظاهر أو خفيّ، و ما بين مقاطعها من تواشج و انسجام تشكّل معه السورة وحدة متكاملة من الوجهة الفنيّة و المعنويّة. و هذا سرّ تسمية الكتاب باسم (التفسير البنائيّ).

و الواقع أنّ هذا النمط من التأليف قائم علىٰ رؤية تستلهم الفن و الدلالة معاً، من أجل رسم هندسة السورة و عمارتها بنائياً.. ممّا يضفي على الكتاب سمة تركيبيّة تستند إلىٰ رؤية الوحدة من خلال الكثرة، و التوصّل إلىٰ التوحّد عبر حالات التنوّع في المضامين.

و المؤلّف ـ بعد هذا و ذاك ـ يستثمر الظواهر التعبيريّة و السياقيّة المتنوّعة التي يمرّ بها في القرآن الكريم ليصل بالقارئ إلى الإحساس بالهدف القرآنيّ في الإقبال على الحقّ و الاستمساك بالصراط، و في الحذر من مسالك الباطل و دروبه الملتوية العوجاء. من هنا يغدو (التفسير البنائيّ) مزيجاً واعياً من الهندسة البنائيّة و من الفنّ و المعنىٰ و إرادة التبصير، و هذه مزيّة خاصّة لهذا الكتاب.

و بعد هذا.. فإنّ (التفسير البنائيّ) واحد من المؤلّفات العديدة التي كتبها الدكتور محمود البستانيّ فيما يتّصل بالقرآن و المعارف الإسلاميّة. و هو يشهد له ـ فيما يشهد ـ بالجِدّة و الطرافة، و الالتزام بالينابيع الإسلاميّة الأصيلة. و هذا ما حدا بمجمع البحوث الإسلاميّة أن يتولّىٰ نشر هذا الكتاب، في سبيل إشاعة المعارف الإسلاميّة و توسيع نطاقها في حياة المسلمين، والله سبحانه الهادي إلى سواء الصراط.

مجمع البحوث الإسلاميّة

المقدمة

يُلاحظ أنّ الدراسات التي تناولت القرآن الكريم لم تتوفر علىٰ دراسة سُوَره من حيث العمارة التي تنتظم السورة الكريمة، أي لم تتناول السورة بصفتها مجموعة من الآيات التي ترتبط إحداها مع الأخرىٰ: مع أن المسوّغ لمثل هذه الدراسة يفرض ضرورته علىٰ المعنيين بشؤون القرآن الكريم نظراً لكون القرآن قد انتظم في (سور) ولم يكن مجرد آيات أملتها مناسبات خاصة، وعندما تنتظم مجموعة من الآيات في سورة خاصة فلا بدّ حينئذ من أن تكون لهذه الآيات المجتمعة في سورة دون غيرها من الآيات، لا بدّ أن تكون لهذه الآيات خصوصية من حيث تناسب بعضها مع الآخر، وإلاّ لم تكن هناك ضرورة بأن يأمر النبيّ(ص) كتّاب الوحي بأن يضعوا هذه الآية أو تلك في السورة الفلانية أو بجانب الآية الفلانية، كل ذلك يعني أن وضع الآيات في سورة خاصة وتحديد مكان الآية من السورة أو الآيات الأخرىٰ، كل ذلك يعني أن السورة هي هيكل أو بناء قد خُطِطَ له بدقةٍ وإتقان، وإنّ لهذا التخطيط فلسفته أو نكاته الفكرية. والسرّ في ذلك هو: أن قراءة النص (أو مواجهة أية تجربة) لا تنحصر آثارها علىٰ المتلقي في جزئياتها فحسب بل أن الانطباع العام أو الأثر العام الذي تتركه القراءة لنص له أهميته أيضاً، فكما أن البحث العلمي مثلاً أو الخطبة الجماهيرية أو التحليل النفسي يراعي طبيعة الشخص وطريقة إدراكه للأمور ويخضع لقوانين خاصة في الاستجابة للأشياء مثل إدراكه للمجمل أولاً ثم للمفصل أو العكس، ومثل التدرج بمشاعره وأفكاره من

البسيط إلى المعقّد ...الخ كل أولئك لها أهميتها من حيث الهدف الذي يرسمه النص، فإذا كان هدف هذه السورة القرآنية أو تلك هو: تعديل سلوك الإنسان بالنسبة إلى علاقته مع الآخرين مثلاً حينئذٍ فإن قراءة سورة (كالحجرات مثلاً) سوف تترك أثراً عاماً بعد الانتهاء من قراءتها بنحو قد لا يتحسّسه القارىء، ولكن النص نظراً لمعرفته بطرائق التأثير، حينئذ فإنه يسلك أساليب خاصة من حيث التقديم والتأخير لهذه الآية أو تلك أو لهذا الموضوع أو ذاك، ومن حيث طرحه وفق أسلوب الرغبة أو الرهبة أو. . . الخ، ليتحقق من خلال ذلك هدفه الفكري في النص.

إن هذه الأسباب وغيرها تجعل لمعرفة أو لدراسة السورة القرآنية من حيث كونها عمارة خاصة ترتبط آياتها وأفكارها وموضوعاتها بعضها مع الآخر، أهمية خاصة ومن ثم فإن هذه الأسباب دفعتنا إلىٰ محاولة دراسة القرآن الكريم من خلال العمارات التي تنتظم سوره. طبيعياً، إن تناول السورة القرآنية الكريمة من حيث عمارتها يتمّ وفق أسلوبين أحدهما: الوقوف عند السمات الفكرية أو الموضوعية التي تربط الآيات بعضها مع الآخر،والثاني: الوقوف عند السمات (الفنية) أيضاً، أي ملاحظة مجموع السورة من حيث بدايتها ووسطها ونهايتها من جانب، ثم علاقة كل آية بما سبقها ولحقها من جانب ثانٍ، ثم (وهذا هو المائز الملحوظ بين الدراسة الفنية وغيرها) ملاحظة العناصر القصصية واللفظية والصورية والإيقاعية وغيرها من العناصر التي تنتظم النصوص الأدبية وتميّزها عن النص العلمي الصرف، ملاحظة هذه العناصر ومدىٰ إسهامها في عملية الربط بين أجزاء السورة، ثم كيفية توظيفها من أجل إنارة الفكرة التي يتضمنها النص.

إن الدراسة التي توفّرنا عليها تُعنىٰ بالسمات (الفنية) إلى جانب السمات الفكرية، حيث لا ينفصل أحدها عن الآخر، وقد حاولنا ـ ما أمكن ـ أن نبرز

(الوحدة العامة) التي تحكم السورة، حيث يُنظر إليها من زوايا متنوعة، منها:

١ ـ **من حيث الموضوعات والأهداف:** فالسورة الكريمة تتخذ أحد الأبنية الآتية من حيث علاقة موضوعاتها بالأفكار المطروحة فيها:

ـ وحدة الفكرة ووحدة الموضوع ـ وحدة الفكرة وتعدد الموضوع ـ وحدة الموضوع وتعدد الفكرة ـ تعدد الفكرة وتعدد الموضوع، ومنها:

٢ ـ **من حيث الأشكال:** تتخذ السورة واحداً من الأبنية التالية:

ـ البناء الأفقي، وهو أن تبدأ السورة بموضوع وتختم بالموضوع ذاته عبر سلسلة من الموضوعات المتنوعة.

ـ البناء الطولي، وهو أن تبدأ السورة بموضوع تتدرج في عرضه، بحيث يُختم الموضوع مع نهاية السورة.

ـ البناء المقطعي، وهو أن تطرح السورة جملة من الموضوعات. تنهي كل واحدٍ منها بآية أو أكثر تتكرّر في المقاطع جميعاً، مثل: **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**.

ومنها:

٣ ـ **من حيث العلاقات:** تتخذ السورة واحدة من العلاقات الآتية:

ـ **السببية:** ويُقصد بها أنّ الموضوعات في السورة يترتب أحدها علىٰ الآخر على نحو (السببية) بحيث يكون الموضوع (سبباً) للاحقه، و(مسبّباً) عن سابقه.

ـ **النموّ:** ويقصد به أن الموضوع ينتقل أو يتحول أو يتطور من مرحلة إلى أخرىٰ كما يتنامىٰ النبات ويقطع مراحل متنوعة حتى يصل إلىٰ نهاية نموّه.

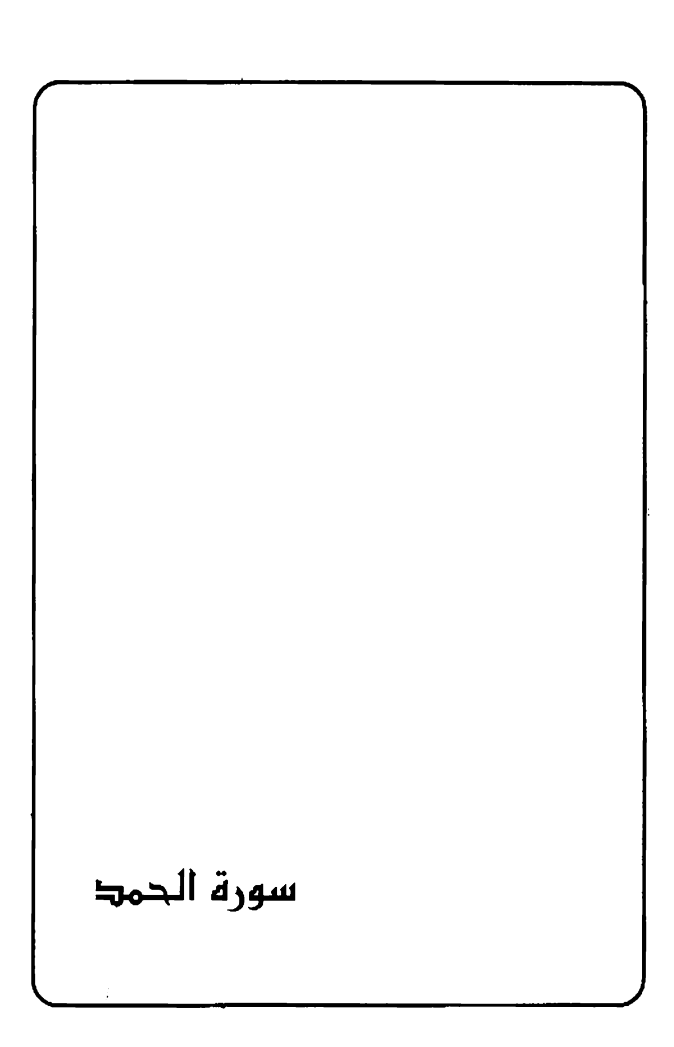
ـ **التجانس:** ويُقصد به مجانسة كل عنصر من عناصر النص مع الآخر، أي مجانسة الموضوعات مع الأفكار بالنسبة إلى الأدوات الفنية المستخدمة

كعنصر القصة والصورة والإيقاع، و. . . الخ.

هذه المستويات من (الوحدة) التي تنتظم عمارة السورة الكريمة، حاولنا أن نقف عندها مفصّلاً حسب ما تقتضيه السورة ذاتها، حيث أن كل سورة تتخذ لها شكلاً خاصّاً من العمارة التي تتناسب خطوطها مع طبيعة الأفكار التي يستهدفها النص.

وهناك مستويات أخرىٰ من الأبنية التي لا نجد ضرورة في الإشارة إليها في هذه المقدّمة، بقدر ما يلحظها القارىء في حينه ويكتشف ما تنطوي عليه من جمالية وإحكام وإمتاع فنيّ بخاصة ملاحظة تلك الأساليب التي سلكها النص القرآني الكريم في الانتقال من آية إلى أخرىٰ أو موضوع إلى آخر، أو الأساليب التي سلكها في جعل القارىء يكتشف بنفسه كثيراً من الخطوط التي انتظمت عمارة السورة القرآنية الكريمة.

أخيراً، نبتهل إلى الله تعالى أن يوفقنا جميعاً إلىٰ خدمة كتابه الكريم.



سورة الحمد

تنتظم هذه السورة عناصرُ فنيّة تتآزر فيما بينها لِتقدّم عمارة محكمة تتدرّج بنا في دلالاتها الفكرية بنحوٍ مترابط فيما بينها وفق ما يلي:

ـ موضوعها العام هو «التعامل مع الله تعالى».

ـ التعامل يتوزع في ثلاثة أقسام: (الثناء على الله تعالى) (العبادة لله تعالى) (الاستعانة بالله تعالى وطلب الهداية منه تعالى).

سلفاً، ينبغي أن نشير إلى أنّ عمارة أيّة سورة كريمة لا تخضع بالضرورة للتسلسل الزمني أو الموضوعي بقدر ما تخضع للزمان النفسي، أي: أنّ الدلالات التي تنتظمها إنّما تتحدد بقدر انعكاساتها في ذهن المتلقي وما تجرّه من (تداعيات) لهذه الدلالة أو تلك.

ولنقف مع أقسامها الثلاثة:

القسم الأول

يُستهل هذا القسم بعبارة﴿الحمد لله﴾ ..والحمد أو الثناء أو الشكر هو عملية (تقويم)، إلّا أنه ليس تقويماً مألوفاً بقدر ما يتّجه إلى ظاهرة لا مثيل لها، هي (الله رب العالمين)، وسمة ﴿ربّ العالمين﴾ لا تحتاج إلى التعقيب لأنها تلخص لنا الدلالة الذاهبة إلىٰ أن التقويم هو لمسيطرٍ على الكون كله، (ربٍ هو لكل المخلوقات). وأمّا السمة الثانية التي تلتها فهي: ﴿الرحمٰن الرحيم﴾وهذه السمة تفرض ضرورتها، لبداهة أن القوة أو الهيمنة إنما تكتسب إيجابيتها بقدر ما تقترن بعنصر (الخير)، وهذا ما جسدته عبارتا (الرحمٰن) (الرحيم)، وهاتان العبارتان تلخّصان مفهوم (الخير) بمستوياته غير المحدودة،

حيث أن الأولىٰ تعني الرحمة العامة للمخلوقات، والأخرىٰ تعني الرحمة الخاصة بالمؤمنين (ومنهم مَن يمارس ـ في جزءٍ من واجباته ـ عملية الحمد لله تعالى، وبذلك تستكمل الرحمة ودلالتها). وأما السمة الثالثة فهي ﴿مالك يوم الدين﴾.

هنا قد يتساءل القارىء عن الرابطة الدلالية بين ما تقدّم وهي (الهيمنة والرحمة) وبين (مالكية يوم الدين)؟ في تصورنا، أن لهذه السمة موقعاً عضوياً بالغ الأهمية، فهو من جانبٍ (يُداعي) بالذهن إلىٰ ما يعنيه (اليوم الآخر) من كونه امتداداً لليوم الدنيوي، أو يوم تسلّم (المكافأة) مقابل الاختبار أو الامتحان الدنيوي، بصفة أن (العالمين) واقترانها بـ(الرحمة) قد استهدف عدم فصلها عن التجربة العبادية وما يترتب عليها من النتائج. ومن جانب آخر، فإن نفس انتخاب عبارة (يوم الدين) دون سواها من العبارات المشيرة إلى اليوم الآخر، يتداعىٰ بالذهن إلى مضمون التجربة أو الاختبار العبادي القائم على دلالة (دينية)، فتكون هذه العبارة مجانسة لما تقدّمتها. وليس تعبيراً مجرداً (كالتعبير العادي أو العلمي الجاف) لا يتحدث عن الحقائق بلغة محاكية لما هو واقع بل بلغة تعتمد عنصر النشاط الذهني للإنسان ومحاولة جعله يسهم في اكتشاف الحقائق حتى يتحسس حيوية وجمالية ما يمارسه من قراءة النصوص أو ما يُطلق عليه مصطلح (عملية التذوق الفني)، ولذلك نجد أن النص القرآني يعتمد حيناً عنصر (الاقتصاد اللغوي) بحيث ينتخب من العبارات ما يتداعىٰ بذهن القارىء إلى استخلاص دلالات يوحي بها إيحاءاً، وكما لاحظنا ذلك في القسم الأول الذي استخلصنا من عبارته القائلة (يوم الدين) الإشارة إلى التجربة العبادية من جانب ثم ما يترتب عليها من الجزاء الأخروي من جانب آخر، بيد أن النص القرآني ـ في الآن ذاته ـ يستخدم في سياقات خاصة عنصر (التكرار) أو (التفصيل) و (الإسهاب)، مستهدفاً من ذلك تركيز وتعميق وتأكيد حقيقة من الحقائق مثل آية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ وسواها مما سنشير إليها في

حينه إن شاء الله ، ومنها عبارة (إيّاك نعبد) حيث تحتلّ هذه العبارة كما قلنا موقعاً عضوياً رابطاً بين القسم الأول والثاني من السورة، ومؤكداً للمفهوم العبادي، وممهداً لتفصيل لاحقٍ يضطلع القسم الثالث من السورة به.

ويُلاحظ، أن النص قد جعل من تمهيده للقسم الثالث، عبارة ﴿إيّاك نستعين﴾، ليربط أولاً بين تجربة العبادة وبين عدم انفصام ذلك عن الاستعانة بالله تعالى في تمرير التجربة المذكورة واجتيازها بنجاح سواء كان ذلك في الأمور المادية أو المعنوية، وليمهد ثانياً بدلالة مفصلة لأحد مصاديق الاستعانة وهي ﴿إهدنا...﴾ كما سنرىٰ . . . لكن قبل ذلك، يحسن بنا أن نعرض نسمة فنية ثالثة هي آية ﴿مالك يوم الدين﴾.

القسم الثاني

يتناول هذا القسم دلالة خاصة هي الدلالة الدينية التي أشرنا إليها، متمثلة في عبارة ﴿إياك نعبد﴾. لكن، لماذا جاءت متأخرة بالقياس إلى (يوم الدين)، أي لماذا جاء النص أولاً بالإشارة إلى يوم الدين ثم أعقبه بالإشارة إلىٰ التجربة العبادية؟ في تصورنا أن النص في صدد تأكيده علىٰ المهمة العبادية ولفت النظر إليها بصفتها هي الهدف أساساً ولذلك فصّل الحديث عنها في هذا القسم وفي القسم الثالث كما سنرىٰ، وأما القسم الأول فقد(أجمل) ملامح الظاهرة الكونية وعلاقتها بالله تعالى، وعلاقة العبد بذلك.

العنصر اللفظي:

من السمات الفنية الخاصة بالعنصر اللفظي: ظاهرة (التقديم) والتكرار لعبارة (إياك) في فقرتي ﴿إيّاك نعبد وإياك نستعين﴾. فما هذا السرّ الفني في ذلك؟ وما هو علاقته بعمارة السورة الكريمة؟ البلاغيون القدامىٰ يخيّل إليهم أن (التقديم) هو مجرّد لفت النظر إلى أهمية الظاهرة، بيد أن الأمر ليس كذلك

وإلاّ لو كان الأمر كما يذهبون إليه فلماذا جاءت نصوص قرآنية متنوعة لا تقترن بمثل هذا (التقديم) بل جاءت بصياغة مثل (نعبدك) مثلاً، إذن: التقديم بعبارة (إياك) لا بد أن ينطوي علىٰ سر يرتبط بعمارة السورة، وهذا ما يرتبط بعلاقة هذا التقديم بما سبقه في القسم الأول من السورة حيث قلنا إن هذا القسم خاص بعمليّة (تقويم): الثناء والحمد والشكر لمهيمنٍ على الكون، فجاء تقديم (إياك) متناسباً مع تقديم الحمد لله تعالى.

وأما التكرار للعبارة فيتّضح سرّه إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن النص يستهدف لفت النظر إلى الممارسة العبادية غير المنفصلة عن الاستعانة بالله تعالى في تمرير الممارسة المذكورة، فبدون الاستعانة به تعالى لا يتم اجتياز المهمة العبادية بنجاح.

القسم الثالث

إن (الاستعانة) به تعالى، شكّلت ـ كما قلنا ـ مقدّمة أو دلالة مجملة، يبدأ القسم الثالث من النص بتفصيلها أو بتوضيحها في أحد جوانبها، متجسدة في قوله تعالى: ﴿إهدنا الصراط المستقيم...﴾ إلى آخر السورة، إنّ طلب الهداية قد اقترن هنا بعبارة (صورية) هي الاستعارة (الصراط المستقيم)، وبدلالتين هما (غير المغضوب عليهم) و (لا الضالّين)، وبالرغم من أن المغضوب عليهم (ضالون)، والضالين (مغضوب عليهم) إلا أن أحدهما غير الآخر، وعندما يستخدم النص القرآني أمثلة هذه الاصطلاحات فلا بدّ أن تحمل كل منها دلالة متميزة عن الأخرىٰ، ولعل النصوص التفسيرية المشيرة إلىٰ انطباق ذلك علىٰ طوائف كاليهود والنصارىٰ وغيرهم لا تتعارض معه إلا أن الذهاب إلى أن ذلك هو بمثابة (مصاديق) للفئتين المشار إليهما بخاصة أن النص القرآني الكريم يتميّز بكونه (إيحائياً) يرشحه بعدة دلالات بحيث يستطيع

كل متذوق أن يستخلص دلالة تتناسب مع تجربته الذوقية، وبحيث يستطيع أن (يطبقها) علىٰ مفردات (مصاديق) كثيرة، وفي تصوّرنا أنّ عبارة (المغضوب عليهم) تتناول ممارسة المعصية، وإن (الضالين) تتناول انتخاب مبادىء غير الله تعالى أي أنّ الأولىٰ تتناول الجانب العملي من السلوك، والأخرىٰ تتناول البُعد الفكري منه، ولعل وقوفنا علىٰ العنصر الصوري (الصراط المستقيم) يلقي بعض الإنارة علىٰ هذا الجانب.

إذن، لنتجه إلى ملاحظة هذا الجانب وتحديد موقعه من عمارة السورة الكريمة، وهو ما ندرجه ضمن عنوان:

العنصر الصوري:

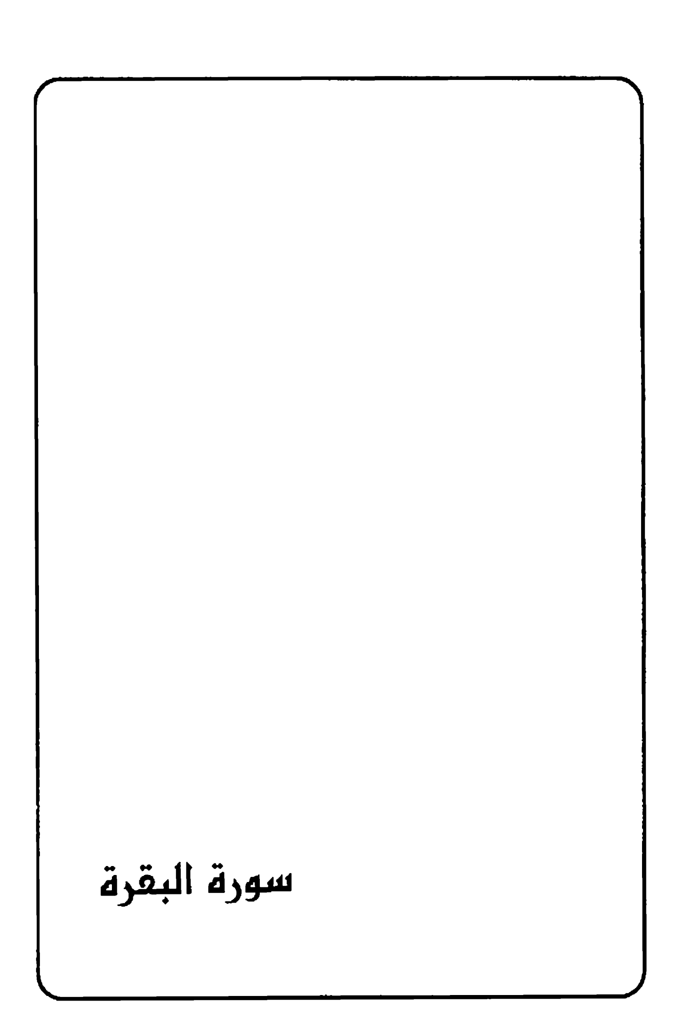
يتمثل العنصر الصوري في هذه السورة في الاستعارة القائلة: ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾ (الصراط) هو الطريق و(المستقيم)، لا يحتاج إلىٰ توضيح، بيد أن ما نعتزم توضيحه هو: إن هذه الاستعارة من الصور (المألوفة) التي يخبرها أي شخص، ومع ذلك فهي من الصور المتّسمة بالعمق وبالإثارة. إن النص قد انتخب (الطريق)، و(الهداية) إليه بالنحو (المستقيم)، رمزاً للهدي العبادي، وكان بالمقدور انتخاب صورة أخرى، إلا أنّ الممارسة العبادية بنحوها الذي يُطالَبُ به الإنسان تتجانس بوضوح مع هذه الصورة، فهذه الصورة ـ كما قلنا ـ امتداد أو تفصيل لما سبقها، ونعني بها عبارة (إياك نستعين)، والاستعانة تتبلور أوضح مجسداتها عند حركة الإنسان، فالإنسان يتحرك من خلال (الطريق)، والطريق قد يكون مظلماً، أو شائكاً، أو غير مُعلّم بعلامة خاصة بحيث يتيه الإنسان أو يتعثر أو يُدمىٰ... الخ، ولذلك يحتاج إلى مَن يهديه إلىٰ الطريق غير المنحرف من هنا أو هناك، فالانحراف يقتاده إلى التيه أو ما يواكبه من إدماء وتعثر. . . الخ، بينا الاستقامة تقتاده إلى المكان المقصود دون أيّة متاعب.

ويمكن تلخيص ذلك في حقيقتين ترتبطان بمفهومي ﴿غير المغضوب عليهم﴾و﴿ولا الضالين﴾، وذلك بأن من ينحرف عن الطريق المستقيم، إمّا أن ينحرف بوعي تحقيقاً لشهوات عابرة (فيكون من المغضوب عليهم)، وإمّا أن ينحرف بغير وعي (فيكون من الضالين).

إذن، هذه الاستعارة ترتبط عضوياً بما تقدمها من الآيات المشيرة إلى العبادة ﴿إياك نعبد﴾ والاستعانة ﴿وإياك نستعين﴾، فتكون (الاستعانة) بالله تعالى في ممارسة العمل (العبادي) هي الهداية إلى الصراط المستقيم، وترتبط ـ في جانب آخر ـ بما تلحقها من الدلالات الكثيرة إلىٰ غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

* * *

يبقى أن نشير إلى ظاهرة(التكرار) لعبارة (الصراط) أو لصورة أو استعارة (الصراط)، حيث أن للتكرار دلالة فنية هي ترسيخ الفكرة المستهدفة من النص. ونحن إذا عدنا إلىٰ ما سبق أن لحظناه من التأكيد علىٰ صفتي ﴿غير المغضوب عليهم﴾و﴿ولا الضالين﴾، نجد أن لتكرار الصراط علاقة بتلك الصفتين أو بالأحرىٰ علاقة بما ينعم الله تعالى به علىٰ الإنسان بحيث لا يُغضَب عليه ولا يكون ضالاً.



سورة البقرة

هذه السورة تُعدّ ـ كما هو واضح ـ أكبر السور القرآنية حجماً، ومن ثمّ أكثرها تنوعاً في الموضوعات، إلّا أنّها صيغت وفق عمارة محكمة، تترابط فيها الموضوعات وتتنامىٰ علىٰ نحو ممتع ومدهش، فضلاً عن بنائها العضوي المتمثّل في توظيف عناصرها القصصية والصورية لإنارة الأفكار التي تنتظمها.

وهذا من حيث الهيكل الخارجي للسورة.

أمّا الهيكل الداخلي لها، فيمكن تقسيم ذلك إلىٰ أقسام (رئيسة)، كل واحد منها يتضمن (مقاطع) ثانوية، وكل من الخطوط الرئيسة والثانوية تتلاقىٰ من خلال شبكة تنتظمها جميعاً مع ملاحظة أن هناك عشرات من الظواهر أو الموضوعات أو الأفكار تجد لها مكاناً تدلف إليه ضمن هذه الخطوط وفق منحىً فني غير مباشر، مما يضفي مزيداً من الجمالية والإمتاع علىٰ عمارة السورة.

ويمكن علىٰ نحو الإجمال أن نشير إلىٰ الخطوط (الرئيسة) من السورة وفقاً لما يلي:

١ ـ القسم الأول: يركّز علىٰ سلوك المنافقين، مع (تمهيد) يتناول سمات (المتّقين) حيث تظلّ السمة المشار إليها (الاتقاء ـ التقوىٰ) أهمّ الأعصبة أو المحاور الفكرية للسورة، بحيث تُلقي بإنارتها علىٰ أقسام السورة جميعاً: بخاصّة القسم الأخير منها.

٢ ـ القسم الثاني: يركّز علىٰ المولد البشري (تجربة آدم(ع)).

٣ ـ القسم الثالث: يركّز علىٰ السلوك الإسرائيلي.

٤ ـ القسم الرابع: يركّز على شخصية إبراهيم(ع).

٥ ـ القسم الخامس: يركّز علىٰ سمات المؤمنين.

٦ ـ القسم السادس: يركّز علىٰ (الأحكام الشرعية).

طبيعياً ـ كما سبقت الإشارة ـ إنّ هذه الأقسام تتضمن موضوعات ثانوية، كما تقتحمها موضوعات طارئة تتسلل إليها بنحوٍ فنيّ مدهش، وهي جميعاً تتلاقىٰ فيما بينها من خلال (التمهيد) لها بموضوعات (مجانسة)، أو (التنامي) لهذه الموضوعات بحيث تنتقل من مرحلة إلى أخرىٰ خلال المقطع أو القسم أو السورة جميعاً، أو (توزيع) هذه الموضوعات بحيث يتناول كلّ مقطع أو قسم جانباً منها يُستكمل طرحه في الأجزاء الأخرىٰ. والأهمّ من ذلك، أن الشبكة العامة لخطوط السورة، تتواصل فيما بينها بنحو مدهش بحيث نجد أن ظاهرة (الاتقاء) مثلاً، أو ظاهرة (الإماتة والإحياء) أو غيرهما من المحاور الرئيسة للسورة لا تكاد تختفي من هذا القسم أو المقطع حتّى تبرز في موقع آخر في سياق خاص يستدعيها، والأمر كذلك بالنسبة إلى عشرات الظواهر أو الموضوعات أو الأفكار الجزئية التي تتخلل السورة، لترتبط بالخطوط الأخرىٰ التي تنتظم شبكتها.

ولا يمكننا أن نتبيّن هذه المستويات من الإحكام الهندسي للسورة إلّا من خلال وقوفنا عند أقسامها ومقاطعها مفصّلاً، حيث نبدأ ذلك بدراسة:

القسم الأول

يبدأ القسم الأول من السورة (يستغرق ثلاثين آية) بـ(تمهيد) يحدد سمات المتقين، ويعرض لسمات المنافقين، وبتلميح خاطف إلىٰ سمات المشركين، يتخلله الحديث عن بعض الظواهر الكونية، ثم بمقارنة سريعة بين المؤمن والكافر وانعكاسات سلوكهما علىٰ الجزاء الأخروي.

وما يعنينا من هذا القسم هو: ملاحظة عمارته والأدوات الفنية التي

استخدمها النصُّ في بناء العمارة المشار إليها، حيث تنتظمها (موضوعات) متنوعة، قد استُهلت ـ كما أشرنا ـ بالحديث عن (المتّقين)، وهو ما يجسّد (المقدمة) أو:

المقطع الاول:

سمات المتّقين: لقد رسَمَ هذا المقطع جملةً من سمات المتقين علىٰ هذا النحو:

﴿الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين. الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وممّا رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون. أولئك علىٰ هدىً من ربّهم، وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

إنّ هذا الاستهلال أو البداية للسورة الكريمة، يحمل مهمة فنيّة هي: كونه (تمهيداً) لموضوعات (مجملة)، سوف تأخذ (تفصيلاتها) من الأقسام اللاحقة من السورة... وأول ما ينبغي لفت النظر إليه هو: أن السورة عندما تُستهلّ بأحد الموضوعات، فإن ذلك يكشف عن كون الموضوع يحمل أهمية كبيرة يستهدف النصُّ لفت نظرنا إليه (وهذه هي إحدىٰ خصائص البناء الفنيّ للسور القرآنية الكريمة)، لذلك عندما يبدأ المقطع بالحديث عن (المتقين) **﴿الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين﴾**، حينئذٍ نستكشف أولاً أهمية هذا الموضوع بصفة أن الاتقاء أو التقوىٰ هي الحصيلة النهائية التي يستهدفها الواقع بالنسبة للعمل العبادي، ونستكشف ثانياً انعكاسات هذا الموضوع (سمة التقوىٰ أو الاتقاء) علىٰ الأقسام اللاحقة من السورة، كما سنرىٰ.

ويُلاَحظ أن المقطع قد رَسَم خمس سمات للمتّقين، هي: الإيمان بالغيب، إقامة الصلاة، الإنفاق، الإيمان برسالة الإسلام والرسالات السابقة، الإيمان باليوم الآخر، وسنرىٰ أن هذه السمات سوف تُلقي بإنارتها علىٰ

الأقسام اللاحقة من السورة أيضاً.

لكن، لندع هذه (البداية)، ونتّجه إلىٰ (الوسط) ونعني به جميع الموضوعات الواقعة بين بداية السورة وخاتمتها، حيث يتكفل (الوَسَط) بتفصيل الموضوعات من جانب، وبطرح الموضوعات الجديدة من جانب آخر.

الموضوع الجديد الذي يطرحه المقطع هو:

المقطع الثاني:

سمات المنافقين: قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله علىٰ قلوبهم وعلىٰ سمعهم، وعلىٰ أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم**﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧].

إذا عدنا إلى مقدّمة السورة، وجدنا أن السمة الأولىٰ للمتقين هي (الذين يؤمنون بالغيب)، ثم سمة الذين يؤمنون بما أنزل عليك... الخ)، والآن نجد أنّ النص يعرض لنا ما يضاد سمة الإيمان وهي الكفر، حيث يشير إلى (أن الذين كفروا ـ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ـ لا يؤمنون)، وبهذه النقلة الفنية من الحديث عن (المؤمنين) إلىٰ الحديث عن (الكافرين) تمّ الربط بين مقدّمة السورة ووسطها، حيث يرسم المقطع الجديد سمات الكفر بنحو مُجمل، ثم يفصّل الحديث عنه من خلال أحد مصاديقه، وهو (النفاق)، فيقول:

﴿**ومن الناس مَن يقول: آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً، ولَهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن**

لا يشعرون. وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟! ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا، قالوا: آمنّا، وإذا خلوا إلىٰ شياطينهم، قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزؤون. الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدىٰ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. مثلُهم كمثل الذي استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون. أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، يجعلون أصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيطٌ بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إنّ الله علىٰ كلّ شيء قدير﴾ [البقرة: ٨ ـ ٢٠].

هذا المقطع الذي يتألّف من (١٣) آية، خاص بالحديث عن المنافقين، حيث تعنينا منه:

عمارة المقطع وأدواته الفنية:

١ ـ من حيث العمارة: بدأ المقطع بوصفٍ لشخصية الكافر من أنّه لا يؤمن بالله تعالى ـ سواء أُنذِر أم لم يُنذَر ـ حيث ختم الله تعالى علىٰ قلبه وسمعه، وجعل علىٰ بصره غشاوة.

هذه هي (مقدمة) المقطع، علىٰ نحو الإجمال.

وأمّا تفصيله، فقد تناول أحد مصاديق الكفر وهو: شخصية المنافق، حيث رسمه علىٰ هذا النحو:

المنافق يزعم بأنه يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكنه ـ في الواقع ـ ليس

بمؤمن. إنه يخادع الله والمؤمنين، ولكنه لا يخدع إلّا نفسه. إنّه مريض نفسياً. فزاده الله مرضاً.

وإذا قيل له: لا تفسد، زعَمَ بأنّه مصلح. وإذا قيل له: آمِن، قال: لا أؤمن كالسفهاء، ولكنّه هو السفيه في الواقع، وإذا لقي المؤمنين تظاهر بالإيمان، وإذا خلا إلىٰ شيطانه، قال له: إنني معك. المنافق أصمّ أبكم أعمىٰ يشبه مَن يستوقد ناراً للإضاءة، ولكن الله تعالى يُذهِب نوره ويدعه في الظلمات، إنّ بحثه عن المكاسب الدنيوية يشبه من يبحث عن المطر الذي يصاحبه البرق والرعد والظلمة والصاعقة، حيث البرق يكاد يخطف بصره، والصاعقة تهدده بالموت فيما يضطر إلى جعل أصابعه في أُذُنيه خوفاً منهٔ، إنه يتابع المشي في مثل هذا المناخ عندما يضيء البرق، ولكنه يتوقّف عندما تحيط به الظلمة... الخ.

لِنلاحظ، أنّ هذا الوصف التحليلي لسلوك المنافق، يرتبط عضوياً بتلكم (المقدمة) التي وصفت (الكافر) بأنه لا يؤمن بالله تعالى، وإنه تعالى ختم علىٰ سمعه وقلبه وبصره، حيث جاء الوصف التحليلي للمنافق تجسيداً للسلوك المذكور، كما سنرىٰ عند عرضنا لعناصر الصياغة الفنية في الوصف المذكور.

٢ ـ **من حيث الأدوات الفنية**: نجد أنّ المقطع قد اعتمد عناصر صورية وقصصية ولفظية في صياغة الموضوعات المشار إليها.

فمن حيث الصورة قدّم المقطعُ جملةً من التشبيهات والاستعارات والرموز منها: الصورة المركبة التي تتضمن استعارة ورمزاً على هذا النحو **﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾**، فالاستعارة هي: الختم علىٰ القلب والسمع، والرمز هو: الغشاوة أو الغطاء على البصر، هذه الصورة التركيبية وردت في رسم شخصية الكافر مطلقاً. وسنرىٰ أنها تنعكس علىٰ الصور الاستعارية والرمزية والتشبيهية التي وردت في رسم شخصية

المنافق، وأهميّة الصورة المذكورة تتمثّل في أنها أولاً: قد انتخبت طابعي (الختم) و(الغطاء) لترمز بهما إلى الانغلاق التام في ذهنية الكافر حيث لا أمل في إصلاحه أبداً، لأن (القلب) وهو مركز الهداية قد خُتم عليه، ولأن (السمع) وهو الحاسة التي يمكن أن تفيد من القول حين تستمع إليه قد خُتِم أيضاً، ولأن (البصر) وهو الحاسة التي يمكن أن تفيد من النظر إلى الظواهر الكونية التي أبدعها الله تعالى قد جُعِل (غطاءً) عليه.

ويُلاحظ ثانياً: أن كلّاً من القلب والسمع قد (استُعير) لهما طابع (الختم) بينما رُمِزَ إلى البصر بطابع (الغشاوة)، والسرّ الفنيّ في ذلك، أن القلب والسمع إذا وُضِعَ عليهما الغطاء فحينئذٍ لا يمنعَ ذلك من عملية الإدراك والسمع، فلو نضع غطاءً علىٰ الأذن، فهذا لا يحجزها من وصول الأصوات إليها، وكذا القلب. وهذا علىٰ العكس من (الختم) الذي يعني وضع مادة تسدّ جميع المنافذ التي يتسرب منها الشيء، وأما (البصر) فإن (الغشاوة) أو الغطاء تظل هي الرمز الفنيّ الذي يتناسب وعملية حجزه من النظر إلى الأشياء، لأنّ وضع أبسطِ غطاءٍ علىٰ البصر كافٍ في منعه من عملية الإبصار كما هو واضح.

إذن، أدركنا مدىٰ الأهمية الفنّية للصورة الاستعارية والرمزية المتقدّمة، وهذا ما يرتبط بالصورة التي رسمت شخصية الكافر.

أما شخصية (المنافق) فقد رسمها المقطع في جملة صور فنية ممتعة، ومثيرة، ومدهشة. لقد وصفها ـ من جانب ـ بكونها صماء، بكماء، عمياء ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾ وهذا الوصف يعد من حيث عمارة المقطع إنماءاً عضوياً للصورة السابقة ﴿ختم الله على قلوبهم... الخ﴾ حيث الختم علىٰ قلوبهم وسمعهم، ثم الغشاوة علىٰ بصرهم، يُفضي في النهاية إلىٰ أن يكونوا (صماً وبكماً وعمياً)، وهذا ما نعنيه بعملية (الإنماء أو النمو العضوي) بصفة أن الموضوع الأول (وهو الختم... الخ) قد تنامىٰ وتطوّر إلى الموضوع

الآخر (وهو العمىٰ... الخ)، فالختم علىٰ السمع قد تنامىٰ إلىٰ ظاهرة (الصمم)، والختم على السمع تنامىٰ إلى ظاهرة (البكم)، والغشاوة علىٰ البصر تنامت إلىٰ (العمىٰ)، فأصبحوا ـ تبعاً لذلك ـ صماً بكماً عمياً، كما هو نص الصورة التي وصفت المنافقين بأنهم ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾.

وهذا ما يرتبط بالصلة المباشرة بين الصورتين اللتين اعتمدتا القلب والسمع والبصر.

وأمّا ما يرتبط بالصلة بين هاتين الصورتين وبين انعكاساتهما في سلوك المنافق، فيمكن ملاحظتها في صورتين تركيبيّتين هما:

١ ـ التشبيه القائل: ﴿مثلُهُم كمثل الذى استوقد ناراً... الخ﴾.

٢ ـ التشبيه القائل: ﴿أو كصيّب من السماء... الخ﴾.

إن هاتين الصورتين تنطويان علىٰ أسرار فنية مدهشة، فهما ـ من جانب ـ قد اعتمدتا (التشبيه)، ثم اعتمدتا نمطين منه هما: التشبيه بأداة المَثَلَ ﴿مثلهم كمثل الذى... الخ﴾، والتشبيه بأداة الكاف ـ ﴿أو كصيّب﴾، كما اعتمدتا ـ من جانب آخر ـ علىٰ صور (تفريعية) تنتسب إلى (الاستعارة) و(الرمز) بحيث تفرّعت من التشبيه وتداخلت، فكونت صورةً تركيبية موحّدة. إلا أن المهمّ ـ بعد ذلك ـ هو: ما تنطوي عليه هاتان الصورتان من دلالات مرتبطة بسلوك المنافق، وصلة ذلك بظواهر الصم والبكم والعمىٰ. ولنقف مع الصورة الأولى ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد... الخ﴾. لقد شبّه النصُ المنافقين بمَن يستوقد ناراً لكَي يستنير بها في إضاءة الطريق المظلم، حيث يرمز هذا التشبيه إلىٰ أحلام المنافقين الذين يظهرون الإيمان لكي يحققوا مكاسب اقتصادية واجتماعية. لكن، ما أن يستوقد المنافق النار حتىٰ يجدها قد انطفأت ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون﴾، إن أهمية هذه الصورة تتمثل في كونها قد اختارت (الإضاءة) حول المستوقد، فلو

انطفأت النار حال اشتعالها لكان الانطفاء خالياً من كل أملٍ، ولكن الصورة قد جعلت المنافق يطمئن إلى أنّه قد حقق هدفه حينما وجد أن النار قد أضاءت له الطريق فعلاً، ولكنه في غمرة فرحه بهذه الإضاءة، فوجيء بأن النار قد انطفأت، ولا شيء أشد ألماً في النفس من أنّ الشخص في غمرة فرحه، يجد أن الأمل قد انطفأ تماماً، وهذا ما يتناسب تماماً مع أحلام المنافقين الذين يفرحون بتحقيق مكاسبهم حينما يخيّل إليهم بأن إظهار الإيمان سيحقق لهم أحلامهم، ولكن سرعان ما يُصدَمون حينما يفضحهم الوحيُ أو حينما يواجهون الحساب.

وأما الصورة الثانية ﴿أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق... الخ﴾ فتمثّل تفصيلاً لما أجملته الصورة الأولىٰ، إنها توضّح لنا طبيعة العمليات النفسية التي يصدر المنافقُ عنها حينما يفكّر بتحقيق مكاسبه. إنّه يواجه ظلمةً ورعداً وبرقاً وصواعقَ، فالظلمة هي خوفه من عدم تحقيق المكاسب، والرعد هو مزيج من الخوف والأمل بصفته مؤشراً إلىٰ إمكانية استمرار المطر وإمكانية عدمه، والبرق مؤشر إلىٰ وجود الأمل، فهو بين خوفٍ ثم تأرجحٍ بين خوفٍ وأملٍ ثم اطمئنان إلى الأمل، ثم بزوغ الخوف من جديد عندما يواجه الصواعق التي تهدده بالقضاء على مكاسبه، وهكذا. إذن: صورة الظلمات والرعد والبرق والصواعق تمثل العمليات النفسية المعبّرة عن (الصراع) الذي يحياه المنافق. إنّ جعل الأصابع في الآذان ﴿يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾ تعبر عن بداية الصراع، عن مدىٰ تخوّفهم من الفضح، حيث أن الوحي قد فضح بعضهم فعلاً، وأمّا صورة ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ فهي تعبير عن عمليات الصراع المتعاقبة، فالبرق ـ أو الأمل في تحقيق المكاسب ـ يكاد يخطف بصرهم، إنهم يسيرون في الطريق كلما أضاء لهم البرق، حيث يُخيّل إليهم أن نفاقهم سوف يخفىٰ، لكن ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي: إذا أظلم

الجوّ من جديد وقفوا، متخوفين من الفضيحة، وهكذا.

* * *

المقطع الثالث:

كان المقطع الأول يتحدث عن (المتقين)، والمقطع الثاني يتحدث عن (المنافقين)، أمّا المقطع الثالث فيتحدّث عن:

سمات المشركين: يُلاحَظ في هذا المقطع الذي يبدأ بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿**هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً، ثم استوىٰ إلى السماء ، فسوّاهنّ سبع سماواتٍ، وهو بكل شيءٍ عليم**﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٩].

إنّ النص قد طالَبَ بتوحيد الله تعالى، معقِّباً علىٰ ذلك بقوله تعالى: ﴿**لعلّكم تتّقون**﴾ وهذا التعقيب له صلة ببداية السورة التي تحدثت عن سمات المتّقين، ﴿**الّمَ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين**﴾. تظل سمة (الاتقاء أو التقوى) منتظمة كل أجزاء السورة ـ كما أشرنا ـ مفصحة بذلك عن الإحكام الهندسي لها في نطاق البناء العام للسورة، وفي نطاق المقاطع الجزئية لها، ومنها: المقطع الذي نتحدث عنه الآن، حيث يختص بعرض سمات (المشركين)، وحيث سلك بناءً خاصاً في عرضه لسماتهم هو المطالبة أولاً بتوحيد الله تعالى أي أنه عَرضَ لسمات (المشركين) من خلال مطالبتهم بما هو (ضد) للشرك وهو «التوحيد»، كما أشار إلى ظواهر الإبداع الكوني ﴿**الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ حينما طالب بعدم اتخاذ الأنداد لله (وهو الشرك) من خلال إشارته للظواهر الإبداعية المذكورة، ثم عَرضَ لسمات أخرى مثل التشكيك برسالة الإسلام ﴿**وإنْ كنتم فى ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله**﴾ فيما سخر

من شركائهم وهم: الأصنام التي يعبدونها، حينما طالبهم بأن يستعينوا بأصنامهم في الإتيان بسورة مثل القرآن، مضافاً إلى أنه عَرضَ لسمات مثل: نقْضِ العهد، وقطع الصلة، والإفساد في الأرض... الخ.

وما يعنينا من ذلك، هو: أن المقطع عَرَض لسمات المشركين من خلال طَرحه لجملة من مفهومات التوحيد والإيمان باليوم الآخر، والجزاء المترتّب علىٰ ذلك إيجاباً وسلباً، وخَتمَ ذلك بقوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون.هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً... وهو بكل شيء عليم﴾ فالمُلاحَظ، أنه ختم كلامه عن المشركين، بالحديث عن ظاهرة (الإماتة والإحياء) حيث سنرىٰ أن (الإماتة والإحياء) سوف تنعكس أصداؤها علىٰ قسم كبير من السورة (مثل إحياء البقرة بعد موتها، وإحياء الطيور الأربعة بعد تقطيعها، وإحياء الميت بعد مائة سنة... الخ)، إذن، جاء الحديث عن (الإماتة والإحياء) رابطاً فنياً بين هذا المقطع وبين المقاطع اللاحقة «فيما سيظل هذان الموضوعان: الإماتة والإحياء ثم الاتقاء أو التقوىٰ في مقدمة الموضوعات التي تشكّل الخطوط العامة التي تقوم عليها عمارة السورة الكريمة». لكن ينبغي ألا نغفل ـ مضافاً إلىٰ ما تقدّم ـ أن النص وهو ينهي حديثه عن سمات المشركين، لا بدّ أن يتقدم إلىٰ الحديث عن موضوعات جديدة ومن ثم لا بد أن يتم الانتقال وفق طريقة فنية (تربط) بين القسم الأول، من السورة وبين القسم الجديد منها، وهذا ما تمّ فعلاً من خلال الفقرة الأخيرة التي ختم بها حديثه عن «سمات المشركين» حيث ختمه بقوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾.

إن هذه الفقرة ليست مجرّد كلام عن إحدىٰ صفات الله تعالى «ونعني بها: العلم»، بل تنطوي علىٰ مهمة عضوية هي: الربط بينها وبين الموضوع الجديد الذي ستطرحه السورة الكريمة، ونعني به: قصة آدم(ع) وموقف إبليس

من ذلك، فيما تظل سمة «علم الله تعالى» هي: الظاهرة التي تتخلّل عصب القصة المذكورة، كما سنرىٰ في:

* * *

القسم الثاني

يتضمن القسم الثاني من سورة البقرة عشر آيات تتحدث عن قضية (المولد البشري)، أي: خلق آدم(ع) وموقف إبليس منه، وهبوطه إلىٰ الأرض، واستتباعه ميلاد البشرية وخلافتها في الأرض.

لقد كان القسم الأول من السورة (نثراً) تتخلله عناصر قصصية مثل (الحوار) وعناصر فنية أخرىٰ مثل (الصورة) وسواها. أمّا القسم الثاني من السورة، فقد تمحض لـ(النثر القصصي)، أي: صيغ فنياً، وفقَ أحد الأشكال الأدبية وهو(القصة)، وهذا التخصيص لها، يكشف عن كون الموضوعات المطروحة في هذا القسم لها أهميتها وتميّزها، بحيث تستتبع (تمييزاً) فنياً للتعبير عنها، متجسداً في الشكل القصصي المتميز عن النثر غير القصصي، لكن ما يهمّنا الآن هو تحديد صلته بالقسم الأول عن السورة، ثم ملاحظة أدواته الفنية، لذلك ينبغي أن نقف عند نصوصه وتلخيصها أولاً: قال تعالى له:

﴿وإذ قال ربك للملائكة:

إني جاعل في الأرض خليفة.

قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك؟

قال: إني أعلم ما «لاتعلمون» و«علم» آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال: انبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين؟!

قالوا: سبحانك لا «علم» لنا إلّا ما «علّمتنا»، إنك أنت العليم الحكيم.

قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم.

فلما أنبأهم بأسمائهم.

قال: ألم أقل لكم إني «أعلم» غيب السماوات والأرض، و«أعلم» ما تبدون وماكنتم تكتمون.

وإذ قلنا للملائكة:

اسجدوا لآدم.

فسجدوا إلّا إبليس أبىٰ واستكبر، وكان من الكافرين.

وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة، وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين.

فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه.

وقلنا: اهبطوا، بعضكم لبعض عدوّ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلىٰ حين.

فتلقىٰ آدم من ربّه كلمات فتاب عليه، إنه هو التوّاب الرحيم.

قلنا: اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم مني هدىً: فمن تبع هداي، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٩].

لنلاحظ أولاً: كيف تمّ الانتقال من القسم الأول من السورة، إلىٰ هذا القسم. لقد خُتِمَ القسم الأول بعبارة **﴿وهو بكل شيء عليم﴾**، وهذا يعني أن ظاهرة (العلم) ستأخذ مساحة خاصة من النص، وفعلاً: نجد أن (العلم) هو البطانة الفكرية التي يقوم عليها هيكل القصة التي تتحدث عن المولد البشري.

إنّ (المولد البشري) تجربة جديدة في حياة (الملائكة) التي أُسنِدت إليها إدارة الكون، لذلك تظل سمة (عدم العلم) هي الطابع الذي يغلّف سلوكهم،

وهذا ما دفعهم إلىٰ التساؤل الآتي ﴿قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء... الخ﴾، وعندما أجابهم الله تعالى ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾، ثم قدّم لهم اختباراً هو: أن يخبروه بالأسماء التي علّمها آدم، عندها أقرّوا بعدم العلم قائلين: ﴿لا علم لنا إلا ما علّمتنا﴾ وهذا ما يرتبط بالملائكة.

أمّا ما يرتبط بآدم، فإن (العلم) يظل هو الطابع الذي أودعه الله تعالى في شخصيته بحيث (علّمه) الأسماء كلها إلىٰ الدرجة التي تفوّق بها علىٰ الملائكة أنفسهم.

وأمّا التجربة البشرية، فإن (علم الله تعالى)، هو المسوّغ الوحيد الذي يكمن وراء حدوثها، وهذا ما أكدته القصة حينما قال تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وحينما قال: ﴿علّم آدم الأسماء كلها﴾ وحينما قال: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.

إذن، ظاهرة (العلم)، هي التي شكّلت عَصَب القصة بما تتضمنه من مواقف وأحداث وأبطال تستمد حركتها جميعاً من (العلم) الذي يقف وراء ذلك.

ما نستهدفه مما تقدّم هو أن نشير إلى أن ظاهرة (العلم) التي ختم النص بها القسم الأول من السورة ﴿وهو بكل شيءٍ عليم﴾، قد شكلت (رابطاً) فنياً بين القسم الأول من السورة وبين القسم الثاني الذي تحدث عن تجربة الميلاد البشري من خلال ظاهرة (العلم)، بالنحو الذي أوضحناه، مما يكشف ذلك عن واحدٍ من أسرار البناء الهندسي الذي تقوم عليه السورة الكريمة، إلا أنّ هذا المستوىٰ من البناء يظل جزءاً من التخطيط الهندسي لها، ممّا ينبغي ملاحظة خطوطه الأخرىٰ، ومنها: عمارة القصة الكريمة ذاتها.

لقد بدأت القصة بالحديث عن (خلافة الإنسان في الأرض) ﴿وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة﴾، ومن المعروف (في تقنية

القصة) أنّ عرض الأحداث أو المواقف في القصة إما أن يأخذ تسلسله الزمني أو يتم تقطيعه ـ أي (الزمن) ـ حسب ما تتطلّبه الفكرة التي يستهدف صاحبُ القصة إبرازها، حيث تستهلّ القصة بعرض الحدث أو الموقف الذي يحمل أهمية خاصة سواء أكان الاستهلال من بداية الحدث أو وسطه أو نهايته، لذلك نجد ـ في القصة التي نتحدث عنها ـ أنّ النص قد استهلها وفق تسلسلها الزمني وهو: (وجود خليفة في الأرض) علىٰ العكس من القصص الأخرىٰ التي وردت في سور القرآن الكريم حيث أن غالبيتها تبدأ من (وسط) الأحداث والمواقف وهو: حادثة السجود لآدم وموقف إبليس من ذلك. . . بينا نجد في هذه القصة أن الموقف بدأ عَرْضُه بحسب التسلسل الزمني (أنْ يُجعَل خليفة في الأرض، ثم موقف الملائكة منه، ثم السجود له. . . الخ)، وهذه (البداية) القصصية لها مسوّغها المتمثل في إبراز (علم الله تعالى) حيث أن الانتقال من القسم الأول من السورة إلى قسمها الثاني تطلّب وجود رابطة بينهما هي (العلم) ـ كما أوضحنا ـ لذلك بدأت القصة بإبراز (وجود الخليفة)، حيث أن هذه التجربة البشرية تنطوي علىٰ حكمة لا (يعلمها) إلاّ الله تعالى. ولذلك أيضاً نجد أنّ القسم الأول من القصة لم يتناول إلا ظاهرة (العلم) وعدمه: بدءً من موقف الملائكة (وهو عدم العلم) مروراً بتعليم آدم(ع) وانتهاءً بتعقيبه تعالى علىٰ أنه (يعلم) ما لا يعلمه الآخرون.

وهذا ما يرتبط بالقسم الأول من عمارة القصة. . .

أما قسمها الثاني، فقد تناول قضية السجود وموقف إبليس منه، ثم موقف آدم وزوجته، ثم هبوطهما إلى الأرض، ثم تجربة (الخلافة) ذاتها، حيث خُتِمت القصة بقوله تعالى: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ومن الواضح أن هذه (الخاتمة القصصية) قد ارتبطت عضوياً بـ(بداية) القصة،

بصفة أنّ البداية أشارت إلىٰ (خلافة الإنسان)، وهي خلافة قد تنجح الشخصية الآدمية في الاضطلاع بتحمل مسؤوليتها وقد تخفق في ذلك، لذلك فإن (نهاية الاختبار أو الامتحان) هو الذي يميّز هذه الشخصية عن تلك، وهذه (النهاية) تنسجم مع (نهاية) القصة، أي: نهاية وجود الخليفة مع نهاية القصة.

إذن، أمكننا الآن أن ندرك جانباً من أسرار العمارة القصصية من حيث (بدايتها ونهايتها) مما يكشف ذلك عن جانب آخر من الأسرار الفنية الكامنة وراء الهيكل الذي تقوم القصة عليه، أما ما يتصل بـ(أبطال القصة) وموقعهم من العمارة القصصية، فيلاحظ أن القصة بدأت بـ(تنكير) البطل المجسّد لتجربة الميلاد البشري وهو (الخليفة) ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ ثم أعلنت عن اسمه وعرّفته من خلال العبارة الآتية: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾، حيث جاء (تنكيره) متناسباً مع (الخليفة في الأرض) بصفة أن (الخليفة) لا ينحصر في شخص بل يشمل البشر جميعاً، ولذلك جاء بصفة (الإبهام أو التنكير)، لكن بما أن (الأصل) الذي ينتسب إليه البشر ينبغي أن (يتحدد ويعرّف)، لذلك جاء تعريفه بالاسم (آدم) يحمل مسوّغه الفني، فضلاً عن كونه (بطلاً) رئيساً للقصة يتحرك في فصُولها جميعاً، بدءً من خلقه ثم تعليمه الأسماء، ثم مطالبة الملائكة بأن يذكروا الأسماء التي علّمها آدم(ع)، ثم مطالبتهم بالسجود له، ثم رفض إبليس بالسجود له، ثم الأمر بالسكنىٰ في الجنة، ثم الأمر بعدم الاقتراب من الشجرة، ثم إزلال الشيطان للبطل، ثم هبوطه إلى الأرض... كل ذلك جاء مسوغاً لجعل البطل (معروفاً بالاسم) بعد أن (أبهمه) النص في بداية القصة.

أما شخصية (حواء) فقد أبهمها النص أيضاً، وعَرَضها في القسم الثالث من القصة وهو القسم الخاص بالسكنى في الجنة، حيث دخلت (بطلاً جديداً) في القصة فرضته طبيعة التجربة البشرية التي قدر لها أن تمارس الخطأ وأن

يترتب عليه تمرير الاختبار الإلهي أو الخلافة في الأرض، فكان لا بدّ من البطل الآخر الذي تتم من خلاله عملية (التناسل)، لاستمرارية التجربة البشرية التي تقوم أساساً علىٰ اتحاد كائنين: ذكر وأنثىٰ، وأما إبليس، فكان لا بدّ من (تعريفه) قبالة آدم(ع)، بصفته الطرف الآخر من الصراع الذي يحكم النفس البشرية: الخير والشر أو الهدىٰ والضلال **﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار... الخ﴾**.

وأما الأبطال الملائكيّون فقد «أبهمهم» النص، نظراً لأن المهمة التي أنيطت بهم والمواقف التي صدروا عنها هي مهمة ومواقف جماعية غير محددة في شخص، لذلك جاء (تنكيرهم) متناسباً مع طبيعة مهمتهم وموقفهم، كما هو واضح.

إذن، جاء رسم الأبطال (رئيسيّين وثانويين، فرديين وجماعيين، مبهمين ومحددين) متجانساً مع بناء الأحداث والمواقف التي يقوم عليها هيكل القصة.

* * *

والآن، إذا قُدر لنا أن نتبين طبيعة البناء الهندسي الذي قامت عليه القصة وصلتها بالقسم الأول، حينئذٍ يتعين علينا أن نتحدث عن القسم الثالث من السورة وتحديد الصلة العضوية بينه وبين القسم الثاني منها، أي: القصة.

وأدنىٰ تأمّل لنهاية القصة، يكشف لنا عن أن النص قد خَتَمها بقوله تعالى: **﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**.
وها هو النص في القسم الثالث يعرض لنا شريحة كبيرة من سلوك (الذين كفروا وكذبوا) بآيات الله تعالى متمثلةً في (المجتمع الإسرائيلي) حيث كان القسم الأول من السورة يعرض لطائفة (المنافقين)، وحيث يتمحض القسم الثالث منها للحديث عن الإسرائيليين، وهذا ما نعرض له في:

القسم الثالث

يظل هذا القسم من السورة أكبر الأقسام حجماً حتى أنه ليكاد يُشكّل ثلثي السورة الكريمة، وهذا يعني (من زاوية البناء الهندسي للنص) أنّ ضخامة السلوك المنحرف الذي يطبع الإسرائيليين، يظل متجانساً مع ضخامة الحديث الذي عَرَض لسلوكهم، بيد أن المهمّ هو ضخامة العمارة الفنية التي صيغ بها هذا القسم من السورة، حيث انتظمتها مجموعة من الموضوعات التي استهدفها النصُ خلال عرضه للسلوك الإسرائيلي، وحيث جاءت صياغتها منسحبةً علىٰ أقسام متنوعة من السورة، بالنحو الذي نبدأ بتوضيحه الآن:

لقد بدأ هذا القسم بالآية التالية:

﴿يا بني إسرائيل: اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، وأوفوا بعهدي، اوفِ بعهدكم، وإياي فارهبون﴾ [البقرة: ٤٠].

ثم خُتِم هذا القسم بالآية التالية:

﴿يا بني إسرائيل: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأني فضّلتكم علىٰ العالمين﴾ [البقرة: ١٢٢].

واضحٌ، أنّ هذا القسم عندما يبدأ بعبارة **﴿يا بني إسرائيل: اذكروا نعمتي... الخ﴾** وعندما ينتهي بنفس العبارة التي تطالب بتذكّر النعمة، فحينئذٍ نستكشف أننا أمام عمارة ضخمة بالغة الإحكام، بحيث تدور موضوعاتها علىٰ محور واحد هو: تذكر النعمة، لكن، إذا كانت عبارة **﴿يا بني إسرائيل: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾** قد بدأ بها هذا القسم من السورة وخُتِم بها أيضاً، إلا أن ما بَعدها قد دخله التغيير في العبارة، حيث عقّب النص في العبارة الأولىٰ بقوله تعالى: **﴿وأوفوا بعهدي، اوفِ بعهدكم، وإياى فارهبون﴾**، بينما عقّب في العبارة الختامية بقوله تعالى: **﴿وأنّي فضلتكم على العالمين﴾** والسرّ

الفنّي وراء هذا الاختلاف في التعقيب، أنّ النص عندما طَالبَ في بداية القسم بالوفاء بالعهد وبالخوف من الله تعالى، إنما عَرضَ لنا مفردات سلوكهم التي تجسّد عدم الوفاء وعدم الخوف، وعندما قال في الخاتمة (وأني فضلتكم علىٰ العالمين)، إنما قال ذلك، بعد أن عَرضَ سلسلة النعَم والمعطيات التي أغدقها الله تعالى علىٰ الإسرائيليين، حيث كفروا بالنعم والمعطيات المذكورة، كما سنوضح ذلك في حينه.

إذن، جاء توافق عبارتي البداية والنهاية: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وجاء تخالفهما في التعقيبين القائلين: ﴿وأوفوا بعهدي... الخ﴾ و﴿وأني فضّلتكم... الخ﴾، جاء كلٌّ من التوافق والتخالف محكوماً بطبيعة ما يفرضه سياق الحديث، من صياغةٍ خاصة تنعكس علىٰ عمارة النص بالنحو الذي أشرنا إليه.

والآن، لنقف عند الموضوعات التي طرحها هذا القسم لملاحظتها وملاحظة موقعها الهندسي من عمارة النص.

* * *

الموضوعات التي يتناولها هذا القسم الخاص ببني إسرائيل، تحوم علىٰ سلوك هذه الطائفة التي وصفها النص بسمَتي (الكفر) و(التكذيب) بآيات الله تعالى، تبعاً للخاتمة التي خُتِم بها القسم الثاني من السورة ﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، فبالرغم من أن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن قصة آدم(ع) وهبوطه إلى الأرض، واستتباع ذلك: ميلاد التجربة البشرية التي تنشطر إلى مؤمن ومنحرف، ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا... الخ﴾، أقول: بالرغم من أن (الكفر) و(التكذيب) هنا جاء في سياق عام يتناول جميع البشرية، إلا أن النص حينما يتجه بعد هذه الآية الختامية إلىٰ عرض سلوك

الإسرائيليين، حينئذ نستنتج فنياً بأن الإسرائيليين هم النموذج الواضح أو التجسيد الحيّ لسمتي (الكفر) و(التكذيب)، نفهم هذا من خلال معرفتنا أولاً بعمارة السورة الكريمة التي تخطّط للموضوعات الجديدة التي يطرحها القسم الثالث من السورة، حيث يركّز على صفتي (الكفر) و(التكذيب) اللذين يطبعان سلوك الإسرائيليين.

وهذا هو أحد أسرار البناء الفني في عمارة السورة الكريمة. وسنتبيّن ذلك بوضوح، حينما نتابع موضوعات هذا القسم، حيث يمكن تقسيمه إلىٰ موقفين، يتناول أولهما: جملةً من التوصيات التي طالب الله تعالى الإسرائيليين بأن يلتزموا بها، ويتناول ثانيهما: قصص بني إسرائيل بعامة.

ونبدأ الحديث عن:

الموقف الأول:

يتضمن هذا الموقف من السورة سبع آيات علىٰ النحو التالي:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإيّاي فارهبون.وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّاي فاتقون.ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون.وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين.أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون.واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلّا علىٰ الخاشعين.الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، وأنهم إليه راجعون﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٦].

إن هذا المقطع الذي يتضمن سبع آيات، يشكّل الشطر الأول من القسم الثالث من السورة، أما الشطر الثاني من القسم، فيتضمن (٧٥) آية وهذا التقسيم إلى شطرين لا تقارب بينهما من حيث الحجم (حيث ينشطر إلى (٧) و(٧٥) آية)، إلا أنّ ذلك يخضع لأسرار فنية سنتبيّنها لاحقاً.

ولعل أحد هذه الأسرار يتمثّل في أنّ الآيات السبع التي تضمّنها الموقف الأول، تطرح موضوعاتٍ (مُجملة) و(رئيسة)، لتأخذ تفصيلاتها وتفريعاتها في (الموقف الثاني) الذي يستغرق غالبية هذا القسم من السورة.

لقد طَالبَ النصُ الإسرائيليين بالوفاء بالعهد، وبالخوف من الله تعالى، وبالإيمان برسالة الإسلام التي بشرت بها توراتهم، وحذّرهم من الكفر بها، وطَالبَهم بالاتّقاء من الله تعالى، وعدم لبس الحق بالباطل، وعدم كتمانه، كما طالبهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وحذّرهم من مطالبتهم الناس بالبرّ ونسيان أنفسهم من هذه المطالبة، ثم طالَبهم بالاستعانة بالصوم أو الصبر وبالصلاة. . . الخ.

إن الصلاة والزكاة والصوم، والوفاء بالعهد، والخوف من الله تعالى. . . الخ، تظل موضوعات عامة يستهدف النصُ إبرازها إلىٰ القارىء حيث سبق إبراز بعضها في المقطع الأول من السورة عند عرضه لسمات (المتقين)، وقد كررها الآن، نظراً لأهميتها، حيث أوردها في سياق جديد، كما أن بعضها الآخر قد طرحه جديداً، ليستكمل بذلك تقديم الموضوعات بصورة تدريجية، أي: أن النص القرآني يتقدم في كلّ مقطع أو قسم جديد بطرح جملة من الموضوعات أو المبادىء العبادية.

الموقف الثاني:

يتضمن هذا الموقف (٧٥) آية تتحدث عن سلوك الإسرائيليين، حيث صدّرها بنفس العبارة التي استُهلّ بها الموقف الأول: **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأني فضلتكم علىٰ العالمين﴾** [البقرة: ٤٧].

والجديد في هذا التصدير هو عبارة **﴿وأني فضلتكم علىٰ العالمين﴾**، حيث تعني هذه العبارة أن النص سوف يعرض لنا سلسلة من النِعَم والمعطيات التي أغدقها الله تعالى عليهم، والمهم هو أن نحدد الموقع الهندسي لهذا

الموقف وصلته بالموقف الأول، حيث يمكن توضيحه علىٰ النحو التالي:

١ ـ لقد تصدّر كلّ من الموقفين بعبارة حوارية واحدة هي: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾، حيث يعني هذا التكرار أنّ النص يستهدف لفت النظر إلى أن الله تعالى أغدق عليهم نعماً ومعطيات ضخمة.

٢ ـ لقد طالبَ النصُّ في العبارة الأولىٰ بالوفاء بالعهد، بينما ذَكَر في العبارة الثانية بأنه تعالى فضّلهم علىٰ الآخرين، وهذا يعني أن كل موقفٍ سوف يطرح موضوعاتٍ تختلف بالضرورة عن الموضوعات التي يطرحها الموقف الآخر، لذلك، طرح الموقف الأول موضوعاتٍ تتصل بمبادىء مثل: الإيمان، الصلاة، الزكاة... الخ، انسجاماً مع العبارة التي تطالب بالوفاء بالعهد والخوف من الله تعالى، بينما طرح الموقفُ الثاني ـ كما سنرىٰ ـ موضوعات تتصل بسرد النِعَم وتمرّدهم عليها، انسجاماً مع العبارة التي تقول بأن الله تعالى قد فضّلهم على الآخرين من خلال حجم النعم الضخمة التي أغدقها عليهم.

٣ ـ سنرىٰ في نهاية هذا القسم من السورة أن عبارة ﴿يا بني إسرائيل: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم علىٰ العالمين﴾ قد خُتِم بها الموقف الثاني، أي أن العبارة المذكورة قد استُهِلّ بها في هذا الموقف، كما خُتم بها هذا الموقف أيضاً، مما يكشف ذلك عن أحد أسرار البناء الهندسي للنص، متمثلاً في تكراره في بداية الموقف وخاتمته من جانب، حيث أن (التكرار) للشيء يفصح عن أهميته، كما أنه ـ من جانب آخر ـ ينطوي على سرّ فنّي غير ما ذكرناه، هو: ضخامة الحجم الذي بلغه هذا الموقف، حيث أن عدد آياته البالغة (٧٥) آية، يتناسب مع حجم النعم والمعطيات التي سوف يسردها النص في هذا الموقف.

والآن بعد أن لحظنا جانباً من أسرار العمارة التي يقوم عليها هذا الجزء من السورة الكريمة، نبدأ بتفصيل الحديث عنها، حيث ينطوي هذا الجزء علىٰ

مقاطع متنوعة، يمكن عرضها علىٰ النحو التالي:

المقطع الأوّل:

يتضمن المقطع الأول (١٣) آية هي: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون. وإذ واعدنا موسىٰ أربعين ليلة، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون. وإذ آتينا موسىٰ الكتاب والفرقان لعلّكم تهتدون. وإذ قال موسىٰ لقومه: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلىٰ بارئكم، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتاب عليكم إنه هو التوّاب الرحيم. وإذ قلتم يا موسىٰ: لن نؤمن لك حتىٰ نرىٰ الله جهرةً، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون. وظللنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المنّ والسلوىٰ، كلوا من طيبات ما رزقناكم، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وإذ قلنا: ادخلوا هذه القرية، فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سُجّداً وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزلنا علىٰ الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون. وإذ استسقىٰ موسىٰ لقومه، فقلنا: اضرب بعصاك الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، قد علم كلّ أناسٍ مشربهم، كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين. وإذ قلتم: يا موسىٰ لن نصبر علىٰ طعام واحدٍ فادع لنا ربك يُخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، قال: أتستبدلون الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير! اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم، وضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا

يعتدون﴾ [البقرة: ٤٩ ـ ٦١].

إن هذا المقطع يتضمن عرضاً لبعض النِعَم التي ذكَّر بها النصُّ الإسرائيليين، من نحو: إنقاذهم من الفراعنة، ومن الغرق، والعفو عنهم بعد حادثة العجل، وإحيائهم بعد صعقهم نتيجة مطالبتهم برؤية الله تعالى، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المنّ والسلوىٰ عليهم، وتفجير الاثنتي عشرة عيناً.

لكن، خلال هذا التذكير بالنِعَم، تذكيرٌ بالانتقام أيضاً، مثل إنزال الرجز عليهم من السماء، ومثل الضرب عليهم بالمسكنة والذّل، وذلك حينما تمردوا على تعليمات الله تعالى عند دخولهم باب المدينة (مدينة القدس)، وعندما طالبوا استبدال الطعام الأدنىٰ بالذي هو خيرٌ لهم.

ومن الواضح أن التذكير بالانتقام مقابل التذكير بالنعم، ينطوي علىٰ وظيفة نفسية وفنية، حيث أن الجمع بين الترغيب والترهيب هو المعيار العام في إحداث التأثير علىٰ النفوس، مضافاً إلى أن المقاطع اللاحقة من السورة التي ترسم سلوك الإسرائيليين سوف تنعكس عليها هذه المستويات التي تجمع بين الثواب والعقاب، ومن ثم فإن لغة العقاب سوف تتبلور بصورة ملحوظة في هذه المقاطع اللاحقة، ما دمنا ندرك بأن التذكير بالنعم مقروناً بالانتقام، إنما يشكّل «تمهيداً» لما سوف يرسمه النص من السلوك السلبي الذي يطبع الشخصية الإسرائيلية وما يترتب عليه من العقاب كما سنرىٰ عند متابعتنا للأجزاء اللاحقة من السورة، وهذا هو أحد أسرار العمارة الفنية للنص القرآني الكريم.

المقطع الثّاني:

يتضمن هذا المقطع خمس آيات علىٰ هذا النحو: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارىٰ والصابئين مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا**

فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم تولّيتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين * ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت، فقلنا لهم: كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتقين﴾ [البقرة: ٦٢ ـ ٦٦].

هذا المقطع الجديد بالرغم من كونه امتداداً للمقطع السابق: من حيث انطواؤه علىٰ التذكير بالنعم والتذكير بالانتقام أيضاً، إلا أنه يتميز باستقلالية واضحة، نظراً للآية الأولىٰ التي تشير إلى أن المؤمنين وقسماً من اليهود والنصارىٰ والصابئة مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً لهم أجرهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فهذه الآية تعدّ فاصلاً فنياً بين المقطع السابق وهذا المقطع الذي نتحدث عنه، مما يجعل الأمر له استقلاليته كما قلنا.

كما أن انطواءه علىٰ موضوعين مهمّين فحسب، هما: أخذ الميثاق من الإسرائيليين ثم مسخهم قردةً، يجعل له استقلاليته أيضاً، ثم تتويج هذين الموضعين بمفهوم (الاتقاء) ـ وهو أحد المحاور العامة التي يقوم عليه هيكل سورة البقرة ـ يجعل له استقلالية أيضاً. والمهم، أن نوضِّح هذه الظواهر الثلاث: من حيث علاقتها العضوية بعمارة السورة الكريمة، فنقول:

أمّا الآية الكريمة التي قطعت سلسلة الحديث عن الإسرائيليين ثم عادت إلى الحديث عنهم ثانيةً، ففي تصوّرنا أنها تستهدف لفت النظر إلىٰ أن هناك استثناءً من القاعدة، حيث أن قسماً من الإسرائيليين مستثنون من السلوك السلبي الذي يطبع طائفتهم، مضافاً إلى الطائفتين الأُخريين: النصارىٰ والصابئة، بحيث يلحق هذا النفر المستثنىٰ، بطائفة الإسلاميين. ومن الواضح، أن النص القرآني ـ كما سنرىٰ ذلك لاحقاً ـ طالما يقطع سلسلة الحديث عن موضوع ما، ثم يعود إليه، مستهدفاً من ذلك لفت النظر إلى أهميته، إلا أن ذلك لا يتم إلا من خلال إيجاد وصلة فنيةً تربط بين الموضوع

الذي قُطعتْ سلسلته وبين الموضوع الطارىء، وهذا النمط من الصياغة الفنية نجده بوضوح في التجارب الأدبية المعاصرة، بخاصة في الأدب القصصي والمسرحي، حيث تستثمر هذه الطريقة الفنية لإدخال الموضوعات الثانوية التي يستهدف القاص أو المسرحي، إيصالها إلىٰ المتلقّي.

وأما الموضوعان اللذان استقل بهما هذا المقطع، ونعني بهما: أخذ الميثاق من الإسرائيليين ثم مسخهم قردة ، فإن أهميتهما التي جعلت منهما موضوعين مستقلّين، تتمثل:

أولاً: الإعلان عن أخذ الميثاق من الإسرائيليين بممارسة الطاعة، ثم مطالبتهم بالعمل بما أنزِل عليهم من التوراة، وتذكّر ما فيه من أجل «الاتّقاء»، أولئك جميعاً تشكّل جوهر العمل العبادي الذي تطالب به السماء، بخاصة أنه خُتم بظاهرة «الاتّقاء» التي تشكل ـ كما قلنا ـ أحد المحاور الفكرية للسورة الكريمة.

ولذلك: عندما تأخذ مثل هذه المفهومات شكلاً استقلالياً، أي: صياغتها في مقطع مستقل، تكون لها مسوغاتها الفنية كما هو واضح.

ثانياً: إن مسخ الإسرائيليين إلىٰ «قردة» بصفته أحد أشكال الانتقام منهم، يعدّ عقاباً متميّزاً له خطورته بالقياس إلىٰ أشكال العقاب الأخرىٰ التي مرّ ذكرها في مقطع أسبق (مثل: ضربت عليهم الذلة والمسكنة، و . . . الخ) وقد خُتِم أيضاً بظاهرة (الاتقاء)، وهذا النمط المتميز من العقاب، يفسّر لنا استقلاليته في مقطع خاص: كما هو واضح أيضاً.

والآن، عندما تبيّن لنا جانب من أسرار البناء الفنّي لهذا المقطع، سواء في استقلاليته أو في ربطه بهيكل السورة الفكري (ظاهرة الاتّقاء)، يحسن بنا أن ننتقل إلى (مقطع) جديد من الموضوعات التي تتناول قصص الإسرائيليين، وهو:

المقطع الثالث:

إن هذا المقطع يتضمن عنصراً قصصياً هو (قصة ذبح البقرة)، لكن قبل أن نتحدث عن هذا المقطع، ينبغي أن نعرض لعمارته الفنية: من حيث صلتها بالمقطع السابق، حيث لحظنا ـ في أقسام السورة الكريمة ـ أن النص القرآني عندما ينتقل من قسمٍ أو موقفٍ إلى آخر، فإنه (يمهّد) له بطريقة فنية تربط بين أقسام السورة، والتمهيد الذي نلحظه هنا، هو: إن مسخ الإسرائيليين إلى قردة يعني تعطيلاً لأهم جهاز بشري هو: جهاز الإدراك أو التفكير السليم لديهم، وهذا التعطيل لعملية التفكير السليم، سوف يجسّده النص القرآني في قصة جديدة «ذبح البقرة» حيث رافق هذا الذبح نمط خاص من السلوك الإسرائيلي، يلقي مزيداً من الضوء علىٰ سلسلة مواقفهم التي تتميز بالتمرد على أوامر السماء من جانب، ويكون هذا التمرد مصحوباً بعقلية عاطلة من أي تفكير سليم، من جانب آخر.

وهذا ما يمكننا ملاحظته بوضوح، عندما نبدأ الآن بدراسة القصة المشار إليها.

ولنقرأها أولاً:

﴿وإذ قال موسىٰ لقومه:

إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.

قالوا: أتتخذنا هزواً؟

قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

قالوا: ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي؟

قال: إنه يقول إنها بقرة، لا فارض، ولا بكر، عوان بين ذلك، فافعلوا ما تُؤمَرون.

قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟

قال: إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين.

قالوا: ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي؟ إن البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون.

قال: إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، مسلّمة، لا شية فيها.

قالوا: الآن جئت بالحق،

فذبحوها، وما كادوا يفعلون. وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها، والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا: أضربوه ببعضها. كذلك يحيي الله الموتىٰ ويريكم آياته لعلكم تعقلون ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوةً، وإنّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافلٍ عما تعملون﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٤].

تلخيص القصة:

تقول النصوص المفسّرة: إنّ إسرائيلياً قتل أحد أقربائه، وطرحه علىٰ طريق أحد الأسباط، ثم جاء يطلب دمه. وعندما جهل المعنيّون بأمره هوية القاتل، سألوا موسىٰ(ع) أن يكشف ذلك، فأمرهم بذبح بقرة. وقد خيّل إليهم أن موسىٰ يهزأ بهم، ولكنه نفى ذلك بطبيعة الحال، وعندها سألوه عن سنّها ولونها وصنفها، فوصَفها لهم موسىٰ بأنها متوسطة السن، شديدة الصفرة، تسرّ الناظر، ذات حيوية، لم يذلّلها العمل حرثاً وسقياً، بريئة من العيب. عند ذلك، نفذوا أمره بعد تردّد كبير. وكان الهدف من ذبح البقرة هو أن يُضرب القتيل ببعض الأجزاء الجسمية من البقرة، ليعود حيّاً بعد الموت فيخبر عن القاتل.

هذا هو ملخص القصة، ولكن ما يعنينا من ذلك، هو: بناؤها الفني

وصلتها بهيكل السورة الكريمة. .

بناؤها الفني والعضوي:

يُلاحظ أن القصة لم تسرد الحوادث والمواقف وفق تسلسلها الزمني، حيث أن الحوادث من حيث الزمن بدأت بعملية القتل كما هو واضح، ولكن النص جعلها في خاتمة القصة بقوله تعالى: ﴿**وإذ قتلتم نفساً. . . الخ**﴾، واستهلّ القصة من (وسطها) أي وسط الحوادث ـ وهي: الأمر بذبح البقرة ﴿**وإذ قال موسىٰ لقومه: إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة. . . الخ**). ثم ارتدت القصة إلى الوراء، فسردت بداية الحدث ﴿**وإذ قتلتم نفساً. .**﴾ وهذا النمط من العرض القصصي الذي يبدأ من «وسط» الحوادث ثم يرتدّ إلىٰ البداية ويجعلها «خاتمة» العرض، لا بدّ أن ينطوي علىٰ أسرار فنية تفسّر لنا سبب «الاستهلال» بذبح البقرة، وسبب «الاختتام» بحادثة قتل النفس. والسرّ الفني في ذلك هو جملة أمور، منها: أن البقر يرتبط بمحبّة اليهود لهذا الحيوان حيث عرفوا بعبادة العجل، ومنها: أن من أعراف اليهود أن يقدّموا قرباناً لممارساتهم، فجاء الاستهلال بذبح بقرة، يحمل مسوّغاته الفنية من حيث أنّ الأمر بذبحها يمسح عن أعماقهم ما تحمله من بقايا التقديس للعجل من جانب ويتوافق مع آرائهم في تقديس القربان من جانب آخر.

يترتّب علىٰ هذين المسوّغين، مسوّغ ثالث يرتبط بسلوك الإسرائيليين عامة حيث أن سورة البقرة تعنى ـ كما لحظنا وكما سنلحظ لاحقاً ـ بإبراز السلوك السلبي لهم، وفي مقدّمة ذلك: تمرّدهم علىٰ أوامر السماء أو تردّدهم فيها مع أن الأمر بذبح البقرة هو (أمر من السماء)، حينئذٍ فإنه سيكشف عن مدىٰ التمرّد أو التردد الذي يصحب سلوكهم حيال الأمر بالذبح، وبالفعل لحظنا مدىٰ التردد الذي طبع سلوكهم حيال موسىٰ، حيث رفضوا أولاً أن يستجيبوا لطلبه، قائلين ﴿**أتتخذنا هزواً؟**﴾ وهذا هو منتهىٰ التشكيك بموسىٰ:

مع أنهم هم الذين طلبوا منه أن يكشف هوية القاتل، أو لنقل: إنهم حاولوا التهرب من تنفيذ هذا الأمر، والتمرد علىٰ موسىٰ من خلال اتهامه بالسخرية منهم، يضاف إلى ذلك، أن نمط طلباتهم تتّسم بالرقاعة والتهافت والسطحية، فمرة يطالبونه بأن يدعو الله تعالى أن يبيّن لهم سنّها، ومرة يطالبونه أن يبيّن لونها، وثالثة يطالبونه بأن يبيّن لهم صفتها، ومع ذلك أوشكوا ألّا يستجيبوا لطلب موسىٰ، حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿وما كادوا يفعلون﴾، أي أوشكوا ألّا يذبحوا البقرة.

هذه المسوغات جميعاً تفسّر لنا سبب الاستهلال للقصة بحادثة ذبح البقرة وعدم عرضها وفقاً لتسلسلها الزماني.

وهذا أحد أسرار البناء الفني للقصة، ثم علاقتها بهيكل السورة التي تُعنىٰ بفضح السلوك الإسرائيلي.

أمّا السرّ الفنّي الكامن وراء اختتام القصة بحادثة القتل لأحد الإسرائيليين (مع أنها تشكل بداية الحدث من حيث التسلسل الزمني)، فيتمثل في التعقيب الذي ورد علىٰ حادثة القتل، حيث عقب النص علىٰ قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾، أي: اضربوا القتيل ببعض البقرة لكي يعود حياً ويخبر عن هوية القاتل، عقّب النص على ذلك الإحياء للقتيل، قائلاً: ﴿كذلك: يحيي الله الموتىٰ﴾. إن هذه العبارة تحتل أهمية هندسية كبيرة بالنسبة إلىٰ هيكل السورة الكريمة وهيكل القصة نفسها، فقد سبق أن لحظنا أن النص قد طرح في بدايات السورة، مفهوم (الإماتة والإحياء)، وهذا المفهوم يشكل (مع مفهوم آخر هو: الاتقاء) أهم المحاور الفكرية التي تدور عليها السورة الكريمة، وسنجد في قصص لاحقة مثل قصة تقطيع الطيور الأربعة وإحيائها، وقصة الذي أماته الله تعالى مائة عام ثم أحياه، وقصة الألوف الذين أماتهم الله تعالى وأحياهم، وغيرها من القصص، سنرىٰ أنها جميعاً تحوم علىٰ فكرة (الإماتة والإحياء) في

الدنيا، تمهيداً للاقتناع بإحياء الموتى في اليوم الآخر. لذلك، عندما تُختم قصة ذبح البقرة بقضية أو بمفهوم (الإماتة والإحياء)، فإن هذا الاختتام يكشف عن جملة من أسرار البناء الهندسي للسورة الكريمة، حيث يمهّد ـ من جانب ـ لفكرة (الإماتة والإحياء) في الأقسام اللاحقة من السورة، ويربط ـ من جانبٍ آخر ـ بين أول السورة ووسطها وخاتمتها، حيث نستكشف من هذا الربط بين أقسام السورة، مدىٰ تماسك بنائها الفني، ومدىٰ الإحكام العضوي الذي يربط بين موضوعاتها المختلفة.

* * *

التعليق او التعقيب القصصي:

والآن، بعد أن أوضحنا مستويات البناء الهندسي لهٰذه القصة وعلاقتها بالبناء العام لسورة البقرة، يحسن بنا أن نتابع الأجزاء اللاحقة من السورة الكريمة.

لكن، قبل أن نتابع ذلك، ينبغي أن نقف عند تعقيب النص علىٰ القصة المذكورة وما سبقها من أحداث الإسرائيليين. حيث يجسّد هذا التعقيب ربطاً فنياً جديداً بين القصة والمقاطع السابقة واللاحقة التي تتحدث عن الإسرائيليين.

التعليق وعنصر الصورة:

ويُلاحظ أن هذا التعقيب قد اعتمد أحد عناصر الفن وهو (الصورة) المتمثلة في واحدٍ من أضخم (التشبيهات) الفنية في القرآن الكريم، ونعني به التشبيه الذي يقرن بين قساوة الإسرائيليين وبين الحجارة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة، وإنّ من

الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار، وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماء، وإنّ منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾ [البقرة: ٧٤].

لقد أوضحت هذه الصورة أنّ قلوب الإسرائيليين تشبه الحجارة في قسوتها، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك، فأشارت إلىٰ أن قلوبهم أشدّ قسوة من الحجارة، ثم قدّمت دليلاً فنّياً على ذلك، فأوضحت أن الحجارة قد يتفجر منها الماء، وقد تشقّق فيخرج منها الماء، وقد تخشع من خشية الله تعالى، بينما قلب اليهودي لا تتفجر منه الرحمة، بل لا ينبع منه أدنىٰ الرحمة، فضلاً عن أنه لا يخشع البتة من خشية الله تعالى.

هذا هو ملخص (الصورة التشبيهية) المذكورة. بيد أن ما يهمنا منها هو: تركيبتها الفنية من جانب، وصلة ذلك بهيكل السورة الكريمة من جانب آخر.

أمّا تركيبتها الفنّية فتتمثل في كون هذه الصورة تنتسب إلى ما نسمّيه بالصورة الاستمرارية أو الكلية، أي: الصورة الكبيرة التي تتألف من صور جزئية تشكّل بمجموعها صورة موحّدة، فهناك خمس صور جزئية هي:

١ ـ قساوة اليهودي ومشابهتها للحجارة.

٢ ـ كون القساوة أشد من الحجارة.

٣ ـ كون الحجارة تتفجر منها الأنهار.

٤ ـ كون الحجارة يخرج منها الماء.

٥ ـ كون الحجارة تخشع من خشية الله تعالى.

وأهمية هذه الصور الخمس تتمثل في كونها تعتمد ما هو (حسيّ) من تجارب الحياة حتى تتعمق قناعة القارىء بحجم القسوة اليهودية، حيث أن انتخاب الحجر وكونه مألوفاً في خبرات الناس، يظل أمراً حسيّاً يدركه الجميع، وتتمثل الأهمية أيضاً في كون هذه الصورة تعتمد عنصر (الاستدلال) حيث استدلّت الصور الأخيرة الثلاث علىٰ مدىٰ قسوة اليهودي وكونه أشدّ من

الحجر، وتتمثل الأهمية الفنية ثالثاً في كون الصور قد اعتمدت علىٰ نمطين من التشبيه، وهما: التشبيه الأول الذي ساوىٰ بين القسوة والحجارة، والتشبيه الآخر الذي نسمّيه بـ(التشبيه المتفاوت) أي التشبيه الذي لا يساوي بين طرفي التشبيه، بل يجعل «المشبّه» أعلىٰ درجةً من (المشبه به) أي: يجعل (القساوة) أشد درجةً من (الحجارة).

ثم تتمثل الأهمية الفنية لهذه الصور رابعاً بكونها تتدرج بمشاعر القارىء حيث تبدأ الصورة الأولىٰ بتقريب القساوة عند اليهودي من خلال مقارنتها بالحجر، ثم تتصاعد بمشاعر القارىء وتتدرج بتصعيدها حينما تجعل قساوة اليهودي أشد من الحجارة لا أنها مساوية لها، وعندما تستدل على ذلك، تتصاعد بمشاعر القارىء تدريجاً أيضاً، فتوضح له من البدء أن الحجر قد تفجّر منه الأنهار كالصخور الجبلية التي تندفع منها سيول الماء، وهذا يعني أن الحجارة الجبلية ذات حجم كبير من العطاء لكونها تنفجر منها سيول الماء، ثم توضّح له أن قلب اليهودي الذي لا تتفجر منه الرحمة، لا يقتصر ذلك علىٰ هذا المقدار الذي يفتقده، بل أنه لا يملك حتىٰ المقدار القليل من الرحمة، وهذا ما تكفّلت به الصورة التي قالت (وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء) أي: هناك من الأحجار ما تتشقق فيخرج منها مقدار من الماء وهو النبع الأرضي، حيث أن النبع في الأرض بالقياس إلى سيول الماء التي يفجّرها الجبل، يعدّ أقلّ مقداراً كما هو واضح، وبهذا يكون النص قد تدرّج بمشاعر القارىء، فنقله من كون الحجارة (تتفجّر) مياهاً إلى كونها (تنبع) بالمياه، بعد ذلك، نجد أن الصورة الأخيرة وهي (كون الحجارة تخشع من خشية الله تعالى) قد اضطلعت بمهمة فنية ضخمة حينما هيّأت ذهن القارىء إلىٰ أن يربط بين قساوة القلب وبين جوهر السلوك العبادي عند الإنسان، ألا وهو: الخوف من الله تعالى، فأوضحت أن من الحجارة ما يخشع لله تعالى، تاركةً القارىء بأن يستوحي ويستخلص بأن قلب اليهودي لا يعرف الخشية من الله تعالى أبداً،

وهذا هو منتهىٰ القساوة التي تربط بين مَن لا يخشىٰ الله تعالى وبين من تنعدم لديه الرحمة.

وبهذه الصورة الختامية الأخيرة (أي: القلوب غير الخاشعة من خشية الله تعالى) يكون النص قد ربط بين سلوك الإسرائيليين الذين تقدّم ذكرهم في الأجزاء السابقة من السورة الكريمة، حيث عرضت لنا مواقفهم التي تمردوا من خلالها علىٰ أوامر موسىٰ(ع)، ومواقفهم التي رافقها التشكيك بتلكم الأوامر، فيما يكشف ذلك عن مدىٰ التوائهم في السلوك الشاذ، مما ترتّب عليه أن يغيب الحس الإنساني لديهم إلىٰ الدرجة التي أصبحت أعماقهم من خلالها عديمة الحس بحيث تصبح الحجارة أفضل إحساساً منها بمبادىء العطاء والخير.

إذن: جاءت هذه الصورة التشبيهية بمستوياتها المتقدمة رابطاً عضوياً بين هذا الجزء من السورة وبين الأجزاء السابقة منها.. تماماً بمثل ما جاء النص القصصي السابق، رابطاً عضوياً بين أجزاء السورة أيضاً، كل ما في الأمر أن كل عنصر فني يساهم في قسمٍ من عمليات الربط بين أجزاء السورة، حيث جاء العنصر القصصي رابطاً بين مفهومات (الإحياء والإماتة) و(الاتقاء) التي تشكل أحد محاور السورة الكريمة، وجاء العنصر الصوري رابطاً بين الموضوعات المرتبطة بسلوك الإسرائيليين الذين خُصص قسمٌ كبيرٌ من السورة للحديث عنها، بالنحو الذي لحظناه.

لكن، ينبغي أن نلاحظ أن هذا الربط الفني بين عنصر القصة والصورة وبين الأجزاء السابقة، لا ينحصر في عملية الربط بين موقف حاضر وموقف سابق، بل تنعكس عملية الربط علىٰ المواقف اللاحقة من السورة أيضاً، وهذا ما نبدأ بمتابعته في:

* * *

المقطع الرّابع:

يتضمن هذا المقطع تسعاً وعشرين آية، تبدأ بقوله تعالى: **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾**، وتنتهي بهذه الآية الكريمة **﴿ولو أنهم آمنوا واتّقوا لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون﴾** [البقرة: ٧٥ ـ ١٠٣]. حيث يمكننا تقسيمها إلىٰ شطرين: شطر يتحدث عن أسلوب اليهود من خلال نظرتهم لكلام الله تعالى عن توراتهم، وشطر يتحدث عن أسلوبهم من خلال نظرتهم لكلام الله تعالى عن القرآن نفسه، حيث يتلاعبون في كلا الكتابين: التوراة والقرآن بالألفاظ، فيحرّفون كلامه تعالى في توراتهم، ويشككون بكلام الله تعالى في القرآن.

البناء الهندسي:

يعنينا من هذا المقطع جانبان، أولهما: طريقة الانتقال من المقطع السابق الذي خُتِمَ بالحديث عن قساوة اليهود، إلىٰ هذا المقطع الجديد الذي بُدِئ بالحديث عن واحدٍ من أشكال السلوك القاسي لديهم، وهو: تحريفهم لكلام الله تعالى؛ ثانيهما: ملاحظة البناء الهندسي لهذا المقطع، من حيث موضوعاته التي خضعت لتخطيط فنيّ خاص.

١ ـ لقد تم الانتقال من المقطع السابق إلى المقطع الحالي، من خلال إيجاد رابطة عضوية بين موضوعات المقطع السابق التي انتهت إلى أنّ الإسرائيليين قد انعدم لديهم الحس الإنساني أو القيم الخيّرة إلىٰ درجة أن الحجارة يمكن أن تنبض بما هو خير دون أن يملك اليهود مثل هذا النبض بالخير... أقول: لقد تم الانتقال من هذا الموضوع إلىٰ المقطع الحالي الذي بدأ بمخاطبة المؤمنين، قائلاً: **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم**

يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾، فهذه الآية تستهدف الربط بين توقّعات الإسلاميين حيال اليهود وغيرهم بأن يعدّلوا من سلوكهم ويؤمنوا برسالة الإسلام، وبين سلوك اليهود الذي اضطلع المقطع السابق بتبيين مدىٰ التوائه الذي لا سبيل إلى إصلاحه. والمهم هو: أن النص عندما يعرض سلوك اليهود وسواهم إنما يستهدف منه لفت نظر الإسلاميين إلى أمثلة هذا السلوك، والاتعاظ به، والإفادة من التجارب السابقة من أجل أداء المهمة العبادية، لذلك، فإن المسوّغ الفني لهذا الربط بين سلوك اليهود وبين مخاطبة المؤمنين، هو: إن الهدف الرئيس لعرض سلوك اليهود هو: لفت نظر المؤمنين إلى ذلك، وأخذ العظة منه كما قلنا، مما يترتب عليه، أن يبدأ مقطع جديد في السورة الكريمة، يُخصّص لموضوعات أخرىٰ تتحدث عن سلوك اليهود أيضاً، ولكن في سلسلة جديدة من السلوك، مما تتطلب بناءاً فنياً خاصاً، يقوم علىٰ شطرين، تعامل اليهود مع التوراة، وتعاملهم مع القرآن.

٢ ـ إنّ البناء الهندسي للمقطع الجديد، يبدأ ـ كما قلنا ـ بمخاطبة المؤمنين بأن يصرفوا النظر عن إمكانية إصلاح اليهود، ولكي يعزز فيهم عنصر القناعة بهذا الأمر، نجده يبدأ بعرض سلسلة من مواقف اليهود الجديدة... وأهمية هذا النمط الجديد من عرض السلوك الإسرائيلي، هو: أن النص ـ من جانبٍ ـ يقسّم السلوك إلىٰ شرائح متنوعة، بحيث يضطلع كل مقطع بعرض شريحة منه، حتى يطرد الملل الذي يمكن أن يحسّه المتلقي لو عُرِض عليه السلوك اليهودي دفعةً واحدة، كما أنه ـ من جانب آخر ـ يتقدم النص في كل شريحة جديدة بعرض نمط خاص من السلوك يختلف من النمط السابق عليه. فمثلاً، لقد كان تركيز المقطع السابق منصباً علىٰ سرد النِعَم التي أغدقها الله تعالى علىٰ اليهود، أما في المقطع الجديد الذي نتحدث عنه الآن، فإن التركيز ينصبّ على الكفران بالنعم، مع ملاحظة أنه في الحالين جميعاً ثمة تذكير بالنعم وكفران اليهود بها، إلا أن «التغليب» لأحدهما على الآخر، هو الذي

يسم هذا المقطع أو ذاك، لذلك نجد أن ظاهرة الكفران بالنعم يتضخم عنصرها في المقطع الجديد، حيث تترتب علىٰ ذلك فارقية أخرىٰ بين المقطعين هي: إن المقطع الجديد يتكفل بعرض (الموقف) وليس (الأحداث) و(الوقائع)، لأن «المواقف» هي: تعبير عن الاستجابة الصادرة عنهم، متمثلةً ـ في الغالب ـ في سلوك فكري مثل تحريف كلام الله تعالى وسواه فيما سنعرض له لاحقاً، بينا لحظنا أن التذكير بالنعم في المقطع السابق قد اقترن بعرض (الحوادث) أو الوقائع المتمثلة في ظواهر مادية مثل: إنقاذهم من فرعون، وإغراقه، والتظليل بالغمام، وإنزال المنّ والسلوىٰ... الخ. والمهم بعد ذلك، أن نعرض لكيفية البناء الهندسي لهذه (المواقف) حيث يستهلها النص بظاهرة (تحريف كلام الله تعالى)، وهي: أشدّ المواقف انحرافاً والتواءاً: من حيث التصاقها بواقع الشخصية الإسرائيلية التي أوضح النص ـ في ختام المقطع السابق ـ مدىٰ جدبها وخلوّها من الخير.

يقول المقطع الجديد: ﴿... **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا، قالوا: آمنّا، وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ، قالوا: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليُحاجّوكم به عند ربكم، أفلا تعقلون * أو لا يعلمون أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون * ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٩].

هذه الجزئية من السلوك قد بدأها النص بالحديث عن التحريف لكلام الله تعالى، وختمها بالحديث عن التحريف أيضاً، بدأها بالقول (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه..). وخَتمها بالقول (فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله...)، بدأها بالإخبار عن كون

اليهود يحرّفون كلام الله تعالى، وختمها بالحديث عن الجزاء الأخروي الذي ينتظر هؤلاء المحرّفين.

إذن: البناء الهندسي لهذه الجزئية قد أُحكِم من خلال البداية والنهاية اللتين تصبّان في فكرة «التحريف لكلام الله تعالى». وأما «الوسط»، فقد تناول أسلوبهم في إخفاء عملية التحريف، حيث ذكر النص أنّ علماء اليهود كانوا ينكرون علىٰ بعض رجالهم الذين لم يحرّفوا كلام الله تعالى بقدر ما كانوا ينقلون للناس صفة محمد(ص) في التوراة، حيث أنكر علماؤهم علىٰ هذا البعض، قائلين: **﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به...؟﴾**، أي: كيف تنقلون إليهم الحقائق التي يلزمونكم بها!!...

بعد ذلك، يتّجه النص ـ في جزئية جديدة من سلوك اليهود ـ إلىٰ عرض تصوراتهم حيال اليوم الآخر، والحساب، حيث قالوا: **﴿لن تمسّنا النار إلّا أيّاماً معدودةً. قل: أتخذتم عند الله عهداً؟ فلن يخلف الله عهدَه، أم تقولون علىٰ الله ما لا تعلمون.بلىٰ من كَسَب سيّئةً وأحاطت به خطيئته، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** [البقرة: ٨٠ ـ ٨١].

إن عرض هذه النظرة الإسرائيلية عن كونهم لن يعذّبوا إلّا أياماً معدودةً، جاء متجانساً ـ من جانب ـ مع ذهنيتهم المتخلفة التي مرّت نماذجها علىٰ القارىء في مواقع سابقة من السورة، كما جاء ـ من جانب آخر ـ متجانساً مع فكرة (التحريف)، حيث أن تعذيبهم أياماً معدودة لا أساس له البتة، ولذلك سخر النص منهم حينما تساءل **﴿أتخذتم عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده، أم تقولون علىٰ الله ما لا تعلمون﴾**.

إذن: جاءت هذه الجزئية، مرتبطة فنياً بالجزئية السابقة (التحريف) ـ كما أوضحنا ـ كما أنها سوف ترتبط فنياً بجزئية لاحقة تتحدث عن الميثاق الذي أخذه الله تعالىٰ علىٰ الإسرائيليين، فالنص بعد أن نفىٰ أي (عهدٍ) من الله تعالى

بالنسبة إلى تعذيبهم أياماً معدودة، اتجه إلىٰ التذكير بـ «العهد» الذي أخذه عليهم، فقال تعالى:

﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل: لا تعبدون إلّا الله، وبالوالدين إحساناً وذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين، وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم تولّيتم إلّا قليلاً منكم و أنتم معرضون * و إذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارىٰ تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردّون إلى أشدّ العذاب، وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يُخفّف عنهم العذاب ولا هُم ينصرون * ولقد آتينا موسىٰ الكتاب وقفّينا من بعده بالرُسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيّدناه بروح القدس، أفكلّما جاءكم رسول بما لا تهوىٰ أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون﴾ [البقرة: ٨٣ ـ ٨٧].

هذه الجزئية تناولت جملة من العهود أو المواثيق التي أخذها الله تعالى على الإسرائيليين، من نحو الإيمان بالله تعالى، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإحسان للوالدين ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين، والتعامل مع الناس بالحسنىٰ، ثم تحدّث النصُ عن أحد المواثيق وجعله في حقلٍ مستقل هو: عدم سفك الدماء وما يرتبط به من التعامل العسكري حيث أشار النص إلى نقض الغالبية لهذه العهود، مختتماً هذا الحديث بكلامٍ عن ظاهرة مجانسة للتحريف أيضاً، ألا وهو قوله تعالى: **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يُردُّون إلىٰ أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون﴾**.

ما يعنينا من هذه الجزئية هو:

بناؤها الفني:

هذه الجزئية تخضع لتخطيط هندسي بالغ الجمال والإحكام. وقد لحظنا كيف أن النص قد انتقل من حديثه الساخر عن عدم وجود عهد أو ميثاق يقضي بتعذيب اليهود أياماً معدودة، إلى الحديث عن وجود عهد وميثاق يقضي بتوحيدهم لله تعالى، وبالإحسان للوالدين... الخ، وبهذا تم الربط العضوي بين هذه الجزئية والجزئية السابقة.

وأما البناء الهندسي للجزئية ذاتها، فقد تحدثت عن ميثاقين، أحدهما يتصل بممارسات عبادية واجتماعية (الصلاة، الزكاة، التعامل بالحسنىٰ مع الوالدين والأقرباء والفقراء ومطلق الناس)، والآخر يتصل بممارسات سياسية وعسكرية (عدم سفك الدم، عدم الإخراج من الديار..).

والمسوغ الفني لهذا الفصل بين الميثاقين، أو لنقل: تخصيص عدم سفك الدم وملحقاته في حقلٍ مستقل، هو: إعطاء الأهمية لهذا الميثاق الأخير، بصفته يرتبط بحياة الإنسان أي (عدم سفك الدم).

ويُلاحظ أن النص خلال طرحه لهذه الظواهر العبادية والاجتماعية والسياسية، قد ضمّنها مفهومات تشكّل الخيط العضوي الذي يربط بين أجزاء السورة الكريمة، حيث جاءت الإشارة إلى أن الإسرائيليين لم يلتزموا بالمواثيق، وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض الآخر، وأنهم استكبروا وكذبوا بعض الرسل وقتلوا البعض الآخر، وأنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإن الجزاء الأخروي ينتظرهم. هذه المفهومات تشكل عنصراً مشتركاً تتردد أصداؤه في مواقع سابقة من النص القرآني الكريم، حيث لحظنا في جزئية سابقة قضايا الكفران بالنعم، وبتحريف كلام الله تعالى، وباشترائهم بهذا التحريف ثمناً قليلاً، وبترتب العذاب علىٰ مثل هذا السلوك... كل هذه

الظواهر قد وجدت مكاناً لها في هذه الجزئية التي تتحدث عنها، حيث يُفصح مثل العنصر المشترك بينها وبين الجزئية التي نتحدث عنها، عن مدىٰ الإحكام الهندسي بين جزئيات النص القرآني الكريم.

ما تقدّم، يمثل الشطر الأول من المقطع القرآني الذي يتحدث عن سلوك اليهود، حيث تناول طريقة تعاملهم مع التوراة.

وأما الشطر الآخر من المقطع، فيتحدث عن أسلوب تعاملهم مع القرآن الكريم.

يقول النص: ﴿وقالوا: قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله علىٰ الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله علىٰ من يشاء من عباده، فباؤا بغضب علىٰ غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم، قل فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسىٰ بالبيّنات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا: سمعنا وعصينا، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين * قل: إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنّهم أحرص الناس علىٰ حياةٍ، ومن الذين أشركوا، يودّ أحدهم لو يُعمّر ألف سنة، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمّر، والله بصير بما يعملون * قل: من كان عدواً لجبريل فإنّه نزّله علىٰ قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرىٰ للمؤمنين* مَن كان عدوّاً لله

وملائكته ورسله وجبريـل وميكـــال فإن الله عدوّ للكافرين * ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلّا الفاسقون * أوَكلما عاهدوا عهداً، نبذه فريق منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون * ولما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم، نبذ فريقٌ من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون * واتّبعوا مما تتلوا الشياطين علىٰ ملك سليمان، وما كفر سليمان، ولكن الشياطين كفروا، يعلّمون الناس السحر وما أنزل علىٰ الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحدٍ حتّى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحدٍ إلّا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتّقوا، لمثوبة من عندالله خير، لو كانوا يعلمون﴾ [البقرة: ٨٨ ـ ١٠٣].

البناء الفني:

هذا النص يتوازن معمارياً مع سابقه من حيث تضمّنه أوّلاً: موضوعاً خاصاً هو (موقف اليهود من نزول القرآن) مقابل الموضوع الخاص للجزئية السابقة وهي (موقف اليهود من التوراة)، ومن حيث تضمنه ثانياً: موضوعات ثانوية تجيء في سياق الحديث عن ظاهرة (الكفران بالنعم)، حيث قلنا: إنّ المقطع الرابع من السورة ينصّ علىٰ طرح هذه الظاهرة، بما يواكبها من موضوعات تتصل بنمط عقلية اليهود، وبإيثارهم لمتاع الدنيا، وبما يترتب عليه من الجزاء الأخروي... الخ، وهذا ما نبدأ بتفصيل الحديث عنه من خلال الحقول الثلاثة الآتية التي تنتظم عمارة النص، وهي: ١ ـ الموضوع الخاص ٢ ـ الموضوع العام ٣ ـ الموضوعات الثانوية.

١ ـ أمّا ما يرتبط بالموضوع الخاص الذي طُرِح في هذه الجزئية، فيتمثل في ذهاب اليهود إلى أن قلوبهم (غلف) لا تعي ما يقوله القرآن الكريم.

٢ ـ وأمّا ما يرتبط بالموضوع العام الذي طُرح في هذه الجزئية، فيتمثل في كفرانهم بالنعمة التي أغدقها الله تعالى عليهم، وهي (رفع الجبل)، حيث قالوا عند تذكيرهم بهذه النعمة وأخذ الميثاق: (سمعنا وعصينا).

٣ ـ وأمّا ما يتصل بالموضوعات الثانوية التي طُرِحت في هذه الجزئية تتمثل في جملة من الموضوعات، منها: زعمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم، ومنها: اتباعهم ما تتلو الشياطين علىٰ ملك سليمان... الخ. مضافاً إلى ذلك: الموضوعات الأخرىٰ التي تشكل موضوعات مشتركة تتردد أصداؤها في أجزاء أخرىٰ من النص، مثل: اشترائهم الحياة الدنيا بالآخرة، والتلويح بالعذاب الذي ينتظرهم... الخ.

والمهم هو: ملاحظة البناء الهندسي لهذه الموضوعات (الخاصة، العامة، الثانوية) فيما بينها، ثم ملاحظة ارتباطها العضوي بالأجزاء الأخرىٰ من النص، فضلاً عن ملاحظة الأدوات الفنية التي وُظِّفت في البناء المذكور.

ولنتحدث وفق التسلسل الموضوعي لهذا البناء.

لقد بدأ النص بالحديث عن سلوك اليهود حيال القرآن الكريم (وهو الطابع الذي يسم هذا الشطر من المقطع القرآني مقابل الشطر الأول الذي تحدث عن سلوكهم حيال التوراة). لقد نقل النص حوارهم القائل (قلوبنا غلف) حيال القرآن الكريم، أي: أن قلوبهم بمثابة أغشية لا تنفذ إليها المعرفة، وهذه الصورة الفنية تنتسب إلى ما نسميه بـ(التمثيل) الذي هو: إحداث علاقة بين شيئين لا علاقة بينهما في الواقع، بحيث يكون أحدهما بمثابة تجسيد للآخر، فيكون (القلب) بمثابة (غشاء)، أي يتمثّل أو يتجسّد في كونه (غشاءً) لا يعي المعرفة. كما يمكن أن تكون هذه الصورة (رمزية) يشير (الغشاء) فيها إلىٰ دلالة خاصة هي (انعدام المعرفة)، وفي الحالين، فإن هذه الصورة التمثيلية أو الرمزية تعدّ من الصور المثيرة، المدهشة، الغنية

بالدلالات، بصفة أن (الغشاء) هو العيّنة الحسيّة التي تمنع من دخول أيّ شيء إليها، حيث ترمز بذلك إلىٰ انعدام الوعي نهائياً. طبيعياً، أن اليهود عندما صاغوا هذه الإجابة قصدوا منها السخرية والعناد، حيث بلغ بهم المرَضَ النفسي لدرجة أنهم غير مستعدين البتة للاستماع لأيّ كلام من النبيّ(ص)، والمهم هو: أن إبراز النص لهذا السلوك يستهدف لفت نظر القارىء إلى مدىٰ انغلاق الذهن الإسرائيلي حيث يتجانس هذا الانغلاق مع سائر مواقفهم التي عرضها سابقاً ومع المواقف التي يعرضها لاحقاً، وهذا ما يجسّد أحد أشكال البناء العضوي للنص، حيث ساهمت الصورة الفنية في تقديم السمة المضطربة التي تطبع سلوك الإسرائيليين.

بعد ذلك، تقدّم النص بعرض شريحة من سلوكهم المنغلق ذهنياً، ألا وهو: كفرانهم بالقرآن الكريم مع أنهم كانوا يستفتحون به علىٰ أعدائهم. فإذا كانوا يستنصرون بالقرآن قبل نزوله، فكيف ينكرونه بعد نزوله؟ أليس هذا تجسيداً واضحاً للانغلاق الذهني؟. هنا، ربط النص عضوياً بين هذا النمط من السلوك وبين الواقعة المتمثلة في اشترائهم الدنيا بالآخرة ﴿**بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله...**﴾ حيث لحظنا أن مفهوم (الاشتراء للدنيا بالآخرة) قد شكل عنصراً مشتركاً يتردد في كل جزئية من النص، فعندما تحدث النص في الشطر الأول الخاص بتحريف اليهود لكلام الله، علّق قائلاً ﴿**ليشتروا به ثمناً قليلاً**﴾، وعندما عرض في ذلك القسم أيضاً قضية إيمانهم ببعض الكتاب وكفرانهم بالبعض الآخرة علق قائلاً ﴿**أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة**﴾، وها هو الآن يعلق ـ في الجزئية التي نتحدث عنها ـ قائلاً ﴿**بئسما اشتروا به أنفسهم...**﴾.

إذن، ينبغي ألا تفوتنا هذه السمة البنائية التي تربط بين مختلف جزئيات النص، مضافاً إلى سمات ربطية أخرىٰ مثل التلويح بالجزاء الذي ينتظرهم،

حيث يتكرر هذا التلويح في جميع الجزئيات أيضاً، ومنها: تعليق النص علىٰ موقفهم السابق بقوله تعالى: ﴿فباؤوا بغضب علىٰ غضبٍ، وللكافرين عذاب مهين﴾، ومنها أيضاً (أي: عملية الربط بين مختلف جزئيات النص): إعادة النص لمواقف اليهود التي سبق عرضها في أجزاء متقدّمة، منها: الإشارة التي قتلهم الأنبياء، ومنها: الإشارة التي رفع الجبل، حيث كرّرها في هذه الجزئية التي نتحدث عنها مع أنها ذُكِرت من المقاطع الأولىٰ من النص، أي: المقاطع التي تناولت سرد النعم علىٰ الإسرائيليين. لذلك ينبغي أن نقف عند ظاهرة (التكرار)، لملاحظة وظيفته الفنية في بناء النص، وهي من أهم القضايا التي ترتبط بعملية البناء الهندسي للنص. فالمُلاحظ أن النص القرآني الكريم لا يكرر الموضوع إلا في إحدىٰ الحالات:

١ ـ أن يتكرر في سياق جديد . ٢ ـ أن يتكرّر من أجل كونه محطة توقّف تربط بين حدود كل مقطع جديد يُختَم به الموضوع. ٣ ـ أن يُفتح به ٤ ـ أن يكون مجرد تأكيد لأهمية الموضوع.

وحين ننظر إلى قضيتي (قتل الإسرائيليين لأنبيائهم) و(رفع الجبل وأخذ الميثاق) نجد أنهما قد وردا في سياق جديد يختلف عن السياق الذي وردا فيه في المقاطع السابقة... فبالنسبة إلىٰ (رفع الجبل) مثلاً جاء الآن في سياق (كفران اليهود بالنعم) حيث قالوا: ﴿سمعنا وعصينا﴾، بينما جاء في المقطع الأول في سياق (الحديث عن النعم) فهناك قال النص ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ وهذا هو تذكير بالنعم، ولكنه عندما كرّر هذا التذكير في الجزئية التي نتحدث عنها، قال ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا: سمعنا وعصينا...﴾ فهنا، جاء ذكر الطور والميثاق في صعيد الكفران بالنعم (وهو عصيانهم)، وهناك جاء ذكر الطور والميثاق في

صعيد التذكير بسلسلة طويلة من النعم، منها: رفع الجبل حيث طالبهم بالاتقاء.

وبالرغم من أن النص أشار إلى كفرانهم بالنعم أيضاً ﴿**ثم توليتم...**﴾، إلا أنه جاء هناك عرضياً، بينما جاء هنا بنحو ملحوظ، من خلال اعترافهم الوقح ﴿**قالوا سمعنا وعصينا**﴾.

إذن: جاء التكرار لهذه الظاهرة محكوماً ببناء هندسي بالغ الإحكام والجمالية. والأمر نفسه بالنسبة إلىٰ ظاهرة قتلهم الأنبياء.

فقد جاءت الإشارة إلىٰ قتلهم الأنبياء في المقطع الأول في سياق طلبهم استبدال الذي هو أدنىٰ من الطعام بالذي هو خيرٌ، أما في الجزئية التي نتحدث عنها فقد جاءت الإشارة إلىٰ قتلهم الأنبياء في سياق زعمهم الذاهب بأنهم يؤمنون بما جاء في التوراة ولا يؤمنون بما جاء في القرآن، حيث أجابهم النص قائلاً ﴿**فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾ بالتوراة؟ وإذن: جاء التكرار هنا مختلفاً عن السياق الذي وردت فيه الإشارة إلىٰ قتل الأنبياء.

بعد ذلك، عرض النص شريحة جديدة من سلوكهم المطبوع بسمة الانغلاق الذهني، وهو زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وهذا الزعم يتجانس فنياً مع زعمهم في جزئية سابقة بأنهم لن يعذّبوا إلّا أياماً معدودة، حيث يكشف مثل هذا التجانس، عن الربط العضوي بين أجزاء النص: من حيث التقابل بين المواقف التي لا يعرضها النص دفعة واحدةً بل يوزّعها فنياً علىٰ أجزاء متفرقة من النص، بالنحو الذي لحظناه.

ثم يتقدم النص بعرض شريحة أخرىٰ من سلوكهم المطبوع بسمة الانغلاق الذهني أيضاً، متمثلة في ذهابهم إلى جبرئيل (ع) عدوّ لهم.

وأخيراً تتقدم بعرض شريحة جديدة أخرىٰ من شرائح سلوكهم الذهني المنغلق، ألا وهو اتهامهم سليمان(ع) بالسحر وقيام ملكه علىٰ هذا السحر،

حيث تكفّل النص بالرد علىٰ هذا الاتهام، مستثمراً هذا الجانب ليقدّم موضوعاً ثانوياً يتصل بالسحر وفاعليته أو انعدامها مثل كونه عملاً شيطانياً يحاول الساحر من خلاله أن يفرّق بين الزوجين مؤكداً أنه عديم الفاعلية، حيث لا يصيب الإنسان شيء إلّا بإذن الله تعالى.

ثم ختم النص بهذه الجزئية قائلاً عن اليهود الذين تقدّم الحديث عنهم: **﴿ولو أنهم آمنوا واتّقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾**، حيث رَبَطَ النصُ بين هذا الختام وبين الموضوعات السابقة عليه من جانب، وبينه وبين أحد محاور سورة البقرة التي تؤكد مفهوم «الاتقاء» من جانب آخر، محققاً بهذا الربط: تلاحم أجزاء السورة ـ في أكثر من محور ـ بالنحو الذي لحظناه.

وبهذا الختام، ينتهي المقطع الرابع من النص القرآني الذي خُصِّصَ للحديث عن الإسرائيليين، ليواجهنا بالمقطع الأخير الذي ينتهي به هذا القسم من السورة الكريمة.

* * *

المقطع الخامس:

يتضمن هذا المقطع (٢٠) آية، تبدأ بتوجيه الخطاب إلىٰ المؤمنين علىٰ نحو ما لحظناه في المقطع السابق الذي بدأ أيضاً بتوجيه الخطاب إلىٰ المؤمنين، إلا أن الفارق بين المقطعين هو: إن المقطع السابق ورد في سياق خاص هو: لفت نظرهم إلىٰ سلوك الإسرائيليين من حيث صعوبة تعديل سلوكهم، أما المقطع الحالي الذي نتحدث عنه. فقد ورد في سياق جديد هو: تركيز الحديث عليهم بخاصة، حيث طالبهم بجملة من المبادىء الإسلامية التي ينبغي أن يلتزموا بها، وهذا ما تمت صياغته وفق بناء هندسي محكم يربط بين السلوك الإسرائيلي السلبي الذي عرضته الأجزاء المتقدمة من السورة وبين السلوك الإيجابي الذي ينبغي أن يلتزم المؤمنون به. ومعلوم، أن الربط بين

السلوكين في ختام هذا القسم المختص بسلوك الإسرائيليين، وجعل الختام خاصاً بمخاطبة المؤمنين يشكل تلاحماً عضوياً في بناء هذا القسم من السورة، فيما بدأ بالحديث المفصّل عن الإسرائيليين من خلال تذكيرهم بالنعم ثم من خلال كفرانهم بها، ثم تذكير المؤمنين بأن يقطعوا أملهم عن إصلاح الإسرائيليين، ثم مطالبة هؤلاء المؤمنين بالتزام المبادىء الإسلامية التي وقف اليهود منها سلبياً، أولئك جميعاً يجسّد الترابط العضوي بين الأجزاء التي تضمنها هذا القسم من السورة، حيث تمت عملية ربط محكمة بين عرض السلوك الإسرائيلي وبين السلوك الذي ينبغي أن يختطه المؤمنون.

ليس هذا فحسب، بل نجد أن إحكام البناء الهندسي للنص، قد تجسّد (من حيث الهيكل العام لهذا القسم من السورة) في صياغةٍ عضويةٍ بالغة الجمالية، حيث خُتِم هذا القسم بنفس الآية الكريمة التي بدىء بها القسم أيضاً، مع تغاير في النتيجة، فالبداية إلى استُهِلّ بها النص كانت على هذا النحو: **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإيايّ فارهبون﴾** [البقرة: ٤٠]، والنهاية التي خُتِم بها النص جاءت علىٰ هذا النحو: **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأني فضّلتكم علىٰ العالمين * واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم يُنصرون﴾** [البقرة: ١٢٢ ـ ١٢٣]. فمخاطبة بني إسرائيل، وتذكيرهم بالنعم جاءت في البداية والنهاية في صيغة واحدة، إلا أنّ النهاية ضمت صياغة أخرىٰ هي **﴿وأني فضّلتكم على العالمين﴾**، وهي نفس الصياغة التي وردت في (وسط القسم) الذي خُصِّصَ لسرد النعم وكفرانهم بها كما أُضيفت إليها صياغة أخرىٰ هي **﴿واتقوا يوماً. . . الخ﴾**.

وهذا النمط من التماثل والتغاير ينطوي على أسرار بنائية في غاية الإحكام والجمال، فأول القسم ووسطه وآخره، خضع لصياغة واحدة (الآيات

٤٠، ٤٧، ١٢٢) هي: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾، ووسط النص وآخره أضيفت إليهما صياغة جديدة هي ﴿وأني فضّلتكم على العالمين﴾ (الآيتان ٤٧، ١٢٢)، وأول النص أضيفت إليه صياغة خاصة هي: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ وآخر النص أضيفت إليه صياغة جديدة هي ﴿واتقوا. . . الخ﴾ حيث إن «الاتقاء» هو الحصيلة النهائية التي يستهدفها النص من وراء عرضه لسلوك الإسرائيليين، فضلاً عن أنه (أي الاتقاء) يشكل حلقة وصل بين جميع أجزاء السورة حيث لحظنا أنه (مضافاً إلى محور آخر هو عملية الإحياء والإماتة) يشكلان محورين يقوم عليهما هيكل السورة في الأقسام السابقة، وفي انعكاساتهما المفصّلة في الأجزاء اللاحقة.

إذن، هذه الخطوط المتقابلة من جانب والمتغايرة من جانب، تجسّد مدىٰ الإعجاز الفني الذي يحكم بناء النص، حيث سبق أن أوضحنا في بداية القسم ووسطه عن الأسرار الفنية لهذا البناء، كما ينبغي أن نشير الآن إلىٰ صلة الوسط بالنهاية، حيث يمكن القول بأن تماثل البداية والنهاية في الصياغة، إنما جاء ـ كما نحتمل فنياً ـ بسبب كونهما يعرضان لسلسلة من النعم والكفران بها، فاقتضىٰ ذلك أن يحصر هذا الموضوع بين عبارتين متماثلتين تشيران إلىٰ دلالة النعم وتفضيلهم بها، أما التغاير الحاصل بين البداية من جانب وبينها وبين الوسط والنهاية من جانب آخر، ونعني بها العبارة المضافة: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم، وإياي فارهبون﴾، فتتمثل ـ كما نحتمل فنياً أيضاً ـ في أن المطالبة بالوفاء، بالعهد، وبالرهبة من الله تعالى، من أن النص يستهدف لفت نظر القارىء إلى أن الإسرائيليين سوف لا يفون بالعهد ولا يرهبون الله تعالى، وهذا ما تكفل به الوسط والنهاية، حيث تم عرض النِعم وعرض المواقف التي جسّدت كفرانهم بتلكم النعم، . . . وحينئذٍ يتبين السرّ الفني لتماثل الوسط والنهاية في قضية التذكير بالنعم، ولتماثل البداية والوسط والنهاية في هذه القضية أيضاً، ثم في تغاير البداية بالنسبة للفقرة المضافة ﴿وأوفوا

بعهدي. . .﴾ الخ)، وفي تغاير النهاية بالنسبة إلىٰ فقرة ﴿واتقوا. . .﴾ حيث أوضحنا الآن جانباً من الأسرار الفنية لهذا التماثل والتغاير، ممّا يدفعنا إلىٰ التكرار ثانية بأن مثل هذا البناء الفني المدهش ينبغي أن يظل موضع اهتمام القارىء، ما دمنا ـ أساساً ـ نعنى بعمارة النص القرآني الكريم.

لكن، ينبغي أيضاً أن نعرض لعمارة المقطع النهائي من حيث جزئيات بنائه ذاته، مضافاً إلى صلته بعمارة المقاطع التي سبقته فيما انتهينا من الحديث عنها الآن.

* * *

ولنقرأ المقطع أولاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا: راعنا، وقولوا: انظرنا، واسمعوا وللكافرين عذابٌ أليم * ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم * ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله علىٰ كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير * أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِل موسىٰ من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل * ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله علىٰ كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير * وقالوا: لن يدخل الجنة إلّا من كان هوداً أو نصارىٰ تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلىٰ مَن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * وقالت اليهود: ليست النصارىٰ علىٰ شيء، وقالت النصارىٰ: ليست اليهود علىٰ شيء وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم

القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * ومَن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعىٰ في خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلّا خائفين لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم * ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله إن الله واسع عليم * وقالوا: اتخذ الله ولداً، سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون * بديع السماوات والأرض، وإذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وقال الذين لا يعلمون لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون * إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً، ولا تُسألُ عن أصحاب الجحيم * ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارىٰ حتى تتّبع ملّتهم، قل إن هدىٰ الله هو الهدىٰ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم، مالك من الله من وليّ ولا نصير * الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضلتكم علىٰ العالمين.واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها عدل، ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ [البقرة: ١٠٤ ـ ١٢٣].

بدأ هذا المقطع بمطالبة المؤمنين بالتزام آداب خاصة في المخاطبة ﴿لا تقولوا: راعنا، وقولوا: انظرنا، واسمعوا﴾، حيث تمّ الربط بين موضوع السلوك الإسرائيلي الذي عرضته المقاطع السابقة وبين السلوك الذي ينبغي أن يختطه المؤمنون لأنفسهم، ومن جملة هذا السلوك هو: آداب المخاطبة، حيث كان المسلمون يخاطبون النبيّ(ص) بعبارة (راعنا) التي تعني (استمع إلينا)، إلا أن اليهود ـ نظراً لسلسلة مواقفهم المنحرفة ـ قد حمّلوا هذه العبارة معاني قبيحة، فنهىٰ الله المسلمين استخدامها. وما يعنينا من هذا الموضوع وما يلحقه من موضوعات جديدة هو ملاحظة أن المقطع قد خضع بناؤه لهيكل هندسي تُطرح فيه موضوعات جديدة من خلال سياق خاص هو سلوك الإسرائيليين، ومن جملة الموضوعات: إشراك الطوائف المنحرفة الأخرىٰ

(مثل النصارى والمشركين)، في قائمة الانحراف، من نحو ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم...﴾ ومن نحو ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ ومن نحو ﴿وقالت اليهود: ليست النصارىٰ علىٰ شيء، وقالت النصارىٰ: ليست اليهود علىٰ شيء﴾ ومن نحو ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه...﴾ فهنا نلحظ أن النص قد طرح جملة من مواقف النصارىٰ والمشركين (مضافاً إلى اليهود) حيال القرآن والرسالة والمسلمين والمساجد والقبلة وكلها مواقف تتسم بالعدوان والذاتية وضحالة الذهن. فمن جملة مواقفهم العدوانية هو (الحسد)، ومن جملة مواقفهم الذاتية هي: تكفير كل طائفة منحرفة؛ طائفة أخرىٰ. ومن جملة مواقفهم الكاشفة عن ضحالة الذهن، هي: موقفهم من القبلة التي حُولت إلى الكعبة بعد أن كانت إلى المسجد الأقصىٰ، وهكذا. خلال ذلك، طالب النص المؤمنين بممارسة المبادىء الإسلامية مثل: الصلاة، الزكاة، العفو، الصفح... الخ.

والمهم هو: أن طرح مثل هذه الموضوعات قد تمّ ـ كما كررنا ـ من خلال مبنى هندسي يربط بين موضوع وآخر من خلال التوكؤ علىٰ سلوك اليهود من جانب، ثم ربطه بسلوك المنحرفين (يهوداً ونصارىٰ ومشركين) من جانب آخر، ففي معرض مطالبته المسلمين بألّا يستخدموا عبارة (راعنا) التي تكشف عن عداء اليهود، نجد النص قد أشرك كلاً من النصارىٰ والمشركين في ظاهرة عدائية للمسلمين هي (الحسد)، فقال مباشرة ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم...﴾ ثم طرح قضية (الخير) الذي لا يريده المنحرفون للمسلمين، متمثلةً في نسخ وترك بعض الظواهر (كتحويل القبلة مثلاً) قائلاً ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها، نأت بخير منها﴾. فإشارته إلى الخير، هنا، تمّت هندسياً من خلال آية سابقة تقول إن الكفار يحسدون المسلمين علىٰ (الخير) الذي نزل عليهم من الله، ثم تمت

هندسياً من خلال آيات لاحقة تتحدث عن هذا الخير (مثل تحويل القبلة) حيث تجيء الآيات اللاحقة لتجسّد مفهوم (الخير) الذي أشارت إليه الآية **﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها﴾** والذي كان موضع حسد المنحرفين الذين جسدتهم آية **﴿ما يود الذين كفروا. . .الخ﴾**، وهكذا نجد كيف أن النص قد انتقل من آية لأخرىٰ، حسب تخطيط هندسي يربط بين الموضوعات بالنحو الذي أوضحناه. والأمر كذلك، حينما نتابع سائر الأجزاء اللاحقة من المقطع، فقد علّق النص علىٰ (الخير) الذي أنزله الله تعالى علىٰ المسلمين قائلاً: **﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض. . .﴾**.

وبهذا يكون النص قد ربط بين قضية خاصة (هي الخير النازل علىٰ المسلمين) وبين قضية عامة تتصل بصفات الله تعالى وإبداعه، وبأن له ملك السماوات والأرض، حيث يستنتج القارىء بأنّ من ملكيته تعالى للسماوات والأرض هو: إنزال الخير علىٰ المسلمين. . . ثم ربط النص بين هذه المفهومات وبين جزئية جديدة من سلوك المنحرفين هي: **﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِل موسىٰ من قبل. .؟﴾**، فالصلة بين هذه الآية الجديدة وما سبقتها من الآيات تتمثل في التداعي الذهني الذي ينقل القارىء إلىٰ جملة محاور فكرية، منها: أن مَن ينسخ آية أو يتركها ويأتي بخير منها، من خلال قدرته علىٰ كل شيء؛ وإن مَنْ ملكيته تَسع السماوات والأرض، بمقدوره أن يفعل ما يشاء (مثل سؤال المشركين محمداً(ص) أن ينزل عليهم ظواهر إعجازية، كما سُئل موسىٰ من قبل الإسرائيليين)، إلا أنه تعالى لا يفعل إلاّ ما هو (خير). ومن جملة المحاور الفكرية: ربط سلوك الشرك المعاصر لرسالة الإسلام، بالسلوك الإسرائيلي الذي يشكّل موضوع هذا القسم من سورة البقرة، وبهذا الربط بين الحاضر والماضي، بين وحدة السلوك المنحرف، نتبيّن مدىٰ الإحكام الهندسي لهذا المقطع.

ولو تابعنا ما يتبقىٰ من المقطع للحظناه محكوماً بنفس الربط العضوي بين جزئياته المختلفة، حيث انتقل النص بعد ذلك إلىٰ تكرار الموضوع المرتبط بحسد المنحرفين للمؤمنين **﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق، فاعفوا و أصفحوا...﴾** إلا أن هذا التكرار ورد في سياق جديد كما ورد في صياغة جديدة، أما صياغته الجديدة فتتمثل أولاً في كونه قد حصر موضوع الحسد في طائفة الكتابيين بينما تجاوزه في السابق إلى المشركين أيضاً، وفي كونه قد نصّ علىٰ عبارة الحسد، هنا، بينا لم يذكرها سابقاً بل أشار إلىٰ أن المنحرفين لا يودون أن ينزل الخير علىٰ المسلمين، وأما السياق الجديد الذي ورد فيه فهو: مطالبة المؤمنين بالعفو والصفح عن هؤلاء الكتابيين حتى يأتي الله تعالى بأمره. . . وأدنىٰ تأمل لهذه الصياغات والسياقات الجديدة يكشف لنا عن أسرار فنية متنوعة، فقد أوضح ما أجمله سابقاً بالنسبة إلى المنحرفين الذين لم يودّوا أن ينزل الخير علىٰ المسلمين، أوضحه بأن الدافع إلى ذلك هو «الحسد»، فيكون بذلك قد طرح ظاهرة نفسية تتصل بأحد الدوافع المفضية إلى انحراف الإنسان عن مبادىء الله تعالى وهو «الحسد»، طرحها من خلال عنصر التكرار، كما طرح ظواهر نفسية إيجابية مثل (العفو والصفح) من خلال السياق الجديد للتكرار، وطرح بعد ذلك ـ في آية جديدة ـ ظواهر عبادية هي الصلاة والزكاة **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. . .﴾**، وهكذا نجد أن ظواهر عبادية ونفسية قد طُرِحت خلال هذا النمط من الصياغة التي تربط بين مختلف الموضوعات بالنحو الذي لحظناه.

وما دام النص قد طرح في هذا المقطع سلوك اليهود (ثم أضاف إليهم النصارىٰ والمشركين) واستثمار هذا الطرح في مطالبة المؤمنين بممارسة السلوك الخيّر، حينئذٍ واصل طرح مفردات جديدة من سلوك المنحرفين يهوداً ونصارىٰ ومشركين، فعرض لذهنية كل من اليهود والنصارىٰ القائلين بأنه لا

يدخل الجنة إلّا من كان هود أو نصارىٰ، ثم هكذا استثمر هذا الطرح ليلفت نظر المؤمنين إلى أنه ﴿بلىٰ مَن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، ومن الواضح أنّ صلة هذه الآية الأخيرة ﴿من أسلم. . .﴾ بالآية السابقة ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا مَن كان هوداً أو نصارىٰ. .﴾ أن النص أوضح بأن من أسلم لله تعالى هو المرشح للدخول إلى الجنة وليس اليهود أو النصارىٰ. ولكي يدلّل النص علىٰ سخف التصور اليهودي والنصراني، عرض لنا تعليل هاتين الطائفتين لموقفهما الذاهب إلىٰ أن الجنة لأحدهما فحسب، فقال علىٰ لسانهما ﴿وقالت اليهود ليست النصارىٰ علىٰ شيء، وقالت النصارىٰ ليست اليهود علىٰ شيء. . .﴾ ثم ألحق بهما كل الطوائف المطبوعة بسمة الجهل: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم. . .﴾.

هنا ينبغي أن نقف عند الفقرة الأخيرة لنلحظ موقعها الهندسي المحكم في هذا المقطع، ونعني بها: الطائفة التي لا علم لها ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ فهؤلاء الذين لا يعلمون، يجسّدون كلّ طائفة منحرفة عن الإسلام، ولذلك خصص لها أكثر من مكانٍ في هذا المقطع، فأشار إلىٰ (المشركين) أولاً، وركزّ علىٰ أحد أنماط سلوكهم المتمثل في منعهم المسلمين من أن يذكروا الله تعالى في المساجد، وهنا استثمر النص قضية المساجد ومَنع الذكر فيها، فَطَرح موضوعاً جديداً هو ﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله. . .﴾ أي: أن ذكر الله تعالى لا ينحصر في مكان محدد بل أينما يتجه الإنسان فثم وجه الله تعالى.

ويقول بعض المفسرين بأنّ الآية المذكورة ﴿ولله المشرق والمغرب. . .﴾ ترتبط بقضية أخرىٰ هي أن اليهود أنكروا تحويل القبلة إلىٰ الكعبة فتكون رداً علىٰ اليهود، وبالرغم من احتمال هذا التفسير، إلا أن السياق

العضوي للمقطع الذي نتحدث عنه (وهذه هي إحدىٰ مهمات البناء العماري للنص) يفرض ما ذكرناه وهو قضية ذكر الله تعالى. وهذا لا يمنع من أن تكون الآية ذات بُعدٍ إيحائي معبّر بحيث تحتمل كل الوجوه التي ذكرناها وذكرها المفسرون، وهذا من نحو الذهاب إلى أنها نازلة في صلاة التطوّع أو في حالة الالتباس في معرفة القبلة... الخ، فضلاً عن أنها تتصل بذكر الله مطلقاً، اتساقاً مع الآية السابقة عليها، والآيات اللاحقة بها أيضاً، حيث ذكر النص بعدها، جانباً آخر من سلوك المشركين ﴿وقالوا: اتخذ الله ولداً...﴾.

فإذا ضممنا هذه الآية التي تتحدث عن المشركين إلى الآية الأولىٰ التي تحدثت عنهم أيضاً، حينئذٍ نستخلص بأن الآية التي توسطتهما لا بدّ أن ترتبط عضوياً بهما مضافاً إلى إمكان ترشحها بدلالات أخرىٰ تتصل بصلاة التطوع ونحوها، أي بسلوك المشركين الذين مهدّ لهم النص في آية ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾، حيث يقدّم النص شريحة جديدة من سلوك (الذين لا يعلمون) عبر الآية القائلة ﴿وقال الذين لا يعلمون: لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾.

هنا ينبغي أن نقف عند بُعدٍ جديد من أسرار البناء الفنيّ لهذا المقطع. لقد سبق أن قلنا: إنّ لفقرة ﴿قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ موقعاً عضوياً ينعكس على الأجزاء اللاحقة من المقطع، وها هو الجزء الجديد من المقطع يعرض شريحة جديدة عن سلوك (الذين لا يعلمون) وهو: اقتراحهم السخيف بأن يكلّمهم الله تعالى أو يقدم لهم ظاهرة إعجازية، وكما ربط النص بين قول اليهود بأن النصارىٰ ليسوا علىٰ شيء وقول النصارىٰ بأن اليهود ليسوا علىٰ شيء، وبين سواهما من الطوائف الذين قالوا مثل قولهم ووصفهم بأنهم لا يعلمون، كذلك ربط النص هنا بين هؤلاء الذين لا يعلمون (وهم ممن اقترح الرؤية والظواهر الإعجازية) وبين مَن سبقهم، أي: أن النص قد اختط بناء

هندسياً متقابلاً بين أهل الكتاب وبين الذين لا يعلمون، فشبه الكتابيين في المرة الأولى بمن لا يعلم، ثم شبه مَن لا يعلم بالكتابيين، وبهذا التقابل بينهما حقق النص إعجازًا فنيّاً مدهشاً، كما هو واضح.

أخيراً، ختم المقطع حديثه عن المنحرفين في جميع طوائفهم بالتركيز علىٰ أهل الكتاب، ثم بالإسرائيليين خاصة فأشار إلى أن هاتين الطائفتين لا أمل في إصلاحهما **﴿ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارىٰ حتى تتبع ملتهم. . .﴾** إلّا فئة فهم **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾**، ثم أردف حديثه عن الكتابيين بالحديث عن اليهود، وخَتَم به المقطع قائلاً **﴿يا بني إسرائيل: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم. . .﴾** الخ، حيث أوضحنا ـ في مقدمة حديثنا عن المقطع ـ الصلة العضوية المحكمة بين هذا الختام وبين كل من بداية ووسط هذا القسم الخاص عن الإسرائيليين، فيما لا حاجة إلى تكرار الحديث عنه.

القسم الرابع

هذا القسم من سورة البقرة، يبدأ بالحديث عن شخصية إبراهيم(ع) حيث يستغرق (٤١) آية، تُستهل بقوله تعالى **﴿وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربّه بكلمات، فأتمهنّ، قال: إني جاعلك للناس إماماً، قال: ومن ذرّيتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾** [البقرة: ١٢٤]. وعندما يستهلّ هذا القسم بالحديث عن إبراهيم(ع)، من حيث ابتلاؤه بكلمات من ربه، ومن حيث جعله إماماً، ومن حيث عدم صلاحية الإمامة للظالم. أقول: حينما يُستهلّ هذا القسم من السورة بهذه الموضوعات، حينئذٍ نتوقع (من زاوية البناء الهندسي للنص) أن ينصبّ الحديث على الموضوعات المشار إليها، وأن تجيء الموضوعات الأخرىٰ موظفةً لإنارة الموضوع الرئيس. لكن، في الآن نفسه ينبغي (ونحن نتحدث

عن البناء الهندسي للنص) أن نتبين صلة هذا القسم من السورة بالأقسام السابقة عليه، وبالأقسام اللاحقة به، حتى نستكمل بذلك معالجة البناء الهندسي في مستوياته الجزئية والكليّة.

إن تخصيص هذا القسم بشخصية إبراهيم(ع)، يعني أن النص يمنح هذه الشخصية أهمية خاصة. وإذا كان آدم(ع) يجسّد أول شخصيّة يتحدث عنها النص في القسم التالي من السورة، فإن إبراهيم(ع) يجسّد الشخصية المكمّلة لما قبلها في هذا القسم من السورة. لقد كان آدم(ع) يجسّد شخصية تعلن عن المولد البشري وقد تلقّىٰ من ربه كلماتٍ ترتّب عليها الهبوط إلى الأرض، وجعله وذريته خلائف في الأرض. وها هو إبراهيم(ع) يكمّل مهمة آدم(ع) ليعلن عن مبادىء الخلافة التي خُصّ بها إلى يوم القيامة وهي (مبادىء الحنيفية) التي أقرتها جميع الشرائع التي أتت بعدها وخُتِمت بالإسلام. وهذه الخصوصية لإبراهيم(ع) تفسّر لنا واحداً من الأسرار الفنية التي جعلت النص يخصص له حقلاً مستقلاً في سورة البقرة. لكن، لِنَر التفصيلات البنائية لهذا القسم وصلتها بالأقسام السابقة من السورة.

هناك أولاً صلة فنية بين آدم وإبراهيم.

١ ـ قال تعالى عن آدم **﴿أني جاعل في الأرض خليفة﴾** [البقرة: ٣٠].

وقال تعالى عن إبراهيم **﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾** [البقرة: ١٢٤].

٢ ـ قال تعالى عن آدم **﴿فتلقّىٰ آدم من ربه كلمات﴾** [البقرة: ٣٧].

وقال تعالى عن إبراهيم **﴿وإذا ابتلىٰ إبراهيم ربّه بكلمات﴾** [البقرة: ١٢٤].

(الخلافة) هي مطلق العمل العبادي للإنسان، وأمّا (الإمامة) فهي ممارسة المهمة الاجتماعية للخلافة أو هي الوجه الاجتماعي لها، وكان

إبراهيم ـ كما تقول النصوص المفسرة ـ أول الأنبياء الذين مارسوا عملاً سياسياً وعبادياً وأخلاقياً في صعيد المؤسسة الرسمية، بالنحو الذي اكتسب به من خلاله سمة (الحنيفية).

وأمّا (الكلمات) التي تلقاها إبراهيم(ع) فإن النصوص المفسرة تشير إلى أنها نفس الكلمات التي تلقّاها آدم(ع). وهذا يعني أن الصلة بين آدم وإبراهيم (من حيث البناء الهندسي) من الوثاقة بمكان، حيث أن «الخلافة والإمامة» تلتقيان في ما هو عام وخاص من الممارسة العبادية، وحيث أن الكلمات التي تلقاها كلّ منهما متماثلة، مع ملاحظة أن النصوص المفسرة تُخضع هذه الكلمات إلىٰ أكثر من دلالة، حيث تشير من جانبٍ إلى عنصر مشترك هو: التوسل بأهل البيت عليهم السلام، وتشير من جانب آخر إلىٰ عنصر خاص بكل منهما، حيث يختصّ إبراهيم بمبادىء الحنيفية التي سنعرض لها لاحقاً.

المهم، أنّ النص بعد أن يربط ـ بنحو غير مباشر كما رأينا ـ بين آدم وإبراهيم، يبدأ بعد ذلك فيربط بين القسم السابق من السورة وهو: الحديث عن أهل الكتاب وبين موقفهم من شخصية إبراهيم. لكن النص قبل ذلك يخصّص موضوعاً محدداً لشخصية إبراهيم(ع) وهو: الموضوع المرتبط ببناء الكعبة، علماً بأن النصوص المفسرة تشير إلىٰ أن آدم(ع) خبر تجربة الكعبة بشكل أو بآخر وبأن إبراهيم(ع) ـ بعد حادثة الطوفان ـ بدأ ببنائها بالنحو الذي تشير إليه الآيات الآتية: **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىٰ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود﴾** [البقرة: ١٢٥]. **﴿ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾** [البقرة: ١٢٩].

إذن، موضوع الكعبة يظلّ مرتبطاً عضوياً بشخصيتي آدم وإبراهيم من

جانب، كما أنه من جانب آخر يختص بشخصية إبراهيم التي منحها النص أهمية خاصة، بحيث ربطها بموضوع (الحج) الذي يعدّ ممارسة عبادية ضخمة في مختلف العصور. هنا ـ في سياق الحديث عن الكعبة والحج ومكة ـ طرح النص موضوعين هما: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة﴾ [البقرة: ١٢٨] و﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك . . . الخ﴾ هذان الموضوعان يحتلان موقعاً هندسياً مهماً من حيث علاقته بالأجزاء السابقة واللاحقة من النص، فقد سبق أن رأينا كيف أن النص قد تحدث في القسم الثالث من السورة عن إشارة التوراة إلىٰ نبيّ الإسلام وكيفية تحريف اليهود وسواهم من الكتابيين لهذه الحقيقة، وها هو النص يشير إلىٰ دعاء إبراهيم بأن يبعث الله تعالى رسولاً يتلو علىٰ الناس آياته، وهذه الإشارة لها أهميتها الفنية من عدة جوانب، فهي ـ من جانب ـ تؤكد بأن التبشير برسالة الإسلام جاء في الرسالات السابقة علىٰ رسالتي موسىٰ وعيسى عليهما السلام، كما أنها ـ من جانب آخر ـ سوف تترك انعكاساتها علىٰ مواقف جديدة لليهود أو النصارىٰ، حيث ستزعم كل طائفة منهما أن إبراهيم وذريته كانوا هوداً أو نصارىٰ. . . و. . .

إذن: هذا القسم المختص بالحديث عن شخصية إبراهيم(ع)، يظل مرتبطاً عضوياً بالأقسام السابقة واللاحقة من السورة الكريمة. لذلك يجدر بنا أن نتابع تفصيلات هذا القسم لنتبين المزيد من خطوط البناء الهندسي للنص.

يقول النص: ﴿ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربّه أسلم، قال أسلمت لربّ العالمين * ووصّىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم

وإسماعيل وإسحاق إلْهاً واحداً ونحن له مسلمون * تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٤].

واضح من هذه النصوص أنها تركّز على مفهومين هما: الإسلام أو الاستسلام لله تعالى، ثم التأكيد علىٰ شخوص إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب... وهذان الموضوعان يرتبطان بموقف الكتابيين من رسالة محمد(ص). أما الإسلام أو الاستسلام فقد تكرر في جملة مواقع **(إذ قال له ربه: أسلم) (قال: أسلمتُ) (فلا تموتن إلّا و أنتم مسلمون) (و نحن له مسلمون).** كذلك، الحديث عن إبراهيم ويعقوب وهما من أجداد الكتابيين يتكرر بنحو ملحوظ من نحو **﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ ﴿ووصّىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾﴿إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه﴾ ﴿قالوا نعبد إلْهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ألهاً واحداً...﴾**.

هذا التكرار للإسلام وللشخصيات المذكورة يحمل دلالة فنيّة مكثفة تنعكس ـ كما قلنا ـ علىٰ مواقف الكتابيّين من رسالة الإسلام، حيث سيطالبهم النص بالإسلام أو الاستسلام، وحيث يطالبهم بأن يؤمنوا بما نزل علىٰ أسلافهم من قبل إبراهيم ويعقوب وسواهما، مضافاً إلى أنه سيكرّر مقولة الكتابيين الذين رأيناهم «في القسم السابق من السورة» يزعمون بأن الحق في ملّتهم دون سواها، حيث يستثمر النص هذه المقولة ليطالبهم بالإسلام وبالإيمان بمواقف أجدادهم، ولنقرأ:

﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارىٰ تهتدوا قل: بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قولوا: آمنا بالله وما أُنزِل إلينا وما أُنزِل إلىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أُوتي النبيون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٦]. القارىء لا يحتاج إلىٰ أدنىٰ تأملٍ حتى يدرك مدىٰ الترابط

العضوي بين هذه الآيات وبين سابقتها وبين جميع هذه الآيات وبين الأقسام السابقة من السورة وبينهما وبين الأقسام اللاحقة أيضاً، حيث تتنامىٰ المواقف ويفضي بعضها إلى بعض ويكون سابقها سبباً للاحقها، ولاحقها مسبّباً عن سابقها، كل ذلك من خلال خطوطٍ بنائية مدهشة بالغة الإحكام والإمتاع، خطوط تتلاقىٰ علىٰ نحو ما تتلاقىٰ من خلاله مختلف الجداول التي تصبّ في النهاية في رافد واحد، خطوط تربط بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبين علاقة الكتابيين بهم، خطوط تربط بين هؤلاء وبين موسىٰ وعيسىٰ، خطوط تربط بين أولئك وهؤلاء وبين رسالة محمد(ص)، خطوط تربط حتىٰ بين أول السورة التي وصفت المؤمنين بأنّهم يؤمنون بما أنزل علىٰ من قبلهم، وبين هذا القسم من السورة، خطوط تربط حتىٰ بين التركيز علىٰ بعض الشخصيات «مثل يعقوب الذي أبرزته وقد وصىٰ بنيه هو وإبراهيم، ثم أبرزته وقد انفرد عن موته بالتوصية» وبين التركيز علىٰ اليهود الذين تربطهم علاقة خاصّة بيعقوب.

وهكذا نجد أنّ التواصل والتلاحم بين أجزاء المقطع الواحد، وبينه وبين الأقسام السابقة عليه واللاحقة به، واضحاً بالنحو الذي لحظناه، وبالنحو الذي سيتّضح أكثر حينما نتابع هذا القسم من السورة، فيما يطرح مواقف جديدة للكتابيين ويربطها أيضاً بالشخصيات المذكورة إبراهيم، إسحاق، إسماعيل، يعقوب... الخ، ولنقرأ: **﴿أم تقولون: إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارىٰ، قل: أأنتم أعلم أم الله؟ ومَنْ أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾** [البقرة: ١٤٠]. مرة أخرىٰ، لا تحتاج إلى التعقيب علىٰ هذه الآية التي ربطت بين أهم سلوك ملتوٍ صدر عنه الكتابيون (وهو: كتمانهم للحق، حيث تكفل القسم الثالث من السورة بمعالجة هذا الجانب) وبين موقفهم حيال إبراهيم و..و..الخ.

أخيراً، ينبغي ألّا نغفل عن أحد الخطوط البنائية العامة لهذا القسم الذي طرح أولاً مفهومات الاستسلام أو الإسلام بالنسبة لشخصيات الأجداد وإبراهيم. . الخ، وطرح ثانياً مواقف الكتابيين حيال ذلك ومطالبتهم بأن يقتدوا بالأجداد المشار إليهم، حيث فصّلَ بين هذين الطرحين بالآية التالية التي كررها مرتين لتكون فاصلاً فنياً بين المقطعين، والآية المتكررة هي: **﴿تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون﴾** [البقرة: ١٣٤]. ومن الواضح، أن تركيز هذه الآية علىٰ أن كل أمّة تتحمل مسؤولية سلوكها، وجعل هذا المفهوم رابطة بين موضوعين أو طرحين، يفصح عن سرّ فنيّ مدهش وممتع هو: إن النص ما دام يربط بين الحاضر والماضي، (حاضر الكتابيين ونظرتهم إلى ماضي الأجداد) وبين سلوك الأجداد الذي حصره النص في الاستسلام لرب العالمين، حينئذٍ فلا بدّ ـ من الزاوية الفنية ـ أن تُجعَل فاصلة بين العهدين الماضي والحاضر، متمثلة في الآية المتقدمة التي تؤكد بأن كل أمة (ماضية وحاضرة) تتحمل مسؤولية سلوكها. على أن الدهشة الفنية في هذه الفاصلة تتمثل في التجانس بين الماضي والحاضر وبين انتخاب آية تتحدث عن الماضي والحاضر أيضاً ولكن من خلال طرح مفهوم مهمّ هو: تحمّل كل أمّة لمسؤوليتها، حيث لا يشفع للكتابيين أن يتمسكوا بماضي الأجداد (مع أنهم قد أخطأوا في تصوراتهم حيال الأجداد) بقدر ما ينبغي أن يتمسكوا بالحاضر وهو: رسالة الإسلام. ونتجاوز هذا الطرح المتصل بمفهوم الاستسلام أو الإسلام لربّ العالمين وصلته بالأجداد: إبراهيم ويعقوب. . . الخ، لنواجه (في هذا القسم من السورة) طرحاً جديداً آخر يرتبط أيضاً بسلوك الكتابيين، وهو موضوع (القبلة)، حيث سبق أن طُرِح هذا الموضوع في القسم السابق من السورة، وها هو يتكرر الآن من جديد، لكن عبر سياق جديد، سياق الحديث عن إبراهيم والكعبة وسواهما من الموضوعات التي انتظمت هذا القسم من السورة، إذ أن التجانس بين الكعبة وبين القبلة إليها من الوضوح

بمكان. وهذا يعني أن تكرار الحديث عن القبلة قد جاء أولاً في سياق جديد، وجاء ثانياً بمثابة رابط عضويّ بين أقسام السورة، وجاء ثالثاً بمثابة المزيد من الكشف والفضح لسلوك الكتابيين، ولنقرأ:

﴿سيقول السفهاء من الناس: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم * وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنتَ عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب علىٰ عقبيه وإن كانت لكبيرة إلّا علىٰ الذين هدىٰ الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم * قد نرىٰ تقلّب وجهك في السماء فلنولّينّك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره، وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون * ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آيةٍ ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن اتّبعت أهواءَهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإنّ فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين * ولكلٍ وجهةٌ هو مولّيها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله علىٰ كل شيءٍ قدير * ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحقُّ من ربك وما الله بغافل عما تعملون * ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره لئلّا يكون للناس عليكم حجة إلّا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون * كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٤٢ ـ ١٥٢].

بهذا المقطع يُختم القسم الرابع من سورة البقرة، حيث تمّ التركيز فيه علىٰ موضوع (القبلة) بصفتها مظهراً لأهم تعامل عبادي مباشر مع الله تعالى، ألا وهو الصلاة، ثم ربط النص بين موضوع القبلة وبين الكتابيين الذين يشكلون محوراً فكرياً مشتركاً بين هذا المقطع وغيره من مقاطع السورة الكريمة، وانتهىٰ من ذلك إلى طرح الرسالة الإسلامية (وهي الهدف الفكري للنص) متمثلة في الآية القائلة ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة**﴾. هنا ينبغي ألا نغفل عن هذه الآية التي خُتِم بها المقطع وبين بداية المقطع التي تحدثت عن إبراهيم(ع) ودعائه بأن يبعث الله تعالى للناس رسولاً: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة**﴾ إن هذه العبارات (تتكرر) بنفس الصياغة في أول القسم على لسان إبراهيم وفي آخر القسم من قبل الله تعالى في مخاطبته للمؤمنين، حيث يكشف مثل هذا التكرار في مستهل القسم وآخره وهو تكرار الإرسال لنبيّ يتلو آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة، عن مدىٰ تلاحم وتماسك أجزاء النص بالنحو الذي أوضحناه.

لكن، ينبغي أن نشير إلى أن هذا القسم من السورة حيث ختم بالحديث عن رسالة الإسلام، قد عقبت عليه آية تقول:

﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾، ولهذا التعقيب أو الختام دلالته العضوية التي تشكل رابطاً فنياً بين القسم من السورة وبين القسم الجديد الذي نتحدث عنه الآن:

* * *

القسم الخامس

لقد خُتِم القسم السابق من السورة بالآية التي تقول: ﴿**فاذكروني**

أذكركم، واشكروا لي ولا تكفرون﴾. وقد جاء هذا الختام تعقيباً علىٰ رسالة محمد(ص) فيما خاطب الله تعالى المؤمنين بأنه قد بعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وطالب في سياق ذلك بأن (يذكر) المؤمنون (الله تعالى) ليذكرهم أيضاً، وطالبهم بالشكر له تعالى وبعدم الكفران. هذه المطالبة ستجد أصداءها في القسم الجديد من السورة الكريمة، حيث يقدّم لهم النص نماذج من السلوك الذي ينبغي أن يختطه المؤمنون، بحيث تجسّد هذه النماذج من السلوك مصداقاً للذكر والشكر وعدم الكفران. ولنقرأ:

المقطع الأول:

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلُونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنّا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [البقرة: ١٥٣ ـ ١٥٧].

وقد انتخب النص في هذا المقطع جملةً من الممارسات العبادية التي تنطوي علىٰ أهمية كبيرة، وفي مقدمتها: (الصبر)، ومن الواضح أن الصبر أحد جوهر السلوك البشري الذي يقوم على «تأجيل الشهوات»، ما دام الإنسان أساساً يتحرك وفق صراع بين الخير والشر أو بين العقل والشهوة، بحيث يعتبر «الصبر» هو الفعل الذي يكبح جماح الشر أو الشهوة، لذلك ركّز المقطع علىٰ «الصبر» من خلال تقديمه على سائر الممارسات، ثم من خلال تكرار الحديث عنه ثلاث مرات **﴿استعينوا بالصبر﴾** **﴿إن الله مع الصابرين﴾** **﴿وبشّر الصابرين﴾**. أما (الصلاة) فلا نحتاج إلىٰ التعقيب علىٰ أهمّيتها ما دامت عموداً

لكل الممارسات العبادية (وقد مهّد لها النص في مواقع سابقة: من خلال القبلة كما لحظنا). فضلاً عن أنها (طاعة) تتطلب الصبر أيضاً، لأن الصبر علىٰ نمطين: صبر علىٰ مصارعة الشهوة وصبر علىٰ ممارسة الطاعة. ويُلاحَظ أن النص قد انتخب بعد ذلك مفردات من السلوك الذي يجسّد قمة الصبر، مثل: الاستشهاد في سبيل الله تعالى، ومثل النقص في الأنفس والأموال والثمرات، فهذه حاجات أو دوافع تعدّ في القمة من سلّم الحاجات مثل: الحاجة إلى الحياة، الحاجة إلى الأمن، الحاجة إلى الطعام، الحاجة إلى المال. وحينئذٍ يكون الصبر حيالها ـ أي في حالة عدم إشباعها ـ تجسيداً للسلوك المطلوب عبادياً.

ويلاحظ أن النص قد ألحق بهذه الممارسات المصحوبة بالصبر، ممارسة عبادية تتصل بأحد مناسك الحج ألا وهو السعي بين الصفا والمروة، **﴿إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما، ومن تطوّع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾** [البقرة: ١٥٨]. ترىٰ: ما هو الموقع العضوي لهذه الممارسة الفرعية لأحد مناسك الحج؟ ينبغي ألا نغفل أولاً أن القسم الرابع من السورة قد تكفل ببيان بعض مناسك الحج مثل الطواف وصلاة الطواف. وعندما يطرح النص ـ في القسم الخامس من السورة ـ منسكاً آخر هو: (السعي)، حينئذ يكون قد استكمل أهم عناصر الحج المشتركة بينه وبين العمرة، حيث يظل الطواف وصلاته والسعي عناصر مشتركة بين العمرة والحج. طبيعياً، إن طرح الموضوعات بنحو متناثر يتوزّع بين أجزاء النص، يظل واحداً من أبرز معالم البناء الفني، وهو ظاهرة فنية توفّر عليها النص القرآني ـ كما كررنا، مثلما اهتدىٰ إلى أهميتها أدباء الأرض المعاصرون في أعمالهم الروائية والمسرحية والشعرية. بيد أن المهم هو ملاحظة السياق العضوي لمثل هذا الطرح، ونحن حين نتأمل ظاهرة (السعي) في هذا المقطع نجدها قد وردت في سياق التأكيد علىٰ مفهوم «الصبر» حيث يجيء (السعي)

بالقياس إلى الطواف وركعتيه عملاً أشدّ جهداً منهما كما هو واضح، بخاصّة أن النص قد أردف المطالبة بالسعي الواجب، المطالبة بالسعي المندوب مما يتطلب مزيداً من الجهد، ومن ثم مزيداً من الصبر علىٰ الطاعة.

ويُلاحظ أن النص عقّب علىٰ هذه المطالبة بالسعي قائلاً (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم)، بمعنىٰ أنه تعالى يثمّن هذا العمل المصحوب بالجهد وبالصبر، وهذا التثمين الذي هو «شكر» من الله تعالى يظل ربطاً عضوياً بين نهاية القسم الرابع من السورة القائل ﴿**أذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾ وبين هذا القسم من السورة حيث يجيء الشكر (مقابلاً) لعبارة ﴿**اذكروني أذكركم**﴾، وها هو تعالى (يذكر) عبده من خلال التثمين، من خلال الشكر له مقابل ذكر العبد وشكره لله تعالى.

المقطع الثاني:

بعذ عرض النص لجانب من الممارسات العبادية، يتّجه إلىٰ عرض جوانب أخرىٰ: لكن من خلال العرض للسلوك السلبي المضادّ لمفهومات (الذكر) و(الشكر) و(عدم الكفران) وهي المفهومات التي تكفّل القسم الخامس من السورة ببيانها، حيث قلنا أن الآية التي ختم بها القسم الرابع من السورة تشكّل (تمهيداً) عضوياً لما يطرح لاحقاً، مضافاً إلى كونها (ختاماً) للقسم المشار إليه بالنحو الذي أوضحناه في حينه ونعني بها آية ﴿**اذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾... إذن: لنستعرض الموضوعات المطروحة في المقطع الجديد:

﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدىٰ من بعد ما بينّاه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلّا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم**

العذاب ولا هم يُنظرون﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٢].

المُلاحظ أن هذا المقطع ركّز علىٰ ظاهرة (كتمان الحق) ـ وهي ظاهرة سبق أن طرحها النص في أكثر من موقع، منها: عند حديثه عن الإسرائيليين في القسم الثالث من السورة، ومنها: عند حديثه عن الكتابيين وموقفهم من إبراهيم(ع) فيما طالب ببعث رسول يتلو علىٰ الناس آيات الله تعالى ويعلّمهم الكتاب والحكمة مطلقاً في القسم الرابع من السورة، وها هو يطرحها في القسم الخامس: تأكيداً منه تعالى علىٰ خطورة كتمان الحقائق التي بشّرت بها الكتب السابقة أو الأنبياء السابقون: إبراهيم، موسىٰ، عيسى... ومن الطبيعي أن يجيء التكرار لهذه الظاهرة ـ في كل موقع ـ متناسباً مع سياق الموضوعات المطروحة فيه، حيث لحظنا أن كتمان الحق جاء مرةً في سياق عرض سلسلة السلوك الإسرائيلي، وأخرىٰ في سياق الحديث عن إبراهيم(ع)، وها هو يجيء الآن في سياق الذكر والشكر وعدم الكفران **﴿اذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾** حيث تكفّل المقطع الذي نتحدث عنه ببيان موارد عدم الذكر والشكر والكفران، وحيث شدّد النص من خلاله علىٰ فئة المشركين، بعد أن كانت الأقسام السابقة تركز على فئتي الإسرائيليين والمسيحيين... وبهذا يكون النص قد ربط من جانبٍ بين أقسام السورة التي تتحدث عن ظاهرة خاصة هي (كتمان الحق)، ويربط من جانب آخر بين فئات الكفار إسرائيليين ونصارىٰ ومشركين، فيما يبدأ هذا المقطع الذي نتحدث عنه بعرض جانب جديد من سلوكهم، بعد أن يمهّد له بالحديث عن التوحيد وقدرات الله تعالى الإبداعية:

﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم * إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات

لقوم يعقلون * ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشدّ حباً لله، ولو يرىٰ الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنَّ القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب * إذ تبرأ الذين اتبِعوا من الذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتّبعوا لو أن لنا كرَّة فنتبرّأ منهم كما تبرّأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار * يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيّباً ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون * وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون * ومَثَلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون * يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إيّاه تعبدون * إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ به لغير الله فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم * إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلّا النار ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدىٰ والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم علىٰ النار * ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد * ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكنّ البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتىٰ المال علىٰ حبه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتىٰ الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [البقرة: ١٦٣ ـ ١٧٧].

إن هذا المقطع ينطوي على أسرار بنائية مدهشة وممتعة كل الدهشة والإمتاع، إنّه يُحكم بين أقسام السورة وموضوعاتها بنحو معجز، ويصوغ

خطوطاً هندسية تتقابل فيما بينها بنحو يثير الدهشة والإمتاع كما قلنا، مضافاً إلى أنه قد اعتمد عنصر «الصورة الفنية» في بلورة الموضوعات، مما أضفىٰ جماليةً جديدة علىٰ النص، فيما نبدأ الآن بتفصيل الحديث عن هذه المستويات من الصياغة الفنية للمقطع.

١ ـ جاء هذا القسم من السورة خاصاً بمخاطبة المؤمنين.

٢ ـ جاء هذا القسم مركزاً علىٰ المفهومات (الذكر والشكر وعدم الكفران).

٣ ـ جاء المقطع الذي نتحدث عنه رابطاً بين موضوعات القسم الخامس وبين الأقسام السابقة واللاحقة أيضاً.

٤ ـ جاء الطرح الجديد للموضوعات وفق نسق هندسي يجمع بين مخاطبة المؤمنين (بصفتهم موضوعاً لهذا المقطع) وبين قطع سلسلة هذا الموضوع بعرض شرائح من سلوك الكافرين: كتابيين ومشركين، بحيث جاء هذا الجمع بين المخاطبة للمؤمنين وبين عرض السلوك للكافرين، وفق نسق هندسي ممتع علىٰ النحو التالي:

ـ التناوب بينهما: أي تجيء آية أو آيتان تخاطب المؤمنين، ثم تجيء مثلها في عرض السلوك المنحرف، وهكذا يتكرر هذا النسق عدة مرات بحيث يشكل بناءً عمارياً تتقابل خطوطه علىٰ النسق المذكور.

ـ التناوب بين الضمائر: وقد واكب هذا التقابل أو التوازي بين الخطوط تقابل بين ضميري (المخاطبة) و(الغائب)، بحيث جاء كل حديث عن المؤمنين بصيغة (المخاطب)، وكل حديث عن المنحرفين بصيغة الغائب، علىٰ هذا النحو:

ـ مخاطبة المؤمنين: وإلٰهكم إلٰه واحد. . . . الخ. ـ ضمير المخاطب

يا أيها الناس: كلوا حلالاً. . . الخ. ـ ضمير المخاطب

يا أيها الذين آمنوا: كلوا مما. . . الخ.   ـ ضمير المخاطب

ـ **عرض سلوك المنحرفين:**

ومن الناس من يتخذ من دون الله. . . الخ.   ـ ضمير الغائب

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . . . الخ.   ـ ضمير الغائب

إن الذين يكتمون ما أنزل الله. . . الخ.   ـ ضمير الغائب

ولعل المسوّغ الفني لهذا التنوع في الضمائر، فضلاً عن كونه مائزاً بين فئتين: مؤمنة ومنحرفة. يتمثل في أن هذا المقطع أو هذا القسم مخصص أساساً للتركيز على المؤمنين مقابل ما لحظناه في القسم الخاص بالإسرائيليين مثلاً حيث جاءت صيغ الحديث عنهم يغلب عليها طابع (المخاطبة) أيضاً، مضافاً إلى أن الحديث عن المنحرفين ما دام ثانوياً من جانب وما دام حديثاً عن غائبين لا يوجه الخطاب إليهم من جانب آخر، يتطلب صيغة (الغائب)، وبملاحظة أمثلة هذه المسوغات يمكننا أن نتبيّن جملة من أسرار البناء المذكور.

لكن، يُلاحظ أيضاً أن الآية الأخيرة في المقطع قد جاءت بضمير المخاطب مع أنها تتحدث عن الكتابيين وتحدثت عن الطاعات بضمير الغائب، أي على عكس ما سبق: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب، و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيّين... الخ**﴾، فما هو السرّ الفنّي في ذلك؟ الذي نحتمله فنياً، إن موضوع القبلة الذي احتلّ مساحة كبيرة في القسم الرابع من السورة ﴿**ما ولّاهم عن قبلتهم**﴾ ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها**﴾ ﴿**فلنولينك قبلة ترضاها**﴾ ﴿**ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم**﴾ ﴿**فولّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ ﴿**وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره**﴾ الخ، هذه الآيات التي تكرر فيها موضوع القبلة عشر مرات في مقطع واحد، تحمل سرّاً فنيّاً دون أدنى شك. إنها تؤكد أهمية القبلة من جانب، ولكنها

تناقش الكتابيين في مجادلاتهم التي هي إلى الشكل أقرب منها إلىٰ المضمون، حيث وصفهم النص بكونهم «سفهاء» لا يفقهون الجوهر بقدر ما يتمسكون بالقشر حيث تساءلوا عن المسلمين قائلين: ﴿ما ولّاهم عن قبلتهم﴾ أي أن عملية (التحويل) من المسجد الأقصىٰ إلى المسجد الحرام هي التي استأثرت باهتمام السفهاء وليس القبلة بما هي توجّه إلى الله تعالى، وهذا هو عين السفاهة التي وَصَفهم بها النص. وبما أن النص (في عملية إحكام البناء الهندسي) يصل بين أقسام السورة في كل قسم جديد منها، حينئذٍ وصَل بين موضوع القبلة في القسم الرابع وبين موضوعها في القسم الخامس الذي خُتِم بها، ليكون خيط وصلٍ أيضاً بين الأجزاء اللاحقة من النص مضافاً إلى الأجزاء السابقة، لذلك (أي لأهمية هذا الموضوع: القبلة التي أثار الكتابيون لغطاً كثيراً حيال تحويلها) توجّه النص بمخاطبتهم قائلاً ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر. . . الخ﴾.

وهذا يعني أن النص يستهدف لفت نظر الكتابيين إلى جوهر مبادىء الله تعالى وليس إلى شكلها مثل ﴿الإيمان بالله واليوم الآخر﴾ ﴿إيتاء المال على حبه تعالى﴾ ﴿إقامة الصلاة﴾ ﴿إيتاء الزكاة﴾ ﴿الوفاء بالعهد﴾ ﴿الصبر في البأساء والضرّاء وحين البأس﴾، هنا ينبغي أن نلحظ الموقع الهندسي لهذا الختام الذي تمثله آية ﴿ليس البر. . الخ﴾ فهو من جانب سيشكّل (تمهيداً) للقسم السادس من السورة، حيث يتكفل هذا القسم ببيان جملة من الأحكام الشرعية (القصاص) (الوصية) (الصوم) (الحج) (الجهاد) الخ كما سنرىٰ، وهو من جانب آخر يشكل (نهاية) للقسم الخامس الذي استُهل بظاهرة (الصبر) ﴿يا أيهاالذين آمنوا: استعينوا بالصبر...﴾ وختم بظاهرة الصبر أيضاً ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب، و لكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيّين و آتى المال على حبه ذوى القربىٰ و اليتامىٰ و المساكين و ابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا،

والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾. . . فهذا «الختام» عن (الصبر) في حالات ثلاث البأساء، الضراء، حين البأساء، يتناسب مع (البداية) التي استُهل بها القسم، ومع (الوسط) الذي كرّر أهمية الصبر في فقرات من نحو: ﴿وبشّر الصابرين﴾ ﴿إن الله مع الصابرين﴾. . . الخ. حيث يكشف مثل هذا التلاحم بين (أوّل) القسم و(وسطه) و(نهايته) عن قمة الإحكام الهندسي للنص من حيث علاقة أجزائه بعضها مع الآخر بالنحو الذي لحظناه. هذا إلى أنه ينبغي التذكير بأن هذا الترابط بين أجزاء القسم قد واكبه ترابط بين الأقسام السابقة (مثل القسم الرابع والثالث في علاقتهما بالحديث عن الكتابيين) وبالقسمين الأول والثاني أيضاً من حيث كون ظاهرة (التقوىٰ أو الاتقاء) والظاهرة (إحياء الموتىٰ) تشكّلان محوراً فكرياً تتخلل السورة في معظم أجزائها ـ كما لحظنا، وحيث خُتم القسم الخامس بعبارة ﴿أولئك هم المتقون﴾ فيما يشكل هذا الختام (أي: الاتقاء) عنصراً رابطاً بينه وبين الأقسام السابقة من السورة من جانب، وبينه وبين القسم الأخير من السورة بحيث يصبح (تمهيداً) لما سيطرحه هذا القسم من ظاهرة (الاتقاء) التي تتكرر عند كل موقف من مواقفه التي تتمحّض لموضوع خاص هو (الأحكام الشرعية) بالنحو الذي نبدأ بدراسته الآن، عند حديثنا عن:

القسم السادس

هذا القسم من السورة مخصص لبيان الأحكام الشرعية من: قصاص، وإنفاق، وصوم، ووصية، وحج، وجهاد، ونكاح، وطلاق. . . الخ. حيث مهّدت له الآية الأخيرة من القسم الخامس ﴿ليس البر. . .﴾. إلا أن تخصيصه بها لا يعني انحصاره فيها بقدر ما هو الغالب فيها، ولذلك فإن موضوعات أخرىٰ ومن مقدمتها سلوك الكتابيين ـ اليهود بخاصة ـ يظل متخللاً هذا القسم بمثابة عنصر رابط بينه وبين الأقسام السابقة. وإذا كان القسم الثالث من السورة

قد تخصص للحديث عن الإسرائيليين مع تطعيمه بالأحكام، فإن القسم السادس يظل علىٰ عكس ذلك، فيما يكشف هذا التقابل بينهما عن أحد أبعاد التجانس في هيكل السورة. وأما العناصر الأخرىٰ الرابطة بين هذا القسم وسابقه، فإن (الأحكام) تظل بمثابة مفردات تفصيلية لما تضمّنه القسم الخامس من موضوعات تتصل بسلوك المؤمنين، كما أن القسم الرابع من السورة (وهو مخصص لشخصية إبراهيم(ع)) سيجد له صدىً في القسم السادس، متمثلاً في ظاهرة (الإحياء والإماتة) التي تشكّل أحد محاور السورة الكريمة.

وبهذا نتبين كيفية تشابك الأقسام في هذه السورة بحيث تجسّد شبكة من الشخوص والموضوعات والأفكار التي يرتبط أحدها بالآخر، فتجد أفكاراً مثل (الاتقاء) تمتد من أول السورة إلى آخرها في جميع أقسامها مع التركيز عليها في القسم الأخير وتتويجه بظاهرة «الأحكام» التي تعد محكّاً للاتقاء. وهذا التركيز في القسم الأخير يتناسب مع صلة الختام بالمقدمة التي أثارت هذا الموضوع، ونجد أفكاراً مثل (الإحياء والإماتة) تتخلل الأقسام جميعاً مع ملاحظة أن العنصر القصصي يظل ميداناً لإثارة هذه الفكرة: حيث أن تجسيدها في قصص حيّة يظل أكثر إثارة وأشدّ إقناعاً للقارىء، وهكذا تتآزر الخطوط المختلفة فيما بينها علىٰ نحو ما سنلحظه عند حديثنا عن القسم السادس، فيما قلنا أنه يغلب عليه عنصر (الأحكام الشرعية)، وفيما قلنا أن طرح هذه الأحكام قد خضع لصياغة هندسية ممتعة هي تذييل كل حكمٍ منها بفكرة (الاتقاء) بحيث يشكّل مفهوم (الاتقاء)، محطة توقّفٍ عند كل رحلة من الرحلات التي يقطعها النص لبيان هذا الحكم أو ذاك، سواء أكانت المحطة في وسط الرحلة أو في آخرها.

وإليك سلسلة الأحكام التي بدأ كل واحدٍ منها ببيان نوعه، وانتهىٰ بعبارة

(الاتقاء)، أو توقف في وسط ذلك:

ـ القصاص: ﴿يا أيها الذين آمنوا: كُتب عليكم القصاص... لعلكم تتقون﴾.

ـ الوصية: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية... حقاً علىٰ المتقين﴾.

ـ الصوم: ﴿يا أيها الذين آمنوا: كتب عليكم الصيام.. .لعلّكم تتّقون﴾.

ـ الأهلة: ﴿يسألونك عن الأهلة... ولكن البرّ من اتّقىٰ... واتقوا الله...﴾.

ـ الجهاد: ﴿وقاتلوا في سبيل الله....... أن الله مع المتقين﴾.

ـ الحج: ﴿واتموا الحج................ واتقوا الله...﴾.

﴿الحج أشهر معلومات... وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون..﴾.

﴿واذكروا الله في أيام معدودات.......... واتقوا الله....﴾.

ـ النكاح: ﴿نساءكم حرث لكم............. واتقوا الله....﴾.

ـ الطلاق: ﴿للذين يؤلون.......... واتقوا الله.....﴾.

﴿وإن طلقتموهن......... وأن تعفو أقرب للتقوىٰ﴾.

﴿وللمطلقات متاع بالمعروف، حقاً علىٰ المتقين﴾.

إن فكرة «الاتقاء» وصياغتها بهذا النحو الهندسي يكشف دون أدنىٰ شك عن جمالية فائقة في عمارة هذا القسم من السورة... كما أن هناك خطوطاً فرعية تشكل بدورها نسقاً هندسياً في صياغة الأحكام، وهذا من نحو النسق التعبيري في نماذج من نحو:

ـ القصاص: ﴿كتب عليكم القصاص..﴾.

ـ الوصية: ﴿كتب عليكم... الوصية...﴾.

ـ الصوم: ﴿كتب عليكم الصيام﴾.

ومن نماذج من نحو:

ـ الأهلة: ﴿يسألونك عن الأهلة...﴾.

ـ الإنفاق: ﴿يسألونك ماذا ينفقون..﴾.

ـ الخمر والميسر: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر...﴾.

ـ اليتامىٰ: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام...﴾.

ـ الإنفاق أيضاً: ﴿يسألونك ماذا ينفقون...﴾.

ـ المحيض: ﴿يسألونك عن المحيض..﴾.

ومن نماذج من نحو:

ـ الافتراق: ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت...﴾.

ـ الافتراق: ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾.

ـ الافتراق: ﴿فلا جناح عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا...﴾.

ـ الافتراق: ﴿فلا جناج عليكم إذا سلمتم...﴾.

ـ الافتراق: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف...﴾.

ـ الافتراق: ﴿ولا جناج عليكم فيما عرّضتم....﴾.

ـ الافتراق: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم...﴾.

ـ الافتراق: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾

هذه النماذج وسواها من الأنساق الهندسية، تخضع لجملة سمات:

ـ الاستهلال: حيث تُستهل العبارات المتماثلة في أول الحكم أو أول الآية... مثل ﴿كتب..﴾ و﴿يسألونك﴾ الخ...

ـ الاختتام: حيث يختتم بها الحكم أو الآية مثل (الاتقاء).

ـ التكرار الجزئي: حيث تتكرر العبارة مع كل جزئية من أجزاء الحكم كما هو ملاحظ في (الطلاق) (أي عبارة: لا جناح).

ـ التكرار البنيوي: ونقصد به ما يتكرر من العبارات: حسب خضوع الأحكام لوحدة مشتركة بينها مثل أفعال الحج حيث أن بعضها ينتسب إلىٰ ممارسات حركية أو مادية مثل الحلق والهدي حيث ذيلت بمطالبة الاتقاء (وأتموا الحج. . . . واتقوا الله)، وبعضها ينتسب إلى ممارسات أخلاقية مثل عدم الكذب والحلف حيث ذيلت بالاتقاء ﴿**الحج أشهر معلومات. . . . فلا رفث ولا فسوق ولا جدال. . . . . واتقون. . .**﴾ وبعضها ينتسب إلى ممارسات وجدانية كالدعاء حيث ذيّلت بالاتقاء ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله. . . واذكروه كما هداكم. . . واستغفروا الله. . . فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله. . . واذكروا الله في أيام معدودات. . . . واتقوا الله**﴾.

فالملاحظ هنا أن أفعال الحج الثلاثة، أي: ما يتطلّب ممارسة حركية وأخلاقية ووجدانية قد ذُيّل كل واحدٍ منها بعبارة (الاتقاء). وهذا التذييل ينطوي علىٰ جملة حقائق فنية تتصل بعمارة النص، منها: أن الاتقاء الذي يشكل أحد محاور النص في أقسامه جميعاً قد تمّت صياغته في القسم السادس وفق نسق هندسي يُختم به حيناً حكم مستقل (كالقصاص والوصية والصوم)، ويُختم به حينا حكم جزئي داخل الحكم الشكليّ مثل أفعال الحج، حيث يكشف هذا النمط من التكرار للاتقاء عن أهمية الممارسات الثلاث من جانب كونها متميزة في خطوطها الحركية أو الأخلاقية أو الوجدانية من جانب آخر.

* * *

والآن، إذا تركنا هذا البُعد الفني من أبعاد التناسق الهندسي للنص، متمثلة من خطوط (التماثل) بينها، حينئذٍ نواجه نسقاً هندسياً آخر، يتمثل من خطوط (التقابل) بينها:

وهذا ما نلحظه في نموذج (عن أحكام الجهاد) مثل:

﴿قاتلوا الذين ــ يقاتلونكم﴾.

﴿أخرجوهم ــ من حيث أخرجوكم﴾.

﴿لا تقاتلوهم ــ حتى يقاتلوكم﴾.

﴿فإن قاتلوكم ــ فاقتلوهم﴾.

﴿الشهر الحرام ــ بالشهر الحرام﴾.

﴿فمن اعتدىٰ ــ فاعتدوا عليه﴾.

وما نلحظه في نموذج (عن أحكام الزواج) مثل:

ـ لا تنكحوا المشركات ـ لا تنكحوا المشركين.

ـ ولو أعجبتكم ـ ولو أعجبكم.

ـ أمة مؤمنة ـ عبد مؤمن.

ـ أولئك يدعون إلى النار ـ والله يدعو إلى الجنة.

وتلاحظ جملة من السمات العضوية التي تحكم البناء العماري في صعيد (التقابل) بين خطوطه المشار إليها، منها:

ـ الارتباط العضوي بين أول الأحكام (القصاص) وبين انعكاساته علىٰ بعض المفردات مثل (القتال) حيث أشار النص عند حديثه عن مفردات القتال إلىٰ عبارة (والحرمات قصاص) وأورد نموذجاً للقصاص هو **﴿فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه... الخ﴾** كما أورد نماذج للتقابل بين المقاتلة والإخراج... الخ.

ومنها: انعكاس أول الأحكام أيضاً (وهو القصاص) علىٰ أحكام الزواج، حيث اكتفىٰ النص من نماذج القصاص بسرد ما يلي (الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثىٰ بالأنثى). وهذه النماذج قد (قابل) النص فيما بينها بالنسبة إلى الزواج ـ كما لحظنا.

ومنها: إن هناك تناسقاً بين الموضوع ذاته وبين (التقابل) بين خطوطه، فالزواج بصفته اتحاداً بين كائنين: ذكر وأنثىٰ ـ وهما متقابلان ـ قد فرض عملية (التقابل الهندسي) بين المشرك والمشركة، بين المؤمن والمؤمنة، بين العبد والأمة، بين الحر والعبد.

* * *

وإذ ندع هذه الجوانب المرتبطة بأبعاد (التماثل) و(التقابل) بين الخطوط التي تنتظم موضوعات القسم السادس، واتجهنا إلى الموضوعات ذاتها من حيث تسلسلها، وجدنا أن الرابط العضوي بينها يتخذ طرائق متنوعة، حيث يتم الانتقال من حكم إلى آخر وفق آليات قد تأتي علىٰ شكل (تمهيد) أو (طابع مشترك) أو محطات للتوقف. أو يتم الانتقال من موضوع إلى آخر (بغض النظر عن كونه حكماً شرعياً أو سواه) وفقاً للآليات المتقدمة، وآليات أخرىٰ مثل (الموضوعات المعترضة) التي تقطع سلسلة الموضوع لتكشف عن أهمية ما اعترض من الموضوعات، ومثل: تقطيع الموضوع إلى جزئيات يتناول كل مقطع واحداً منها ثم تُستكمل وفق توزيع هندسي علىٰ المقاطع التي تنظم هذا القسم من السورة.

ويمكننا ملاحظة هذه المستويات حينما نبدأ مع أول الموضوعات لهذا القسم وهو (القصاص) حيث نجده قد «مُهّد» له بما طُرِح في نهاية القسم الخامس... ثم نجد هذا الحكم (القصاص) قد طرح بعض المفهومات التي تنعكس علىٰ الأحكام اللاحقة كالجهاد والزواج ونحوهما، ثم نواجه حكمين آخرين هما (الوصية) و(الصوم)، حيث شكل مفهوم (الاتقاء) ـ أي تذييل كل واحد من هذه الأحكام المتسلسلة الثلاثة لعبارة (الاتقاء) ـ تشكل «محطة توقف» تربط بين الموضوعات الثلاثة. ويجيء الموضوع الرابع من الأحكام (وهو الرشوة في الحكم) غير مذيّل بعبارة (الاتقاء) أي يجيء بمثابة جملة

معترضة تكشف عن أهمية هذا الحكم واستهداف النص توصيله إلى القارىء للفت نظره: علماً بأن الموضوعات المرتبطة بما هو (تعامل مالي) تظل متوزعة في مقاطع متباعدة ومتقاربة في هذا القسم من السورة، حيث يذيّل بعضها بعبارة (الاتقاء)، مما يكشف أن عدم تذييل هذا الحكم أو ذاك بالعبارة المذكورة: إنما هو بصفته جزءاً من ظاهرة (عامة) تتطلّب حيناً أن يُذيل بعضها بالعبارة المذكورة وحيناً آخر لا يتطلب ذلك: حسب السياق. وقد سبق أن لحظنا كيف أن مقاطع ثلاثة من الحج (الممارسات الحركية والأخلاقية والوجدانية) قد ذُيّل كل واحد منها بعبارة «الاتقاء» مع أنها جميعاً تنسب إلى أحكام الحج، مما يعني أن السياق هو الذي يحدد ذلك.

بعد ذلك نواجه موضوعاً جديداً هو الأهلة: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقىٰ وأتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [البقرة: ١٨٩].

وهذا الموضوع (من حيث صلته العضوية بما سبقه وبما يلحقه) يظل من جانبٍ محكوماً بآلية عضوية هي كونه محطة توقف حيث ذيّل بعبارة (الاتقاء) وهي قوله تعالى ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ وبهذا يكون الموضوع امتداداً لكل من القصاص والوصية والصوم، كما أنه من حيث صلته بالأقسام السابقة من السورة يظل مرتبطاً بقسمها الخامس أي (التمهيد) القائل ﴿ليس البر...﴾ الخ حيث أن عبارة ﴿ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقىٰ﴾ هي صدىً للآية ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم... ولكن البر مَن آمن...﴾ ومن جانبٍ ثالث يظل هذا الموضوع (استكمالاً) لما طرح من موضوعات الحج في الأقسام السابقة من السورة، و(تمهيداً) أو جزءاً جديداً من الأجزاء التي ستتوزع علىٰ القسم السادس من السورة، حيث سنجد أن الحج يجسد واحداً من الموضوعات التي تتوزع أجزاؤه في مقاطع متنوعة، كل

مقطع منها يتناول جزءاً من ممارسات الحج. ومن جانب رابع نجد أنّ (الأهلة) تظل علىٰ صلة بموضوعات (الصوم) وما طرحه من ظاهرة **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾**، ثمّ ما نلحظه لاحقاً من موضوعات (الجهاد) وصلته بالأشهر الحرم، فضلاً عن أشهر الحجّ، وفضلاً عن موضوعات الطلاق وسواها مما ترتبط جميعاً بعنصر (الزمن).

إذن، أمكننا ملاحظة هذا الموضوع الذي طرحه النص وتشابكه العضوي المدهش مع موضوعات هذا القسم من السورة وأقسامها السابقة.

بعد ذلك نواجه موضوعاً جديداً هو (الجهاد)، حيث ذيلّ بعبارة (الاتقاء) **﴿وقاتلوا في سبيل الله... واتقوا الله، واعلموا أنّ الله مع المتقين﴾** ولا حاجة بنا إلىٰ تبيين الموقع العضوي لهذا الحكم وعلاقته بعبارة النص، حيث أن تذييله بعبارة (الاتقاء) ـ فضلاً عن سبقها بعبارة الاتقاء أيضاً ـ يكشف عن كونه محطّة توقّف مشتركة بين القصاص والوصية والصوم والأهلّة والجهاد، كما أن الخطوط العضوية الأخرىٰ تظلّ واضحة في هذا المقطع، منها: الصلة العضوية بين ما طرحه أوّل الأحكام (أي القصاص) وبين انعكاسات بعض مفرداته في هذا المقطع مثل قوله تعالى: **﴿والحرمات قصاص﴾**... ومنها: الطابع المشترك بين هذا المقطع في قوله تعالى **﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾** وبين المقطع اللاحق له وهو (الإنفاق) حيث صيغ بالعبارة ذاتها:

﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحب المحسنين﴾... وبهذا نتبيّن موضوعاً جديداً هو «الإنفاق» حيث لم يذيل بعبارة (الاتقاء)، إلا أن مجيئه في سياق «الجهاد» وكونه متجانساً مع القتال في سبيل الله، حيث أنّ الجهاد بالنفس والمال هما التجسيد الحي لمفهوم الجهاد، يكشف عن أحد محاور البناء العضوي بين الموضوعات، مضافاً إلى كونه (أي الإنفاق) يجسد واحداً من الموضوعات التي «تتوزع» أجزاؤه علىٰ مقاطع

متنوعة من هذا القسم السادس من السورة الكريمة.

ثم نواجه بعد ذلك موضوعاً جديداً هو (الحج) حيث ذُيّل بعبارات الاتقاء ثلاث مرات بالنحو الذي عرضنا له في حينه، مما لا يحتاج إلى توضيح الصلة العضوية بينه وبين موضوعات النص.

هنا يقطع النص سلسلة الأحكام بشرائح من سلوك الفئات المتنوعة التي عرض لها في الأقسام السابقة، حيث يطرحها في سياق جديد ليعود بعدها إلى وصل سلسلة الأحكام.

فما هي هذه الموضوعات الطارئة أو المعترضة، وما هو موقعها الهندسي من هذا القسم من السورة الكريمة.

أول الموضوعات هو: عرض الشريحة من سلوك المنافقين الذين استهل الحديث عنهم في القسم الأول من السورة. بيد أن السياق الجديد الذي ورد فيه رسمُ المنافق جاء في صعيد تذييله بعبارة (الاتقاء) التي تشكل رابطاً عضوياً بين موضوعات القسم السادس (فضلاً عن كونها أحد محاور السورة الكريمة: كما هو واضح) يقول النص **﴿ومن الناس من يعجبك قوله.... وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم...﴾** إذن: (الاتقاء) هو الرابط أو السياق الجديد لموضوع المنافقين. أما الموضوع الذي يليه فيشكل مقابلاً لسلوك المنافقين وهو قوله تعالى **﴿ومن الناس من يشري...﴾** الخ حيث أن اشتراء مرضات الله تعالى تقف (مقابلاً) لأخذ العزة بالإثم، فيعدّ استكمالاً للموضوع السابق.

بعد ذلك نواجه موضوعاً جديداً هو: عرض لشريحة من سلوك الإسرائيليين، وهذا الموضوع بدوره يظل من جانب على صلة بالأقسام السابقة من السورة حيث يشكّل سلوكهم غالبية السورة كما رأينا، ويظل من جانب آخر على صلة بالسياق الذي ورد فيه الحديث، ونعني به: ظاهرة (الاتقاء) يقول النص **﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما**

جاءته، فإن الله شديد العقاب * زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا، ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة...﴾ [البقرة: ٢١١ ـ ٢١٢].
لنلاحظ كيف أن الآية الأولى لخّصت حصيلة القسم الثالث من السورة فيما تمحض للحديث عن الإسرائيليين، وفيما كان التركيز علىٰ نعم الله تعالى عليهم وكفرانهم بها، وهو ما لخّصته الآية التي نحن في صددها ﴿كم آتيناهم من آية... ومن يبدل نعمة الله...﴾. وأما الآية الثانية فلا تحتاج إلى التعقيب ما دام ورودها في سياق (الاتقاء) يكشف عن موقعها الهندسي من عمارة هذا القسم الذي نتحدث عنه.

أخيراً، نواجه موضوعاً هو: نشأة المجتمع البشري والإشارة إلى تراثه الاجتماعي ﴿كان الناس أمة واحدة...﴾ ثم نواجه موضوعاً آخر هو ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهُمُ البأساء والضراء...﴾ الخ. وهذان الموضوعان هما امتداد للموضوعات السابقة من حيث المقارنة بين مطلق الكفار ومطلق المؤمنين: الكفار الذين آثروا الحياة الدنيا وسخروا من المؤمنين، والمؤمنين الذين «اتقوا» الله تعالى حيث كانت الآية التي سبقت هذين الموضوعين ﴿... ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ تفرز بين نمطي البشر: المؤمن والكافر، وتشير إلى موقع المؤمنين في اليوم الآخر، وحيث جاء الموضوعان (نشأة المجتمع البشري وكونه قد اختلف فيما بينه وإهداء الله تعالى للمؤمنين) وكون المؤمنين الذين يحتلون موقعاً أخروياً لا بدّ أن يدفعوا عن ذلك وهو الموضوع الأخير ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة...﴾ أولئك جميعاً يوضح صلة الموضوعين الأخيرين بما سبقهما، فضلاً عن صلة الموضوع الأخير ﴿مستهم البأساء والضراء﴾ بالتمهيد الذي خُتِم به القسم الخامس من السورة حيث جاءت الإشارة إلىٰ ﴿والصابرين في البأساء والضراء﴾ ملقيةٌ بإنارتها علىٰ الموضوع الأخير الذي نتحدث عنه.

والآن، بعد أن لحظنا الموقع الهندسي لهذه الموضوعات الطارئة وصلتها بموضوعات القسم السادس، فضلاً عن صلتها بموضوعات الأقسام الأخرىٰ، نواجه عوداً إلى متابعة سلسلة «الأحكام» التي اضطلع القسم السادس من السورة برسمها، حيث تطالعنا أحكام تتصل بالإنفاق والجهاد والخمر والميسر واليتم، أما الموضوعات الأولان (أي الإنفاق والجهاد) فقد سبق طرحهما في هذا القسم، إلا أنهما ـ كما سبق القول ـ يتكرران في سياق جديد، حتى أن الانفاق يتكرر مرتين في السياق الجديد، ومعهما الموضوعات الثلاثة الأخرىٰ: الخمر، الميسر، اليتم ـ وتخضع جميعاً إلىٰ نسق هندسي سبقت الإشارة إليه وهو العبارة الاستهلالية(يسألونك):

﴿يسألونك ماذا ينفقون: قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل﴾. . .

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾. . .

﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾. . .

﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾. . .

﴿ويسألونك عن اليتامىٰ﴾. . . .

طبيعياً، أن إخضاع هذه الموضوعات لمحطّة حركةٍ أي الاستهلال لها بعبارة (يسألونك) (مقابل التذييل الذي يعد محطة توقّف: مثل عبارة الاتقاء). يظل تعبيراً عن أحد أشكال الوحدة العضوية بين الموضوعات. فإذا كانت موضوعات القصاص والوصية والصوم والأهلّة والحج والجهاد. . . الخ قد خضعت لنسق هندسي هو التذييل لها بعبارة (الاتقاء) فإنّ الأحكام الخمسة عن الإنفاق والقتال والخمر والميسر واليتم قد خضعت لنسق هندسي يقوم علىٰ عنصر (التقابل) من جانب و(التنوع) من جانب آخر. أما التقابل فيتمثل في كون الأولىٰ خاضعة لوحدة عضوية: من حيث «الختام» لكل حكم، وكون

الثانية خاضعة لوحدة عضوية: من حيث «الاستهلال» لكل حكم، حيث أن «الاستهلال» يقابل «الاختتام»، وأما (التنوّع) فيتمثل في كون كل منهما يرد في سياق مختلفٍ عن الآخر، إلا أنهما يخضعان «لوحدة» هي: عرض الأحكام ذاتها، وهو ما يطلق عليه مصطلح (التباين من خلال الوحدة) مقابل مصطلح (الوحدة من خلال التباين)، حيث تجسّد هذه القاعدة الفنية واحدةً من أهمّ القواعد المرتبطة بالبناء الهندسي للنص.

* * *

نواجه بعد ذلك ـ في سلسلة الأحكام ـ ظواهر جديدة هي: الزواج والطلاق... الخ. وقد خضع رسم هذه الظاهرة لنفس الربط العضوي بين الأحكام ونعني به تذييلها بمفهوم (الاتقاء) حيث بدأ الرسم بقوله تعالى ﴿**ولا تنكحوا المشركات... ويسألونك عن المحيض... واتقوا الله...**﴾ فجاء (الاتقاء) رابطاً عضوياً بين موضوعات هذا القسم: كما هو ملاحظ. بيد أن الربط العضوي لا يقف عند هذه المحطة، بل يتشابك مع خطوط هندسية أخرى تسهم جميعاً في الإحكام الهندسي للنص، منها: ما سبقت الإشارة إليه من سمة (التقابل) التي اشتركت فيها موضوعات القصاص والجهاد والزواج ومنها: سمة الاشتراك في عبارة (ويسألونك) حيث أشرنا إلى أن ظواهر الخمر والميسر واليتم والإنفاق... الخ قد خضعت لبناء هندسي هو الاستهلال لها بعبارة (ويسألونك...) حيث استهل أحد الموضوعات المتصلة بالزواج وممارساته ومنها الحيض بالعبارة ذاتها ﴿**ويسألونك عن المحيض...**﴾.

إذن: جاءت الخطوط العامة (التذييل بعبارة «الاتقاء») والخطوط الجزئية (التقابل والاستهلال)، معبّرةً عن مزيد من الإحكام الهندسي للنص.

بعد ذلك: نواجه ظاهرة (الافتراق بين الزوجين أو الطلاق)،... ومن الواضح أنّ الرابط العضوي بين الزواج والطلاق يظلّ أمراً لا يحتاج إلى

التعقيب، إلّا أن النص ـ مضافاً إلى ذلك ـ قد أخضع رَسْمَ موضوعاته إلى خطوط أخرىٰ من الترابط العضوي فيما بينها، ومنها: التذييل بظاهرة (الاتقاء) التي تشكّل محطة توقّف لجميع الموضوعات كما كررنا، حيث جاءت هذه العبارة «متكررة» في جملة من المواقع تماثل ما لحظناه من تكرارها في موضوعات الحجّ فيما أوضحنا سببها الفنّي في عملية التكرار، وفيما نلحظ أسباباً مماثلةً هنا في تكرار العبارة (الاتقاء) في جملة مواقع هي: استرضاع الأولاد حيث ذُيّلت بقوله تعالى ﴿واتقوا الله. . .﴾ وإمتاع المطلقة قبل الدخول بها حيث ذيلت بعبارة ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾، وأمتاعها بنحو مطلق حيث صيغت العبارة بهذا النحو ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ وبها خُتِم الحديث عن ظاهرة الطلاق. ولا حاجة بنا إلى توضيح السياقات المتنوعة التي فرضت مثل هذا التكرار، حيث أن الاختتام لموضوع الطلاق بالعبارة المتقدمة يشكّل تناسقاً مع سائر الموضوعات التي ختمت بالعبارة المذكورة، وحيث أن تخصيصها لموضوع مثل استرضاع الأولاد وموضوع مثل إمتاع المطلقة يفصح عن أهمية ذينَك الموضوعين، فضلاً عن أن طبيعة الموضوع تفرض صياغة خاصة لمفهوم «الاتقاء» حيث لحظنا ـ علىٰ سبيل المثال ـ أن صياغتها بالنسبة إلى إمتاع المطلقة قبل الدخول بها جاء في سياق العفو عن ذلك، ولذا جاءت العبارة مصحوبة بالعفو الذي هو أقرب للتقوىٰ ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوىٰ﴾.

وهذا فيما يتصل بالرابط العضوي العام لهذا القسم من السورة. أمّا ما يتصل بخطوطه الجزئية وترابطها العضوي، فنلحظ نمطاً من الربط العضوي بين الطلاق وبين أحد أشكال الافتراق الذي يُطلق عليه مصطلح (الإيلاء) حيث يقترن هذا الحكم بظاهرة الحلف علىٰ عدم الممارسة الجنسية، وهو ما بدأ به موضوع الطلاق حيث استهل بقوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر، فإن فاؤا فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق. . . الخ﴾

[البقرة: ٢٢٦ـ ٢٢٧]، فالملاحظ أن النص بدأ بالحديث عن الطلاق وأحكامه من خلال أحد أشكال الافتراق الموقت (الإيلاء) ثم ربَطَ به موضوعات الطلاق الأخرىٰ. بيد أن الملفت للنظر هو: أن النص قبل أن يتحدث عن الطلاق، أي بعد أن انتهىٰ من موضوع الزواج، قطع سلسلة الموضوعين المرتبط أحدهما بالآخر (الزواج والطلاق) قطعها من خلال إدراجه حكماً جديداً هو (اليمين) حيث بدأه بهذا النحو ﴿**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم... الخ**﴾ [البقرة: ٢٢٤] ثم وصله بالإيلاء ثم بالطلاق.

والأهمية الفنية لمثل هذه الصياغة المدهشة عضوياً هي: أن النص ـ وهذا نكرّره دوماً ـ عندما يقطع سلسلة الحديث عن موضوع ما، ثم يعود إليه بعد ذلك، إنما يستهدف لفت النظر إلى أهمية الموضوع الذي اعترض السلسلة وهو (اليمين)، إلا أن النص سلك منحىً هندسياً بالغ الإثارة والجمال حينما (جَانَسَ) بين الموضوع المعترض (اليمين) وبين سلسلة الأحكام المتصلة بالزواج والإيلاء والطلاق، حيث استثمر الحديث عن أهمية (اليمين) وضرورة التحفظ حياله، ليربط بين اليمين وبين أحد أشكال الافتراق الموقت الذي يتم من خلال (اليمين) أيضاً وهو «الإيلاء» أي: اليمين علىٰ عدم الممارسة، ثم استثمر الحديث عن «الإيلاء» الذي هو أحد أشكال الافتراق الموقت ليتحدث عن الافتراق في شتىٰ مستوياته وهو (الطلاق).

إذن: أمكننا ملاحظة هذا المنحىٰ الهندسي الممتع في صياغة الموضوعات صياغةً تعتمد الربط العضوي بنحوه المحكم الذي لحظناه.

* * *

ومن الموضوعات التي طرحها النص في سياق حديثه عن الطلاق، نواجه من جديد موضوعات طارئة يعترض بها النص حديثه عن الطلاق ويقطع سلسلته ليحدثنا عنها، وهي الآيتان المرتبطتان بالمحافظة على الصلاة،

وبالصلاة الوسطىٰ خاصة (أي الظهر)، وبصلاة الخوف **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطىٰ وقوموا لله قانتين * فإن خفتم فرجالاً أو رُكباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾** [البقرة: ٢٣٨]. إنّ إدراج الصلاة ضمن أحد الأحكام (الطلاق) وقطع سلسلته يعني لفت النظر لأهميتها، حيث جاءت لتطرح موضوعات جديدة عن الصلاة من حيث المحافظة علىٰ أوقاتها، ومن حيث أهمية صلاة الظهر ومن حيث أهمية صلاة الخوف. جاء ذلك بين موضوعين، أولهما في الطلاق، والآخر في الوفاة، وكلاهما يتداعيان بالذهن إلى قطع أهم العلاقات الدنيوية بأهم محاورها عاطفياً، لذلك فإن التذكير بأهم المحاور أخروياً ـ وهو الصلاة ـ سيتداعىٰ بأذهاننا إلى استحضار وظيفتنا العبادية في غمرة العلاقات الدنيوية وتفككها بالطلاق وبالموت. . .

ويلاحظ أن النص عندما قطع سلسلة الحديث عن الطلاق وأدرج الصلاة في هذا الموقع إنما أنهىٰ حديثه عن الطلاق من خلال تذييله بظاهرة (ـ الاتقاء ـ وإن تعفوا أقرب للتقوىٰ)، وهذا هو أحد محاور البناء العضوي الذي يفسّر لنا سببية التكرار لمفهوم الاتقاء، مع أنه يتحدث عن موضوع واحد هو الطلاق. ويلاحظ أيضاً أن النص عندما عاد إلى الحديث عن الطلاق إنما اكتفىٰ منه بعرض ظاهرتين هما: الإمتاع المرتبط بالوفاة، والإمتاع مطلقاً، وذيّل ذلك بمفهوم (الاتقاء) أيضاً ليشكل بذلك ختاماً للموضوع، أي الطلاق، والاتجاه من ثم إلى طرح موضوعات جديدة. ولعل ما ينبغي الوقوف عنده هو ملاحظة أن الحديث عن الطلاق قد خُتم بعبارة هي **﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾** [البقرة: ٢٤٢].

وهذه العبارة تحتل موقعاً عضوياً بالغ الأهمية من هذا القسم من السورة، حيث تربط بين أهم محاور السورة الكريمة من جانب، وتربط بينها وبين الموضوعات اللاحقة من جانب آخر. إن القارىء ليتذكر تماماً بأن

(الإحياء والإماتة) تشكّل واحداً من المحاور الرئيسة التي تحوم عليها سورة البقرة (المحاور الرئيسة هي: ظاهرة الاتقاء، ظاهرة الإماتة والإحياء، ظاهرة السلوك الإسرائيلي)، ويتذكر تماماً بأن أول قصص الإسرائيليين (وهي ذبح البقرة وإحياؤها) قد ختم بعبارة ﴿**ويريكم آياته لعلكم تعقلون**﴾ [البقرة: ٧٣] أي: إن النص قد ذكر هذه الظاهرة في ختام حديثه عن الإماتة والإحياء (في القسم الثالث من السورة)، وها هو يذكرها أيضاً في القسم السادس من السورة لتشكّل(تمهيداً) وليس «ختاماً» لموضوع الإماتة والإحياء، لكن في سياق جديد من سلوك الإسرائيليين، أي: أن التمهيد بعبارة ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون**﴾ إنما جاء ليربط بين قصة سابقة تحدثت عن الإماتة والإحياء من خلال السلوك الإسرائيلي، وبين قصة لاحقة عن السلوك الإسرائيلي أيضاً وهي قصة: ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل علىٰ الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾ [البقرة: ٢٤٣]. وبهذا الربط بين القصتين هيّأ النصُ الأذهان إلى السلوك الإسرائيلي الذي شكّل محوراً ثالثاً من محاور السورة، ليحدثنا من جديد عن شريحة جديدة من سلوك الإسرائيليين تتصل بموقفهم من القتال، حيث يتقدم النص بعرض قصصي ممتع عن سلوكهم الملتوي: رابطاً بين القصتين (قصة الذين أماتهم الله وأحياهم) فيما عقّب على ذلك بقوله ﴿**إن الله لذو فضلٍ على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾، وهذا التعقيب هو امتدادٌ لمواقفهم السابقة التي تقترن بعدم الشكر لنعم الله عليهم، وبين القصة الجديدة التي سنرىٰ أنها تعرض لنا مدىٰ فضل الله تعالى على الإسرائيليين وعدم شكرهم على ذلك، مما يكشف مثل هذا البناء للقصتين الإسرائيليتين عن مدىٰ الإحكام العضوي لهما من جانب، فضلاً عن صلتهما بالأقسام السابقة من السورة من جانب آخر، بالنحو الذي عرضنا له.

لكن قبل أن نتحدث عن الأسرار الفنية لهذه القصة وموقعها العضوي من

النص، ينبغي أن نشير أيضاً إلىٰ أن النص قد فَصّل بين القصتين بطرح موضوعين: أحدهما القتال والآخر الإنفاق.

أمّا ظاهرة (القتال) فترتبط بالقصة الثانية التي تتحدث عن سلوك الإسرائيليين حيال القتال وأما ظاهرة (الإنفاق) ـ ففضلاً عن كونها أحد وجهي الجهاد بالنفس والمال ـ تظل تمهيداً لطرحٍ مفصل يتصل بهذا الحكم الذي يخصص له النص موقعاً كبيراً من مساحته في ختام السورة الكريمة، مما نوضح بناءه العضوي في حينه.

والآن، إذا أمكننا أن نبيّن المستويات المتنوعة للبناء العضوي الذي طبع هذه الجزئية من النص، يحسن بنا أن نعرض للبناء الفنيّ للقصتين المشار إليهما، وهما قصة ﴿الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾ وقصة ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسىٰ، إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله. . . الخ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ونقف مع:

القصة الاولى

هذه (الحكاية) تتحدث عن طائفة أو مجتمع من الإسرائيليين تتفاوت النصوص في تحديد الأسباب التي دفعتهم إلى الخروج من ديارهم حذر الموت، حيث تذكر بعض النصوص أنهم فرّوا من الطاعون، وبعضها يذكر أنهم فروا من القتال الذي فرضه عليهم أحد أنبيائهم، والمهم أن الله امتحنهم بسببٍ من سلوكهم الملتوي ثم أحياهم بدعاء نبيّهم.

وفي تصورنا أن فرارهم من القتال يظل أكثر تجانساً مع سياق النص الذي فَصّل بين القصتين ـ كما أشرنا ـ بالحديث عن القتال ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ [البقرة: ٢٤٤]، كما يظلّ أكثر تجانساً مع القصة الثانية التي تتمحض للحديث

عن القتال أيضاً حيث وردت فيها أكثر من عبارة تتحدث عن القتال من نحو **﴿ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾** ومن نحو **﴿ومالنا ألّا نقاتل في سبيل الله﴾** [البقرة: ٢٤٦] ومن نحو **﴿فلما كُتِب عليهم القتال. . . الخ﴾** [البقرة: ٢٤٦]. فالقتال هنا يشكّل رابطاً عضوياً بين القصتين، فضلاً عن الفصل بينهما بآية القتال **﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾**، حيث تتلاحم هذه الموضوعات المشتركة فيما بينها من خلال (عملية القتال)، كاشفةً بذلك عن مدىٰ الإحكام الهندسي في بناء النص الذي نحن في صدد الحديث عنه.

عنصر المحاورة:

يلاحظ أنّ النص قد اعتمد عنصر المحاورة الفنية في صياغة هذه الحكاية أو الأقصوصة، وذلك من خلال قوله تعالى **﴿فقال لهم الله موتوا﴾** فالموت هنا جاء تعبيراً مجازياً من نحو قوله تعالى **﴿قلنا ياناركوني برداً وسلاماً﴾**، أي: أن الله تعالى قد أماتهم، إلّا أن النص صاغ ذلك وفق لغة المحاورة، محاورة الله تعالى للإسرائيليين. والأهمية الفنية لهذا العنصر تتمثل أولاً في كون «المحاورة» هي أحد عناصر النص، وتتمثل ثانياً في كونها تعبيراً عن إرادة الله تعالى في إماتة البشر وإحيائهم، فعندما يصوغ العبارة بقوله تعالى (موتوا) إنما يفصح بذلك عن إرادته تعالى بنحوها المطلق الذي لا يتخلّف الشيء عنه.

بيد أن التساؤل يُثار هنا حول هذا التفاوت بين كلٍ من (الإماتة والإحياء) حيث جاءت الإماتة: في صيغة المحاورة **﴿فقال لهم الله موتوا﴾** بينا جاء التعبير عن ظاهرة الإحياء بعبارة سردية هي (ثم أحياهم)، فما هو السرّ الفنيّ في ذلك؟ في تصورنا أن النص قد استهدف لفت النظر إلى أن الجزاء السلبي «وهو الإماتة بسبب من معصية الإسرائيليين» إنما جاء تعبيراً عن حقيقة الجزاء السلبي نفسه، حيث يقترن ذلك بطبيعة الاستجابة السلبية التي صدرت عن الإسرائيليين وهم يهربون من الموت، مما يتطلّب الموقف أن يميتهم الله تعالى

سريعاً ما داموا يتخوّفون من ذلك، وهذا علىٰ العكس من الإحياء الذي تمّ دون أن يقترن ذلك بسلوكهم، حيث أنه تعالى أحياهم «وهم موتىٰ لا يمارسون أية فاعلية» مما استتبع صياغة سردية غير مقترنة بردود فعلهم التي تتطلب محاورتهم بهذا النحو أو ذاك.

المهم، ـ خارجاً عن العنصر المشار إليه ـ تظل هذه الحكاية من حيث علاقتها بالهيكل الهندسي للنص، مرتبطة من جانبٍ بما سبقها من ظواهر الإماتة والإحياء (قصة البقرة) وغيرها، ومن جانبٍ ثانٍ تظل مرتبطة بما يلحقها من قصص الإماتة والإحياء كما سنرىٰ عند مواجهتنا لقصص إبراهيم، وقصة القرية الخاوية وغيرهما من القصص والحكايات التي تحوم علىٰ فكرة الإماتة والإحياء، ومن جانب ثالث تظلّ علىٰ صلة بفكرة أخرىٰ هي فكرة (القتال) الذي ستجسّده آية لاحقة ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾، وستجسّده قصة ذات خطورة فنية وعضوية تتحدث عن الإسرائيليين وتخلّفهم عن القتال. وفي ضوء هذه الصلات العضوية للحكاية المشار إليها، نتبيّن سرّاً جديداً هو: ازدواجية السمة الفنية لهذه الحكاية من حيث كونها تتضمن شبكتين من الوصل، الأولىٰ: هي فكرة الإماتة والإحياء، والأخرىٰ هي: فكرة (القتال)، حيث تضطلع قصص لاحقة بتجسيد هاتين الفكرتين، فكرة الإماتة والإحياء التي ستجسدها قصة إبراهيم مع طاغية زمانه نمرود، وقصته مع الطيور الأربعة، وقصة الذي أماته الله تعالى مائة عام ثم أحياه، ثم فكرة (القتال) وصلته بسلوك الإسرائيليين الذي شكّل أحد المحاور الثلاثة للسورة الكريمة، فيما تضطلع قصة طالوت الآتية بتجسيد ذلك، وهذا ما نبدأ بالحديث عنه الآن:

* * *

قصة طالوت

إنّ هذه القصة تحتل موقعاً بالغ الأهمية من عمارة السورة الكريمة، فهي تتصل بسلوك الإسرائيليين الذين يحتلون ثلث السورة تقريباً، وتتصل بأهم ملامح السلوك الكاشف عن حجم تمرداتهم، حيث توضح هذه القصة موقفهم من (القتال) ـ وهو موضوع له صلته بفكرة القتال الذي ستطرحه السورة ـ وحصيلة سلوكهم الذي يطبعه الجبن والعناد والتمرد... الخ.

تلخيص القصة:

تتلخص القصة في طلب وجهاء الإسرائيليين إلى أحد أنبيائهم أن يبعث لهم الله تعالى قائداً ينتشلهم من استذلال الجبابرة حيث أخرجوهم من ديارهم وسبوا ذراريهم واستحيوا نساءهم، وبعث الله تعالى لهم طالوت، إلا أنهم اعترضوا علىٰ ذلك بكونه غير منحدر من أسرة عسكرية أو دينية، وأجابهم نبيهم بأنه ذو كفاءة بدنية وعلمية، وحينئذ طلبوا دليلاً علىٰ صدق ما يقول، فأوضح لهم أن آية ذلك هو التابوت الذي يمثل واحداً من الآثار الإسرائيلية التي يعترفون بأهميتها، غير أنهم للمرة الثالثة صدر عنهم تمرد جديد هو عدم انصياعهم لأوامر القائد الذي طلب منهم ألّا يشربوا من نهر خاص (وكان ذلك من أجل الاختبار)، ولما تجاوزوا ذلك، قال المتمردون: إنه لا طاقة لهم بمحاربة العدوّ... بيد أن المعركة حدثت وانتصر طالوت، وحُسم الموقف.

* * *

ما يعنينا من هذه القصة هو ملاحظة عمارتها الفنية من جانب، وصلتها بعمارة السورة من جانب آخر.

١ ـ من حيث الحوادث:

أمّا عمارتها (أي القصة) فيلاحظ أن القصة بدأت من وسط الحوادث أو المواقف وهي مطالبة الإسرائيليين بأن يبعث الله تعالى لهم قائداً ليقاتلوا في سبيل الله، وعندما شكك نبيّهم بجدية ما يقولون، أجابوه بأنهم قد أخرجوا من ديارهم وأن الجبابرة قد استذلوهم... الخ، بمعنىٰ أن القصة بدأت من وسط الحوادث و ارتدّت إلىٰ أولّها وهي استذلال الجبابرة لهم وإخراجهم من الديار. ولهذا الاستهلال من وسط الحوادث: دلالته الخاصة، حيث أن النص يستهدف لفت النظر إلى ظاهرة (القتال) كما أشرنا، ثم لفت النظر إلىٰ عدم جدية الإسرائيليين حيث أبرز النص ذلك من خلال تشكيك نبيهم بهم حيث قال لهم **﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألّا تقاتلوا﴾**. وهذا التشكيك له أهميته العضوية في عمارة النص ما دام النص (أي سورة البقرة) وظّفت للكشف عن السلوك المنحرف لدىٰ الإسرائيليين.

وهذا فيما يرتبط ببداية القصة وعلاقتها بعمارة السورة. أما ما يتصل بعمارة القصة ذاتها، فإن البداية التي شكّكت بجدية الإسرائيليين في القتال، أي: تشكيك نبيّهم بذلك في قوله **﴿هل عسيتم... ألّا تقاتلوا﴾**، إنّ هذا التشكيك سوف ينعكس علىٰ عمارة القصة، حين نجد في وسطها حادثتين تعكس عدم جديتهم، وهما: عدم الانصياع لأوامر القائد بعدم الشرب من النهر، وهروبهم من المعركة قبل شروعها عندما قالوا: **﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾** [البقرة: ٢٤٩].

وأما انعكاس الحوادث الأخرىٰ أحدها على الآخر بصورة عامة، فيتضح من الطرف الآخر من الشخوص ـ وهم القلة ـ الذين اهتموا بأوامر القائد **﴿فشربوا منه إلا قليلاً﴾**، وهم القلة ذاتها ممن لم يهربوا من المعركة ولم

يقولوا لا طاقة لنا بجالوت، بل قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾، ومن الواضح أن لهذا القول أهميته العضوية في عمارة القصة، حيث انعكس ذلك علىٰ نتيجة المعركة التي انتهت بانتصارهم علىٰ عدوهم ﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت...﴾ أي: أن قولهم ﴿كم من فئة قليلة...﴾ تنامىٰ عضوياً ليصل إلى مرحلة تجسيد ذلك في عملية انتصار الفئة القليلة علىٰ الفئة الكثيرة كما قالوا.

وإذا تركنا الحوادث، واتجهنا إلى رسم الشخوص، نجد أن عمارة هذه القصة:

٢ ـ من حيث الشخوص:

عمارة هذه القصة من حيث شخوصها، تقوم علىٰ مبنىً عضوي يتجانس من خلال رسم ملامحهم مع طبيعة الأفكار التي طرحتها القصة، فمثلاً نجد أن القصة رسمت ملامح طالوت علىٰ هذا النحو ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ فالملاحظ أن الإسرائيليين قد اعترضوا علىٰ هذا القائد بكونه لم ينتسب إلى سلالتهم الموروثة من الملك، وبكونه فقيراً، ولكن النص أجابهم بأن الله تعالى: ﴿زاده بسطة في العلم والجسم﴾، وهاتان الصفتان: قوة الجسم وسعة العلم، تشكّلان جواباً علىٰ اعتراضهم الهزيل، أنهم لم يبحثوا عن السمات الحقيقية للبطل بل انطلقوا من حسٍّ عنصري واقتصادي، وكلاهما لا علاقة لهما بالكفاءة العسكرية، ولذلك جاء الجواب ليقدّم لهم السمات التي ينبغي أن تتوفر في القائد العسكري، وهي: السمة الجسمية ـ أي قوة الجسم ـ، بخاصة أن المعارك قديماً تعتمد علىٰ بطولة الجسم، ثم: سمة العلم: ـ أي الخبرة العسكرية ـ التي تعني معرفة الخطط العسكرية في مواجهتهم العدو.

وبالفعل، نجد أن المعركة قد انتهت بهزيمة العدو، ممّا يكشف ذلك عن أنّ الرسم لهذا البطل من خلال سمتي الجسم والعلم، عكس آثاره علىٰ عمارة

القصة بالنحو الذي أوضحناه. . .

فإذا تركنا شخصية طالوت واتجهنا إلىٰ شخصية النبيّ الذي تعامل مع الإسرائيليين، نجد أن القصة قد رسمته شخصية (مبهمة) لم تعرّفه بالاسم، ولم تحدّد الزمان أو المكان اللذين وُجد فيهما النبيّ المذكور بل اكتفت بالقول بأنه (نبيّ) (من بعد موسىٰ). ولهذا الإبهام لشخصية البطل وزمانه ومكانه: علاقة عضوية بعمارة القصة وبعمارة السورة أيضاً، فالمهم هو أن النص في صدد الكشف عن السلوك السلبي للإسرائيليين (الجبن، التمرّد، العناد، الهزال الفكري. . . الخ)، وقد وُظّفت هذه القصة لإنارة أو لإلقاء الضوء علىٰ السلوك المذكور، وحينئذٍ لا ضرورة للتعريف باسم النبيّ ولا ضرورة لتحديد زمانه ومكانه بل المهم هو أن تنتخب شخصية ذات موقع خاص ترتبط من جانب بالسماء ومن جانب آخر بالإسرائيليين، أما ارتباطها بالسماء وبهم فلأجل أنهم أرادوا تدخل السماء لإنقاذهم من استعباد العدوّ، فلا بدّ حينئذٍ أن يحمل صفة (نبيّ) يكون واسطة بين السماء وبين الإسرائيليين. وأما تحديد الزمان بأنه (من بعد موسىٰ) فتتمثل أهميته الهندسية من عمارة السورة في أن النص يتحدث عن الإسرائيليين بعامة، وقد سبق له أن تحدث عن سلوكهم في زمن موسىٰ(ع) في القسم الثالث من النص، ووجدنا أن غالبية المفارقات التي عرضها النص كانت منصبّة علىٰ تعاملهم مع موسىٰ، وحينئذٍ فإن تحديد الزمن ـ في هذه القصة ـ بكونه هو من بعد موسىٰ دون الدخول في التفصيلات يكشف عن جملة خطوط هندسية ترتبط بعمارة السورة، منها: أن موسىٰ هو الشخصية النبوية الرئيسة التي ينتسبون إليها إيديولوجيّاً ومنها: أن الكشف عن سلوكهم في زمانه قد انتُهي منه، ولا بد من متابعة الكشف للأزمنة اللاحقة (وقد تمّ هذا أيضاً في القسم الثالث من النص)، فكان التحديد بأنه في زمانٍ يعقب زمان موسىٰ: تحديداً يكشف عن دلالة أنّهم يشكّلون سلسلة لا انقطاع لها من السلوك المنحرف طوال التاريخ.

وأما بالنسبة إلى عنصر (البيئة) في هذه القصة وعلاقة ذلك بعمارتها وعمارة السورة الكريمة، فيلاحظ تنوع هذه البيئة جغرافياً وصناعياً وتاريخياً... الخ، فالبيئة (النهرية) فرضت ضرورتها العضوية ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ ما دامت القصة أساساً تتحدث عن السلوك الإسرائيلي والاختبارات التي فشلوا فيها... والبيئة الصناعية (وهي التابوت الذي يتضمن سكينةً وبقية مما ترك آل موسىٰ وآل هارون)، فتتضح علاقتها العضوية بالنص إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن النص هو في صدد الكشف عن جميع المستويات الهزيلة التي يصدرون عنها في سلوكهم، ومنها: العناد والمراوغة والرقاعة في طلباتهم... الخ، وحينئذ: لا بدّ من تهيئة أية وسيلة اختبارية ترغمهم على قبول الواقع ومن ثم يتم الكشف عن استمرارية انحرافهم حتىٰ بعد الإقرار بالواقع، وهذا ما تضمنته تجربة التابوت، حيث أن هذا التابوت يحمل تراث الإسرائيليين، فإذا شاهدوه حقيقة، تتمّ الحجة عليهم، وهذا ما حدث فعلاً حيث وافقوا علىٰ انتخاب طالوت: بعد أن طلبوا آية علىٰ ذلك، فكان التابوت. لكنهم مع ذلك ـ كما لحظنا ـ تمردوا علىٰ طالوت وهربوا من المعركة إلّا قليلاً منهم.

إذن، جاء الرسم للبيئة وللشخوص وللحوادث، متجانساً مع طبيعة الأفكار التي تضمنتها القصة وعلاقتها بالأفكار المطروحة في السورة بعامة، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

لحظنا، أن قصتي (الذين خرجوا من ديارهم) و(الملأ من بني إسرائيل)، جاءتا في سياق العرض لسلسلة الأحكام التي اضطلع بها القسم السادس من السورة، حيث أوضحنا العلاقة العضوية لهما بعمارة السورة الكريمة.

وفي الجزئية الجديدة التي نتحدث عنها، نواجه عنصراً قصصياً يتّصل بفكرة (الإماتة والإحياء) التي تشكّل أحد المحاور الرئيسة للنص... إلّا أنّ

الملاحظ، أن هذه الجزئية طرحت جملةً من الظواهر المتصلة بالأحكام وبغيرها من الظواهر التي تستهدف توصيلها في سياق الحديث عن هذا الجانب، ومنها: ظاهرة (الإنفاق)، بصفتها إحدىٰ الظواهر المتصلة بالأحكام، حيث طرحها النص في جملة من المواقع علىٰ نحو جزئي، وحيث سيطرحها مفصلاً بعد حديثه القصصي عن (الإماتة والإحياء).

ومن هذه الظواهر المطروحة، تواجهنا ظاهرة (الشفاعة) التي طرحها من القسم الثالث في السورة، ويطرحها الآن في سياق حديثه عن الإنفاق، ويطرحها بعد في آية الكرسي التي تتناول ظواهر عبادية مختلفة يستهدف النص لفت النظر إليها. إلا أن الخيط المشترك الذي يربط بين آيتي الكرسي والإنفاق والسلوك الإسرائيلي، هو: مفهوم (الشفاعة) حيث ينفيها النص عن المناخ غير المرتبط بمبادىء الله تعالى، لينتقل بعد ذلك إلى قصص الإحياء والإماتة، كما قلنا.

إذن، لنتحدث عن هذه القصص وبنائها الهندسي من جانب، وعلاقة ذلك ببناء السورة من جانب آخر.

قصص الإماتة والإحياء:

نواجه في الجزئية الجديدة من القسم السادس من السورة، ثلاث قصص أو حكايات تصبّ جميعاً في فكرة (الإماتة والإحياء) التي تشكل أحد المحاور الرئيسة لأفكار السورة.

القصص هي:

١ ـ قصة إبراهيم مع نمرود.

٢ ـ قصة المارّ علىٰ القرية.

٣ ـ قصة الطيور الأربعة.

ونتحدث عن عمارة هذه القصص بمجموعها، وعمارة كل واحدة منها

والموقع العضوي لها من السورة الكريمة.

١ ـ **عمارة القصص**: الملاحظ، أن هذه القصص الثلاث تختلف عن قصتي (ذبح البقرة وإحياء القتيل) و(والألوف الذين أحياهم الله تعالى) في كونها مجموعة قصص متلاحقة وليست منفصلة أو متفرقة في مواقع متنوعة من السورة، وتختلف عنها بكونها جاءت في سياق واحد بالقياس إلى السياقين اللذين وردت فيهما القصتان السابقتان حيث وردت الأولىٰ في سياق الكشف عن القاتل، والأخرىٰ في سياق الهروب من الموت. أما هذه القصص الثلاث فقد وردت في سياق (الإحياء والإماتة) ذاتهما، أي: جاءت هذه القصص لبلورة فكرة الإحياء والإماتة. بحيث شكّلت هدفاً رئيساً، بينا جاءت القصتان السابقتان في سياق هدف ثانوي كما هو واضح.

ولعل السرّ الفني في ذلك هو أن القصتين السابقتين وما تضمنته الآيات القرآنية الأخرىٰ من إشارات إلىٰ ظاهرة الإماتة والإحياء، هذه جميعاً شكّلت تمهيداً أو توطئةً لهذه الفكرة التي حان الوقت للدخول في تفصيلاتها من خلال القصص الثلاث التي عبّرت عن هدفها بوضوح، حينما بدأت الأولىٰ بعبارة ﴿**إذ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت**﴾ [البقرة: ٢٥٨] وحيث بدأت الثانية بعبارة ﴿**قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها**﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وحيث بدأت الثالثة بعبارة ﴿**وإذ قال إبراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتىٰ**﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومن الطبيعي، أنّ لهذا الاستهلال القصصي دلالته الفكرية التي تكشف ـ كما قلنا ـ عن أن هدف القصص هو التركيز علىٰ ظاهرة الإماتة والإحياء، كما أن لها دلالتها الهندسية التي تكشف عن ضخامة وجمالية وإحكام العمارة الفنية لهذه القصص.

إن أبرز ما يمكن ملاحظته في عمارة القصص، أنها تعدّ قُصصاً مستقلةً

من جانب وقصة متداخلة أو قصصاً داخل قصصٍ من جانب آخر. أما المسوّغ الفني لكونها (قصصاً داخل قصص) فيتضح تماماً حين نأخذ بنظر الاعتبار أن هدفها واحد هو (الإحياء والإماتة)، وإن هذا الهدف يشكّل محوراً رئيساً وليس ثانوياً، وما دام الأمر كذلك، حينئذٍ فإن صياغتها ضمن عمارة قصصية واحدة (وليست منفصلة أو متفرقة) تحمل كامل مسوغات الفن القصصي كما هو واضح.

وأمّا المسوّغ الفني لجعلِها قصصاً مستقلة (في الآن ذاته) فيتضح تماماً حين نأخذ بنظر الاعتبار أن كل واحدة منها تتناول جانباً من مفهوم الإماتة والإحياء يختلف عن الآخر، فالأقصوصة الأولىٰ تتحدث عن مطلق الإماتة والإحياء، والثانية تتحدث عن إماتة وإحياء مدينة، والثالثة تتحدث عن إحياء طيور، كما أن سياق كل واحد منها يختلف عن الآخر، فالأولىٰ تتحدث عن شخصية كافرة تزعم أنها قادرة علىٰ أن تحيي وتميت «شخصية نمرود»، والثانية تتحدث عن شخصية مؤمنة ولكنها تستبعد إحياء المدينة من جديد، والثالثة تتحدث عن شخصية موقنة ولكنها تريد أن يطمئن قلبها وأن تشاهد تجربة الميت وإحياءه»، إذن، كل قصة ذات جانب خاص وذات سياق خاص، مما يجعل صياغة كل واحدة مستقلة عن الأخرىٰ، له مسوغاته الفنية، ولكن بما أنها جميعاً تصبّ في مفهوم واحد، وبما أنها تستهدف المفهوم المذكور بصورة رئيسة، حينئذٍ تأخذ ـ في الآن ذاته ـ مبنىً هندسياً خاصاً هو: تجميعها داخل قصة (موحّدة) كما لو افترضنا وجود ثلاث عمارات متجاورة ذات أحجام مختلفة ولكنها ذات تصميم واحد من حيث هدفها كأن تكون للسكن أو للتمثيل المسرحي أو لإلقاء المحاضرات أو لاستقبال الضيوف أو للتصنيع مثلاً. . . الخ.

ومما يجدر تأمله هنا (ونحن نتحدث عن المبنىٰ العماري لهذه القصص

وعلاقتها فيما بينها وبين السورة الكريمة) أن قصّتين منها ـ وهما قصة إبراهيم مع نمرود وقصته مع الطيور الأربعة ـ ينتظمهما بطل واحد هو إبراهيم(ع). ونحن نتذكر جيداً أن إبراهيم قد احتلّ الحديثُ عن شخصيته مساحة كبيرة من السورة لأسباب أوضحناها في حينه، وهذا يعني أن النص ـ في شبكة خطوطه العامة ـ لا يزال يصل بين خطوطها المتباعدة والمتقاربة حتىٰ لا يفصل أحدهما عن جسم السورة الكريمة، لذلك فإنّ فكرة الإماتة والإحياء في هاتين القصتين تأخذ أبعاداً جديدة من الدلالة التي ينبغي لفت النظر إليها، فإبراهيم(ع) ـ في الحكاية الأولىٰ ـ يتحدث باطمئنان عن قدرة الله تعالى في الإماتة والإحياء وفي القصة الثانية يطالب بتجربة عملية للاطمئنان، وهو أمر يكشف عن أن هدف النص هو تبيين جميع المستويات التي يصدر الإنسان عنها في استجابته وردّ فعله وتصوراته عن فكرة الإماتة والإحياء، فإذا ربطنا هذه الشخصية بشخصيتين أخريين هما نمرود والمارّ على القرية، وجدنا أن مستويات متفاوتة من التصورات هي التي قد أبرزتها الحكايات القصصية، وإن هذه المستويات قد تدرّجت في خط تصاعدي يفسّر لنا السرّ الهندسي الذي سلكته القصص الثلاث، حيث بدأت بقصة إبراهيم، فالمارّ علىٰ القرية، فالطيور، مع أنه كان من الممكن أن لا يُفصَل بين قصتي إبراهيم بقصة المارّ على القرية، ولكن بما أنّ القصة الأولىٰ قد استهدفت من جانبٍ أن تبرز مفروضية القدرة علىٰ الإحياء والإماتة، حينئذ رسمت شخصيتين إحداهما شخصية إبراهيم المطمئنة بذلك والأخرىٰ شخصية نمرود الجاحدة، ولكن المحاجة أو المناقشة قد انتهت بتسليم الجاحد ﴿فبهت الذي كفر﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي: أقرّ بأنّ الإماتة والإحياء تنحصر فاعليتهما في الله تعالى بقرينة أن ما توهمه نمرود من إمكانية شخصه في الإحياء والإماتة، قد زال تماماً عندما طالبه إبراهيم بأن يأتي بالشمس من المغرب.

والآن، بعد أن حققت القصة الأولى المارّ علىٰ القرية هدفها، وهو

مفروضية القدرة، وكان من الممكن أن يتبع قصة إبراهيم مع الطيور الأربعة بقصته مع نمرود، ولكنه فَصلَ بين القصتين بقصة المار علىٰ القرية حيث لا يشكك بطلها بقدرته علىٰ الإماتة والإحياء بل استبعد ذلك تبعاً للقوانين التي يرسمها الله تعالى في توكيل ذلك إلى محله (كالانبعاث في اليوم الآخر مثلاً) ولكي يدلّل له النص علىٰ إمكانيته خرق القوانين أيضاً، حينئذٍ أماته مائة سنة وأحياه، أما إبراهيم(ع) فيمثل مرحلة تصاعدية تتناسب مع شخصيته التي أكسبها أهمية كبيرة طوال السورة الكريمة، أنه لم يستبعد خرق القوانين، بل أراد عملية تجريبية في خرق القوانين، فتمّ له ذلك.

إذن، كل واحدة من هذه الأقاصيص عالجت جانباً خاصاً قد تدرج بها النص من حالة تسليم بالشيء، إلى حالة استبعاد الخرق لقوانين ذلك الشيء، إلى حالة عدم استبعاد ذلك.

* * *

وبالنسبة إلى أدوات الصياغة القصصيّة، جاءت هذه الأدوات متجانسة مع طبيعة كل واحد من هذه القصص. فقصة إبراهيم مع نمرود اعتمدت (المناقشة) مع شخصية جاحدة حتى تفضي المناقشة إلى التسليم بحقيقة قدرته علىٰ الإماتة والإحياء، وقصة إبراهيم مع الطيور قد اعتمدت الطيور محطاً للتجربة، لإمكاناتها الحركية التي لا تتاح لغيرها من الحيوان، وقصة المارّ على القرية قد اعتمدت المارّ نفسه مضافاً إلى الراحلة والزاد. أما انتخاب الشخص نفسه (وكان بالمقدور إحياء المدينة ذاتها) فلأن المسألة تتصل بتساؤل شخص محدد، وحينئذٍ فإن إخضاعه نفسه للتجربة يكون أشد وقعاً من جانب، ولعدم المسوّغات لإحياء مدينة بائدة، إذا كان الهدف هو مجرد تحقق القناعة بإمكانية الخرق للقوانين، حيث أن إماتة الشخص نفسه وإحياءه كافٍ لتحقق القناعة المذكورة.

وأما انتخاب الطعام والدابة دون غيرهما من الظواهر، فتتضح مسوغاته الفنية إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن المارّ علىٰ القرية هو «مسافر» والمسافر لا بد له من (راحلة) تنقله من مكان إلى آخر، ولا بدّ له من (زاد) يحمله في سفره. ولذلك طالب النص هذه الشخصية أن تنظر إلى طعامها وشرابها، وأن تنظر إلى دابّتها، فتكون بذلك كل واحدة من الشخصية والراحلة والزاد أدوات متجانسة مع طبيعة الفكرة التي تستهدفها القصة، ومن ثم نتبيّن مدىٰ إحكام وجمالية العمارة القصصية بنحوها الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

ونتجه إلىٰ جزئية جديدة من هذا القسم من السورة الكريمة، فنجد أن (الظاهرة الاقتصادية) ـ وفي مقدمتها (الإنفاق) تأخذ المساحة المتبقية من السورة، حيث تختتم السورة بآيتين تتحدثان عن (الإيمان) وترتبطان عضوياً بمقدمة السورة كما سنوضح ذلك في حينه.

وأما (الإنفاق) فيحتل ـ كما أشرنا ـ المساحة الغالبية من النص، ولا نجدنا بحاجة إلى تحديد الموقع الهندسي لها من عمارة السورة ما دمنا قد ألمحنا سابقاً عن الترابط العضوي بين الإنفاق والجهاد، وبينهما وبين الجزئية السابقة التي واكبت قصتي (الهاربين من الموت)، و(الملأ من بني إسرائيل) والطريقة الفنية التي سلكها النص في طرحه لظاهرتي الجهاد والإنفاق خلال ذلك كله.

إن الإنفاق يظل أشد الظواهر تأكيداً في النص القرآني. وقد سبق الوقوف عند جملة من المواقع التي طُرِح الإنفاق خلالها. ولا شك، أن النص عندما يكرر هذا الطرح (وقد كان طرحه في السابق سريعاً وعابراً ومختزلاً، تمهيداً لطرحه مفصلاً فيما بعد)، وعندما يخصص له مساحة كبيرة من النص، حيث تضطلع آيات متعددة بمعالجة هذا الجانب، حينئذ نستكشف أهمية مثل هذه

الظاهرة. ولعل ما يكسب هذه الظاهرة أهمية أخرىٰ هي أن النص قد اعتمد عنصر (الصورة الفنية) في رسم هذه الظاهرة، فقدّم لنا حشداً هائلاً من الصور المدهشة والممتعة فنياً، بدأها بالنحو التالي **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم. . . . ولا هم يحزنون﴾** [البقرة: ٢٦١ ـ ٢٦٢].

لقد كان النص في الجزئية السابقة قد اعتمد عنصر (القصة) لبلورة مفهوم (الإماتة والإحياء)، وهنا قد اعتمد عنصر (الصورة) لبلورة مفهوم (الإنفاق) وهذا التنوع في أداة التعبير الفنية يكسب عمارة النص مزيداً من الجمالية كما هو واضح. ولكن دعنا نمعن النظر في صياغة العنصر الصوري هنا لملاحظة بنائه العضوي وتجانس هذا العنصر مع طبيعة الفكرة (أي الإنفاق).

الصورة الأولىٰ التي تواجهنا هي تشبيه الانفاق بالحبة التي تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والتعقيب على ذلك بأنه تعالى (يضاعف لمن يشاء).

إن استهلال هذه الظاهرة بالتشبيه المذكور، له أهميته الهندسية في عمارة المقطع كما سنرىٰ، إلا أننا نستهدف تحليل هذه الصور وما بعدها حسب تسلسلها لنتبيّن جمالية العمارة بوضوح.

لقد شبّه النص الإنفاق بالحبة واستتباعها مضاعفة ذلك إلى سبعمائة بل أكثر من حيث الثواب المادي والأخروي. طبيعياً، أن عملية (النموّ) للنبات تتجانس مع عملية النّمو للمال وثوابه، حيث لا توجد ظاهرة حسية ملحوظة للعيان بمقدورها أن تتنامىٰ إلا ظاهرة النبات الذي يتنامىٰ بسرعة، وبكثرة، وبجمالية المرأى، وبعطاء الثمر. . . الخ.

بيد أن الانفاق بمعطياته المذكورة، مشروط بجملة أمور، منها: أن يكون (في سبيل الله) وهذا ما استُهِلت به الآية **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله. . . الخ﴾**. ومنها:

ألّا يكون مقروناً بالمن والأذى، وهذا ما تكفّلت بتوضيحه الآيات التي تلت هذا الاستهلال، حيث يقول النص **﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**. إن هذه الآية تشكل (وسطاً) يربط بين المقطع ونهايته، فبداية المقطع قد اشترطت الإنفاق في سبيل الله تعالى. وها هي الآية الثانية تستهل حديثها بالانفاق في سبيل الله تعالى **﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذىً﴾**. لنلاحظ (النمو العضوي) بين هاتين الآيتين، فالأولىٰ تقول (الإنفاق في سبيل الله يُضاعف) والآية الثانية تطوّر هذا المفهوم لتقول (الإنفاق في سبيل الله مشروط بعدم المن والأذى). ثم ترسم الثواب المترتب علىٰ الانفاق بلا منٍ وأذىٰ تجانساً مع الآية الأولىٰ التي رتّبت ثواباً علىٰ الإنفاق في سبيل الله تعالى.

أقول: إن الآية الثانية رتبت ثواباً علىٰ الإنفاق بلا منٍ وأذىً هو **﴿لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**... إن هذه العبارة نفسها يُختم بها هذه الجزئية الخاصة بالانفاق، حيث جاءت الآية الأخيرة بهذا النحو **﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية، فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** [البقرة: ٢٧٤]. إذن، لحظنا كيف أن عمارة هذا المقطع الكبير قد استهلّ، وتنامىٰ من خلال الوسط، وخُتم بالإنفاق وبثوابه الذي اضطلع الاستهلال والوسط بتوضيحه، وبذلك تكون عمارته قد أحكم بناؤها الفني وارتبطت جزئياته بعضها مع الآخر بداية ووسطاً ونهاية. لكن، لا نزال بعد، نتحدث عن الخطوط العامة التي ربطت بين بداية المقطع ووسطه ونهايته، وأما تفصيلات ذلك، فنتابع الحديث عنها الآن.

بعد أن يوضّح النص أن الانفاق ينبغي ألّا يقرن بالمن والأذىٰ، يقدّم لنا (بديلاً) هو **﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذىً﴾** [البقرة: ٢٦٣].

إنّ هذا البديل لا يعني أفضلية عدم الإنفاق بقدر ما يعني أفضليته بالقياس إلى الإنفاق المصحوب بالأذىٰ. ولكي يبلور لنا النص مدىٰ المفارقات المترتّبة علىٰ الإنفاق المصحوب بالمن، يتقدّم بعنصر صوري جديد يقوم علىٰ نمط خاص من التشبيه هو ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا. . .**﴾ [البقرة: ٢٦٤]. إن هذا التشبيه يعدّ واحداً من التشبيهات المتميزة في النص القرآني الكريم، أنه تشبيه يحفل بما هو معجز، ومدهش، ومثير، وممتع، ومكتنز بالدلالات التي لا حدود لتصور ما فيها من العمق والدقة والشمول والغنىٰ والتنوّع والتفصيل. كما أنه ـ من حيث التركيب الصوري ـ ينتسب إلى نمط من (التشبيه المتداخل) الذي لا حدود لتصور جماليته. إنه أولاً يشبّه الصدقة المصحوبة بالمنّ، يشبهها بالمرائي، ثم يشبّه كلاً من المرائي والمتصدق بالمن، يشبههما بحجرٍ صافٍ يعلوه تراب فتصيبه أمطار غزيرة فتزيل ما عليه من التراب بحيث لا يقدر أحد على ردّ ذلك التراب إلى الحجر.

والسؤال هو: لماذا لا يُشبّه النصُ المنفق بالمنّ بالحجر مباشرةً إذا كان الهدف هو المقارنة بينه وبين الحجر الذي لا ينبت أو لا يمكن ردّ التراب إليه؟ لماذا شبّهه أولاً بالمرائي؟ ولماذا شبههما جميعاً بالحجر؟.

هنا تبرز جمالية العمارة الصورية وطريقة بنائها. فالنص قد استهدف من جانبٍ إقحام حقيقة من الحقائق بطريق غير مباشر (وهذا هو أحد أساليب الفن) ألا وهي مدىٰ مفارقة عمل المرائي، فالرياء هو أشد الأشكال الملتوية في السلوك، لأنه ببساطة عمل لغير الله تعالى مع أن المفروض عبادياً هو العمل لله تعالى. يضاف إلى ذلك، أن هناك تجانساً بين العملين عمل المنفق بالمن وعمل المرائي، فالمنان إنما يمنّ علىٰ صاحبه فلأنه يتحسس بالحاجة إلى

تقدير الآخرين لشخصيته، أنه يريد ثمناً لعطائه من الناس وهو تقديرهم لشخصيته، وهذا يعني كونه يستهدف رضا الناس وليس رضا الله تعالى، وكذلك المرائي، يستهدف رضا الناس وليس رضا الله تعالى. إذن: ثمة تجانس بين العملين من جانب، وثمة ظاهرة يستهدف النص لفْتَ النظر إليها من جانب آخر، وهما يشكّلان المسوّغ الفني لأن تُبنىٰ عمارةُ الصورة بهذا النحو.

يبقىٰ أن نشير إلى نكتة فنية هي أن النص شبّه المنان بالمرائي أولاً، ثم شبههما بالحجر. سرّ ذلك، أن «المشبّه به» في الغالب يكون أقوىٰ وجهاً بالنسبة إلى (المشبّه)، ولذلك فإن النص بهذا قد استهدف لفت النظر إلىٰ شدة المفارقة التي يقوم عليها عمل المرائي، ومن ثم شدة المفارقة التي يقوم عليها عمل المنان، ويعزّز هذا، أن النص شبه كليهما بالحجر، أي أنه أولاً شبّه ما هو أضعف وجهاً (المنان) بما هو أقوىٰ وجهاً (المرائي)، ثم شبّه كليهما بالحجر، وبذلك يكون قد جعلهما بمنزلة واحدة حينما شبههما بالحجر. وهذا هو أحد الأسرار الممتعة في صياغة الصورة، والتدرج بالشيء من درجته الأقل إلى درجة التساوي بينهما، وبذلك تكون عمارة هذه التركيبات الصورية قد خضعت لعملية النموّ العضوي كما هو واضح، مما يكشف عن الإحكام الهندسي لها.

وأما تشبيه المنان والمرائي بالحجر، فينطوي علىٰ أسرار فنية ترتبط بطبيعة الصورة وبطبيعة العمارة التي خصصت للحديث عن ظاهرة الإنفاق، حيث سنجد أن التشبيه بالحجر والوابل ونحوهما سوف ينعكس أثره علىٰ صورة لاحقة هي ﴿**ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات‌الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ...**﴾ [البقرة: ٢٦٥]. إن هذه الصورة (امتدادٌ) للصورة السابقة، ولكنها

علىٰ نحو (التضاد) بين الصور، وبهذا نواجه عمارة صورية ذات خطوط جديدة تسهم في إكساب العمارة جماليةً جديدة. كيف ذلك؟.

إن الرابط العضوي بين الآيتين أو الصورتين يتمثل في عملية (الإنبات) وعدمه من خلال الأرض والماء (أو المطر). فالصورة الأولىٰ تجسّد أرضاً صلبة لا نَباتَ فيها، وإذا كان عليها شيء من التراب فإن (الوابل) ـ وهو المطر الشديد ـ عندما يصيبها يصبح لغير صالحها، لأنه سيزيل التراب عنها... وأما الصورة الثانية، فإن الأرض فيها أساساً عامرة بالنبات، أنها (جنة بربوة)، وحتىٰ في حالة الافتراض بأنّ (الوابل) لا يصيبها، فإن (الطل) ـ وهو المطر القليل ـ عندما يصيبها، حينئذٍ تستفيد منه نظراً لموقعيتها الخصبة.

إذن نحن الآن أمام عملية تقوم علىٰ خطوط من (التماثل) و(التضاد)، حيث أنّ كليهما يخلع علىٰ العمارة جمالية خاصة، فالتماثل هو الخطوط المتوازية، والتضاد هو الخطوط المتقابلة، والجمال يتجسّد في توازي الخطوط من جانب، أي مجاورة بعضها للآخر، ويتجسد في تقابل الخطوط من جانب آخر، أي وقوف أحدها مقابلاً للآخر. التماثل هو (التراب) و(الوابل)، والتضاد هو الإجداب والإخصاب.

لكن، هل أن هذه العمارة الصورية قد اكتمل رسمها؟ كلا. إنها تنتظر خطوطاً جديدة تتمثل في الآية الآتية: ﴿**أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت...**﴾ [البقرة: ٢٦٦].

إن هذه الآية تنتسب إلىٰ ما نسميه بـ(التشبيه القصصي) أي التشبيه من خلال التوكؤ علىٰ قصة أو حكاية تتحدث عن الإرث الذي يتركه أحد الأشخاص المعمّرين لذريته متمثلاً في مزرعة عامرة، ولكن الإعصار يصيبها فتحترق، فيُحرم هو وذريته من معطياتها. إن (الذرية) ترمز إلىٰ نتائج عمل

الإنسان، وأن الجنة ونخيلها وأعنابها وأنهارها ترمز إلىٰ ثواب الإنفاق مطلقاً، إلا أن هذا الثواب يحترق بإعصار المنّ والرياء ونحوهما. والمهم، أن التشبيه بالمزرعة وإبادتها يعدّ تتويجاً لما تقدمتها من الصور، ورمزاً عاماً أيضاً بحيث ينسحب علىٰ مطلق الأعمال التي لا تمارس في سبيل الله تعالى.

والآن، فإن العمارة الصورية تكون قد اكتمل بناؤها من خلال الرسم لكيفية الإنفاق من قبل صاحبه، أي: المنفق.

وبقي رسمان، أحدهما يتصل برسم المال الذي ينفقه الشخص، والآخر رسم الجهة التي يُنفَق عليها. وبكلمة بديلة، ما تقدّم يجسّد سمة المنفق، وما بقي يجسّد سمة الانفاق وسمة المستحقّ. وأما سمة الإنفاق أو المال فيفصح عنه قوله تعالى ﴿**أنفقوا من طيبات ما كسبتم..**﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وأما سمة المستحقّ فيفصح عنه قوله تعالى ﴿**للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف...**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وبهذا يكون النص قد رسَمَ خطوط (الإنفاق) بجميع مستوياته التي لحظناها، ثم خَتَم ذلك بعبارة ﴿**الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانيةً، فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [البقرة: ٢٧٤].

واضح، أنّ هذه النهاية التي خُتم بها المقطع الخاص بالانفاق، تفصح عن مدىٰ الإحكام الهندسي لعمارة المقطع، حيث لخّص عملية الانفاق، ورسمها عملية استمراريةً ﴿**ينفقون أموالهم بالليل والنهار**﴾ ولخّص أسلوبها (سراً وعلانية) تأكيداً أو تتويجاً لما سبق أن طرحه في آية متقدمة ﴿**إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**﴾ [البقرة: ٢٧١]، ثم ختمها بما سبق أن طرحه في المقدمة التي قالت ﴿**الذين ينفقون**

أموالهم في سبيل الله... لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ حيث جاء الختام في صياغة متماثلة هي قوله تعالى ﴿الذين ينفقون أموالهم... فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. وبذلك يكون المقطع قد ارتبطت أجزاؤه بعضها مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

الجزئية الأخيرة من الظاهرة الاقتصادية التي ترتبط بسلسلة الأحكام، قد طرحها النص في ختام السورة، متمثلة في ظاهرة (الربا) ومن ثم في ظاهرة (الدَين)، حيث ربط النص بينهما (الربا والدين) بنحو فنيّ سنتعرض له بعد قليل. بيد أننا نعتزم الإشارة أولاً إلىٰ الربط الفني بين ظاهرة (الإنفاق) التي انتهىٰ رسمها وبين ظاهرة الربا، ثم الربط بينهما من خلال خضوعهما لطابع واحد هو الظاهرة الاقتصادية.

إن الربط الفني بين الإنفاق والربا يتمثل في كون (الإنفاق) عملية (إعطاء)، والربا عملية (أخذ)، ويتمثل في كون الانفاق يستتبع عملية (نمو)، والربا يستتبع عملية (تناقص) حيث يقول النص ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ [البقرة: ٢٧٦]. ومن الواضح، أن هذا النمط من الربط ـ مضافاً إلى جمالية عمارته التي تصل بين الخطين (الإنفاق والربا) ـ ينطوي علىٰ سمة جمالية أخرىٰ هي (التضاد من خلال التماثل أو التماثل من خلال التضاد)، فنحن أمام عمليتين متضادتين (إنفاق وربا)، وأمام عمليتين إحداهما عملية (عطاء) وأخرى عملية (نهب)، وأمام عمليتين إحداهما تستتبع نمواً والأخرىٰ تستتبع نقيصة. وبهذا نتبين مدىٰ جمالية هذه العمارة التي (تتقابل) خطوطها واحداً أمام الآخر من جانب (التماثل) وأرضيتها من جانب آخر، بصفة أنهما ممارستان اقتصاديتان.

ويُلاحظ أن هذه العمارة التي تتساءل عن ظاهرة الربا قد انتظمتها خطوط أخرىٰ أسهمت في إضفاء الجمالية عليها منها:

ـ عنصر الصورة التشبيهية التي قارنت بين المرابين وبين السكران الذي يترنح عندما يحاول القيام. وهذه الصورة خاصة بالجزاء الأخروي للمرابي في ساحة الموقف .

ـ عنصر الصورة التشبيهية التي نقلت القول عن المرابين بأن البيع كالربا. ومنها:

ـ إدخال ظواهر ثانوية في سياق الحديث عن الربا وهي الإيمان والعمل الصالح والصلاة والزكاة. ومنها:

ـ إدخال ظاهرة (الدين) في السياق المذكور.

هذه الظواهر الثلاث تحتل جميعاً موقعاً هندسياً محكماً من عمارة النص.

أما عنصر الصورة التشبيهية، فإن صلته بعمارة النص تتضح أولاً بكون الصورة خاصة بالربا، (والمقطع هو خاص بالربا) ويتضح ثانياً من خلال التجانس بين الانفاق الذي اعتمد الصورة التشبيهية في المقطع السابق وبين الربا الذي اعتمد أيضاً عنصر الصورة ذاتها.

والأمر نفسه بالنسبة إلى الصورة التشبيهية الأخرىٰ التي نقلت زعم المرابين بأن البيع كالربا.

وأما إدخال الظواهر المرتبطة بالصلاة والزكاة والعمل الصالح... الخ، فقد تمّ ـ كما هو مألوف في النص القرآني ـ من خلال كون هذه الظواهر يستهدف النص لفت النظر إليها، إلا أن هذه العملية تتم من خلال الترابط بين المقطع السابق والمقطع الحالي، حيث عقّب النص علىٰ هذه الظواهر بالقول

﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وهي نفس العبارة التي وردت في أول المقطع السابق وفي نهايته حيث ربطت أجزاء المقطع بعضها مع الآخر، وحيث تربط الآن بين المقطع السابق والمقطع الحالي الخاص بالربا. وبهذا نتبيّن مدىٰ عملية التشابك بين الخطوط التي ترسل امتداداتها داخل المقطعين المذكورين.

وأما إدخال ظاهرة (الدين)، فإن ارتباطها بظاهرة الربا لا تحتاج إلىٰ تعقيب فضلاً عن أن النص من خلال شجبه لظاهرة الربا واستتباعه أخذ الزيادة من المدين، قد طرح ظاهرة إعسار المدين، فرسَمَ توصية هي إنظاره إلى ميسرة، والأفضل له أن يتصدّق على المعسر.

وبهذا يكون الربط بين عملية التصدق وبين المقطع السابق الخاص بالانفاق قد أكسب عمارة المقطع بعداً جديداً من الإتقان الهندسي ليس بين الربا والدين في هذا المقطع فحسب، بل بين «الانفاق» في المقطع السابق وبين التصدق في المقطع الحالي، وبذلك تكون هذه العمارة بالغة الإحكام والجمالية في عملية هذا التشابك بين الخطوط المختلفة التي لحظناها.

* * *

ونتجه إلى آخر ظاهرة طرحها النص في السورة، وهي ظاهرة (الدَين) علىٰ هذا النحو ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم... والله بما تعملون عليم﴾ [البقرة: ٢٨٢ ـ ٢٨٣]. ولا حاجة بنا إلى الحديث عن الرابطة العضوية بين هذا المقطع الخاص بالدين وبكتابته وملحقاته، وبين المقطع السابق الذي خُتِمَ بظاهرة (الدَين).

* * *

إذن، جاءت الظواهر الثلاث (الإنفاق، الربا، الدَين) وفق صياغة يرتبط كل واحدٍ منها مع الآخر برباط محكمٍ كما لحظنا. كما جاءت «من حيث

العمارة العامة لها» مندرجة ضمن ظاهرة عامة هي الظاهرة الاقتصادية. كما جاءت ضمن سلسلة عامة قد انتظمت القسم السادس من السورة ألا وهي سلسلة (الأحكام الشرعية). وجاءت أخيراً متجانسة مع سلسلة الأحكام، ومع أحد المحاور الثلاثة للسورة ألا وهو محور (الاتقاء) الذي مرّر شبكة إنارته علىٰ دروب السورة جميعاً كما لحظنا في حينه، وكما نلحظ ذلك لاحقاً حيث خُتم هذا المقطع الخاص بـ(الدَين) بظاهرة (الاتقاء) الذي شكّل رابطاً عضوياً بينه وبين سائر أجزاء النص.

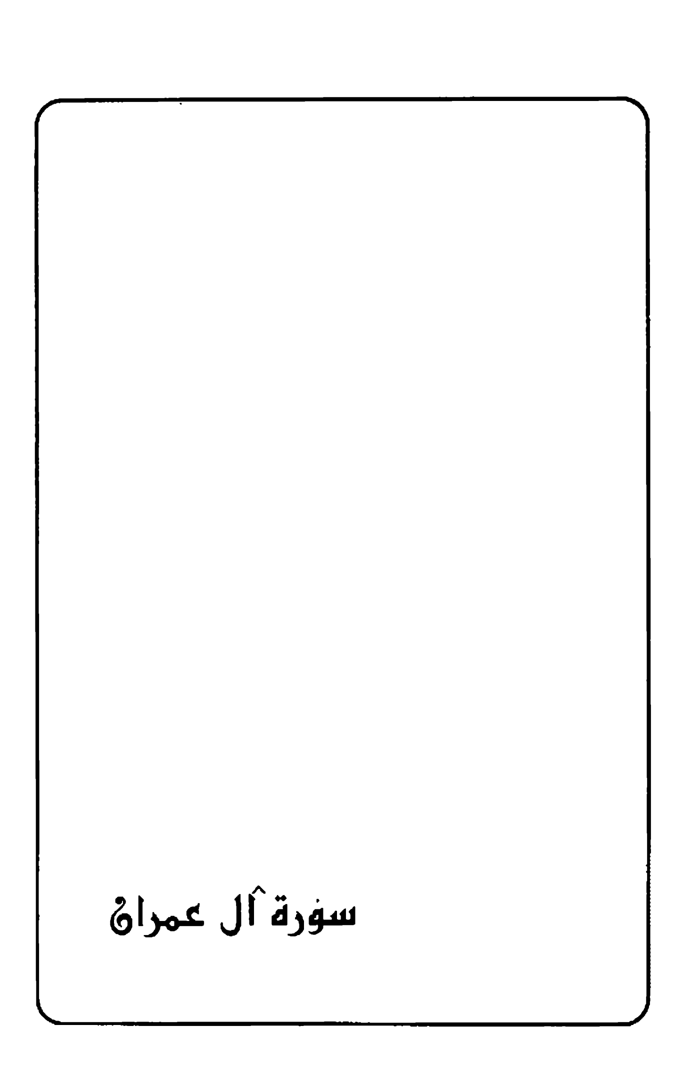
* * *

أخيراً، نواجه ثلاث آيات (خُتِمت) بها السورة الكريمة ﴿لله ما في السماوات.... الخ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. الآية الأولىٰ عرضت لظاهرة علم الله تعالى بما يبديه البشر ويخفيه، حيث أن الآية الأخيرة من المقطع السابق خُتِم بعبارة ﴿والله بكل شيء عليم﴾ فتشكّل بذلك تمهيداً لهذا الختام فضلاً عن صلة ذلك بإبداء الشهادة وإخفائها في المقطع السابق. وأما الآية الثانية ﴿آمن الرسول﴾ [البقرة: ٢٨٥] فتشكّل تتويجاً لسلسلة الأحكام التي اضطلع بها القسم الأخير من السورة متمثلة في عبارة ﴿بما أنزل إليه﴾، فضلاً عن صلتها ببداية السورة التي تقول ﴿يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك﴾ [البقرة: ٤] حيث تجانس هذه البداية التي تشير إلى الإيمان بما أُنزل على الرسول(ص) والرسل قبله، مع ختام السورة التي تشير إلىٰ هذه الدلالة ذاتها: مع ملاحظة أنّ النص في بداية السورة تحدث عن النبي(ص) وما أُنزل عليه وقبله بضمير المخاطب، بينما جاء في ختام السورة بضمير الغائب.

وفي تصورنا أن السرّ الفنيّ في ذلك، عائد إلى أن النص في ختام السورة يقدّم تلخيصاً لما عرضه فيها،وعملية العرض تُكتب بلغة الغائب في الأصل إلاّ في حالة استدعاء السياق لغة التخاطب أو التكلّم. يضاف إلى ذلك، أن هذا

التلخيص نقل لنا حصيلة مبادىء السماء والإيمان بها حيث آمن الرسول(ص) قبل سواه بذلك، وهو ما يفسر لنا أيضاً سرّ الافتتاح بعبارة ﴿آمن الرسول﴾ ثم بقية المؤمنين ﴿والمؤمنون كل آمن بالله...﴾، فضلاً عن أنّ الاختتام بعامة بغض النظر عن كونه بضمير المخاطب أو الغائب، يتناسب هندسياً مع كون رسالة محمد(ص) هي ختام الرسالات بعد أن كان القسم السادس من السورة خاصاً بسلسلة (الأحكام الشرعية) المجسدة لرسالة الإسلام كما هو واضح.

وأما الآية الأخيرة فهي امتداد لسابقتها التي قدّمت تلخيصاً لأحكام الشريعة كما قلنا، حيث أن التكليف بها مصحوبٌ بقدر طاقة الإنسان فيما ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وحيث أن الضعف البشري من الممكن أن يستجرّهم إلى الزلل حيناً، وهذا ما يدفعهم إلى أن يهتفوا ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾، وأخيراً، بما أنّ كل ما تقدّم عرضه، يجسّد رسالة السماء، فحينئذٍ لا بدّ من انتصارها علىٰ ما سواها من المبادىء المنعزلة عنها، وهو أمرٌ قد اضطلعت به العبارة الأخيرة القائلة ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾.



سورة آل عمران

تتألف عمارة هذه السورة الكريمة من ثلاثة أقسام، تتركز غالبيتها في الحديث عن سلوك الكتابيين، وتتخللها موضوعات كثيرة ترتبط عضوياً بشكل أو بآخر بالعصب الفكري العام للسورة.

كما أن صياغتها وفق عناصر قصصية وصورية، تسهم في عضوية البناء المذكور.

ولكي نتبين بوضوح مستويات البناء الهندسي للنص وما تتخلله من الأساليب الفنية، يجدر بنا أن نتحدث عن الأقسام الثلاثة، كل واحد منها على حدة حسب تسلسلها.

ونبدأ بالحديث عن:

القسم الأول

المقطع الأوّل:

يتألف هذا القسم من عدة مقاطع تبدأ من الآية(١) إلى الآية(٣٢). وأوّل مقاطعها هو (التمهيد) أو المقدمة التي تتضمن ست آيات على هذا النحو **﴿الٓمٓ * الله لا إله إلّا هو الحيّ القيوم * نزّل عليك الكتاب بالحق مُصدّقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هُدًى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلّا هو العزيز الحكيم﴾**.

ومن الحقائق التي ينبغي عرضها هنا بالنسبة إلى «مقدمة» السور القرآنية

وعلاقتها بالبناء العام للنص، أن (المقدمة) لا تخلو من إحدىٰ هذه الحالات:
١ ـ أن تكون مؤشّراً إلى أن موضوعات السورة الكريمة ستحوم علىٰ ما طرحته المقدمة، أي أن غالبية السورة ستركز علىٰ موضوعات مقدمتها ٢ ـ أن تكون تمهيداً لموضوعات أخرىٰ ترتبط بها من بعيد أو قريب ٣ ـ أن تكون موضوعاً مستقلاً، ولكن النص إنما طرحه في المقدمة لكي يلفت نظرنا إلى أهمية موضوعاتها.

لكن ـ في الحالات جميعاً ـ هناك رابط عضوي بين المقدمة وبين الموضوعات الأخرىٰ، هو الذي يكسب عمارة السورة القرآنية الكريمة جماليةً مدهشة بالنحو الذي سنعرض له خلال هذه الدراسات.

طبيعياً، ينبغي ألّا نغفل عن الإشارة إلى أن كل سورة تتضمن ثلاثة خطوط بنائية (المقدمة) (الوسط) (النهاية)، فالمقدمة والنهاية لا تتجاوزان آيات معدودة. أما الوسط فهو الذي يضطلع بطرح الموضوعات وتفصيل الحديث عنها مع ملاحظة أن الوسط يشكّل رابطاً عضوياً بين المقدمة والنهاية، كما أن كلّاً من المقدمة والنهاية يرتبط أحدهما بالآخر من جانب، ويرتبطان بالوسط من جانب آخر.

والآن، بعد أن أجملنا الحديث عن عمارة السورة القرآنية من حيث علاقة مقدمتها بالوسط وبالنهاية، نبدأ بالحديث عن موضوعات المقدمة التي نحن في صدد الحديث عنها ، أي مقدمة سورة آل عمران.

تتضمن هذه المقدمة ستة موضوعات هي (حضور السماء وقيموميتها) (نزول القرآن الكريم) (نزول التوراة والإنجيل) (تهديد الكفار بالعذاب الأخروي) (عدم خفاء شيء على الله تعالى) (تصويره تعالى للبشر في الأرحام).

إن استهلال السور القرآنية بإحدىٰ صفاته تعالى، ونزول الكتاب

وبالإشارة إلىٰ ظواهر الإبداع الكوني، يظلّ طابعاً ملحوظاً لكثير من السور بحيث يستهدف منه لفت النظر إلىٰ هذه الظواهر. لكن عندما يقرن ذلك بإشارة إلى ظاهرة خاصة حينئذ نستخلص بأن هذه الظاهرة سوف تحتل أهمية كبيرة من موضوعات السورة وهذا ما نلحظه من التنصيص علىٰ نزول التوراة والإنجيل حيث ذكرهما بالاسم في (مقدمة) السورة. ثم أردف ذلك بتهديد الكفار والتلويح بالجزاء الأخروي. وهذا يدلنا علىٰ أن غالبية الموضوعات سوف تنصبّ علىٰ سلوك (الكتابيين)، وأن البارز من سلوكهم هو: الكفر بقرينة الذكر لكتابهما من جانب والإشارة إلى كفرهما والتلويح بالعذاب لهما (أي اليهود والنصارىٰ) من جانب آخر.

وبالفعل، سنجد بعد هذه (المقدمة) أن (الوسط) يبدأ مباشرة بالحديث عن الكتابيين، وهذا ما يضطلع به:

المقطع الثّاني:

بهذا المقطع يبدأ (الوسط) من السورة، حيث قلنا:إن الوسط هو المتكفّل بالحديث عن الموضوعات بصورة مفصّلة.

ـ يبدأ المقطع بقوله تعالى ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنَّ أمُّ الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذّكّر إلا أُولوا الألباب * ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهَب لنا من لدنك رحمةً إنّك أنت الوهاب * ربنا إنّك جامعُ الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ [آل عمران: ٧ ـ ٩].

لنلاحظ أولاً مدىٰ الإحكام الهندسي بين مقدمة السورة ووسطها، فقد بدأ الوسط (يفصّل) ما (أجملته) المقدمة، إنّه كرّر الإشارة إلى نزول الكتاب (والمقدمة أشارت إليه كما لحظنا) وأوضح بأنه ينطوي علىٰ المحكم

والمتشابه، ثم ألمح إلى الكتابيين الذين وصفهم بسمة (الزيغ)، ألمح إلىٰ أنهم يتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وألمح إلى المؤمنين الذين هتفوا قائلين (لا تزغ قلوبنا). هنا ينبغي أن نقف ونتأمل بدقة ما ينطوي عليه هذا العرض من تخطيط هندسي لعمارة السورة الكريمة. إنّه تعرض للكتابيين.ورَسْم هذا التقابل بين الموقفين يحمل جمالية خاصّة في عمارة النص، طالما نعلم جميعاً بأن الأشياء تعرف بأضدادها. ونلاحظ أيضاً أن النص جعل الحديث عن زيغ الكتابيين (سرداً) أي وصفهم النص بالزيغ، أما بالنسبة إلى المؤمنين فلم يصفهم بعدم الزيغ، بل اعتمد عنصر (الحوار) في ذلك، بحيث جعلهم يدعون الله تعالى بألّا يزيغ قلوبهم. ولهذا الفارق بين أسلوبي (السرد) و(الحوار) أهمية فنية كبيرة هي: أن النص قد حَكَم سلفاً علىٰ الكتابيين بأنهم زائغون (مائلون عن الحق)، أمّا المؤمنون فليسوا كذلك، لماذا؟ لأن التركيبة البشرية تقوم على قطبي الخير والشر، لذلك فإنّ استغاثتهم بالله تعالى في الابتعاد عن الزيغ، وهي علىٰ العكس تماماً من الكتابيين الذين زاغت قلوبهم فحكم عليهم النص بالزيغ من خلال (السرد) الذي يعنيه عرض الحقائق كما هي (وهو وجود الزيغ الفعلي لديهم).

إنّ أهمّ ما ينبغي لفت النظر إليه هو: أنّ النص عندما وصف الكتابيين بالزيغ (والزيغ معناه: الميل عن الحق) إنّما ألغاهم من الحساب وجعل ذهن القارىء مهيّأً لأن يستقبل ما يذكره النص لاحقاً من أنماط السلوك السلبي لديهم، بخاصة أن (المناقشة) أو (المحاججة) بين الكتابيين والإسلاميين سوف تحتل مساحة كبيرة من السورة، فإذا كان الكتابيون (زائغين: مائلين عن الحق) حينئذٍ سنعرف سلفاً بأن محاججاتهم ومناقشاتهم هي: مناقشات باطلة. لماذا؟ لأنهم مائلون عن الحق، وحينئذٍ ما قيمة مناقشاتهم؟.

بهذا الأسلوب يكون النص قد هيّأ أذهاننا لأن نحكم سلفاً بتفاهة سلوك

الكتابيين وألاّ نقيم وزناً لمناقشاتهم التي سيعرضها النص.

أما بالنسبة إلىٰ المؤمنين، فقد قلنا: إنّهم طالبوا أولاً بألاّ يزيغ الله تعالى قلوبهم، وهتفوا ثانياً ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾. إن هذه الفقرة الأخيرة ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ سنجد انعكاساتها في نهاية السورة ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ فيما سنوضح العلاقة العضوية بين هاتين العبارتين في حينه.

المهم، إن كلاّ من سلوك المؤمنين والكتابيين قد عكس أثره علىٰ مقدمة السورة ونهايتها أو الوسط الذي سنتابع الحديث عنه، عبر المقطع الجديد، وهو:

المقطع الثّالث:

تنتظم هذا المقطع الآيات التالية ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادُهم من الله شيئاً وأولئك هم وقُود النّار * كدأب آل فرعون والذين من قبلِهم كذّبوا بآياتنا فأخذهُم الله بذُنُوبِهم والله شديد العقاب * قل للذين كفروا ستُغلَبُون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتَا فئةٌ تُقاتل في سبيل الله وأُخرى كافرةٌ يرونهم مِثليهم رأي العين والله يُؤيّدُ بنصره من يشاء إنَّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار * زُيِّن للناس حبُّ الشَّهوات من النساء والبنين والقناطيرِ المُقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسُومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حُسن المآب * قُل أؤُنبئكم بخير من ذلكم للّذين اتّقوا عند ربهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مُطهّرةٌ ورِضوانٌ من الله والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربَّنا إنّنا آمنا فاغفر لنا ذُنُوبنا وقِنا عذاب النّار * الصَّابرين والصَّادقين والقانتين والمُنفقين والمُستغفرين بالأسحار * شهِد الله أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأُولو العِلم قائماً بالقِسط لا إله إلّا هـو العـزيـز الحـكيـم * إنَّ الدين عند الله الإسلام وما اختلَف الذين أُوتوا

الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العِلم بَغياً بينهم ومن يكفُر بآيات الله فإنَّ الله سريعُ الحساب﴾ [آل عمران: ١٠ ـ ١٩]. الملاحظ في هذا المقطع أنه يبدأ بالحديث عن الكفار وينتهي بالحديث عن الكتابيين الذين اختلفوا فيما بينهم بغياً. وهذا النمط من العرض بين الكفار والكتابيين يشير إلىٰ جملة حقائق فنية منها: وحدة الكفر كتابيين ومشركين وغيرهم، ومنها: اتّشاح النص القرآني بالسمة الفنية المعروفة وهي: عمومية النص وخصوصيته من جانب، وطابعه الإيحائي من جانب آخر، بمعنىٰ أن النص الذي يكتسب سمة الخلود الفني هو ما يتضمن حقائق (عامة) ضمن ما يطرحه من حديث (خاص) بفئة أو بسلوك أو بظاهرة خاصة من الظواهر، وما يتضمن حقائق مشتركة يستطيع القارىء أن يستخلصها وفقاً لتذوقه وخبراته الثقافية، بحيث يستطيع أن يستخلص منه حقائق عامة تنطبق علىٰ الكافرين مطلقاً، وتنطبق علىٰ أهل الكتاب أيضاً، وهذا ما نلحظه فعلاً في المقطع الذي نتحدث عنه، حيث تشير بعض النصوص إلىٰ أن المقصود من الكفار(المشركين)، ويشير البعض الآخر إلى الكتابيين، وفي هذا النطاق أيضاً تشير بعض النصوص إلىٰ أن المقصود هم (اليهود) ويشير البعض إلى أنهم (النصارىٰ)، علىٰ تفاوت بين الموضوعات المتفرقة التي يتضمنها هذا المقطع. أمّا نحن (بصفتنا نعنى بدراسة العمارة الفنية للسورة) لا نجد أيّ تعارض بين هذه النصوص التفسيرية ما دمنا ندرك بوضوح أن جمالية النص الأدبي تقوم علىٰ هذين الطابعين: (العام من خلال الخاص) و(إيحائية النص)، فسواء أكان المقصود منهم مطلق الكفار أم الكتابيين، فالنتيجة تظل مرتبطة بالهيكل الهندسي للنص بحيث يكون النص قد تحدث عن حقائق الكفر وربطها في النهاية بسلوك الكتابيين الذين اختلفوا بعدما جاءهم العلم: بغياً منهم.

هنا ينبغي لفت النظر إلى هذه السمة الجديدة التي أطلقها النص علىٰ شخوص الكتابيين،وهي صفة (البغي)، بعد أن لحظنا من المقطع الأول أنه أطلق عليهم صفة (الزيغ). ولكل من هاتين الصفتين علاقة بتركيبة الإنسان من

جانب وبعمارة السورة القرآنية التي ينتظم هيكلها وفق الحقائق النفسية من جانب آخر.

إن السلوك الانحرافي ينطلق من نزعتي (الذات والعدوان)، أي أن الشخصية المنحرفة (دينياً أو سلوكاً عاماً) تتحكم فيها نزعتان:هما (الذات) أي البحث عن الإشباع غير المشروع لشهواتها حيال المال والجنس والسيطرة و.. و... و... وسائر أمتعة الحياة الدنيا التي سرد المقطع القرآني أبرزها مثل (النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث...). وأما النزعة الأخرىٰ فهي (العدوان) حيث إن هذه النزعة تترتّب علىٰ سابقتها حينما لا يتحقق إشباعه، مما ينمي لديه نزعة الحقد نحو الآخرين الذين يملكون هذه الأمتعة، أو تضطره إلى العدوان عليهم ليحقق بذلك إشباعه للشهوات المشار إليها.

إن النص القرآني سلك منحىً نفسياً مدهشاً حينما وصَفَ الكتابيين بهاتين السمتين (الذاتية ـ وهي الزيغ) و(العدوان ـ وهي البغي)، بيد أن المهم هو أنه رسم هاتين النزعتين من خلال ما نسميه بـ(النموّ العضوي) للنص، أي: أن الحقائق التي يذكرها النص، يبدأ بتقديمها علىٰ نحو تدريجي بحيث يترتّب أحدها علىٰ الآخر بالنحو الذي نجد فيه مراحل النمو الجسمي أو العقلي أو النفسي للشخص متدرجة من مرحلة إلىٰ أخرىٰ. ويمكننا ملاحظة هذا الأسلوب المرتبط بعمارة النص من خلال تقديمه أولاً نزعة (الذاتية) وهي (الزيغ، وهو الانحراف عن الحق). إن المنحرف عن الحق، ينطلق من نزعة ذاتية هي: إعراضه عن الشيء الذي لا يحقق إشباعه، فإذا نصحت ـ علىٰ سبيل المثال ـ شخصاً بأن يبتعد عن الجنس أو الجاه أو المال (وهو متشبث بها) حينئذ (يعرض) عن النصيحة، أي: يزيغ عن الحق، والأمر كذلك بالنسبة إلىٰ الكتابيين، إنهم أعرضوا عن حقائق القرآن الكريم، فوصفهم تبعاً لذلك بسمة

(الزيغ). بيد أن الأهم فنياً من ذلك هو أن النص رتّب سلوكاً خاصاً علىٰ الزيغ هو (اتّباعهم ما تشابه من القرآن)، أي أن النص ذكَرَ أولاً سمة (الزيغ) **﴿فأمّا الذين في قلوبهم زيغ﴾**، ثم ذكر ما يترتب علىٰ الزيغ وهو**﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾**، وهذا هو أحد أسرار البناء الهندسي للنص حيث أخذ ظاهرة (النمو العضوي) بنظر الاعتبار، فجعل (اتباع الشبهة) مرحلة ترتبت علىٰ سابقتها (الزيغ).

وأما في المقطع الجديد الذي نتحدث عنه، فقد سلك أيضاً منحىً عضوياً في تدرّجه في طرح الموضوع الجديد وهو النزعة العدوانية أو البغي، حيث إنّ (الذاتية) حينما تفشل في إشباع شهواتها تلجأ إلى العدوان حينئذٍ، أي أنها تبدأ أولاً بنموّ نزعة الحسد أو الحقد فيها، ثم تبدأ بمرحلة العدوان الحقيقي، وهذا ما سلكه النص حينما أتبع حديثه عن (بغي) الكتابيين، بالحديث عن ممارسات القتل لديهم، وذلك في المقطع الرابع من السورة حيث سنعرض له بعد قليل وقد جاء فيه: **﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾** حيث يُعدّ القتل أبرز الأشكال العدوانية كما هو واضح.

المهم، أننا لا نزال مع المقطع الثالث الذي طَرَح في نهايته قضية الكتابيين الذين اختلفوا بغياً بينهم، حيث أردنا أن نوضح طبيعة العلاقة العضوية بين هذا المقطع وبين سابقه وبين لاحقه.

وقد أوضحنا ذلك علىٰ نحو الإجمال. ولكننا نعتزم هنا تفصيل الحديث عن المقطع كاملاً، وهذا ما يقتادنا إلىٰ متابعة موضوعاته. فما هي موضوعاته؟ قلنا: إن أول الموضوعات هو أن النص أطلق سمة (الكفر) علىٰ الشخوص الذين يتحدث عنهم **﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم...﴾** وقلنا إنّ الكفر ينطبق علىٰ مطلق الكفار وعلىٰ الكتابيين أيضاً، ومما يعزّز ويقوي هذا الاحتمال الفني هو أن النص ختم حديثه عن الكتابيين في آية **﴿وما اختلف**

الذين أوتوا الكتاب﴾ بعبارة ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾.
لنقرأ الآية جديداً ﴿إن الدين عند الله الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾. إن الدارس الأدبي الذي يعنىٰ بالعمارة الفنية للسورة، يدرك بسهولة طبيعة العلاقة القائمة في أول المقطع في عبارة ﴿إن الذين كفروا..﴾ بالعبارة القائلة في آخر المقطع الذي تحدث به عن الكتابيين ﴿ومن يكفر بآيات الله...﴾ حيث يمكنه أن يربط بين عبارتي (الكفر) وبين عبارة (الذين أوتوا الكتاب) ويستخلص بأن أهل الكتاب هم المقصود بـ:(أهل الكفر) وهذا لا ينافي ـ بطبيعة الحال ـ أن يكون المقصود مشتركاً بينهم وبين المشركين أيضاً، لأن النص ـ كما قلنا ـ تتجسّد أهميته الفنية في كونه يحتمل عدّة وجوه، وهذا هو أحد أسرار إعجازه الفني دون أدنىٰ شك.

ومن الأدلة الفنية التي تعزّز هذا الاتجاه، أن النص حينما بدأ حديثه عن الكافرين أشار أولاً إلى نمطين من الشهوات الذاتية هما (المال والأولاد) ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾، وأشار في آية أخرىٰ إلىٰ مجموعة من الشهوات الذاتية ﴿زين للناس حبّ الشهوات...﴾ حيث إن المشركين والكتابيين عرفوا بتشبثهم بهذه الأمتعة الدنيوية، وحيث يظل الكتابيون ـ بخاصة اليهود منهم ـ في مقدمة الرهوط الاجتماعية التي عُرِفت بتشبّثها بهذه الأمتعة كما هو واضح.

وأياً كان الأمر، إنّ المقطع عندما طرح مفهوم (الشهوة الذاتية)، طَرَحَها وفق تخطيط هندسي ممتع علىٰ هذا النحو:

أولاً: أشار إلىٰ شهوتي الأموال والأولاد، بعد ذلك أشار إلى شهوات النساء والبنين والذهب والخيل والحرث... لماذا؟ هذا ما يرتبط بعمارة المقطع، حيث ذكّر هؤلاء الكفار بحادثتين تأريخيّتين قديمة وحديثة، القديمة

هي حادثة آل فرعون، والحديثة هي حادثة بدر. وكلنا يعرف أن الأموال والأولاد هما القوة التي يستخدمها الإنسان في المعارك العسكرية، حيث تحتاج المعارك إلى رجال (الأولاد) وحيث تحتاج إلى (المال) لتغطية المعركة سلاحاً ومؤنة ونحوها. من هنا ندرك لماذا اقتصر المقطع أولاً في الحديث عن الكفار علىٰ شهوتي الأموال والأولاد ولم يذكر باقي الشهوات. وأما ذِكْرُه لباقي الشهوات في آية لاحقة، فيمكننا أن ندرك السرّ الفنيّ فيها سريعاً حينما نجد أنه يقول بوضوح بأن ذلك هو متاع الدنيا، وحينما يقول بوضوح أكثر ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها...﴾ حيث ربط المتاع الدنيوي في أبرز نماذجه بالنعيم الأخروي في أبرز نماذجه التي هي خير من متاع الدنيا ألا وهي (جنات...).

يبقىٰ أن نشير إلى جملة خطوط هندسية ترتبط بعمارة المقطع.

منها: إن ذكر شهوتي الأولاد والأموال قد قرنهما النص أولاً بالعذاب الأخروي، في حين قرَنَ الشهوات العامة بالنعيم الأخروي. فما هو السرّ الفني؟ في تصورنا، أن النص ما دام قد قرَنَ شهوتي المال والأولاد بحادثتي آل فرعون وبدر، حينئذٍ فإن أبرز الأشكال الذاتية التي يوظفها المنحرف لمحاربة الله تعالى هي: المعارك العسكرية، وإن أشد العذاب هو ما يترتب علىٰ حمل السلاح، وهو أمر يتداعى بالذهن إلىٰ العذاب الأخروي المترتب علىٰ حمل السلاح، أما بالنسبة إلى مطلق الشهوات التي تقتاد الشخص إلى الزهد بالآخرة، حينئذٍ فإن التذكير ـ بالجنة وليس بالنار ـ هو الذي يتناسب مع الطبيعة العامة للشخص الذي يلهث وراء الإشباع الدنيوي.

ثانياً: يُلاَحظ ـ كما قلنا ـ أن النص قد ذكَر بواقعتين، إحداهما قديمة (آل فرعون) والأخرىٰ حديثة (معركة بدر)، فما هذا السرّ الفنيّ في ذلك؟

في تصورنا أن الاستشهاد بالحوادث الواقعة حينما تم أحدها من خلال

الماضي والآخر من خلال الحاضر، حينئذٍ يكون الأثر أشدّ بالنسبة إلىٰ المُخاطب، بصفة أن التاريخ (وحدة زمنية) خاضعة لقوانين اجتماعية متماثلة، فإذا ذكّرنا الشخص بالماضي واتبعناه بما هو حاضر بخاصة المعركة التي شهدها الكتابيون (بدر)، حينئذ فإن عنصر (الاقناع الفني) يأخذ أهميته الكبيرة. ليس هذا فحسب، بل نجد أن النص قد انتخب حادثتين خاصتين دون الحوادث الأخرىٰ، فالحوادث الماضية متنوعة مثل المصائر التي انتهت إليها أقوام نوح أو هود أو صالح أو لوط أو شعيب... الخ، فلماذا انتخب النص منها: مصائر الفرعونيين فحسب؟ في تصورنا أن فرعون بصفته أعتىٰ وأطغىٰ شخصية منحرفة: حينئذ فإن الاستشهاد به دون غيره يفرض ضرورته الفنية. وهكذا بالنسبة إلى معركة بدر، أما لأنها أول واقعة يتم فيها انخذال الكفار أو لأنها أبرز حادثة يتم فيها الانخذال المذكور.

إذن، أمكننا أن ندرك السرّ الفني وراء انتخاب هاتين الحادثتين دون غيرهما، وعلاقة ذلك بعمارة المقطع.

ثالثاً: يلاحظ أن النص خلال طرحه هذه الموضوعات، طرَحَ موضوعات ثانوية يستهدف منها لفت النظر إلى أهميتها، مثل توصيفه لأهل الجنة التي قال عنها بأنها خير من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل والحرث، حيث وصف الجنة بأنها لأولئك ﴿**الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين وَالصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار**﴾. لنتأمل جيداً طبيعة الأسلوب الفني الذي أورد فيه من خلال ذلك، هذه السمات: الصبر، الصدق، القنوت... الخ، إنّه أوردها ليلفت نظرنا إليها وإلى أهمية ممارستنا لهذه الظواهر العبادية، إلا أنه أوردها في سياق تخطيط هندسي يرتبط بعمارة المقطع الذي يتحدث فيه عن المنحرفين وشهواتهم حيث ذكّرهم بأن الجنة هي أفضل من شهواتهم الدنيوية، وأنها

ستكون للصابرين والصادقين والقانتين. . . الخ. وبهذا الأسلوب، يكون النص قد أحكم عبارة المقطع وأكسبها بُعداً جمالياً.

رابعاً: يلاحظ أن المقطع طرح بعد ذلك آية (شهد الله. . .)، فما هو الموقع الهندسي لهذه الآية بالنسبة إلى ما قبلها وما بعدها؟

إن ما قبلها تحدث عن المؤمنين، وإن ما بعدها تحدث عن الكتابيين المنحرفين حيث ختم به المقطع الرابع. ثم ما هي العلاقة بينهما وبين مقدمة الآية التي تحدثت عن الكتابيين حيث جاءت الآية علىٰ هذا النحو ﴿**إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب. . .**﴾.

. . . هنا ينبغي أن ننتبه علىٰ جملة من الخطوط الفنية التي تربط هذه الآية، ليس بما سبقها ولحقها من الآيات الخاصة بالمقطع الذي نتحدث عنه فحسب، وإنما بالخطوط الهندسية التي تربط بينها وبين السورة بكاملها، أي في أقسامها الثلاثة.

إن (الإشهاد) كما سنرىٰ، سوف يتكرر في السورة الكريمة، بخاصة فيما يتصل بالكتابيين وبقصصهم التي سيضطلع بها القسم الثاني من السورة الكريمة. كما أن عبارة ﴿**إن الدين عندالله الإسلام**﴾ ـ وهي الآية الأخيرة التي جاءت بعد آية الإشهاد ـ ستتكرر في أقسام السورة الكريمة، مما يعني أن لهاتين الظاهرتين (الشهادة) و(الإسلام) موقعاً عضوياً ضخماً لا يمكننا أن نتحدث عنه الآن، إلّا عندما نصل إلى الأقسام اللاحقة من السورة، بحيث نجد أن هذين الموضوعين يشكّلان خطين كبيرين يربطان بين الشبكة التي تنتظم سورة آل عمران جميعاً، بكلّ ما تحمله هذه الشبكة من الخطوط. لكن حسبنا الآن أن نشير إلىٰ أن لهما علاقة بسلوك الكتابيين وما تقابله من سلوك المؤمنين. فبالنسبة إلى الشهادة بعدم ألوهية غير الله تعالى، فإن لها علاقة بمقدمة السورة التي استُهلّت بـ ﴿**الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم**﴾، إن قوله

تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلّا هو﴾ وقوله ﴿لا إله إلا هو الحيّ﴾ رابط واضح بين الآيتين.

وأمّا ظاهرة (القسط) فهي ترتبط بما بعدها ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ حيث أن (القسط) و(الإسلام) لا يفصل أحدهما عن الآخر، إذا أخذنا بنظر الاعتبار، أن الإسلام بمعنىٰ التسليم قد طرحه النص في المقاطع اللاحقة، وبذلك يكون التسليم بما هو قسط بما هو عدل هو المسوّغ الفكري لعملية التسليم. فيكون القسط غير منفصل عن التسليم، أي التسليم بما هو عدلٌ، كما هو واضح.

وأما صلة ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ بما تبعها من اختلاف الكتابيين، فأمر واضح، حيث يريد النص أن يقول: إن التسليم لله تعالى هو الحقيقة المطلقة، وأما الكتابيون فقد أعرضوا عن الحقيقة المذكورة: بغياً بينهم.

هنا ينبغي لفت النظر إلى أن العلاقة بين الإسلام وبين التسليم تأخذ السمة الفنية التي أشرنا إليها بالنسبة إلى ذهابنا إلى أن النص القرآني الكريم يحمل خصيصتين: العمومية والاستيحاء، أي من الممكن أن يحمل مصطلح (الإسلام) معنىٰ (التسليم) في جانب منه (كما هو الحال بالنسبة إلى ما نلحظه من مناقشات الكتابيين السابقين، في الأقسام اللاحقة من السورة)، وأن يحمل هذا المصطلح نفس المفهوم لرسالة محمد(ص)،(كما هو الحال بالنسبة إلى معاصري الرسالة الإسلامية ممن يتحدث عنهم النص، ووصفه إياهم بأنهم متّبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة).

وأياً كان الأمر، المهم هو: أن هذا المقطع تضمّن بداية ونهاية ربطت بين الكافرين وبين الكتابيين، وتضمنت موضوعات ثانوية ربَط المقطع بينها وبين سلوك الكتابيين، وتضمن عملية نموّ عضوي للمقاطع السابقة عليه من حيث السمات التي خلعها النص علىٰ الكتابيين مثل سمتي (الزيغ) و(البغي)،

حيث قلنا: إن هاتين السمتين تنبعث إحداهما من الأخرىٰ، وإنّ الأولىٰ منها (الزيغ) قد أورد له النص مصداقاً هو (اتّباع ما تشابه)،وإن الثانية (البغي) قد أورد له النص مصداقاً هو ما يتضمنه المقطع الخامس من السورة، حيث بدأ بقوله تعالى:

المقطع الرّابع:

﴿فإن حاجّوك فقُل أسلمتُ وجهى لله و من اتّبعنِ و قُل للذين أُوتوا الكتابَ و الأُميين ءأسلَمتُم فإن أسلَمُوا فقد اهتدوا و إنْ تولّوا فإنّما عليك البلاغُ والله بصير بالعباد * إنَّ الذين يكفُرُون بآياتِ الله و يقتُلُون النبيّين بغير حقّ و يقتلون الذين يأمُرُون بالقِسط من النّاس فبشّرهم بعذاب أليم * أُولئكَ الذين حبِطَت أعمالهم فى الدنيا و الآخرة و ما لهُم من ناصرين * ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريقٌ منهم و هم معرِضون * ذلك بأ نّهم قالوا لن تمسّنا النّارُ إلّا أياماً معدودات و غرَّهم فى دينهم ما كانوا يفترُون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريبَ فيه و وُفّيت كلُّ نفسٍ ما كسَبَت و هُم لا يُظلَمُون﴾ [آل عمران: ٢٠ ـ ٢٥].

في هذا المقطع نواجه أربعة موضوعات مضافاً إلى الموضوعات المتصلة بالجزاء الأخروي، حيث إن النص يربط بين حين وآخر بين الجزاء وبين السلوك لسببين: أحدهما،هو عنصر الترغيب والترهيب ما دام الهدف هو تعديل السلوك، والآخر،وهو ما يعنينا هنا،أن «المقدمة» ذاتها تضمنت التلويح بالجزاء الأخروي، فيكون سبباً من جانب ثالث.

إن أهم ما ينبغي لفت النظر إليه هنا هو جملة أمور تتصل بعمارة النص القرآني الكريم، فبالنسبة إلى (المحاجة) التي بدأها هذا المقطع، تعدّ (مقدمة) لمحاجات أخرىٰ ترد خلال السورة، وبالنسبة إلىٰ الأجوبة التي أمر النصُ النبيَّ(ص) أن يردّها علىٰ الكتابيين وغيرهم، نجدها متمثلة في دلالة (التسليم)

أو (الإسلام) مثل قوله تعالى ﴿فقل: أسلمت وجهي﴾، وقوله تعالى ﴿أأسلمتم﴾ وقوله تعالى ﴿فإن أسلموا﴾. إن هذا التكرار ثلاث مرات، لعبارة (أسلمت) (أسلمتم) (أسلموا)، لها موقع هندسي محكم بالنسبة إلى عمارة السورة، فقد سبق أن لحظنا في المقطع الأسبق أن النص (مهّد) بمفهوم (التسليم) في آية ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ وقلنا: إن هذه الآية لها موقع عضوي مهم من السورة لأنها ستتردد أصداؤها علىٰ مجموع السورة، وها هي أصداؤها تبدأ بالانعكاس في هذا المقطع الذي ركّز على مفهوم (التسليم) أو (الإسلام)، ثلاث مرات.

وهذا بالنسبة إلى الموضوع الأول: المحاجة أو المناقشة. . .

وأما بالنسبة إلى الموضوع الثاني ﴿قتلهم الأنبياء﴾ فهذا الموضوع بدوره يظل علىٰ صلة بالمقطع الأسبق، حيث قلنا: إن النص عندما عرض موضوع (البغي) أردفه بمصداق للبغي هو: التذكير بممارسات القتل الذي يعدّ قمة (البغي): بخاصة أن النص قد انتخب قتلهم الأنبياء ليدلّل على أشد أنواع النزعة العدوانية لدىٰ اليهود بخاصة. وسنرىٰ أن الموضوع الرابع هو (عدم إمساسهم النار إلا أياماً معدودة) تخص اليهود أيضاً. غير أن النص (وهو يجمع بصورة فنية بين ذكر النصارى واليهود) يطرح الموضوعات التي تنطبق حيناً علىٰ اليهود وأخرىٰ علىٰ النصارىٰ. ويبقىٰ الموضوع الثالث (وهو: أن الكتابيين عندما يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، حينئذٍ يعرضون عن ذلك). وهذا الموضوع امتداد لما ذكره المقطع الأول الذي وصفهم بالزيغ وباتباع الشبهة، حيث أنهم عندما يعرضون عن الكتاب إنما يعرضون عن الحق، وكما قلنا: فإن الزيغ معناه: الميل عن الحق، وها هو النص يعرض لنا سلوكاً جديداً من الزيغ، هو توليهم عن حكم الله، بعد أن كان المقطع الأول قدم سلوكاً هو: اتباعهم ما تشابه من الكتاب.

إذن، الموضوع الجديد الذي طرحه النص في هذا المقطع، يشكّل أسلوباً ذكرناه بالنسبة إلىٰ توزيع السلوك الكتابي في مقاطع، كل واحد منها يضطلع بتقديم سلوك جديد، وها هو السلوك الجديد نلحظه الآن وقد طُرِح في المقطع الذي نتحدث عنه.

أما الموضوع الأخير، وهو قولهم: إنّ النار لا تمسهم إلّا أياماً معدودة، فهذا أسلوب فنيّ جديد يسلكه النص في عرض السلوك الكتابي. إننا لحظنا أن النص قد مسَحَ أية قيمة للشخصية الكتابية. مسحها أولاً من الزاوية النفسية فوصفهم بالزيغ والبغي، وها هو الآن يمسحهم من الزاوية الذهنية، فيسمهم بصفة هي (التخلّف الذهني) لديهم. وقد قدّم لنا هذا الوصف ليس بنحو مباشر، أي لم يقل لنا: إنّ هؤلاء متخلّفون ذهنياً، بل قدّم لنا نموذجاً من سلوكهم ليجعلنا نحن القراء نستكشف ذلك. إنّه عَرضَ علينا نموذجاً من عقليتهم القائلة بأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة. إنّ مثل هذا القول ينطوي علىٰ سذاجة وبلادة وقصور ذهني يحملك علىٰ السخرية منه والإشفاق عليه. فإذا كانوا منحرفين، حينئذٍ لماذا لا تمسهم النار إلّا أياماً؟ وما داموا معترفين بأن النار تمسّهم، حينئذ قد اعترفوا بأنهم منحرفون، وإلّا لماذا لا تمسّهم النار؟ أرأيت مدىٰ التخلّف الذهني لدىٰ هؤلاء اليهود؟.

إذن، عندما عرض لنا النص نماذج من سلوكهم الذهني بعد أن عرض نماذج من سلوكهم (النفسي)، كشف لنا النص بذلك عن مدىٰ تفاهة هؤلاء الشخوص، ومن ثم فإن لهذا أثره ـ كما كررنا ـ علىٰ مناقشاتهم التي سيذكرها النص في الأقسام اللاحقة من السورة الكريمة.

وبهذا ينتهي المقطع الخامس من هذا القسم، ليواجهنا:

المقطع الخامس:

يبدأ هذا المقطع ﴿قل اللهمّ مالك الملك تُؤتى المُلكَ مَن تشاءُ و تنزع المُلك ممَّن تشاءُ و تُعزُّ من تشاءُ و تُذلُّ من تشاءُ بيدِكَ الخيرِ إنّك على كل شيءٍ قدير * تُولجُ الليل فى النَّهار و تُولِجُ النهارَ فى الليلِ و تُخرجُ الحى من الميِّت و تُخرج الميِّت من الحىِّ و ترزُق من تشاء بغيرِ حسابٍ * لا يتَّخذِ المؤمنون الكافرينَ أولياءَ من دُون المؤمنينَ ومَن يفعَل ذلك فليس من الله في شيءٍ إلاّ أن تتَّقوا منهُم تُقاة ويُحذِّركُم الله نفسَهُ وإلى الله المصيرُ * قل إن تُخفُوا ما في صُدُوركم أو تُبدُوه يعلمه الله ويعلمُ ما في السماوات وما في الأرْضِ والله على كل شيءٍ قدير * يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عمِلت من خيرٍ مُحضراً وما عملت من سُوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمَداً بعيداً ويُحذِّركُم الله نفسَهُ والله رؤوف بالعِباد * قل إن كُنتم تُحبُّون الله فاتَّبعُوني يُحبِبكُمُ الله ويغفِر لكم ذُنُوبكُم والله غفورٌ رحيم * قُل أطيعُوا الله والرسول فإن تولَّوا فإنَّ الله لا يُحبُّ الكافرين﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٣٢]. وبهذا المقطع ينتهي القسم الأول من السورة ليواجهنا القسم الثاني بعد ذلك... لكن ينبغي أن نقف عند هذا المقطع لملاحظة موقعه الهندسي من المقاطع السابقة والمقاطع اللاحقة والهيكل العالم للسورة،فماذا نجد؟.

إن هذا المقطع يتضمن آية (الملك...) ويتضمن مطالبة المؤمنين بألّا يتخذوا الكافرين أولياء، ويتضمن الإشارة إلى أنه تعالى يعلم ما يبدي البشر وما يخفي في صدره، ويتضمن مطالبة الكتابيين بأن يتبعوا الإسلام إذا كانوا صادقين في محبتهم لله تعالى كما يزعمون.

هذه الموضوعات تتخللها موضوعات ثانوية يوردها النص للفت نظرنا إلى أهميتها من جانب، ويجعلها بمثابة خط هندسي يعكس أثره على المقاطع اللاحقة من السورة من جانب آخر.

ولنتحدث أولاً عن الموضوعات الرئيسة. فما هو الجديد فيها؟ الجديد هو (آية الملك. . .)،وهذه الآية هي انعكاس لمقدمة السورة التي استهلت بأنه تعالى (حي قيوم) و(لا إله إلاّ هو). . . والإشارة إلى الملك وإتيانه تعالى لمن يشاء وإعزازه من يشاء وإذلاله من يشاء، وقدرته على كل شيء. . . الخ، أولئك جميعاً تجسيد لقيوميّته تعالى،كما هو واضح،بيد أن ما ينبغي الوقوف عنده هو ختم هذه الآية بعبارة ﴿ويرزق من يشاء بغير حساب﴾، وسنجد أن هذه العبارة ستنعكس علىٰ القسم الثاني من السورة ، مثل قوله تعالى بالنسبة إلى مريم(ع) في القصة التي سنعرض لها لاحقاً ﴿ويرزق من يشاء بغير حساب﴾ وذلك عندما سألها زكريّا عن الرزق الذي كان يجده عندها.

وأما الموضوع الذي يتضمن بألّا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، فيعدّ جديداً دون أدنىٰ شك. . . لكن هدفنا هو أن نبيّن الموقع الهندسي لهذا الموضوع وصلته بعمارة النص.

إن هدف النص-كما كررنا-هو تعديل السلوك، وإن المؤمنين يظلون هم الهدف في كل نص، ولذلك نلحظ خصوصية في الأسلوب القرآني هي ربطه دائماً بين سلوك المنحرفين الذي يعرض لهم وبين سلوك المؤمنين، أو العكس. والهدف تعديل سلوكهم كما قلنا. ولكن النص لا يصنع ذلك إلّا من خلال شبكة من الخطوط التي تصل بين (أجزاء السورة). فالنص - في الموضوع الأول - عرض جملة من ظواهر (قيوميّته)،وهي: (يعز ويذل من يشاء)، وإذا كان الأمر كذلك، حينئذ فإن علىٰ المؤمن ألاّ يتجه إلى الكفار الذين وصفهم النص بالأوصاف السابقة: أتباعاً لمتاع الدنيا، بل ينبغي أن يتعزز بالله تعالى. هنا، ربط النص بين هذا الموضوع «عدم اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء» وبين أحد الموضوعات التي طرحها في مقدمة السورة،وهي ﴿إن الله لا يخفىٰ عليه شيء. . .﴾ حيث عقب علىٰ عدم اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء،

عقّب ﴿إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ فبهذه الفقرة ربط بين مقدمة السورة التي تقول ﴿لا يخفىٰ عليه﴾ وبين سلوك البعض الذي قد يخفي (مودته) للكافرين، وبهذا يكون قد ربَط أساساً بين الموضوع الجديد الذي طرحه وبين مقدمة السورة.

أما الموضوع الأخير لهذا المقطع فإنه يخص الكتابيين حيث طالبهم بأن يتبعوا النبي(ص) إذا كانوا يزعمون بأنهم يحبّون الله تعالى.

إن علاقة هذا الموضوع بهيكل السورة لا يحتاج إلى تعقيب ما دامت غالبية السورة تنصبّ علىٰ الكتابيين، وما دامت هذه المقاطع التي نتحدث عنها ترتبط جميعاً بالكتابيين، إلا أن ما نستهدفه هو: تبيين الأسلوب الذي اتبعه النص لإيجاد الرابطة بين سلوك الكتابيين وبين السلوك السابق الذي طالب المؤمنين فيه بألّا يتخذوا الكافرين أولياء. الأسلوب الذي اتبعه هو: ظاهرة (الحب) وظاهرة (العلاقات) بين أطراف الحب. فأحد الأطراف هو: المؤمن والكافر حيث طالبه بألا يتخذه ولياً، وأحد الأطراف هو: الكتابي والإسلام، حيث طالبه بأن يتّبع الإسلام إذا كان حبّه هو لله تعالى، وهذا يجرّنا إلى طرف ثالث من العلاقات هو: الكتابي والله تعالى، حيث طالبه بالاتجاه إليه تعالى من خلال الإيمان بالإسلام.

وبهذا تتبيّن مدىٰ جمالية هذا الأسلوب الذي سلكه النص في الربط بين الموضوعات الجديدة والموضوعات الخاصة بالكتابيين.

* * *

المهم، أن النص بهذا المقطع يختم القسم الأول من السورة، ليواجهنا بالقسم الثاني من السورة، وهو قسم خاص يتضمن عنصراً قصصياً ممتعاً، مهّد له النص بالقسم الأول، ليتجه إلى القسم الثاني الذي يتناول القصص التي ترتبط بعلاقات خاصة بالكتابيين. ومما يزيد جمالية هذا الأسلوب هو: اعتماده

القصة عنصراً لتوضيح الحقائق، حيث نعرف جميعاً بأن القصة هي أشدّ الوسائل التعبيرية إمتاعاً للقارىء.

إذن، لنتجه إلى القسم الآخر من السورة الكريمة:

القسم الثاني[1]

هذا القسم يتضمن ـ كما قلنا ـ عنصراً قصصياً مؤلفاً من خمس قصص هي:

١ ـ قصة امرأة عمران. ٢ ـ قصة مريم. ٣ ـ قصة زكريا ٤ ـ قصة عيسىٰ ٥ ـ قصة المباهلة.

و يلاحظ أن هذه القصص (تتداخل) فيما بينها، بحيث تؤلّف ما يمكن تسميته بـ(القصة داخل القصة) علىٰ نحو ما لحظناه (في سورة البقرة) بالنسبة إلى قصص (الإماتة و الإحياء) في القصص المتداخلة الثلاث (قصة إبراهيم مع طاغية عصره، قصة الطيور الأربعة، قصة المار علىٰ (القرية). كل ما في الأمر أن هذه القصص الثلاث المتداخلة قد وظّفها النص لإنارة أهمّ المحاور الفكرية التي قامت عليها عمارة السورة المذكورة.

و هنا أيضاً جاءت القصص الخمس لإنارة أهم المحاور الفكرية التي قامت عليها عمارة سورة آل عمران، و نقصد بها: سلوك الكتابيين و ما يرتبط به من المواقف و الأحداث و الشخصيات التي تصبّ في هذا الموضوع، مما يتضح من خلاله مدىٰ الإحكام الهندسيّ الممتع الذي تقوم عليه عمارة السوء المذكورة، بالنحو الذي سنعرض له.

طبيعياً، عندما تتناول هذه القصص ما يرتبط بظاهرة (الكتابيين)، فإن

---

١) هذا القسم نقلناه من كتابنا (دراسات فنية في قصص القرآن)، و المفروض ان نختزل تفصيلاته، إلّا أن الوقت لم يسمح لنا بذلك.

طَرْح موضوعاتٍ أخرىٰ ذات أهمية كبيرة سوف تأخذ مساحتها من القصص، حيث يعرض لها النص في سياق فنيّ خاص نكتشف من خلاله مدىٰ جمالية الصياغة القصصية التي تسلك منحىً معيناً في طرح موضوعات تستهدف لفت النظر إليها، وفي مقدمتها موضوع (الجهاد) وغيره، عبر إقحامها بنحو فني كما نرىٰ.

* * *

ويجدر بنا أن نقف عند كل واحدة من القصص الخمس، ونبدأ بتلخيصها، أولاً:

* * *

تواجهنا ـ في البدء ـ قصة امرأة عمران، وقد رسمها النص على النحو التالي:

﴿قالت امرأةُ عمران:

ربِّ: إني نذرتُ

لكَ ما في بطني مُحرَّراً، فتقبل منّي إنك أنت السميع العليم.

فلما وضَعَتها، قالت:

ربِّ: إني وضعتُها أنثىٰ.

والله أعلمُ بما وضعت.

وليس الذكر كالأنثىٰ. وإني سميتها مريم. وإني أعيذها بكَ وذريتها من الشيطان الرجيم.

فتقبلها ربُّها بقبولٍ حسَن. . .﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

في ضوء هذا النص القرآني ـ وفي ضوء النصوص التفسيرية ـ يُمكننا أن نلخّص قصة امرأة عمران علىٰ النحو التالي:

ثمة امرأةٌ اسمُها (حنّة) تنتسب إلىٰ آل عمران ،وهم نفرٌ أشار القرآن الكريم إلى اصطفاء السماء إياهم ، مع آدم ونوح وآل إبراهيم، بقوله تعالى: ﴿إنّ الله اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ [آل عمران: ٣٣].

ومن خلال هذه الآية التي أعقبتها قصةُ امرأة عمران مباشرة، نستكشف طبيعة الوظيفة الفنية للعنصر القصصي في السورة، فيما جاءت في سياق اصطفاء الله لمجموعة تمثل الصفوة البشرية في الاضطلاع بمهمة الخلافة على الأرض، وإيصال رسالة السماء إليها.

والمهم، أنّ امرأة عمران ـ وهي شخصية نسوّية ـ قُدّر لها أن تُساهم بنحوٍ أو بآخر في ممارسة الوظيفة العبادية على الأرض، قد نذرت للسماء أن تُمحضّ وليدها للخدمة في المسجد. ومجرّد كونها تمارس موقف (النذر) وتمحضّ وليدها لممارسة الخدمة للمسجد، يفصح عن وعيها العبادي الحاد، وتقديرها مسؤولية هذا العمل، وإدراكها لمهمة الكائن الإنساني على الأرض، وليس مجرد كونه كائناً يدبّ على الأرض، ويعمل لإشباع حاجاته الحيويّة والنفسيّة.

وحين نتساق مع النصوص المفسِّرة لملاحظة خلفيّات الموقف، نجد أنّ بعضها يُشير إلى أنّ الشخصية النسوية المذكورة، لم يُتح لها الإنجاب حتى يئست من ذلك، مما حملها إلى أن تدعو الله لأن يرزقها ولداً، فيما تمّت عملية النذر المذكورة.

وهناك من النصوص ما يُشير إلى أنّ الله تعالى أوحىٰ لزوجها عمران بأنه قد وهب له ولداً مباركاً يُبرء الأكمه والأبرص ويُحيي الموتىٰ بإذن الله. فأخبر عمرانُ امرأته بذلك. ولما حملت، تمّت عملية النذر المذكورة.

والمهم، أن خلفيات الموقف، أياً كانت، فإنّ ممارسة النذر بنحوه

المذكور، يظل مفصحاً عن خطورة الوعي العبادي عند الشخصية النسوية المذكورة: أي إدراكها لخطورة الوظيفة الخلافية علىٰ الأرض.

* * *

هنا، غَمَر الموقف حدَثٌ مفاجىء. فما هو هذا الحدث ؟ هذا الحدث يُلقي ضوءه على وعي الشخصية النسوية المذكورة، ويفصح عن المزيد من إدراكها لمسؤولية الكائن الإنساني على الأرض.

فقد كان النذرُ حائماً على «ولدٍ ذكر» يتمحّض للخدمة في المسجد، وبخاصة أن الرواية المفسّرة، أوضحت أن الله أوحىٰ لعمران بأنّ ولداً ذكراً سيُوهب له، يضطلع بمهمة رسالة السماء عصرئذٍ. ولكنّ (المفاجأة) جاءت بوليدٍ أنثويّ، فيما لا تصلح الأنثىٰ لعمل الرسالة، أي لا تكون نبيّاً أو رسولاً، كما يحتجزها الطمثُ والنفاس من الاستمرارية في خدمة المسجد. فما هو الحل ؟ وما هي استجابة امرأةُ عمران لهذا الحَدَث المفاجىء ؟

في لُغة العمل القصصي، يجيء عنصر (المفاجأة)، واحداً من الأدوات الفنية في استثارة القارىء أو المستمع أو المُشاهد.

فأنت حينما تتابع الإصغاء لسلسلةٍ من الأحداث والمواقف، ثم يُفاجؤك حَدَث لم يكن في الحُسبان، حينئذ ستغمرك الدهشة والانبهار إزاء المفاجأة المذكورة، مما يضاعف في اهتماماتك بمتابعة الأحداث، وانشدادك نحوها، ثم ترتب أكثر من أثر على هذه المفاجأة بما تحمله من دلالات، تسحب أثرها على طبيعة استجاباتك.

وإذا عدنا إلى قصة امرأة عمران، الشخصية النسويّة التي نذرت ما في بطنها، للقيام بالممارسات العبادية التي تنشدها السماء، وجدنا أنّ (المفاجأة) قد أذهلتها عندما وجدت أن الوليد (أنثىٰ) وليس (غلاماً). إلاّ أنّ الذهول هنا محفوف بوعيٍ عبادي لم ينقلها ـ كأية شخصية عاديّة ـ من صعيد الشخصية

المتماسكة إلى شخصية مهزوزة، بل بقيت على تماسكها مكتفيةً بقولها: (إني وضعتها أنثىٰ).

وهذا القول-كما هو واضح لديكَ-يشي بأكثر من دلالة تكاد تحوم علىٰ عملية (النذر) وما يواكبها من العدول عنه، متمثلاً بخاصة في التعقيب الأخير على المفاجأة بقولها: (وليس الذكر كالأنثىٰ).

وإذن، تحددت استجابة امرأة عمران علىٰ الحَدَث المفاجيء وفق تماسكٍ واتزانٍ يتناسب مع الشخصية العبادية التي تكل أمورها إلى السماء، وترضىٰ بالقضاء والقدراللذين ترسمهما السماء. إلّا إنّها في الحين ذاته لا يعني أنّ (التوتر) قد أزيح من أعماقها. لأنّ نفس قولها: (وليس الذكر كالأنثىٰ). يفصح عن (التوتر) المذكور، وهو توتر تفرضه تبعات النذر، وما رافقه من الأخبار بأنها ستلد غلاماً.

إنّ عنصر المفاجأة المذكور ـ أي: ولادتها للأنثىٰ ـ سيترك آثاره على سائر الشخوص والأحداث والمواقف، مما يغيّر المعادلة وتوابعها عند امرأة عمران وسواها، وسيترك أو سيُمّهد لمفاجآت أشدّ إثارة كما سنرىٰ.

غير أنّ المتلقي ـ المستمع أو القارىء ـ يحرص بطبيعة الحال علىٰ معرفة السر في عنصر المفاجأة المذكور. فهذه المفاجأة حقّقت له إمتاعاً فنياً، وجعلته أشدّ إثارةً واهتماماً لمتابعة الأحداث في القصة. إنه قد يتساءل: لقد أوحىٰ الله لعمران بغلامٍ يصبح رسولاً ذات يوم... فلِمَ جاء الوليد أنثىٰ ؟.

إنّ الإمام الصادق(ع) يجيب علىٰ التساؤل المذكور، قائلاً:

«إن قلنا لكم من الرجل قولاً منا فلم يكن فيه، فكان في وُلْدِهِ أو ولْدِ ولْدِهِ، فلا تنكروا ذلك. إن الله أوحىٰ إلىٰ عمران أني واهبٌ لك ذكراً مباركاً... يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتىٰ بإذني، وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فحدّث امرأته (حنّة) بذلك،وهي أم مريم،فلما حملت بها كان

حملها عند نفسها غلاماً ذكراً. فلما وضعتها أنثىٰ قالت ربّ إني وضعتها أنثىٰ وليس الذكر كالأنثىٰ، لأن البنت لا تكون رسولاً.

فلما وهب الله لمريم عيسىٰ كان هو الذي بشّر الله به عمران ووعده إياه، فإذا قلنا لكم في الرجل منا شيئاً فكان في ولده أو ولد ولده فلا تنكروا ذلك».

وإذن، عنصر المفاجأة ـ ميلاد الأنثىٰ لا الغلام ـ قد أوضحت النصوصُ المفسرةُ دلالته. إلاّ أن الغموض لا يزال ـ بطبيعة الحال ـ يلفّ الموقف. والأمر يحتاج إلى متابعة الأحداث لفك مغاليق الغموض شيئاً فشيئاً.

بيد أننا قبل متابعة الأحداث، ينبغي أن نقف عند نهاية الموقف الذي خُتِمَ به القصُ عن امرأة عمران: الشخصية النسوية الملتزمة عبادياً. فقد أنهت الموقف بتسمية ابنتها باسم (مريم) فيما قالت:

(وإني سميتها مريم).

ومعنىٰ مريم في لغتهم عصرئذٍ:العابدة والخادمة.

ثم أنهت الموقف بالدعاء التالي:

[وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم].

وواضح لديك، أنّ التسمية والدعاء كليهما، يفصحان عن الطابع الذي أكدناه عن شخصية إمرأة عمران،وهو الوعي العبادي بوظيفة الإنسان على الأرض فيما بدأته بالنذر، والتسمية، والدعاء، وتقديم المولود فعلاً، إلى مَن يعنيهم الأمر في المسجد.

والأمر لا يتصل بمجرد التسمية، والنذر، والدعاء، بقدر ما تفصح هذه الأشكال من مضموناتٍ تنطوي عليها مشاعرُ امرأة عمران، وتركيبتها النفسية التي يكفي أن نتلمس مدىٰ حرارة فاعلية ما تحمله من صدق عبادي، حينما

تبدي ذلك التوجس، وتلك الخيفة من السلوك الملتوي الذي يمكن أن يلحق ابنتها وذريتها.

إنّ هتافها القائل: (أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) هذا الهتاف تعبيرٌ عن أكثر من حقيقة فنيّة ينطوي عليها الموقف القصصي الذي نحن في صدد الحديث عنه.

ففضلاً عن أنه يفصح عن مدىٰ حدة الوعي العباديّ عند امرأة عمران، وإدراكه لمهمة الكائن الإنساني الذي ينبغي أن يتمحض لما خُلِقَ من أجله، فضلاً عن ذلك كله، فإن صدىٰ الهتاف المذكور يتردّد في أجواء المواقف والأحداث التي تلي قصة امرأة عمران... أي أن الدعاء بإبقاء مريم وذريتها بمنأىً عن السلوك الملتوي، بمنأىً عن الشيطان وتحركاته. هذا الدعاء، سنجد انعكاسه فعلاً، علىٰ شخصية مريم، وعلى ذريتها، بالنحو الذي سنقف عليه لاحقاً.

ويهمنا أن نلفت نَظَرك، إلى أنّ قصة امرأة عمران، قد انتهت مع الفقرة التالية، وهي قوله تعالى: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن...﴾ [آل عمران: ٣٧].

فإذا أضفنا عملية تقبّل السماء لهذا النذر، إذا أضفناها إلى الدعاء الذي أعاذ المنذور وذريته من السوء... حينئذٍ أمكننا أن نُدرك خطورة ما تنطوي القصة المذكورةُ عليه، من حيث المهمة العضوية ـ أي: المهمة الفنية ـ في توشيج الصلة بين القصص بعضها بالآخر، وفي التمهيد لما نلاحظه من أحداث ومواقف وشخوص في القصص اللاحقة.

كانت امرأة عمران ـ شخصيةً نسويةً علىٰ وعيٍ حاد بالمهمة العبادية للكائن الإنساني.

وقد أنهىٰ القرآنُ الكريم دورَها في القصة الأولىٰ ـ أي: قصة امرأة عمران ـ بعملية الوضع لابنتها (مريم) حينما قدمتها ـ كما تقول النصوص

المفسّرة ـ للقائمين علىٰ شؤون المسجد، تحقيقاً للنذر الذي أخذته على عاتقها، بأن تجعل مولودها متمحّضاً لخدمة المسجد.

وبهذا التسليم لمولودها الأنثوي، تنتهي القصة الأولىٰ من القصص الخمس التي تضمّنتها سورة آل عمران.

* * *

هنا تجيء القصة الثانية من القصص الخمس، متمثلةً في قصة الفتاة المنذورة نفسها: قصة مريم.

ومريمُ بدورها تجسّد شخصيةً نسويّةً، يلفّها النشاط العباديّ أيضاً، ولكن وفق سلوك يمثّل الذرىٰ، حيث تتوالىٰ سلسلةٌ جديدةٌ من المواقف والأحداث والشخوص، تواكب مراحل تنشئتها التي ستتمحض في نهاية المطاف عن أكثر من حَدَثٍ معجز. وقبل أن نعرض لهذه الشخصية ينبغي لفت النظر إلى مقدّمة العنصر القصصي الذي تضمّن آية: ﴿إن الله اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران علىٰ العالمين﴾ [آل عمران: ٣٣]، حيث أن الاختتام بعبارة (وآل عمران) يظلّ علىٰ صلة بالقصص الّتي نتحدّث عنها، ومنها قصّة (مريم)(ع). فلنحدّثك أوّلاً عن المقصود من ذلك.

حين ننساق مع النصوص المفسّرة لما هو مقصودٌ من عبارة (آل عمران)، نجد أنّ بعضها يُشير إلى أنّ المقصود من ذلك هو عمران نفسه فيما يمثّل شخصية سبق أن قلنا:إنّ الله أوحىٰ لها بأنْ سيهبها غلاماً رسولاً يضطلع بمهمة الخلافة في الأرض عصرئذٍ.

وهناك من النصوص المفسّرة ما يشير إلىٰ أنّ المقصود من آل عمران: مريم وعيسىٰ وهو عمران بن أمون من ولد سليمان بن داود وهو أبو مريم.

وأيّاً كان الأمر، فإنّ النَسَبَ والآصرةَ والوشيجةَ التي تلفّ هذه الأسماء:

عمران، مريم، عيسىٰ، تفصح عن أنّ ثمّة خطورةً تواكب مسيرةَ هذه الشخوص، وبخاصّة أنّ القرآن الكريم، قرَنَها مع آدم ونوح وآل إبراهيم، في عملية الاصطفاء، والنهوض برسالة السماء عبْر مهمّة (النبوة)،وهي أعظم مهمّةٍ لتجسيد خلافة الإنسان على الأرض.

وإذن: مقدّمة القصص المشيرة إلىٰ عبارة آل عمران، توحي بأنّ ثمّة خطورة في الأمر، وأنّ الخطورة تتمثّل في عملية (النبوة) و(الرسالة)،وهي عمليةٌ تقترن بما هو (معجزٌ) لا بما هو (مألوفٌ) من الأحداث.

إنّ رسم المعجز وتقديمه إلى المتلقّي، يعني أنّ السماء تستهدف تحقيق عملية (الإقناع) ـ إقناع القارىء ـ بمشروعية الرسالة التي تضطلع بها هذه الشخصية أو تلك. ومن ثمّ، فإنّ تقديم (المعجز) والإشارة إلى حدثه التأريخي، يعني أنّ السماء، تستهدف مطلق القارىء أو المستمع ـ بدءً من عصر النبيّ(ص)، وحتى انتهاء الحياة ـ حتىٰ تجعله على إحاطة تامّة بكلّ ملابسات الموضوع، وما يواكبه من أحداث ومواقف، ينبغي أن تفيد منها الشخصيةُ، بغية تعميق قناعتها برسالة الإسلام.

وهنا، ملحظٌ تُلفت إليه نظَرَك، وهو: أنّ السورة بأكملها ستظلّ حائمةً على ما تُشيعه مقدّمة قصصها من دلالات تتناثر هنا وهناك، بحيث تؤلف وحدةً عضويةً متماسكة تتواصل أصداؤها بعضها بالآخر، على نحو ما سنقف عليه عند معالجتنا لتمام السورة.

إلّا أنّ ما نعتزمُ الإشارة إليه هنا، هو أن نجتذب انتباهَكَ لمقدّمة القصص، وهو: آل عمران وصلتها بالقصص التي رسمتها السورة، وبخاصّة: القصّة الأولىٰ: قصّة امرأة آل عمران، وبالقصّة التي نحن الآن في صدد الحديث عنها، وهي قصّة مريم.

أمّا قصّة أمّ عمران، فقد وقفت عليها، ولحظتَ موقع عمران من الوليد

الذي ستهبه السماء له، فيما سيضطلع بمهمّة الرسالة، كما لحظت موقع أمّ عمران من هذا الوليد الذي بدأ لديها بظاهرة (النذر) وبالدعاء له بأن يعصمه الله وذرّيته من الشيطان، وبتقديمه للقائمين على شؤون المسجد، بغية تربيته وتنشئته علىٰ النحو العبادي المذكور.

إلّا أنّ هذا الوليد الأنثويّ ـ كما رأيت ـ لم يُتح له أن يجسّد شخصية الغلام الموعود، بل كان شخصيةً أنثويّة ستمارس وظائف عباديةً خاصة، وسيكون ابنُها هو الغلام المعهود، أو كما قال الصادق(ع) (إن قلنا لكم من الرجل منا قولاً، فلم يكن فيه، فكان في ولده أو ولد ولده، فلا تنكروا ذلك).

أقول: سيكون ابنُها ـ وفقاً لمقولة الإمام الصادق(ع) ـ هو المقصود بذلك، خلال إيحاء السماء لزوجها عمران بميلاد الغلام. وسيكون ابنُها مشمولاً بالدعاء الذي هتفت به امرأة عمران عندما أولدت مريم وأعاذتها وذريّتها من الشيطان. فيما يمثّل أوّل الذريّة بصفته: ابن مريم.

وعلى أيّة حال، كان لا مناص من تذكيرك بهذه الحقائق، قبل أن نواصل الحديث عن القصّة الثانية من القصص الخمس التي تضمّنتها سورة آل عمران، حتّى تكون على معرفة بمقدّمة القصص وصلتها بمضمونات السورة، وصلة العنصر القصصي بذلك كلّه، فيما وقفت أوّلاً على قصّة أمّ عمران، ولحظتَ موقعها من الأحداث التي ستتوالىٰ، في سائر القصص، وفي طليعتها: قصّة مريم.

قلنا: إنّ قصّة امرأة عِمرانَ ـ وهي القصّة الأولىٰ من قِصص سور آل عمران ـ قد مَهّدتْ للقصة الثانية، قصةِ مريم.

ويتمثلُ هذا التمهيدُ فنياً في البنت المنذورة مريم فيما ستُولد غلاماً يجسّد تحقيقاً لما أوحاه الله لعمران. من أنّهُ سيهب له رسولاً.

ويجدرُ بنا الآن، أن نتابع هذه القصة، وما حفلت به من أحداثٍ

ومواقف وبيئاتٍ وشخوص، محفوفةٍ بما يُثير الدهشة والانبهار والتشويق.

ولنلخّصها أوّلاً في ضوء النّصِ القرآني، والنصوص المفسِّرة. تقول هذه النصوص:

إنّ امرأة عمران قدّمت ابنتها المنذورة مريم إلى القائمين بشؤون المسجد ـ وهم يمثّلون صفوة بشرية ـ وقالت لهم:دونكم النذيرة.

وتُضيفُ هذه النصوص:

إنّ المعنيّين بالأمر تنافسوا على الاضطلاع بتنشئتها، بصفتِها منذورةً لمهمَةٍ عباديةٍ خطيرةٍ، وبصفتِها ابنة إمامِهم.

وفي روايةٍ عن الإمام الباقر(ع): أنّ هؤلاء الشخوصَ ـ وهم نبيّون كما تقول الروايةُ ـ قد ساهموا عليها، أي: استخدموا القُرعَة ـ فكانتِ القرعةُ من نصيبِ زكريا(ع) وهو زوجُ أختِها.

كما أن الآية القرآنية الكريمة، صريحةٌ في عمليةِ القرعةِ المذكورة، إذ يقولُ تعالىٰ مخاطباً النبيّ(ص):

﴿... وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامَهم، أيُّهم يكفل مريمَ، وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾ [آل عمران: ٤٤].

إن هذا الاختصامَ والتنافسَ علىٰ كفالةِ مريم يحمل دلالةً ذات خطورةٍ دون أدنىٰ شك. إذ يُفصح بوضوح عن مدىٰ الوعي العبادي لدىٰ الشخوص، وتقديرهم الخطير لهذه المهمة، بصفتِها إسهاماً في المسابقة إلىٰ العمل الصالح.

وهذا الوعيُ العباديُ لدىٰ الشخوص، وحرصُهم علىٰ ممارسة الفضيلة، يتجانسُ مع الحرصِ الذي لحظناهُ عند امرأةِ عمرانَ أيضاً. ويتجانسُ ثالثاً مع الحرصِ الذي سنلحظُه عند مريمَ ذاتِها، وهذا هو مبدأ فنيّ آخرُ من مبادىء

التجانسِ بين القصص المرسومةِ في سورة آل عمران، في طبيعةِ الشخوصِ والمواقفِ، بل وفي طبيعةِ الأحداثِ والبيئات كما سنرىٰ، عند متابعتنا للعنصر القصصي من السورة.

* * *

ونعودُ إلى شخصيةِ مريم، وقد رأينا أن زكريا(ع) هو الذي اضطلع بتربيتها وتنشِئتها، بعد عملية التنافسِ والاختصامِ حولَ مَنْ يكفلُها.

ولقد أشار القرآنُ الكريم إلى أهميةِ تنشِئتها بعامةٍ، وزكريا بخاصة، حينما قال تعالى:

﴿وأنبتها نباتاً حسناً و كفَّلها زكريا﴾.

بيد أن ما يُلفِتُ النظرَ هنا، إلى أن النص القرآني، والنصوصَ المفسرة، ترسُم لنا (بيئةً) لمريم، يطبعُها (المألوف) و(النادر) و(المعجز) من الأحداث والمواقف التي تضطربُ بها (البيئةُ) المذكورة.

ونقصدُ بـ(المألوفِ) ما هو عاديٌّ نحياهُ، ونألفهُ من مجرىٰ الحياة اليومية.

وأمّا (النادر) فهو الحدثُ أو الشخصيةُ أو الموقفُ الذي يبتعد عما هو عادي، بحيثُ يندر وقوعه، لكنّه غيرُ ممتنعٍ، أي: إنه خاضعٌ لما تسميه اللغةُ القصصية بـ(الإمكان) و(الاحتمال). وأمّا (المعجِزُ) فهو الذي ينِدّ عن (الأسباب الطبيعية) التي جعلتها السماءُ قوانينَ عامةً تنتظمُ شؤونَ الحياةِ بحيث لا يحدث إلا عند (الصفوة البشرية) من أنبياءَ وأئمةٍ وصالحين.

وإذا عدنا إلى البيئة التي رسَمها القرآن، واكتنفتْ شخصية مريم، لحظنا أن (المألوفَ) و(النادر) منها، يتمثلُ في ابتناء موقع خاصٍ لمريم في المسجد، فيما جُعِلَ لها محراب، بابُها في الوسط، لا يرقى إليها إلاّ بسلّم مثلُ بابِ

الكعبةِ، ولا يصعدُ إليه سوىٰ زكريا.

وأما (المعجز) فهو سلسلةٌ من الأحداث والبينات المثيرة حقاً. فالنصوصُ المفسرةُ، تُشيرُ إلى أنَّ المحراب كان يُضيء من نورِها، بل إن فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، كانت من أشدِّ معالمِ (البيئة) بروزاً، من حيث الطابعِ (المعجز)، فيما يُشيرُ القرآن الكريمُ بوضوحٍ إلى (الرزقِ) الذي كان يأتيها، مما جعَل زكريا يتساءلُ منبهراً:

أنّى لكِ هذا؟

فكانت تُجيبهُ، كما هو صريحُ القرآن الكريم:

﴿قالت هو من عند الله إنّ الله يرزقُ من يشاءُ بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧]. هنا ينبغي لفت النظر إلى الصلة العضوية بين قوله تعالى ﴿ويرزق من يشاء بغير حساب﴾ وبين القسم الأول من السورة التي طرحت هذا المفهوم كما أشرنا في حينه، ليلقي بإنارته علىٰ هذا القسم من السورة الكريمة.

إذن، النُور والرزقُ يشكّلان (بيئةً) معجزةً، قد اكتنفتْ مريم(ع).

لكننا حين نُتابعُ (المعجز) و(النادرَ)، حينئذٍ نتركُ للآيات القرآنية الكريمة التالية، أن تتحدثَ إلينا مباشرةً: قال تعالىٰ: ﴿وإذ قالت الملائكةُ يا مريمُ: إن الله اصطفاكِ وطَهّركِ واصطفاكِ على نساءِ العالمين * يا مريمُ: اقنتي لربكِ واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣].

هنا، يتمثل المعجزُ في سلسلةٍ من (المواقف)، المتمثلة في محاورةِ عنصرٍ جديدٍ من الشخصيات، هو عنصرُ (الملائكة) مع الشخصية البشريةِ مريم(ع) فيما بشّروها باصطفاءِ الله إياها، وبتطهيرها...

هنا أيضاً، ينبغي ألّا تغفلَ ذاكرتُك ـ دعاءَ امرأة عمران لابنتها، وتطهيرها من الوزر: الشيطان. فيما ينبغي أن يُذكّركَ بالتلاحم العضوي بين القصتين:

امرأة عمران ومريم، وتمهيد إحداهما للأخرىٰ، وإلقائها بالضوء عليها. . .

ولكن، فلنتابع المحاورة، محاورة الملائكة مع مريم(ع).

حين نتابعُ ـ محاورة الملائكة مع مريم(ع)، نلحظ أن (المعجز) في الموقف وفي الحَدث، يتمثل في: اصطفاء الله لمريم، وفي تطهيرها، وفي تفضيلها على نساء العصر، فترتئذٍ.

المحاورة ذاتها بصفة أنّ أحد طرفيها هم شخوص غير بشريين، ـ أي (الملائكة) ـ تفصح عن (المعجز) في الموقف. كما أن عملية الاصطفاء والتفضيل والتطهير، تفصح عن (النادر) في الموقف.

غير أنّ الحدث، والموقف، يأخذ صفة الانبهار والدهشة، حينما يكتسب «المعجز» طابعاً جديداً قائماً على (المفاجأة) المذهلة. مفاجأة «الإنجاب» من غير فحل.

ولعلك تتذكر جيداً، كيف أن عنصر (المفاجأة) التي حدثناك عنها عند الحديث عن قصة امرأة عمران، ونعني بها: مفاجأة الوضع لأنثىٰ بدلاً من الحمل بالغلام، . . . لا بدّ أنك تتذكّر كيف أنّ عنصر (المفاجأة) المذكور، كان يعكس أثره الفنيّ على المتلقّي ـ المستمع أو القارىء ـ وكيف كان يعكس أثره النفسي على بطلة القصة امرأة عمران.

وفي حينه، حدثناكَ عن أهمية عنصر(المفاجأة) في أيِّ نصٍ قصص، ومساهمته في استثارة المتلقي وشدّه إلى القص. كما حدثناكَ عن الاستجابة التي تركَتْهَا مفاجأة امرأة عمران للأنثىٰ بدلاً من الغلام.

هنا، نلفت نظرك إلىٰ أثر المفاجأة فنياً ونفسياً علىٰ المتلقي، وعلى شخصية مريم(ع).

وقبل أن نسرد لك تفاصيل المفاجأة، نذكّرك أيضاً، بالتلاحم العضوي

بين القصتين، بالتلاحم أولاً بين طبيعة الشخوص في القصتين: قصة امرأة عمران وقصة مريم، فالشخصيتان كلتاهما: نسويتان، وكلتاهما تعنيان بالممارسة العبادية الواعية. ثم نذكّرك بعنصر المفاجأة، فيما طبعت المفاجأة كلاً من الموقفين. ثم نذكّرك بسائر عناصر التجانس والتلاحم بين القصتين فيما ألمحنا إلىٰ أكثر من واحدٍ منها، في حينه.

ولكننا نتركك الآن لعنصر المفاجأة الجديد:

﴿إذ قالت الملائكة، يا مريمُ إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه، اسمه المسيحُ عيسىٰ بن مريم...﴾ [آل عمران: ٤٧]. هنا، سوف لن تغمرك المفاجأة بدويّها الهائل، ما لم تستمع بنفسِكَ إلىٰ محاورة مريم(ع)، عندما هتفت، متسائلةً، مستفهمة؟

﴿قالت ربّ أنّى يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشر؟؟﴾ [آل عمران: ٤٧].

هنا، ينبغي أن تضع في ذهنك، إنّ عنصر (المفاجأة) المذكور، قد رسمه القرآن الكريم في سورة مستقلة تحمل اسم سورة مريم. وهناك في سورة مريم تفصيل ِللمفاجأة وما يواكبها من أحداثٍ ومواقف، سنعالجها عند دراستنا لسورة مريم ، إن شاء الله.

إلاّ أننا هنا، نذكّرك بحقيقة فنيّة هي: أن النصوص القرآنية لا ترسم من أحداث القصة ـ أية قصة كانت، إلاّ ما يخدم أو يُنير الأفكار المطروحة في هذه السورة أو تلك.

وعليه، فإن التفصيلات المرسومةَ في سورة مريم لن تجد لها مكاناً في سورة آل عمران، إلاّ ما يفرضه سياق الأفكار المطروحة في هذه السورة.

إن الأفكار المطروحة في سورة آل عمران تُعنىٰ بالحديث عن (المعجز) بصفة عامة، وبما يتصل ـ كما سنرىٰ ـ بمواقف الجمهور حيال رسالة النبيّ

محمد(ص)، وتجانسها مع مواقف الجمهور حيال رسالة عيسىٰ(ع)، وتقولاتهم عنه بما لا يتسق مع الواقع، على نحو ما سنفصل الحديث عنه، عند وصولنا إلى قصة عيسىٰ في هذه السورة التي ندرسها الآن.

وفي حينه سنوضّح لك صلة هذا الرسم بعنصر المفاجأة في حدوده المعنيّة بقصة عيسىٰ(ع) وموقف الجمهور منه.

والمهم، أن يقتصر حديثُنا الآن عن السياق الفني لهذه المفاجأة، وانعكاسها على المتلقي ثم انعكاسها على استجابة مريم.

أمّا انعكاسها على المتلقي، فواضحٌ كل الوضوح، ما دام المتلقي يتابع القصص المرسومة في السورة بنحوٍ يضع في اعتباره أنّ (المعجز) هو السمة التي خلعتها السماء ـ في كل الرسالات وشخوصها ـ على أي حدثٍ أو موقف يواكب تلك الرسالاتِ وشخوصَها. هذا فضلاً عما يتركه من إمتاعٍ جمالي في عملية التلقي لسلسلة الأحداث والمواقف.

أما انعكاسها على شخصية مريم، فإنه مجانس لانعكاس المفاجأة علىٰ شخصية امرأة عمران. فامرأة عمران ـ كما رأيتَ ـ استسلمت للأمر الواقع، ورضيت بإشاءة السماء، بعد أن استجابت ـ بادىء ذي بدء ـ بدهشةٍ واستفهام عبْر تقريرها القائل (وليس الذكر كالأنثىٰ).

هنا قد استجابت مريم(ع) بنفس الاستجابة، حينما تساءلت مستفسرة ومستفهمةً ﴿أنّى يكون لي ولد ، ولم يمسسني بشر؟؟﴾.

إذن، نحن الآن أمام مجموعة من عناصر التجانس والتلاحم بين قصتي امرأة عمران ومريم. كلتاهما تتحركان من خلال شخصية نسوية، وكلتاهما تخضعان لاستجابة متماثلة في ظاهرة الوعي العبادي، فضلاً عن أنّ كليتهما تحفلان بعنصر (المفاجأة)، واتّسام هذا العنصر بما هو معجزٌ ونادر، ثم فضلاً عن اتسام الاستجابة عند الشخصيتين النسويتين، بطابَعي الاستفهام، ثم الإقرار

بالأمر الواقع، والاستسلام الواعي لإشاءة السماء.

هذه الألوان من التجانس والتلاحم، ينبغي أن تضعها في ذهنك... حتىٰ تخلصَ من ذلك إلى إدراك أن السورة ـ كما سترىٰ ذلك مفصلاً ـ قد رُسمت بنحو ما تخضع له ـ أيّةُ عمارة ـ لتخطيط هندسي محكم، حائمٍ على (أفكار) خاصة تستهدفها السماء، فيما يجيء العنصر القصصي، واحداً من الأدوات التي تُنير تلك الأفكار كما سنرىٰ.

لقد لحظت ـ كيف أنّ كلّاً من قصة مريم وقصة امرأة عمران قد تجانَستا، وتلاحمتا في أكثر من عنصر، لا حاجة إلى إعادة القول فيه.

إلّا أننا نذكّرك بأن أيّ تجانسٍ أو تلاحم بين القصص، إنما يتجسّد في كونه يصبّ ـ في نهاية المطاف ـ في رافدٍ أو أكثر تحوم عليه (الأفكار) التي تتضمنها السورة.

ونذكّرك أيضاً بأن طابع (المعجز) و(النادر) كان يَسِمُ القصتين المذكورتين. ثم نذكّرك بأن الرسم القصصي إنما كان ينحصر في التقاط أحداثٍ أو مواقف أو بيئات يجمعها خيط متجانس من الأفكار، بحيث تُترك التفصيلاتُ الأخرىٰ في سور مختلفة يفرضها سياق خاص. وسترىٰ كيف أن التفصيلات التي ثبّتها القرآن في سورة مريم، قد حذفها من سورة آل عمران عندما رسم شخصية مريم(ع). وفي حينه ألفتنا نَظرَكَ إلىٰ أن الهدف في سورة آل عمران هو التركيز علىٰ (المعجز) بصفة عامة، ثم التركيز على سمات خاصة من (المعجز).

ونحن حين نتابع الحديث عن القصص التي تضمنّها سورة آل عمران، نجد أن القصة الثالثة منها، تتمثّل في قصة زكريّا(ع). وحين ندقق النظر في هذه القصة، نجد أن التلاحم والتجانس بينها وبين القصتين: امرأة عمران ومريم، يتجسّد في خضوع القصص الثلاث إلىٰ طابع (الممارسة العبادية) عند

الشخصيات الثلاث (سواء أكانت الممارسة وجدانية أو عملية)، أولاً، ثم في خضوع القصص الثلاث إلىٰ عنصر (المعجز)، ثانياً، ثم في خضوعها إلى طابع معجزٍ واحدٍ، ثالثاً، كما نلحظ من جانبٍ آخر، وهذا ما يضفي خطورةً أخرىٰ علىٰ العبارة الفنية في القرآن الكريم ـ تميّز كل قصة بخصائص تنفرد بها، أولاً، ثم اشتراك بعضٍ مع البعض الآخر بخصائص تنفرد بهما القصتان، ثانياً، ثم اشتراك القصص الثلاث في خصائص عامة تصل بينها جميعاً، ثالثاً.

ولنعُد الآن إلى قصة زكريا(ع) لملاحظة تفرّدها بخصائص تُميزُها وحدها، ثم لملاحظة خصائص تجمع بينها وبين قصة مريم(ع)، ثم لملاحظة خصائص تجمع بين القصص الثلاث جميعاً.

وملاحظة مثل هذه الخصائص ـ تذكّركَ دون أدنىٰ شك ـ بخطورة البناء المعماري للسور القرآنية، واكتشاف المزيد من الإعجاز الفني الذي بدأ الدارسون منذ القديم، يقفون عليه في حدود قدراتهم الأدبية والعلمية، وفيما واصل الأدباء والباحثون المعاصرون، اكتشاف المزيد من عناصر الأداء الفني في القرآن، وفيما نواصل نحن بدورنا اكتشاف المزيد منه، من خلال محاولتنا توضيح البناء المعماري لكل سورة، وترابط كل الجزئيات فيها، فيما بينها، من حيث بداية السورة ووسطها ونهايتها.

* * *

وعلى أية حال، حين نعود لقصة زكريا(ع) نجدها كما قلنا، تتميز بخصائص تنفرد بها، وبخصائص تجمع بينها وبين قصة مريم، وبخصائص تجمع بينها وبين قصتي امرأة عمران ومريم...

أما الطوابع العامة التي تجمع بين القصص الثلاث، فتتمثل أولاً في إخضاع القصص إلى (المعجز) و(النادر)، ثم وحدة الطابع المعجز نفسه، أو النادر.

فامرأة عمران كان (الحدث) المتصل بها هو: الإنجاب.

ومريم أيضاً كان الحَدَث المتصل بها هو: الإنجاب.

وزكريا بدوره، كان الحدث المتصل به هو: الإنجاب أيضاً.

وإذن، قضية(الإنجاب) تمثل طابعاً تتجانس القصص الثلاثُ فيه، إلا أن كل (إنجاب) يظل حاملاً خصيصة تتفرد الشخصيةُ بها، وتُميزُها عن سواها. فامرأة عمران، كان (الإنجابُ) من خلالها، متمثلاً في ما أوحىٰ الله لعمران زوجها بأن يهبه غلاماً، ثم كان (الإنجابُ) هو مريم. والمهم أن إيحاء السماء لعمران، يمثل طابعاً معجزاً، (والإيحاء يخص عملية إنجاب خاص).

كما أن مريم كان (الإنجابُ) من خلالها، متمثلاً في إنجابها (عيسىٰ) بلا فحل، فيما يمثل طابعاً معجزاً.

وزكريا(ع) أيضاً، كانت عملية (الإنجاب) تجسّد الحدَثَ الرئيس في قصته. ففي خلال كفالته لمريم(ع)، وعند رؤيته الحدث المعجز عند مريم فيما كان (الرزق) يأتيها بنحو معجز: من السماء مباشرةً، عند مشاهدته ذلك الحدث، دعا زكريا الله أن يهبَ له ذرية طيبة، وقد كانت امرأته عاقراً، بطبيعة الحال، كما أنه قد بلغ من الكبر عتيّا.

هنا، استجابت السماء لدعائه، فوهبت له يحيى(ع). والمهم أنّ (الإنجاب) أيضاً كان هو الطابع الذي رافق قصة زكريا. وإنّ ما هو (معجزٌ) و(نادرٌ) كان يواكب العملية المذكورة. فإنجاب (العاقر) عملية (نادرة الوقوع) كما هو واضح، وإيحاء السماء له بالإنجاب، أي: عملية الوحي ذاتها، تمثل ـ كما هو واضحٌ ـ طابعاً (معجزاً).

وإذن، الطابع (المعجز)، يمثّل القصص الثلاث. كما أن(الإنجاب) يمثل (الحدث) الذي واكب القصص الثلاث.

وأما سائر الطوابع التي تسم القصص الثلاث، والطوابع التي تسم قصة زكريا ومريم فحسب، ثم الطوابع التي تميّز كلاً من القصص الثلاث، كل أولئك، سنقف عليه مفصلاً بعد أن نلمّ ـ أولاً ـ بقصة زكريّا في تفصيلاتها التي ترسمها سورة آل عمران، والنصوص المفسّرة للسورة.

ويجدر بنا أن نقف أولاً عند النص القرآني الكريم.

قال تعالىٰ، مبيّناً موقف زكريا بعد أن رأىٰ الرزق عند مريم(ع):

﴿هنالك دعا زكريا ربّه.

قال: ربّ هب لي من لدنك ذرية طيبةً، إنك سميع الدعاء.

فنادته الملائكة ـ وهو قائمٌ يصلي في المحراب ـ إن الله يبشرك بيحيىٰ مصدقاً بكلمةٍ من الله، وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين.

قال: ربّ أنّى يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكبر، وامرأتي عاقرٌ! قال: كذلك الله يفعل ما يشاء.

قال: ربّ إجعل لي آيةً. قال: آيتُك ألّا تكلّم الناس ثلاثة أيّام إلاّ رمزاً. واذكر ربك كثيراً، وسبّح بالعشي والأبكار﴾ [آل عمران: ٣٨ ـ ٤١].

تتلخص قصة زكريا(ع) وفقاً للنص القرآني والنصوص المفسرة، في أنّ زكريّا عندما كفل مريم(ع) وكان علىٰ إحاطة بالبيئة المعجزة التي اكتنفت مريم عبْر تمحّضها للعبادة في المحراب، وبخاصة عندما شاهد الرزق الذي كان يأتيها من السماء، حينئذٍ تحركت حوافزه، واستثاره ذلك لأن يتقدم بطلبٍ إلى السماء، يتساوق وطموحه العبادي، وكان هذا الطلب يتمثل في ذريّةٍ طيّبة تمارس وظيفتها العبادية على النحو الذي تنشده السماء. وبما أنّ امرأته (عاقرٌ)، من جانبٍ، وبما أنّه قد بلغ من الكِبَرِ عتيّا من جانبٍ آخر، فإنّ طلبه ـ تبعاً لذلك ـ سيكون محفوفاً بالرغبة الملحة الجازمة، وما أيسرَ مثلَ هذا الطلبَ، ما دام مرتهناً بيد السماء القادرة على كل شيء.

وفعلاً كانت السماء عند ظنّه بها، حيث نادته الملائكةُ ذات يوم ـ وهو مشغولٌ بصلاته في المحراب ـ بأنّ الله يبشره بوليد اسمه (يحيىٰ). وتقول النصوص: إن هذا أول اسمٍ يحمل هذه التسمية التي أطلقها الله علىٰ الوليد ـ كما هو صريح القرآن في سورةٍ أُخرىٰ ـ .

وقد استجابت السماء للنمط الذرّي الذي طلبه زكريّا، فبشّرته بالسمة الخطيرة التي ستلف هذا الوليد، إنها سمة (النبوّة) فيما تمثل الصفوة من الآدميين.

كما أنّ السماء ألمحت إلىٰ زكريّا بوظيفةٍ خطيرةٍ أخرىٰ، سينهض بها وليدُها (يحيىٰ)، وهذه الوظيفة تتمثّل في أنّ يحيىٰ سيكون أول شخصيةٍ ستساند دعوة عيسىٰ الذي سيولَدَ بعد ستة شهور من حين ولادة يحيىٰ. وسنرىٰ عند حديثنا عن قصة يحيىٰ كيف أنّ لشخصية يحيىٰ، التي عُرفت بالصدق والنزاهة، أثراً بالغاً في اجتذاب الجمهور إلى رسالة عيسىٰ.

والمهمّ، إنّ السماء قد استجابت لطلب زكريا(ع) ووهبته يحيى.

إلاّ أنّ زكريا ـ وقد أذهلته المفاجأةُ التي كان يتوقعها دون أدنىٰ شك، ـ لا يسعه إلاّ أن يتساءل، مستفهماً، ومنبهراً، وفرِحاً، عن العَلاَمةِ، عن الآية التي ستعمّق قناعتَه ويقينه باستجابة السماء لدعوته.

ولذلك هَتَفَ: ربّ اجعلْ لي آيةً.

فأجابته السماء، بأن آية ذلك، أن يَصوم عن الكلام ثلاثة أيام، أو أن يصوم عن الأكل والكلام جميعاً ـ كما تقول بعض النصوص المفسرة ـ وأن ينحصر تعامله بالرمز، والإيماء مع الآخرين، عدا الكلام المتصل بالله، وبالتسبيح له بالعشيّ والإبكار.

* * *

هذا هو ملخص قصة زكريا(ع).

والذي نعتزم لَفْتَ نظركَ إليه من تلخيصنا لهذه القصة، هو أن تتأمل بدقة موقعها من القصتين اللتين تقدّم الحديث عنهما: أي قصة امرأة عمران ومريم.

فلقد رسمها القرآنُ الكريمُ بعد قصة امرأة عمران، وعند بداية قصة مريم(ع)، أي أن القرآن رسمها خلال قصة مريم، وعند الشطر الأول من حياتها المتصلة بالعمل العبادي في المحراب. فقطَعَ بذلك سلسلة الأحداث في قصة مريم، ثم تابع رسمها بعد الانتهاء من قصة زكريا.

هنا، ينبغي أن نضع في ذهنك أنّ لهذا المقطع دلالته الفنية والنفسية.

فهناك أولاً: مسوغاتٌ تتصل بطلب زكريا(ع) للولد. فهو حينما شاهد (المعجز) المتمثّل في الرزق الذي كان يمطر مريم(ع)، تحركّت نفسه، واستُثيرت، لأن يتقدّم بطلب كان يختلج في سريرته وتنازعه نفسه إليه، فكانت المناسبة أن يتوافق طلبه زمنياً مع ظاهرة (الرزق).

وهذا ما يُشكّل المسوغ لقطع سلسلة الأحداث والمواقف في قصة مريم، للبدء بصياغة قصة زكريا(ع).

بيد أنّ هذا لم يكن وحده، مسوّغاً فنياً ونفسيّاً لعملية القطع، بل ثمة مسوغ آخر له خطورته الكبيرة، وهذا المسوّغ - من الناحية الفنية - يتمثل في عملية (التمهيد) والإرهاص، بما ستكشف عنه الأحداث والمواقف، في قصة مريم ذاتها، وفي قصة وليدها عيسىٰ، حيث أنّ وليدها عيسىٰ(ع) قد بُشّر على لسان الملائكة بأن مهمة الرسالة ستكون علىٰ يديه، غير أن هناك حدثاً خطيراً لا زال مضمراً في قلب الأيام، ألا وهو أنّ رسالة عيسىٰ سوف تعتمد في بعض خطواتها علىٰ مساندة (يحيىٰ) له، ذلك بأن ليحيىٰ شخصية ذات مركز اجتماعي خطيرة، أنها تتمتع بتقدير اجتماعي، وبسمعة اجتماعية، كفيلة بأن تجعل كلمته مسموعةً عند الجماهير، نظراً لما عُرِفَ من صدقه وزهده.

وإذن، لمّا كان من حيث (الزمان)، مولد يحيىٰ سابقاً على مولد عيسىٰ، حينئذٍ يكون المسوّغ الفني لمجيء قصة زكريا والحديث عن ولده يحيىٰ، يكون هذا المسوّغُ واضحاً في قطع سلسلة الوقائع المتصلة بمريم، لأنّ الشطر الثاني من حياتها هو الذي كشفت القصةُ عن ولادة عيسىٰ من خلاله، فكان من الطبيعي، أن تجيء قصة يحيىٰ قبل قصة عيسىٰ، سواء أكان مجيئها من حيث التسلسل الزمني في الولادة، حيث وُلدَ يحيىٰ قبل عيسىٰ بستة شهور، أو كان مجيئها من حيث التسلسل الزمني، ومن حيث التسلسل الموضوعي، في عملية المساندة لرسالة عيسىٰ. وبكلمة أخرىٰ، ما دام يحيىٰ سيكون أول مساندٍ لعيسىٰ، وستكون لكلمته أثرها على نفسية الجمهور، حينئذٍ لا بدّ أن تجيء قصته سابقةً أيضاً على قصة عيسىٰ.

إنّ هذه المسوغات الفنيّة، يجب ألا تغيب عن بالك لأنها تجسّد قيمة الفنّ العظيم في القصص القرآني.

ولكننا حين نتجاوز ذلك كلّه، ونتابع قصة زكريا، نجد أن شخصية يحيىٰ نفسها من الممكن أن تشكّل قصة جديدة، فيكون عدد القصص في سورة آل عمران ستةً، وتكون قصة يحيىٰ حينئذٍ: إمّا قصة مستقلة، أو متداخلة، أو قصة داخل قصة زكريّا.

ولا نُريد أن نطيل عليك الحديث عن البناء الفني لهذه القصة، ونقصد بها قصة يحيىٰ، بل نكتفي بالإشارة، إلىٰ أنها رسمت شخصية يحيىٰ، وهي تحمل أربع سمات، لها مساهمتها في المواقف والأحداث، دون أدنى شك، ويكفي أنها تحمل سمة (النبوة) كما هو الحال بالنسبة لزكريا وعيسىٰ، فضلاً عن أن القرآن رسمها شخصية تحصر نفسها عن الشهوات، وعن اللهو والأباطيل، وهي سمة (الحصور) التي أطلقها القرآن الكريم عليه، كما رسمها (سيّدا) في العلم والعبادة.

والمهم، أنّ السمات المذكورة، تظل متجانسة مع السمات التي لحظناها عند امرأة عمران، وعند مريم، وعند زكريا، فيما لا حاجة إلى إطالة الكلام في ذلك.

إنّ كلاً من قصة امرأة عمران، وقصة زكريا، وقصة يحيىٰ وقصة مريم. هذه القصص الأربع في سورة آل عمران، ستكون ممهّدةً، للدخول إلىٰ قصّة أكبر حجماً، وأوسع دلالةً، إنها قصة عيسىٰ فيما وُلد بلا أب بشري. وهذه القصة نفسها، ينبغي أن تضعها في ذهنكَ لا بما أنّها تشكّل هَدَفاً بذاتها، بل ينبغي عليكَ أن تجعلها وسيلة إنارةٍ لا أكثر، تضيء الهدف الذي رسمه القرآن الكريم في هذه السورة التي ستنقل لكَ جانباً من حياة النبيّ(ص) في جهاده مع الأعداء، وفي مواصلة اضطلاعه بمهمة الرسالة الإسلامية، فيما احتفّتْ بأشواك ومتاعب، يُعلّمنا القرآنُ الكريم من خلالها، نمطَ التعامل الذي نختطّه لأنفسنا في متابعة الوظيفة العبادية.

* * *

ويُهمنا الآن أن نتابع القصة الخامسة من قصص سورة آل عمران، وهي قصة عيسىٰ(ع) لملاحظة موقعها الفني من هذه القصص، وموقعها الفني من السورة بأكملها، ثم موقعها ـ وهذا هو الهدف الرئيسي من عملية القصّ ـ من الرسالة الإسلامية عبْر اضطلاع النبيّ(ص) بها، وعبْر الوظيفة التي يتعيّن علينا ممارستها في هذا الصدد.

لقد لحظتَ كيف أنّ سلسلة الأحداث والمواقف في القصص الأربع، قد ابتدأت من امرأة عمران، ثم إنجابها لمريم، ثم قصة زكريا وإنجابه ليحيىٰ، كما لحظت إنجاب مريم(ع) لعيسىٰ(ع)، ثم صلة يحيىٰ(ع) بعيسىٰ أيضاً.

ولا بدّ أنك تتذكر كيف أن يحيىٰ سيكون مصدقاً لرسالة عيسىٰ التي بُشّرت مريمُ به، وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقرّبين، ويكلّم الناس في

المهد، وكهلا، ومن الصالحين، وكيف أن السماء ستعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وكيف أنها ستبعثه رسولاً إلىٰ العصر حينذاك. ثم كيف أنه سيجيء بأكثر من ممارسة معجزة بإذن الله من خلقه من الطين كهيئة الطير، وإبرائه الأكمه والأبرص، وإحيائه الموتى بإذن الله، وإخباره بما يأكل الناس ويدّخرونه في بيوتهم. كل أولئك، ستقفُ عليه عندما نحدثك مفصلاً عن قصة عيسىٰ، وما يواكبها من مواقف وأحداث شتىٰ.

إلا أنّنا الآن، نعتزم أن نلفت انتباهك إلىٰ أكثر من ملحظ، لا مناص لنا من اقتطافه من القصص الأربع التي حدثناكَ عنها، لأنّ هذه المَلاَحِظ ذات صلة وثيقة بهذه القصة، وبما يلحقها من أحداث ومواقف.

فقد لحظنا منذ البداية أنّ الأمر يتصل بممارسات عبادية وفقاً لمفهوم الخلافة الإنسانية على الأرض. فامرأة عمران تمارس ظاهرة النذر لتحقيق مهمة عبادية لوليدها، وابنتُها تمحّض للعبادة بالنحو الذي وقفْت عليه، وزكريّا بدوره، يتّجه إلى مناشدة السماء أن تهبه ذريّة طيّبة. وذريته التي تمثلت في يحيىٰ قد حققت المناشدةَ العبادية المذكورة كما عرفتَ. وزكريا نفسه، قد مارس الكفالة لمريم ـ وهي مهمة تربوية عباديّة خطيرة، فضلاً عن أنه تمحّض لفترةٍ ما، لممارسات عبادية خاصة، امتثالاً لأمر السماء.

هذا كله، ينبغي أن تضعه في ذهنكَ وأنت تتابع سلسلة المواقف من تحركات الشخوص المذكورة ـ في صعيد الممارسة العبادية.

وإذا انتقلت بذاكرتك إلى (الأحداث)، للحظت، أنها قد تتابعت وهي تحمل نمطاً متماثلاً في عملية الإنجاب وما واكبها من الظواهر، فأنت تجد نفسك أمام أبوّة وبنوّة. . . أمام أبٍ وابن، أو أب، وبنت، أو أمّ وبنت، أو أمّ وابن. ستجد نفسك أمام امرأة عمران وابنتها، وأمام مريم وابنها، وأمام زكريا وابنه. وكل هذه السلسلة الأبويّة والبُنويّة، تبدأ إما من الدعاء بطلب ذرّيّة، أو

التحقيق لها بنحوٍ غير مباشر. لكنك في الحالتين، تُلاحظ أنّ الإعجاز هو الطابع الوحيد الذي غلّف كل هذه السلسلة من عمليات (الإنجاب)... فيما بدأت من (العقم) أو (الكبر)، ثم انتهت إلىٰ أخطر ظاهرة في الإنجاب ألا وهي الولادة بلا أب متمثلة في شخصية عيسىٰ التي انتهت القصص إليها، ومهّدت لها، لكي يتسلم القارىء أو المستمع شخصية عيسىٰ، وقد رسمها النصُ أيضاً سلسلةً من الأحداث والمواقف المعجزة كما سترىٰ.

هنا نطالبُك بملاحظة الأحداث والمواقف، وشدّها بعضِها بالآخر، وبخاصة بين ولادة عيسىٰ بلا أب. (وهي ظاهرة إبداع خاصة)، ثم ممارسات عيسىٰ نفسه (وهي ظواهر إبداعية خاصة أيضاً).

وهذه الظواهر الخاصة، رسمها القرآن الكريم لعيسىٰ في مستويات ثلاثة، تجسّد قوىٰ الشخصية، فيما تستكمل بها كل معالمها التي تنتزع التقدير عادة.

هذه القوى الثلاث هي: العلم، والاقتدار، والتعبير. ومن الواضح، أنّ هذه السمات الثلاث تكتسب المزيد من التقدير، بقدر ما يضخم حجمها عند الشخصية. ولقد رسمها القرآن الكريم جميعاً، علىٰ أشدّ ما يمكن تصوّره في الشخصية، رَسَمَها في أقصىٰ الإمكانات الخاضعة للتخيّل البشري. فقد صوّر السمة التعبيرية ـ أي الكلام ـ متمثلةً في التحدث مع الآخرين ـ والشخصيةُ لا تزال في المهد ـ في حين أن الطفل لا يقوىٰ في مرحلته النمائية المذكورة، حتىٰ على مجرد النطق، فضلاً عن أن يكوّن له ثروةً لغوية يُحاور بها الآخرين.

وأما السمة العلمية، فقد رسمها لعيسىٰ على النحو الذي يجعله علىٰ معرفة حتّى بما يدّخره الناس في بيوتهم أو يأكلونه مثلاً. ولا تعقيب ـ بطبيعة الحال ـ علىٰ مثل هذه المعرفة التي تندّ عن الإمكان في التجربة البشرية العادية.

أمّا سمة الاقتدار، فقد رسمها القرآن الكريم لشخصية عيسىٰ، بنحوٍ لا يحتاج إلى التعقيب أيضاً، ما دام الاقتدار هذا، قد تجاوز مجرد عملية التطبيب من إبراء الأكمه والأبرص، إلىٰ عملية إبداعٍ وإحياء، إبداع للجنس الحيواني، متمثلاً في صنع هيكل طائر، يبعث فيه الروح، وإحياء للجنس البشري، متمثلاً في نفخ الروح فيه من جديد بإذن الله.

والآن، إذا تابعتَ قصة عيسىٰ، للحظت أنّ السمات الإعجازية الثلاث التي قدّمها عيسى(ع) للجمهور. ونعني بها سمات العلم والاقتدار والكلام، إنما جاءت امتداداً لما سبقها من القصص ـ كما وقفت على ذلك ـ وإرهاصاً لما سيجيء من أحداث ومواقف في قصته، وفي قصة الرسالة الإسلامية كما سنرىٰ.

وقبل أن نتابع هذا الامتداد والإرهاص، ينبغي علينا أن نلفت نظرك إلىٰ أنّ كلاً من السمات المعجزة الثلاث، لا ينحصر رسمها في استقطابها لقوىٰ الشخصية التي تنتزع التقدير فحسب، بل في إلقائها الضوء أيضاً على أكثر من موقفٍ وحدث. فسمة الكلام جاءت ـ أي تكليم عيسىٰ وهو في المهد ـ لتعميق القناعة بالحَدَث المعجز لولادته، من خلال مسح أيّ تشكيك أو ضبابية أو سوء تفسيرٍ في ولادته، فكأن نطقه بالحقائق ـ وهو في مهده ـ ردٌّ على أيّ لَغَطٍ يصدر عن الآخرين في هذا الصدد.

وأمّا سمة (الخلق والإحياء). أي خلقه من الطين هيئة طائر ـ بإذن الله، ثم إحياؤه للميت ـ بإذن الله، هذه السمة، لا تحتاج إلى التعقيب في صلتها فنياً ونفسياً بكلّ ما تحمله القصصُ الأربع السابقة على قصة عيسىٰ، من (أفكار) تتصل جميعاً بقُدُرات السماء في عملية التوليد البشري.

إنّ قدرات السماء في الإنجاب من العقم، وفي الإنجاب بلا فحلٍ، شكلت رسماً كان بمثابة العَصَب الذي يمتدّ في هياكل القصص الأربع جميعاً،

فجاءت عملية التوليد والإحياء ـ بإذن الله ـ في شخصية عيسىٰ، تتويجاً، وتفسيراً، للقدرات المذكورة، مع إضافة عنصر جديد هو (الإحياء) في قصة عيسىٰ.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار، أنّ إحياء الآدميين بعد موتهم، يُشكّل القطبَ الآخر من استدلال السماء على قدراتها، وانسحاب ذلك على ظاهرة (الإقناع) التي تحرص السماء علىٰ توفيره للمتلقّي، حينئذٍ أدركنا قيمة العنصر الجديد الذي رسمته السماء لشخصية عيسىٰ، في إحيائه الموتىٰ بإذن الله، وهذا يعني أنّ السماء مهّدت بهذا العنصر، إضفاء صفة (القناعة) على العملية الأخرى للتجربة البشرية، وهي عملية إحياء البشر بعد موتهم، والتهيؤ للمرحلة الخالدة في الحياة الأخروية.

ولسوف نرىٰ صدىٰ هذا العنصر على بقية أجزاء السورة في متابعتنا لها.

وأمّا انعكاس هذا الرسم، على سياق رسالة عيسىٰ، فواضح كل الوضوح، إذا أخذنا بنظر الاعتبار ما تقوله لنا النصوص المفسّرة من أنّ أيّ حدثٍ معجز يواكب رسالة شخصية ما، إنما يتساوق مع طابع العصر ومعطياته الحضارية... فيما كان الطبّ ـ كما تقول النصوص المفسرة ـ طابع العصر الذي واكب عيسىٰ، فكان إبراء الأكمه والأبرص، تجسيداً معجزاً لطابع العصر، ثم كان الخلق والإحياء ـ بإذن الله ـ تتويجاً عالياً، وتجسيداً لأعلىٰ قمم التصرف بالمصائر البشرية وولادتها.

وأما السمة العلمية، فقد جاءت تأكيداً آخراً لظاهرة الرسالة، بصفة أنّ العلم حتى بدقائق الأمور من نحو ما يدخّره الناس في البيوت، وما يتناولونه من طعام. هذا النمط من الإحاطة العلمية، يُعدّ ـ دون أدنىٰ شك ـ عنصراً بالغ الأثر في تحقيق ظاهرة (الاقتناع) بمشروعية الرسالة، وانتسابها إلى قُدرات خارجة عن الإطار القاعديّ للتجربة البشرية.

أولئك جميعاً، رسمته السماء، من خلال تحقيق مهمتين مزدوجتين، تحقق أولاهما عنصر التجانس فنياً ونفسياً في إطار القصص المرسومة التي تمهّد بكل أحداثها ومواقفها، لرسالة عيسىٰ، وتحقق الأخرىٰ عنصر الإرهاص بما يمكن أن تحققه مرحلة الرسالة ذاتها.

وبالفعل، نلحظ من هنا، كيف أن النصّ القرآني بدأ برسم مرحلة الرسالة التي اضطلع بها عيسىٰ فيما بدأها بمطالبة الجمهور، بالإيمان إلى رسالته، بعد أن توّج ذلك كله، بالإلماح إلى الرسالة التي عليه ـ وهي رسالة موسىٰ ـ من أنّه جاء مصدّقاً بها من خلال ما تضمّنته من التبشير برسالة عيسىٰ.

هنا، ينبغي ألا تفوتنا الإشارة، إلى أن رسم التبشير برسالة عيسىٰ، سوف يترك وقعه الفني والنفسي، على التبشير الذي ستصوغه رسالة عيسىٰ بنبوة محمد(ص)، فيما تمثل هذه الرسالة، خاتمة المبادىء للسماء، وفيما يستهدف النص القرآني من وراء الرسم المذكور، ترسيخ القناعة بمشروعية الرسالة الإسلامية في خاتمة المطاف.

* * *

وعلىٰ أية حال، فإن الأحداث والمواقف، تبدأ من الآن فصاعداً، تتّخذ مساراً جديداً هو: نمط استجابة الجمهور لرسالة عيسىٰ، ثم تعامله وإياهم، وأخيراً: كيفية إنهاء السماء لحياة عيسىٰ. وانسحاب أولئك جميعاً على الرسالة الإسلامية.

ولنقف عند هذه الملاحظ الأربعة: تعامل الجمهور، تعامل عيسىٰ، خاتمة حياته، انسحاب ذلك على الرسالة الإسلامية.

* * *

ولنقف مع الملحظ الأوّل والثاني:

لقد رسم القرآن الكريم، بيئة الرسالة التي اكتنفت عيسىٰ(ع)، منحصرةً في موقف الرفض لرسالته، وموقف المساندة لها من قِبَل حواريّيه، دون أن يرسم تفصيلات الأحداث في رسالة محمّد(ص) فيما رُسمت قصةُ عيسىٰ لتُلقي الضوء علىٰ البيئة التي تكتنف الرسالة الإسلاميّة، كما هو واضح.

ولنقرأ الآيات الثلاثَ التالية، فيما رسمت الموقفين المذكورين، أي: الرفض بعامة، والمساندة من الصفوة.

﴿فلما أحسّ عيسىٰ منهم الكفر، قال:

من أنصاري إلى الله؟؟

قال الحواريون:

نحن أنصار الله، آمنّا بالله، واشهد بأنّا مسلمون.

ربّنا، آمنا بما أنزلت، واتّبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين. ومكروا، ومكر الله، والله خير الماكرين﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٤].

إنّ هذه الآيات الثلاث، تلخّص بيئة الرسالة، مختزلةً كل التفصيلات التي كان من الممكن أن يرسمها القرآن. إلاّ أنّ الانتقاء كان لهذه المواقف التالية فحسب، وهي:

١ ـ الجمهور يرفض الرسالة ٢ ـ عيسىٰ يناشد الآخرين بمساندته، فيستجيب له عدد ضئيلٌ من الشخصيات. ٣ ـ الرافضون ـ وهم كفار بني إسرائيل ـ يحوكون مؤامرةً ضد عيسىٰ ٤ ـ السماءُ تئد المؤامرة، وتسحقها من الأساس. وتقول النصوص المفسِّرة: إنّ المتمردين كانت مؤامرتهم تتحدد في محاولةٍ لقتل عيسىٰ، إلاّ أن السماء ألقت على صاحب المحاولة: أي الذي أراد قتل عيسىٰ، ألقت عليه الشبه، فقُتِل من قِبَل أصحابه، ورَفعَ الله عيسىٰ إلىٰ السماء.

والمهم، أنّ القرآن الكريم اكتفىٰ بالإشارة إلى عملية محاولة القتل، اكتفىٰ بقوله تعالى (ومكروا). واكتفىٰ من عملية إنقاذ عيسىٰ بقوله تعالىٰ ﴿ومكر الله، والله خير الماكرين﴾ واكتفىٰ أساساً من موقف الرفض، بقوله تعالى ﴿فلما أحس عيسىٰ منهم الكفر﴾. إلّا أنّه فصّل الحديث عن (أنصار عيسىٰ) فحسب.

تُرىٰ... ما هو المبنىٰ الفني لهذا التفصيل، وذلك الاختزال؟؟

لقد اختزل القرآنُ الكريمُ رسم الحوادث والمواقف المتصلة برفض دعوته، وبالمؤامرة التي دُبّرت حياله، وبالقضاء على المؤامرة، مكتفياً بالإشارة العابرة لها، لكنّه فصّل في موقف المساندين لعيسىٰ وهم إثنا عشر رجلاً، خلع النصُ عليهم اسم (الحواريين)... هؤلاء الحواريون رسمهم النص بأنهم (أنصار الله) وأنّهم (آمنوا بالله) وأنهم (مسلمون) وأنهم (آمنوا بما أنزلته السماء على الرسل) وأنهم (اتبعوا الرسول) وأنهم في نهاية المطاف أكّدوا مبدأً ذا خطورة، وكرّروه مرّتين، ألا وهو ظاهرة (الإشهاد)، الإشهاد بأنهم مسلمون، والمطالبة بأن يُكتبوا مع الشاهدين.

إن رسم هذه التفاصيل لشخصيات الحواريّين، يحمل دلالةً فنية ونفسيّة تتمثل في إلقائها الضوء على (الأفكار) المطروحة في سورة آل عمران، حيث نجد كيف أن كلّاً من (الإشهاد) و(الإيمان) و(الإسلام) الذي يعني (الانقياد)، كيف أنّ هذه الظواهر الثلاث قد كرّرها النص من أكثر من موقع من السورة، ومنها هذا القسم، وفي القسم الأخير أيضاً، فضلاً عن القسم الأول من السورة الكريمة.

وهذه الظواهر الثلاث رسمها النص في سائر أجزاء السورة عبر سياقاتٍ متنوعةٍ تتصل بالجهاد، وبمواقف المؤمنين الذين ساندوا النبي(ص) في معركته ضد الكفر، وبمواقف خاصة وعامة، جاء من خلالها رسمُ هذه الظواهر الثلاث

بنحو لافت للنظر، من نحو آية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو...﴾ وآية ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ وآية ﴿فقل أسلمتُ وجهي..﴾ وآية ﴿يقولون آمنّا به...﴾ الخ. هذه الآيات التي وقفنا عندها مفصّلاً تشكّل العَصَب الذي يمتدّ إلىٰ جزئيات كبيرة من السورة بنحو تتآزر وتتساند فيما بينها وبين سائر الأفكار المطروحة، فيما يستهدف النصُّ القرآني من رسمها بهذا النحو المتناسق، إحداث تأثيرٍ خاص في المتلقّي يتصل بطبيعة الاستجابة البشرية لرسالة النبي محمد(ص)، والتلميح بخاصة إلى ذلك النفر المُجاهد الذي كرّس حياته لرسالة الإسلام، بعد أن نفض عنه كل تراكمات البيئة الملتوية، واتّجه إلى السماء، بكل كيانه في ضوء فحصه الموضوعي للحقائق...

وإذن، جاء التفصيل في رسم شخوص الحواريين، بتلك السمات التي وقفنا عليها متجانساً مع السمات التي ركّز القرآن الكريم عليها عبر رسمه لشخوص المؤمنين الذين واكبوا رسالة النبي(ص)، ومطلق المؤمنين الذين رسمهم القرآن بالسمة المذكورة. وهذا التجانس يتمثل في مستويين، أولهما: العناية بالتفاصيل، والآخر: العناية بشخوصٍ متميزين. وكلاهما متصلٌ بالتفاصيل وبالشخوص الذين رسمهم القرآن في كل أجزاء السورة.

وإذن، للمرّة الأخرىٰ، يتعيّن علينا أن نؤكد خطورة هذا الرسم للحواريين، وتفاصيل سماتهم، بصفة أن هذا الرسمَ المفصل (جزءٌ) من (أفكار) السورة التي يحوم الرسم القصصي عليها أيضاً، أي بصفة أن العنصر القصصي موظفٌ لإنارة الأفكار المطروحة في السورة.

* * *

وبعامة فإن متابعتنا لقصة عيسىٰ، لا تزال في مرحلتها غير المنتهية. فلقد كان الشطر الأولُ من القصة يتجسّد في ولادة عيسىٰ بالنحو الذي وقفنا عليه. وكان الشطر الثاني من القصة، يتجسّد في الإعلان عن دعوته عبْر الإشارة إلى

الظواهر المعجزة التي قدّمها للجمهور من إبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير، وإحياء الميت ـ بإذن الله ـ والعلم بدقائق الظواهر.

ثم كان الشطر الثالث من قصة عيسىٰ، يتجسّد في استجابة الجمهور حياله، حيث تميّزت الاستجابةُ بالرفض، وحيث أعلن عن مناشدته للنصرة فيما سانده الحواريون، وحيث أعدّته مؤامرة لقتله، وحيث أُحبطت المؤامرة.

وإذن، لقد تابَعْنا مراحلَ ثلاثاً من قصة عيسىٰ.

ولكن، لا تزال هذه القصة، ذات مراحل أخرىٰ، رسمها القرآن الكريم وفق بناءٍ معماري خاص، يتعين علينا متابعته، فنقول:

الشطر الرابع من قصة عيسىٰ يُجسّد إنهاء حياة هذه الشخصية، فلقد رأينا كيف أنّ الملتوين ـ كفار بني إسرائيل ـ دبروا مؤامرةً لقتله، وإنهاء حياته؛ إلا أنّ السماءَ هنا، تدخّلت لإنهاء حياته، وإنقاذها من القتل، فيما أنهتها بنحوٍ آخر، ترسمه الآيةُ التالية:

﴿إذ قال الله يا عيسىٰ إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ [آل عمران: ٥٥].

إنّ إنهاء حياة عيسىٰ، من قِبَل السماء، بهذا النحو الذي رسمته الآية، ينطوي علىٰ (إثارة) بالغة المدىٰ... فكما كانت ولادتُه محفوفةً بالإثارة، والانبهار، والدهشة... كذلك: خاتمة حياته لقد أوجدت السماء عيسىٰ بنحو (معجزٍ) مثير، وأنهت حياته بنحوٍ معجزٍ مثير. فقد وُلِدَ بلا أب، وتوفي بلا أرض.

إنه لم يمت بالنحو الاعتيادي، كما لم يُولد بالنحو الاعتيادي، في

الحالتين تخطّت قصتُه قوانين الأرض التي رسمتها السماء لكلّ الآدميين، ما عدا البعض.

لقد رفعت السماءُ عيسى، إليها، بعد أن خُيِّل للمتآمرين أنهم قد نجحوا في اغتيال عيسىٰ(ع).

ومثل هذه الحادثة تحمل أكثر مِن دلالة فنية ونفسية، فلقد دحضت هذه الحادثةُ أسطورة (الصُلب) التي لا يَزال صداها الأسطوري حاضراً في بعض الأذهان، وكأنه حقيقة تأريخية. كما أن هذه الحادثة ـ من جانبٍ ثانٍ ـ ألقت الضوء علىٰ مساندة السماء لأيّة شخصية تجاهد في سبيل الله، من نحو شخصية إبراهيم(ع) مثلاً فيما ساندتها السماء عبر إنقاذها من النار التي أراد المتآمرون إحراقَه فيها فيما جعلها الله برداً وسلاماً على إبراهيم.

ومن جانبٍ ثالث، فإنّ هذه الحادثة تحقق مبدأ التجانس في الرسم القصصي للشخصيات ولادةً وحياةً وموتاً. فقد تجانس الولادة بلا أب، مع الوفاة بلا موت. فكما أرسلت السماء روحاً لإنجاب عيسىٰ، فكذلك رفعته إليها دون أن تُميته علىٰ الأرض، ومثل هذا التجانس ينطوي على خطورة فنيّة ونفسيّة لا يتحسسها إلّا مَن استخدم ذائقته الفنية بنحو دقيق مستأنٍ...

هذا فضلاً عن سائر مبادىء التجانس في السمات (المعجزة) التي لحظناها، تتتابع مع القصص الخمس التي شكلت جزءً من السورة وقفنا على تفصيلاتها، فيما لا حاجة إلىٰ إعادة القول فيها، ما دام التجانس واضحاً كل الوضوح في كل السمات التي رسمها القرآن الكريم لشخصيات عيسىٰ وزكريا ومريم وامرأة عمران، وفي كل الخصائص التي اكتنفت رسم الأحداث والمواقف، والبيئات التي كانت الشخوصُ المذكورة تتحركُ من خلالها.

* * *

إلى هنا، فإنّ قصة عيسىٰ في مراحلها الأربع، تكون قد أوشكت على

النهاية، لولا أنّ أصداءها لا تزال تُلقي على الأحداث والمواقف، أكثر من دلالة. كما أنّ التمهيد لها بأكثر من قصة، كان له صداه ـ كما رأينا ـ في القصص الأربع.

ولكن ما هي الأصداءُ المذكورة. . .؟؟

إنّ هذه الأصداء تنعكس علىٰ رسالة النبي محمد(ص) وما واكبها من أحداث ومواقف وشخوص وبيئات.

قلنا: إنّ العنصر القصصي ـ بحكاياته وقصصه الخمس ـ وظِّف من أجل إنارة البيئة الإسلامية في هذا الصدد. إنّ النص القرآني يستهدف منه التوظيف المذكور، إحاطة المتلقّي بطبيعة رسالة السماء، ومشروعيتها، وضرورة الإيمان بها، وتعميق اليقين بذلك.

لقد تركت قصةُ عيسىٰ أصداءها على بيئة الرسالة الإسلاميّة، عبر شرائح متنوعةٍ منها.

بل إنها تحرّكت، لتكشف عن رسم قصةٍ أو حكاية سادسة تنضمّ إلىٰ العنصر القصصي في سورة آل عمران: امرأة عمران، زكريا، يحيى، مريم، عيسىٰ. وأخيراً: الحكاية السادسة وهي ظاهرة (المباهلة).

إنّ ولادة عيسىٰ بلا أب ـ بصفتها رسماً معجزاً تقدَّم الحديثُ عنه ـ لا بدّ أن يترك عدةَ استجاباتٍ عند الآدميين، وكانت إحدىٰ هذه الاستجابات، أنه ابن الله أو ثاني اثنين، أو ثالِثُ ثلاثة: أبٍ، وابن، وروح القدس.

ومن الطبيعي، أنّ الرسالَة الإسلاميّة ـ وهي تواجه جبهاتٍ متنوعةً من الأعداء ـ أن يتحرك نحوها جبهةُ المسيحيين ـ في اتجاهها الثقافي المنحرف ـ كما سنلحظ ذلك في مواقع شتىٰ من سورة آل عمران. هذه الجبهة، كانت تتوكأ ـ في جملة ما تتوكأ عليه ـ علىٰ قضية المسيح نفسه عبر أحد نشاطاتها

المعادية، ومنه: النشاط المتصل بالمناقشة والمحاجّة ونحوهما.

وكانت المحاجة المتصلة ببنوّة المسيح أو إقنيميته الأسطورية، تجسّد واحداً من ضروب المحاجّة.

وتقول النصوصُ المفسّرة: إنّ نصارىٰ نجران، قالوا للنبي(ص) إلىٰ ما تدعونا ؟ فأجابهم: إلى شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله، وإلى أني رسوله. كما حدثهم عن عيسىٰ وانتسابه البشرىٰ، وعندما سألوه عن أب عيسىٰ، كانت الإجابةُ تتحدد وفقاً للآية القرآنية الكريمة، التالية، فيما تنقل لنا قصة المباهلة التي نحن في صدد الحديث عنها، عبر آيتين أُخريين.

والآيات الكريمة هي:

﴿إنّ مثل عيسىٰ عند الله، كمثل آدم خلقه من تراب، ثمّ قال له كن فيكون﴾.

﴿الحقُّ من ربك فلا تكن من الممترين﴾.

﴿فمنْ حاجّك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل: تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦١].

لقد جاء التلميح إلىٰ قصة آدم ونمط مولده، امتداداً لرسم (الحدث المعجز) الذي غلّف كل القصص التي وقفنا عليها في سورة آل عمران. ومن الواضح أن ربط سلسلة من الأحداث المعجزة ـ عبر القصص الخمس، بالحَدث المعجز لعيسىٰ، يعني رَبْطَ هذا الحَدَثَ الأخير بأوّل حدثٍ معجزٍ في التجربة البشرية ـ أي: صياغةِ آدم(ع). أقول: إن ربطَ سلسلةٍ من الأحداث المعجزة الّتي تُمثِّل امتداداً زمنياً، يعني رَبْطَ هذا الامتدادِ، بأوّليةِ الحدث تاريخياً في حمله لسمة (المعجز) ذاته، هذا الربطُ يُعدّ رسماً فنياً ونفسياً له خطورته في

تحقيق عنصر (الاقتناع) الذي يظل هدفاً لأية قصة.

فإذا تجاوزنا هذا العنصر فيما حققته القصة القرآنية عبر الربط بين ولادة عيسىٰ وولادة آدم. نكون قد انتقلنا إلىٰ قصة الإبداع نفسه، إلى تجربة المولد البشري، ودلالة الخلافة علىٰ الأرض، متجسدةً في رسالة الإسلام (فيما تجسّد الصياغة الوحيدة لفهم ظاهرة الكون والمجتمع والفرد)، وفيما ينقلنا النص القرآني إلىٰ بيئته التي واكبت ظهور الرسالة، ونموّها، ومنها: رسم البيئة الملتوية من مشركين وملحدين وكتابيّين منحرفين.

* * *

وحكاية أو قصة (المباهلة) تمثّل نموذجاً واحداً من تلكم البيئة التي أفرزت مجموعة نجران في عملية المحاجة التي أشرنا إليها. وكانت نهاية هذه القصة في صالح الرسالة الإسلامية، فيما تنقل لنا النصوص المفسرة أنّ النبي(ص) أراد أن يباهلهم بشخصيته وبعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، تلك المجموعة، إلّا أنَّ المجموعة فَزِعت من المغامرة بقبول المباهلة، فصالحهم النبيّ(ص) على الجزية فانصرفوا.

والمهم، أنّ النهايَة القصصية لحدث المباهلة، كانت (انتصاراً) للنبي(ص)، تماماً كما كانت النهاية القصصية في حياة عيسىٰ (انتصاراً) له، بعد أن رفعه الله إلى السماء، وأنقذه من المؤامرة.

هاتان النهايتان القصصيتان، ينبغي أن لا تغربا عن أذهاننا، ونحن نتحدث عن البناء المعماري (لقصص آل عمران، وعن التجانس في كلّ أحداثها ومواقفها وشخوصها وبيئاتها، بالنحو الذي لحظناه مفصّلاً، وبالنحو الذي نلحظه الآن متجسّداً في عملية التجانس بين نهاية كلّ قصة، حيث كان(الانتصار) لصالح كلٍّ من الشخصية، بعد أن نَقَلَنا النصُ القرآني من البيئة القصصية المتمثلةِ في قصص كلٍ من امرأة عمران، وزكريا، ويحيى، وعيسىٰ،

نَقَلَنا منها، إلى بيئة الرسالة الإسلامية، إلى رسالة محمد(ص)، إلىٰ البيئة التي تواكب الرسالة وما يكتنفها من ظواهر (الجهاد) الفكري والعسكري كما سنرىٰ أيضاً.

* * *

وإذن، نحن الآن أمام بيئة جديدة، أمام الرسالة الإسلامية ذاتها، بعد أن وُظّفت القصصِ المذكورةُ جميعاً، لكي تُلقي الإنارة علىٰ رسالة السماء، وما تستهدفه السماء من (أفكار) طرحتها في سورة آل عمران.

وهذا يعني، أننا الآن ستتجه إلى دراسة القسم الثالث من السورة، وعلاقته بباقي الأقسام، وما ينتظم هذه البناء من (أفكار) أخذت بداياتٍ معينةً من السورة، وقطعت مراحل متنوعة منها، ثم انتهت إلى نحوٍ خاصٍ خُتِمت السورةُ به. ثم كان العنصُر القصصيُ جزءً من هذا البناء، قد وُظّف لإنارة (الأفكار) التي انتظمت السورة.

وإذن، يتعيّن علينا الآن أن نتّجه إلى دراسة تلكِ (الأفكار) وطريقة البناء الفني لها.

* * *

. لقد رأينا مفصلاً صلة العنصر القصصي بعبارة (آل عمران) عبر سلسلة الأحداث والشخصيات التي بدأت من أسرة عمران في تلاحمٍ وترابطٍ وتجانس بالغ المدىٰ بينها، وانتهت إلىٰ الشكل الذي وقفنا عليه، فيما برزت ـ من خلال القصص ـ جملة الأفكار تحوم حول تجربة الميلاد المعجز أو الحدث النادر، حول تجربة الموت المعجز، حول تجربة الإحياء المعجز.

ثم لحظنا تجربة الممارسات العبادية ـ وجدانية وعملية ـ وما واكب هذه الممارسات من بيئات معجزة، كالرزق مثلاً.

كما لحظنا تجربة الحواريين ونمط استجابتهم، وطبيعة التركيبة العبادية لشخصياتهم، وفرز ظواهر الإشهاد، والإسلام، والإيمان من بينها.

هذه الأفكار وسواها، إذا استحضرناها في الذهن، ثم ربطنا بينها وبين (الأفكار) المتنوعة التي تنتشر في مجموع السورة إذا ربطنا بين أولئك جميعاً، فحينئذٍ سنكتشف المزيد من أسرار الهيكل المعماري للسورة القرآنية، وملاحظة كيف أنّ هذا الهيكل سيترك عند المتلقّي استجابة منظّمةً تتمركز عند أطر محدّدة، تساهم في تعميق وإثراء تجربته بعامة، وفي إغناء تجربته عند تلك الأطر المحددة بخاصة.

ونقصد بها مجموعة (الأفكار) التي تتميز بالضرورة، عن (الأفكار) الأخرىٰ التي قد تنتظم في سورة غيرها أيضاً، لكنها تبقىٰ (متميزة) دون أدنىٰ شك. وهذا ما يشكّل واحداً من أسرار البناء الفني، فضلاً عن أسرار فنية أخرىٰ نقف عليها في حينه إن شاء الله.

ونتّجه إلى القسم الثالث ـ وهو القسمُ الأخير ـ من سورة آل عمران، فنجده مستغرقاً غالبيّة السورة كما قلنا.

ويهمنا أن نتابع محتويات هذا القسم وصلتها العضوية بالقسمين الأوّل والثاني.

وهذا القسمُ من السورة يتمحض للنثر الفني. بعد أن رأينا القسم الثاني يتمحض للنثر القصصي، والقسم الأول يتمحّض للنثر.

القسم الثالث

يبدأ القسم الثالث من سورة آل عمران برسم شخوص (الكتابيّين)، مُلقياً عليهم ضوءً جديداً من أنماط السلوك الذي يُغلّفهم.

ولقد رأينا كيف أنّ (الكتابيين) هم الذين يحتلّون موقعاً ضخماً من

السورة. فالقسم الثاني من السورة ـ وهو المتضمن قِصصاً وقفنا عليها مفصّلاً ـ، قد اتّجه نحوهم أيضاً، كما رأينا أنّ القسم الأوّل من السورة قد اتّجه في غالبيته نحوهم.

وهذا كلّه يعني أنّ هؤلاء الشخوص هم المادّة التي يتشدّد الرسمُ عليهم، بغيةَ الانتهاء منهم إلى استخلاص أهدافٍ خاصةٍ مطروحة في السورة، وقفنا على جزءٍ منها عبر دراستنا للقسم الأول والثاني من النص.

بيد أنّ ما ينبغي أن نلفت النظر إليه هو: أنّ كلّ رسم جديدٍ لهؤلاء الشخوص، لا بدّ أن يطرح موقفاً جديداً أيضاً يتواشج، في عروقه مع كلّ المواقف المرسومة لشخوص الكتابيين.

تُرىٰ: ما هو الموقفُ الجديد في هذا القسم من السورة؟

* * *

لقد لحظنا أن القسم الأوّل من السورة، ترك مصائر الكتابيين، مفتوحةً لم يُنهِها إلى شاطىءٍ ما، لقد تركها متأرجحةً بين الإيجاب والسلب. كلّ ما في الأمر أنّ النص أنهىٰ بعضهم من الحساب، وانتقىٰ بعضاً فأكسبهم تقديراً خاصاً، ثم تركهم بعامة متأرجحين، مؤجّلاً رسمَ نهايتهم، لحين الانتهاء من رسم مواقفهم المتنوعة.

وهذا النحو من الرسم للشخوص ينطوي ـ كما هو بيّنٌ ـ علىٰ أكثر من مُعطىً فنيّ ونفسي. فهو أولاً يتّسق مع طبيعة التركيب الشخصي للفرد في تموّجاته النفسية واستجاباته حيال المحيط وإثاراته. فليس من السهولة بمكان أن تستجيب الشخصية لمُثير جديد يكاد يقطع صلتها بكلّ خبراتها السابقة. كما أنّه ليس من السهولة أن تتخلّىٰ الشخصية عن ذاتها وكلّ وسائل الإشباع التي اعتادت عليها.

وأمّا ثانياً فإنّ الرسم المذكور، يتّسق مع طبيعة التركيب الشخصي للمُتلقّي ـ أي: القارىء أو المستمع أو المُشاهد. فمن الواضح أن عملية (التعلّم) ـ والتعلّم هنا نأخذه بدلالته النفسية التي تعني طرائق الاستجابة بعامة ـ هذه العملية تُحقّق مُعطاها من خلال (الوصلات) و(الوقفات) أو المراحل الجزئية للظاهرة، وليس من خلال (الكلّ). فضلاً عن أنّ (التكرار) من خلال الطرح الجديد للظاهرة، يُساهم بدوره في تعميق الموضوعات التي يستهدفها المُبدع.

وأخيراً، فإنّ المعطىٰ (الجمالي) وما يرافقه من التسلية الهادفة، يتحقّق بوضوح عند هذا النمط من الرسم للشخوص،أي: الرسم الذي يُعنىٰ بتموّجات الشخصية عبْر مواجهتها لمثير جديد، والرسم الذي ينقل معالم السلوك من خلال وُصْلاته التي يعمل (التكرار) علىٰ صياغتها كلَّ وصلةٍ بطرح جديد.

* * *

وعلى أيّة حال، فإن الجديد الذي يرسمه النص لشخوص الكتابيين، يتمثّل في الدعوة إلى وحدة الموقف حيال السماء، والإقرار بها، دون الانصياع للآخرين.

ولنقرأ الآية الأولىٰ التي استُهلّ بها القسم الثالث من السورة، قال تعالى:

﴿قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم، ألّا نعبدَ إلّا الله ولا نُشركَ به شيئاً، ولا يتّخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [آل عمران: ٦٤].

إنّ هذه الآية تجيء من جانبٍ: تتويجاً لمجمل السلوك الذي رسمه النص في القسمين الأول والثاني من السورة، وتجيء من جانبٍ آخر: امتداداً

لمواقف جديدة من السلوك الذي سيرسمه النص في هذا القسم الأخير من السورة.

أمّا أنها تتويجٌ للسالف من السلوك، فلأننا نتذكر جيّداً ظاهرة (المحاجّات) و(المناقشات) التي تمّت بين النبيّ(ص) وبينهم، ودعوته ـ من خلال لغة الحب ـ إلى رسالة الإسلام، ثم مزجه بين لغة الحب والتوعّد، ثم لغة التوعّد أيضاً. كل أولئك لحظناه بنحوٍ رافقته مواقف تتصل بتحريف الكتاب، وبالإعراض، وبالأقانيم الثلاثة وما إليها.

هنا، يجيء التتويجُ، مطالَبةً بتوحيد وجهة النظر حيال السماء والتخلّي عن تلك المواقف، وبخاصة أنّ قصة (المباهلة) التي خُتِمَ بها القسمُ الثاني من السورة، هذه القصة جاءت معزِّزةً لهذه المطالَبة، لأنها حسمت الموقف لصالح الرسالة الإسلامية، حيث (تنازل) نصارىٰ (نجران) عن موقفهم، وتخلّوا عن المباهلة إقراراً بمشروعية الرسالة.

وهذا يعني ـ فنيّاً ونفسياً ـ أنّ الدعوة إلى سواء الكلمة جاءت فرزاً عضويّاً لما تقدّمها من عنصر قصصي فيما جاءت ـ من حيث موقع الرسم ـ بعد قصة المباهلة مباشرةً، كما تُعد تتويجاً لما سبقها بعامة من المواقف المتنوعة التي أشرنا إليها.

وأمّا أنها امتدادٌ لما سيجيء من الرسم، فيتمثّل ذلك في تلويحها إلى عدم اتخاذ البعضِ، بعضاً (أرباباً)، فيما سنجد صدىٰ هذا التلويح في المواقف الجديدة التي سيرسمها النص.

وينبغي ألّا يفوتنا أيضاً التنبيهُ إلىٰ ظاهرة (الإشهاد) وظاهرة (الإسلام) ـ ومعهما ظاهرة (الإيمان) فيما أشرنا إلى أنّ هذا الثلاثي يشعُّ بأضوائه علىٰ أبنية السورة بأكملها، وحيث ألقت بضوئها الآن على مقدمة القسم الثالث من السورة، مشيرةً ـ من خلال الآية المتقدمة ـ إلى أنّ الكتابيّين إذا قُدّر لهم أن

يعلنوا رفضهم لسواء الكلمة، فعلى المؤمنين أن يهتفوا قبال موقفهم، بهذا الهتاف:

﴿اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ [آل عمران: ٦٤].

للمرة الجديدة، يتعيّن علينا أن نذكّر المُتلقي بأنّ هذا الهتاف قد ردّده الحواريون بالعبارة ذاتها:

﴿اشهدْ بأنّا مسلمون﴾ [آل عمران: ٥٢].

لقد كان الحوار مع السماءِ، عند الحواريين، وكان الحوار مع الكتابيين، عند المؤمنين. إلّا أنّه في الحالتين عمليةُ (إشهاد)، إذن، الآية التي استُهلّ بها القسمُ الثالث من السورة، تظلّ تتويجاً لما تقدّمها من رسم الكتابيين، وتظلّ امتداداً لما سيجيء من رسم جديدٍ لمواقفهم، فضلاً عن أنّها تظلّ بعامة تواشجاً فنيّاً يصل بين جزئيات السورة بأقسامها الثلاثة.

ولكنّنا إذا كنا قد لحظنا تتويجها لما تقدّم، وتواشجها مع ما تقدم، فما هو امتدادها لما سيجيء؟

* * *

إن امتدادات هذه الآية التي استهلّ بها القسم الثالث، لما سيجيء بعدها من عرض شرائح السلوك الكتابي، تتمثّل أولاً في كونها أرهصت سلفاً بما سيواجهه المتلقي من السلوك المنحرف لديهم، طالما لوّح هذا الاستهلال بإمكانية تولّيهم عن الكلمة المستوية ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ وفعلاً نجدهم ـ وقد تولّوا ـ في المقطع الذي تتحدّث عنه كلمة الاستواء، حيث يعرض المقطع الجديد لنا جانباً من سلوكهم الذي عرضه في مقاطع سابقة، لكن في سياق جديد. فالمخاصمة أو المحاجّة الهزيلة لا تزال تغلّف سلوكهم، كما أن كلّاً من التمويه، المخادعة والكذب ونحوهما لا تزال كذلك. ويمكننا

ملاحظة هذه الأنماط من السلوك في العرض الذي يقدّمه النص علىٰ النحو الآتي:

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم وما أُنزِلَتِ التوراة والإنجيل إلّا من بعدِه أفلا تعقلون * هاأنتم هؤلاءِ حاججْتُم فيما لكُم به علمٌ فلِمَ تُحاجُّون فيما ليس لكم به علمٌ والله يعلمُ وأنتُم لا تعلمون * ما كان إبراهيمُ يهودياً ولا نَصرانياً ولكن كانَ حنيفاً مُسْلماً وما كان من المُشرِكين * إنَّ أولَى النَّاس بإبراهيمَ لَلَّذين اتّبعُوه وهذا النَّبيُّ والذين آمنُوا والله وليُّ المُؤمنين * ودَّت طائفةٌ من أهل الكتابِ لو يُضلُّونَكُم وما يُضلُّون إلّا أنفُسهُم وما يشعرون * يا أهل الكتابِ لِمَ تكفُرون بآياتِ الله وأنتم تشهَدُون * يا أهل الكتابِ لِمَ تَلْبِسُون الحقَّ بالباطلِ وتكتمُون الحق وأنتُم تعلمونَ * وقالت طائفة من أهل الكتابِ آمنُوا بالذي أُنزِلَ على الذين آمنُوا وجهَ النهارِ واكفرُوا آخرهُ لعلَّهُم يرجِعُون * ولا تؤمنُوا إلّا لمن تَبعَ دينكم قُل إنَّ الهُدى هُدى الله أن يُؤتى أحدٌ مِثل ما أُوتيتُم أو يُحاجُّوكم عند ربكُم قل إنَّ الفضل بيدِ الله يؤتيه مَن يشاءُ والله واسع عليم * يختصُّ برحمتِهِ من يشاء والله ذو الفضلِ العظيم * ومن أهل الكتابِ منْ إن تَأمَنهُ بقِنطارٍ يُؤدِّه إليك ومِنهم منْ إن تأمَنهُ بِدينارٍ لا يُؤدِّه إليك إلاّ ما دُمتَ عليه قائماً ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا في الأُمّيين سبيلٌ ويقُولون على الله الكذِبَ وهم يعلمونَ * بلىٰ منْ أوفَى بعهدِه واتَّقى فإنَّ الله يُحبُّ المُتَّقين﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٧٦]، أنهم يتخاصمون في إبراهيم(ع) من أنه يهودي أو نصراني مع أنه سابق علىٰ الديانتين المذكورتين، فضلاً عن كونه مسلماً حنيفيًا. . . وهو أمرٌ يكشف عن مدىٰ التخلّف الذهني لديهم بحيث لا يميزون بين إبراهيم(ع) وبين انتمائه الفكري من جانب، بصفة أن إسلاميته وحنيفيته تظل إلى رسالة القرآن أقرب منها إلىٰ اليهودية والنصرانية، ولا يميزون بين آناء (الزمن) وبين انعدام علاقته بتلكم الشريعتين.

وهذا فيما يتصل بعنصر «المخاصمة» وانحطاطها الذهني في ممارستها.
وأما فيما يتصل بظاهرة التمويه، فقد ألمح النص القرآني الكريم إليها بوضوح عندما خاطبهم ﴿... لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [آل عمران: ٧١]. وأما ما يتصل بالمخادعة، فإنهم ـ كما تقول النصوص المفسرة ـ كانوا يحرّضون الناس علىٰ إظهار الإيمان برسالة الإسلام صباحاً والارتداد عنه مساءً حتىٰ يحملوا الآخرين على التشكيك برسالة الإسلام، كأن يُقال لهم مثلاً: لقد وقع خطأ في صفة النبيّ(ص) حيث تبيّنوا ذلك آخر النهار ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل علىٰ الذين آمنوا وجهَ النهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون﴾ [آل عمران: ٧٢].

وأما ظاهرة الكذب فقد اقترنت بـ(الخيانة) للأمانات، حيث عرض النص لسلوك البعض من الكتابيين الذين يخونون أموال الناس حتىٰ لو كانت ضئيلة، معلّلين ذلك بالقول ﴿... ليس علينا في الأميين سبيل...﴾ [آل عمران: ٧٥]. وتقول النصوص المفسرة: إن هذه الطائفة كانت تزعم بأن الأموال التي أصابوها إنما هي مصادرة بسبب من كون الأشخاص الذين تعاملوا وإياهم قد تركوا دينهم وانتسبوا إلى الإسلام، أي تحوّلوا عن ديانة هؤلاء الكتابيين، وقد علّق النص علىٰ هذا الزعم قائلاً ﴿ويقولون علىٰ الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ٧٥].

ومن الواضح، أن هذا الزعم ينطوي علىٰ آليتين من السلوك هما: التسويغ والكذب، مع ملاحظة أن (التسويغ) هو أحد أنماط الكذب، لأن الكذب هو مطلق التعبير الذي لا واقع له، وأما التسويغ فهو: تقديم الأعذار التي لا واقع لها، أي هو: إضفاء سببٍ ما، على الممارسة التي تصدر عن الشخصية المريضة. وهذا النمط من الممارسة يُعَدّ حيلةً دفاعية يحتمي بها المريض، حتى يخفي من خلالها ما يخبره من التوترات. ومع أننا لا نميل إلى

الاقتناع بالتفسيرات الأرضية لمصدر هذه التوترات، إلاّ أننا بعامة نميل إلى القول بأنّ(حيل الدفاع) ـ ذاتها مع أنها تجسّد فعلاً ـ خبراتٍ مؤلمةً دون أن تخضع لتفسير خاص، بل لمجموعة متشابكة ليس موضع تفصيل الحديث عنها في دراستنا الفنيّة هذه. وحسبنا أن نشير إلىٰ ظاهرتها المَرَضيّة المتمثّلة في محاولة التماس سببٍ ما لتمرير هذا السلوك أو ذاك. فأنت ـ علىٰ سبيل المثال ـ حينما تفشل في تقديم محاضرةٍ علميةٍ ذات قيمة، تسوّغ ذلك عادةً بضيق الوقت، وبانشغالك بأمور طارئةً حالت بينك وبين تهيئة المادة العلمية للمحاضرة، في حين أن الجدب الثقافي لدىٰ المحاضِر هو السبب في انعدام قيمته العلمية، وليس ضيق الوقت، أو الانشغال بأمور طارئة.

ومما لا شك فيه أنّ الصحة النفسية تفرض عليكَ ـ في مثل هذه الحالة ـ أن تقرّ بجدبك الثقافي، وهو مبدأ طالما يُلح التشريع الإسلامي عليه. ولكنك حينما تتأبىٰ الإقرار بالعجز، فهذا يعني أنّك وقعت في براثن المرض، متمركزاً حول (ذاتك) ناسجاً عليها هالات (الحب)، يستوي في ذلك أن يكون المُعطىٰ الذاتي نفسياً أم مادياً كما هو شأن الكتابيين الذين أشار القرآنُ الكريم إلىٰ تسويغهم الذاهب إلىٰ أنه لا سبيل في الأميين عليهم في أداء الأمانات إليهم.

وهذا كله في ظاهرة التسويغ.

وأمّا ظاهرة (الكذب) فلا تحتاج إلى التعقيب علىٰ إفرازها المَرَضي الواضح، ما دام (التسويغ) الذي تقدّم الحديثُ عنه، يُعدّ نمطاً من أنماط الكذب: وهذا يعني أنّ الكذب في أنماطه المتنوعة، يُعدّ قمّة الإفراز المَرَضيّ.

* * *

نحن الآن إذن، حيال ظاهرة مرضيّة في غاية التورّم إلا وهي (الخيانة) فيما رسمها القرآن الكريم (طابعاً) لطائفةٍ من الكتابيين.

ولقد لحظنا كيف تشابكت عدة دوافع، وعدةُ إفرازات مرضية في نسيج

الظاهرة المذكورة، حتى حوّلت الشخصية المعارضة لرسالة الإسلام، مسخاً يلغيه المتلقّي من ذاكرته تماماً.

فإذا أضفنا إلى ذلك القائمة التي تضمنت أعراضاً مرضية أخرىٰ سبق الوقوف عندها مفصلاً في القسم الأول، والثاني، وفي القسم الثالث الذي نحن في صدد الحديث عنه. إذا أضفنا إلى ذلك قائمة (الأعراض) العصابية لهؤلاء الذين شكلوا موقفاً معارضاً لرسالة الإسلام، أدركنا حينئذٍ قيمة الرسم الخارجي والداخلي لشخوص الكتابيين، وما انطوت عليه من إنارة فنيّة تساهم في تعميق القناعة عند المتلقي بضئآلة أو بانعدام الشخصية المعارضة للرسالة، من حيث الخطوط المختلفة التي نظمّتها الشخصية المذكورة في انتسابها جميعاً إلى أشد حالات المرض والعصاب. مما يعني فقدان كل مقوّماتها التي من الممكن أن تترك أثراً أو آخر في موقفها غير الموضوعي.

* * *

وهنا، يجدر بنا قبل متابعة الرسم القرآني الكريم لشخوص الكتابيين، أن نُذكّر المتلقّي بشريحة فنيّة طالما أشرنا إليها عبر الصياغة القرآنية للمواقف والأحداث والشخوص. ونعني بها: النهاية المفتوحة لمصائر الكتابيين. فلقد أوضحنا في حينه أنّ إمكانات (التحول) ـ أو ما تسمّيه لغة الأدب القصصي بـ(النموّ) عند الشخصية ـ تسوّغ ـ من الوجهة الفنيّة ترك المصائر مفتوحة وليس مغلقةً، ما دام (التنامي) من موقف إلى آخر، يجسّد ظاهرة طبيعية في استجابات الأفراد.

كما أننا أوضحنا أيضاً، أن رسم الشخوص والأحداث والمواقف في مقاطع متنامية، يتكفّل كل منها بمهمة فنية، أي تتضّام فيما بينها من خلال طرحٍ جديد في كل مقطع، ثم تنامي هذه المقاطع، بحيث يسلم أحدها إلى الآخر، في تصاعدٍ عضويٍ متلاحم. هذا النمط من الرسم ـ وقد لحظناه

بوضوح عبر متابعتنا لمختلف أنماط السلوك عند الكتابيين ـ يتطلّب بدوره ـ من الوجهة الفنية ـ ترك المصائر الشخصية مفتوحةً حتى يتناسق المصير المفتوح مع تنامي المقاطع المختلفة من السورة: فما دام كل مقطعٍ يتكفل بطرح جديد، ويتنامىٰ بطرح آخر، فحينئذٍ يتعيّن على مصائر الشخوص أن تظل مفتوحةً حتى تتجانس فنياً مع دائرة المقاطع التي لم تقف عند نهايةٍ ما، إلاّ نهاية السورة ذاتها.

وإذن، إمكانية (النمو) في شخوص القصة من حيث التركيبة الدافعية للكائن الآدمي، وترشحّه لأن يتغيّر من حالٍ إلى حال، ثم: طبيعة الصياغة المعمارية للشخوص والأحداث والمواقف، في مقاطع مستقلة ومتداخلة مترابطة. هذه الصياغة وذلك النموّ يتطلبان فنياً ترك المصائر مفتوحة كما قلنا.

يُضاف إلى ذلك: ملحظُنا لظاهرةٍ تكررت في القسم الثالث من السورة عبْر رسمها لشخوص الكتابيين.

فقد لوحظ أنّ النص القرآني الكريم يبعّض الكتابيّين، ويشطرهم، ويُجزؤهم إلىٰ فئاتٍ وطوائف وأبعاض، كأن يقول:

﴿**وقالت طائفة من أهل الكتاب**﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿**ودّت طائفة من أهل الكتاب**﴾ [آل عمران: ٦٩].

﴿**ومِنْ أهل الكتاب مَنْ... الخ**﴾ [آل عمران: ٧٥].

ومن البين أن تبعيضهم بهذا النحو، يعني أنهم ليسوا جميعاً علىٰ السمة المَرَضية التي رُسموا بها، ويعني ـ من ثمّ ـ أنّ تَرْكَ مصائرِهم بعامةٍ، مفتوحةً، يظل متجانساً مع عملية التبعيض المذكورة. فالتأرجح بين المصير الإيجابي والسلبي لهم، يدع البعض الذي استثناه النص متساوقاً مع تصورات المتلقي في اتّشاحه بالنهاية الإيجابية، ويدع البعض المتأرجح فعلاً، متساوقاً مع تنبؤات المتلقي التي قد تفضي به إلى احتمال نموّ الشخصيات نحو المصير الإيجابي،

ما دام البعض المستثنىٰ قد صيغ إيجابياً بالفعل.

ونكرّر ذلك من جديد، أنّ ترك المصائر مفتوحةٌ، مع تبعيض الشخوص إلى إيجابيين سلفاً، ينطوي علىٰ خطورة فنيّة يتعيّن على المتلقّي أن ينتبه إليها بنحوٍ ملحوظ حتى يكون على معرفة بطبيعة البناء المعماري للسورة القرآنية في شتىٰ جزئياتها المتلاحمة بعضاً مع الآخر، وفي التجانس والتوازن فيما بينها.

ونتابع سلسلة الأنماط من السلوك الذي رسمه النص القرآني عند الكتابيين، فنجد أن الرسم الجديد يتمثل في عملية (التحريف) الذي كان يمارسه الكتابيون.

ولقد لحظنا أن التلميح إلى هذه الظاهرة قد تكرر في عدة مواقع من السورة، إلا أنها جاءت في سياق الإنارة لمواقف رسمها النص بالنحو الذي لحظناه في الأعراض المرضيّة التي غلّفت الشخوص المذكورين.

أمّا هنا فإنّ التحريف يجيء رسماً يحمل طابعاً مستقلاً، يتصل بمفارقته بنحو عام، وانسحابها علىٰ «الرسالة الإسلامية» ومطلق الرسالات السابقة عليها، ومكان (التحريف) منها. فثمة اشتراءٌ بعهد الله، وبالأيمان لقاء ثَمنٍ عابر، لقاء مكسبٍ دنيوي عابر ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً... الخ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وثمة تحريف عام، وافتراء صريح قائل بأن ذلك من عند الله: ﴿يلْوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله...﴾ [آل عمران: ٧٨]. وإزاء مثل هذا الإلحاح على التحريف، تجيء الإجابةُ حائمة علىٰ موقف الأنبياء من السماء، وتشدّده علىٰ عبوديّتهم لها، مشفوعاً ذلك بعملية (الإشهاد) التي سبق التلميح إلى أنها تشكل لحد الأعصبة في السورة، فيما تنير بين آن وآخر، موقعاً جديداً منها، فقد جاءت الإجابة منكرةً لاتخاذ الأرباب وفقاً للفهم الكتابي على نحو ما أشرنا إليه سابقاً ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله

الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس كونوا عباداً لي. . . الخ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وجاءت مؤكدةً أخذ الميثاق من الأنبياء بتصديق رسالة الإسلام ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمةٍ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننّ به. . .﴾ [آل عمران: ٨١].

ثم جاء ذلك كله مشفوعاً بعملية (الإشهاد):

﴿قالوا أقررنا. قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ [آل عمران: ٨١].

* * *

ومثلما كان «الإشهاد» واحداً من الأعصبة التي لحظنا تمدّدها في السورة، كان «الإسلام» و«الإيمان» يمثلان عَصَباً آخر، أشرنا إلى إنارته لأكثر من موقعٍ في حينه. ولنقرأ:

﴿أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السموات. . .﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿قل آمنّا بالله، وما أُنزل علينا، وما أنزل على إبراهيم. . .الخ﴾.

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه. . .﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولا حاجة بنا إلى التعقيب إلى أن الظواهر الثلاث (الإشهاد) (الإسلام) (الإيمان) كانت تتسرب عبر قسمي السورة، أي في عنصريها النثري والقصصي، عبر الرسم لكلٍ من شخوص الكتابيين والمؤمنين، ثم تسرّبها هنا، في أكثر من موقع، جاءت ـ في الموضوع الذي نتحدث عنه الآن ـ في سياق ظاهرة (التحريف) بصفته واحداً من أنماط السلوك عند الكتابيين، ليلاحِمَ بين جزئيات النص، وتقرع ذاكرة المتلقي بالأفكار المستهدفة، أي: المُشدّد عليها

في السورة، بصفتها «أفكاراً» تفصح عن نمط السلوك الإيجابي الذي تطالب السماء بأن تختطه الشخصية لذاتها عبر المهمة العبادية التي أُنيطت بها.

* * *

إنّ النص وهو يرسم جملةً من سلوك الكتابين، بدأها في القسم الثالث من السورة من حيث أسلوب (المعرفة) لديهم، وأسلوب (التضليل)، ثم أسلوب (التحريف) أخيراً. هذا الرسمُ لأنماط السلوك المتقدمة، ختمه النص بطرحه أربع ظواهر تتصل بالتوبة، وبالانفاق، وبالطعام، وبالحج... وبرسم هذه الظواهر الأربع ينتهي المقطع الأول من المقاطع التي تنتظم القسم الثالث من سورة آل عمران.

هنا ـ ونحن نُعنىٰ بالبناء المعماري للسورة، يتعيّن علينا أن نستكشف الموقع العضوي لهذه الظواهر الأربع، وتواشجها مع ظواهر (المعرفة) و(التضليل) و(التحريف) وهي الظواهر التي انتهينا تواً منها.

إلا أننا قبل ذلك، ينبغي أن نقف علىٰ الظواهر الأربع وملاحظة الرسم القرآنيّ لها، أولاً.

* * *

الكفرُ، والإصرارُ عليه... ثم ما يقابله من التوبة، يشكّل أوّل الظواهر الأربع... ويُلاحَظ أنّ النص يكرّر الرسم لهذه الظاهرة، ويلوّح بالعقاب عليها بالشدة ذاتها، من نحو: ﴿**إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم...**﴾ [آل عمران: ٩٠].

و: ﴿**إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدىٰ به...**﴾ [آل عمران: ٩١].

إنّ أمثلة هذه النصوص قد رسمت كلاً من الكفر والتوبة، متجانسين في

شدّتهما مع كثافة الرسم لأنماط السلوك الملتوي بالنحو الذي لحظناه، أي: جاءت لغة الجزاء متجانسةً مع طبيعة المواقف الملتوية للشخوص، في حين أننا لحظنا في القسم الأول من السورة أنّ لُغة الحب هي التي وشّحت الموقف بما فيه لغة (الجزاء)، فيما لحظنا في حينه أن لغة (الجزاء) كانت بهذه الصياغة: ﴿الله لا يُحب الكافرين﴾ [آل عمران: ٣٢].

والسرُّ ـ من الوجهة الفنية ـ واضحٌ في موازنتنا بين الموقفين: الموقف الذي انتظمه القسمُ الأول من السورة، والموقف الذي انتظمه هذا الموقع من القسم الثالث في السورة.

هناك كان الرسم يتناول طريقة المحاجة والمناقشة بين الكتابيين، وبين النبي(ص) عبر محاولة نقلهم إلىٰ صعيد الهداية: فكانت ـ تبعاً لذلك ـ أن تتجانس لغة الحب مع الموقف الداعي إلى الهداية، وكان ذلك جميعاً قبل أن يتجه النص إلى رسم شتّىٰ المواقف الملتوية عند الكتابيين. أمّا هنا، فإن النص بعد أن قدّم لنا سلسلة متتابعة من مواقف الكتابيين، وكلّها التواء حادّ وقفنا على تفصيلاته، حينئذٍ يتطلّب الموقف لغةً مضادة، حتى وصل الأمر إلى التلويح بعدم قبول التوبة (مع أنها مفتوحة بعامة إلا ما استُثني)، بل وبعدم إنفاقهم ملء الأرض ذهباً.

وإذن، للمرة الأخرىٰ ينبغي أن نلفت نظر المتلقي إلى معمارية هذا البناء لنمطين من لغة الجزاء: لغة الحب واللغة المضادة التي تصل إلى تخوم عدم قبول التوبة أيضاً.

ومن هذا البناء المعماري، نُدرك التواشج العضوي بين ظاهرة الكفر وهي أول الظواهر الأربع التي تساءلنا عن موقعها العضوي أي عن صلتها الفنية بالرسم الذي تناول مختلف أنماط سلوك الكتابيين عبر أساليب المعرفة والتضليل والتحريف.

والصلة بين الرسم لهذه الأساليب، وبين (الجزاء) في لغته المشدّدة، تتضح ـ إذن ـ لدىٰ المتلقي بنحوٍ لا حاجة إلى إعادة الكلام فيه.

الظاهرة الثانية من الظواهر الأربع التي خُتِمَ بها المقطع الأول من القسم الثالث في السورة، هو ظاهرة (الإنفاق)، فيما تجسّده الآية التالية:

﴿لن تنالوا البرَّ حتىٰ تُنفقوا مما تحبون. . .﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقد حدّد بعضُ المفسرين طبيعة الصلة العضوية بين ظاهرة الإنفاق وما تقدّمها من ظاهرة عدم قبول التوبة حتى لو كان ذلك ملء الأرض ذهباً. حدّدها هذا البعض بأنّ ذلك عائدٌ إلىٰ أنّ التلميح إلى الإنفاق، جاء ردماً لأية محاولة يَفرضها عدم قبول الفدية، واستثمارها لعدم الإنفاق.

وفي تصوّرنا أن الموقع العضوي لهذه الظاهرة يتمثل في جملةٍ من البِنىٰ المعمارية لهيكل السورة أكمل.

فلقد لحظنا في القسم الأول من السورة، كيف أنّ إحدىٰ الآيات تحدثت عن دافعية (المال) وأولته عناية كبيرة. وفي حينه أوضحنا طبيعة الصلة الفنية، بين رسم هذه الظاهرة وبين رسم شخوص الكتابيّين والمؤمنين.

وهنا، ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن أية ظاهرة مرسومة في القسم الأول، وفي القسم الثاني ـ وهو القسم المتمحض للعنصر القصصي ـ إنما يُلقي بإنارته على سائر أجزاء السورة: انطلاقاً من الحقيقة التي طالما أكّدنا عليها، فيما شكلت حافزاً إلى قيامنا بهذه الدراسات للنص القرآني، ونعني بها: الدراسة القائمة على معالجة السورة وفقاً لمعماريتها، وفقاً لمبناها المتماسك الذي ترتبط أجزاؤه بعضاً بالآخر، نحو ارتباط الجسم الحيّ بأجزائه بعضاً بالآخر.

إن دافعية (المال) تشكل واحداً من أقوىٰ الدوافع إلحاحاً عند الشخصية بالنحو الذي أوضحناه في حينه. ونحن خلال معالجتنا للسلوك الكتابي لحظنا

كيف أن البُعد الاقتصادي كان يشكّل واحداً من الظواهر التي تجعل الشخصية الملتوية تمارس الالتواء إشباعاً للدافع المذكور.

وهذا يعني من جانب، أن الآية التي انتظمها القسم الأول من السورة وهي آيةُ ﴿زُيّن للناس حب الشهوات... الخ﴾ [آل عمران: ١٤]، ثم تقديم سلسلة من الممارسات التي نهض الكتابيون بها، وانسراب الدافع المذكور من أحد روافدها من جانبٍ آخر. إن هذا يعني أنّ النص القرآني قد أحكم الرباط بين طرح الظاهرة وبين رسم المواقف التي ترشح بالدافعية المذكورة.

وهنا، في الموقع الذي لا نزال نتناوله بالدراسة، يجيء الرسم للعنصر المالي مرتبطاً بما تقدم من سلوك الكتابيين وشخوص المؤمنين أيضاً، فيما كان القسم الأول قد أفرد مساحة من النص لرسم المؤمنين من خلال التضاد لرسم الملتوين، وهو أمر لا يخفىٰ السر الفني الكامن وراء الرسم المضاد المذكور: حيث يفضي مثل هذا الرسم إلىٰ تعميق الخُبرة عند المتلقي، مثلما يفضي في نهاية المطاف إلى إحاطته خُبراً بما ينبغي أن تختطه الشخصية لذاتها وهي تطمح إلىٰ تجسيد سمة الإيمان فيما تشكّل هذه السمة هدفاً رئيساً للنص ـ كما هو واضح.

والمهم، أنّ رسم ظاهرة (الانفاق) ترتبط بأكثر من وشيجة بما تقدمها من أجزاء وبما يلحقها من أجزاء. أمّا ما يلحقها من أجزاء، فسنجد أن النص القرآني يتجه إلى رسم جديدٍ لشخوص المؤمنين، علىٰ نحو ما لحظناه في القسم الأول من السورة في اتجاهه إلى رسم الشخوص المذكورة من خلال (التضاد).

وهذا يعني أنّ رسم ظاهرةٍ مثل (الانفاق) عندما يَرد في هذا الموقع مرتبطاً بما تقدمه من النص، إنما يُرهص في الآن ذاته بما سيجيء من الرسم لشخوص المؤمنين أيضاً، وهذا ما سنلحظه لاحقاً.

من هنا يمكننا أن نستكشف ـ من خلال الاحتمال الفني ـ، أو بكلمةٍ أخرىٰ، يمكننا أن نستكشف من خلال تذوقنا الفردي الخاص، ومن خلال الاستجابة التي تزودنا بها طبيعة الخبرات الفردية لهذه الشخصية أو تلك، يمكننا استكشاف دلالة الصيغة التي رُسمت عامةً، مجملةً، في الخطاب الموجّه إلى المُتلقي ﴿لن تنالوا البرّ. . .﴾ دون أن تشفعه بالاتجاه نحو الكتابي أو نحو المؤمن، ذلك: أن اتجاهه إلى العام يظل حاملاً خصيصة فنيّة ترشح بأكثر من إيحاء، بحيث يتساوق وطبيعة البناء العضوي الذي تتلاحم أجزاؤه بعضها بالآخر كأن يستخلص المتلقّي مثلاً بأن المطالبة بالانفاق ذات صلة بدافعية المال التي احتجزت الملتوين من ممارسة السلوك الموضوعي، وذات صلة بما ينبغي أن يختطه المؤمنون لأنفسهم من تعاملٍ مع الدافع المذكور، وبخاصة أنّ اتجاه الرسم للمؤمنين سيحتل موقعه من النص بعد قليل، ثم بمقدور المتلقي أن يستخلص أيضاً دلالاتٍ فنيةً أخرىٰ يعرفها جيداً كل من ألّم بطبيعة النصوص الأدبية الحديثة بخاصة، وهي: معالجة شتىٰ الموضوعات المتفارقة ثم إخضاعُها لخيط عضوي يصل بين أجزائها، أو معالجة شتىٰ الموضوعات مع محاولة التركيز والتشدد علىٰ أحدها ـ نظراً لما تنطوي عليه من أهمية من خلال وجهة نظر مبدع النص، مع إخضاع ذلك في الآن ذاته إلىٰ الخيط العضوي الذي يصل بين أجزاء النص الأدبي. وكلنا يعرف جيداً أنّ (الانفاق) يظل واحداً من الموضوعات التي تتردد بغزارة في سائر السور القرآنية، ليس بما ينطوي عليه من تدريبٍ على وأد الذات، وتدريبٍ علىٰ تقليص حجم الدافعية إلى المال، بل بما ينطوي عليه من معطيات اجتماعية لا مجال للحديث عنها في دراسة تحاول إبراز القيم الفنية للنص القرآني فحسب. وهذا كله ـ مثلما قلنا ـ يمكننا استخلاصه ونحن ندرس ظاهرةً رُسمت عبر آية واحدة خلال رسمٍ عام لشخوص الكتابيين وما يضادهم من شخوص المؤمنين، فيما جاء رسم الظاهرة رابطاً بين أنماط من السلوك لها صلتها بدافعية المال،

ـ وهي دافعيةٌ احتلت بعض المساحة من أجزاء السورة، ـ وفيما جاء رسم الظاهرة أيضاً مستهدفاً لمفهومٍ يستهدف النص إبرازه للمتلقي حتى تحدّد الشخصية نمط التعامل مع الدافع المذكور بالنحو الذي ينبغي أن يكون التعامل من خلاله متواسقاً مع مبادىء السماء.

* * *

وإذن، جاء رسم ظاهرة (الإنفاق) ـ وهي واحدة من أربع ظواهر قد اختُتم الموقع الأول من هذا النص الذي ندرسه، جاء هذا الرسم قائماً علىٰ معمارية خاصة، تبيّن لنا طبيعة التواشج الفني بين شريحة من النص وسائر أجزائه الأخرىٰ.

الظاهرةُ الثالثة رُسمت في سياق الرسم لشخوص الكتابيين، فيما اختُتِم المقطعُ الأولُ بها، أي المقطع الأول من القسم الثالث في السورة. هذه الظاهرةُ هي: (الطعام).

والطعام بدوره ـ كما هو بيّنٌ ـ يشكّل واحداً من الدوافع الملحّة في تركيب الشخصية. وإذا كانت دافعية (المال) وهي الظاهرة التي انتهينا من معالجتها سابقاً، تشكل دافعاً ملحاً كل الإلحاح، فإن دافعية (الطعام) تكاد تنفرد عن سائر الدوافع بإلحاحٍ متميّز لا مناص من أشباعه بنحو أو بآخر.

وإذا كان من الممكن ممارسة (الكف) حيال دافعية (المال) فإن ممارسته حيال دافعية الطعام أمر لا يمكن تحقيقه البتة، لأنه ـ ببساطة ـ مرتبطٌ بحاجة (حيوية) لا مناص من إشباعها. بيد أننا إذا تجاوزنا الدافعية المذكورة من دائرة (الحاجة) الضرورية، إلى بُعدها (المُترف) أي إلى حاجتها الثانوية، حينئذٍ نواجه نمطاً آخر من التعامل مع الدافعية المذكورة وهو تعامل يُشبه التعامل مع (المال) من حيث إلحاحهما علىٰ الشخصيّة، وتعدّد مساربهما التي ترافق في أكثر من حاجة من الحاجات الثانوية.

ويهمنا الآن من الرسم لظاهرة (الطعام) صلتها العضوية بالنص، والموقع الفني الذي تحتله الظاهرة في هذا الصدد.

فلقد جاء رسمها من خلال الآية التالية بعد آية (الإنفاق): ﴿كل الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل إلّا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزّل التوراة. .﴾ [آل عمران: ٩٣].

ومما ينبغي ملاحظته في البدء، أن النص القرآني وهو يرسم شخوص الكتابيين، إنما كان يرسمهم حيناً بنحوهم المُجمل ـ أي: الشامل بخاصة للنصارىٰ واليهود. وحيناً آخر يرسمهم بنحوٍ محدّد يتجه إلى النصارىٰ وحدهم، أو اليهود وحدهم، وهذه المستويات جميعاً لحظناها في الأقسام الثلاثة من السورة، مع ملاحظة أنّ الرسم منصبٌ في سورة آل عمران على نصارىٰ الكتابيين، وفي سورة البقرة علىٰ يهود الكتابيين.

* * *

وعلى أيةِ حال، فنحن نواجه الآن عبر دراستنا لهذه الشريحة من النص القرآني رسماً خاصاً بشخوص الإسرائيليين تساوقاً مع سائر الرسوم التي لحظنا ترددها بين ما هو خاص بهم، أو خاصاً بالنصارىٰ، أو مشتركاً بينهما.

والرسم الخاص الذي نواجهه الآن يتصل بظاهرة (الطعام)، فيما تشير الآية إلى أن كلّ الطعام كان حلاً للإسرائيليين إلّا ما حرّمه إسرائيل علىٰ نفسه بخاصة وإسرائيلُ هو (يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم).

وتقول النصوص المفسرة: إن إسرائيل حرّم على نفسه لحوم الإبل لأنها سبّبت له أحد الأمراض، دون أن يحرّمه علىٰ الآخرين، ودون أن تحرّمه (التوراة) بعد ذلك. إلاّ أنّ اليهود أنكروا تحليل ذلك، وادعوا تحريمه على

إبراهيم(ع) مثلما دعاهم النبيّ(ص) إلى الاستشهاد بالتوراة تحقيقاً للموضوع.

وفي معرض الحديث عن الموقع العضوي لظاهرة الطعام، ذكر بعض المفسرين وجهتين من النظر: إحداهما أن الصلة قائمة بين الدعوة إلى الانفاق لما هو مُلحّ من الدوافع مثل (المال) حيث تم رسمه علىٰ نحو ما تقدم، وبين الدعوة إلى الترغيب حيال الطعام المباح. وأما وجهة النظر الأخرىٰ فتذهب إلى أن محاجّة اليهود ومناقشتهم مع النبيّ(ص) في ملة إبراهيم (وقد تقدّم الحديث عن ذلك في أوائل القسم الثالث من السورة) كانت تتناول ـ في جملة ما تناولته ـ الإنكار علىٰ النبي(ص) تحليله للطعام المذكور وادعاءها التحريم على إبراهيم(ع)، والاستناد في الادعاء المذكور، على التوراة.

وفي تصوّرنا أنّ المبنىٰ العضوي لهذه الشريحة يتمثل في مجموعة من العناصر تتشابك جميعاً في معمارية النص بأكمله، علىٰ نحو ما لحظناه في كل شريحةٍ فنية تتواشج مع مجموعة النص، في الظواهر التي تمت دراستُها.

* * *

ثمّة أولاً تساوق عضويّ يتمثّل في رسم آخر الظواهر التي خُتِمَ بها هذا الموقع الذي ندرسه، ونقصد بها ظاهرة(التحريف)، فيما ذكرنا أن أساليب ثلاثة هي: المعرفة، والتضليل، والتحريف قد اضطلع النصُ برسمها في هذا القسم الثالث من آل عمران. وكان (التحريف) هو الظاهرة الأخيرة من سلسلة الرسم كما رأينا. وفي حينه قلنا أن (التحريف) قد رُسم في عدة مواقع، إلا أنه أخذ طابعاً استقلالياً في الموقع الأخير الذي انتهينا منه.

هنا، يجيء الرسم جديداً لأحد أنماط (التحريف)، لكنه من خلال طرح جديد هو ظاهرة (الطعام). بيد أن الفارق بين البنىٰ المعمارية لظاهرة التحريف يأخذ أشكالاً فنيّة متعددة تدلنا على خطورة ما نواجهه من معمارية النص القرآني الكريم. فثمة طرحٌ (للتحريف) رُسِمَ في بداية السورة، وكان ذلك

بنحوه المُجمل الذي اضطلعت أجزاء السورة بتفصيله وفق بناء هندسي محكم وقفنا عليه في حينه. فقد كان الرسم التفصيلي حيناً، يجيء التحريف من خلاله وكأنه عنصر موظفٌ لإنارة السمات المَرَضيَّة عند شخوص الكتابيين. فلقد لحظنا مفصّلاً كيف أن مجموعة من سمات المَرَضِ والعصاب قد غلّفت الشخوص المذكورين، فيما جاء التشدّد على إبراز ظاهرة (المرض) هدفاً بذاته، وكان (التحريف) عنصراً يُضيء معالم المرض عند الشخصيات المذكورة.

وجاء التحريف حيناً آخر هو الهدف بذاته، فكانت سائر أنماط السلوك بمثابة عناصر إنارة لتشخيص ظاهرة (التحريف)، أي جاءت على العكس تماماً من الرسم الأول.

أما هنا، فيجيء التلميح إلى ظاهرة (التحريف) نمطاً فنياً ثالثاً من أساليب الصياغة في النص القرآني الكريم. فلم يُصغ(التحريف) لإبراز ظاهرة مَرَضية تأخذ استقلالها كما هو شأن القسم الأول من الرسم الفني للظاهرة. كما لم يُصغ مستقلاً لإبراز معالمه من خلال ظواهر أخرىٰ كما هو شأن القسم الثاني من الرسم الفني للظاهرة. بل أخَذَ هنا نَمَطاً ثالثاً من أساليب الصياغة الفنية ألا وهو: النهوض بإقامة الوصلات العضوية بين أجزاء النص ولمّها في نسيج فنيّ موحّدٍ متماسك، أي: أنه يضطلع بإلقاء الضوء علىٰ كلٍ من الظاهرتين المتقدمتين من جانب كأن يفصح عن مزيد من سمات المَرض النفسي عند الكتابيين، وأن يفصح عن مزيد من أنماط التحريف في سلوكهم.

ومن جانب ثالث، يلقي مزيداً من الضوء علىٰ فئةٍ خاصة من التحريفيين وهم اليهود، تركيزاً لخطورة هذا التحريف، وتثبيتاً لسمة تخص الفئة المذكورة.

من جانبٍ رابع، يصل بين رسمٍ لدوافع ملحّة يتأرجح التعامل معها بين

وأدٍ للذات لا ضرورة نفسية أو عبادية له كالتحريم لما هو مباح، وبين إقرار مثل هذا الوأد إذا كان في سياقٍ صحّي مثلاً، أو في سياق التواضع لله، وهذا ما كان يمارسه النبي(ص) في تناوله لبعض الأغذية أو رفضها.

من جانبٍ خامسٍ، يكونُ الرسمُ لهذه الظاهرة موضع تأكيدٍ مماثلٍ لدافعية المال في رسم طرائق التعامل معها، فيما يجيء رسمها في سياق السلوك العام للكتابيين، يحمل نمطاً فنياً خاصاً من طرح الموضوعات، علىٰ نحو ما قلناه عن موضوع (الانفاق) تماماً، فلا نعيد الكلام في ذلك.

من جانبٍ سادس، فإن توشيج الصلة بكل ما تقدم من موضوعات، ثم النهوض بعملية إرهاص لما سيجيء من موضوعات جديدة، يشكل بدوره مهمة فنية تمهّد للجديد من الرسم حيث سنرىٰ أن الظاهرة الأخيرة من الظواهر الأربع التي خُتِمَ بها المقطع الأول من هذا القسم في السورة، يتصل بظاهرة (الحـج). وستكون شخصية إبراهيم(ع) مقدمة للظاهرة المذكورة، ويكون حينئذٍ طرح شخصية إبراهيم من خلال امتداد هذا الطرح للمحّاجة والمناقشة التي استُهِلّ بها رسم الموقع الأول، ويكون إرهاصاً لما سيجيء من الموضوعات المتصلة بإبراهيم.

* * *

وإذن، نحن الآن حيال آية كريمة زخرت بهذه الصلات العضوية المتواشجة مع عناصر لا تنحصر في الجوانب الستة التي ألمحنا إليها، بل مع عناصر أخرىٰ لا تسمح تفصيلاتها إلاّ بمجلّدات ضخمة من التوفّر عليها.

الظاهرة الرابعة من الظواهر التي خُتِمَ المقطع الأولُ بها، وهو المقطع الذي استُهِلّ به القسم الثالث من سورة آل عمران هو ظاهرة الحج.

وقد صيغت هذه الظاهرة مع مثيلاتها التي تقدم الحديثُ عنها في سياق الرسم لشخوص الكتابيين وما يضاده من الرسم لشخوص المؤمنين.

والموقع العضويّ لهذه الظاهرة يتمثّل في التواصل بين رسم الأنماط السلوكية لفئة من الكتابيين هم اليهود، وهم نفس الفئة التي أثارت قضية (الطعام) التي انتهينا تواً من الحديث عنها، وتوضيح المبنىٰ الفنيّ الذي تحتله من أجزاء السورة.

وما قلناه عند الحديث عن ظاهرة (الطعام) وصلاته المتعددة بالنص، نقوله أيضاً عن (الحج)، يستوي في ذلك أن يكون الحديث عن البُعد الاستقلالي لهذه الظاهرة، أو البُعد الفنّي لها من حيث تواشج عروقه مع النسيج العام للسورة. فلقد قلنا هناك أنّ النصوص الفنيّة الخطيرة تتناول موضوعات شتىٰ تتفارق فيما بينها، لكنها من الآن ذاته يلمّها خيطٌ عضويٌ تُصب كل الروافد المتشعبة فيه، كما أنها تتناول موضوعاتٍ شتىٰ يظلّ التأكيد علىٰ أحدها، أو دسّ أحد الموضوعات التي تبدو للمتلقي العادي وكأنها بعيدة الصلة عن المناخ العام للنص، يظل هذا التأكيد على الموضوع المطروح عابراً، وسيلة فنيّة للفت نظر المتلقي إليه، نظراً لما ينطوي عليه من خطورة فكريّة يستهدفها مبدع النص.

ظاهرة (الحج) في رسمها عبر صياغة شخوص الكتابيين، تشكل (موضوعاً) مستهدفاً على نحو ما كان (الانفاق) ـ وهو أحد الموضوعات الأربعة كما رأينا ـ مستهدفاً في السياق المذكور.

فالحج ممارسةٌ لها ثقلها في المعيار العبادي لا مجال للتحدث عنها الآن، بقدر ما نعتزم الإشارة إلىٰ خطورته بعامة، وإلى السياق العضوي الذي يرد رسم الظاهرة من خلاله.

ومن هنا ـ أي من خلال الوظيفة العضوية للحج وتواشجه مع جزئيات النص المختلفة في سورة آل عمران ـ كانت مفردات الموضوع المتصل بالحج تتواسق مع أفكار السورة وموضوعاتها. فإذا استثنينا الفقرة التالية:

﴿. . . ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا. . .﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهي الفقرة التي أوضحنا قيمتها الفنية بصفتها رسماً لموضوع مُستهدَف يُستثمر من أي نص فنيّ خطير لترسيخه في أعماق المتلقّي. أقول: إذا استثنينا الفقرة المذكور وما أدّته من مهمّة فكرية، واتجهنا إلىٰ الفقرات التي تقدّمتها والفقرات التي لحقت بها حينئذٍ نستكشف بوضوح مدىٰ التواشج العضوي بين هذه الظاهرة وبين الأفكار والموضوعات المطروحة في السورة.

فلقد بدأ الرسم للظاهرة على النحو التالي:

﴿قل صدق الله فاتّبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [آل عمران: ٩٥].

وهنا ينبغي تذكير المُتلقي بمهمة فنيّة نهضت بها الآية السابقة علىٰ هذه الآية التي نحن في صددها، تلك ظاهرة (الطعام) التي أوضحنا في حينه أنها تشكّل إرهاصاً لما سيجيء من موضوعات، وامتداداً لما سبقها من موضوعات. فكان أحد الامتدادات متمثلاً في إقامة الصلة بين محاجة ومناقشة الكتابيين للنبيّ(ص) في قضية إبراهيم(ع) وبين أحد الموضوعات المجسّدة لتلك المناقشة وهو موضوع الحل لبعض أنواعه، حيث أوضحنا صلة الرسم الأخير بأول رسمٍ استُهلّ به القسم الثالث من السورة، وصلته بما سيجيء من موضوعات أو أفكار لاحقة.

وها هو الموضوع اللاحق يتجسّد في طرح قضية إبراهيم، لتشكّل من جديد امتداداً لما سبقها وتوطئةً لما يلحقها. فالتلميح إلىٰ ملة إبراهيم يعود بذاكرة المتلقي إلى (حنيفية) إبراهيم وانتفاء الانتساب الكتابيّ إليه، فيما كان الملتوون من اليهود والنصارىٰ يتشبثون بذلك الانتساب: تحقيقاً لأغراض وقفنا عليها في حينه. هذا التلميح إلى حنيفية إبراهيم وإزاحة سمة (الشرك) عنه، يظل أمراً واضحاً كل الوضوح من صلته بجزئيات السورة، إنه تواصلٌ مع تلك

الجزئيات على نحو تواصُلِ البنىٰ الحيوية في أجزاء الجسم.

وهنا ينضاف طرحٌ جديدٌ آخر، يفصح عن حلقة جديدة من سلسلة المواقف الملتوية عند الكتابيين ألا وهو: اللجوء إلى اصطناع مجدٍ يهودي، يتمثل في أهمية بيت المقدس، قبال الكعبة.

وجاء الردّ على الاصطناع المذكور، على النحو التالي من الرسم:

﴿إنّ أول بيتٍ وُضِعَ للناس، للذي ببكّة مباركاً وهدىً للعالمين * فيه آياتٌ بيّناتٌ: مقام إبراهيم ومَن دخله كان آمناً ولله على الناس حجّ البيت... ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

إن المُتلقّي مدّعوٌ إلىٰ شدّ انتباهه بقوة إلىٰ أسرار البناء المعماري لهذه الشريحة من النص، ولسائر الشرائح التي تتواشج فيما بينها، فيما لا يُدرك المتلقي العادي خطورةَ ما تنطوي عليه من قيمٍ فنيّة بالغة المدىٰ.

فلقد استخدم النص عنصر (التداعي) واستثمره لترسيخ الروابط العضوية بين جزئيات النص، وما تحققه هذه الروابط من ترسيخ (الأفكار) التي يستهدفها النص من وراء صياغته لهذه السورة أو تلك.

ولقد جسّد عنصر (التداعي) هذه السلسلة من الترابطات:

١ ـ الطعام واستدعاؤه لقضية إبراهيم.

٢ ـ قضية إبراهيم قد رُسمت في موقع سابق من النص.

٣ ـ الرسمُ كان متصلاً بسلوك الكتابيين.

٤ ـ العودة ـ من خلال التداعي ـ إلى سلوك آخر عند الكتابيين.

٥ ـ تخصيصه هذه المرة لسلوك فئة خاصة منهم هم: اليهود.

٦ ـ السلوك يتصل بمعرفة تحمل سمة (السذاجة) ـ وكانت هذه (السذاجة) تمثّل سلوكاً سابقاً، جسّده النص في أول السورة، ثم أردفه بتجسيد آخر للسذاجة، في أول القسم الثالث من السورة.

٧ ـ المعرفة الساذجة ـ أو المناقشة الساذجة تتم من خلال التداعي بين ملة إبراهيم في الانتساب العام إليه، وفي غيابه عن أذهانهم عبر اصطناع المجد لبيت المقدس.

٨ ـ الاستدعاء للكعبة من خلال بيت المقدس، بصفتهما بيتين عظيمين من بيوت الله.

٩ ـ الاستدعاء بين الكعبة وبين إبراهيم(ع) من حيث صلته المعروفة بالبيت المذكور.

١٠ ـ الاستدعاء بين البيت نفسه وبين مقام إبراهيم بصفته يحمل خطورة عبادية خاصة.

١١ ـ الاستدعاء بين (الأمن) وبين البيت نفسه.

١٢ ـ الاستدعاء بين البيت بعامة وبين ظاهرة الحج.

وإذن، نحن الآن قبال اثني عشر تداعياً ذهنياً، رسمه النص بنحوٍ بالغ الخطورة من حيث البناء الفني للنص، وتوشيج الصلات والروابط المختلفة بين جزئياته، ولمّها في لحظة زمنيّة مكثّفة في ذهن المتلقي حتىٰ يثرىٰ بخبرات جديدة تفضي به في نهاية المطاف إلىٰ اكتساب قناعة خاصة بالظواهر التي يستهدفها النص، فيما تم ذلك في آنٍ واحد خلال طرح جديد لظواهر مثل الحج، وخلال طرح حلقة جديدة من سلسلة سلوك الكتابيين: مثل المحاجّة ببيت المقدس.

مضافاً إلى ذلك: لمُّ كل هذه الجزئيات في نسيج متماسك يرتبط بعضه بالآخر، ويفضي بعضه إلى البعض الآخر.

* * *

وإذن، كم كانت هذه الشريحة الصغيرة ـ ونعني بها ظاهرة الحج ـ ب واحدةً من ظواهر أربع خُتم بها المقطع الأول من القسم الثالث في سورة آل

عمران، كم كانت هذه الشريحةُ غنيّةً في مهمتها الفكرية، وفي مهمتها الفنيّة، وفي عنصرها الاستدعائي، وفي لمّها لكل جزئيات السورة في معمارية محكمةً وقفنا عليها مفصّلاً.

وأخيراً، لَمّ النص من جديد، حصيلة السلوك الكتابي في آيتين تذكر الأولىٰ منهما التواءهم بعامة، وتذكر الثانية محاولاتهم في صدّ الآخرين واحتجازهم عن الإيمان.

ومعلوم أنّ كل جزئيات المقطع الذي انتهينا من دراسته عبر القسم الثالث من السورة، إنما كان يتناول تينك الظاهرتين.

ومعلوم أيضاً، أن تتويج الرسم لمفردات السلوك، بتقديم حصيلة نهائية لمجمل ذلك السلوك، يُعدّ من جانبٍ تثبيتاً للموضوع المرسوم، وإحكاماً لمعماريّته التي تصل بين أجزاء النص من جانبٍ آخر.

وهذا بدوره، بُعدٌ جديدٌ من أبعاد البناء الفني لموضوعاتٍ تتواشج فيما بينها، وتتواصل بين موقع من النص، وبين سائر المواقع التي تلتمّ السورة عندها.

نواجه الآن مقطعاً جديداً في القسم الثالث من سورة آل عمران. وهذا المقطع يتناول رسم شخوص المؤمنين وكان المقطع السابق يتناول سلوك الكتابيين.

وهذا يعني أننا الآن قبال توازٍ هندسي في رسم الشخوص: الكتابيين يقابلهم المؤمنون.

وهذا التوازي يقابله توازٍ آخر لحظناه عند معالجتنا للقسم الأول من سورة آل عمران. فقد كان الرسمُ هناك يتناول الكتابيين وما يقابله من السلوك المؤمن.

هنا، في القسم الثالث من السورة، يتخذ البناء الفني نفس المعمارية.

وأما القسم الثاني من السورة وهو الخاص بالعنصر القصصي فقد كان موظفاً لإنارة جزئيات السورة جميعاً.

وهكذا، نحن الآن قبال معمارية محكمة البناء قائمة على رسوم متوازية في هياكلها العامة، فضلاً عن قيام جزئيات كل هيكل على التواشج العضوي، فيما بينها وبين جزئيات الهياكل الأخرىٰ.

* * *

وحين نتجه إلى الرسم المضطلع بشخوص المؤمنين، نجد أنّ هذا المقطع، يحاول في البدء أن يقيم الصلة بينه وبين المقطع السابق عليه. فالمقطع السابق تناول شخوص الكتابيين كما قلنا. وكان ختام المقطع يلخّص حصيلة السلوك الكتابي الملتوي، متمثلاً في كفره بعامة، وفي محاولاته الرامية إلىٰ صدّ الآخرين ومنعهم من الاتجاه نحو الرسالة.

ومن الوجهة الفنية، بدأ الوصل بين المقطع السابق والمقطع الحالي، بتوجيه الكلمة إلىٰ المؤمنين، محذراً إياهم من إطاعة الكتابيين في محاولاتهم المذكورة.

وهذا يعني أنّ الوصل بين المقطعين قد تجسّد في ربط التحذير بما ورد في ختام ألمقطع السابق وهو محاولة صدّ المؤمنين عن الرسالة، ومن هنا جاءت مهمة التحذير من المحاولة المذكورة.

وينبغي ألاّ يغيب عن بالنا طبيعة الصلة العضوية أيضاً بين القسم الأول من السورة فيما ورد التحذير فيها مِن أن يتخّذ المؤمنون الكافرين أولياء لهم.

هنا، يطرح النص بُعداً جديداً من الظاهرة متمثلة في ما يلي:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ [آل عمران: ١٠٠].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله حق تقاته، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣].

﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . .﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوهٌ فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم. . .﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. . .﴾ [آل عمران: ١٠٨].

هذه النصوص تمثل محتويات المقطع الثاني في القسم الثالث من سورة آل عمران.

إنّه مقطعٌ يتناول رسم شخوص المؤمنين في صياغة معمارية تصل بين القسم الأول من السورة، وبين أقسامها الأخرىٰ، وتطرح (أفكاراً) تمد عروقها من أكثر من حقلٍ من حقول النص المتواشجة بعضاً بالآخر.

فنحن نواجه أفكاراً تتحدث عن عدم الاختلاف مثلاً، من بعد ما جاءت البيّنات صريحةً في هذا الصدد. والحديث عن عدم الاختلاف هنا، يجيء في سياق التحذير من محاولات الكتابيين، وانعكاس تأثيرهم علىٰ المؤمنين.

وهذا البُعد الفكري نجده ملموساً في القسم الأول من سورة آل عمران

في الآية: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم...﴾ [آل عمران: ١٩].

وهنا في القسم الثالث من السورة عبر مقطعها الثاني الذي نتحدث عنه يرد التحذير على النحو التالي من تذكير المؤمنين بأولئك الذين اختلفوا: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البيّنات﴾.

وإذن، هنا بعدٌ فكريٌ واحدٌ ـ علىٰ سبيل المثال ـ قد صيغ مرتبطاً بأجزاء النص: القسم الأول والثالث منه، حيث يرد في الأول رسمٌ للكتابيين وقد اختلفوا بعد العلم، وحيث يرد في الثاني رسم للمؤمنين وقد صاحَبَه تحذيرٌ من أن يقع الاختلاف المماثل بعد العلم.

ثم جاء الارتباط بين أجزاء القسم الواحد أيضاً. ففي المقطع الأول من القسم الثالث، يرد الرسم لمحاولات كتابيّة في التأثير على المؤمنين. وفي المقطع الثاني منه يرد التحذير من المحاولة المذكورة، وهكذا.

* * *

ولكن، فلنتابع سائر الوصلات العضوية بين أجزاء النص.

يرد التحذير هنا، من أن يُرد المؤمنون كافرين. وكان المقطع الأول يتحدث عن مثل هذه الردّة، ويتوعّد عليها بعدم قبول التوبة.

إذن، هذا نموذج آخر من الترابط بين المقطعين.

* * *

نموذج ثالث يواجهنا أيضاً:

إنه التحذير من المصير الآ: ﴿لا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ولا حاجة إلى التعقيب بصلة هذه الشريحة الفكرية بظاهرة تردّدت في كل أجزاء السورة ظاهرة: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام..﴾ ﴿أأسلمتم؟﴾... الخ.

* * *

وإذا تركنا هذه الشرائح الفكرية التي نهضت بإقامة الصِلات المتواشجة بين جزئيات السورة، واتجهنا إلى الجديد المرسوم منها، ألفينا جملةً من القيم الفكرية منها:

الاعتصام بحبل الله، التأليف بين القلوب، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذه القيم الفكرية الثلاث، جاءت ـ كما لحظنا ـ في نطاق الرسم لشخوص المؤمنين، وهو رسمٌ قلنا أنّ مسوغات طرحه تتمثل في صياغة (الأفكار) المستهدفة في النص على نحوٍ معماري ينتظم كل شريحة، ويهبها معنًى جديداً في كل حقل جديد مرسوم، ويجسّد هذا الاعتصام إعادة الشريحة في نطاق جديد، يصل من جانبٍ بينها وبين الشرائح السابقة، ويفرز أفكاراً جديدة من جانبٍ آخر.

وها هي القيم الفكرية الثلاث، تُفرز في المقطع الذي نحن في صدد الحديث عنه.

إنها أولاً: التذكير بأنّ الشخوص كانوا على شفا حفرةٍ من النار، فألّف الإسلام بين قلوبهم.

ثانياً: يترتب على ذلك: أن يعتصموا بالإسلام الذي ألف بين تلك القلوب.

ثالثاً: أن لا يكتفوا بالعطاء الذي اكتسبوه، بل يتعين أن يقدموا العطاء

بدورهم للآخرين، وذلك بأن يمارسوا عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبيّن أنّ القيمتين الفكريّتين الأولَيَيْنِ جاءتا ممارسة دفاعية حيال ممارسات الكتابيين. وجاءت القيمة الفكرية الثالثة عملية بناء مضاداً لعملية الهدم الذي يمارسه الكتابيون. فالكتابيون يمارسون هدماً للقيم، والمؤمنون يمارسون عملية (بناء) للقيم من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا بدوره مبنىً معماريٌ آخر يحقق التوازي الفني بين جزئيات النص.

نتجه إلى مقطعٍ جديد من سورة آل عمران. فنجده متمثّلاً في: رسم العلاقة القائمة بين شخوص المؤمنين والكتابيين. ومن خلال رسم هذه العلاقة، يطرح النص جملةً من أنماط السلوك الملتوي لدىٰ الكتابيّين، يوازنها في الآن ذاته رسمٌ لبعض الظواهر المطروحة في مواقع سابقة من النص.

* * *

وقبل أن نتابع الحديث عن محتويات هذا المقطع، لا مناص من تذكير المُتلقّي بأن القسم الثالث من السورة، بدأ برسم شخوص الكتابيين، وأردفه بالمؤمنين، ثم اتّجه إلى رسم كليهما في موازنةٍ فنية تتناول أبعاداً أخرىٰ من أنماط السلوك، عبر هذا المقطع الجديد الذي نحن في صدد الحديث عنه.

وأول ما يواجهنا في هذا المقطع: إنماءٌ عضويٌ لظاهرةٍ تمّ رسمُها في المقطعِ السابق، ألا وهي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصفتها التجسيد العمليَ أو الردّ العملي علىٰ سلوك الملتوين الذين رسمهم القرآن الكريم وهم يمارسون أمراً بالمنكر، ونهياً عن المعروف عبر التضليل والتحريف وما إليهما من أنماط السلوك الذي تمّ رسمه.

هُنا في المقطع الجديد، يُنمي النصُ القرآني، ظاهرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينميها عضوياً بأن ينقلها من صعيد (المُطالَبة بها) في

المقطع السابق، إلىٰ صعيد آخر هو: رسمُها. وقد (تجسّدت) فعلاً في سلوك المؤمنين، حتىٰ أصبحت (سمةً) تميّزهم عن غيرهم من الآدميين.

ويُمكننا إدراك ذلك بوضوح، من خلال الصياغة اللفظية لكلٍ من الرسم في المقطعين السابق والحالي. ففي المقطع السابق رَسَمَ المؤمنين بهذا النحو:

﴿ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . .﴾ [آل عمران: ١٠٤].

أمّا في المقطع الحالي، فقد رسَمَهم بهذا النحو:

﴿كنتم خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإذن، النّموُ العضويُ، يتمثّل في عملية الانتقال الحي من أمّةٍ، يُطالبها النصُ بأن تدعو إلى الخير، وأن تأمر بالمعروف، وأن تنهىٰ عن المنكر، إلىٰ أمّةٍ قد جسّدت فعلاً عملية الدعوة إلى الخير، وعملية الأمر بالمعروف، وعملية النهي عن المنكر.

وهذا النماء العضوي ـ من الوجهة الفنيّة ـ يُعدّ منحىً أسلوبيّاً بالغ الخطورة في عملية الاستجابة عند المتلقّي، عبر انطوائه على العنصر التالي، ونعني به إختزال الحدث والموقف.

فمن البيّن ـ في لغة الأدب القصصي ـ أنّ الاختزال يكتسب مشروعيته، في واحدٍ من الأمور التالية:

أولهما: توفير (الاقتصاد) في العبارة، بصفة أنّ الاقتصاد ـ في حد ذاته ـ يمثّل: الاحتفاظ بالطاقة النفسية، من خلال عدم تصريفها في نشاطٍ لا ضرورة له:

الثاني: أنّ الاختزال، يساهم في إحداث عنصر (المشاركة) بين المتلقي

وبين النص. فبدلاً من أن يُقدّم النصُ للمتلقي كلّ تفصيلات الحدث والموقف، يقدّم له ما هو ضروريٌ، ويدع التفصيلات للمتلقي، تاركاً له تحريك طاقته النفسية فيما تعود عليه بالفائدة: والفائدةُ هنا تتمثّل في (الامتاع) الجمالي والعقلي. فالمتلقّي حينما يكتشف بنفسه عناصر الحدث والموقف في بعض خطوطها، يكون من جانبٍ قد أثرىٰ معرفته الفنية بمخزونٍ جديدٍ من الخبرة، ويكون قد أشبع حاسّته الجمالية بهذا الاكتشاف الفنّي لهذا النص الأدبي أو ذاك.

الثالث: أنّ الاختزال، ويقابله (الانتقاء) يتبادلان ما هو ضروري وما هو غير ضروري من خلال قاعدةٍ فنيّة هي: تحديد وجهة النظر التي يلح النص علىٰ رسمها، ويعتزم إلقاء الضوء عليها، والتمركز عندها، دون سواها من وجهات النظر التي تحددها سياقاتٌ أخرىٰ من النص.

وفي مثل هذه الحالة، (ينتقي) النص هذه الشريحة أو تلك، و(يختزل) ما سواها، حتّىٰ يحسّس القارىء بأهمية ما هو (منتقىً)، وثانوية ما هو (مختزل) تاركاً له أن يستخلص بنفسه، تفصيلات ذلك.

وفي المقطع الذي نحن في صدد دراسته من النص، نجد أن (انتقاء) الحدث والموقف قد تجسّد في الإشارة أو في الدعوة إلىٰ ممارسةٍ ما، وهي: الدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهذا ما كان منتقىً من المقطع السابق.

أمّا ما هو منتقىً في المقطع الحالي، فهو: نتيجة الموقف والحدث السالفين، أي، نهايته: وهي نهايةٌ تمثلت في: اكتساب (السمة) التي طُولبَ بها، ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ... الخ﴾ أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذن، ثمة (انتقاء) لحَدَثٍ أو موقفٍ شدّد النصُ عليه في كلٍ من المقطعين: السابق والحالي.

وهذا الموقف هو ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد (انتقاء) النص دون سواه من المواقف التي تصاحبه عادةً، نظراً لانطوائه على خطورةٍ يستهدف النص إلفات نظر المتلقي إليها.

كما أنه (اختزل) الأحداث والمواقف التي رافقها تذويبٌ لعنصر (الزمن)، الذي تتنامىٰ تلك الأحداث والمواقف من خلاله.

إنه اختزل (الزمان) وما واكبه من أحداث ومواقف، تتنامىٰ من خلاله شخصية المؤمنين من تطبيع على السلوك، وتدريبٍ علىٰ مفرداته المتنوعة: حتىٰ الوصول إلى مرحلة جديدة هي: القدرة علىٰ الممارسة المذكورة فعلاً...

وبكلمة أخرىٰ: اختزل النصُ المسافَة الزمنية والنفسية القائمة بين المطالبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين التطبيع الفعلي علىٰ الممارسة: نظراً لأنّ النص يستهدف ـ بنحو رئيس ـ إبراز الممارسة.

أمّا الرحلة الزمنية التي استغرقتها عملية التطبيع على الممارسة، فتظلّ هدفاً ثانوياً، من الممكن للمتلقي أن يستخلصه بنفسه من خلال عنصر (التخيل)، وما يستتليه من (المشاركة) التي قلنا أنّها تحقق إمتاعاً جمالياً وعقلياً للمتلقي علىٰ نحو ما فصّلنا الحديث عنه.

إنّ المقطع الجديد الذي استُهلّ برسم شخوص المؤمنين، من خلال إنمائه العضويّ لظاهرة الأمر بالمعروف. هذا المقطع، يظلّ ميداناً لعمليات النموّ الفنّي الأخرىٰ، مثلما يظلّ ممتداً بعروقه إلىٰ المقاطع السابقة في تواشج تبرز من خلاله عملياتُ التوازي والتقابل، واضحةً كل الوضوح.

ولعل رسم العلاقة القائمة بين الكتابيّين والمؤمنين، تظلّ أبرز الملامح في هذا الصدد.

فلقد لحظنا القسم الأول من السورة، قد حذّر المؤمنين من أن يتخذوا الكافرين أولياءَ لهم. ورأينا المقطع السابق يحذر المؤمنين أيضاً من أن يطيعوا فريقاً من الكتابيين. وها هو المقطع الجديد يرسم التحذير أيضاً من التعامل مع الكتابيين. إلاّ أنه من الواضح، أنّ الأنماط الثلاثة من التحذير ترد في سياقاتٍ متنوعةٍ، أشرنا إلى الأوّلَيْنِ منهما في حينه.

أمّا النمط الثالث فيرد في سياقٍ يتساوق والطرحَ الجديد لأيّة ظاهرة يتمّ رسمها في مقطع جديد.

إن هذا المقطع الذي نحن في صدد دراسته، يتناول ـ مثلما قلنا ـ رسم العلاقة بين شخوص المؤمنين والكتابيين. إلا أنّ الرسم يتناول أبعاداً جديدة من العلاقة، تتجسّد في التركيز على فضح مشاعر الكتابيين، وما تحمله من نزّعاتٍ (عدوانيّة) حيال المؤمنين: رَسَمها النصُّ في مفرداتٍ عمليّة من السلوك.

* * *

وممّا لا لَبْسَ فيه، أنّ النصّ مهّد للقارىء أو المستمع، مناخاً نفسياً لتقبّل أيّة مشاعر عدوانية يفرزها الملتوون في تعاملهم مع الآخرين. فمنذ بداية السورة، وعبْر مقاطعها أجمع، كان النصُّ مضطلعاً برسم ظواهر الحقد والأنانية والحسد وكلّ أعراض المرض والعصاب لشخوص الكتابيين، بالنحو الذي وقفنا عليه مفصّلاً.

ومثل هذا التمهيد النفسي، يحمل خصيصةً فنيّة، تتمثّل في صوغ الاستجابة عند المتلقي، محكومةً بقناعة تلقائية لمثل تلكم المشاعر.

والمهم، أن رسم العلاقة، أو التعامل بينهما، أي: بين الكتابيين والمؤمنين، بدأه النص بلغة المُسالمة قبال لغة العدوان لدىٰ الكتابيين.

ويمكننا ملاحظة هذه اللغة متمثلةً عند السماء، وعند المؤمنين. فلقد بدأ النص ـ بعد أن رسم المؤمنين خيرَ أمّةٍ أُخرجت للناس ـ بدأ بهذه اللغة حيال الكتابيّين:

﴿... ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ [آل عمران: ١١٠].

هنا ـ ينبغي ألا يغيب عن ذهن المتلقي رسم المصائر التي تركها النص مفتوحةً حيال الكتابيين، وما يفرزه هذا الرسم الذي يؤرجح المصير بين نهاية سوداء أو بيضاء. أقول، ينبغي ألا يغيب عن الذهن، السرَّ الفنّي الذي طالما أشرنا في تضاعيف دراستنا إلى إفصاحه عن المسوّغات الكامنة وراء التأرجح المذكور، وفيما أشرنا أيضاً إلى أنّ رسمها من خلال (طائفةٍ) أو (فريقٍ)، يندرج ضمن المسوّغ الفني المذكور أيضاً.

هنا، في المقطع الذي نواجهه، يكرّر النص هذا التبعيض للشخوص، إستحكاماً للحقيقة المذكورة، وتثبيتاً لها في خضمّ الرسم الذي يأخذ بُعداً جديداً من أنماط السلوك لديهم.

كما أنّ لغة (الحب) التي رسَمَها النصُ في بداية السورة فيما أشرنا في حينه إلى مسوغاتها، هذه اللغة كرّرَها النصُ بدوره هذا تثبيتاً لما سلف، وتأسيساً لما يرسمه من طبيعة التركيبة الشخصية عند المؤمنين، وهي طبيعة سويّةٌ قائمةٌ علىٰ المسالمة، علىٰ الحب.

ويمكننا ملاحظة ذلك بوضوح، في الفقرة التالية التي سنقف عليها لاحقاً، وهي:

﴿ها أنتم أولاء تحبّونهم، ولا يحبّونكم...﴾ [آل عمران: ١١٩].

على أية حال، (المسالمةُ) أو (الحب) تظل هي المفتاح في رسم العلاقة التي يعتزم النص تحديدها في هذا المقطع، مقابلاً لعنصر (العدوان) الذي يغلّف الكتابيّين في تعاملهم مع المؤمنين.

* * *

لقد رَسَم النصُ القرآني عبر تحديده لنمط العلاقة القائمة بين شخوص الكتابيين والمؤمنين، رسم أنماطاً جديدة من السلوك لدىٰ الكتابيين بعامة، مستقلة عن العلاقة المذكورة. مثلما رسم الملامح الإيجابية عن طائفةٍ منهم.

وطبيعيٌ أن يجيء كلٌ من الرسمين المتقدمين، في نطاق جديدٍ من الطرح يتساوق وطبيعة المقطع الذي نحن في صدد الحديث عنه.

لقد رسَمَ أولاً: المَصير الدنيوي البائس للكتابيين في غمرة البحث عن التعامل القائم بينهم وبين المؤمنين. فكان المصير التالي يدع صياغة المصائر في تأرجحها، يدعها إلى قرارٍ تنتهي إليه بعض المصائر دنيوياً.

والآية الكريمة التالية، ترسم معالم المصير الدنيوي المذكور ﴿لن يضروكم إلا أذًى، وإن يقاتلوكم، يولّوكم الأدبار ثم لا يُنصرون﴾ [آل عمران: ١١١]. ولنقرأ: ﴿ضُربت عليهم الذلة أينما ثُقفوا إلا بحبلٍ من الله، وحبلٍ من الناس. وباءوا بغضبٍ من الله، وضُربت عليهم المسكنة...﴾ [آل عمران: ١١٢].

ولقد جاء هذا المصير متواسقاً وطبيعة الرسم الذي تقدّمه في إنّ إضرارهم للمؤمنين لن يتجسّد عملياً إلا في نطاق الأذىٰ اللفظي.

إلا أن الآية المذكورة، أردفت ذلك برسم السبب الذي أفضىٰ بهم إلى المصير الدنيوي المذكور: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء

بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [آل عمران: ١١٢].

وبيّنٌ أنّ المصير المذكور قد امتدّ بجذوره إلىٰ سلوك الأسلاف.

وبيّنٌ أيضاً أن رسم المصير في سياق الأسلاف، يُساهم بوضوح في تعميق الخبرة المزامنة لصدور النص، والخبرات المقبلة أيضاً، وبخاصة أن ظاهرة (الذل) المضروب عليهم يتجسّد في (الجزية) التي كانوا يؤدونها حتى قبل الإسلام، فضلاً عما التزموا بتأديتها في العصر الإسلامي.

إنّ المصير الدنيوي أو الأخروي عندما يرسمه النص للكتابيّن، فإن التأرجح في رسم المصائر يظل قائماً، تفرضه طبيعة الهيكل المعماري للسورة التي اضطلعت ـ كما كرّرنا التلميح إلى ذلك ـ برسم المصائر متأرجحةً بين مصيرٍ أخروي أو دنيوي ملوّح به، وبين تركه مفتوحاً بغية أن يتجانس المصير سلباً أو إيجاباً، مع الاستجابة الشرّيرة أو الخيّرة التي يفرزها الكتابيون حيال رسالة الإسلام.

من هنا، نجد النص ما أن ينتهي من رسم المصير الدنيوي البائس للكتابيين، حتّىٰ يردفه برسم مضاد، يتناول من خلاله التلميح إلىٰ (طائفة) منهم قد استجابوا للرسالة الإسلامية استجابةً خيّرة، وهي استجابة تتجانس فنياً مع ما سبق أن لحظناه من تبعيض الكتابيين، وتجانس ذلك مع طبيعة الرسم الذي ترك المصائر ـ في بعض أنماطها ـ مفتوحة والآيتان التاليتان، تنهضان بالرسم المذكور:

﴿ليسوا سواءً: من أهل الكتاب أمّةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات. . .﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤].

هنا، ينبغي ألا يَغرب عن بالنا، تحديد الصلة العضوية بين ملامح

السلوك المؤمن الذي رُسم في بداية المقطع، وبين هذه الشريحة التي تتناول طائفةً من الكتابيين.

ففي الرسم الأول كان البُعد العضوي متمثلاً في عملية (نموّ) بدأت في مقطعٍ سابق بالمطالبة بالظواهر الثلاث: الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، السبق إلىٰ الخيرات، وانتهت بالتجسيد الفعلي للظواهر الثلاث.

أما في الرسم الثاني فإن البُعد العضوي، يتمثل في (التواشج) و(التواصل) بين شريحتين تتبادلان الصلة فيما بينهما، وهي: تجسيد الظواهر الثلاث في سلوك كلٍ من المؤمنين، وفي سلوك طائفة من الكتابيين الذين استجابوا لرسالة الإسلام.

* * *

وإذا كان الرسم المذكور يجيء غبّ الرسم لمصيرٍ دنيويٍ بائس فإن النصّ قد أعقب ذلك برسم المصير الأخروي أيضاً: ولنقرأ:

﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * مَثَلُ ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ أصابت حرث قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكته...﴾ [آل عمران: ١١٦].

ولا حاجة بنا إلى التعقيب علىٰ التواشج العضوي بين رسم المصيرين: الدنيوي والأخروي، وتوسطهما، ذلكَ الرسمَ الذي يتناول طائفةً إيجابية من الكتابيين، لبداهة الأثر النفسي الواضح لهذا النمط من الرسم.

كما لا حاجة بنا إلى التعقيب علىٰ ظاهرة المال والأولاد فيما تكرّر رسمُها هنا في سياق هذا المقطع، بعد أن أوضحنا في موقعٍ سابق صلة الظاهرة المذكورة بسلوك الكتابيين، وتمهيد السورة برسم دافعية المال والأولاد في القسم الأول من النص، وتواشج الصلات بين أولئك جميعاً.

كلّ ما في الأمر أن تكرار الظاهرة يجيء في سياقٍ جديدٍ، يساهم بدوره في تعمق الأثر النفسي الذي يستهدفه النص.

* * *

الشريحة الأخيرة من المقطع الذي نحن في صدد دراسته، قائمة على تحديد التعامل السلبي عند الكتابيين. يقابله التعامل الإيجابي عند المؤمنين.

ولنقرأ في البداية، نصوص الرسم الذي يفرز المشاعر العدوانية في أشدّ ألوانها ضراوةً عند الكتابيين، مع تعقيب السماء عليها:

١ ـ ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم، لا يألونكم خبالاً، ودّوا ما عنتّم، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر. . .﴾ [آل عمران: ١١٨].

٢ ـ ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظِ قل: موتوا بغيظكم. . .﴾ [آل عمران: ١١٩].

٣ ـ ﴿إن تَمسَسْكُمْ حَسَنةٌ تسُؤْهُم وإن تُصِبكم سيئةٌ يفرحوا بها وإنْ تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً. . .﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ولا تغرب عن بالنا، المقولة التي تلخّص نزعتهم، وما يقابلها من النزعة المسالمة عند المؤمنين، فيما وقفنا عليها سابقاً، ونعني بها ﴿ها أنتم أولاء تحبّونهم ولا يحبونكم﴾ [آل عمران: ١١٩].

وعند التأمل للنصوص المتقدمة، يمكننا أن نفرز النزعة العدوانية، متجسدة في المفردات التالية من السلوك:

أ ـ ﴿لا يألونكم خبالا﴾: وتعني، السعيُ إلى الإضرار بعامة.

ب ـ ﴿ودّوا ما عنتّم﴾: وتعني، التمنّي، والتلذّذ بالإضرار.

جـ ـ ﴿بدت البغضاء من أفواههم﴾: وتعني، الإيذاء اللفظي.

د ـ ﴿إن تمسسكم حَسَنةٌ تسؤهم﴾: وتعني، الاستجابة غير المُسرّة.

هـ ـ ﴿وما تخفي صدورهم﴾: وتعني، العدوان الكامن، أو المخبوء.

و ـ ﴿تحبونهم ولا يحبّونكم﴾: وتعني، النزعة الحاقدة بعامة.

ز ـ ﴿عضّوا عليكم الأنامل﴾: وتعني، النزعة الحاسدة.

هذه المفردات من السلوك، تستقطب كلّ جوانب الشخصية العدوانية في ملمحها الداخلي والخارجي، ثمّ في ملمحها العام.

ولقد رَسَم النصُ ـ عبر هيكلٍ معماريٍ مُعبِّر ـ كلاً من الملامح الخارجية للشخوص، متواشجةً بوضوح مع الملامح الداخلية لهم، متواشجةً جميعاً مع السمة العامة للشخصية العدوانية.

* * *

أمّا الصياغة للملمح الخارجي، فقد أبرز النص منها سمتين: إحداهما مقترنة بعنصر الرؤية، والأخرىٰ مقترنة بعدمها.

والعنصر المقترن بالرؤية هو: الإساءة اللفظية فيما يتمثلها المؤمن عياناً.

وأما المقترن بعدمها، فهو: عضّ الأنامل، فيما لا يحيط بها علماً ما دامت الصورة تتمّ في غيابه عنها.

ومن البيّن ـ من الوجهة الفنية ـ أن النص عندما يرسم ملمحاً خارجياً، ويجعل أحد أنماطه خاضعاً لعنصر الرؤية، والآخر غير خاضعٍ لها، أي: يرسمه خافياً على الآخرين، فإنّ مثل هذا الرسم فضلاً عن أنّه يفصح للمتلقي عن المخبوء من السلوك، فإنه ينهض بوظيفةٍ فنية ثانية هي: الكشف عن التلاحم العضوي بين النزعة الداخلية وترجمتها إلىٰ ملمح خارجي يتساوق

وكثافة ونمط النزعة المذكورة، وفضلاً عن ذلك، فإنه ينهض بوظيفةٍ فنيّة ثالثة هي: التجانس المعماري بين نمطي الرسم الداخلي والخارجي: اللذين انفصلا في عملية الرسم ظاهرياً، وبكلمة أخرىٰ: ثمة نمطان من الرسم العام: خارجي، مثل: الإساءة اللفظية وعض الأنامل، وداخلي، مثل: البغضاء في الصدور. وهذان الرسمان المتقابلان، جانسهما رسمٌ لأحدهما وهو الرسم الخارجي، فيما كان الرسم الخارجي أيضاً منطوياً على بُعدين: يتجانسان من حيث خفاء أحدهما وظهور الآخر، مع الرسمين المتقابلين: الداخلي والخارجي.

* * *

وأمّا الرسم الداخلي، فمن الوضوح بمكانٍ لا حاجة إلىٰ التعقيب عليه، ما دام النص قد رسم مشاعر الكراهية لدىٰ الشخوص: في كمونها، قال عنها النصّ أنها أشدّ كثافةً مما عُرف منه ﴿**وما تخفى صدورهم - من البغضاء - أكبر**﴾.

بيد أن النّص عندما رسَمَ نموذجين آخرين هما: التلذذ بالأضرار من خلال التمني بحدوثه، ثم الاستجابة المؤلمة عند فرح الآخرين، والاستجابة المسرة عند ألَمَ الآخرين.

إنّ هذين النمطين من الاستجابة، تفصحان بوضوح عن أشدّ الأنماط عصابيةً وانحرافاً، فيما تسلخان الشخصية تماماً عن دلالة الإنسان.

فإذا أضفنا إلى ذلك، سمة عامة مثل: السعي إلىٰ الإضرار، وعدم الحب، فيما يجسّدان الداخل والخارج من السلوك في نمطه العام وليس في مفرداتٍ بأعيانها... حينئذٍ أدركنا من جانبٍ مدىٰ ضراوة هذه التركيبة لدىٰ الكتابيين، وأدركنا من جانبٍ آخر مدىٰ معمارية الرسم الذي واشَجَ بين المستويات الثلاثة من سمات الشخوص، أي: التواصل الفني بين سمات

الداخل والخارج، وبين عناصر الخارج ذاته، وبينهما وبين السمات العامة.

حين نتّجه إلى المقطع الرابع من النص، نجد أنّ هذا المقطع يتناول سلوك (المؤمنين) في رسمٍ جديدٍ للأحداث والمواقف التي تواكب شخوصهم.

لقد كان المقطعُ الأول خاصاً بالكتابيّين، والمقطع الثاني بالمؤمنين، والمقطع الثالث بالصلة القائمة بينهما.

وكانت المقاطع الثلاثة ـ كما رأينا ـ تتناول شرائح صغيرةً من السلوك، أوضحنا موقعها العضويّ في حينه.

أمّا في المقطع الرابع، فإن الرسم يأخذ شريحةً كبيرةً من النص: تظلّ من جانبٍ، على صلة بجزئيات السورة التي تقدّمت عبر الأقسام الثلاثة منها وتظلّ من جانبٍ آخر، علىٰ موقعٍ مستقل في الرسم.

وهذا الاستقلال، نابعٌ من طبيعة الرسم الذي يستهدف في نهاية المطاف تركيب الرسالة في ذهن المتلقي فإذا كانت السورة في خطوطها العامة، منصبّةً علىٰ تناوُلِ الكتابيّين، فإنّ هذه الخطوط أو الروافد إنما تصبّ في نهرٍ واحدٍ يظل هدف النص أولاً وأخيراً في أية سورةٍ من السور القرآنية، ونعني به: رسم الخبرة الإسلامية.

فرسم الكتابيّين، وسائر الشخوص، إنّما يظلّ عنصرَ (إنارةٍ) للخُبرة الإسلامية التي يستهدفها النص من وراء أيّ رسمٍ في هذا الصدد.

ولقد لحظنا عبر القسم الأول والثاني من السورة، أمثلة هذه الشرائح التي تأخذ طابعاً استقلالياً في الرسم، مما يُعزّز ذهابنا إلى هذا النمط من الصياغة القرآنية التي تتناول شتّى أنماط الرسم، مستقلاً ومتداخلاً، مع انصبابها ـ في نهاية المطاف ـ في رافدٍ واحدٍ هو: الخُبرة الإسلامية، مع تميّز كل رسمٍ فيها، بطرحٍ جديد. سيُرسي بنا إلىٰ جملةٍ من الأحداث والمواقف، تُساهم في

بلورة الخبرة الإسلامية عبر رسْمِ شخوصِ المؤمنين.

تُرىٰ... ما هي ملامحُ هذا الرسم؟؟.

* * *

إنّ أوّل ما يواجهنا من الرسم، هو: أحداث (الجهاد). ولقد لحظنا في بداية السورة أنّ النص قد لمّح بظاهرة (الجهاد) عابراً، خلال إشارته إلى معركة (بدر). إلاّ أنّ السياق هناك، كان في معرض لفت نظر الملتوين إلىٰ الانتصار الذي حققته السماء للمؤمنين.

أما هنا، ـ في القسم الثالث من السورة ـ فقد رُسِمَ (الجهاد) في سياق مضاد، وهو لفت نظر المؤمنين إلى الانتصار.

وإذن، يظلّ كل من النطاقين متميزاً عن الآخر. فضلاً عن ذلك: فإن (الجهاد) وأحداث القتال بعامة، رُسمت هناك ـ بنحوٍ خاطف، بنحو لا يتجاوز التلميح إلى ظاهرة الانتصار في معركة (بدر). أمّا هنا، فإنّ التفصيلات للحدث تأخذ مساحةً كبيرة من النص، تتوافق وطبيعة الحديث المفصّل عن المؤمنين، فيما قلنا أن النص يعتزم في القسم المتبقّي من السورة أن يمحّضه لرسم شخوص المؤمنين، ولرسم سمات (الإيمان) الذي يظل هدف النص ـ أيّ نصٍ كان ـ من وراء طرحه شتىٰ المواقف والأحداث، ومن وراء رسمه شتىٰ أنماط الشخوص: كتابيّين أو ملتوين بعامة.

ويجيء التلميح إلىٰ الكتابيين الذين احتلوا موقعاً رئيساً من السورة في أقسامها الثلاثة، يجيء التلميحُ إليهم عابراً في القسم المتبقي: واشجاً النصُ بذلك بين جزئياته.

ومن البيّن، أنّ هذا المبنىٰ الهندسي للسورة، يحقّق أولاً توازياً في خطوطه، فضلاً عن التواشج العضوي بين جزئياته كما قلنا.

أما التوازي أو التوازن في الهيكل المعماري، فيتمثّل في أنّ السورة رسمت كلاً من شخوص الكتابيين والمؤمنين في خطين متوازيين، بدأ الأول منهما بالحديث عن الكتابيّين، وانتهى الثاني منهما بالحديث عن المؤمنين.

أما الخطوط الثانوية التي رُسمت متوازيةً داخل الهيكل المذكور، فإنها كانت تتداخل فيما بينها، أي: كان التناوب بين رسم الكتابيين والمؤمنين، يأخذ صياغةً خاصةً تتناول شتىٰ أشكال العلاقة القائمة بينهما، بالنحو الذي لحظناه، وبالنحو الذي سنلحظه من أشكال العلاقة المتبقية.

والمهمّ، أنّ البناء المعماري، وما يحققه من إمتاعٍ جمالي وفكري علىٰ نحو ما أشرنا إليه، ينبغي ألاّ يغيب عن ذهن المتلقي عبر تلقّيه لهذا النص ومحتوياته، وهو بناءٌ تحرص هذه الدراسة علىٰ تحديد خطوطه، كلَّ الحرص.

ويعنينا الآن أن نواصل الحديث عن الخطوط المتبقية من البناء المذكور، فيما تمحّضت ـ كما قلنا ـ لرسم الخُبرة الإسلامية، وتخلله الرسم العابر للكتابيّين في نطاقٍ خاصٍ نوضحه في حينه.

وإذن، فلنعد إلى المقطع الذي مهّدنا له بالملاحظات المذكورة، ولْنَرَ كيفية الرسم لظاهرة (الجهاد) الذي استُهل به المقطع، وهو استهلالٌ، قلنا أنّه رُسِمَ في نطاق جديدٍ متميّزٍ عن النطاق الذي رسم به في أول السورة.

لقد بدأ النص بحَدَثٍ قتالي هو التذكير بغزوة (أُحُد) ـ حسب النصوص المفسرة ـ مشيراً إلى الانشطار الذي وقع بين طائفةٍ، تقترح الخروج إلى المشركين، وأخرىٰ تقترح المقام في المدينة، ثم موقع نصرة السماء من ذلك.

ولنقرأ الآيتين اللتين ترسمان الحدث:

﴿وإذ غدوت من أهلك تبوّىءُ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم *

إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا، والله وليُّهما، وعلىٰ الله فليتوكلّ المؤمنون﴾ [آل عمران: ١٢١ ـ ١٢٢].

ويُلاحظ هنا، أنّ التذكير بهذا الحدث، ألمح إلى إمكانات حدوث (الخذلان)، إلا أنّه أردف ذلك بنصرة السماء.

ويُلاحظ ثانياً: أنّ النص أردف التأرجح المذكور بين (الخذلان) و(الانتصار)، أردفه بحدث الانتصار المشهور في غزوة (بدر)، فيما كانت الآية التاليةُ وما بعدها تتناول الحدث المذكور:

﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلةٌ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين * بلىٰ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمددكم ربُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسوّمين * وما جعله الله إلاّ بُشرىٰ لكم، ولتطمئن قلوبُكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦].

إنّ رسْمَ كلٍّ من حَدثَي (أُحُد) و(بدر) بهذا النمط من الصياغة التي تومىء إلىٰ (الانشطار) خاطفاً، وتمسحه من ذهن المُتلقي مباشرةً من خلال نصرة السماء عبر ذلك الانشطار نفسه، أي: حَدَث (أُحُد). ثم إردافه برسم الانتصار في حَدَثٍ سابق (أي: بدر)، هذا النمط من الصياغة ينطوي على أسرارٍ فنيّةٍ، يتعيّن الوقوف عندها.

أولاً: من خلال التلميح إلى إمكان أن يكون ثمة خذلان.

ثانياً: من خلال كسر الزمن الموضوعي (أي: تسلسل الأحداث)، واستبداله بالزمن النفسي (أي: رسم حادثة أُحُد قبل حادثة بدر، مع أنّ الأخيرةَ سابقةٌ علىٰ أُحُد).

إنّ المتلقّي لَيتساءَلُ عن السرّ الفني، وراء قطع النص لتسلسل الزمن

الموضوعي، واستبداله بالزمن النفسي في رسمه لمعركة (أُحد) قبل معركة (بدر) كما يتساءل عن السر الكامن وراء التلميح إلىٰ (الفشل) الذي رسمه بالقوّة لا بالفعل في قوله تعالىٰ **﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا﴾**.

وعند التدقيق في هذه الصياغة، يمكننا أن نجيب بوضوح على التساؤل المذكور ـ من خلال استجابتنا الفنيّة ـ متمثلةً في: أنّ هذا المقطع من السورة، جاء غِبَّ المقطع السابق الذي نهض برسم الصلة القائمة بين المؤمنين والملتوين، فيما لحظنا طبيعة المشاعر العدائية التي يحملها الملتوون حيال المؤمنين: بدءً من تمنّيهم إدخال المشقة علىٰ المؤمنين، إلىٰ السعي في إفساد أمرهم، إلىٰ عضّهم الأنامل من الغيظ، إلىٰ فرحهم بالأذىٰ الذي يصيب المؤمنين... الخ. هذه المشاعر العدوانية قد عقّب النص عليها في ختام المقطع السابق، على النحو التالي: **﴿... وإن تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدُهم شيئاً...﴾** [آل عمران: ١٢٠].

ومن هذا التعقيب، نُدرك بوضوح طبيعة الترابط العضوي بين المقطع المتقدم وبين المقطع الذين نحن في صدد الحديث عنه، فالمقطعُ الحالي وهو يرسم ملامح الخُبرة الإسلامية: من خلال رسمه لشخوص المؤمنين وما تواكبهم من أحداثٍ ومواقف، هذا المقطع يظل إنماءً عضوياً لما تقدّمته من مواقف تفرز مشاعر العدوان عند الملتوين من جانب، وتَعِدُ بانتصار السماء للمؤمنين من جانب آخر.

وطبيعيٌ، أن تجيء حادثة (أُحُد) تجسيماً للإنماء العضوي المذكور. بصفة أنّ (أحد) قد رافقها منذ البداية انشطارٌ في وجهات النظر حول بدء عملية القتال، من بقاءٍ في المدينة، أو خروجٍ منها لمقابلة المشركين الموتورين. كما رافقها عند انتهاء القتال انشطار يتمثّل في عدم الالتزام بالخطة العسكرية التي رسمها النبي(ص) حينما وضع مجموعةً من الرُماة علىٰ باب الشعب وأمَرَهم

بألّا يبرحوا المكان المذكور، حتى لا يقعوا في كمين العدو، إلاّ أنّ الغالبية أخلت موقعها حينما لاح الانتصار، وحينما وجدوا أنّ الآخرين قد انتهبوا الغنائم، فيما حرّكت نفوسهم نحوها واقتادتهم إلى إخلاء مواقعهم.

والمهم، أنّ التعجل في اكتساب الغنيمة، وعدم الاصطبار على ذلك، يُفصح عن وقوع مفارقة في السلوك لا ترتضيها السماء دون أدنىٰ شك، إنها لا تتوافق مع (التقوى)، ولا تتوافق مع (الصبر) وهما الظاهرتان اللتان ذيّل بهما النص خاتمة المقطع السابق. فالتقوىٰ تفرض على المُقاتل أن يلتزم بخطة النبي(ص)، والصبر يفرض عليه ألّا يتعجل بإخلاء الموقع.

بيد أن السماء وهي بعامة تعد المؤمنين بالنصر، بقدر التزامهم بالتقوىٰ وبالصبر، تظل معطياتها موسومة بالتدفق والاستمرار.

من هنا، أردف النص مباشرةً، حادثة (أحد) بحادث (بدر)، وهي زمنياً، سابقة على أُحُد، مذكّراً بالنصر العظيم الذي واكب المعركة، مع قلّتهم عدداً ومَؤنةً.

وإذن، رَسْمُ (الفشل) و(النصر)، سيقا في نطاق الالتزام بالتقوىٰ والصبر من جانب ومن جانب آخر رُسِمَ (النصر) مع التلميح إلىٰ أنّ السماء في بعض إمكانات (الفشل) الذي قد يصيب المؤمنين، تتدخّل للحيلولة من إمكان الفشل المذكور، كما هو شأن القتال البادىء الذي شطر المؤمنين.

هذا كله يعني أنّ نصر (السماء) يظلّ: العَصبَ الذي يلتمُّ عنده كل موقفٍ أو حدثٍ يواكب رحلة المؤمنين، ومنها: معركة بدر.

هنا يبدأ النصُ برسم التفصيلات للحدث، مُوهّجاً بها ملامح النصر. وهو أمر يقتادنا إلى الوقوف عند التفصيلات وملاحظة القيم الفنيّة التي انطوت عليها، بعد أن لحظنا القيم الفنيّة التي انطوىٰ المبنىٰ العضويّ عليها عبر هذه الشريحة التي وصلت بين المقطع السابق، والمقطع الحالي.

إنّ التفصيلات للحكاية تتمثلُ في شخوص الملائكة بخاصة، حيث رَسَمهم النص طابعاً (معجزاً) يتجاوز المألوف من الشخوص والأحداث.

وتقول النصوص المفسّرة، في رسم الملامح الخارجية لشخوص الملائكة، أنّها معتمةٌ بالعمائم البيض.

والمهمّ، أنّ إضفاء طابع (المعجز) في شخوصٍ وأحداث خارجية عن (بيئة) الحكاية، يجيء مفصحاً عن خطورة النصر الذي تعده السماء للمؤمنين في حالة التزامهم بظاهرتي (التقوىٰ) و(الصبر). إنّ النصر الداخلي، طالما تعد السماءُ به عبر رسمها لشتىٰ الأحداث. بيد أن الجديد هنا هو العنصر الخارجي المحدّد، أي: المجسّم لأدوات النصر، متمثلاً في شخوص الملائكة، في ملمحها الخارجي المذكور.

وجاءت السمة الثالثة للشخوص، متجسدةً في (العدد) الذي حدده النص بثلاثة آلاف مَلَك.

وتقول النصوص المفسرة أنّ عدد أصحاب النبيّ(ص) كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر (٣١٣) رجلاً، بينا كان عدد المشركين ألف رجل.

وفي ضوء هذا التفارق بين شخوص المؤمنين والملتوين، يمكننا أن نستخلص الدلالة الفنيّة للعدد الملائكي الذي حدّده النص بثلاثة آلاف.

فلقد كان عدد الملتوين ضِعْفَيْ عدد المؤمنين، وهي نسبةٌ إذا سلخناها من نصرة السماء، فحينئذ توحي بأن الانتصار سيكون لصالح الفئة الكثيرة.

ولايغرب عن بالنا أن النص ألمح إلى ما يضاد هذا الإيحاء في بداية السورة من أن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكبيرة... مما يقتادنا هذا التلميح أولاً إلى التواشج العضوي الذي يصل بَين القسم الأول من السورة وقسمها

الأخير الذي نتحدث عنه حالياً، وثانياً تقتادنا إلى إلقاء الضوء على الحقيقة التي يغيم من خلالها الإيحاء بأن العدد الأكثر يكون الانتصار لصالحه بالضرورة. بل تظل الحقيقة مشيرة بوضوح إلى أن (السماء) وليس سواها، هي التي ستحدد النصر أو الهزيمة بقدر الالتزام بالتقوىٰ وبالصبر عند المؤمنين.

ولقد جسّد النصُ هذه الحقيقةَ، بعنصرٍ حسّيٍ، أو لِنقل: بعنصرٍ تجريبي يتساوق مع طبيعة الإدراك البشري واستجابته لأحداث الحياة، فتعامل معه بلغة الأرقام التي يخضعها الكائن الآدمي لحساباته عند قيامه بأية مُعادلة في هذا الصدد.

من هنا يمكننا أن نذهب إلى أنّ تحديد شخوص الملائكة بثلاثة آلاف، من المحتمل ـ من حيث استجابتنا الفنيّة الصرف ـ أن يحقّق تلك المعادلة الحسابية التي تغلّف استجابة الكائن الآدمي. فهذا العدد هو: ضعفا عدد المشركين، وعددُ المشركين هو: ضعفا عدد المؤمنين.

فإذا احتملنا أنّ المؤمنين من الممكن أن يداخلهم الفزع من حصيلة المعركة بسببٍ من قناعتهم بأنّ الضعفين يغلب الواحد، فحينئذٍ ستتحول قناعتهم إلى ما يضاد الهزيمة، ستتحول قناعتهم إلى النصر عندما يُدركون أنّ الإمداد لهم سيكون بالضعفين، أي بالثلاثة آلاف مَلَك قبال الواحد وهو الألف مشرك. بعد أن كانت قناعتهم مضادة للسبب نفسه ما دام العدد قبل الإمداد كان ألفاً من المشركين قبال ٣١٣ من المؤمنين.

ولكننا خارجاً عن الاستجابة المذكورة فحينئذٍ لا يمكننا أن نستخلص من ظاهرة العدد دلالةً محددة بل تبقىٰ مرتكنة إلى علم السماء، وجهلنا المطلق حيال ذلك، شأنها شأن سائر ظواهر العدد الذي سنرىٰ بعد قليل كيف أن الخمسة آلاف وهو الإمداد المشروط بالتقوىٰ وبالصبر، لا يخضع للاحتمال الفنّي السابق، بل يظل مثل الأعداد التي ألفناها مبهمةً حيال قصورنا العقلي

نحو السبعين أو المائة وسواهما.

إنّ النص القرآني ـ وهو يرسم ملامح الشخوص الملائكية ـ وما يواكبها من أحداث المعركة ببدر، إنما يلحّ علىٰ ظاهرتي (التقوىٰ) و(الصبر) بصفتهما ثمناً لإحراز النصر.

ولقد تمثّل الإلحاح المذكور في المقطع السابق، فيما خُتم بفقرة ﴿... **وأن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدُهم**...﴾ [آل عمران: ١٢٠]. كما تمثّل عند التعقب علىٰ معركة بدر مطالباً باستمرارية التقوىٰ.

وأخيراً تمثّل عند الارتداد بالرسم إلىٰ معركة (أُحُد) من جديد، فيما قال النص:

﴿**بلىٰ إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين**﴾ [آل عمران: ١٢٥].

إنّ الآية المذكورة، تضطلع برسم حكاية جديدة، تظلّ مع سابقتيها مؤرجحةً قضية النصر والإخفاق تبعاً لتوفّر عنصريِ التقوىٰ والصبر أو عدمها.

وهذه الحكاية الجديدة تنطوي على نمطين من الصياغة من حيث البُعد الزمني فيها.

فهي من جانبٍ تجسّد الزمن النفسي، أو لنقل: تجسد امتداداً للزمن النفسي الذي بدأه بالتلميح إلى معركة (أحد) ثم أعقبه برسم معركة (بدر)، وارتدّ من جديدٍ إلى (أُحد) فيما قرّر أن المؤمنين إذا قدّر لهم أن يتقوا ويصبروا، فإن السماء ستمدهم بخمسة آلاف ملك في حالة عودة المشركين إلى قتال المؤمنين بعد المعركة المذكورة.

ومن جانب آخر، تجسّد هذه الحكاية: الزمن الموضوعي، بصفة أن غزوة (أُحد) جاءت عقب معركة (بدر).

ولا يخفىٰ على المتلقّي أنّ هذا النمط من الصياغة ينطوي علىٰ امتاعٍ جمالي بالغ المدىٰ، مثلما ينطوي علىٰ معمارية بالغة الإحكام في الحبك القصصي. فالتداخل بين الزمنين: النفسي والموضوعي بهذا النحو من التواشج بينهما، وليس بنحوٍ من التناوب، يظلّ صياغة بالغة الخطورة من حيث تميّزها نمطاً ثالثاً من أنماط الأداء، قبال كلٍ من نمطي: الزمان النفسي والزمان الموضوعي، سواء أكانت صياغتهما علىٰ نحو التناوب أو الانفراد.

والمهم، أن الحكايات الثلاث صيغت وفق البطانة الفكرية المتمثلة ـ مثلما قلنا ـ في ظاهرتي (التقوىٰ) و(الصبر) فيما كان التلميح إلى (أحد) في البدء، إجابةً علىٰ التلكؤ الذي غلّف الموقف. وفيما كان التلميح إلى (بدر)، إجابةً على عدم التلكّؤ وفيما كان التلميح إلى ذيول معركة (أحد) في الحكاية الثالثة، إجابةً مشروطةً بعدم التلكؤ في السلوك اللاحق.

وهكذا تتوازىٰ الحكايات الثلاث معمارياً، مع التوازي لأنماط ثلاثة من السلوك: سلوك طَبَعه التلكؤ، وثانٍ طَبَعه عدم التلكؤ، وثالث معلق علىٰ شرط.

* * *

وإذا تركنا ظاهرة (الزمن) وصلتها بظاهرتي (التقوىٰ) و(الصبر)، واتجهنا إلى الشخوص الملائكيين أنفسهم، وتابعنا طبيعة الرسم لملامحهم، أمكننا ملاحظة نفس الطوابع التي لحظناها عند الحديث عن حكاية (بدر)، ودور الشخوص الملائكيين فيها. فقد رسَمهم النصُ هنا في رقم يزيد على الرقم السابق، إنهم خمسة آلاف، تعد السماء بإرسالهم في حالة التزام المؤمنين بظاهرتي (التقوىٰ) و(الصبر)، إذا قُدّر للمشركين أن يفكروا في العودة إلىٰ القتال.

ولا يخفىٰ على المتلقي أنّ تضخيم العدد، ليَتوافق مع إمكانات

الاستعداد الذي قد يطبع نشاط المشركين، وهم يفكرون في العود إلى القتال، أنه نمطٌ من إشاعة الثقة في نفوس المؤمنين في غمار المعادلات العسكرية التي تأخذ مساحة كبيرة من أذهانهم.

وهذا ما يعززه ختام الحكاية ذاتها، فيما عقّب النصُ قائلاً:

﴿وما جعله الله إلا بشرىٰ لكم ولتطمئن قلوبكم به...﴾ [آل عمران: ١٢٦]. فالبشرىٰ، والاطمئنان، يتساوقان مع طبيعة التركيبة النفسية للآدميين وهم يتعاملون مع الأرقام والحجوم في أية معادلة ينهضون بها، بما في ذلك التعامل مع السماء حيث يُشيع العددُ من حيث سعته، والحجمُ من حيث ضخامته، مزيداً من الاطمئنان والفرح والثقة.

* * *

إلىٰ هنا، يكون النص قد انتهىٰ من رسم الحوادث التي واكبت المؤمنين، وهي حوادث تجسّد شريحةً واحدة من الشرائح التي نهض القسمُ الأخيرِ من سورة آل عمران برسمها في غمرة الحديث عن شخوص المؤمنين، وما يستهدفه من تركيز الخبرة الإسلامية.

وقد خُتمت هذه الشريحة بالآيات الثلاث التالية: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين * ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون * ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾.

إنّ هذا الختام، يطرح طبيعة ما ينبغي أن تستجيب له الشخصيةُ الإسلاميةُ حيال الجزاء الأخروي متمثلةٌ في أنّ التوبة علىٰ ذوي المفارقات أو تعذيبهم يظل أمراً عائداً إلى السماء في نهاية المطاف، نظراً لإحاطتها التامة بطبيعة هذه الشخصية أو تلك. وتذهب التفاسير المأثورة إلى أن هذا التعقيب جاء علىٰ ذوي المفارقات التي سحبتها ذيول (أُحُد).

وقد سبق هذا الختام، تلميحٌ إلىٰ المصير الدنيوي للمشركين من أنّ السماء ستتولىٰ النهوض بمسحهم أو بإفشالهم وهو أمرٌ يتساوق وما لحظناه من المقطع السابق الذي طالب المؤمنين بالتقوىٰ وبالتصبر، ومن أنّ السماء ستتدخّل في احتجاز أيّ أذًى يصيب المؤمنين.

إنّ هذا الختام للمقطعين ينبغي أن يضعه المتلقي في اعتباره، بصفته رابطة عضويةً تصل بين جزئيات النص.

ولسوف نرىٰ في القسم المتبقي من السورة، صدىٰ هذا الختام، وتردده في عصب النص أجمع، حيث يظل رسم الخبرة الإسلامية (وهي الأفكار المستهدفة في النص) متواشجاً في كل قضاياه المطروحة، مع ظواهر (التقوىٰ) و(الصبر) من جانب، ونصرة السماء بعامة من جانبٍ ثانٍ، وتحديد موقع الجزاء: إيجاباً أو سلباً من جانبٍ ثالث.

هذه الظواهر التي أفرزتها المقاطعُ المتقدمة ـ ومنها المقطع الذي انتهينا توّاً منه، ستتردد أصداؤها في القسم المتبقي من السورة، فيما تجيء مع جملةٍ من مبادىء الخبرة الإسلامية الجديدة التي يطرحها النص، متواشجةً بنحوٍ يُعيد إلى الأذهان ضرورة أن يعيَ المتلقي ما تفرزه الصياغة القرآنية من مبادىء جمالية في توصيل الأفكار إلى المتلقّي، متمثلةً بخاصةً في أحكام البناء العضوي، وما يؤدّيه هذا الإحكام من إمتاع فنّي ونفسي، ومن ثم ما يتركه من تركيز الخبرة عند المتلقي وهو هدف الفن العظيم.

نتجه الآن إلىٰ شريحة جديدة من سورة آل عمران في قسمها الأخير الذي يتمحّض لرسم مبادىء الخبرة الإسلامية عبر تناوله لشخوص المؤمنين.

لقد كانت الشريحة الأولىٰ التي استُهل بها المقطع الأخير من السورة، تتناول سلوك المؤمنين في قضية القتال وما يواكبها من استجابات تمثّلت في الالتزام بالتقوىٰ، وبالصبر، ومن وعدٍ بالنصر في حالة الالتزام، وعدمه في

حالة عدم الالتزام، ومن تعليق قضية الجزاء وتحديد إيجابية المصير أو سلبيّته علىٰ السماء، وليس علىٰ الكائن الآدمي.

وكانت هذه الظواهر تُصاغ جميعاً في ضوء معركة (أُحُد) و(بدر)، وما أفرزتا من نتائج واستجابات بشرية متنوعة.

وفي تصوّرنا فنياً، أن معركتي بدر وأُحُد تظلان عنصراً حكائياً موظفاً لإنارة (الأفكار)، تماماً كما لحظنا ذلك في العنصر القصصي الذي احتلّ القسم الثاني من سورة آل عمران، فيما كانت القصص هناك: امرأة عمران، مريم، زكريا، عيسىٰ... الخ، قد وُظّفت لإنارة (أفكار) حددناها في حينه.

وكما كانت القصص المذكورة، تلقي بإضاءتها علىٰ أكثر من موقف، فإن حكايتي (بدر) و(أُحُد) منهما بخاصة ستلقي بإضاءتها أيضاً على أكثر من موقف في الشرائح المتبقية من السورة.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن (الأفكار) تظل ـ من ثم ـ هي (الهدف) الذي ستتنوع مفرداته، ويحتل بعضها تأكيداً دون سواه، تبعاً للنطاق النفسي والاجتماعي الذي يتوافق مع هذه المفردة أو تلك.

* * *

من هنا، تتّجه الشريحة الجديدة، لطرح مجموعة من مفردات السلوك للخبرة الإسلامية المستهدفة، يصلها في نهاية المطاف بذيول العنصر الحكائي، أي: معركة أُحُد، إحكاماً للتواشج العضوي بين جزئيات النص.

ومن البيّن الذي طالما نكرّره، أن الفنّ الخطير يلمّ في شكله الأدبي جملةً من الموضوعات المتنوعة، يخضعها لبُعد نفسيٍ أو فكري يوحّد بينها، فيما يحقق بذلك تطابقاً بين التجربة البشرية في استجابتها لأحداث الحياة المتنوعة، وبين الشكل الأدبي لها.

والشريحة الجديدة التي نحن في صدد الحديث عنها، ترسم جملة من الظواهر المتنوعة يتصل بعضها بالتعامل الاقتصادي، والآخر بالتعامل الأخلاقي، فيما يخضعها النص لبُعدٍ نفسي واحد، تتكامل من خلاله مبادىء الخبرة الإسلامية والظواهر المطروحة هي:

أ ـ (الربا) و(الإنفاق) فيما يمثّلان التعامل الاقتصادي. وأحدُهما مضادٌ للآخر تماماً في إفصاحهما عن استواء الشخصية أو عصابها.

ب ـ (كظم الغيظ) و(العفو) فيما يمثلان التعامل الأخلاقي. وأحدهما يمثّل مرحلة محدّدة من التصعيد نحو السويّة، والآخر مرحلة عاديةً منها.

جـ ـ التوبة، والمسارعة إلى الطاعة، فيما تمثّلان تعاملاً خاصاً مع السماء.

هذه الظواهر الست تحددها الآيات التالية: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً واتقّوا الله لعلكم تفلحون﴾** [آل عمران: ١٣٠].

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يُحبّ المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومَن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥].

إنّ الظواهر الست التي أشرنا إليها، فيما رسمتها الآيات المتقدمة، يطرحها النصُ هنا، ملفتاً أنظارنا إلى خطورتها.

وطبيعي فإن مجرّد رسمها، يعني أنها تنطوي علىٰ أهميةٍ ما، بغض النظر عن النطاق الاجتماعي الذي يرتبط عادةً بأسباب النزول في لغة البحث القرآني.

إنها باختصار: مجموعة من مبادىء الخُبرة الإسلامية، يستهدف النص

توصيلها إلينا في هذه الجزئية من النص، متضامنةً مع المجموعات الأخرىٰ التي تتوزعها سائر النصوص القرآنية.

ولنقف عند الظواهر المذكورة عابراً، وملاحظة المبنىٰ الفنّي لها:

أ ـ الربا والانفاق:

الربا والانفاق يتّصلان بدافعية المال وأحدُهما يضادّ الآخر في تمركز أولهما حول الذات وانسلاخ الثاني عنها.

إنّ الربا يجسّد الحرص بنحوه المرَضيّ الذي يشكّل واحداً من أركان الكفر، تبعاً لما يقرّره أهل البيت(ع). كما أنّه يقترن بالتلذذ علىٰ حساب الآخرين، وهذا بُعدٌ ثانٍ من أبعاد التمركز على الذات فضلاً عن أنّه ـ من جانبٍ ثالث ـ يعكس أثره السلبي على الآخرين، فيما لا تبقىٰ الظاهرة منحصرة في انعكاس أثرها السلبي علىٰ المرابي فحسب.

من هنا علينا إدراك خطورة الظاهرة واقترانها بالتحريم وليس بالكراهة مثلاً.

يقابل (الربا) ـ من تمركزه حول الذات ـ (الانفاق)، فهذا الأخيرُ وأدٌ للذات، والتوجه إلىٰ الآخرين. وبكلمة أخرىٰ: أننا إذا استعرنا لغة البحث النفسي، للحظنا أنّ المرابي، يمثل شخصية عصابيةً حادة: في أنانيتها من جانبٍ، وكراهيتها للآخرين من جانب ثان، وتلذذها بتعذيب الآخرين من جانبٍ ثالث.

وعلى الضدّ منها، تقف شخصية المُنفق حيث تمثل (السويّة) تماماً... فالمنفق (يُحب) الآخرين ويحبه (الآخرون)، وهذا هو معيار (السويّة) في لغة البحث النفسي، وحين يُحب المنفقُ الآخرين، فهذا يعني أنه تحرّر من ذاته، من مشاعر الأنانية، كما أنه يعني التحرر من مشاعر الكراهية، وأخيراً فإن تلذذه

لن يكون علىٰ حساب الآخرين، بل لحسابهم، وهذا ما يجسّد قمّة السوّية.

إن النص وهو يطرح ظاهرتين ماليتين، إنما يدلّنا علىٰ معمارية البناء النفسي في عملية توازن بين ممارستين تدعو إحداهما إلى نبذ قمة العصاب، والأخرىٰ إلى التدريب علىٰ قمة السوّية.

ولا يغيب عن بالنا، أنّ كلاًّ من الجهاد بالنفس وبالمال مقترنان في حقل التشريع بالدعوة إلىٰ الاتجاه نحوهما، ويفصحان عن تجسيد دلالة (المجاهد) وبلورتها قبالة القاعدين عن الجهاد.

وهذا ما يجعلنا نقف علىٰ خيط واحد من خيوط العضوية التي تصل بين رسم دلالة (الجهاد) بالنفس في الجزئية (المتقدّمة) وبين الجهاد بالمال في الجزئية التي نحن في صدد الحديث عنها.

ونعثر على خيط عضوي آخر، حينما نتجه إلى ظاهرتي (كظم الغيظ) و(العفو) فيما تتصلان بالجهاد الأكبر حيث تلتمّ دلالات الجهاد في تضامّ هاتين الظاهرتين مع الأوليين: الجهاد بالنفس، وبالمال. تلتمّ أولئك جميعاً في توحّدٍ عضوي واضح المعالم.

ويتوهّج هذا التوحّد عندما نُدرك بوضوح أنّ التدريب على الاستجابة الكاظمة، وعلى العفو حيال الإساءة، يمثّل دلالة (الصبر) التي أفرزها النص في المقاطع السابقة، وفي المقطع الرابع الذي حام علىٰ دلالتي (الصبر) و(التقوىٰ)، أي: حين رسمها كما رأينا في سياق التعامل مع الكتابيين في المقطع السابق، وفي سياق معركتي (أُحُد) و(بدر) علىٰ نحو ما فصّلنا الحديث عنه.

وإذن، التواشج العضوي بين هذه الشريحة، وبين ما تقدمها من جزئية سابقة من المقطع، تظل واضحةً كل الوضوح.

لقد لحظنا التواشج العضوي بين ظاهرتي (الكظم) و(العفو) وبين الجزئيات السابقة من النص.

وحين نتابع خيوط هذا التواشج، نظفر بالمزيد منها حينما نتذكر أنّ الجزئية السابقة قد اختُتِمت بالتعقيب علىٰ ذوي المفارقات التي سحبتها ذيول معركة (أحد)، فيما حدّدت ظاهرة التوبة لبعض الشخوص، من أنها عائدةٌ إلى السماء من حيث تقويم الشخصية وتحديد موقعها من الجزاء الإيجابي والسلبي.

وتقول بعض النصوص المفسّرة، انّ حصر التقويم بالسماء وليس بسواها، إنما جاء عقب بعض الدعوات على ذوي المفارقات، وهذا يعني أنّ كلاً من العفو وكظم الاستجابة الغاضبة يجيء في سياق بعض مفرداته التي نقَلَها النص من صعيد ما هو خاصٌ إلى ما هو عام، مع ملاحظة أنّ ما هو خاص لا يحمل بُعداً سلبياً بقدر ما هو تعاملٌ خاص مع الصفوة التي ينِدّ عن الوصول إلى تركيبتها الخيّرة، سائر الآدميين.

والمهم بعد ذلك كله، أنّ النص يتّجه إلى طرح ظاهرتي (الكظم) و(العفو) بصفتهما موضوعاتٍ مستقلةً تتضامّ مع سائر الموضوعات الستة التي تضمّنتها هذه الجزئية من النص.

إنهما، بغض النظر عن الصلات المتنوعة التي تربطها بجزئيات النص، تظلان مفردتين من مبادىء الخبرة الإسلامية التي يستهدف النصُ تركيزها عند المتلقي.

وأخيراً، تجيء مفردتا: (المسابقة إلى الطاعة) و(التوبة)، مفردتين أخريين من مبادىء الخبرة الإسلامية، تظلان على صلة عضوية بالجزئية السابقة: معركتي (أحد) و(بدر)، تلك الجزئية التي واكبها رسم (التقوىٰ) و(الصبر) حيث تجانس الصبر مع (الكظم) و(العفو) كما ذكرنا، وحيث

تتجانس (التقوىٰ) مع المسارعة إلى (الطاعة) ومع (التوبة) عن الذنوب.

إذن، يمكننا أن ندرك سرّ التلاحم العضوي بين مطالبة النص في هذه الجزئية بالمسارعة إلى الطاعة وبالتوبة، وبين الجزئية السابقة المُطالبة بالتقوىٰ في غمرة الحديث عن معركتي (بدر) و(أُحد).

ولايغيب عن بالنا أيضاً، بروز خيطٍ عضويّ آخر بين الشريحتين السابقة والحاليّة، يتمثّل: في الصلة بين المفارقات التي سحبتها ذيول معركة (أُحد) وبين إمكان تلافيها من خلال (التوبة) و(المسارعة إلى الطاعة).

* * *

إلى هنا، نكون قد انتهينا من الحديث عن الشريحة الثانية في المقطع الخاص برسم شخوص المؤمنين. فقد كانت الجزئية الأولىٰ أو لنقل الموقف الأول خاصاً بمعركتي بدر وأُحُد. وكان الموقف الثاني خاصاً برسم ست ظواهر هي: (الربا) و(الإنفاق) و(الكظم) و(العفو) و(التوبة) و(المسارعة إلىٰ الطاعة)، حيث لحظنا معمارية هذه الظواهر فنيّاً، وصلتها بالموقف الأول عضوياً، إذ رُسمت الظواهر متوازيةً هندسياً من خلال التضاد والتماثل بين كل ظاهرتين، التوازي من خلال التضاد، وهما الربا والإنفاق، والتوازي من خلال التماثل، وهما الكظم والعفو، والتوازي من خلال كليهما، أي: التماثل والتضاد متجسّد في التوبة والطاعة.

فالتوبة إقلاعٌ عن الذنب. والطاعة مسارعةٌ إلى عمل إيجابي.

والمهم بعد ذلك كله، أنّ هذه الخطوط المعمارية المتوازية تضاداً وتماثلاً لا يمكن للباحث أن يُقرّبها إلى ذهن المتلقي ما لم تتوفر حاسة فنيّة أحكمتها الدِربةُ على تذوق النص الأدبي.

بيد أن المتلقي بعامة ـ وهنا تكمن خطورة الفن ـ يظل في عملية

الاستجابة للنص الفني، في صعيد تذوقٍ جماليٍ محدّد الأطراف، إلاّ أنّه مُبهمُ المصادر، إنه يتحسّس بجمالية النص دون أن يدرك السرّ في ذلك.

والخطورة تكمن ـ في نهاية المطاف ـ أنّ النص يترك تأثيره المتشدد في حصيلة الاستجابة المُجملة عند المتلقي.

بكلمة أخرى، إنّ مُبدع النص يأخذ مبادىء الاستجابة البشرية بالنحو الذي يتوافق وتركيبتها عن عمليّة التوصيل وإحداث الأمر المطلوب من وراء ذلك.

وبعامة، فقد لحظنا ـ من جانبٍ ـ معمارية هذه الظواهر الست التي تضمّنها الموقف الثاني كما لحظنا ـ من جانبٍ آخر ـ الترابط العضوي بين الموقف الثاني وبين الموقف الأوّل الذي رسم معركتي (بدر) و(أُحُد).

* * *

ونتجه الآن، إلى الموقف الثالث، لملاحظة مفرداته أولاً، وملاحظة ترابطه العضوي بالجزئيات السابقة.

فما هي محتويات هذا الموقف؟؟.

لنقرأ النص أولاً:

﴿قد خلت من قبلكم سُننٌ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيانٌ للناس وهدىً وموعظة للمتقين * ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسَسْكم قَرْحٌ فقد مسّ القومَ قَرْحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * ولقد كنتم

تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤٣].

هذه النصوص تظلّ واضحة الصلة كل الوضوح بمعركة (أحد)، إنّها المعركة التي سحبت ذيولها على المقطع الأخير من السورة، ونعني به المقطع الخاص برسم المؤمنين، وبرسم الخبرة الإسلامية بعامة، فيما انتهينا من الحديث عن موقفين منها. كان الموقف الأول بادئاً لمعركة (أحد) كما رأينا، وفيما كان الموقفُ الثاني يطرح جملةً من الظواهر، أوضحنا استقلالها الموضوعي من جانب، بصفتها تمثل مبادىء الخبرة الإسلامية، كما أوضحنا تلاحمها العضوي، أي صلتها بالموقف الأول، بذيول معركة (أحد) من جانبٍ آخر.

هنا، أي في الموقف الثالث، فإن الصلة العضوية بمعركة(أُحُد) تظلّ من الوضوح بمكان كبير من خلال التلميح إلىٰ (القرح) الذي أصاب المؤمنين في (أحد) قبال (القرح) الذي أصاب المشركين في (بدر)، ومن خلال التلميحات الأخرىٰ التي سنقف عليها مفصّلاً.

والمهم، أن التلاحم العضوي ـ وهو محط اهتمامنا في الدراسة القرآنية ـ بين جزئيات السورة بأكملها، ينبغي ألا يغيب عن ذهن المتلقي، ومنها هذه الجزئية التي تضمنت سبع آيات آن لنا أن نقف عند تفصيلاتها.

* * *

يتضمّن الموقف الثالث من النص، جملةً من الظواهر، تشكّل إنماءً عضوياً لما سبقها.

وقد استُهِلّ الموقف بعملية (تذكير) لتجارب الماضين نتيجة التوائهم.

وهذا التذكير من الوجهة النفسيّة، يشير النص بذاته إليه، فيما يقرر أنه

هدىً وموعظةٌ وبـيان للمتقين.

وما دامت (التقوىٰ) أحد الركنين اللذين لحظناهما في المقطع الذي تنتهي السورة به، حيث شكل مع ظاهرة (الصبر) البطانة التي فُرِشَ بها الموقفان السابقان، أي المقطع الخاص برسم سمات المؤمنين والخُبرة الإسلامية بعامة. أقول: ما دامت (التقوىٰ) تشكّل أحد وجهي البِطانة فإنّ عملية التذكير بتجارب الماضين، لتُعدّ ـ من الوجهة النفسية كما لمحّ النص بذلك ـ ترسيخاً لظاهرة (التقوىٰ) وتثبيتها في الأذهان.

ولقد أردف النص ذلك، برسم الركن الآخر من العملية، من البطانة التي تغلّف رسم المؤمنين والخبرة الإسلامية، ونعني به (الصبر)، أردف (التقوىٰ) بظاهرة (الصبر)، مُطالباً المؤمنين بها، مُنمياً بذلك دلالة هاتين الظاهرتين.

وقد استخدم النص في رسم ظاهرة (الصبر) صياغة غير مباشرة، فقدم بديلاً موضوعياً لها يتمثل في المطالبة التالية: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون**﴾.

فبدلاً من أن يُطالب بالصبر، رَسَم مُعادلاً موضوعياً له، هو: عدم الوهن والحزن.

هنا، تابع النصُ عملية الإنماء العضوي للمواقف السابقة، تابعها بصياغة ذات منحىً نفسي في استجابة المتلقي حيالها.

وهذا المنحىٰ النفسي يتمثل في تخفيف أو إزاحة التوتّر الذي تركته ذيول معركة (أحد)، حيث استخدم النص عنصر (التذكير) بالألم الذي أصاب المشركين عبر هزيمتهم في معركة (بدر).

ومن البيّن، أنّ الشخصية ـ وهي متوترةٌ نتيجة جرح في معركة ـ سيخفّ أو سيُزاح توتّرها إذا ذُكِّرت بجرحٍ مماثلٍ أو أشدّ، واجهه عدوّها.

وهذا ما استخدمه النص القرآني الكريم حينما قرّر ما يلي:

﴿إن يمسسكم قَرْحٌ فقد مسّ القومَ قَرْحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء...﴾.

***

إنّ الإنماء العضوي في هذا الموقف الجديد، يتمثّل في تقديم النص بدائل موضوعية، وفي تجارب نفسية للمتلقي، بغية بلورة ظاهرتي (التقوىٰ) و(الصبر) ورسمهما في نكهة جديدة تساهم في تعميقهما، مع طرح جديدٍ لمفردات الظاهرة.

وهذا ما ذيّل به النص عملية التذكير بالقَرْح الذي أصاب الملتوين، فيما قرّر بهذه العبارة: **﴿ويتّخذ منكم شهداء﴾**.

قرّر بها، مبدأ خطيراً كلَّ الخطورة في تجربة المهمّة العبادية للكائن الإنساني، ألا وهو: مبدأ (الشهادة).

من هنا، تابع النص عملية التواشج العضوي الذي وصل الرسم من خلاله إلى تقرير مبدأ (الشهادة)، تابعه ببلورة مفهوم (الشهادة)، حيث بلورها النص علىٰ النحو التالي:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾.

إن النص ربط بين الجزاء الأخروي ـ الجنة ـ (والمواقف السابقة ملأى برسم المصير المذكور كما هو واضح)، ربط بينها وبين (الجهاد)، إحدىٰ قمم المهمة العبادية ـ الخلافة على الأرض ـ، وبين ظاهرة (الصبر)، الظاهرة التي تشكل مع زميلتها (التقوىٰ)، البطانة الفكرية للمقطع الأخير من السورة. كما أوضحناه مفصلاً.

ولقد استخدم النص منحىً نفسياً جديداً في تحفيز المتلقي، وإضفاء القناعة بالظاهرة المستهدفة، حينما رسم عملية تذكير أخرىٰ، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت قبل أن تلقوه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾.

وتقول النصوص المفسّرة، إنّ هذا التذكير يخص أولئك الذين تمنّوا أن يواجهوا الشهادة في معركة بدر نظراً لما تنطوي الشهادة عليه من وعدٍ بالمصير الأخروي.

وقد ذكّرهم النص بهذا التمنّي في غمرة مواجهتهم الحرب، وتسمّرهم عندها.

* * *

ولا نجدنا بحاجة إلى تذكر المتلقي بهذه المعمارية التي بُني الموقفُ الثالثُ عليها. فقد حفلت بقيمٍ فنيّة ونفسيّة بالغة الخطورة في عملية التواشج العضوي بين هذا الموقف وما تقدمه، وفي إثراء و تنوّع خطوط هذا التواشج العظيم. فلقد رأينا كيف أن ظاهرتي (التقوىٰ) و(الصبر) قد رُسمتا في هذا الموقف علىٰ نحو البديل الموضوعي غير المباشر، ولحظنا الإنماء لهما في تجارب جديدة، يقوم بعضها علىٰ طرح مفهومٍ جديد هو (الشهادة)، ويقوم بعضها الآخر علىٰ عنصر فنّي يستخدمه النص في هذا النطاق، ألا وهو: (التذكير) بالتجارب الماضية، ولحظنا كيف أن هذه التجارب يظل بعضها متصلاً باستجابات المتلقين، وبعضها بمصائر الملتوين ولحظنا كيف أن هذه المصائر، يتصل بعضها بالبائدين، وبعضها بذيول معركة (أُحد).

كل هذه المستويات من التجانس والتوازي في عمليات التذكير المتنوعة، مصحوبة بالمنحىٰ النفسي الذي يرسم النص معالم انعكاسه على المتلقّي، فضلاً عن الإنماء العضوي للمواقف السابقة، وطرح الجديد فيها، ثم وصلها جميعاً بعضها بالآخر، على النحو الذي وقفنا عليه، كلّ أولئك يتحسّسه

الدارس فنيّاً، فيما يقف منبهراً حيال هذه الجماليّة الفائقة، وهو يتلقّىٰ المواقف واحداً بعد الآخر، والجزئيات المنطوية عليها: في نسيجٍ يتشابكُ من عمليات التوازي والتوازن والتجانس والتلاحم.

* * *

على أيّة حالة، فإنّ الموقفَ الثالث، ينتهي بعملية التذكير بتمنّي (الشهادة)، ثم التذكير بالتسمّر عندها عبر سلسلة من عمليات (التذكير) الأخرىٰ، وقفنا عندها مفصلاً.

يواجهنا الآن الموقف الرابع من النص.

ولقد لحظنا المواقف الثلاثة السابقة، وكانت حائمة علىٰ رسم سمات المؤمنين، ومعالم الخبرة الإسلامية بعامة.

وكانت معركة (بدر) و(أحد) بخاصة، مادةً تتحركُ الموضوعات خلالها، ناثرة «جملة» من الظواهر التي اتخذت كلاً من (التقوى) و(الصبر) بطانةً فكرية لها، فيما انتهىٰ الموقف الأخير منها إلىٰ طرح ظاهرة (الجهاد) من خلال البطانة المذكورة.

وحين نتجه إلىٰ الموقف الرابع، نلحظ أنّ (الجهاد) وبلورة دلالته، يتّخذ مجال الرسم في هذا الموقف.

وقد استُهلّ الموقف بذيول معركة (أحد) توثيقاً لوشائج الصلة العضوية بين المواقف.

وتقول بعض النصوص المفسّرة أنّه قد أُرجف بأن النبيّ(ص) قد قُتِل في (أحد) فيما ترتّب على ذلك انشطار في استجابات الجمهور حيال الحدث المُرجفِ به: من بقاءٍ علىٰ الاستقامة في السلوك ومن ارتداد عن الدعوة... الخ، والآية التالية تُحدد الاستجابات المذكورة:

﴿وما محمّد إلّا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم علىٰ أعقابكم. . .﴾ [آل عمران ١٤٤].

وأيّاً كان الصائب من التفسير، فإن النص يعقّب على الحدث بقوله **﴿فلن يضر الله شيئاً﴾** [آل عمران ١٤٤].

ومعلومٌ أنّ هذا التعقيب يظل امتداداً عضوياً لما سبقه من التعقيب في المواقف السابقة من أن الالتواء لن يضرّ الرسالة الإسلامية والمؤمنين بها.

وقد أردف النص ذلك، بما يلي:

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً. . .﴾ [آل عمران ١٤٥]. ومن البيّن أن رسم النص لهذه الظاهرة يظل بلورةً لدلالة (الجهاد) وموقع الاستشهاد منه، فيما يعتزم النص تقرير حقيقة العمر الإنساني وتحديد السماء له أمداً معيّناً لا يخترقه أيّ حَدثٍ، وفيما يظلّ الاستشهاد إفصاحاً عن ذرىٰ الإيجابية في اختيار الأجل المحدّد.

وفي ضوء تحديد الأجل وموقع الاستشهاد منه، يتّجه النص إلىٰ رسم ظاهرة جديدة هي:

﴿وكأيّن من نبيّ قاتل معه ربيُّون كثيرٌ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ [آل عمران ١٤٦ ـ ١٤٧].

هذه النصوص واضحة الصلة كلّ الوضوح ـ من الوجهة الفنيّة ـ بالمواقف المتقدمة، بل وبعصب السورة أكملها، فيما يحسن بالمتلقي أن يرتدّ بذاكرته إلى بداية السورة التي أجملت رسم المؤمنين، وألمحت إلى موقعهم من معركة بدر، بل إلى ملمحهم بعامة فيما كانت هتافاتهم بالمغفرة، وتثبت

الأقدام، والانتصار على الكافرين، تشكّل حواراً أوضحنا دلالته في حينه، كما أوضحنا صلته فنيّاً بما لحقته من مواقف أوضحناها في حينه أيضاً. هنا تمتدّ وشائجُ الصلة وتتشابك فنياً لتَمُدَّ عصبَ السورة بوحدةٍ فكرية تجمع بين جزئياتها من جهة عامة، وتجمع بين محتويات القسم الأخير من السورة من جهة خاصة.

فظاهرة (الصبر) مثلاً، لحظناها وقد شكّلت واحداً من البطانة الفكرية في القسم الأخير من السورة.

وظاهرة المطالبة بعدم الضعف والحزن والوهن، شكّلت جزءً من هذا القسم أيضاً.

وهاتان الظاهرتان، وما سبقتهما، قد رسمت من جديدٍ في هذا الموقف، حيث صيغ لها سياقٌ جديدٌ يتمثّل في التذكير بظاهرة الأنبياء الذين طالما قاتلت معهم جماهير ذات أعداد هائلة دونما أن يصيبهم وهن وضعف واستكانة.

ومن الواضح فنيّاً، أنّ هذا التذكير يساهم في بلورة دلالة (الجهاد) وتثبيت مشروعيته في الأذهان.

ومن الواضح أيضاً أنّ رسمَ مثل هذا العنصر، إنما يُصاغ في نطاق المواقف المتأرجحة التي يحياها البعض، فيما ألمح النص إليها عبْر الإرجاف بموت النبيّ(ص).

وإحكاماً للتواشج العضوي، نجد النص يردف الرسم المذكور، برسم مواقف مقبلة خاضعة للوقوع في أحد طرفي الصراع: الإيمان والارتداد حيث يجيء الرسم مُلوّحاً بالخسار للمرتدّ، وبالرباح للمتماسِك، مُذكّراً من جديد وقوف السماء لصالح الأخير، وإلقاءها الرعب في الأول.

ولنقرآ الآيات:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم، فتنقبلوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب. . .﴾ [آل عمران ١٤٩ ـ ١٥١].

هنا، بعد أن يصل النصُ فنيّاً ـ من خلال النظرية ـ بين الجهاد وبين المواقف المُترقّبة، . . . يتجه ـ من خلال التطبيق ـ إلىٰ الوصل بينهما جديداً، حيث يرتدّ إلى معركة (أحد)، واشجاً بين شرائح الزمن الذي قطّعه النص إلى شرائح نفسية يفصّل كلاً منها في موقف جديدٍ يتطلّبه السياق.

وهكذا تجيء (معركة أحد) مفصلة شرائح زمنية، ينهض النص ـ في هذا الموقف ـ برسم تفصيلات جديدة من المعركة تتوافق والسياق الجديد: ألا وهو: الجهاد ووحدة الكلمة أو الانشطار حياله وهو: السياق الذي قلنا أنّ النص قد حذّر الجمهور منه، وألمح إلى ارتداد البعض منهم عند الإرجاف بموت النبي(ص):

أقول: هذا السياق، سيُصاغ من خلاله رسمٌ لتفصيلات الأحداث والمواقف التي واكبت معركة (أحد) فيما يقف القارىء عندها على مزيدٍ من الأسرار الفنية في بناء هذا الموقف الحكائي أو القصصي.

ولنقرأ الآيات:

﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتىٰ إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون منكم مَن يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليَكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضلٍ على المؤمنين * إذ تصعدون ولا تلوون على أَحَدٍ والرسول يدعوكم في أُخراكم فأثابكم غماً بغمٍ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون * ثم أنزل

عليكم من بعد الغمّ أَمَنَةً نعاساً يغشىٰ طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمّتهم أنفُسهم يظنّون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيءٍ قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتليَ الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور * إن الذين تولّوا منكم يوم التقىٰ الجمعان، إنما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾ [آل عمران ١٥٢ ـ ١٥٥].

هذه النصوص، من حيث البناء المعماري لها، تنطوي على تفصيلات جديدة من الحدث والموقف، لم يرسمها النص في المواقف الثلاثة التي تقدمت من السورة، بل رسم النصُّ هناك أحداثاً ومواقف، متميزةً عما رسمه هنا في الموقف الرابع.

لقد رَسَم النصُّ تفصيلاتٍ جديدة متصلة بذيول معركة (أُحُد)، تحدّدت في سياق (الجهاد) وانشطار الكلمة مقابلاً لوحدة الكلمة التي يُطالب النصُّ بها في الجهاد وفي سائر أنماط السلوك.

إنّ معركة (أُحد) ـ في النطاقات السابقة ـ رسمت بادىء ذي بدء عبر عملية (فشلٍ) همّت به طائفتان: الطائفة التي اقترحت البقاء داخل المدينة، والطائفة التي اقترحت الخروج منها، فيما خُتمت عملية الفشل بنصرة السماء.

ثم رُسمت عبر المطالبة بالصبر، والتقوىٰ، والإمداد بالملائكة، ورُسمت في سياق المطالبة بعدم الوهن والحزن عبر المقارنة بين الجراح التي أصابت طرفي الصراع: الإيمان والكفر. ورُسمت في نطاق المواجهة العملية، والتلكؤ حيال تلك المواجهة عبر التذكير بتمنّي مثل هذه المواجهة خلال معركة (بدر).

هذه الأنماط الأربعة من الرسم لملامح معركة (أحد) قد صيغت ـ كما

هو بيّنٌ ـ في نطاقات مختلفة، تتميّز عن النطاق الجديد الذي نهض به الموقف الذي نحن في صدد دراسته.

هناك في النطاقات السابقة: تذكير ببدء المعركة وتخطي الفشل، ووعدٌ بالإمداد الملائكي في حالة الالتزام بالتقوىٰ والصبر، وتذكيرٌ بالتقابل بين الجراح، وتذكيرٌ بالتلكؤ حيال الاستمرارية في الجهاد. أمّا هنا، فإن النطاق ليتميّز في رسمٍ جديد حائمٍ على التذكير بعنصر النصر في المعركة ذاتها ـ وليس في معركة بدر كما هو سياق الرسم السابق ـ ثم مقابلة العنصر بالانخذال أيضاً عبر التنازع والانشطار والمعصية. بكلمة أخرىٰ: إنّ النص رسم تفصيلات جديدة عن أحد تتمثّل في المقارنة بين النصر والفشل في معركة واحدة، كان النصرُ يواكبها في البداية، ثم كان الفشل يواكبها عند وقوع الانشطار.

وهذا يعني أنّ الرسم في الموقف الجديد، صيغ في سياق وحدة الكلمة التي يطالب النصُ بها في هذا الموقف، وفي سياق الرسم لظاهرة (الجهاد) وبلورة دلالته التي تمّ رسمُ أبعادٍ منه في جزئيات سابقة.

والمهم، أنّ التقابل بين النصر والفشل في معركة أحد يحدده الرسمُ التالي:

﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه﴾ وهذا هو عنصر النصر.

وأمّا عنصر الفشل، فيتمثله الرسم التالي، المباشر لما تقدم:

﴿حتىٰ إذا فشلتم، وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة ... ولقد عفا عنكم...﴾.

هذا التقابل بين عنصري النصر والفشل، أردفه النص ـ تحقيقاً لعملية التجانس الفني والنفسي ـ برسم ملامح نمطين من الشخوص يتقابلان

بدورهما: النمط الدنيوي، والنمط الأخروي ثم خَتَم الرسم بظاهرة (العفو) عن المفارقة التي أفرزها الدنيويون من الشخوص.

* * *

وحين نتابع جزئيات الوقف، نلحظ استمرارية الرسم للحدث المذكور (معركة أحد)، والدخول في تفصيل ملامح الفشل الذي واكب الحدث بعد أن أجمله النص في الجزئية المتقدمة.

وتتمثل التفصيلات في رسم عملية الذهاب إلى وادي أُحُد فراراً من المعركة، فيما كان النبي(ص) يناديهم بالرجوع، على نحو ما تحدده الفقرات التالية:

﴿إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم...﴾.

وعلى نحو ما تفصّله النصوص المفسّرة، فيما ألمحنا إلى بعض تفصيلاتها في مواقع سابقة.

ويهمنا مما سبق، أن نتابع رسم تفصيلات الحديث، بما يواكبها من تعقيبات النص على ذلك، وما يتخلّلها من رسمٍ لمواقف بعض الشخوص: إذ أنّ كلاً من التعقيب، ورسم الموقف، هو الذي يحدد طبيعة السياق الذي صيغ الموقفُ الجديد من خلاله.

* * *

إن التعقيب، ورسم الموقف، يتحدد في الجزئيات التالية من أحداث المعركة ومواقفها:

أ ـ ﴿فأثابكم غماً بغمٍ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾.

ب ـ ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمَنةً نعاساً يغشىٰ طائفة منكم وطائفة قد أهمَّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق...﴾.

جـ ـ ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرَز الذين كُتب عليهم القتلُ إلى مضاجعهم﴾.

د ـ ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليُمحّص ما في قلوبكم﴾.

هـ ـ ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقىٰ الجمعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ما كَسَبُوا﴾.

و ـ ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾.

إن هذه التفصيلات للموقف والحَدَث، تتلخص في أنّ(العفو) يظل وراء كل تجربةٍ ذات مفارقة، فالفرار من المعركة متمثلاً في بعض الشخوص الذين تركوا مواقعهم في الجبل، قد (عفت) السماء عنه، وجعلته جرحاً مكان جرح، جرح الهزيمة قبال الألم الذي أصاب النبيّ(ص) في عصيانهم إيّاه.

ومن هنا طالب النص بعدم الحزن علىٰ ما فات من الهزيمة، بقدر ما ينبغي أن يتجسّد في حُزن المخالفة لأوامر الرسول(ص).

كما أن أولئك النفر الذين فرّوا من المعركة ـ وقد استزلّهم الشيطان ـ قد(عفت) السماءُ عنهم أيضاً.

وإذن، (العفو) أحد المعطيات التي رسمها النص في هذا الموقف، جسّده بهذا النحو: إزاحةً للتوترات الناجمة من المفارقة، وتحفيزاً للسلوك الجديد الذي طالب به النص، وحذّر من الاستمرار في المفارقة، وهو ما تمّ رسمه في صدر هذا الموقف عندما حظر إطاعة الملتوين، وأنهم سيردونهم على أعقابهم فيما لو خالفوا ذلك.

هذا (العفو)، يتساوق وعملية (التحفيز) التي لحظناها أيضاً في صدر هذا الموقف، فيما قرّر النص بأنه سيلقي الرعب في قلوب الملتوين:

وإذن، للمرة الجديدة، يظل (العفو) ظاهرةً تلقي إنارتها على الموقف

في عملية صياغة الإنسان الجديد بعد سلسلة الإحباطات التي واجهت بعض الشخوص، والمفارقات التي انطووا عليها.

ولقد رسم النص حدثين أو موقفين لكلٍ من المؤمنين وما يقابلهم من ذوي المفارقات، مؤكداً بهذا الرسم نصرة السماء للنمط الأول من الشخوص، امتداداً لمفهوم النصرة الذي تخلّل جزئيات النص السابقة كما لحظنا، إذ رسم ظاهرة (النعاس) الذي غشي المؤمنين، مُزيحاً بذلك توتّراتهم، مُهيّئاً لهم فرصة للراحة، في حين أنّ المنافقين قد فقدوا الراحة والطمأنينة وعاشوا في أزمات وتوتّرات تفرضها طبيعة الخوف من عدوهم: المؤمنين.

يقابل هذه النصرة، رسمٌ لذوي المفارقات الذين تعللوا بعدم النصر، وتمسكوا بما لحظوه من الانتصار الزائف أو العابر أو الدنيوي للمشركين، فيما ردّ النصُ عليهم بإجابةٍ سبق أن رُسِمت في جزئيات النص السابقة، وجاءت مكررةً هنا، في السياق الجديد الذي تحدّثنا عنه (سباق الجهاد ووحدة الكلمة) ألا وهي: أن القتل أو الموت بعامة يظل محكوماً بالأجل، لنتذكر الآية التي تقدّمت في صدر الحقل عن الكتاب المؤجل للنفوس، والتواشج العضوي، أو لنقل: الإنماء العضوي لظاهرة (الأجل) التي أُنميت في هذا الموقف الجديد خلال العودة إلىٰ المسوغات والتعليلات التي يقدّمها ذوو المفارقة: هروباً من الجهاد.

من هنا، كان ختام الموقف، يرسم سلوك أولئك الذين فرّوا من المعركة **﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقىٰ الجمعان... الخ﴾** مؤكداً بهذا الرسم: التواشج والإنماء العضويين في صياغة الموقف فقد رسم الملتوين وقد تعلّلوا ببعض الأعذار، ثم تقدم بالردّ عليهم، وأخيراً (عفا) عنهم **﴿ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم﴾**.

هذه المستويات من رسم المسوّغ لذوي المفارقات، ثمّ الرد عليهم بما

يتساوق والمواقف السابقة ثم العفو عنهم يظل تتويجاً عضوياً لجزئيات الموقف التي تجانست من جانبٍ مع بعضها الآخر، وتنامت، أي تطوّر بعضها إلىٰ نهايةٍ معيّنة من جانبٍ ثان، وتلاقت كل روافدها ـ من جانبٍ ثالث ـ عند ظاهرة (العفو) التي غلّفت الموقف، يواكبها ظاهرة (الجهاد) في نطاق وحدة الكلمة التي طالب بها النص.

أولئك جميعاً مستويات متنوعة من التلاحم العضوي في معمارية الموقف الرابع من النص، يتعيّن على المتلقي ألّا يغيب عنها عبر استجابته لنص فني خطير، يرسم له معالم الخُبرة الإسلامية.

الموقف الخامس من النص، يظل امتداداً عضوياً للموقفين اللذين سبقاه في معالجة ظاهرة (الجهاد).

لقد كان (الجهاد) من خلال (وحدة الكلمة) هو الطابع الذي رسَمَ ذينك الموقفين: مع ملاحظة أنّ (العفو) عن المتخاذلين، وكان موضع تشدّد في الرسم المذكور، كما لحظنا.

هنا يرسم النص مستوياتٍ جديدةً، يصلها أيضاً ـ في نهاية المطاف بذيول معركة (أحد) و(بدر) ـ المعركة التي تظل ذيولها منسحبةً على المقطع الأخير من سورة آل عمران: في شتىٰ مواقفه التي لحظناها، وفيما سنلحظها في بقايا السورة، مشكّلةً بذلك رافداً فكرياً يصل بين جزئيات المقطع.

ولنقرأ النصوص أولاً: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم والله يُحيي ويُميت والله بما تعملون بصير * ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون**﴾. [آل عمران: ١٥٦ ـ ١٥٧].

ينبغي ألا يغيب من بالنا استهلال الرسم لظاهرة الجهاد، إنما كان برسم

التساؤل التالي:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة... الخ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

هذا الرسم الذي لحظناه في موقفٍ أسبق، يصوغه النص هنا في نطاقٍ جديد قائمٍ علىٰ طرحه لظاهرتين يصل بينهما وبين الجزاء الأخروي: الجنّة.

الأولىٰ: ظاهرة نفسية تتمثل في (الحسرة) الدنيوية التي ستُصيب الملتوين وهم يعون أنّ المؤمنين قد حققوا أكثر من مكسب مادي (الغنيمة)، ومكسب معنويّ (النصر)، بعد أن كانت أعماق الملتوين تهتف أمام المؤمنين بهذه الصرخة: ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا﴾.

ولكنّ النص القرآني الكريم أجاب على هتافهم المذكور بما يلي: ﴿ليجعل الله ذلك حسرةً في قلوبهم﴾.

إنّ النص رسَمَ هنا موازنةً بين موقف الملتوين، وبين الحصيلة التي انتهىٰ المؤمنون إليها، وهي حصيلة (المغنم) و(الحياة) أي: غنائم الحرب، وعدم الموت.

وهاتان الحصيلتان ـ من خلال المنطق النفسي ـ تضادّان التوقّع الذي افترضه الملتوون، وحَمَلهم علىٰ تبسيط عزم المؤمنين في التوجّه نحو ساحات القتال.

وطبيعيٌ أن الملتوين ـ وهم معنيّون بمتاع الحياة العابر ـ سوف يستجيبون لظاهرة الغنم والحياة ـ على عكس ما أرجفوا به ـ استجابةَ (الحسرة) لهذه النتيجة، مما تُضاعف الحسرةُ من توتّراتهم الداخلية وتضخّم حجم المَرَض لديهم.

وينبغي ـ تبعاً لما تقدّم ـ أن يُدرك المُتلقّي بوضوح قيمة هذا المنحىٰ النفسي من الصياغة القرآنية، حيث أنهىٰ الملتوين نفسياً، وطَرَحَهم بلا إشباع،

لكل حاجاتهم المريضة التي سعوا من خلالها إلىٰ وأد حركة (الجهاد)، فيما كانت الحصيلةُ معكوسةً تماماً، إنّها (حسرة) كم يبدو ضخماً، حجمها المَرَضيّ الذي دَأَبَ النص ـ من خلال جزئيات السورة بأكلمها ـ علىٰ إبرازه في أعراض شتىٰ تتصل بالحقد والحسد والعدوان وما إليها من السمات التي لحظهاالمتلقّيفي جزئيات السورة.

* * *

قبال هذا المنحىٰ النفسي الذي رسمه النص حيال الملتوين، تقدّم النص برسم استجابة المؤمنين حيال (المتاع العابر)، حيث زهّدهم فيه، وأوضح بجلاء ـ من خلال الفقرة التالية ـ انتفاء أهميته بالقياس إلى المعطىٰ الأخروي: الجنة.

﴿ولئن قُتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خيرٌ مما يجمعون﴾.

إن إشارة النص إلى (خير مما يجمعون) تنطوي علىٰ دلالة نفسية بالغة الخطورة في عملية البناء المعماري لهذه الشريحة من النص.

فالنص، يضخّم من حجم المتاع الدنيوي في نَظَر الملتوين، ويخفّفه في نظر المؤمنين، مع ملاحظة أن التخفيف أو انتفاء قيمته أساساً هو وجهة نظر السماء. بيد أنّ النص يختط هذا المسار ليُعامل كلاً من نمطي الشخصية بقدر استجابته الخيّرة أو الشريرة. يتعامل مع الملتوين من خلال طبيعة نظرتهم ذاتها، فيجعل (المتاع الدنيوي) حسرةً في قلوبهم عبر مشاهدتهم المؤمنين وقد ظفروا بالغنم.

ويتعامل مع المؤمنين من خلال نظرة السماء ذاتَها للمتاع المذكور، حيث يجعله عديم القيمة بالقياس إلى قيمة العطاء الأخروي.

إنه يقوم بتوازنٍ هندسي بين طَرفَي المعادلة، حين يجعل المتاع (حسرةً) عند أحد الطرفين، ويجعله ضئيل القيمة أو عديمها عند الطرف الآخر في صراعهما المذكور.

* * *

وعلى أية حال، فنحن إذا تجاوزنا الشريحة المتقدمة وتابعنا شرائح الموقف، وَاجَهنا النصُ التالي:

﴿فبما رحمةٍ من الله لِنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكل على الله...﴾ [آل عمران: ١٥٩]. هذه الآية تجيء عقيب الموازنة التي تقدم الحديث عنها.

وفي البدء، ينبغي أن نُذكّر المتلقّي ـ ونحن حريصون علىٰ توضيح التواصل الفني بين شرائح النص ـ بأن الموقف الأسبق كان حائماً على ظاهرة (عفو) السماء، حيث رسم النصُ (العفو) بِطانةً تخللت عدة شرائح من الموقف كما لحظنا.

هنا، فإنّ الإنماء العضوي، ليتبدّىٰ أمامنا بوضوح، حينما نجد أن ظاهرة (العفو) عند السماء، قد (أُنميت) عُضوياً، وتطوّرت إلى مطالبة (بشرية) بالعفو، متجسدة في سلوك النبي(ص) بصفته مضطلعاً برسالة السماء المتحدثة عن (العفو).

إنّ التطور أو النموّ العضوي، يتمثّل في الارتداد والرسم نحو عملية الهروب من مواقع القتال التي رسمها النبي(ص) في معركة (أُحد)، فيما كان المسوغ للهروب هو: البحث عن المتاع الدنيوي العابر: غنائم الحرب.

ولا حاجة بنا، إلىٰ لفت نظر المتلقي للرابطة العضوية بين هذه الشريحة

وما تقدمتها من الصياغة المتصلة برسم المغنم ومعادلته بين الملتوي والمؤمن، فإنّ الصلة لواضحة في هذا الصدد، فضلاً عن الصلة بين المواقف المتقدمة والموقف الحالي.

كما ينبغي ـ في نهاية المطاف ـ لفت نظر المتلقّي، إلىٰ أن المطالبة بالعفو جاءت في سياق الحديث عن التعامل الأخلاقي عند الشخصية الإسلامية (اللين والمرونة) مشفوعةً بظاهرتين هما: التشاور والتصميم.

ولا يخفىٰ، أنّ هذه المستويات من التعامل، تظل علىٰ صلةٍ بمناخ الجهاد، وما يتطلّبه من حشدٍ كميٍ ونوعيّ، تسهم (المرونةُ) في توفيره، و(التشاوُر)، في التحضير إليه، و(العزمُ)، في تيسير تنفيذه... فضلاً عن أن (العفو) وهو البطانة العامة للموقف، هو الذي يتكفّل بتهيئة الحشد المذكور.

لقد لحظنا، كيف أنّ النص رسَمَ الموازنة بين الملتوين والمؤمنين، في صياغته لدافعية (المتاع) الدنيوي: حيث أنهاهُ (حسرةً) عند النمط الأول، وزهّد بقيمته عند النمط الآخر.

ولحظنا أيضاً كيف أن النص في موازنته المعمارية المذكورة، قد رسم ملامح الشخوص الملتوية وهي تحاول حجز الجمهور من التوجه نحو ساحة القتال، في حين رسَمَ قبالها ـ علىٰ نحوٍ متوازنٍ معمارياً شخوص المؤمنين وهم (يحشّدون) عدداً أكبر، ونوعاً أشدّ وعياً حينما طالبَ النص بالعفو، والمرونة، والتشاور، والعزم. هذه الأنماط الأربعةُ من السلوك، تشكّل ـ من حيث البناء الهندسي، أي البناء الفني لهذه الشريحة من النص ـ تُشكّل إجابةً فنيةً علىٰ سلوك الملتوين ـ فالملتوون يبذلون شتىٰ المساعي من الإرجاف بأنّ الموت سوف لن يجابه الجمهور لو قعَدَ عن القتال. هذا النمط من النشاط الملتوي، رَسَمَ النصُ حيالَه، نشاطاً مضاداً بهدم الأبنية الواهية التي حاول الملتوون إقامَتها، حيث رَسَمَ العفو عن المتخاذلين، والمرونة حيالهم،

والتشاور معهم، ثم (العزم) على القتال.

كل أولئك، يتعيّن على المتلقّي أن يضعه في ذهنه، حتى يقف على طبيعة البناء المعماري للنص الذي صاغ مثل هذه الموازنة، وهي موازنةٌ لا تقوم على الرسم المباشر ـ بل علىٰ الرسم غير المباشر، على تقديم سلسلة من أنماط النشاط تشكّل بمجموعها إجابةً علىٰ نشاطٍ مضاد يحاول هدم ظاهرة الجهاد، في حين تُفصح السلسلة الإيجابية (عفو، مرونة، مشاورة، عزم) تُفصح هذه السلسلة بنحوٍ غير مباشر عن أنّ النشاط المضادّ سيفقد فاعليّته عند توفّر السلسلة المذكورة.

* * *

تأسيساً علىٰ ما تقدم، يتابع النص تقديم أنماط أخرىٰ من السلوك الملتوي، من المحاولات البائسة، في غمرة رسم (المتاع الدنيوي ـ الغنائم) وطبيعة استجابة كلٍ من المؤمنين والملتوين حياله على النحو الذي تقدمت الإشارةُ إليه، حيث يتقدم النص برسم ارجافٍ جديد يحاول النيل من شخصية النبي(ص)، وهي شخصية مهّد لها النص عضوياً بإكسابها أعلىٰ سمات الأخلاق، ثم أردف ذلك بإرجافٍ يحاول النيل من تلك الشخصية خلال تهمة تتصل بالغنائم ومحاولة الاستئثار بها.

﴿وما كان لنبيّ أن يغلّ... الخ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وواضحٌ ـ من الوجهة الفنية ـ أنّ النص رسَمَ هنا نمطاً آخر من الموازنة الهندسية بين طَرَفي الصراع، وقدّم إجابةً ضمنية تمثل الرد على التهمة.

والإجابة من حيث البعد الزمني (وهذا واحدٌ من أنماط العبارة الفنية) تقدمت على التهمة، بكلمةٍ أخرىٰ: النصُ رسم شخصية النبي(ص) في آية متقدمة في أعلى سمات الأخلاق، ثم رَسَم تهمة الملتوين بعد ذلك، حيث يُفصح مثلُ هذا الرسم عن نمطٍ آخر من العبارة الفنية في صياغة الحقائق.

ومع ذلك، فإن النص أردف الرسم المذكور، بصياغة عامة لشخصية النبي(ص) تتجاوز السمات التي حددتها مفردات معينة من السلوك مثل اللين والمرونة ونحوهما، تتجاوزها إلىٰ سمة عامة، تحمل طابع (الرسول) إلى الآخرين.

ومعلوم، أن طابع (الرسول) يردم كل تهمةٍ بائسةٍ تحاول النيل من الشخصية، حيث تنقل مثلُ هذه الشخصية رسالة السماء إلى الأدميين، تتلو عليهم آيات السماء وتزكيهم وتعلّمهم الكتاب والحكمة. وهذا ما حددته الآية التالية:

﴿لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتٰب والحكمة... ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وإذن، بهذا النمط من الرسم، نكونُ قد وقفنا علىٰ طبيعة الموازنة الهندسية التي صاغها النصُّ القرآني في رسمه لسمات الملتوين، واستجابة المؤمنين حيالها في خضمّ النشاط المتصل بالجهاد.

* * *

هنا، يتقدّم النص برسم موقفٍ جديد ألا وهو: الموقف السادس، فيما يمثّل طرحاً آخر للظواهر المتصلة بذيول معركة (أُحُد) و(بدر).

ولقد كرّرنا التلميح إلى أن أصداء المعركتين المذكورتين، تظل تتردّد في جزئيات القسم الأخير من سورة آل عمران.

وفي المواقف الخمسة التي تقدم الحديث عنها، لحظنا كيف أنّ كل موقفٍ منها كان يختص بشطرٍ معيّنٍ من الأصداء حيث تصاغ في سياقات متنوعة.

وها نحن الآن نلحظ النص، وقد عاد إلى (أُحد) في سياقٍ جديد، يجدر

بنا أن نقرأ نصوصه أوّلاً: ﴿أوَلمّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مثلَيها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير * وما أصابكم يوم التقىٰ الجمعان فبإذن الله، وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذٍ أقربُ منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين * و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهُم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم مِنْ خَلفِهِمْ الّا خوفٌ عليهم و لا هم يحزنون﴾ [آل‌عمران: ١٦٥ ـ ١٧٠].

هذه النصوص ترسُمُ ظواهرَ سبق أن أخذت موقعاً سابقاً من الرسم لها، إلاّ أنّها هنا صيغت في نطاق جديد، سواء أكان هذا النطاق يتصل بذيول المعركتين، أو بحصيلتهما وموقع دلالة (الشهادة) من ذلك.

ففيما يتصل بالمعركتين، فإنّ النطاق الجديد لرسمهما يتمثّل في أنّ النص ـ وهو يلقي تبعة الهزيمة في (أُحُد) علىٰ مفارقات المُقاتلين ـ يتقدم بطرح نمط آخر من المفارقات لم يرد في الرسم السابق الذي تناول ذلك.

فقد لحظنا مثلاً أنّ تَرْكَ الموقع في الجبل، ومخالفة أوامر النبيّ(ص) في ذلك، كان يُشكّل واحداً من المفارقات التي تمّت الإشارةُ إليها في مواقع سابقة.

هنا ـ حسب النصوص المفسرة ـ يومىء البعض منها إلى أنّ المفارقة تمّت في (بدر) لا في (أُحُد) حيث اختير الفداء من الأسرىٰ بدلاً من القتل.

وحتىٰ مع افتراض صحة التفسير الذاهب إلى (أحد) فإن البعض من المأثور المفسِّر يحدده من مخالفتهم للنبيّ في الخروج من المدينة حيث دعاهم إلىٰ التحصّن بها. وحتىٰ أيضاً مع افتراض صحة التفسير الذاهب إلى المخالفة

المتمثلة في ترك الموقع في الجبل. أقول: حتىٰ مع صحة الافتراضات المذكورة، فإن جدّة السياق تتمثل في أنّ الجمهور هو الذي يتساءل، لا أنّ السماء هي التي تقرر الحكم منذ البداية كما هو شأن الرسم الذي تقدم في المواقف السابقة.

فلقد تساءل هؤلاء بقولهم:

﴿أنّىٰ هذا﴾ أي: أصابتنا الهزيمةُ ونحن مسلمون؟! حيث أجابتهم السماء: ﴿هو من عند أنفسكم﴾.

وإذن، السياق الجديد للطرح، يتمثّل في عملية تساؤل، تستدعي الإجابة.

أما الشريحة الأخرىٰ المتصلة بذيول المعركة، في قوله تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقىٰ الجمعان. . . الخ﴾.

فإنّ السياق الجديد فيها، يتمثل في طرح سلوكٍ جديد تماماً، لم تعرض لها المواقف السابقة، ألا وهو: تعلّل المنافقين ـ في هروبهم من المعركة ـ بقولهم ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾. .

ففي هذه الجزئية يرسم النصُ بعداً جديداً من أحداث المعركة ومواقفها متمثلاً في السلوك المنافق المذكور.

وهكذا، نجد أنّ النص في رسمه الأحداثَ القصصيّة يتوسل بالزمن النفسي، بدلاً من تسلسله الوجودي، مقتطعاً شرائحه على نحوٍ يفصّلها في الموقع القصصي الملائم لها، محققاً بذلك للمتلقي إمتاعاً جمالياً ونفسياً في صياغة الحدث بنحوه المذكور، وهو نحوٌ لحظناه في المواقف الخمسة التي تناولت أحداث (بدر) و(أُحُد)، حيث قطّعها النص، ووصل بينها وبين الزمان النفسي للمتلقّي.

في متابعتنا للموقف السادس من النص، نجد أن الشريحة الثالثة التي صيغت عبر الحديث عن معركة (أُحُد)، تتمثّل في قول المنافقين لإخوانهم لو أنّ الآخرين قعدوا عن القتال مثلهم، وأطاعوهم في النصح بعدم الذهاب إلى المعركة، لَما قُتلوا حينئذٍ.

وواضحٌ، أن النص في موقفٍ متقدم، رسم مثل هذا الموقف، لكنّه أردف ذلك برسم (الحسرة) في قلوبهم، حيث أبرز النص الجانب الإيجابي من المعركة، متمثلاً في (الغنيمة) وفي (الحياة). أما هنا، فإن (السياق) لَمُتميزٌ كل التميّز عن السياق المتقدم: سواء أكان ذلك من حيث حصيلة المعركة أو من حيث تعقيب السماء على ذلك.

فمن حيث حصيلة المعركة، فقد كان نطاق الرسم في موقفٍ متقدم هو: إبراز التشفّي في سلوكهم من خلال قولهم: (لو كانوا عندنا ما ماتوا) ثم ردم هذا التشفي مباشرةً، بإبراز جانب الغنيمة والحياة بدلاً من الموت، ثم تحوّل (التشفّي) إلى (حسرة)، أي: إلى إحساس مضاد.

أما هنا، فإن حصيلة المعركة، لم يُبرز النص جانبَها الدنيوي الذي لحظناه في الموقف المتقدم (الغنيمة والحياة) بل أبرز نفس الحصيلة (الموت ـ الشهادة) لكنّه ـ من حيث التعقيب ـ ردَمَ إحساس (التشفي) بعنصر مماثل لذلك الإحساس ألا وهو (الموت) ذاتُه للمنافقين، حيث طالبهم بإبعاد الموت عن أنفسهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وبيّن، أنّ هذه الإجابة تمسح أية بقايا من الممكن أن يحتفظ المنافق بانفعالها المسَرّ في أعماقه، ما دام النص يذكّره بالحقيقة المرّة التي لا يحب أن يواجهها، أو أن يفكّر بها، ألا وهي: الموت.

والمهم، ـ وهذا ما نودّ أن نُشدّد عليه ـ أنّ الرسم تَمّ هنا في نطاق

جديد، تماماً كما لحظناه في سائر الشرائح التي انطوىٰ عليها الموقفُ السادس من السورة.

* * *

وتبقىٰ الشريحة الأخيرة من الموقف، وهي (الشهادة) محكومة بالطابع ذاته من الجدّة في الرسم، حيث تمّت في سياقٍ جديدٍ متميّز عن السياقين اللذين رُسمت (الشهادةُ) من خلالهما في جزئيتين سابقتين.

ففي الجزئية الأولىٰ رُسمت (الشهادة) في طابعها المطلق من حيث الحصيلة النهائية لها متمثلة في الظفر بالجنّة **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾** [آل عمران: ١٤٢].

وفي حينه أوضحنا أنّ النص كان في سياق التحدث عن ظاهرة (التقوىٰ) و(الصبر)، وهما ظاهرتان شكّلتا بطانةً داخلية لمواقف سابقة شرحناها مفصلاً، فكان رسمُ (الشهادة) حائماً علىٰ ظاهرة (الصبر)، أي في سياق الحديث عن (الصبر) ومعطياته، ومن خلال تلك الظاهرة مهّد النصُ لرسم ظاهرة (الجهاد) بالنحو الذي أوضحناه في حينه.

وأمّا الجزئية الثانية التي تم رسم الشهادة فيها وحصيلتها (أي: الجنة) فكانت متمثلةً في سياق المقارنة بين المتاع الدنيوي الذي شكّل (حسرةً) في أعماق المنافقين وهم يشاهدون المؤمنين قد غلّفهم المغنم والحياة، وبين تزهيد المؤمنين بذلك المتاع، حيث ألمح النص إلىٰ أن (الجنة) خير مما أكسبه المنافقون من متاع الدنيا.

وإذن، كلٌ من الرسمين المتقدمين لظاهرة (الشهادة) وحصيلتيها (الجنة) قد تمّ في سياقين مختلفين.

هنا، في الشريحة الثالثة التي رُسِمَت الشهادةُ من خلالها، يجيء الرسمُ

أيضاً في سياق جديد، يتوافق وما لحظناه من الشرائح التي تقدّمت عليه في الموقف السادس. فقد رَسَمَ النصُ ـ كما رأينا ـ مقولةَ المنافقين لإخوانهم (لو أطاعونا ما قُتلوا) عبر التشفّي من شهادة المؤمنين، وعبر الردّ عليهم بإبعاد الموت عنهم لو كانوا صادقين.

فقد تمّ الرسمُ هنا بتقرير حقيقة بالغة الخطورة تتناسب وطبيعة الرد علىٰ الإحساس الذي غلّف أولئك المُتشفّين، حيث أوضح أولاً أنهم (أحياء) وليسوا أمواتاً كما تصورهم المنافقون.

وهذا هو الردّ الأول فيما يُفصح عن معطىً نفسيّ يتوافق وحَجم التشفّي ـ وهو مشفوعٌ عادة بخُبرةٍ مُسرّة عند المرضىٰ المنافقين ـ بيد أن هذه الاستجابة أو الانفعال المُسَر لديهم، سيواكبه انفعال مؤلمٌ دون أدنىٰ شك، حينما يُجابهون بحقيقةٍ تقول لهم: أنّ الموتىٰ هم (أحياء)، وحينئذٍ ينتفي موضوع (التشفّي) أساساً.

أكثر من ذلك، فإن الظاهرة لا تقف عند انطفاء التشفّي، بل يصحبها إذكاءٌ لخبرة مؤلمة جديدة ألا وهي: المصير المُبهج لأولئك الشهداء.

وقد رسَمَ النصُ فعلاً ملامح ذلك المصير، فشدّد علىٰ رَسْمِ ظاهرة (الفرح) لديهم: ﴿فرحين بما آتاهم الله﴾ [آل عمران: ١٧٠].

ولم يكتف النص بإبراز ظاهرة (الفرح) التي ستولّد (حسرةً) طويلة المدىٰ عند (المنافقين) وهم يُواجهون بحقيقة المصير الإيجابي للشهداء، بل أردف ذلك برسم ظاهرة أخرىٰ تنطوي علىٰ معطىً فنيّ ونفسي خطير كل الخطورة، ألا وهي:

﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم مِن خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [آل عمران: ١٧٠].

إنّ خطورة الرسم لظاهرة الاستبشار، يمكننا أن نتحسسها فنياً، حينما ندرك طبيعة المنحىٰ النفسي الذي سيستجيب له المتلقي في مواجهته لهذه الصورة التي قدّمها النصُ القرآني الكريم.

فالمُتلقّي مُدرِكٌ بأنّ المنافقين، سيُجابَهون من أوّل خطوة، بخُبرة مؤلمةٍ هي (أنّ الموتىٰ المؤمنين ليسوا موتىٰ حقاً بل هم أحياء).

ثم تضاعف خبرتهم المؤلمة حينما يُجابهون بحقيقة (الفرح) الذي قد غَمَر الشهداء فهم ليسوا (أحياء) فحسب، بل يحيون (الفرح أيضاً).

هنا، يبدأ المتلقِي، فيتحسّس من الناحية الفنيّة أنّه من الممكن أن يُشكك المنافقون في الإقرار بالحقيقة المتقدمة.

أو يمكننا، أن نذهب إلىٰ أنّ النص يبدأ بطريقة نفسيّة بالغة التأثير، تتمثّل في تعميق الانفعال المؤلم عند المنافقين، أو تعميق القناعة لديهم بحقيقة الإحياء والفرح.

أو يمكننا حتّى الذهاب إلى أنّ النص حينما يقرّر بأن الشهداء ﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا﴾، فإنه بهذا التقرير يعمّق من القناعة بأنّ عملية (الشهادة) أمرٌ مفروغٌ من حصيلتها المعطاء، حتىٰ أنهم ينتظرون لحاق الباقين بهم.

وبكلمة أخرىٰ، فإن النص بهذا النمط ـ من حيث التأثير النفسي على المتلقي ـ لم يكتفِ بالردّ علىٰ حقيقةٍ ماضية قد انتهت فاعليتها بانتهاء حفنة من الشهداء، بل يتجاوز ذلك إلى تحفيز الآخرين الذين لم يلحقوا بالشهداء بعد، يدعوهم إلى الالتحاق بقافلة الشهداء تحقيقاً للفرح الذي يحدثهم به شهداءُ الماضي.

وإذن، مثلُ هذا الرد على المنافقين، يردم كل محاولاتهم البائسة،

ويقتلعها من الجذر، حينما لا يكتفي بمسح انفعالاتهم المسرّة التي تمتّعوا بها قليلاً غبّ رؤيتهم (موتىٰ المؤمنين) وكأنهم مجرد موتىٰ فارقوا متع الحياة، بل مَسَح كل إمكانات الإشباع لديهم، حينما قطع عليهم السبيل في التغرير بالآخرين، عبر رسمه (الآخرين) وقد أُخبروا بأن (الفَرَح) ينتظرهم من خلال (الشهادة)، والمُخبرون هم (الشهداءُ) أنفُسُهم، أي: هم الذين مارسوا تجربة (الفرح).

وبيّنٌ ـ من الوجهة الفنية ـ أن التجريب يترك آثاراً بالغة المدىٰ عند المتلقي، بنحوٍ أشد فاعليةً من مجرد الإخبار بالفرح.

يواجهنا الموقف السابع من النص، وقد حام على ذيول معركة (أُحُد) أيضاً.

إلاّ أنّ هذا الموقف يُمحضه النص لرسم معلمٍ من معالم الانتصار، يصل النصُ بينه وبين المواقف السابقة من خلال التقابل بين معارك الهزيمة فيما تنجم بسببٍ من أنفسهم، كما أشار إلى ذلك: الموقفُ السادسُ من النص ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وبين معارك النصر، فيما نجم عن السلوك الإيجابي حيال الرسالة وقائدها النبي(ص).

والآيات التالية، تفصح عن الحقيقة المذكورة:

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح، للذين أحسنوا منهم واتّقوا أجرٌ عظيم * الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل لم يمسسهم سوء. . الخ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤].

هذه النصوص، ترسم لنا بوضوح ذيول معركة (أحد) فيما أصاب (القرحُ) جمهورَ المسلمين. وقد أعقب ذلك أنّ المشركين ـ فيما تقول بعضُ النصوص المفسّرة ـ جعلوا العام القابل موعداً بينهم وبين المسلمين، وفيما

تقول بعض النصوص الأخرىٰ، إن المشركين ندموا علىٰ تركهم المسلمين وعدم استئصالهم.

وأيّاً كان، فإن المسلمين استجابوا لدعوة النبيّ(ص) حينما بلَغَه خَبَر المشركين، أو حينما أطلّ الموعد، ودعا المسلمين إلى قتالهم، فاستجابوا له بالرغم من جراحاتهم من جانب، وبالرغم من تضخيم حجم العدوّ أمام أعينهم من جانبٍ آخر.

ونتيجة لهذه الاستجابة، كانت السماء تمدّ يد العون للمسلمين، فيما صَرَفت المشركين عن التوجّه إلى القتال.

والمهمّ أنّ رسم هذا الحَدَث الجديد، يجيء خاتمةً للمواقف التي نهضت برسم معركة(أحد) بخاصة، ورسم المعارك بعامة، فيما كان النص يُخلّل أحداث المعركة ومواقفها، في كل شريحةٍ من شرائح النص ـ في مواقفه السبعة: راسماً في كل موقف جملةً من الظواهر تتصل بالتقوىٰ، وبالصبر، وبالجهاد، وبالعفو، وبظواهر أخرىٰ وقفنا مفصلاً عليها.

* * *

ولا يغيب عن بالنا، أنّ هذه المواقف السبعة التي انتهىٰ الرسمُ بها عند (الحَدَث) الأخير: حَدَث (الانتصار)، إنما تشكّل القسم الأخير من سورة آل عمران. فيما يواجهنا آخر موقفٍ فيها، ألا وهو الموقف الثامن الذي تنتهي السورةُ به.

وقبل أن نتحدث عن الموقف الأخير، يجدر بنا أن نذكّر المتلقي بالبناء الهندسي للسورة، والموقع العضوي لهذا الموقف الأخير، من البناء المذكور.

فالسورة ـ مثلما لحظنا ـ تظل حائمةً على رسم سلوك الكتابيين حيث كان القسم الأول منها، مركّزاً علىٰ صياغة سلوكهم، كما أن القسم الثاني من

السورة (وهو العنصر القصصي) قد وُظّف ـ كما لحظنا ـ لإنارة القسم الأول. وأخيراً، فإن القسم الثالث من السورة، كان منصباً علىٰ الكتابيّين أيضاً، ومن خلال شتىٰ العلاقات بينهم وبين المؤمنين. فقد كانت المقاطع الثلاثة الأولىٰ حائمةً على الرسم المذكور. بينا تمخّض المقطع الرابع بمواقفه الثمانية التي انتهينا تواً منها، تمخّض لرسم الخبرة الإسلامية ـ وهي مستهدفةٌ كما أوضحنا ـ أي: تشكّل هدفَ الرسم لكل موضوعات السورة.

وفي ضوء هذا، فإن الموقف الأخير من السورة، سيتحدّد: في تقديمه حصيلة نهائية لكل أشكال الرسم في أجزاء السورة.

فما هي هذه الحصيلة؟

* * *

في البدء، يرسم النص عملية الاتجاه نحو السماء أو الأرض، مطالباً بالاتجاه نحو الأول، مبيناً أنّ الاتجاه نحو الأرض مجسّداً في الشيطان، إنما ينحصر في أولئك الذين يتعاملون مع دوافعهم الذاتية، إنّهم (أولياء الشيطان) يخوفهم من الجهاد، من ممارسة السلوك الخيّر. وحريٌّ بالمؤمنين أن يخافوا الله، وأن يتعاملوا مع دوافعهم الموضوعية، أي: وفق مبادىء السماء.

يتّجه النص بعد ذلك، إلى التقليل من خطورة أولئك الذين يسارعون إلى الكفر، مُشدّداً على أنهم لن يضروا الله شيئاً.

هنا ينبغي أن يتذكر المتلقّي، أن المواقف السابقة قد شدّدت على ظاهرة انتفاء الخطورة عند الشخوص السلبية بدءً من الكتابيين الذين حملوا معهم أمراضهم وإفرازاتها المتنوعة من بغضاء وأنانية، متمثلة في تمنّيهم الأذى للآخرين، وعضّهم الأنامل من الغيظ... الخ، وانتهاءً بالملتوين: منافقين ومشركين، في تثبيطهم الآخرين عن الجهاد، وتشفّيهم من الشهداء... الخ،

فيما كانت تعقيبات السماء على مواقفهم تؤكد بأنهم لن يضروا الله، ولن يضروا المؤمنين. . . الخ.

ويتابع النص، رسم هذه الظاهرة، مؤكداً أنّ المتاع الدنيوي الذي يخلّفهم، لن يُفصح عن أنّ ذلك خيرٌ لهم، بل ليزدادوا إثماً.

ويُنهي النص هذه الشريحة بحرص السماء علىٰ تمييز الخبيث من الطيّب، مؤكداً على الإيمان والتقوىٰ في نهاية المطاف.

وبيّن أنّ أشكال الرسم المتقدمة، طرحت مفهوماً يتلخص في أن السلوك السلبي لن يطال ضرره بأحد، وأنّ الاتجاه نحو السماء هو الفرز الحقّ في هذا الميدان.

وهذا المفهوم، تركه النص مفتوحاً من حيث المصير الذي سيغلّف الملتوين: تحقيقاً للتجانس الذي لحظنا شتىٰ خطوطه التي بدأت منذ أوائل السورة، متأرجحة، تتعامل مع الكتابين وسواهم تعاملاً لم يُنهِهِمْ أساساً، كما لم يُنهِ مواقفهم إلى الإيجاب، بل جعل المصائر مفتوحة تتواسق وطبيعة الرسم الذي يطرح شتىٰ المواقف بغية إحداث التأثير على المتلقي، حيث تجيء النهاية إما ركوباً للالتواء، أو اتجاهاً نحو السماء.

يتّجه النص بعد ذلك، إلى رسم ظاهرة تتصل بالانفاق **﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة. . . * لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء. . .﴾** [آل عمران: ١٨٠ ـ ١٨١].

إن رسم هذه الظاهرة، يظل على صلة بالمتاع الدنيوي الذي عقّبت السماء عليه في الشريحة السابقة.

والنصُ هنا، يرتدّ بنا فنياً إلى مواقف سابقة من السورة واصلاً بين

أجزائها، مقدّماً نموذجين من سلوك الكتابيين، أحدهما يتصل بالبخل فيما لا حاجة إلى إعادة الكلام فيه، بعد أن بيّنا في حينه صلة البخل بالعصاب وبالمرض الذي يغلّف الشخصيّة الكتابية.

وأما النموذج الآخر، فهو بدوره امتدادٌ للكشف عن (سذاجة) الفكر الكتابي (اليهودي منه بخاصة) فيما نقل النص في المواقف السابقة نماذج من (السذاجة الفكريّة) التي تغلّفهم من نحو: أنّ النار لن تمسّهم ألا أياماً معدودة. . . الخ.

وها هو النص يقدم نموذجاً آخر من (السذاجة) لديهم، متمثّلاً في ذهابهم إلى أن السماء (فقيرة) حينما تقرّر (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) وأنهم تبعاً لواقعهم (أغنياء).

مثل هذه المحاكمة الفكرية، تنطوي على بُعدين أحدهما: السذاجة، والآخر: الالتواء، أي: تقوم على قطبي الجهل والمرض فهم يتخبطون في نسج المسوّغات لسلوكهم، فيما يفصح ذلك عن ظلمة أعماقهم وتوتراتها وصراعاتها، حتى لتدفعهم إلى التصور الساذج المذكور، ما دامت الظلمةُ والتوتر والصراع تقتاد بالضرورة إلى إفراز أمثلة المحاكمة المذكورة.

وقد رسم النص نموذجاً آخر من المحاجة ـ في نهاية المطاف ـ تتمثل في التعلل بأن الله عهد إليهم ألاّ يؤمنوا برسولٍ حتّى يأتيهم بقربان تأكله النار.

والمهم أن أمثلة هذه المحاجة والمحاكمة ونحوهما، مما ألقينا عليه الضوء مفصّلاً، لا نجدنا بحاجة إلى إعادة الكلام فيه، بقدر ما نعتزم الإشارة إلى المبنىٰ العضويّ لهذه الشريحة، حيث وَصَلَ النص بينها وبين الأجزاء السابقة من خلال الربط بين أنماط الملتوين: مشركين ومنافقين وكتابيين، في تماثل أساليبهم ـ على تنوعها ـ حيال رسالة الإسلام، فيما قدّم النصُ أيضاً إجاباتٍ متماثلة حيال أنماط سلوكهم المذكور.

يتجه النص في خاتمته التي تنتهي بها السورة، إلى رسم شريحتين: إحداهما، تظلّ امتداداً لرسم الكتابيّين الذين احتلّوا عصب السورة الموضوعي، واحتواهُم العنوان الذي حمل اسم السورة.

وأما الشريحة الأخرىٰ، فتظل إفرازاً فكرياً لما طرحته السورة في أجزائها أجمع، من ظواهر ـ كان رسمُ الكتابيين يُفضي بالضرورة ـ من الوجهة الفنية ـ إلى لفت نظرِ المتلقي نحو تلك الظواهر التي خُتِمتِ السورةُ بها.

إنّ الرسم لمواقف الكتابيّين، ينتهي النصُّ به إلى ربطٍ عضويٍ أشرنا إليه، من أنّه متمثل في التوحد بين المشركين و المنافقين و الكتابيين حيال رسالة السماء.

وهذا ما حدده النص بوضوح عبر الآية التالية:

﴿لتُبلونّ في أموالكم وأنفسكم ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً وأن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن البيّن أنّ التلاحم العضوي بين هذه الجزئية وما تقدّمها، تتمثل أولاً في التوحّد بين فئات الالتواء، وفي رسم طبيعة الاستجابة الصابرة المتقية حيالها.

ولعلّ المتلقي يتذكّر جيداً كيف أن المقطع الأخير من السورة، في شتىٰ مواقفه قد اتخذ من ظاهرتي(الصبر) و(التقوىٰ) بطانةً فكرية، تخلّلت جملةً من الظواهر المطروحة. .

والنص ـ في ختام السورة ـ يُلاحم عضوياً بين تلك البطانة الفكرية (الصبر والتقوىٰ) وبين طبيعة المُثير الملتوي الذي يوحّد بين فئات المشركين والكتابيين.

وكان آخر رسمٍ للكتابيين ـ وهم عصب السورة كما لحظنا ـ قد انتهىٰ بهم

إلى مصير سلبي، بعد أن تركهم مفتوحي المصائر طوال السورة.

ولنقرأ المصير:

﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيّننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم. . .﴾ [آل عمران: ١٨٧].

هنا، ينبغي أن نلفت نظر المتلقي إلى جملة من الأسرار الفنية لهذا المصير من حيث الرسم المعماري له.

فقد ارتدّ إلى أول السورة التي استهلت الحديث عن الكتابيين، فيما أشارت إلى التلاعب بكتبهم، وكتمان الحقائق. وبهذا الارتداد يكون النص قد جانس بين بداية السورة ونهايتها.

من جانبٍ ثانٍ، أغلق النص مصائر الكتابيين بعد أن جَعَلها طوال السورة، مفتوحة، متأرجحة. وبهذا الإغلاق يتم التجانس بين مصيرهم: خاتمة رسمهم وخاتمة النص.

من جانبٍ ثالث: أبقى النصُّ شريحة واحدة من سلوكهم، تتمثل في الآية التالية:

﴿لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا، ويُحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب. .﴾ [آل عمران: ١٨٨].

هذه الشريحة التي خُتِمَ بها رسمُ الكتابيين، تنطوي على تقديم خلاصة المصير الكتابي في طرفيه الدنيوي والأخروي. فقد كانت الحصيلة ـ في تصوّر السماء ـ سلسلةً من المفارقات، وكانت ـ في تصوّرهم ـ مجداً (يفرحون به ويحبون أن يُحمدوا عليه). هذا في بعده الدنيوي.

بيد أن النص أنهىٰ هذا الفرح حينما رسم المصير الأخروي، مُشدّداً على أنهم لن يكونوا بمفازةٍ من العذاب.

وبهذه الإجابة، يكون النص قد أبرز حصيلة دنيوية للكتابيين كانت وراء كل مفارقاتهم، ثم ألغاها تماماً حينما رسم النهاية الحقة لمصيرهم: الجزاء الأخروي.

إذن، هذه المستويات من توشيج الصلة، والنماءات العضوية لها، ينبغي أن نضعها في الاعتبار عبر حرصنا على توضيح البناء المعماري للسورة.

* * *

أخر جزئيةٍ من النص (سورة آل عمران)، تبدأ مع الآيات التالية: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار. . .الخ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وبينٌ، أنّ هذه الآيات، تشكل إنماءً عضوياً للهتافات التي لحظناها في بداية السورة وهي تعرض لسمات المؤمنين بنحو مجمل عبر مقارنتها بالملتوين. وتمتد أيضاً إلى هتافات الحواريين في القسم القصصي من السورة، وها هي تتضخم في القسم الأخير من السورة، ملخّصةً كل الخطوات المفضية إلى الخبرة الإسلامية، الخبرة التي قطع النص من خلالها مسافاتٍ متنوعةً وصلت بين الكتابيين والمنافقين والمشركين، وصلت بينهم من جانبٍ، وبين المؤمنين من جانب آخر، حتى انتهت إلى تقريرٍ من نحو: ﴿إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان. . . الخ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وهذه هي حصيلة الخبرة الإسلامية.

* * *

وبعدُ، فما ذا بقي من خاتمة النص؟

أولاً: إنهاء لحياة الكفر ﴿**لا يغرّنّك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاعٌ قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد**﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧].

ولا يغيب عن بالنا، إن هذا الإنهاء يجيء بعد غلق مصير الكتابيين كما رأينا. وهم ـ في الآن ذاته ـ داخلون في طابعه الملتوي.

ثانياً: رسم لمصير الإيجابيين: كتابيين ومؤمنين.

وإذا كنا قد لحظنا رسماً لمصير الكافرين بنمطيهم: الكتابي والمطلق، فثمة رسمٌ لمصير الإيجابيين بنمطيهم أيضاً: الكتابي والمؤمن.

بيد أننا لحظنا خلال وقوفنا على رسم الكتابيين، أنّ النص رسمهم طائفتين: إحداهما إيجابية، والأخرىٰ سلبية. وها هو الآن يحدد مصير كل منهما، حيث يتجه ـ بعد أن حدّد السلبيين ـ إلى الإيجابيين:

﴿**وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم...**﴾ [آل عمران: ١٩٩].

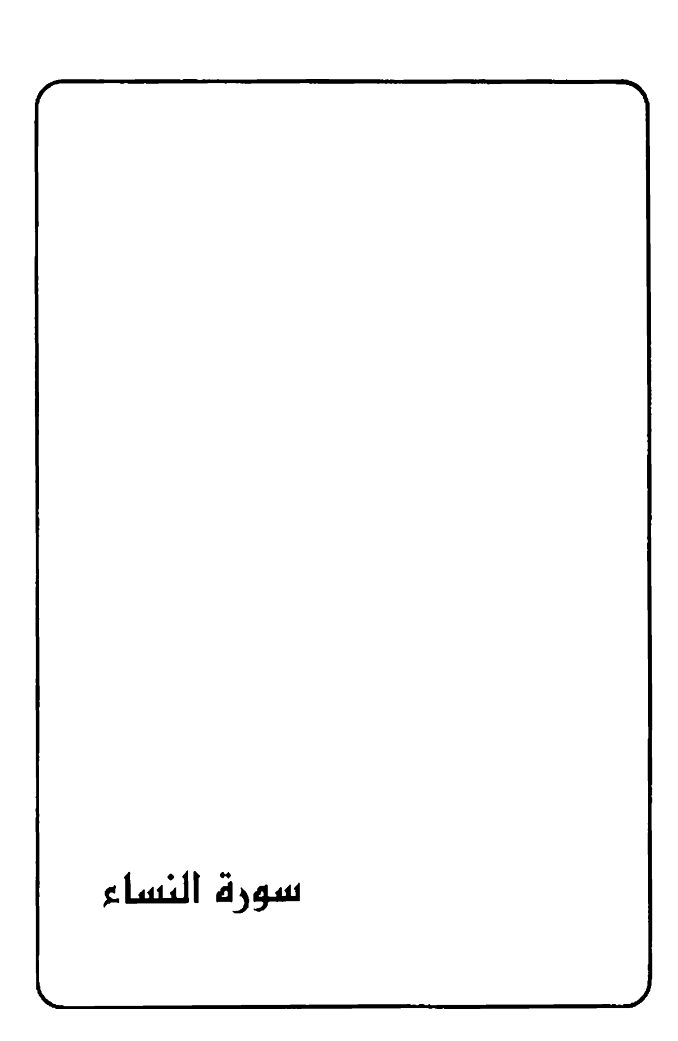
وأخيراً يجيء رسم مصير المؤمنين، بنحوٍ لا حاجة إلىٰ التعقيب عليه، بقدر ما ينبغي التلميح إلى المبنىٰ الهندسي الذي رسَمَ بنحوٍ متعاقب مصائر أربعة أنماط من الشخوص، مُجانساً بذلك بين ختام النص، وختام الحياة لأولئك الشخوص أي: مصائرهم.

* * *

آخر آية خُتمت بها السورة، هي الآية التالية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلّكم تفلحون**﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ولا حاجة بنا، إلى توضيح أنّ الآية تُجسّد معالم الخُبرة الإسلامية التي

اضطلعت مواقف السورة بها، بغية توصيلها إلى المتلقي، حيث أفضت إلى تحقيق طابع (الإيمان) أولاً، ثمّ شددّت على دلالة (الجهاد) بصفتها إحدىٰ قمم الخُبرة الإسلامية، مصحوبة بظاهرتي (الصبر) و(التقوىٰ) اللتين شكّلتا بطانة فكرية كانت تتخللان مواقف النص بالنحو الذي وقفنا عليه مفصّلًا.



سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربكُمُ الَّذي خَلَقكُم من نفسٍ واحدةٍ، وخَلَقَ مِنهَا زَوْجها وَبَثَّ منهُمَا رِجالاً كثيراً ونِساء واتَّقُوا الله الَّذي تَساءلون به والأَرحامَ إنَّ الله كان عَلَيكُم رقيبا﴾ [النساء: ١].

بهذه الآية التي تتحدث عن الميلاد البشري من خلال مفهوم (الأسرة) تُفتتَح سورة النساء، كما تُختتَم هذه السورة من خلال أحد متعلّقات الأسرة وهو (الإرث)، ثم تتوسّط السورة مفهوم (الإرث) أيضاً، مما يكشف ذلك عن أن هذه السورة (سورة النساء) تخضع لبناء هندسي خاص هو (الأسرة وقضاياها) ما دامت السورة كانت بدايتها ووسطها ونهايتها تحوم علىٰ (فكرة) واحدة. وخلال ذلك تُطرَح مفهومات متنوعة سنوضّح مدىٰ صلتها الفنية بهذا البناء في حينه. والمهم، أن نبدأ الآن بالحديث عن البناء الفني لهذه المقدّمة التي افتُتِحَت بها سورة النساء.

لقد طالبت المقدّمة باتقاء الله تعالى وربطت ذلك بكونه تعالى خلق آدم(ع) من نفس واحدة وخلق منها زوجها حواء (ع)، وأنشأ منهما الأسرة البشرية.

طالبت المقدمة باتّقاء الله تعالى أيضاً، لكن من خلال رَبْطِ ذلك بكونه تعالى نتقدم إليه بحوائجنا ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به و الأرحام﴾ ثم وصَلَ بين تساؤلنا بالله تعالى وبين الأرحام التي طالبنا بألا نقطعها من حيث كون الأرحام تحتل قيمة خاصة من موقع الأسرة الشاملة التي تتجاوز العلاقات من الدرجة

الأولىٰ إلىٰ درجاتها الأخرىٰ.

هنا لا بدّ أن نشير إلى أن (الأرحام) حينما أدخلها النصُ في سياق حديثه عن اتقاء الله وصلة ذلك بنشأة الأسرة البشرية، إنما تنطوي علىٰ وظيفة فنية مزدوجة، إحداهما هي: التركيز علىٰ أهمية (صلة الرحم) وإكسابها قيمة خاصة تكفّلت نصوص الحديث الشريف بتوضيحها والتشدّد فيها إلىٰ الدرجة التي تتصدّر كبائر الذنوب ممّن لا يعطي صلة الأرحام قدسيَّتها. وأمّا الوظيفة الفنية الأخرىٰ لمصطلح (الأرحام) التي أدرجها النص ضمن حديثه عن الأسرة البشرية، فتتمثّل في كونها تشكّل إرهاصاً بأفكار لاحقة يطرحها النص بعد ذلك كما سنرىٰ.

ثم نواجه مقطعاً جديداً هو: ﴿وآتُوا اليتامىٰ أموالَهُمْ ولا تَتَبَدَّلُوا الخبيثَ بالطيّبِ، ولا تَأكُلُوا أموالَهُمْ إلى أموالِكم إنه كان حوباً كبيراً...﴾ [النساء: ٢]. ففي هذا المقطع وما يليه: عرضٌ لقضية (اليُتم)، واليُتم هو فقدان الأب في مرحلة الطفولة، حيث يُعنىٰ المشرع بهذه الحالة التي يحياها الطفل عناية بالغة المدىٰ كما هو واضح.

لذلك أدرجها بعد مطالبته بتقوىٰ الله، وبصلة الأرحام، مع ملاحظة أن صلة الرحم والعناية باليتيم يخضعان لخيطٍ مشترك بينهما،هو موقعهما من خارطة العلاقات الأولية التي تبدأ بالأسرة في أوسع دلالاتها، فاليتيم حينما يرعاه الشخص يكون بمثابة أحد أفراد أسرته من حيث الاهتمام التربوي والعاطفي به.

والمهم أن النص بدأ حديثه عن اليتامىٰ من خلال أموالهم التي طَالَبَ النص بالمحافظة عليها إلىٰ حين بلوغ اليتامى رُشدهم والتصرّف بها في نطاق ما هو الواجب منه مثل إنفاقها علىٰ أصحابها اليتامىٰ أنفسهم.

ثم اتجه النصُ إلىٰ طرح قضايا أخرىٰ تتصل باليُتم أيضاً مفصّلاً الحديث

عمّا أجملته هذه المقدّمة، طارحاً قضايا متنوّعة تتصل بالحياة الزوجية، وبالإرث،وبسواهما من الموضوعات التي سنقف عليها لاحقاً.

لكن ما يعنينا من ذلك هو: الموقع الهندسي لهذه الظاهرة وصلة ذلك بعمارة السورة الكريمة التي بدأت بالحديث عن نشأة الأسرة البشرية، فالأرحام، فاليتامىٰ، وكلها تحوم علىٰ صعيد مشترك وعواطف مشتركة تصب في رافد محدد من أحد أشكال ما يسمّىٰ في اللغة الاجتماعية ـ بالعلاقات الأولية التي تجيء الأسرة والأرحام واليتامىٰ والذين يتعهدهم الشخصُ في مقدمة أشكالها. وهو أمر يفصح عن تلاحم هذه المقدمة من حيث صلة أجزائها بعضاً مع الآخر، ومن حيث صلة المقدمة بسائر مقاطع السورة.

قال تعالى: ﴿وإنْ خِفتُمْ ألا تُقْسِطُوا في اليتامىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم منَ النِّسَاءِ مَثْنىٰ وَثُلاثَ ورُبَاعَ فَإنْ خِفتُمْ ألا تَعْدِلُوا فواحدةً أو مَا ملكَتْ أيْمانُكُمْ ذَلِكَ أدْنَىٰ ألاّ تَعولُوا * وآتُوا النساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ منْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هنيئاً مريئاً * ولاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أمْوالكُم الَّتي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ [النساء: ٣ ـ ٥].

هذا المقطع يطرح ثلاث ظواهر تتصل بتعدّد الزوجات، وبعدم إعطاء المال للسفهاء، وذلك في نطاق الحديث عن اليتامىٰ وكيفية التعامل معهم، حيث طرحت السورةُ قضية اليتامىٰ في مقطع سابق. وتواصل في هذا المقطع وما بعده معالجة هذا الجانب أيضاً.

ونتساءل: ما هو السرّ الفني وراء هذا التداخل بين موضوع اليُتم وموضوعات الزواج والمهور والسفهاء؟ فالمقطع يقول: ﴿وإن خفتم ألّا تقسطوا في اليتامىٰ فانكحوا ما طابَ لكم من النساء مثنىٰ وثلاث ورباع... الخ﴾، كما أنه بعد ذلك يطرح قضية المهور ﴿وآتوا النساء صدُقاتهن نحلة﴾ ثم يطالب بعدم إعطاء المال للسفهاء.

في تصوّرنا، بما أن النص طَالبَ في مقطع سابق بأن يُعطوا اليتامىٰ أموالَهم ولا يتبدّلوا الخبيث بالطّيب ولا يأكلوا أموال اليتامىٰ إلى أموالهم، حينئذ فإن الرغبة في التزويج باليتيمة (وهي تحت تصرف وليّها) قد يقترن بالتجاوز علىٰ حقوقها بحيث يُخشىٰ من ذلك عدم تحقّق الإنصاف والعدل، ولذلك طالَبَ المقطعُ ـ في مثل هذه الحالة ـ بأن يتزوج الشخص سواها. وهنا ـ في غمرة الحديث عن التزويج ـ يطرح المقطع ظاهرةً مستقلة عن اليتم،وهي السماح بالأربع في قضية التزويج، وذلك في حالة الاطمئنان إلىٰ تحقق العدالة بينهنَّ. ومن الواضح أن العنصر الفنيّ المشترك بين قضية اليتم وقضية الزواج من الاثنين والثلاث والأربع، هو: تحقّق العدالة أو عدمها، فإذا خاف الإنسان ألاّ يقسط في اليتامىٰ فليتزوج سواهن، وإذا خاف ألا يعدل بين الإثنين أو الثلاث أو الأربع فليتزوج واحدة فحسب، وهذا يعني (من زاوية الفن) أن (اختلاف) الموضوعات يتم من خلال (وحدة) الهدف، وهو سمة النص الأدبي المُحكم الذي يحقق عنصر التباين من خلال الوحدة، والوحدة من خلال التباين.

وهذا من حيث صلة اليتامىٰ بقضية تعدد الزوجات.

لكن، ما هي صلة إيتاء النساء صدقاتهن نحلةً، باليتامىٰ؟ إن أدنىٰ تأمل يدلنا علىٰ أن النص قد قال بالنسبة إلى اليتامىٰ: ﴿وآتوا اليتامىٰ أموالهم...﴾ وهنا يقول بالنسبة إلىٰ الزواج: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ فالعنصر المشترك بينهما هو: المطالبة بإيتاء كل منهما حقه من المال (اليتيم يعطىٰ حقه من خلال المحافظة عليه، والمرأة يعطىٰ حقها من خلال المهر). إذاً، اختلاف الموضوعين قد تمّ من خلال (وحدة) الحق المالي.

والأمر نفسه بالنسبة إلى الموضوع الثالث الذي طرحه المقطع وهو قوله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها..

الخ﴾ [النساء: ٥]، حيث يمكن التساؤل عن علاقة اليُتم بالسفاهة؟ فنجيب: ثمة عنصر مشترك بين الموضوعين المختلفين، فكلاهما يتصل بالحق المالي، إلا أن أحدهما يضاد الآخر، فاليتيم تعطىٰ أمواله له، والسفيه لا تُعطىٰ له الأموال، يستوي في ذلك أن يكون يتيماً قد بلغ الرشد ولكنه سفيه لا يستطيع أن يتصرف بالمال بشكله السليم أو يكون غيره من الناس.

وقد فصّل النصُ هذا الجانب في مقطع جديد يقول فيه: ﴿وآبتلوا اليتامىٰ حتىٰ إذا بلغُوا النكاحَ فإنْ آنَسْتُم منهم رشداً فادفعُوا إليهم أموالَهُمْ... الخ﴾ [النساء: ٦]، حيث نستخلص بوضوح بأنّ اليتامىٰ إن لم يُؤنس منهم الرشد فلا تدفع الأموال إليهم.

إذا أمكننا (ونحن نتحدث عن عمارة السورة القرآنية الكريمة) أن نلحظ أوّلاً كيف أن الموضوعات المختلفة قد تجمعت في مصبٍ فكري واحد. ثانياً كيف أن الموضوعات تتنامىٰ عضوياً وكيف يتفرع أحدها من الآخر، حيث لحظنا كيف أن النص انتقل من الحديث عن اليتامىٰ إلى الحديث عن الزواج والمهور والسفهاء، وكيف رجع بعد ذلك من الحديث عن السفهاء الذين طالب بعدم إعطائهم المال، منتقلاً إلى الحديث عن اليتامىٰ الذين يعطون المال، في حالة عدم كونهم سفهاء، وهو أمرٌ يكشف لنا عن مدىٰ خطورة وأهمية وجمالية وإحكام النص القرآني الكريم من حيث تلاحم موضوعاته واحداً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿للرّجالِ نَصيبٌ مِمّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ وللنّساء نصيبٌ ممّا ترك الوالدانِ والأقرَبون مِمّا قلَّ منه أو كثُرَ نصنياً مفروضاً * وإذا حَضَرَ القِسْمَةَ أولُو القُربىٰ واليتامىٰ والمساكينُ فأرْزُقُوهُمْ منهُ وقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعروفاً * وَلْيَخْشَ الَّذين لو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذرِّيَةً ضِعافاً خافوا عَليهم فَلْيَتّقوا الله وَلْيقُولُوا قَوْلاً سديداً * إنَّ الَّذين يأكُلُونَ أموالَ اليَتامىٰ ظُلماً إنّما يأكُلُون في

بُطُونِهم ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعيراً﴾ [النساء: ٧ ـ ١٠].

هذا المقطع وما بعده يتحدث عن إحدىٰ القضايا المتعلقة بشؤون (الأسرة) التي استُهلّت سورةُ الأنعام بها، وهي ظاهرة (الإرث) وكيفية توزيع المال الذي يخلّفه الميّت.

لقد أوضح النصُ أوّلاً بأن للرجل والمرأة حقاً في الأموال التي يخلّفها الوالدان والأقربون. ويبدو (من الزاوية الفنية) أن النص استخدم عنصر (التكرار) حيث كان بالإمكان أن يُقال: للرجال والنساء نصيبٌ، لكنه كرّر الجملة ذاتها لكلٍ من الرجال والنساء فقال **﴿للرجالِ نصيبٌ مِمّا تَركَ الوالدانِ والأقْرَبُونَ﴾** ثم قال مكرّراً نفس الجملة بالنسبة للنساء **﴿ولِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدانِ والأقربونَ﴾** ونحتمل فنياً أن هذا التكرار له صلة بعادات الجاهلية الذين كانوا يورثُوْن الرجال دون النساء، فأكد من خلال التكرار الفنيّ بأن النساء يشاركن الرجال في الميراث: دحضاً لعادات الجاهليين.

بعد ذلك تقدم النصُ بأحد أحكام الإرث المندوبة، فأوضح بأنه إذا شهد قسمة الميراث أقرباءُ الميت: أيتامهم وفقراؤهم، فليُعطوا من التركة شيئاً.

إدخال اليتامىٰ في قضية الإرث المندوب يظل (من وجهة النظر الفنية) مرتبطاً بإحكام المبنىٰ الهندسي للسورة من حيث ترابط أجزائها بعضاً مع الآخر، لذلك عاد النص إلى الربط بين الإرث واليتامىٰ، فقال:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافاً خَافُوا عليهم، فلْيتَّقُوا اللهَ ولْيَقُولُوا قولاً سديداً * إنَّ الذِين يأكُلونَ أموالَ اليتامىٰ ظُلْماً إنّما يأكُلُون في بُطونِهِمْ ناراً وسَيَصْلون سعيراً﴾. إن النص يُشير ـ حسب بعض النصوص المفسّرة ـ إلى أنه ينبغي لمن حضرته الوفاة أن لا يوصي بما يجحف به حق الورثة حتىٰ لا يعانوا مرارة الفقر، وحسب النصوص المفسرة الأخرىٰ أن النص يشير إلىٰ وليّ أمر اليتيم مطالباً إيّاه بالقيام بحفظ أموال اليتيم بنحو ما يحرص

علىٰ ورثته الضعاف. ولكن في الحالين، فإن النص ينتقل بعد ذلك إلى قضية اليتامىٰ فيتحدث عن نتائج التعامل غير المشروع مع أموالهم حيث يتوعّد آكلي أموال اليتامىٰ بأنهم ﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾.

هذه الصورة الفنية، صورة (يأكلون في بطونهم ناراً) تنطوي علىٰ إثارة فنية ينبغي الوقوف عندها، ما دمنا ـ من جانبٍ ـ نُعنىٰ بإبراز القيم الفنية في النص القرآني،وما دمنا ـ من جانبٍ آخر ـ نُعنىٰ أساساً بعمارة السورة القرآنية، حيث وُظِّفت الصورة المشار إليها لتؤدي مهمة فنيّة بالنسبة لعمارة السورة كما سنرىٰ.

وأول ما ينبغي أن نبحث عنه في هذه الصورة ﴿يأكلون في بطونهم ناراً﴾ هو: هل أن الصورة ذات بُعد (رمزيّ) بحيث يكون أكلُ مالِ اليتيم سبباً لوقوع صاحبه في السعير وأنّ أكْلَ بطنِه للنار هو رمزٌ لاصطلائه في النار، أم أن هذه الصورة (واقعية) بحيث يتأجج فمُه ناراً بالفعل، كما ورد ذلك في بعض النصوص؟ أن كلاً من الاحتمالين مقبولٌ فنيّاً، بل إنّ الأهمية الفنية لهذه الصورة تتمثل في تعدّد إيحاءاتها التي ترشح بأكثر من تفسير. إنّ أكل النار ـ حتىٰ في شكله الواقعي ـ ينطوي علىٰ إثارة فنيّة مدهشة، طالما تظل الصلة بين أكل مال اليتيم وبين أكل النار هي: صلة تضادٍ بين الأكلين، أكلٍ دنيوي مقرون بإمتاعٍ عابر، وأكل للنار مقرون بأشدّ العذاب. بل حتىٰ صورة (الأكل) تظلّ ذات بُعدٍ فنّي مدهش، فالأكْل لمال اليتيم هو صورة فنية أي أنه رمزٌ للسرقة لأن المال لا يُؤكل بل يُسرق ويُغتصب، ولذلك جاء (الأكل) رمزاً فنياً بالنسبة لسرقة مال اليتيم، كما جاء (أكل النار) رمزاً فنياً بالنسبة لاصطلاء صاحبه في النار، وهذا النوع من تركيب الصورة الذي يزاوج بين الأكلين (أكل المال وأكل النار) مع أن كلاً منهما (رمزٌ) مستقل عن الآخر، ثم إخضاعهما لهذا التركيب المدهش، يظل واحداً من أشد صُور القرآن دهشة وإثارة

وانبهاراً، مضافاً إلى كون هذه الصورة قد وُظّفت فنياً لإنارة قضايا اليُتم التي خصّها النص القرآني بعناية ملحوظة كما رأينا، مما يفصح ذلك ـ مضافاً لما تقدم ـ عن مدىٰ إحكام النص من حيث تلاحم موضوعاته بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي تحدثنا عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿واللاتِي يأتِينَ الفَاحِشَةَ مِنْ نِسائكُمْ فاسْتَشهِدُوا عَلَيْهِنَّ أربعةً مِنكُم، فإنْ شَهِدُوا فأمْسِكُوهُنَّ في البُيُوتِ حتّى يَتَوفَّاهُنَّ الموتُ أو يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً * واللّذانِ يأتِيانِها مِنكُمْ فآذُوهُما فإنْ تَابَا وأصْلَحا فأعْرِضُوا عَنْهُمَا إنَّ الله كانَ توّاباً رحيماً﴾ [النساء: ١٥ ـ ١٦].

هذا النص يتحدث عن العمل الجنسي غير المشروع، وكان المقطع الذي سبقه يتحدث عن الإرث ونصابه ﴿يوصيكم الله في أولادِكم للذّكَرِ مِثْلُ حظِّ الأنثيين . . .الخ﴾ [النساء: ١١]، وأمّا المقطع الذي يعقبه فيتحدث عن التوبة فيقول ﴿إنّما التَّوْبةُ علىٰ الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُون السُّوءَ بجهالةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فأُولئِكَ يتوبُ اللهُ عليهم وكانَ اللهُ عَلِيماً حكيماً * وَلَيْسَتِ التوبةُ لِلَّذِين يَعْمَلُونَ السَّيئات حَتّىٰ إذا حَضَر أَحَدَهُم المَوْتُ قال إني تُبْتُ الآنَ ولا الذين يَمُوتُون وهُمْ كُفَّارٌ أوْلَئِكَ اعْتَدْنا لَهُمْ عَذَاباً أليماً﴾ [النساء: ١٧ ـ ١٨].

إن ما يعنينا من هذه المقاطع الثلاثة (المقطع الذي يتحدث عن الإرث، والمقطع الذي يتحدث عن الجزاء الذي يترتب علىٰ العمل الجنسي غير المشروع، والمقطع الذي يتحدث عن التوبة) يعنينا من هذه المقاطع موقعها الفنّي من عمارة السورة الكريمة ما دمنا أساساً نُعنىٰ في هذه الدراسات ببناء السورة وإحكامها الهندسي من حيث صلة أجزائها بعضاً مع الآخر. فسورة النساء ـ كما لاحظنا ـ قد افتتِحت بالحديث عن علاقة الرجل بالمرأة ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخَلَق منها زوجها وبث منهما

رجالاً كثيراً ونساءً. . . الخ﴾ حيث تواكب هذه العلاقة مجموعة من القضايا المتصلة بالزواج، وبالبناء العائلي، وبالإرث، وبالعلاقات المشروعة وغير المشروعة في ضوء المطالبة باتقاء الله تعالى.

إن هذه القضايا قد ارتبط بعضها مع الآخر وفق مبنىً هندسي أشرنا إليه في حينه. أما الآن فنتحدث عن المبنىٰ الهندسي الذي يربط بين موضوع العمل الجنسي غير المشروع وبين (التوبة) بصفتها ظاهرة ذات فاعلية كبيرة في تعديل السلوك البشري. لقد كان النص يتحدث عمن يمارس عملاً جنسياً غير مشروع ثم يتوب إلىٰ الله من عمله المشار إليه ﴿فإن تابا وأصْلَحا فأعرِضُوا عَنْهُما إنَّ الله كانَ تَوَّاباً رَحيماً﴾ فالنص يشير إلى التوبة من العمل الجنسي غير المشروع، ولكنه ينتقل ـ وفق منحىً فنيّ خاص ـ من الحديث عن التوبة الجنسية إلى مطلق التوبة، فيطرح مبادىء التوبة وحدودها على الشكل التالي:

١ ـ التوبة تصح ممّن يعمل السوء بجهالة. ٢ ـ التوبة تصحّ إذا تمّت بعد الذنب. ٣ ـ لا تصح التوبة ممّن يماطل منها بحيث إذا أحسّ بدنوّ الموت، فيتوب حينئذٍ. ٤ ـ لا تصح التوبة من الكافر.

إنّ هذه المبادىء المتصلة بالتوبة تحمل (من الزاوية النفسية من معطيات ودلالات متنوعة لها خطورتها في ميدان التعديل للسلوك، فأولاً لا سبيل إلىٰ قبول توبة الكافر، لأن الكافر أساساً لم يتعامل مع الله تعالى بل انعزل عنه فاستحق بذلك الجزاء السلبي المُعدّ له أخروياً. ثم لا توبة للفاسق الذي يصرّ على المعصية ويسوّف التوبة، حتىٰ إذا حضره الموت واستيأس من الحياة أعلن توبته.

والسرّ في ذلك أن مثل هذه الشخصية قد استنفذت غرضها من خلال الإشباع غير المشروع لشهواتها طيلة الحياة، فلم تمارس عملية تأجيل لشهواتها بل أصرّت على ذلك غير مباليةٍ بأوامر الله تعالى ونواهيه، وحينئذٍ عندما تتوب

عنه عند معاينة ذلك لدىٰ الموت، لا تُفصح مثلُ هذه التوبة عن رغبة صادقة بل تتمّ من أجل أنّ الشخص لا أمل له في الحياة حتى يعاود ممارسة شهواته. وهذا علىٰ العكس ممن يعلن توبته بعد مباشرته الذنب حيث يقلع عنه ويتجه إلى ممارسة العمل العبادي، أي أنه لا يزال يواجه نفس المثيرات التي استجاب لها ـ في لحظة من الضعف ـ بممارسة الذنب سابقاً، ولكنه ندم على ذلك فصمّم علىٰ وأد شهواته عبر مواجهته للمثيرات المختلفة. ومن الواضح أن هذا النمط من السلوك (أي: الندم على المعصية والعزم على تركها) يهب الشخصية قيمة كبيرة من حيث استتلاؤها تزكية النفس، ومن حيث عدم يأسها من عطاء الله تعالى عبر قبوله التوبة، مما يدفعها إلىٰ ممارسة المزيد من الطاعات.

وأيّاً كان، فإن ما يعنينا (بعد ملاحظة الأبعاد النفسية لمفهوم التوبة) أن نلفت النظر من جديد إلى الموقع الهندسي الذي احتلّه هذا المقطعُ عن التوبة: بالنسبة لعمارة السورة الكريمة التي طالبت مقدّمتها باتقاء الله تعالى ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم... الخ**﴾، والتوبةُ تُشكّل أحد أنواع الاتّقاء من الله تعالى كما هو واضحٌ، مما يعني أنها تجسّد إنماءً وتطوراً عضوياً لمفهوم الاتّقاء الذي استُهلت السورةُ به، فضلاً عن صلة التوبة بالمقطع الذي تحدث عن العمل الجنسي غير المشروع وبسائر مقاطع السورة مما يكشف ذلك جميعاً عن مدىٰ تلاحم المقاطع بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يَحِلُّ لكم أنْ تَرِثُوا النساء كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهُنّ لِتَذْهَبُوا ببعضِ ما آتيتُمُوهُنّ، إلّا أنْ يأتينَ بفاحِشَةٍ مُبيّنَةٍ وعاشِرُوهُنّ بالمَعروفِ فإنْ كَرِهْتُمُوهنّ فَعسىٰ أنْ تكرَهُوا شيئاً ويجعَلَ اللّهُ فيه خَيْراً كثيراً * وإنْ أرَدْتُم استبدال زَوْجٍ مكانَ زَوْجٍ وآتَيْتُمْ إحداهُنّ قِنْطاراً فلا تَأْخُذُوا منه شَيْئاً**

أتأخُذُونَهُ بُهْتاناً وإثماً مبينا * وكيفَ تأخُذُونَهُ وقد أفْضىٰ بعضُكم إلى بعضٍ وأخَذْنَ مِنكُم ميثاقاً غليظاً﴾ [النساء: ١٩ ـ ٢١].

في هذا المقطع طرحٌ جديد للتعامل مع المرأة التي شكّلت أحد المحاور الفكرية لسورة النساء. الطرحُ هنا يتصل بمن يحاول إلحاق الأذىٰ بالمرأة، كما لو كرهها حيث يستثمر هذه الكراهية من خلال حجزها حتىٰ تفتدي بما ساقه إليها من المهر أو ينتظر موتها ليرثها، وبالرغم من أن هذا التعامل المنهيّ عنه قد ارتبط ببعض سلوك الجاهليين، إلا أنه يرشح بدلالات عامة تخص مطلق الأشخاص الذين يستثمرون سيطرتهم علىٰ المرأة حيث يلحقون الضرر بها من خلال حجزها ومنعها من التزويج، في حالة كراهيتهم للمرأة. وقد طالب المقطعُ القرآنيُ الكريمُ الرجلَ بأن يعاشر المرأة بالمعروف حتىٰ في حالة كراهيته، موضّحاً بأن كراهيته للمرأة قد يقترن بما هو خيرٌ له ﴿فإنْ كَرِهْتُمُوهنَّ فعسىٰ أنْ تكرهُوا شيئاً ويجعَلَ الله فيه خيراً كثيراً﴾، وهذا يعني المطالبة بأن يتحمّل الرجلُ شدائد حياته الزوجية وألا يُسرعَ إلىٰ عملية طلاق إلا في حالة الضرورة التي لا مناص منها.

وحتىٰ في حالة الطلاق لا ينبغي أن يلحق بها أدنى ظلم ﴿وإن أردتم استبدال زوْجٍ مكانَ زوج وآتيتُم إحداهُنَّ قنطاراً فلا تأخُذُوا منه شيئاً أتأخذُونَهُ بُهتاناً وإثماً مبيناً﴾ ويُلاحَظ أن النص أطلق سمة (البهتان) علىٰ مَن يحاول أخذ شيءٍ من المال الذي وهبه للمرأة التي يعتزم تطليقها، مع أن (البهتان) سمة للتعبير اللفظي وليس سمة للتعامل المالي. وهذا يعني (من الزاوية الفنية) أن النص قد استخدم عنصر (الصورة الفنية) لتقرير هذه الحقيقة، بمعنىٰ أنه استخدم (الاستعارة)، حيث أكسب المال سمة شيء آخر فأطلق علىٰ مَن يأخذ مَا لا يستحقه، طابع (البهتان)، فكما أن الشخص الذي يوجّه تهمةً لا أصل لها إلى الطرف المقابل فيكون ذلك بهتاناً، كذلك حينما يأخذ الزوجُ من امرأته

التي يعتزم تطليقها، ما وهبها من مالٍ، يكون بذلك أيضاً قد مارس عملية (بهتان)، ولكنه بهتان مالي وليس بهتاناً لفظياً، بصفة أن مطالبته بما لا يحق من المال هو بهتانٌ على الحقوق المالية للمرأة.

* * *

ويواجهنا بعد ذلك مقطع جديدٌ من سورة النساء يرتبط أيضاً بقضايا الحياة الزوجية، لكن من خلال عرض ما هو محرمٌ من الزواج متمثلاً في الموارد التالية (مع حذف التفصيلات): امرأة الأب، الأم، البنت، الأخت، العمة، الخالة، بنت الأخ، بنت الأخت، الأم من الرضاعة، أم الزوجة، الربيبة (أي بنت المرأة من غير زوجها)، ممن يدخل بأمّها زوجة الابن، الجمع بين الأختين، المحصنة.

بعد ذلك، اتّجه النص إلىٰ تحديد ما هو محللٌ من الزواج مقابل ما هو محرّم منه، متمثلاً في الأنماط الثلاثة المعروفة، وهي: الزواج الدائم، الزواج المنقطع، زواج الإماء.

وقد عقّب النصُ ـ بعد تحديده لأشكال الزواج المحرم والمحلل ـ بقوله تعالى: ﴿يُريدُ الله لِيُبيّنَ لكُمْ ويَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الذين من قَبْلِكُمْ ويَتوبَ عليكُمْ واللّهُ عَليمٌ حكيمٌ * واللّهُ يريدُ أنْ يتُوبَ عليكُمْ ويُريدُ الذين يتّبعون الشّهَواتِ أنْ تميلُوا ميلاً عظيماً* يُريدُ اللّهُ أنْ يُخَفِّفَ عنكم وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

هذا النص يطرح قضية التوبة، مبيّناً ضعف الإنسان وتورّطه في المعصية مع ملاحظة أن التوبة هنا جاءت في سياق الحديث عن الدافع الجنسي وما يستتليه من السلوك الذي أوضح النصُ معالم تحليله وتحريمه في المقاطع التي تحدثت عن الزواج، إلا أن النص صاغ هذه الحقائق وفق لغة فنية بحيث

تتجاوز ما هو خاص بالتعامل الجنسي إلىٰ ما هو عام في مطلق السلوك البشري.

أخيراً، ينبغي ألا نغفل عن أن النص القرآني الكريم سبق أن تحدث عن مفهوم التوبة في جزء متقدم من هذه السورة عند حديثه عن التعامل الجنسي غير المشروع، وها هو الآن يطرح قضية التوبة أيضاً، لكن في سياق آخر هو: الزواج غير المشروع. وفي الحالتين كان النص القرآني الكريم ينتقل بمفهوم (التوبة) من دلالته الخاصة إلى دلالتها العامة وهو أمرٌ يكشف أوّلاً عن الأهمية الفنية لهذا النمط من صياغة الأفكار التي تجمع بين ما هو خاص وما هو عام، كما يكشف عن مدىٰ إحكام النص، من حيث كونه بمثابة عمارة فنيّة تتلاحم مقاطعها بعضاً مع الآخر.

* * *

قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنُوا لا تَأكُلُوا أموالَكُمْ بينكم بالباطلِ إلا أنْ تكونَ تجارةً عن تراضٍ منكم ولا تَقتُلُوا أنفسَكُمْ إنَّ الله كَان بكم رحيماً * ومَنْ يَفْعَلْ ذلك عُدْواناً وظُلْماً فسوفَ نُصْليه ناراً وكان ذلك علىٰ الله يسيراً * إنْ تَجْتَنِبُوا كبائرَ ما تُنْهَوْنَ عنه نكفِّرْ عنكم سيئاتِكُمْ ونُدْخِلْكُمْ مُدخلاً كريماً﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣١].

هذا المقطع يتحدث عن ظاهرتين هما: التعامل المالي والقتل، أمّا التعامل المالي فهو التجارةُ عن تراضٍ بين طرفي التعامل حيث نهىٰ النصُ القرآنيُ الكريمُ عن أكل الأموال بالباطل، وطالَبَ بأن يكون التعامل مع الأموال من خلال العمل التجاري.

وأمّا قتل النفس فقد حذّر منه النصُ قائلاً ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾.

بعد ذلك نواجه ظاهرة أخرىٰ يطرحها النصُ، وهي: اجتناب الكبائر،

أي المطالبة باجتناب كبائر الذنوب حتى تُكَفَّر عن الشخص سيئاته.

هذه الظواهر الثلاث: عدم أكل الأموال بالباطل، قتل النفس، اجتناب الكبائر، تبدو وكأنها موضوعات لا علاقة لأحدها بالآخر، كما تبدو وكأنها بمنأىً عن المحاور الفكرية التي تقوم عليها سورة النساء ونعني بها مقدمة السورة التي طرحت قضايا العلاقة بين الجنسين، وما يترتب عليها من البناء العائلي، وما يلحق به من ولاية اليتيم وارتباط ذلك بالتعامل المالي، ثم ما يلحق بالبناء العائلي من الإرث المالي... الخ. هذه الموضوعات التي أوضحنا في حينه خطوط الترابط فيما بينها: تظل هي الرافد الفكري الذي تصبّ فيه الموضوعات الجديدة في السورة، ومنها: المطالبة بعدم أكل الأموال بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض، والمطالبة بعدم قتل النفس، والمطالبة باجتناب الكبائر.

والآن، ما دُمنا نُعنىٰ - في هذه الدراسات - بعمارة السورة القرآنية الكريمة من حيث بناء موضوعاتها وصلة بعضها بالآخر، حينئذٍ يجدر بنا أن نتعرف الموقع العضوي الذي تحتله من السورة موضوعاتُ التجارة، وعدم قتل النفس، واجتناب الكبائر.

أمّا الموضوع الأوّل (عدم أكل الأموال بالباطل إلا أن تكون تجارة) فقد طرحه النص في مقدمة السورة أيضاً، الا أن ذلك كان في سياق الحديث عن أموال اليتيم، وأما في المقطع الجديد فقد جاء في سياق الحديث عن التجارة، وهذا يعني أن النص القرآني الكريم طرح موضوعين مختلفين ولكنهما يصبّان في رافد مشترك. ودائماً، فإن سمة الفنّ هي: طرح ما هو جديد في سياق ما هو مشتركٌ من الأهداف أو الأفكار.

وأمّا المطالبة بعدم قتل النفس فهي طرحٌ جديدٌ أيضاً، لكن ما هو الخط المشترك بين القتل وبين المحاور الفكرية للسورة! من الواضح أن النص

القرآني يستهدف إبراز الحقائق العبادية وتحديد مسؤوليتنا حيال ذلك، فإذا استهدف حقيقة جديدة وأراد التأكيد عليها، حينئذٍ يطرحها في سياق خاص حتىٰ لو كان بمنأىً عن الموضوع الذي وردت هذه الحقيقةُ في سياقه.

إن قتل النفس يرشح بأكثر من دلالة وإيحاء، فقد نستوحي منه أن المقصود هو ألا يتعرض الإنسان للمهالك (وهذا ما أوضحته بعض النصوص المفسرة الواردة عن أهل البيت(ع))، وقد نستوحي منه أن المقصود هو: عدم مقاتلة بعضنا للآخر (وهذا ما يرتبط بأوّل السورة التي أشارت إلىٰ خلق البشر من نفس واحدة) ﴿اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ [النساء: ١]. وقد نستوحي منه دلالة رمزية هي عدم ارتكاب المعاصي (وهذا ما يرتبط بموضوعات السورة التي طالبت بعدم أكل مال اليتيم، وبعدم التعامل الجنسي غير المشروع... الخ)، وقد نستوحي منه قتل النفس حقيقة وليس رمزاً، كما لو أقدم الشخص علىٰ قتل نفسه في حالة التأزّم الشديد، وفي الحالات جميعاً، فإن قتل النفس دنيوياً وأخروياً، قتل النفس ذاتها أو قتل الآخرين: يظل عملاً موسوماً بالقساوة حيث عقّب النصُ على ذلك بقوله ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾، فالرحمة تتطلب ألّا يقسو الشخص علىٰ نفسه بممارسة المعاصي.

بعد ذلك، نواجه الظاهرة الثالثة التي طرحها المقطعُ وهي: المطالبة باجتناب الكبائر. وهذا بدوره طرحٌ جديدٌ هو: أن اجتناب كبائر الذنوب يستدعي التفكير في التكفير عن سيئات الإنسان، وبذلك ـ أي حطّ السيئات ـ نلحظ كيف أن النص القرآني ربَطَ بين مفهوم (التوبة) الذي حدّده في أكثر من مقطع من مقاطع السورة الكريمة وبين حط السيئات الذي يلتقي نفس نتائج التوبة، فالتوبة تُفضي إلىٰ غفران الذنب، واجتناب الكبائر من الذنوب يُفضي أيضاً إلىٰ حط السيئات،أي التجاوز عن الذنب أيضاً.

إذاً، طرح النص قضية غفران الذنب في سياق جديد هو: اجتناب الكبائر

بينا طرح قضية غفران الذنب ـ في مقطع سابق ـ في سياق التوبة، وهو أمرٌ يكشف لنا عن كيفية المنحىٰ الفنّي الذي سلكه النص في طرح الموضوعات من حيث تلاحمها وتواشجها بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿ولا تَتَمنَّوْا ما فضّلَ اللهُ به بَعْضَكُمْ علىٰ بعضٍ للرّجالِ نَصيبٌ مِمّا اكتسَبُوا، ولِلنّساءِ نصيبٌ مِمّا اكتسبْنَ واسْألُوا الله من فَضْلِه إنَّ الله كان بكلِ شيءٍ عليماً * ولكلٍ جعلنا مَوَاليَ مِمّا ترَكَ الوالدانِ والأقربونَ والّذين عَقَدَتْ أيْمانُكم فآتُوهُمْ نصيبَهُمْ إنَّ الله كان علىٰ كلِ شيءٍ شهيدا * الرّجالُ قوّامُونَ علىٰ النّساءِ بما فضّلَ اللّهُ بعضَهمْ علىٰ بعضٍ وبِمٰا أنفقُوا مِنْ أموالِهِمْ فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ اللّهُ واللاتي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهجُرُوهُنَّ في المضاجعِ واضرِبُوهُنَّ فإنْ أطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوا عليهنَّ سبيلاً إنَّ الله كان عَلِيّاً كبيراً﴾ [النساء: ٣٢ ـ ٣٤].

بهذا المقطع من سورة النساء، يُختَم القسم الأول من السورة وهو القسم الذي خُصِصَ للحديث عن العلاقة بين الجنسين وما يواكب ذلك من قضايا الإرث وغيره.

لقد طُرِح في هذا المقطع أكثر من موضوع، ومن ذلك: قضية قواميّة الرجل علىٰ المرأة، والمطالبة بعدم تمنّي ما للآخر منهما من فضل، ثم نشوز المرأة وطريقة التعامل مع هذا الجانب.

أما بالنسبة للمطالبة بعدم تمنّي ما للآخر منهما من فضل، فإن النصوص المفسرة تتأرجح بين الذهاب إلى أن المقصود من ذلك هو: ألا يتمنّىٰ الرجل ما أُعطيَ لغيره من معطيات المال والمرأة ونحوهما، وبين الذهاب إلى أن المقصود من ذلك هو: ألا يتمنىٰ الرجل أنه لو كان امرأة ولا تتمنّى المرأة أنها لو كانت رجلاً. وفي الحالتين، فإن المقطع القرآني الكريم يستهدف لفت النظر

إلى أن تفضيل الله تعالى لأحدٍ دون الآخر إنما ينطوي علىٰ حكمة خاصة ينبغي ألا تستاقه إلى أن يتمنىٰ ما هو خلاف ذلك. ثم يتحدث المقطعُ ـ بعد إجماله لقضية تفضيل الله تعالى لأحدٍ دون الآخر ـ عن نصيب كلٌّ من الرجل والمرأة مما اكتسباه ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبْنَ وأسألوا الله من فضله﴾. هنا تتفاوت نصوص التفسير أيضاً في تحديد ما هو المقصود من النصيب، هل يعني ذلك أن لكلّ منهما نصيبه من معطيات الله دنيوياً، أم نصيبه من الميراث، أم نصيبه من الطاعات؟ كل واحدٍ من هذه التساؤلات له مسوّغه الفنيّ ما دام النص القرآني الكريم قد تحدث عن الإرث والمهر ومستويات العلاقة بين الجنسين مما ترشح جميعاً بوجود الفارق بين الجنسين. بيد أن المقطع تحدث بعد ذلك عن قوامية الرجل علىٰ المرأة، مشيراً بذلك إلىٰ إحدىٰ قضايا الفارق بين الجنسين من حيث تفضيل أحدهما علىٰ الآخر، ألا وهو قوامية الرجل على المرأة، أي تسليطه عليها في شؤون الحياة الزوجية، وإنفاقه عليها. لكنه ـ بعد ذلك ـ يطرح سمة خاصة للمرأة قائلاً ﴿فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظات للغيب﴾ مؤكداً بهذه السمة أن المرأة الصالحة هي المطيعة لله تعالى ولزوجها والحافظة لحقوقه جنسياً أو مالياً ونحوهما.

ويُلاحَظ (من زاوية عمارة المقطع وبنائه هندسياً) أن النص تحدث أوّلاً عن قواميّة الرجل، ثم صلاح المرأة من خلال تقبّلها لهذه القوامية عليها، ثم تقدّم ـ في المرحلة الثالثة ـ إلى الحديث عن المرأة غير الصالحة ممن تتمرّد علىٰ هذه القواميّة عليها، راسماً للرجل طريقة التعامل مع المرأة في حالة تمردها على الرجل: ﴿واللاتي تخافُون نُشوزَهُنَّ ـ أي عصيانهن ـ فعظوهن، واهجُروهن في المضاجع، واضرِبُوهُنَّ فإن أطعنكم فلا تَبغُوا عليهن سبيلاً. . .﴾. هذه الخطوات الواعظة أولاً فإن لم تنفع، فالهَجْرُ في المضاجع، وإن لم تنفع فالضربُ، تمثّل نمطاً من مراحل العلاج النفسي لسلوك المرأة

المتمردة على زوجها؛ طالما يشكل التمرد على الزوج مخالفة صريحة لأوامر الله تعالى بالنسبة لقواميّة الزوج عليها.

أخيراً، يرسم النصّ علاجاً للموقف: في حالة ما إذا تفاقمت المشكلات بين الرجل والمرأة، فيقول ﴿وإنْ خِفتُمْ شِقاقَ بينهِما فابعثُوا حَكَماً من أهلِهِ، وحَكَماً من أهلها إنْ يُريدَا إصلاحاً يُوفِّقِ الله بَينَهُما. . . الخ﴾ [النساء: ٣٥]، أي: إذا التبس الموقف بحيث يتطلّب حلّ الخلاف بين الرجل والمرأة حينئذٍ فإن مَن له ولاية الأمر أن يبعث حكمين: أحدهما من طرف الزوج والآخر من طرف الزوجة، لإصلاح الموقف.

وأيّاً كان، بهذا المقطع الذي تحدث عن العلاقة بين الجنسين في جملة من القضايا: يُختَم ـ كما أشرنا ـ القسم الأول من سورة النساء حيث تحدث هذا القسم عن بداية العلاقة بينهما فيما استهلتها السورة بقولها: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخَلَق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. . الخ﴾ [النساء: ١]. ثم عرَضَ مستويات مختلفةً من العلاقة، وختمها بأحد أشكال العلاقة السلبية التي يمكن أن تحدث بين الرجل والمرأة وطريقة إصلاح ذلك. ومن البيّن (ونحن أساساً نُعنىٰ بدراسة عمارة السورة الكريمة وطريقة بنائها الهندسي) أنّ الحديث عن علاقة الرجل بالمرأة قد تخلّله طرحٌ متنوّع للقضايا تجاوزت نطاق العلاقة الأسرية إلى خارجها، كما تجاوزتها إلى قضايا أخرىٰ طُرِحت وفق منحىً فنيّ غير مباشر وخُتمت بهذا المقطع الذي تحدثنا عنه، وهو أمرٌ يفصح عن جمالية وإحكام النص من حيث تلاحم مقاطعه وأجزائه بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿واعبدُوا الله ولا تُشرِكُوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذِي القُربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجارِ ذي القربىٰ والجارِ الجُنبِ والصّاحِبِ

بالْجَنْبِ وابنِ السَّبِيلِ وما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ إنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُختالاً فخوراً﴾ [النساء: ٣٦].

بهذا المقطع من سورة النساء يبدأ القسم الجديد من السورة، بعد أن كان القسم الأول منها يتحدث عن العلاقة بين الجنسين وما يواكبها من مختلف القضايا.

من حيث عمارة السورة وأقسامها ينبغي أن نضع في الاعتبار أنّ النص الفنّي عندما يخصّص قسماً منه للحديث عن موضوع، حينئذٍ فإن كل قسم سوف يستقل بموضوعاته ثم يوصل في الختام أو البداية أو كليهما بين كل قسم وآخر.

إن القسم الجديد من السورة يطرح موضوعات مختلفة، يستهلها بتحديد العلاقات الاجتماعية المتصلة بمختلف الطبقات، وهي: الإحسان إلىٰ الوالدين، الأقرباء، اليتامىٰ، الفقراء، الجار القريب والبعيد أو القريب والأجنبي، رفيق السفر، ابن السبيل، العبد والأمة. هذه الشرائح أو الأنماط الاجتماعية من الناس، يُطالب المقطعُ القرآني الكريمُ بالإحسان إليها سواء أكان الإحسان مادياً أم معنوياً. ويُلاحظ أن المقطع بدأ بالمطالبة أولاً بعبادة الله وعدم الشرك، ثم أتبع ذلك بالإحسان إلى الوالدين مما يكشف مثل هذا الاستهلال والإتباع عن مدىٰ الأهمية التي يكسبها النص للوالدين بحيث يُقرن في أكثر من موضع إطاعة الله بإطاعة الوالدين. ويلاحظ أيضاً، أن المقطع تدرّج في مطالبته بالإحسان ـ بما يسمّىٰ في اللغة الاجتماعية بجماعة المواجهة أو الجماعة الأولية ـ تدرّج من الأوثق علاقة إلى الأقل. فبدأ بالوالدين وهما أقرب جماعة المواجهة، ثم إلى القرابة، ثم إلى (اليتامىٰ) بصفتهم بمثابة القريب من حيث فقدانهم الأب وتبنّي المحسن لهم، ثم الجيران، القريبين من ثم البعيدين، ثم رفيق السفر فابن السبيل وهما يحتلان ـ في هذه الحالة ـ أهمية

طارئة بصفة أن رفيق السفر أو المنقطع عن أهله تطرأ عليه حالة يفتقر من خلالها إلى أن يُحسَنَ إليه، ثم العبيد والإماء.

ويُلاحظ أيضاً، أن هناك صلات فنية بين القسم الأوّل من السورة حيث طرح قضية العلاقة بين الجنسين والقرابة واليُتم من خلال المطالبة بالمحافظة علىٰ أموال اليتيم، وبتوزيع الأموال للورثة، وبين هذا القسم الذي عرض للوالدين والأقرباء واليتامىٰ، مضيفاً إليهم جماعات أخرىٰ، حيث يكشف مثل هذا المنحىٰ الفنيّ من الطرح عن إحكام المبنىٰ الهندسي للسورة الكريمة.

بعد ذلك يتقدم النص إلى طرح موضوعات جديدة تتصل بالبعد (المالي) فيقول:

﴿الذين يَبْخَلُون ويأمُرُونَ النّاسَ بالبُخْلِ ويكْتُمُون ما آتاهُمُ الله من فَضْلِهِ وأَعْتَدنا للكافرين عذاباً مُهيناً * والذين يُنفِقُون أموالَهُمْ رِئآء الناسِ ولا يؤمنون بالله ولا باليومِ الآخِرِ ومَنْ يكُنِ الشيطانُ له قريناً فساء قرينا * وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخِرِ وأنفقُوا مِمّا رَزَقَهُمُ الله وكان اللّهُ بهم عليماً﴾ [النساء: ٣٧ ـ ٣٩].

لنلاحظ كيف أن النص القرآني الكريم قد ربط فنياً بين هذا المقطع وبين المقاطع السابقة من السورة، حيث كان البُعد الاقتصادي هو الرابطة بين المطالبة في القسم الأول من السورة بمراعاة الأموال، والمطالبة في المقطع السابق بالإحسان إلىٰ الجماعات المشار إليهم. ومنه الإحسان بالمال؛ لأن الفقير وابن السبيل يدخلان في هذا القسم، والمطالبة في هذا المقطع الذي نتحدث عنه الآن بمطلق الإنفاق.

ثم طرح قضية البخل وتوعّد البخيل بالجزاء السلبي، رابطاً بين قضية البخل وبين عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، حيث جاء طرح الإيمان بالله واليوم الآخر في سياق الحديث عن الإنفاق والبخل حتى يمهّد بهذا الربط الحديث

عن موضوع جديد يطرح في الأقسام اللاحقة من السورة الكريمة.

إذاً ينبغي ـ ونحن نُعنىٰ دائماً بدراسة عمارة السورة القرآنية ـ أن نتأمل بدقة كيف أن النص قد طرح موضوعات متشابكة وأوجد علاقات مشتركة بينها بحيث ربط بين أقسام السورة، ومهّد في كل جزء منها للحديث لاحقاً عن الجزء الآخر، طارحاً خلال ذلك أهم ما يستهدفه من السلوك الاجتماعي المرتبط من جانبٍ بالعلاقة بين الجنسين، والمرتبط من جانبٍ آخر بالقضايا المالية التي تحتل أهمية كبيرة بالنسبة لتحسين الوضع المعيشي للناس، كل ذلك من خلال التركيز علىٰ المفهوم العبادي والأخلاقي في التعامل مع القضايا المشار إليها، ما يفصح ذلك كله عن مدىٰ جمالية المنحىٰ الفني الذي سلكه النص في وصل الموضوعات بعضها مع الآخر، ومدىٰ الإحكام الهندسي بينها بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿إنَّ الله لا يظلِمُ مِثقالَ ذرةٍ وإنْ تكُ حَسَنَةً يضاعِفْها ويُؤتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْراً عظيماً * فكيف إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنا بِكَ علىٰ هؤلاء شهيداً * يَومئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُوا وَعَصَوا الرَّسُولَ لو تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأرض ولا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً * يا أيُّها الذين آمنوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاة وأنْتُمْ سُكارىٰ حتىٰ تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ ولا جُنُباً إلاّ عابِرِي سَبيلٍ حتىٰ تَغْتَسِلُوا وإنْ كُنتم مرضىٰ أو علىٰ سَفَرٍ أو جَاءَ أحَدٌ مِنكُمْ مِنَ الغائِطِ أو لامَسْتُم النِّساءَ فلم تجِدُوا ماءً فتَيَمَّمُوا صعيداً طيّباً فامْسَحُوا بِوجوهِكم وأيدِيكُم إنَّ الله كان عَفُوًّا غفوراً﴾ [النساء: ٤٠ ـ ٤٣].

في هذا المقطع وما قبله، تطرح جملة من الأفكار مثل المطالبة بالإنفاق، والتوعّد لمن يبخل ويأمر الناس بالبخل ويكتم ما آتاه الله من المال أو المعرفة. ومثل: التذكير باليوم الآخر، وشهادة كلّ نبيّ على أمّته ومنها

شهادة الرسول(ص) على أمّته حيث يود الذين كفَروا لو تُسوّىٰ بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً. ومثل: المطالبة بالصلاة الواعية غير المقرونة بالنعاس، والمطالبة بعدم دخول المساجد بالنسبة للجُنُب، والمطالبة بالتيمّم لمن لا يستطيع الغُسل... الخ.

هذه الأفكار أو الموضوعات التي تجمع بين قضايا اقتصادية عقائدية وفقهية يطرحها النص القرآني الكريم في مقطع واحد، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن شريحة اجتماعية منحرفة هي أهل الكتاب، اليهود بخاصة كما سنرىٰ.

أمّا الموضوعات الفقهية فينبغي الإشارة إلى أنّ طرحها يتمّ في سياق الفكرة العامة مدلّلاً بذلك علىٰ أهمية الموضوع الفقهي المرتبط بالصلاة والتطهير من الحدث.

وأمّا الموضوع الاقتصادي والعقائدي فقد طرحه النص في سياق فكرة خاصة شدّد فيها وكرّرها وأبرزها بنحوٍ ملحوظٍ هو قضية الكتمان لمعطيات الله تعالى حيث توعّد النصُ في آية سابقة مَنْ ﴿يكتمون ما آتاهم الله مِن فضلِه﴾ [النساء: ٣٧]، وتوعّد في المقطع الذي نتحدث عنه الآن مَن ﴿يكتمون الله حديثاً﴾ [النساء: ٤٢]. إن كتمان الفضل والحديث لم يطرحه النصُ مكرراً إلّا لغرضٍ فنّي هو: التمهيد لموضوع لاحق سوف يُفصّل الحديث عنه ألا وهو: عرض سلوك الكتابيين اليهود منهم بخاصة، حيث يتسمون بصفة الكتمان لمعطيات الله في صعيد الاقتصاد وفي صعيد العقائد كما سنرىٰ.

وقبل أن ننتقل إلىٰ الحديث عن هذا الجانب المتصل بسلوك اليهود، ينبغي أن نقف عند بعض الصور الفنيّة التي طرحها المقطع القرآني الكريم في سياق حديثه عن الذين ﴿يكتمون الله حديثاً﴾ هؤلاء الذين يقول عنهم: ﴿يومئذٍ يَوَدُّ الذينَ كفَروا وعَصَوا الرّسُولَ لو تُسَوّىٰ بِهِمُ الأرضُ ولا يَكتُمُونَ الله

حَديثاً﴾. فهذه الصورة تشير إلى الكافرين والعصاة من حيث الجزاء الذي يلحقهم في اليوم الآخر، ثم ترسم نوع الاستجابة أو ردّ الفعل الذي يصدرون عنه عند مشاهدتهم يوم الجزاء حيث يودّون ويتمنّون أن ﴿تُسوَّىٰ بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾.

ترىٰ: ما هو البُعد الفني لهذه الصورة؟ صورة (تُسوىٰ بهم الأرض) أي: الصورة التي تقول بأن المنحرف يتمنىٰ حينئذٍ أن يُصبح هو والأرض سواء. والسؤال: لماذا يتمنّىٰ التسوية مع الأرض دون سواها؟ هل لأنه مخلوقٌ من التراب، أم لأن البهائم ـ كما ذكر بعض المفسرين ـ تتحول إلى تراب، وحينئذٍ يتمنىٰ المنحرف أن يُصبح تراباً مثلها فيتخلص من العذاب؟ أم أن التراب هو مجرد(رمز) فنيّ يرمز إلىٰ انعدام الوعي والتكليف، فيتمنىٰ المنحرف لو أنه كذلك؟ أم يتمنّىٰ المنحرف ـ كما ذكر بعض المفسرين أيضاً ـ بأن يمشي أهل المحشر عليه كما يمشون على الأرض؟

كل هذه الاستخلاصات أو الاحتمالات الفنية، واردة ما دام جمال الصورة هو أن تكون مرشحة لجملة من الاحتمالات بحيث يستوحي كل شخصٍ منها ما يتسق مع تجاربه الذوقية. وفي تصوّرنا الفني أنّ الأرض أو التراب الذي يتمنىٰ المنحرفُ أن يُسوّى به: هو (رمز) للحالة النفسية التي يحياها المنحرف عندما يتعرّض إلىٰ الفضيحة أمام الملأ بحيث يتمنّىٰ لو تبتلعه الأرضُ مثلاً لأن ابتلاع الأرض لشخصه أو تسويته بها، تعفيه من هول الفضيحة، نقول هذا، لأن السياق الذي وردت هذه الصورةُ فيه يتحدث عن أن سبب الهول الذي يعانيه المنحرف هو (كتمانه) النقل أو الحديث أو المعطيات بعامة، فالكتمان يقابله الإعلان أو الفضيحة في اليوم الآخر، كأن المنحرف يكتم حديث الله... وها هو يود في يوم الجزاء أن يُكتَم شخصه عن الآخرين، يود لو تسوّىٰ به الأرض.

إذاً، جاءت هذه الصورة الفنية متجانسةً مع السياق الفكري الذي وردت فيه، كما أن هذا السياق الفكري ونعني به كون المنحرف يكتم حديث الله تعالى قد شكل تمهيداً وتوطئةً لما سوف يعرضه النص القرآني الكريم من موضوعات تتصل بسلوك الكتابيين: اليهود بخاصة حيث يطبعهم سلوك الكتمان لمعطيات الله كما سنرىٰ، مما يفصح مثل هذا المنحىٰ من الطرح عن مدىٰ إحكام وجمالية البناء الهندسي للسورة الكريمة.

* * *

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يَشْتَرُونَ الضلالةَ ويُريدونَ أَنْ تَضِلُّوا السَبيل * واللَّهُ أَعْلَمُ بأَعْدائِكُم وكفىٰ بالله وَلياً وكفىٰ بالله نصيراً * مِنَ الذينَ هادُوا يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عن مواضِعِه ويَقُولونَ سَمِعْنَا وعَصَيْنا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ورَاعنا لَيّاً بأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْناً في الدِّين ولو أَنَّهُم قالوا سمِعنا وأَطَعْنا واسْمَعْ وانْظُرنَا لكانَ خيراً لهم وأَقْوَمَ ولكِنْ لَعَنهُم اللَّهُ بكُفرِهم فلا يُؤْمِنُونَ إلا قليلاً﴾ [النساء: ٤٤ ـ ٤٦].

هذا المقطع من سورة النساء يتحدث عن سلوك الكتابيين اليهود منهم بخاصة، وأوّل طابعٍ يعرضه لنا عن سلوك اليهود هو: تحريفهم كلام الله، وقد عَرضَ هذا التحريف في صورة فنيةٍ هي (يشترون الضلالة) حيث تشكل رمزاً للتحريف، فخلع علىٰ التحريف سمة (الاشتراء)،بمعنىٰ أنه يدفع ثمناً فيشتري الضلال، ولا شيء أشد خسارة علىٰ المنحرف من أن يدفع ثمناً لما هو ضارٌ به. بعد ذلك يتقدم المقطع القرآني الكريم، فيفصّل إجمال الصورة الاستعارية والرمزية المشار إليها وهي: اشتراء الضلالة موضحاً ذلك بقوله: ﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ ففي هذا التفصيل أكثر من توظيفٍ فنيّ فهو أولاً يوضّح ما أجمله النص من قوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ مبيّناً بأن المقصود من أهل الكتاب هم: اليهود، وهو ثانياً يوضح ما

أجمله النص من قوله: ﴿يشترون الضلالة﴾ مبيناً بأن المقصود منه هو: تحريف الكلم عن مواضعه. إذاً، سلك النص في هذا المقطع منحىً فنياً له جماليته من حيث البناء الهندسي للمقطع.

ليس هذا فحسب، بل إنّ (تحريف الكلم عن مواضعه) هو نفسه صورة فنية رمزية أو استعارية ترمز إلى أن المقصود منه هو: كتمان اليهود ما جاء في توراتهم من صفة النبيّ محمد(ص) أو سائر ما بدّلوه من التوراة، إشباعاً لمصالحهم غير المشروعة.

بعد ذلك، يتقدم المقطع القرآني إلىٰ عرض سمات أخرىٰ من سلوكهم المنحرف، وهو سلوك قد انتخب منه في هذا المقطع ما يختص بتعاملهم الاجتماعي مع النبيّ(ص)،وهو تعامل ينمّ عن أشد درجات الالتواء والعناد والخبث والوقاحة،حيث يقولون للنبي(ص) (سمعنا وعصينا) ويقولون له: (اسمع غير مُسمَع)، ويقولون (راعنا) سخريّة، يقولون ذلك من خلال تحريك ألسنتهم بنحوٍ يوحي بما هو سلبيٌ من الدلالة، سخرية وإيذاءً له(ص).

ثم يتقدم النص بالخطاب التالي إليهم: ﴿يا أيُها الذين أوتُوا الكِتابَ آمِنُوا بما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعكم مِنْ قَبْلِ أنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها على أدْبارِها أوْ نَلْعَنَهُم كما لَعَنَّا أصحابَ السَبتِ وكانَ أمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ [النساء: ٤٧]. هذا الخطاب يتضمن صورة فنية هي طمس الوجوه وردّها على الأعقاب.

إن أهمية هذه الصورة الفنية تكمن في ترشّحها بأكثر من استيحاء واستخلاص، فطمس الوجوه قد نستوحي منه دلالة معنوية هي: الختم علىٰ قلوبهم بحيث لا يهتدون أبداً، وقد نستوحي منه دلالة حركية كما لو تغيّرت وجوههم فعلاً من نحو أن يُمسخوا كالقِرَدة أو تُجعل عيونهم خلف ظهورهم.

إنّ ردّ الوجوه علىٰ الأدبار يشكّل صورة أخرىٰ تزدوج مع الصورة السابقة (نطمس وجوهاً). إنّ النص رسم صورة (طمس الوجوه) ليعبّر بذلك عن رمز

هو ضلالتهم أو مسخهم، ثم ألحق بها صورة أخرىٰ ذات دلالة مزرية أيضاً هي (الرد على الأعقاب). ومن المعلوم فنياً أنّ شَرْحَ أو تكملة صورةٍ بصورةٍ أخرىٰ (بدلاً من شرحها أو تكملتها بواسطة اللغة المباشرة) يُعدّ من أشدّ التركيبات الفنية إثارةً وجمالاً وطرافةً.

والمهم، إن هذه الصورة المزدوجة ذات الإيحاءات المتنوعة التي أشرنا إليها قد أردفها النص بتشبيهٍ مباشر هو: (أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت)، فالمعروف أن أصحاب السبت قد مُسخوا قردة، وهذا يعني أن استيحاء الصورة السابقة ينبغي ألاّ يتّجه إلىٰ أنّ المقصود من طمس العيون وردّها إلى الأدبار هو عملية المسخ إلى قِردة لأن المسخ قد ذكره النص علىٰ سبيل الترديدِ بينه وبين الطمس والرد على الأعقاب. وأياً كان الأمر، فالمهم هو أن هذه الصورة الفنية المكتنزة بالدهشة وبالجمال وبالطرافة قد وظّفها النص لإنارة الأفكار المطروحة في المقطع، وهي أفكار تتحدث عن سلوك اليهود الذين مهّد النصُ القرآنيُ ـ في مقطعٍ أسبق ـ الحديث عنهم، حينما توعّدهم بالعذاب الأخروي لكونهم (يكتمون الله حديثا) وحيث جاء في هذا المقطع ليحدثنا عن معنىٰ كتمانهم لحديث الله وهو: تحريف الكلم عن مواضعه، وحيث توعّدهم بالجزاء الدنيوي أيضاً في هذا المقطع، وهو بهذا الربط بين المقطع السابق والمقطع الحالي، يكشف عن مدىٰ إحكام العمارة التي تنتظم السورة من حيث تلاحم مقاطعها بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إلىٰ الذين يُزكُّون أنفُسَهم بل اللّهُ يُزكّي مَن يَشاءُ ولا يُظْلَمُون فَتِيلا * أُنْظُرْ كَيف يَفْتَرُونَ علىٰ اللّهِ الكَذِبَ وكفىٰ بِهِ إثْماً مُبِيناً * أَلَمْ تَرَ إلىٰ الذِينَ أوتوا نَصِيباً مِنَ الكِتابِ يُؤْمِنونَ بالجِبْتِ والطاغوت ويَقُولونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولَئكَ الذِينَ لَعَنَهُم اللّهُ ومَنْ يَلْعَنِ

اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصيرا﴾ [النساء: ٤٩ ـ ٥٢].

هذا المقطع من سورة النساء امتدادٌ لمقطع سابق يتحدث عن سلوك اليهود وموقفهم من رسالة الإسلام. لقد كان تحريف الكلم عن مواضعه هو الشريحة الفكرية التي طرحها النص سابقاً. أما الآن فيقدّم النصُ شريحةً أخرىٰ من سلوك اليهود، ألا وهو تعاونهم مع المشركين مقابل الإسلام، فبالرغم من أنهم أصحاب كتاب، وبالرغم من أنهم يعرفون جيداً أحقية الإسلام حيث تضمّن كتابُهم هذه الحقيقة فكتموها، بالرغم من ذلك كله يتعاونون مع المشركين ويقولون لهم: أنتم أهدىٰ سبيلاً من المؤمنين برسالة الإسلام. وإذا انسقنا مع النصوص المفسرة التي تقول بأن المشركين طلبوا من اليهود أن يسجدوا لكلٍ من الجبت والطاغوت وأنهم قد فعلوا ذلك، حقداً علىٰ رسالة الإسلام، حينئذٍ يُضاف إلى فعلهم المُنكر منكرٌ آخر هو ـ كما ذكر النص ـ ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾.

ومن الواضح ـ في ميدان اللغة النفسية ـ أنّ الشاذ والمضطرب (واليهود يمثلّون أشد الأقوام والأفراد شذوذاً طوال التاريخ) يتضخم حجم شذوذه واضطرابه بقدر ما يكتنزه في أعماقه من الكراهية التي تمزّق وتؤثّر في الشخصية، و قد بلغ الشذوذ لديهم إلىٰ الدرجة التي لم يكتفوا من خلالها بمجرد كتمانهم أحقية رسالة الإسلام، بل اندفعوا إلىٰ أن يتعاونوا مع الكافرين إلى درجة أنهم خلعوا علىٰ الكافر سمة (الهداية) وعلىٰ المؤمن عكس ذلك. كل هذا تعبيراً عن شدة التمزق والانشطار النفسي. لذلك ما أن انتهىٰ المقطعُ القرآني الكريم من تقرير هذه الحقيقة حتى أخذ يكشف جانباً من الأسباب النفسية التي تدفعهم إلىٰ مثل هذا الموقف المُنكر.

يقول النص ﴿أمْ لهم نَصِيبٌ مِنَ المُلْك فإذاً لا يُؤتُون الناسَ نَقِيراً * أمْ يَحسُدُونَ الناسَ علىٰ ما آتاهُم الله من فَضْلِه فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبْراهيمَ الكِتابَ والحِكْمَةَ

وآتيناهُم مُلْكاً عظيماً * فَمِنْهُم مَن آمَنَ بهِ ومِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ وكفىٰ بِجهَنَّم سَعِيراً﴾ [النساء: ٥٣ ـ ٥٥].

إذاً، القضية قضية (حسدٍ) من اليهود حيال (المُلك) الذي آتاه الله محمداً(ص). ومن المعلوم أن (الحسد) هو أبرز مظاهر الانشطار النفسي وأشد أشكاله تعبيراً عن قتامة الأعماق وكراهيتها، حيث يدفع الحسد الشخصية إلىٰ أن تشوه الحقائق من جانب وأن تعمل أشد الموبقات (ومنها: السجود للصنم وهذا أشد مظاهر الذل) من جانبٍ آخر، حيث يخفّف مثل هذا السجود للأصنام ومثل هذا الافتراء والتشويه للحقائق إلى درجة الذهاب إلى أن الكافر أهدىٰ سبيلاً من المؤمن برسالة محمد(ص)، يخفّف شيئاً من الأزمة والتمزق والكراهية التي تنطوي عليها أعماق اليهود. بعد ذلك يتجه النص القرآني الكريم، إلى رسم مصائر الكافرين حيث يقرر بأنه تعالى يُصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم منها تُبدَّل بجلود غيرها، كما لوّح مقابل ذلك بالجنّات التي تجري تحتها الأنهار بالنسبة إلىٰ المؤمنين.

ويهمنا ـ بعد هذا كله ـ أن نشير إلىٰ المبنىٰ الهندسي لهذا المقطع وصلته بعمارة السورة الكريمة. فالملاحظ أولاً أن النص وهو يتحدث عن اليهود بأنه لا نصيب لهم من المُلك، يعقب على ذلك بقوله: ﴿فإذاً لا يُؤْتُون الناسَ نَقِيراً﴾، أي: أوضح النصُ سمة منكرة جديدةً من سمات اليهود، ألا وهي (البخل)، هذه السمة المنكرة التي تضاف إلىٰ سمة (الحسد) قد طرحها النصُ هنا وفق منحىً فنيّ غير مباشر حيث ربطه مع قضية (الملك) الذي يحسدون النبيّ(ص) عليه، مستثمراً هذا الجانب ليؤكد حقيقة مرتبطة بالمُلك، ألا وهي قضية الإنفاق أو العطاء المقترن بالملك، موضحاً بأن اليهود لو أتيح لهم المُلك لَمَا أعطوا أحداً شيئاً. هنا ينبغي أن نتذكّر بأن النص القرآني الكريم عندما حدثنا في المقاطع السابقة عن سلوك اليهود، طرح هناك قضيتين:

إحداهما البخل والأخرىٰ كتمانُهم الحديثَ عن الإسلام، وها هو الآن يربط النص ـ في المقطع الحالي ـ بين قضية البخل التي وصَفَهم بها هُناك ﴿الذين يَبْخَلُون وَيأمُرونَ الناسَ بِالبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]، وبين قوله تعالى في هذا الموضع: ﴿فإذاً لا يؤتون الناسَ نَقِيراً﴾ حيث يفصح هذا القول عن أن اليهود (بخلاء) لا يُؤتون الناس نقيراً أي لا يعطونهم شيئاً.

إذاً، ربط النصُ بين هذا المقطع وبين المقاطع السابقة، مفصحاً بهذا عن أهمية وجمالية وإحكام النص القرآني الكريم من حيث تلاحم أجزائه بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿إنَّ اللّهَ يأمُركُم أنْ تُؤَدوا الأماناتِ إلىٰ أهلِها، وإذا حَكَمْتُم بَيْنَ الناسِ أنْ تَحكُموا بِالعَدْلِ إنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بهِ إنَّ اللّهَ كانَ سَميعاً بصيراً * يا أيها الذين آمَنُوا أطِيعُوا اللّهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمْرِ مِنكُمْ فإنْ تَنازَعْتُم في شيْءٍ فَرُدُّوه إلىٰ الله والرَّسولِ إن كُنتُم تؤمنون بالله واليومِ الآخِرِ ذٰلِك خَيْرٌ وأحْسَنُ تَأويلا﴾ [النساء: ٥٨ ـ ٥٩].

في هذا المقطع من سورة النساء، طرحٌ جديد لقضايا تتصل بالحكم والقضاء والأمانة، والعلاقة بين الراعي والرعيّة.

ويُلاحظ أن العنصر الفنيّ المشترك بين هذه المسائل المتنوعة هو: تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم من خلال العدالة.

إن المقطع طالبَ بأن تُؤدّىٰ الأمانات إلى أهلها، وهذه الأمانات تردّد المفسّرون فيها بين الذهاب إلىٰ أن المقصود من ذلك هو تأدية مطلق الأمانة، سواء أكانت تتّصل بأمانات الله أو الناس، وبين الذهاب إلى أن المقصود منها ولاةُ الأمر (وهم أهل البيت(ع)) من حيث تسليم الأمرِ من كلّ واحدٍ منهم إلى الآخر، مع ملاحظة أن التفسير الآخير يتساوق (من حيث المبنىٰ الهندسي

للنص) مع الآية اللاحقة التي تقول ﴿يا أيّها الذينَ آمَنُوا أطيعُوا اللّهَ وأطيعُوا الرَّسُولَ وأولي الأمْرِ مِنكُم﴾ حيث أن أولي الأمر-وفقاً للنصوص المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام-هم أئمة أهل البيت(ع) أنفسهم، وحيث ذكرت هذه النصوص المفسّرة أن تأدية الأمانة تشكّل خطاباً إلى أهل البيت(ع)، والإطاعة لهم تشكّل خطاباً إلىٰ الناس باتباعهم عليهم السلام. ويلاحظ أيضاً ـ كما سبقت الإشارة ـ إلىٰ أن المقطع طرح مفهوم (العدالة في الحكم)،وهو طرحٌ يتساوق مع وظيفة الحكم كما هو واضح.

بعد ذلك يتّجه النص إلىٰ طرحٍ آخر يتصل بقضايا الحكم أيضاً وهو (القضاء) وما يستتبعه من الأحكام، يقول النص: ﴿ألم تَرَ إلى الذينَ يَزْعُمون أنَّهُم آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، يُرِيدُونَ أنْ يَتَحاكموا إلىٰ الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أنْ يَكْفُروا بِهِ ويُرِيدُ الشيطانُ أنْ يُضِلَّهم ضَلالاً بَعيداً﴾ [النساء: ٦٠].

لا نغفل، أن النص القرآني الكريم، كان ـ في مقاطع سابقة ـ يتحدث عن سلوك الكتابيين، وها هو الآن يتقدم إلى الحديث عن المنافقين في شريحة خاصة من سلوكهم تتصل بقضية (التحاكم) بعد أن مهّد لها (من حيث المبنىٰ الهندسي للمقطع) حديثاً عن الحكم والقضاء والعدل، كما لحظنا. هنا، يعرض النص لنفرٍ منهم يزعم أنه يؤمن برسالة الإسلام وبالرسالات السابقة، لكنه (من حيث السلوك) يتحاكم إلى الطاغوت في خصوماته، والطاغوت هو رمزٌ فنيّ للباطل كما هو واضح.. أي أن هذا النفر تحقيقاً لمكاسبه الذاتية يتّجه إلىٰ المرتشين مثلاً في خصوماته حتى يحكموا لصالحه، ولا يتّجه إلى الحاكم الإسلامي في ذلك، للسبب نفسه. إن (المنافق) يتميّز عن سواه بكونه أشد الناس حرصاً على إشباع رغباته غير المشروعة،لأنّ إبطان الكفر وإظهار الإيمان لا مسوّغ له إلّا في حالة الحرص الشديد علىٰ تحقيق الشهوات، وهو ما يميّز (المنافق) في الدرجة الأولىٰ. لذلك نجد أن النص استثمر هذا الجانب من

سلوك المنافق فطرحه من خلال أهمّ الوظائف الاجتماعية في ظاهرة الحكم، ونعني بها قضية(العدالة) في الحكم (ومنه: القضاء) حيث طالَبَ الإسلاميين بتطبيق (العدل)، وأبرز نموذجاً مضاداً هو: سلوك المنافقين الذي ينزع إلىٰ الحيف فيتحاكم في قضاياه إلى الطاغوت بدلاً من التحاكم إلىٰ الإسلاميين، تحقيقاً لمصالحه المضادة للعدالة في الحكم.

ويلاحظ أن النص (في معرض حديثه عن التحاكم إلىٰ الطاغوت) يعلّق علىٰ هذه القضية قائلاً ﴿وقد أُمِروا أن يكْفُروا بِهِ ـ أي الطاغوت ـ ويُرِيدُ الشيطانُ أَنْ يُضِلَّهُم ضَلالاً بعيداً﴾. هذا التعليق له أهمية فنية كبيرة من حيث علاقته بعمارة السورة الكريمة، حيث لحظنا في القسم الأول من سورة النساء (وهو القسم الخاص بالعلاقة بين الجنسين) من النصّ يطرح مثل هذا التعليق أيضاً ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الّذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ [النساء: ٢٧].

ومن الواضح أن الرابط الفنّي أو الفكرة المشتركة بين الموضوعات تتجسّد في أمثلة هذا التعليق الذي يُوجِد صلات بين موضوع (كالجنس مثلاً) وبين موضوع آخر لا علاقة له بالجنس (كالعدالة في الحكم مثلاً) بما يُفصح مثل هذا الربط عن جمالية البناء الهندسي للسورة من حيث تلاحم أقسامه وجزئياته بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالَوا إلىٰ ما أنْزَل اللّهُ وإلىٰ الرسولِ رأيت المنافقين يَصُدُّونَ عنك صدوداً * فكيف إذا أصابَتْهم مُصِيبة بما قدّمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أَرَدْنا إلا إحساناً وتَوفيقاً * أُولئكَ الذينَ يَعْلَمُ اللّهُ ما في قلوبِهم فأَعْرِضْ عَنْهُمْ وعِظْهُمْ وقُلْ لَهُمْ في أَنْفُسِهم قولاً بَلِيغاً﴾ [النساء: ٦١ ـ ٦٣].

هذا المقطع من سورة النساء امتدادٌ لمقطع سابق يتحدث عن المنافقين الذين يتحاكمون إلىٰ الطاغوت، مع أنهم يزعمون بأنهم آمنوا برسالة الإسلام. إن المقطع يفضح هؤلاء المنافقين الذين إذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلى الرسول يصدون عن النبيّ صدوداً، فالمُلاحَظ أن النص أكّد ظاهرة صدود المنافق عندما استخدم المفعول المطلق ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ حيث أن تأكد النص بهذه الصيغة ينطوي علىٰ مهمة فنيّة هي: التقابل بين زعم المنافقين بأنهم يؤمنون بالإسلام وبين هذا السلوك الذي يضاد زعمهم كل التضاد حيث أنهم لا يصدّون عن الإسلام مجرّد الصدّ العادي بل يبلغون أعلىٰ درجة الصدود، وهذا يعني أن النص ـ فنياً ـ أراد أن يوضح الهوّة الفاصلة في سلوك المنافق بين ما يقوله وبين ما يعمله.

هنا يتوعّد النصُ المنافقين بنحو يتوافق ودرجة حرصهم علىٰ تحقيق المكاسب الذاتية التي ألجأتهم إلىٰ النفاق. يقول النص: ﴿فكيفَ إذا أصابَتْهم مُصيبة بما قَدَّمَتْ أيدِيهم﴾. إنّ التهديد هنا يعتمد منحىً فنياً قائماً علىٰ عنصر التذويب الزمني وتحويله إلى الزمن النفسي، فالعقوبة التي لوّح بها النصُ ـ حسب ما يذكره المفسرون ـ ترتبط بزمان خاص قد يكون ماضياً وقد يكون لاحقاً، قد يكون مرتبطاً بتحاكم إلى الطاغوت ثم الاعتذار عنه بقول المنافقين: ﴿إن أردنا إلّا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي: أنهم حلفوا بالله بأنهم لم يلجأوا إلىٰ الطاغوت إلاّ بسبب كونهم لا يريدون إزعاج النبي(ص) في رفع أصواتهم أمامه.

وقد يكون مرتبطاً بحادثة خاصة في إحدىٰ معارك النبيّ حيث حصل تنازع بين أحد الأنصار وأحد المهاجرين فاستثمر أحدُ المنافقين هذه الحادثة وهدّد قائلاً: ﴿لئن رَجَعْنا إلىٰ المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْها الأذلَّ... الخ﴾. وأياً كان المقصود من ذلك، فإن المهم (من الزاوية الفنية) أن النص لوّح بالجزاء

السلبي الذي يلحق المنافقين، منتقلاً من هذا التلويح إلى تقرير حقيقتين، إحداهما: أن المنافقين سوف يحلفون بالله كذباً بأنهم لم يريدوا إلا إحساناً وتوفيقاً، والحقيقة الأخرىٰ هي: أنّ المنافقين ما داموا كذلك، فعليك ـ والخطاب موجّه إلى النبي(ص) ـ أن تعرض عنهم وتعظهم وتهددهم بلغة الجزاء المناسب. يقول النص **﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأَعْرِضْ عنهم وعظْهُم وقُلْ لهُمْ في أنْفُسِهم قولاً بليغاً﴾**.

هذا التعقيب علىٰ سلوك المنافقين ينطوي ـ كما أشرنا ـ علىٰ تسجيل ظاهرتين، الأولىٰ: أن المنافقين لا يخفون على الله تعالى، أنه تعالى يعلم ما في قلوبهم، وتبعاً لذلك، أعلَم الله تعالىٰ النبيّ(ص) بحقائقهم ففضحهم، وهذا هو أحد المعطيات، وأما الظاهرة الأخرىٰ فتتصل بقضية التعامل مع المنافقين، وهو تعامل سياسي تفرضه طبيعة الواقع الاجتماعي الذي يحياه مجتمع الإسلام حينئذٍ، فالمنافقون تظاهروا بالإيمان من جانب، واضطرّوا إلى المساهمة في بعض المعارك أو المواقف (مع أنّ التخريب ظهر واضحاً في مساهماتهم المشار إليها)، إلا أنه من الممكن ألا تكون المصلحة ـ في الفقرة المذكورة ـ محاربتهم مباشرة أو جهاراً، لذلك رسم النص طريقة خاصة في التعامل مع هذه الشريحة الاجتماعية المنحرفة، هي: أن يُعرَض عنهم من جانب، وأن يوعظوا من جانبٍ آخر (إذ أن في العظة خيط أملٍ بإصلاح البعض منهم)، ثم ـ من جانب ثالث ـ يأتي دور التلويح بالجزاء: وهو دور خاص حدده النص بقوله **﴿وقُلْ لَهُمْ في أنفسِهِم قولاً بليغاً﴾**، أي أن يوجّه النبيُّ(ص) إليهم خطاباً بلغة خاصة كأن يقول لهم مثلاً: إن أبرزتم ما في أعماقكم من العدوان أو الذاتية في السلوك: فسوف تُقتلون حينئذ.

أخيراً، ينبغي ألّا نغفل الموقع الهندسي لهذا المقطع من عمارة النص، حيث لحظنا كيف أن هذا المقطع يتناول شريحة اجتماعية من المنحرفين هي:

فئة المنافقين بعد أن عرض لها في مقطع أسبق فئة منحرفة هي: اليهود، حيث كان الطابع المشترك بين السلوكيين: اليهودي والمنافق، هو تغيير الحقائق، فاليهودي فضحه النص القرآني من خلال عرضه للتحريف الذي مارسه اليهود في كتبهم، والمنافق فضحه النص من خلال عرضه للتحريف الذي يمارسه المنافق لحقيقة أعماقه. إذاً، ثمة طابع مشترك بين السلوكيين هو (تغيير الحقائق) وهو أمرٌ يكشف لنا عن جمالية البناء الهندسي للنص القرآني الكريم: من حيث تجانس وتلاحم موضوعاته بعضاً مع الآخر بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلّا لِيُطاعَ بإذنِ الله ولو أنَّهُم إذْ ظَلَموا أنفُسَهم جاؤُوكَ فاسْتغفروا الله واستغفرَ لَهُم الرسولُ لَوَجَدُوا اللّهَ توَّاباً رحيما * فلا وربِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحكِّموكَ فيما شَجَرَ بيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسهم حَرَجاً ممَّا قضيتَ ويُسَلِّمُوا تسليماً * ولو أنَّا كتَبْنا عليهِمْ أنِ اقْتُلُوا أنفُسَكُم أو اخرُجُوا مِن ديارِكم ما فَعَلُوه إلا قليلٌ منهم ولو أنَّهم فَعَلوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكَان خيراً لَهُم وأشَدَّ تَثْبيتاً * وإذاً لأتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أجْراً عظيماً * ولَهَدَيْناهُم صِراطاً مستقيماً﴾ [النساء: ٦٤ ـ ٦٨].

هذا المقطع امتدادٌ لمقاطع سابقة تتحدث عن المنافقين الذين كانوا يتحاكمون إلىٰ الطاغوت، تحقيقاً لمكاسبهم الذاتية، مع زعمهم بأنهم يؤمنون بالله. هنا يقدّم النص دليلاً علىٰ كذب ادعاءاتهم وتسويغاتهم السابقة التي تقول بأنه تحاكُمَهم إلى الطاغوت إنما كان إحساناً وتوفيقاً. فأولاً يطالب النص القرآني الكريم بأن يعترفوا بخطأهم بدلاً من المكابرة والتبرير، ﴿لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله...﴾ فالصادق أو السويّ مَن يقرّ بعيوبه وليس مَن يتقنّع ويُلبِسُ سلوكَه قناعاً من التبرير، حيث أن الإقرار بالذنب والندم

عليه، كما لو جاؤوا إلى الرسول(ص) واستغفر لهم حينئذٍ ﴿لوجدوا الله توّاباً رحيماً﴾، لكن بما أنهم مرضىٰ (والمريض لا يقرّ بواقعه الشاذ بل يحاول تغطية عيوبه بتبريراتٍ يحفظ بها ماء وجهه) حينئذٍ لا إمكانَ بأن تُصدّق أقوالهم، لذلك أوضح النص القرآني الكريم بأن زعمهم الذاهب إلى أنهم إنما تحاكموا إلى الطاغوت لسببٍ معقول لا يمكن تصديقه ما لم يرجعوا إلىٰ صوابهم ويقدّموا دليلاً عملياً علىٰ صدق نواياهم، وهو أن يتحاكموا إلىٰ النبيّ(ص) فعلاً.

﴿فَلا وَرَبِّك لا يُؤْمِنُونَ حَتىٰ يُحكِّموك فِيما شجر بينهم ثم لا يَجِدُوا في أنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْليماً﴾. هنا قد يتساءَلُ البعض عن السّرّ الفنيّ الكامن وراء تشدّد النص علىٰ قضية التحاكم إلى النبيّ(ص) والتأكيد المتكرر على هذا الجانب. في تصوّرنا، أن هذا التأكيد ينطوي علىٰ تقرير الحقائق النفسية الخطيرة التي تكشف واقع الشخصية المنافقة أو المريضة بشكل عام، فمن الممكن أن يكشف سلوك بسيط: عن واقع التركيبة المريضة للشخص وشدة التوائه ومفارقاته. لذلك نجد أن النص طالبَ بأن يتحاكم هؤلاء إلى النبيّ علىٰ نحو لا يجدون (حرجاً) في أنفسهم من ذلك ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيت ويسلّموا تسليما﴾.

إن المنافق الذي يستبطن الكفر ليس من السهل عليه أن يذعن للحق ما دام نفاقه أساساً يقوم علىٰ البحث وراء الإشباع لشهواته، إنّ بحثه عن الشهوات هو الذي يدفعه إلى النفاق، وحينئذٍ كيف يسمح لنفسه بأن يتقبّل قرارات الرسول(ص) عندما يحكم(ص) لغير صالح المنافق. من هنا أكدّ النص علىٰ ظاهرة نفسية خطيرة للغاية مع أنها قد تبدو بسيطة ألا وهي قوله تعالى: ﴿ثم لا يَجِدُوا في أنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ فالحرج هنا قد يبدو شيئاً عادياً يمكن أن يتجاوزه الشخص، لكن بما أن المنافق يقوم سلوكه أساساً

علىٰ البحث وراء الإشباع الدنيوي، حينئذٍ سيجد حرجاً بالضرورة حيال الحكم الذي يصدره النبيّ لغير صالحه.

من هنا أوضح النص بأنّ فرز الصدق عن الكذب في ادعاءات المنافقين هو: ألا يجدوا حرجاً في أحكام النبيّ(ص) وأن يسلّموا بها لأن التسليم بها هو المظهر النفسي للإيمان حتى لو كان في غير صالح الشخص. وتقول النصوص المفسرة بأن سبب نزول هذه الآية يعود إلى أن النبيّ(ص) حكم في قضية زراعية لأحد الأشخاص في مخاصمة بينه وبين أحد المنافقين، حيث دفع هذا الحكمُ المنافقَ إلىٰ أن يتّهم النبي(ص) في قراراته لصالح الخصم. وهذا يعني (من الزاوية النفسية) أنّ المنافق لم يستطع أن يسيطر علىٰ أعماقه لدرجة أنه اتّهم النبيّ في القضاء: كل ذلك من أجل أنه(ص) لم يحكم لصالح المنافق، وإذاً، أين صدق الادعاء بأن المنافقين مؤمنون بالله ورسوله ـ كما زعموا ـ إذا كانوا لا يتورعون من اتهام النبيّ(ص) في إصدار قراراته. لذلك جاء التأكيدُ علىٰ أن هؤلاء لا يؤمنون إلا إذا سلّموا بقضاء النبيّ(ص) بحيث لا يجدون حرجاً في ذلك، جاء هذا التأكيد منطوياً على دلالة نفسية لها أهميتها الكبيرة كما أوضحنا.

بعد ذلك، يقدّم النص اقتراحاً تجريبياً لفرز السلوك السويّ عن السلوك المنافق قائلاً: ﴿ولو أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِم أنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُم أو اخرجوا مِن دِيارِكُم ما فَعَلُوه إلا قليلٌ مِنهم...﴾ هذا الاقتراح بالقتل يقف علىٰ التقابل بين أبسط تضحية (وهو أن يتقبل المنافق قضاء النبيّ(ص) وبين أشد تضحية (وهو أن يقتل المنافق نفسه إذا طولبَ بذلك)، ولكن الواقع أن كليهما (أي التنازل والقتل) يعبّران عن حقيقة واحدة في سلوك المنافق، كل ما في الأمر، أن النص استهدف تقديم أعزّ ما يملكه الإنسان وهو: التضحية بالنفس والمال ليبرهن علىٰ كذب ادعاءات المنافقين.

وأياً كان، من الملاحَظ (من حيث عمارة النص القرآني الكريم) أنّ هذا المقطع الذي تحدثنا عنه، يظل مرتبطاً بمقاطع سابقة تحدثت عن ظاهرة التحاكم إلى الطاغوت فيما شكّلت الخيط الفكري المشترك بين هذه المقاطع، مع أن كل واحدٍ منها يتضمّن موضوعاً مستقلاً عن الآخر كما لحظنا، مما يُفصح ذلك عن جمالية هذا التجانس بين المقاطع بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿ومَن يُطعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فأُولئك مَعَ الذِينَ أنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِين وحَسُنَ أُولَئكَ رَفيقاً * ذلِك الفَضْلُ مِنَ الله و كَفَىٰ بالله عَليماً... * و إنَّ منكم لَمَن ليُبطِئنَّ فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم فضلٌ من الله ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودّة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٣].

هذا المقطع امتداد لمقاطع سابقة تعرض سلوك المنافقين، وقد كان العرض السابق يتصل بتحاكمهم إلىٰ الطاغوت... أما المقطع الحالي فيتحدث عن شريحة أخرىٰ من سلوك المنافقين ألا وهي موقفهم من الجهاد في سبيل الله... فأولاً يتسم سلوك هؤلاء المنافقين بالبطء في الاستجابة حيال أيّة دعوة إلى الجهاد ﴿و إنَّ منكم لمن ليبطئنّ﴾... ثانياً، إذا قدر للإسلاميين أن تصيبهم مصيبة في القتال، يقول المنافق ﴿قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾، ثالثاً: إذا قدّر للإسلاميين أن ينتصروا، يقول: ﴿يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾.

هذه السمات الثلاث من السلوك تكشف بوضوح عن التركيبة الشخصية للمنافق، وهي تركيبة ـ كما كرّرنا ـ تقوم أساساً علىٰ البحث عن الإمتاع الدنيوي فحسب، ولأنها كذلك، تضطر إلىٰ أن تظهر الإيمان حتى تحقق

الإمتاع من خلال تأمين حاجاتها وإلا فإن مصيرها القتل أو لا أقل حرمانها من المكاسب الاقتصادية أو المعنوية التي تتطلع إليها. . . وهذا المعيار هو الذي يتحكم في سلوكها، فكما أنها ـ في قضية تحاكمها إلى الطاغوت ـ إنما فعلت ذلك فلأنها تستطيع أن تقدم الرشوة مثلاً إلىٰ الطاغوت فيحكم في الخصومة لصالحها، كذلك في قضية الدعوة إلىٰ الجهاد، فهي تبطىء في تقبّل هذه الدعوة لأنّ تقبّلها يعرّضها لاحتمال القتل، وهذا ما لا ينسجم مع تطلعاتها الدنيوية، ولذلك تقدم مختلف الأعذار للتخلّف عن الجهاد، ثم بعد أن تتخلّف عن الجهاد تظل مترقبةً لنتائج المعركة، فإذا انتصر المسلمون تمنّىٰ المنافق أن يكون معهم فيفوز بالغنائم، وإذا لم ينتصر المسلمون، اغتبط المنافق، وقال: إن الله قد أنعم عليه إذ لم يكن حاضراً في المعركة. وإذاً، في الحالات الثلاث ينطلق المنافق من سمة سلوكية واحدة هي (النفعية) التي تغلّف كل تحركاته ومواقفه في الحياة.

والآن، بعد أن يفضح النص القرآني الكريم سلوك المنافقين المتّصل بموقفهم من الجهاد، يستثمر النص قضيّة الجهاد ليحدثنا عنها وعن معطياتها وعن المبادىء التي يصدر عنها الإسلاميون في التعامل مع هذه القضية، فيقول:

﴿فليقاتِلْ في سَبِيلِ الله الذِين يَشْرُون الحياةَ الدُنيا بالآخرةِ وَمَنْ يُقاتِلْ في سَبيلِ الله فَيُقْتَل أَوْ يَغْلِبْ فَسَوفَ نُؤتِيهِ أَجْراً عَظيماً﴾ [النساء: ٧٤].

إن هذا الطرح عن الجهاد يجيء في سياق فنّي له أهميته الكبيرة دون أدنىٰ شك، فالنص يستهدف تقديم جملة من الأفكار، إنه يستهدف التأكيد علىٰ أهمية الجهاد، ويستهدف التأكيد علىٰ سلوك المنافقين حيال ظاهرة الجهاد، ويستهدف الوصول إلىٰ نتيجة محددة وراء عرضه لهذه الجوانب ألا وهي أن الجهاد في الحالات جميعاً يقترن بمعطياتٍ ضخمة لا ترديد فيها، فالمقاتل في

سبيل الله إمّا أن يستشهد وإما أن ينتصر، وفي الحالين ـ يقول النص ـ ﴿فسوف نُؤتيه أجراً عظيماً﴾. إذاً لا خسارة البتة حتى في حالة الاستشهاد.

بعد ذلك، يقدم النص أدلة حسيّة في صعيد تجربة الدنيا ذاتها فضلاً عن الآخرة التي أمّنها للمقاتل من حيث الأجر الذي يتسلّمه... يقول النص ﴿وما لكم لا تُقاتِلُون في سبيلِ الله والمُسْتَضعفِينَ مِنَ الرجالِ والنِساءِ والولدان الذِينَ يَقُولُون ربَّنا أخرجنا مِن هذه القرية الظالِم أهلها...﴾ [النساء: ٧٥].

فالنص ينطلق من صعيد إنساني في حثه علىٰ الجهاد ألا وهو وجود المستضعفين من الرجال والنساء والوالدان. كما أنه يسلك منحىً فنياً له أهميته في إثارة المشاعر ودفعها إلىٰ الجهاد ألا وهو: رسمُ المستضعفين في أشد حالاتهم من الأذىٰ بدليل أنهم يقولون ويهتفون بأسىٰ ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ فهذا الهتاف يكشف أن المستضعفين ـ وكانوا في مكة حينئذٍ ـ قد اشتدّ بهم الأذىٰ إلى درجة أنهم يعتصرون أفئدتهم ويتوسّلون بحرارة أن ينقذهم الله من الظَلَمة المشركين.

إذاً، في حثّه علىٰ الجهاد ـ قد سلك النص منحًى فنياً ونفسياً ـ حينما ربط قضية الجهاد ليس بالعطاء الأخروي فحسب،بل بدلالات إنسانية لا يملك الشخص حيالها إلا أن يستجيب للجهاد من أجل إنقاذ المستضعفين الذين يعانون من الظلمة أشدّ العذاب بحيث يتوسّلون بمرارة أن ينقذهم الله من الشدائد.

بعد ذلك، يعقّب النص علىٰ قضية الجهاد قائلاً ﴿الذين آمَنُوا يُقاتلُونَ في سبيلِ الله والذينَ كَفَروا يُقَاتِلُونَ في سَبيلِ الطاغوت...﴾ [النساء: ٧٦].

هنا ينبغي ألا نغفل عن العمارة الفنية للسورة الكريمة التي بدأت في عرضها لسلوك المنافقين بالحديث عن كونهم يتحاكمون إلىٰ الطاغوت، وها هو المقطع الحالي يربط بين المقاطع السابقة التي تحدثت عن احتكام المنافقين

إلى الطاغوت وبين المقطع الحالي الذي نتحدث عنه حيث وازن بين المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله وبين الكافرين الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت، وبهذا الربط بين المقاطع يكشف لنا النص عن مدىٰ إحكام عمارته من حيث تجانس وتلاحم جزئياته بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلىٰ الذينَ قيلَ لَهُم كُفُّوا أيديَكُم وأَقِيموا الصلاة وآتُوا الزكاة فَلَمّا كُتِبَ عَليهِمُ القِتالُ إذا فَرِيقٌ مِنْهُم يَخْشَونَ الناسَ كخشيةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَة وقالوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَينا القِتالَ لولا أَخَّرْتَنا إلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنيا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَن اتَّقىٰ ولا تُظْلَمُونَ فتيلا﴾ [النساء: ٧٧].

هذا المقطع أو الآية الكريمة تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، وكان المقطع الأسبق من السورة يتحدث عن الجهاد أيضاً إلا أنّه عَرَض قضية الجهاد في سياق الحديث عن المنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجهاد إيثاراً للعافية. هنا يتحدّث النص عن الجهاد أيضاً، ولكن في سياق جديد هو: موقف بعض الضعفاء نفسياً من قضية الجهاد. إن هذا البعض ـ عندما كان في مكة يعاني جانباً من الاضطهاد الذي كان المشركون يمارسونه حيال المؤمنين ـ كان يُقال لهم: لَمْ يُحن القتالُ بعد، فلا تقاتلوا المشركين، لكن عندما كُتب القتال عليهم إذا بهم يجبنون عن القتال ويقولون ﴿ربَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَينا القِتالَ لولا أَخَّرْتَنا إلىٰ أَجَلٍ قَرِيب...﴾ هذا الحوار قد يكون داخلياً، أي: قد يكون تساؤلاً يلقيه الشخص علىٰ نفسه كأن يكون بمثابة خواطر تحوم علىٰ ذهنه، وقد يكون هذا الحوار خارجياً، أي: قد يكون تساؤلاً يلقيه الأشخاص (وهم يتحدثون فيما بينهم) ثم يتجهون إلى الله تعالى ويقولون: ﴿ربنا لم كتبتَ علينا القتال﴾. وفي الحالين فإن هذا الحوار يكشف (من حيث العنصر الفني) عن حقيقة الأعماق التي تنطوي عليها بعض الشخوص ممن لم يرسخ الإيمان فيها.

وقد استخدم المقطع القرآني الكريم عنصر (التشبيه) في عَرضِه لهذه السمة التي تطبع بعض الشخوص الضعاف عبادياً، فقال عنهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾. هذا التشبيه يجسّد نوعاً من التركيب الفنّي الذي يقوم علىٰ إحداث علاقة بين طرفين من خلال إبراز ما هو أشدّ وليس من خلال إبراز ما هو مماثلٌ بين طرفي التشبيه، وأهمية هذا النوع من التشبيه الفني تكمن في إبراز إحدىٰ الحقائق التي تستهدف الذهاب إلى أنّ (المشبّه) هو أشد فاعليةً من (المشبّه به)، لذلك قال النص أولاً: إن بعض الناسِ يخافون القتل أو الموت من قِبَلِ الآخرين مثل خوفهم الموت من قِبل الله تعالى، بل أنهم يخافون القتل من الناس أكثر ممّا يخافون الموت من قبل الله تعالى.

أهمية هذا التشبيه ـ كما قلنا ـ تتمثل في تجسيد حقيقةٍ ذات خطورة هي: قضية الموت، فالموت نهاية كلّ إنسان، طال أمدُه أو قصر، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يخاف البعضُ من الناس الموتَ إذا كان في سبيل الله بل لماذا يخافونه أكثر مما يخافون الله تعالى؟ هذا هو التساؤل الذي يطرحه المقطع القرآني الكريم حيال البعض من الناس، مستهدفاً تأكيد الحقيقة الذاهبة إلى أن الموت في سبيل الله ينبغي أن يحتل عناية المؤمنين وألا ينزلق إلىٰ هوّة المتاع العابر للحياة الدنيا، لذلك عقّب النص علىٰ الحقيقة المذكورة فقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنيا قَلِيلٌ والآخِرةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَىٰ...﴾.

ومن الواضح أن هذا التعقيب علىٰ كلام المتخاذلين الذين قالوا ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ لولا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قرِيب﴾، هذا التعقيب ينطوي علىٰ مهمة فنية تتطلبها طبيعة التساؤل الذي صدر عن أولئك المتخاذلين. أنهم طلبوا تأجيل القتال إلىٰ وقت آخر، وهذا يعني أنهم أكسبوا دنياهم جانباً من الأهمية إيثاراً للعافية، مضافاً إلى أنّ خشيتهم من الموت أشدّ خشية من الله تعالى تعبّر

عن نفس التطلّع إلىٰ متاع الحياة الدنيا، لذلك تقدّم النصُّ ليوضّح لهم خطأ تصوراتهم، عندما أوضح بأن متاع الدنيا قليل، وإن الآخرة أشدّ إمتاعاً لمن اتقىٰ، فإذا كان هدف هؤلاء الذين طالبوا بتأجيل القتال هو إشباع حاجاتهم دنيوياً، فإن الآخرة أشد إشباعاً لهم، مما يتعين ـ في مثل هذه الحالة ـ أن ينصبّ اهتمامهم على الإشباع الأخروي.

مضافاً لذلك، نجد أن المقطع يتقدم بدليلٍ آخر ليعمّق هذه الحقيقة في أذهان هذا الفريق من الناس، فيقول ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ولو كُنتُم فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَة...﴾ [النساء: ٧٨].

من الواضح، أن هذا التعقيب (من حيث البُعد الفنيّ) يحسم كل شيء، فبعد أن يوضح النص بأن الإشباع الأخروي أشدّ إمتاعاً من الإشباع الدنيوي، يجيء إلى قضية الموت الذي يخشاه بعض الناس إيثاراً لمتاع الدنيا، فيقرر أن الموت نفسه لا بدّ منه حتىٰ لو هرب الناس منه في بروجٍ مشيدة.

ومن الواضح أن (البروج المشيدة) تظل رمزاً لكل موقعٍ حصين يخال الإنسان أنه يقيه من الشدة التي يخشاها. والمهم، أن النص قد تدرّج فنياً من خلال عنصر الحوار والسرد لتعميق قناعة المتلقي بأنّ القتل في سبيل الله ينبغي أن يستبشر به المؤمن لأنه يحقق الإمتاع في أضخم مستوياته التي يتطلع إليها، والمهم أيضاً، أن النص من خلال عرضه لهذا النمط من الناس الذين يخافون الموت أكثر مما يخافون الله، يكون قد أحكم عمارة النص القرآني الكريم حينما تحدث عن هذا الجانب في سياق حديثه عن فئة أخرىٰ سبق أن عرض مواقفها من الجهاد، وهو التخلّف عنه إيثاراً لمتاع الدنيا، حيث يظل العنصر المشترك بين هذين الفريقين (بالرغم من كون أحدهما مؤمناً والآخر منافقاً) هو الخيط الفني الذي يربط بين أجزاء السورة، مما يفصح ذلك عن مدىٰ جمالية وإحكام النص.

قال تعالى: ﴿أَيْنَما تَكُونُوا يُدرككُمُ المَوْتُ ولو كُنتم في بروجٍ مُشيَّدةٍ وإنْ تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يَقُولوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ الله وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذه مِن عِنْدِك قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله فَما لِهؤلاءِ القَومِ لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً * ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فمِنْ نَفْسِك وأَرْسلناكَ للناسِ رَسُولاً وكَفَىٰ بالله شَهِيداً﴾ [النساء: ٧٨ ـ ٧٩].

هذا المقطع من سورة النساء يطرح قضيّة فكرية تعدّ مثيرةً بالنسبة إلىٰ السلوك الطوعي عند الإنسان، وبالنسبة إلىٰ الظواهر الكونية وصلتها بالمبدع تعالى، ثم صلة أولئك جميعاً بالعمل العبادي الذي يصدر عنه الإنسان وانعكاساته إيجاباً أو سلباً.

إن المقطع يطرح هذه الفكرة الجديدة في سياق عرضه المفصّل لسلوك المنافقين الذين احتل الحديثُ عنهم مساحة كبيرة في هذا القسم من سورة النساء، وحيث كان العرض لسلوك اليهود والمشركين وضعاف النفوس من المسلمين قد احتلّ من السورة مكانه أيضاً.

هنا ـ في هذه الشريحة الفكرية الجديدة ـ يطرح النص موضوعاً يمكن (من الزاوية الفنية) أن ينسحب علىٰ سلوك هذه الفئات المنحرفة جميعاً: كتابيين، ومنافقين، وضعاف النفوس. فالنصوص التفسيرية تتفاوت في تحديد ذلك، مما نستكشف من خلاله أهمية هذا الطرح الفنّي الذي يترشح بإيحاءات مختلفة. ولكن الأهمّ من ذلك كله، أن المقطع القرآني الكريم يطرح هذه الفكرة وفق منحىً فنيّ في غاية الإثارة والجمال، حيث يقول لنا أولاً: إن المنحرفين إذا أصابتهم حسنة، قالوا: هذه من عند الله.

وإذا أصابتهم سيئة قالوا هذه من عند الرسول(ص).

ويقول لنا ثانياً: إن كلاً من الحسنة والسيئة هما: من عند الله.

ثم يقول لنا ثالثاً: إن الحسنة من عندالله وإن السيئة من عند الإنسان المنحرف.

فالمُلاحظ أن القارىء إذا كان عادي التأمل فسوف يتوقّف قليلاً ويتساءل قائلاً: إن النص يقول لنا من جانبٍ إن الحسنة والسيئة من عند الله، ثم يقول لنا: إن الحسنة من الله، والسيئة من الإنسان من جانب آخر، فكيف يتم التوفيق بين هذين الاتجاهين؟.

لكن ـ وهنا تكمن أسرارُ الفن القرآني الكريم ـ لو دققنا النظر، لوجدنا أن الصياغة الفنية لطرح هذه المشكلة الفكرية هي التي تُكسب النص مثل هذه الأهمّية، وهذا ما يقتادنا إلى التحليل الفني لها، فنقول: إن المنافقين واليهود أو مطلق المنحرفين الذين كان النص القرآني في صدد الحديث عنهم، قالوا: ما أصابنا من نصر عسكري أو من خصب زراعي فمن عند الله، وما أصابتنا من هزيمة عسكرية أو جدبٍ زراعي فمن محمد(ص).

وفي ضوء هذا الزعم لا بد أن يتقدم النص، فينسب كل شيء إلى الله تعالى. لكن بما أن قضية النصر والهزيمة أو الخصب والجدب يتكيفان ـ من جانبٍ آخر ـ بمقدار ما يسلكه الإنسان من تعاملٍ خيّر أو شرير، حينئذٍ يترك هذا التعاملُ أثرَه على النصر والهزيمة أو الخصب والجدب، وهذا يعني أن الحسنة والسيئة ـ وهما رمز للنصر والهزيمة أو رمزٌ للخصب والجدب ـ في نفس الوقت الذي يرتبطان من خلاله بمشيئة الله تعالى، يكيّفهما الله وفقاً لنمط التعامل الإيجابي أو السلبي عند الإنسان أيضاً. لكن قد يُثار السؤال من جديد إذا كان الأمر كذلك، فلماذا ينسب النصُّ الحسنة إلى الله، والسيئة إلى الناس: ﴿ما أصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وما أصابَك مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِك﴾.

هنا أيضاً تكمن خطورة الفن العظيم الذي يصوغ الحقائق وفق لغةٍ فنية إيحائية يدع القارىء من خلاله يستخلص الحقيقة القائلة: إن النصر أو الخصب

أو الهداية مقابل الهزيمة أو الجدب أو الضلال، ناجمة من الله بصفة أنه تعالى مصدر الخير، وأن الهزيمة والجدب والضلال، وإن كانت فاعليتها من الله تعالى أيضاً، ولكن بما أن الإنسان قد كفر بنعمة الله، حينئذٍ فإن هذه السيئة (الهزيمة والجدب والضلال) تنتسب إلى الإنسان الذي اختار السلوك الشرير، وبكلمة أشد وضوحاً أن كل خيرٍ فمن الله وكل شر فمن الإنسان (وهذه قاعدة عامة). ولكن بما أن الطاعة والمعصية تتركان أثرهما علىٰ تكييف الأحداث حينئذٍ فإن الله تعالى ينزل بركات السماء علىٰ أهل الطاعة وينزل نقماته علىٰ أهل المعصية، فتكون الحسنة والسيئة من جانبٍ هي بسبب من الله تعالى في نفس الوقت الذي يختصّ فيه الله بالحسنة لأنه لا يصدر إلا عن الحسَن، ويختص الإنسان بالسيئة لأنه قد يختارها بملء إرادته.

وأياً كان الأمر، يعنينا، بعدما تقدم؛ أن نشير في النهاية إلىٰ المبنىٰ الهندسي للنص من حيث صلة هذه الفكرة التي طرحها المقطع القرآني الكريم بهيكل السورة، وهو أمرٌ لحظناه بوضوح: ما دامت قضية النصر أو الخصب أو الهداية مقابل الهزيمة أو الجدب أو الضلالة قد ارتبطت بسلوك المنافقين واليهود والضعاف نفوساً: ممن عَرَضَ النص القرآني جانباً من سلوكهم في مقاطع سابقة من السورة الكريمة، فيما يكشف مثل هذا الوصل بين المقاطع عن إحكام عمارة النص وجماليته، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطاعَ الله ومَنْ تَوَلَّىٰ فَما أرْسلناكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً * وَيقُولُونَ طاعةٌ فإذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائفةٌ مِنْهُم غَيْرَ الذِي تَقُولُ والله يَكْتُبُ ما يُبيِّتُونَ فأعْرِضْ عَنْهُم وتوكَّلْ عَلىٰ الله وكفىٰ بالله وكيلا﴾ [النساء: ٨٠ ـ ٨١].

هذا المقطع امتدادٌ لمقاطع سابقة تتحدث عن المنافقين الذين يعرض

النص القرآنيُ شرائحَ مفصلةً عن سلوكهم. الجديد في هذا المقطع هو: إبراز مواقفهم من الجهاد في سبيل الله من خلال إبراز مشاعرهم الداخلية التي يصدرون عنها مقابل السلوك اللفظي الذي يصطنعونه للتمويه، أنهم يقولون للنبيّ «ص» (طاعة) أي يتظاهرون بإطاعة الرسول في كلّ ما يأمرهم به، ولكن، ما إن فارقوه حتىٰ بيّتوا شيئاً غير الذي تظاهروا به أمام الرسول(ص). ويُلاحظ أن المقطع كشف بهذا عن أن المنافق لم يتردّد بين لحظات الخير والشر بحيث يقطع مراحل من التفكير ومدارسة الأمر وتقليب مختلف النظرات للوصول إلىٰ ما هو في صالحه، بل أن نزعة الشر غلبته بنحوٍ ما أن يستمع إلى اقتراح من النبي(ص) حتىٰ يتظاهر بتقبله سريعاً لدرجة أنه يقول (طاعة) تعبيراً عن تمام القناعة التي يتظاهر بها، ثم ما أن يفارقه حتىٰ يبيّت ما هو خلاف الطاعة، بمعنىٰ أنه سلفاً قد حدّد موقفه من رفض الخير والإمعان في الشر.

ثم يتقدم النص بشريحة أخرىٰ من سلوك المنافق، فيقول ﴿وإذا جاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأمْنِ أو الخَوْفِ أذاعُوا بِهِ ولو رَدُّوهُ إلىٰ الرسولِ وإلىٰ أُولِي الأمْرِ منهم لَعَلِمَهُ الذِين يَسْتَنْبِطُونَهُ. . .﴾ [النساء: ٨٣].

لا نغفل، أن النص عندما يتحدث عن المنافقين أو الكتابيين أو الضعاف إيماناً، لا يطلق صفة (التعميم) عليهم، بل نجد صفة (التبعيض) هي التي تتردد في العبارة القرآنية مثل قوله ﴿فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ فهو يحدد (طائفة) منهم وليس كلّهم. سرّ ذلك: أن للانحراف درجاته، كما أن لتعديل سلوك الإنسان فرصه المختلفة، وما دام هدف العرض لسلوك المنافقين وسواهم هو فضحهم من جانب، فإن الجانب الآخر من الهدف يتمثل في إمكانية تعديل سلوك البعض منهم ممن لم يتجذّر الشر في أعماقهم بعد. لذلك نجد في المقطع الذي نتحدث عنه أن النص في الوقت الذي يقول فيه إنّ هؤلاء ﴿وإذا جاءَهُم أمْرٌ مِنَ الأمْنِ أو الخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ﴾، أي:

أنهم يرجفون ويشيعون أخبار القتال أو السلم، نجده يعاتب هؤلاء بقوله:
﴿ولو رَدُّوهُ إلىٰ الرَّسُولِ وإلىٰ أوْلِي الأَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الذِينَ يَسْتَنْبِطُونه﴾ حيث نستخلص من هذا العتاب أنّ إمكانية التعديل لسلوك البعض منهم أمرٌ لا تشكيك فيه، وأن البعض منهم إذا كان الشرّ قد تجذر فيه إلىٰ درجة أنه يبيّت في نيّته شيئاً غير الذي قاله للرسول(ص)، فإن البعض الآخر منهم يظل متأرجحاً أو غافلاً يرجف بإشاعات وأقاويل لو ردّها إلى الرسول وإلىٰ أولي الأمر لانكشفت الحقيقة له، وهذا يعني أن قسماً من المنحرفين من الممكن أن يتعدل سلوكه فيتجه إلى الرسول وإلىٰ أولي الأمر.

هنا ينبغي أن نلفت النظر إلىٰ الجانب العماري أو الهندسي من النص، حيث نلحظ أن النص وهو يتحدث عن المنافقين، يطرح في الوقت نفسه أفكاراً أو موضوعاتٍ سبق أن تحدث عنها أو موضوعات جديدة تبدو وكأنها طارئة علىٰ النص. من ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقوله تعالى ﴿أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآن ولو كان مِنْ عِند غير الله لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿وَلَو رَدُّوهُ إلىٰ الرسولِ وإلىٰ أولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ... الخ﴾، هذه الإشارات إلىٰ الله، والرسول، وأولي الأمر، ثم: الإشارة إلى القرآن وكونه لا اختلاف في طبيعة أساليبه ومضموناته، لا بد أن تنطوي علىٰ أسرار فنية تتصل بعمارة السورة الكريمة وبأهداف فكرية يُراد توصيلها إلى القارىء.

إن أدنىٰ تأمل يقتادنا إلى التذكر بأن مقدمة هذا القسم من السورة بدأت بالحديث عن اليهود وتحريفاتهم ثم بالحديث عن المنافقين وتحاكمهم إلى الطاغوت، وفي غمرة الحديث عن التحريف والتحاكم كان النص يؤكّد بين الحين والآخر علىٰ إطاعة الله والرسول وأولي الأمر، راسماً بذلك للإسلاميين مصادر التشريع التي ينبغي أن يتّجه الناسُ إليها، ها هو النص يربط بين

المقاطع المتقدمة وبين هذا المقطع الجديد من خلال نفس الفكرة التي تستهدف لفت النظر إلى لزوم طاعة الله، والرسول، وأولي الأمر سواء أكان ذلك في نطاق (العقائد) التي استهدفها التحريفيون اليهود، أو نطاق (القضاء) الذي استثمره المنافقون ليكون الحكمُ لصالحهم أو نطاق «القتال» الذي أرجف به الضعاف نفوساً.

كل ذلك قد استهدفه النص في غمرة حديثه عن سلوك المنافقين، حيث أن التذكير بأهمية الرجوع إلىٰ مصادر التشريع: الله، الرسول، (أولي الأمر) وهم أهل البيت(ع)، يظلّ هدفاً فكرياً يبرزه النص من آن لآخر حتىٰ تركّز هذا المفهوم الخطير في الأذهان، وذلك من خلال المنحىٰ الفنّي المتمثل في عملية الربط بين أجزاء السورة الكريمة، مُفصحاً بذلك عن مدىٰ جمالية وإحكام المبنىٰ الهندسي للنص.

* * *

قال تعالى: ﴿فقاتِلْ في سَبيلِ الله لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ وحَرِّضِ المُؤْمنينَ عسىٰ الله أنْ يَكُفَّ بأسَ الَّذينَ كَفَرُوا والله أَشَدُّ بأساً وأَشَدُّ تَنكِيلاً * مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ منهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَهُ كِفْلٌ منهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً * وَإذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحيُوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ لاَ رَيْبَ فيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً * فَمَا لَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٤ ـ ٨٨].

هذا المقطع من سورة النساء لا يزال يتحدث عن المنافقين الذين خُصّص هذا القسم الكبير من النص في الحديث عنهم. طبيعياً، ينبغي أن نكرّر بأن أهمية النص الفنيّ تتمثّل ـ في جملة ما تتمثّل به ـ في كونه يطرح مختلف

الأفكار في سياق حديثه عن موضوع محدد مثل المنافقين، حتى أنه ليمكن القول بأن الأفكار الأشد أهمية من غيرها تأتي غالباً في سياق موضوع ثانويّ الأهمية، فالمنافقون يشكّلون موضوعاً ذا أهمية دون أدنىٰ شك لأنهم عنصر تخريبي ينبغي أن يُحذّر منه في ميدان القتال الذي يندب إليه محمد(ص)، إلا أن القتال في سبيل الله هو الهدف الأشدّ أهمية من غيره، لكن نجد أنه يُرسَم في سياق الحديث عن المنافقين، وما ذاك إلا بسبب فنيّ هو: أن كل سورة أو مقطع يتكفل بطرح فكرة من الأفكار فتحتل أهميةً نسبية بالقياس إلى غيرها. هنا ـ في المقطع الذي نتحدث عنه ـ يطرح النصُ جملةً من الموضوعات، وفي مقدمتها: المطالبة بالقتال في سبيل الله، وتحريض المؤمنين، وعدم الاهتمام بالمنافقين الذين يتذرّعون بحجج مختلفة للهروب من مسؤولية القتال، وهو موضوع ـ كما نلحظ ـ يمثل الأهمية الرئيسة في النص، لكنه ـ أي القتال ـ طُرِح في سياق الحديث عن المنافقين للسبب الفني الذي ذكرناه.

ولو ذهبنا نتابع محتويات المقطع الذي نتحدث عنه لوجدنا أن من الموضوعات ما يبدو وكأنه طارىء، وبعضها قليل الأهمية بالنسبة إلى غيره... لكن إذا أخضعنا هذه الظاهرة إلىٰ مفهوم (النسبية) التي أشرنا إليها، حينئذٍ ندرك أهمية الفن الذي يتحدث عن مختلف الموضوعات في سياق خيطٍ فكري يوحّد فيما بينها في النهاية أو ينتقل من أحدها إلى الآخر من خلال إيجادِ رابط فكريّ بينها.

نسوق هذه الحقائق ونكرّرها لأننا في صدد المواجهة لموضوعات تُطرح في هذا المقطع وفي مقاطع لاحقة تخضع غالبيتها لهذا البناء العماري الذي أشرنا إليه. فالمقطع يحدّثنا عن أحد مبادىء القتال وهو ألّا يهتمّ المقاتل إلّا بوظيفته دون غيرها ويحدثنا عن مفهوم (الشفاعة) التي قد تعني الإصلاح بين اثنين أو الدعاء أو الوساطة، ويحدثنا عن (التحيّة) ووجوب الردّ عليها بمثلها

أو بأحسن منها، ويحدثنا عن اليوم الآخر وحشر الناس للحساب، ويحدثنا ـ بعد ذلك ـ عن الموضوع الرئيس الذي يحوم عليه هذا القسم من السورة ونعني به: الحديث عن المنافقين حيث يطالب الإسلاميين ألا يشغلوا أنفسهم بسلوك المنافقين ومصائرهم حيث انشطر الإسلاميون إلى فريق يكفّر المنافقين وفريق لا يكفّرهم، مُنتهياً من ذلك إلىٰ أن الله تعالى أدرجهم في قائمة الكفّار وأنه لا سبيل إلى هدايتهم، إلا البعض. فالملاحظ من كل ما تقدّم، أن المقطع طرح علينا جملة من الموضوعات المختلفة، لكنه وصَلَ بينها وبين الفكرة الرئيسة في النص وهي: رسم سلوك المنافقين. ثم طرح موضوعاً جديداً يتصل بوظيفة الإسلاميين من هؤلاء، من حيث السلوك العسكري حيالهم، فأوضح بأن وظيفة الإسلاميين هي: أن يقاتلوا هؤلاء إلاّ إذا هاجروا في سبيل الله، وإلا في حالة وجود معاهدة بين الطرفين بعدم القتال، أو في حالة وجود فريقٍ محايدٍ منهم، وأمّا في حالة وجود فريق رابع يحاول أن يتجاوب مع الإسلاميين والمشركين في آنٍ واحد، حينئذٍ إذا كف هؤلاء عن محاربة الإسلاميين، فهو، وإلا فعلىٰ الإسلاميين مقاتلتهم.

الملاحَظ ـ من كل ما تقدم ـ أن النص القرآني الكريم، قطع رحلة طويلة يحدّثنا فيها عن سلوك المنافقين، ثم أنهىٰ هذه الرحلة بالحديث عن موقف الإسلاميين منهم، من حيث القتال، حيث رسم جملة من مبادىء القتال، وبذلك مهّد لموضوع جديد سوفَ يتناوله قسم آخر من سورة النساء، ألا وهو: القتال أو الجهاد في سبيل الله وما تواكبه من المبادىء التي ينبغي أن يلتزم بها الإسلاميون.

وبهذا اللون من التمهيد الفنّي لموضوع (القتال في سبيل الله)، يكون النص القرآني الكريم قد أخضع ـ لحد الآن ـ هيكل السورة الكريمة (سورة النساء) إلىٰ أقسام ثلاثة، تحدث في القسم الأول منها عن العلاقة بين الجنسين

وما ترتبط بهما من موضوعات، وتحدث في القسم الثاني منها عن المنافقين، ويتحدث في القسم الثالث منها عن: القتال ومبادئه كما سنرىٰ ذلك لاحقاً، أولئك جميعاً قد تمت صياغته من خلال هيكل فنّي محكم من حيث تلاحم أجزاء النص وتواشج بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿وما كانَ لِمُؤمنٍ أن يَقْتُلَ مؤمناً إلا خَطأً ومَن قَتلَ مؤمناً خَطَأً فَتحريرُ رَقبةٍ مُؤْمِنةٍ ودِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلىٰ أَهْلِهِ إلاَّ أن يَصَّدَّقُوا فَإن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمةٌ إلىٰ أَهْلِهِ وتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَم يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ٩٢].

بهذا المقطع وما بعده، يبدأ القسم الثالث من سورة النساء وهو خاص بقضيّة (القتال) ومبادئه، حيث مهّد له النص من خلال حديثه عن المنافقين وموقفهم من القتال بعامة. المبدأ الذي يطرحه النص في هذا المقطع يتصل بقتل الخطأ وما يترتّب عليه من الجزاء الاجتماعي من تحرير رقبةٍ مؤمنة وديةٍ... الخ، حسب التفصيل الذي يرد في الكتب الفقهية. هنا يستثمر النص حديثه عن قتل الخطأ ليعلّق علىٰ القتل المتعمّد فيقول: ﴿ومَن يَقْتلْ مُؤْمِناً متعمِّداً فجزاؤهُ جهنَّمُ خالِداً فيها وغَضِبَ اللّهُ عليهِ ولعَنَهُ وأعدَّ لَه عذاباً عظيماً﴾ [النساء: ٩٣]، ثم يستثمر النص هذا الجانب أيضاً، ليطرح قضية بالغة الأهمية هي قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إذا ضَرَبْتُم في سبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا ولا تَقُولُوا لِمنْ أَلْقىٰ إليكُم السَلامَ لَستَ مؤمناً تبتَغُونَ عَرَضَ الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كُنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبيَّنوا إنَّ الله كانَ بما تعملون خبيرا﴾ [النساء: ٩٤].

إن هذه القضية ترتبط بالقتال من جانبٍ وبسمة الشخصية المقاتلة ـ من

جانب آخر ـ من حيث استواء الشخصية أو شذوذها، فالمقاتل من الممكن أن تطبع شخصيته سماتٌ سلبية، كما لو كان ذا نزعة عدوانية أو كان حريصاً يُعنىٰ بالغنيمة من أجل الإشباع العابر في الحياة الدنيا، لذلك حذّر هذا المقطعُ أمثلة هؤلاء المقاتلين من أن ينصاعوا لشهواتهم الذاتية مُطالباً إياهم أن يتريثّوا وألاّ يقتلوا مَن حيّاهم بتحية الإسلام لمجرد تشكيكهم بصدق تحيّته. ومن الطبيعي أن التشكيك قد يقترن بخلفية ذاتية تتخذ منه قناعاً يسوّغ عملية القتل حتىٰ يظفر بالغنيمة، وقد يكون عاملاً للتسرّع في القتل نظراً لكون القاتل يتعجل الظفر بالغنيمة، ففي الحالين ينبغي ألا يمارس المقاتل أي سلوك تترشح منه ذاتيته وحبّه لعرض الحياة الدنيا.

بعد ذلك، يطرح النص مبادىء أخرىٰ من القتال في سبيل الله، منها: وظيفة الشخصية حيال الالتحاق بميادين القتال وفرز المعذور عن ذلك، ودرجة المقاتل والقاعد فيقول: **﴿لا يَسْتوي القاعِدُونَ من المُؤمنينَ غَيْرُ أولي الضَرَرِ والمجاهدونَ في سبيلِ الله بأمْوالِهم وأنْفُسهم فَضَّلَ الله المجاهدين بِأمْوالِهم وأنفسِهم علىٰ القاعدين درجةً، وكلاً وعَدَ الله الحسنىٰ، وفضّل الله المجاهدينَ علىٰ القاعدينَ أجْراً عظيماً﴾** [النساء: ٩٥].

النص يطرح هنا قضية المساهمة في القتال من زاوية التفضيل وليس من زاوية الوجوب أو الندب، فإذا استثنينا ما يُصبح إلزامياً ـ كما لو تطوّع قسم فسقط عن الآخرين وجوبُ الالتحاق ـ حينئذٍ فإن المجاهد غير القاعد لا بدّ أن يُفضَّل علىٰ الأخير إلا في حالة كون القاعد معذوراً فحينئذٍ لا تفضيل لأحدهما علىٰ الآخر بخاصة إذا اقترنت نيّة القاعد بالمساهمة في القتال لولا أنّ المرض أو غيره حَجَزه عن ذلك. ويُلاحظ أن النص أكد علىٰ أن التفضيل هو درجات كبيرة وليس مجرد تفضيل عادي حيث كرّر الجملة قائلاً: **﴿وفضَّل الله المجاهدينَ علىٰ القاعدينَ أجْراً عظيماً درجاتٍ منهُ ومغفرةً ورحمةً...﴾**

[النساء: ٩٥ ـ ٩٦]، فبالرغم من أن النص قال في البداية: ﴿فضَّل الله المجاهدينَ بأموالِهم وأنفُسِهم علىٰ القاعدينَ درجةً...﴾ نجده يكرّر ذلك ويقول ﴿وفضَّل الله المجاهِدِينَ علىٰ القاعِدِينَ أجْراً عظيماً * دَرجاتٍ منه...﴾. وفي تصوّرنا ـ أن القاعد المعذور إذا كان بمقدوره أن يساهم في المعركة ـ حينئذٍ قد تتعاظم درجات فضله علىٰ غيره، مما يفسّر لنا السرّ الفني لهذا التكرار، علماً بأن المفسّرين تراوحوا في تحديد هذا الفارق بين الذهاب إلى أن المقصود من الجملة الأولى (وهي التفضيل بدرجات) علىٰ غير أولي الضرر وبين الذهاب إلى أن المقصود (بالدرجة) علو المنزلة فحسب، وبالدرجات الجزاء الأخروي.

وأيّا كان، فإن المهم بعد ذلك أن نشير إلىٰ عمارة المقطع وصلته بهيكل النص، حيث لحظنا كيف أن النص قد انتقل من الحديث عن المنافقين وموقفهم من القتال إلى الحديث عن المؤمنين وموقفهم من القتال، فيم يفصح ذلك عن الإحكام الجمالي لعمارة النص التي جمعت بين موضوعات مختلفة من خلال توحيدها في خيط مشترك بينهما، ممّا يكشف ذلك عن مدىٰ تلاحم أجزاء النص بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالىٰ: ﴿إنّ الذينَ توفّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسِهم قالوا فِيمَ كنتمْ قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكنْ أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهُم جهنمُ وساءَتْ مصيرا * إلا المستضعفين من الرجالِ والنساءِ والولدانِ لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدونَ سبيلا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٨].

هذا المقطع امتدادٌ لمقطعٍ سابقٍ يتحدثُ عن القتالِ ومبادئهِ وما يواكب ذلك من قضايا ترتبط بالتعامل مع العدو. فهناك نمطٌ من الناس قد استضعفهم أهلِ الكفر وطبعهم شيءٌ من الانحراف نتيجة بقائهم في بيئة الكفر. هؤلاء

رسمهم النص في صياغة حوارية تدور بينهم وبين ملائكة الموت، حيث توجّه ملائكة الموت إليهم سؤالاً هو **﴿فِيمَ كنتُم؟﴾** ويجيبون: **﴿كنّا مستضعفين في الأرض﴾** فتقول الملائكة: **﴿ألم تَكُن أرضُ الله واسعةً فتهاجِروا فيها؟﴾** ثم يعقّب النص على هذه المحاورة قائلاً: **﴿فأولئك مأواهُم جهنَّمُ وساءَتْ مصيرا * إلا المستضْعفينَ من الرجالِ والنساءِ والوِلْدان لا يَستطيعونَ حيلةً ولا يَهْتدون سَبيلا﴾**.

لقد تضمنت هذه المحاورة والتعقيب عليها مبدءً هو: ضرورة المهاجرة من بلاد الكفر إذا كانت السلطة تحتجزهم من ممارسة العمل العبادي، وإلا فإنّهم يتحملون مسؤولية سلوكهم ويصيرون إلى جهنم وساءَت مَصيراً، ويُستثنىٰ من ذلك مَن لا يملِكُ حيلة في الخروج بحيث يضطر إلىٰ البقاء هناك.

بعد ذلك يتحدث المقطع عن المهاجرة في سبيل الله وما تنطوي عليه من إثابة فيقول: **﴿ومن يهاجرْ في سبيل الله يَجدْ في الأرضِ مُراغَماً كثيراً وسَعَةً ومن يخرُجْ من بيتِه مهاجراً إلى الله ورسولِهِ ثم يدركْهُ الموت فقدْ وَقعَ أجرُهُ علىٰ الله وكان اللّهُ غفوراً رحيماً﴾** [النساء: ١٠٠].

وهذا يعني أن المهاجر سوف يجد سعة عما فارقه من الأرض، كما أنه إذا أدركه الموت فإن الله يجازيه بالإثابة علىٰ هذه المهاجرة.

إذاً، هذا المقطع الذي تحدث عن المهاجرة في سبيل الله، جاء في سياق الحديث عن الجهاد في سبيل الله، بحيث تظل المهاجرة جزءً من الجهاد أيضاً. وقد طرحها النص في هذا السياق نظراً لأهميتها من جانب (حيث أنها تحفظ للشخصية دينها وسلامتها) ولكونها جزء من الجهاد من جانب آخر.

بعد ذلك، يطرح النص قضية الصلاة في ساحة القتال **﴿وإذا ضربتُم في الأرضِ فلَيسَ عليْكم جُناحٌ أن تَقْصُرُوا منَ الصلاة..﴾** [النساء: ١٠١]، مبيّناً أحكام صلاة الخوف من حيث قصر الرباعيةِ إلى ركعتين، ومن حيثُ إقامتُها

جماعةً حيث تتمُ من قِبَل طائفَتين تصلي كلُ واحدةٍ ركعةً مع إمام ليتسنّىٰ للطائفةِ الأخرىٰ الحراسة والمحاربة. بعدها يعقب النص على ذلك قائلاً: **﴿فإذا قضيتُمُ الصَلاةَ فاذكُروا الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبكم فإذا اطمأْنَنْتُمْ فأقيموا الصَلاةَ إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** [النساء: ١٠٣].

واضحٌ، أن النص ـ وهو يتحدث عن الجهاد ـ عندما يطرح قضية الصلاة في هذا السياق إنما يعني ـ من الزاوية الفنية ـ مدىٰ الأهمية الكبيرة التي يمنحها لهذه الممارسة العبادية بحيث تؤدَّىٰ في حالات الخوف من العدو بهذا النحو المصحوب بحمل السلاح، وبركعة جماعةً وركعةٍ فرادى، وبحالة دفاع، كل أولئك، نظراً لأهمية هذه الممارسة. ليس هذا فحسب، بل إنّ النص يؤكد أهمية هذه الممارسة ويكررها في آخر المقطع عندما يقول **﴿إنَّ الصلاةَ كانَتْ علىٰ المؤمنينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾** أي: أنّ النص بعد أن أوضح كيفية الصلاة في ساحة المعركة، وأردفها بضرورة ذكر الله قياماً وقعوداً واضطجاعاً، أوضح بأن هذه الصلاة كتابٌ موقوتٌ ينبغي علىٰ الشخصية أن تُعنىٰ به بعد الانتهاء من الحرب بشكل تام كما ينبغي أن تعنىٰ به في ساحة القتال من خلال قصرها، وأن يذكر الله ـ مضافاً لما تقدم ـ في الحالات جميعاً.

أخيراً، ينبغي لفت النظر إلىٰ الموقع الهندسي الذي يحتلُه هذا القسم من السورة الكريمة حيث ختم بهذه الآية: **﴿ولا تَهِنُوا في ٱبْتِغاءِ القَومِ إنْ تكُونُوا تَألمونَ فإنَّهُمْ يألَمُونَ كما تَألَمُونَ وتَرْجُونَ مِنَ الله ما لا يَرْجُونَ وَكانَ اللّهُ عليماً حكيماً﴾** [النساء: ١٠٤]، فهذه الآية تشكل خيطاً يربط بين موضوع الصلاة التي أدخلها النص في سياق حديثه عن القتال والجهاد في سبيل الله، حيث عاد إلىٰ الحديث عن الجهاد ووصل بين مقاطع السورة ليستكمل بذلك إحكام العمارة الفنية للنص، ويهبها جماليةً وإمتاعاً من حيث تلاحم وتواشج أجزاء النص بعضها مع الآخر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالحقِ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللّهُ ولا تكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَٱسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً* وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُم إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَىٰ مِنَ القَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً * هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُم فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَم من يَكُونُ عَلَيْهِم وَكِيلاً﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٩].

هذا المقطع من سورة النساء يتحدث عن ظاهرة (القضاء) بين الناس، وكانت السورة سابقاً قد طرحت موضوع (القضاء) بين الناس أيضاً، إلا أن ذلك كان في سياق آخر، فهناك كان الحديث عن المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت من أجل مصالحهم وكانوا يتهربون من المحاكمة الإسلامية لأنها تحكم بالحق. هنا ـ في المقطع الذي نتحدث عنه الآن ـ تظل القضية معكوسةً، أي: أن النص يتحدث عن القضاء الإسلامي وما ينبغي أن يختطّه من مبادىء القضاء التي رسمها الله تعالى، كما أن النص يتحدث عن المحكومين الإسلاميين وما ينبغي أن يختطّوه من السلوك في تحاكمهم إلىٰ القضاء الإسلامي.

إذاً، هناك طرحان أحدُهما غير الآخر، والجامعُ الفنّي بينهما هو (القضاء) من حيث صفات القاضي، كما أن هناك جامعاً فنيّاً آخر بينهما هو: صفات المحكوم عليهم من حيث الصدق في إفاداتهم التي يدلون بها إلىٰ الحاكم الإسلامي.

هناك، عَرضَ النصُ صفات المنافقين الذين يبطنون نوايا سيئة بخلاف ما يظهرونه أمام الإسلاميين. هنا، في المقطع الذي نتحدث عنه، يعرض النص

صفات بعض الإسلاميين الذي يبطنون أيضاً نوايا سيئة بخلاف ما يظهرونه أمام القضاء.

إذاً، نحن الآن أمام مبنًى هندسي مُحكَم يطرح الموضوعات المختلفة ويخضعها فنياً لخيطٍ فكريٍ مشترك يُوحّد بين أجزاء السورة الكريمة. والمهم بعد ذلك ـ أن النص يطرح قضايا إسلامية في ميدان القضاء يستهدف توصيلها إلينا لتعديل السلوك. القيمة الأولىٰ في هذا الطرح هي: أن يحكم الإسلاميون وفق مبادىء الله ﴿إِنَّا أنزلنا إِلَيْكَ الكِتابَ بالحقِ لِتَحْكُمَ بيْنَ الناس﴾ ثم، ألا يتأثر الحاكم بأقوال الآخرين ممن تطبعهم سمات الخيانة ﴿ولا تكن لِلخائنينَ خَصِيماً﴾...

وهذا ما يتصل بالحاكم...

وأمّا ما يتصل بالمحكوم فهو: ألا يستخفوا من الناس بل ينبغي عليهم أن يستخفوا من الله ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ الناسِ ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُم﴾، وألا يبطنوا نوايا سيئة بخلاف ما يظهرونه ﴿إذ يُبيّتون ما لا يرضىٰ من القول وكان الله بما يعملون محيطا﴾، ثُم ألا يتّهموا بريئاً ﴿وَمَنْ يَكْسبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتاناً وإِثْماً مُبِيناً﴾ [النساء: ١١٢].

إن الإسلاميين من الممكن أن تنتابهم لحظات الضعف، عندما يتحاكمون إلى القاضي، كأن يتّهم البعض بريئاً مثلاً من أجل مكسبٍ ذاتي فيكون بذلك مشابهاً لسلوك المنافقين الذين عَرَضَ النصُ القرآنيُ الكريم لسلوكهم في مقطع أسبق. كما أنه من الممكن أن تنتاب بعض الإسلاميين لحظات من الضعف أخرىٰ تتصل بمطلق سلوكهم، وهذا ما عَرضه النص أيضاً عندما تحدّث عن بعضهم قائلاً: ﴿لا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أو إِصْلاحٍ بيْنَ النَّاسِ ومَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ الله فَسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤].

واضح، أن الأمر بالصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس تظل أنماطاً من السلوك الذي يساهم في تحقيق التوازن الاجتماعي، حيث طرحها النص في سياق الحديث عن القضاء ومشكلاته، وحيث تظل هذه الأنماط من السلوك العام مرتبطة من جانبٍ بأهم أشكال العلاقة الاجتماعية وهي علاقات (التعاون) حسب اللغة الاجتماعية، كما أنها من جانب آخر ذات صلة بمفهوم (القضاء) الذي يستهدف الإصلاح بين الناس وتحقيق المعروف وجعل المال في أهله الذي يستحقونه.

إذاً، من حيث عمارة النص، أمكننا ملاحظة مدىٰ جمالية المقطع الذي عرضنا له، حيث طرح موضوعات مختلفة، وأخضعها فنياً لخيوط مشتركة توحّد بين جزئيات المقطع، وبين المقاطع جميعاً، حيث لحظنا كيف أن النص طرح مفهومات القضاء ومفهومات السلوك الاجتماعي عبر وصْلِها بعضاً مع الآخر، مُفصحاً لذلك عن مدىٰ إحكام النص وتلاحم جزئياته، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِك لِمَنْ يشاءُ ومَنْ يُشْرِكْ بالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً * إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِه إلاّ إناثاً وإِنْ يَدْعُونَ إلاّ شَيْطاناً مَرِيداً * لَعَنَهُ الله وَقَالَ لأتخِذَنَّ مِنْ عبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً * ولأُضلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآمُرنَّهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعامِ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله وَمَنْ يَتَّخِذِ الشيطانَ وَلِيّاً مِنْ دونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِر خُسْراناً مُبِيناً * يَعِدُهُم ويُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهم الشَّيطانُ إلاّ غروراً﴾ [النساء: ١١٦ ـ ١٢٠].

يعرض هذا المقطعُ جانباً من سلوك المشركين، بعدما كانت المقاطع السابقة تعرض جانباً من سلوك الكتابيين والمنافقين وضعاف الإسلاميين. الجديدُ في المقطع هو: طرحه أوّلاً مفهوم (التوبة) حيث حدّدها ضمنياً حينما

وضح بأن الله يغفر ما دون الشرك ولا يغفر أن يُشرَك به، وهذا التحديد له أهميته في ميدان تعديل السلوك للإسلاميين الذين يمارسون الذنب حيث فُتِحت لهم مجالات التوبة ما دامت ذنوبهم لم ترتبط بالشرك.

ثم يعرض المقطع جانباً من سلوك المشركين وإطاعتهم للشيطان الذي أجرىٰ النصُ على لسانه حواراً يهدّد من خلاله بإضلال الناس: ﴿وقال لاتخذن من عبادك نصِيباً مفروضاً * ولأضلنّهم ولأمنينهم ولآمرنهم... الخ﴾ حيث تناول التهديد مختلف الانحرافات من: عبادةٍ لوثن، وتغيير لخلق الله، وتزيينٍ لمتاع الحياة الدنيا، وغير ذلك مما يطبع حياة المشركين المعاصرين لرسالة الإسلام.

ومن الواضح فنيّاً، أنّ إجراء الحوار علىٰ لسان الشيطان من خلال تهديده بإضلال الناس ينطوي علىٰ أهمية جمالية في هذا الصدد حيث يركّز بهذا مفهوماً غائباً عن أذهان المشركين ألا وهو: أن الشيطان دون سواه هو الذي يتولّى عملية إضلال الناس فيزيّن لهم عبادة الصنم وما يرتبط بذلك من عادات جاهلية تتصل بتعاملهم مع الأنعام والمخلوقات الأخرىٰ من حيث تغييرهم لبعض مظاهرها الفيزيقية انسياقاً لمعتقدات فاسدة تنمّ عن الانحطاط الذهني لديهم.

بعد ذلك، يتحدث النصُ عابراً عن جانبٍ من سلوك الكتابيين وعلاقته بسلوك المشركين في نظرة كلٍ منهما عن اليوم الآخر، حيث يمنّي الكتابيون أنفسهم بأنه لا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً أو نصرانياً، وحيث يمنّي المشركون أنفسهم بنفي الجزاء أساساً، والرابطُ الفني بين هذا الطرح لسلوك الكتابيين في سياق الحديث عن المشركين هو ما نحتمله من وجود علاقة بين تمنيات كل من الفئتين الضالتين وبين محاورة الشيطان وتهديده بأنه ليُمنين أتباعه بمختلف الأماني التي تصرفهم عن العبادة الحقة ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ

وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ. . .﴾ ولذلك عقب النص علىٰ هذا التمنّي بقوله ﴿يَعِدُهُم - أي الشيطان - ويُمنِّيهمْ وما يَعِدُهُم الشَّيْطانُ إلا غُروراً﴾.

بعدها، يتجه النص القرآني الكريم إلى الطرح العبادي التالي ﴿ومَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحسِن واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَليلاً﴾ [النساء: ١٢٥]. هذا الطرح، يُشكّل تعقيباً علىٰ تمنيّات كلٍ من الكتابيّين والمشركين، حيث يوضّح مبدءً عاماً هو: شريعة إبراهيم التي انطوت علىٰ جملة من الحقائق التي ظلت محتفظةً بها حتى بالنسبة للشرائع اللاحقة بها. ولا نستبعد - فنياً - أن يكون الخطاب القائل ﴿ليس بأَمَانِيكُم ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب﴾ [النساء: ١٢٣]، متوجهاً إلى الإسلاميين - وليس المشركين - حيث تذكر النصوص المفسّرة بأن الآية نازلة بسببٍ من تفاخر الإسلاميين والكتابيين، بأن شريعة الكتابيّين سابقة علىٰ الإسلام(في تصورهم)، وبأن شريعة الإسلام خاتمة لسابقتها من الشرائع، وحينئذ يكون الطرحُ القرآني لشريعة إبراهيم جواباً مشتركاً لهما، بصفة أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وإن شريعته بالنسبة للإسلاميين ظلت محتفظة ببعض مبادئها التي أقرّها الإسلام.

إلى هنا، نجد النص القرآني الكريم قد قطع رحلةً فكرية عَرَض من خلالها لشرائح مختلفة من سلوك الكتابيين، والمنافقين، وضعاف الإسلاميين، ومطلق الإسلاميين، عَرَض ذلك كله في سياق الفكرة العامة لسورة النساء فيما كانت منصبّة علىٰ العلاقة بين الجنسين (الرجل والمرأة)، ويعود الآن إلىٰ الحديث عن هذه العلاقة بما يواكبها من الأحكام المتصلة بالزواج والإرث واليتم وغيرها مما وقفنا عنده في القسم الأول من السورة. ويعنينا من هذا كله، أن نشير إلى مادة السورة القرآنية الكريمة من حيث بناؤها القائم علىٰ طرح فكرة عامة ثم طرح الأفكار الثانوية في سياق الفكرة العامة، مما يُفصح

ذلك عن إحكام النص من حيث تلاحم جزئياته بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿وَيَسْتفتُونَكَ في النساءِ قل الله يُفتيكُم فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الكِتابِ في يَتَامىٰ النساءِ الَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالمُسْتضْعَفينَ مِنَ الْوِلدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيرٍ فَإِنَّ الله كَانَ بِهِ عَليما﴾ [النساء: ١٢٧].

بهذا المقطع وما بعده، يربط النصُ القرآني الكريم بين أوّل السورة التي تحدّثت عن أحكام اليُتم وبين أحكام جديدة يضيفها المقطعُ إلى ذلك. الحديث هنا يتصل باليتيمة من حيث ميراثها وتزويجها وصداقها، كما يتصل باليتيم من الغلمان فيما كان الجاهليون لا يورثونه المال. ومن الواضح أن إعادة الحديث عن اليتيم من خلال الإرث وغيره يظل إفصاحاً عن الأهمية التي يمنحها النص القرآني لليتامىٰ رجالاً ونساءاً، أحراراً وعبيداً، من حيث التعامل المالي والجنسي وسواهما.

بعد ذلك، يتقدّم النص إلى طرح العلاقة بين الرجل والمرأة من حيث التنافر الذي يسبّبه الرجل لزوجته، فيقول:

﴿وإنِ امْرأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشوزاً أَو إِعْراضاً فَلا جُناحَ عليهما أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهما صُلحاً والصُّلحُ خيرٌ وأُحْضِرت الأنفسُ الشُّحَّ وإن تُحْسِنُوا وتَتَّقُوا فإنَّ الله كانَ بما تَعملونَ خَبيراً﴾ [النساء: ١٢٨].

الجديدُ هنا، أنَّ المقطعَ يتحدثُ عن التنافرِ الذي يسبّبُه الرجلُ للمرأةِ، بينما كانَ القسم الأول من السورة يتحدثُ عن التنافرِ الذي تسبّبه المرأة للرجل، لكن في الحالتين نجد طرحاً مماثلاً هو: تقديم جانب الصلح مثل التفكير بالافتراق بينهما ممّا يعني أن النص يستهدف تثبيت علاقات التعاون بدلاً من التنافر الذي يفضي إلىٰ تصدّع المجتمعات كما هو واضح.

بعد ذلك يواجهنا طرحٌ آخر من العلاقات بين الجنسين هو قضية المعادلة بين الزوجات في حالة التعدّد، يقول النص: ﴿وَلَنْ تَستطيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بينَ النِّساءِ ولَوْ حَرَصْتُم فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيلِ فتَذَرُوها كالمعلَّقة وإنْ تُصْلِحُوا وتتَّقُوا فإنَّ الله كانَ غَفوراً رَحيماً * وإن يتفرّقا يُغْنِ اللّهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ وكانَ اللّهُ واسِعاً حكيماً﴾ [النساء: ١٢٩ ـ ١٣٠].

النص يطرح هنا قضية ترتبط بأهم الدوافع والتركيبة النفسية لها، فالحاجة إلى الجنس والحاجة الجمالية والحاجة العاطفية لا يمكن أن يتصاعد بها الشخص فطرياً بل يتصاعد بها نفسياً، بمعنىٰ أن الشخص لا يمكنه أن يعدل في الرغبة أو الميل بين هذه الزوجة أو تلك، نظراً لوجود عناصر فطرية تفرض عليه الميل أو الرغبة لهذا الجانب دون ذاك، ولذلك فليس المطلوب هو تحقيق المعادلة الذاتية بل تحقيق المعادلة الموضوعية أي: تحقيق المعادلة بين الزوجات من حيث النفقة والقسمة ونحوهما من السلوك الخارجي الذي يحسّس الزوجات بموقفه غير المتحيّز لإحداهن دون الأخرىٰ، لذلك شدّد النص علىٰ هذا الجانب قائلاً: (فلا تميلوا كل الميل ولا تذروها كالمعلقة) بصفة أن الشخص إذا لم يكن بمقدوره أن يساوي بينهن من حيث الميل النفسي، فإنه بمقدوره أن يساوي بينهن من حيث المظهر الخارجي للسلوك، فإذا لم يساوِ بينهن من حيث المظهر الخارجي حينئذٍ يصبح سلوكه مؤشراً إلىٰ كونه حاملاً لسمة الانحراف: طالما لا يمارس عملية تأجيل لشهواته التي يتعين أن يسيطر عليها، إذ من الواضح أنّ النزعة الإيجابية لدىٰ الشخص تفرض عليه أن يتعامل خارجياً بشكل موضوعي كأن يصرف وقتاً لهذه الزوجة التي لا يميل إليها كلياً يماثل الوقت الذي يصرفه لمن يميل إليها. والأمر كذلك بالنسبة للنفقة من حيث المسكن والمطعم ونحوهما، حيث يظل إجبارُه نفسه علىٰ هذا التعامل الموضوعي، مفصحاً عن كونه سوياً لا شذوذ فيه، كما أنه يدرّبه علىٰ

تعلّم السلوك السوي في حالة إجباره ذاتَه علىٰ مثل هذا التعامل.

وأياً كان، يعنينا بعد ذلك أن نشير إلى العمارة الفنية لهذا المقطع وصلته بهيكل السورة العام، وهو هيكل قائم علىٰ عرض مختلف العلاقات بين الجنسين وما يواكبها من علاقات اجتماعية، حيث لحظنا كيف أنّ القسم الأول من السورة عَرضَ لقضية العلاقة بين الرجل والمرأة والحرص علىٰ تثبيت علاقة التعاون بينهما، حتىٰ في حالات التنافر الذي يحدث من قِبل أحدهما، حيث يطالب النص بمحاولة الإصلاح ما أمكن، إلا في حالة تعذّر ذلك، وحينئذٍ يقرّر قائلاً: ﴿وإن يتفرَّقا يُغْنِ اللّهُ كلاً من سعَتِه﴾ حيثُ يصبحُ الافتراقُ بينهما محكوماً بالضرورة، ما دام الهدف هو تحقيق علاقات التعاون وليس التنافر كما هو واضح. والمهم بعد ذلك، أن النص القرآني الكريم طَرحَ هذه الأشكال من العلاقات المختلفة من خلال إخضاعها لعنصرٍ فكري مشترك بينها، مُفصحاً بذلك عن إحكام عمارة النص القرآني الكريم بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿ولِلّهِ ما في السماوتِ وما فِي الأرضِ ولقد وصينا الذين أوتُوا الكتابَ مِن قَبْلِكم وإيّاكم أن اتَّقُوا الله وإنْ تكفُروا فَإنَّ للّهِ ما في السماواتِ وما في الأرضِ وكان الله غنياً حميداً * وللّه ما في السماوات وما في الأرض وَكفىٰ بالله وكيلا * إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويَأتِ بآخرِين وكانَ الله على ذلك قَديراً * مَنْ كان يريدُ ثواب الدنيا فَعِنْدَ الله ثَوابُ الدنيا والآخرةِ وكانَ اللّهُ سميعاً بصيراً﴾ [النساء: ١٣١ ـ ١٣٤].

بهذا المقطع، يبدأ قسمٌ جديد من سورة النساء التي تحوم فكرتها علىٰ العلاقة بين الجنسين وما يواكبها من العلاقات الممتدة إلى الأقارب والبشرية جميعاً. إلا أن النص يطرح في تضاعيف ذلك أشكالاً من العلاقات وأنماطاً من

السلوك لمختلف الشرائح البشرية، مثل الكتابيين والمنافقين والضعاف نفوساً والمؤمنين بعامة.

هنا، يعود النص إلىٰ المؤمنين والكتابيين فيوصيهم بالتقوىٰ بعد أن كانت المقاطع السابقة تعرض شيئاً من السلوك السلبي لديهم، طارحاً خلال ذلك فكرتين، أولاً هي: أن الله تعالى بمقدوره أن يُذهب الكافرين بنعمه ويأتي بآخرين، وأخراهما: أنّ من يبتغي ثواب الدنيا فعند الله ثوابها وثواب الآخرة أيضاً. ومن الواضح أن مثل هذا الطرح يشكّل جواباً لهذه الشرائح البشرية التي تدفعها رغبتها في متاع الدنيا إلى الانحراف عن مبادىء الله فيتوعدها حيناً بالاستئصال ويرغبها حيناً بالإطاعة ملوّحاً لها بأن الطاعة تحقّق كلا الإشباعين: دنيوياً وأخروياً.

بعد ذلك يتجه النص إلى طرح آخر هو: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا كُونُوا قوّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ للّهِ ولَوْ عَلىٰ أنفُسِكم أوِ الوالدَين والأقْرَبين إنْ يكُنْ غنيّاً أو فقيراً فاللهُ أوْلىٰ بهما فلا تَتَّبعُوا الهَوىٰ أنْ تَعْدِلُوا وإن تَلْووا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كانَ بِما تَعمَلُون خَبيراً﴾ [النساء: ١٣٥]. فَفِي هذا الطرح عودٌ إلىٰ الأجزاء السابقة من السورةِ التي كانَتْ تتحدَّثُ عن المحاكمةِ والقَضاء، وعودٌ إلىٰ بعض أشكال العلاقةِ البشريةِ (علاقة الوالِدَين والأقْرَبين) حيثُ طالَبَ النصُ بممارسةِ سلوكٍ جديدٍ هو: الشهادةُ بعد أن كانَت المقاطعُ السابقةُ تتحدثُ عن المدّعي والمدّعىٰ عليه، فالشهادةُ التي يُطالبُ بها النص قد طرحَها في سياقِ (العدل) الذي يَنبغي أن يطبعَ سلوكَ الشاهِد وهو نفسُ العَدْلِ الذي طالَبَ به النص كلاً من المدّعي والمدَّعىٰ عليه، وقد شدَّد النصُ في هذا الجانب مؤكداً بأنَّ الشهادةَ العدل يَنبغي ألّا تَصْرفَ الإنسان عنها حتى لو كانَتْ حيالَ الوالدين والأقرَبين وألّا تتأثَر بغنى الآخرين أو فَقرهم.

إذاً، لَحظنا كيف ربط النصُ في هذا المقطع بين الأجزاء المتباعدة من

السورة الكريمة، ربَط بين العلاقة النسبية (الوالدين والأقرباء) وبين قضية المتحاكم والقضاء وبين الكتابيّين الذين تحدث سابقاً عن سلوكهم حيال القضاء وعن الإسلاميين الذين تحدث عنهم باللغة نفسها، مستجمعاً بذلك بين أجزاء السورة، محققاً عنصر التلاحم فيها بهذا النحو من الربط الفني الذي لحظناه.

وبعد ذلك يتّجه النص إلى طرح جديد، يطالب من خلاله بالإيمان بالله ورسوله والكتاب المنزل على رسوله وعلىٰ من قبله، ملوحاً بالعقاب لمن آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفراً، منتقلا من ذلك إلىٰ الحديث عن المنافقين من خلال طرحه نمطاً جديداً من سلوكهم، فيقول: ﴿بَشّرِ المنافِقينَ بِأنَّ لَهم عذاباً أليماً * الذينَ يتَّخذُونَ الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنين أيَبتغُونَ عندَهُم العزةَ فإنّ العزّةَ للّهِ جَميعاً﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

واضحٌ، أنَّ المنافقين حينما يتخذون الكافرين أولياء، فإن ذلك بسببٍ من إيثارهم متاع الدنيا مادياً ومعنوياً وهذا ما يحملهم على أن يبطنوا غير ما يظهرون وأن يُظهروا غير ما يبطنون، تحقيقاً للمتاع العابر. وقد حذّرهم النص من ذلك، كما حذّر المؤمنين من مجالستهم ومجالسة الكافرين الذي اتخذهم المنافقون أولياء:

﴿وقد نزَّل عليكُم في الكتابِ أنْ إذا سَمِعْتُم آياتِ الله يُكفَرُ بها ويُستهزأُ بها فلا تَقْعُدوا معَهم حتّىٰ يَخُوضُوا في حديثٍ غيره إنّكم إذاً مِثلُهم إنّ الله جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جَهنَّم جَميعاً﴾ [النساء: ١٤٠].

لنلاحظ البناء العماري لهذه الشريحة الفكرية الجديدة التي طرحها النص فيما نتحدث عنها بعد، حيث لوّح النص في حديثه عن المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء: بأنهم يبتغون العزة، في حين أن (العزة لله جميعاً) وها هو الآن يقول عن الكافرين والمنافقين بأنه تعالى يجمعهما(في جهنم جميعا).

فهنا نلحظ التجانس والربط الفني في المقطع الذي يشير إلى أن العزة لله جميعاً، وليس للكافرين الذين اتخذهم المنافقون أولياء وفي المقطع الذين يشير إلي أنه تعالى يجمعهما في جهنم جميعاً، حيث جانس بين العزة (جميعاً) وبين مجازاتهم سلبياً جميعاً، محققاً بذلك الإحكام الفني بين أجزاء السورة بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهزأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُم إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ في جَهَنَّمَ جَمِيعاً * الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ منَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُم وَإِن كَانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالوا أَلَم نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُم وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ المُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَىٰ المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤٠ ـ ١٤١].

هذا المقطع يتحدث عن المنافقين والكافرين وهما من الفئات المنحرفة التي سبق أن تحدث عنها النصُّ مفصّلاً في مقاطع سابقة. لكن، لكل مقطع أُعيد سياقٌ جديد من الطرح، فضلاً عن أن الإعادة ذاتها أسلوبٌ فني لتأكيد الأفكار التي يستهدفها النص.

الجديد هنا أولاً هو: المطالبة بعدم مجالسة الشخصية المؤمنة للشخصيات المنحرفة إلا في حالة عدم خوضهم في الباطل.

ثانياً: تلخيص مواقف المنافقين بالفقرة الحوارية التالية التي أجراها على لسانهم: ﴿فإنْ كان لكم فتحٌ من الله قالُوا ألم نكُن معكم؟

وإنْ كان للكافرين نصيبٌ قالوا:

ألم نستحوِذْ عليكُم ونمنعْكم من المؤمنين؟﴾

ثالثاً: صياغةُ المبدأ الاجتماعيِ القائل: و لن يَجعل اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً.

هذا المبدأ الاجتماعي سوف يكون له موقع فنّي يسحب أثره على المقاطع اللاحقة من السورة، بمعنى أنّه يشكّل إنماءً عضوياً للأفكار المطروحة في النص. و فعلاً نجد أنّ المقطع اللاحق من السورة يقول : ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تتّخِذُوا الكافرينَ أولياءَ من دونِ المؤمنين أتُريدونَ أنْ تَجعلُوا للّهِ عليكُم سُلطاناً مبيناً * إنّ المنافقين في الدّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّار ولَنْ تَجِدَ لَهم نَصيراً * إلاّ الذينَ تابُوا وأصْلَحُوا واعتصمُوا بالله وأخْلَصُوا دينَهم للّه، فأولئك مع المُؤمنين. .﴾ [النساء: ١٤٤ ـ ١٤٦].

لقد طالبَ هذا المقطعُ بألّا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياءَ، وقبل ذلك طالب النص المنافقين بألا يتخذوا الكافرين أولياء. لكن كيف تمت هذه المطالبة المشتركة بين المنافقين والمؤمنين حيال العدو المشترك بينهما: فئة الكافرين؟

بما أن المنافقين كانوا ـ في ظاهرهم ـ مع المؤمنين، حينئذٍ فإن اتخاذهم الكافر وليّاً يُعد خرقاً للمبدأ الظاهري الذي يصدرون عنه، لذلك جاءت المطالبة بعدم اتخاذهم الكافر وليّاً، له مسوّغه الفنيّ. لكن بما أن المنافق ـ في سلوكه الباطني ـ كافر، حينئذ جاءت مطالبة المؤمنين بعدم اتخاذ المنافق والكافر وليّاً، له مسوّغه الفنّي أيضاً، بصفة أنهما يخضعان لملة واحدة من الكفر. لكن، بما أن فريقاً من المنافقين لم يتعمق النفاق في قلوبهم بقدر ما كانت المصالح الذاتية تدفعهم إلى النفاق، حينئذٍ توسّم النصُ إمكانية الخير في بعضهم وذلك باحتمال أن يعدّلوا من سلوكهم، ولذلك خاطب هذا البعض منهم قائلاً: ﴿إلا الذين تابُوا وأصْلَحُوا. . .﴾.

إذاً(من حيث عمارة النص) لحظنا كيف أن النص واشَجَ بين جزئيات

الموقف فربط بعضها مع الآخر بهذا النحو من الوصل بين المؤمنين والمنافقين والكافرين.

بعد ذلك اتجه النص إلى طرحٍ جديد من الأفكار فقال:

﴿لا يحبُّ الله الجَهْرَ بالسُّوءِ من القَوْلِ إلاّ مَنْ ظُلِم وكانَ اللّهُ سَمِيعاً عليماً * إنْ تُبْدوا خيراً أو تُخْفُوهُ أو تَعفوا عَنْ سوءٍ فإنّ الله كانَ عَفوّاً قَديراً﴾ [النساء: ١٤٨ ـ ١٤٩].

هذا الطرح الأخلاقي جاء في سياق التوبة والإصلاح اللذين لحظناهما بالنسبة لسلوك المنافقين الذين يصلحون أنفسهم ويتوبون إلى الله. وقد استثمر النص هذا الجانب، ليطرح من خلاله أهم أنماط السلوك أخلاقيةً واستواءً ألا وهو قضية الحب والعفو والتسامح، فالإنسان قد يسيء للآخر، وهذا الآخر له أن يدافع عن نفسه ما دام قد لحقه الظلم، لكن بالرغم من ذلك فإن العفو عن الظلم هو الموقف الأشد خيراً.

وما يعنينا من هذا الطرح هو: موقعه الهندسي من عمارة النص، حيث أن النص طرح مفهوم العفو من قِبَل الله بالنسبة لعباده، وطلب من عباده أن يمارسوا العفو من قِبَل بعضهم الآخر، فتمّ بذلك إحكام الموضوعات المختلفة ووصل بعضها مع الآخر بهذا النحو.

إلىٰ هنا يكون النص قد طرح مفهومات مختلفة في سياق حديثه عن المنافقين.

بعد ذلك يتجه النص إلىٰ رسم سلوك الكتابيين (اليهود منهم بخاصة) حيث يعرض لنا ـ كما سنرىٰ ـ جانباً جديداً من سلوكهم، علماً بأن النص القرآني الكريم سبق أن عَرَض لنا جوانب من سلوكهم في مقاطع سابقة جاءت تتحدث عن سلوك الكتابيين والمنافقين والضعاف نفسياً، وها هو يعرض ذلك من جديد في سياقات جديدة بالنحو الذي لحظناه في حديثه عن المنافقين،

وهو أمر، يكشف لنا عن مدى جمالية وإحكام العمارة القرآنية الكريمة.

* * *

قال تعالى: ﴿يَسألُكَ أهلُ الكتابِ أنْ تُنزِّلَ عليهم كتاباً منَ السماءِ فقَدْ سَألُوا موسىٰ أكبرَ مِنْ ذلك فقالُوا أرِنا اللّهَ جَهْرَةً فأخَذَتْهُم الصاعقةُ بظُلمِهم ثم اتَّخذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُم البيّنات فعفَونا عَن ذلك وآتينا مُوسىٰ سُلْطاناً مبيناً * ورفَعنا فوقَهم الطُورَ بميثاقِهم وقلنا لهم ادخلُوا البابَ سُجّداً وقلنا لهم لا تَعْدُوا في السَبْتِ وأخَذْنا منهُم ميثاقاً غليظاً﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

بهذا المقطع وما بعده يبدأ قسمٌ جديد من سورة النساء يحدّثنا عن شرائح جديدة من سلوك اليهود وموقفهم من رسالة الإسلام (بعد أن كان المقطع السابق يحدثنا عن سلوك المنافقين وموقفهم من الإسلام).

الموقف الذي يعرضه النصُ في هذا المقطع القرآني الكريم هو: سؤالُهم النبيّ(ص) أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء.

إن أمثلة هذا السؤال تظل مجرّد قناعٍ تستّر به المنحرف للهروب من مواجهة الواقع، لذلك عَرَض النصُ مواقفَ سابقةً لليهود تعدّ أكبر جنايةً من جناياتهم حيال محمد(ص) حيث طلبوا من موسىٰ قائلين: ﴿أرِنَا الله جهرةً﴾، ثم اتخذوا العجل آلهة لهم، فأخذتهم الصاعقة جزاءً لسؤالهم الأول، ثم عُفيَ عنهم، بل مُنحوا فرصاً جديدة لتعديل السلوك وأُغدِقت النِعَمُ عليهم حيث يتابع النص عَرْض ذلك بقوله: ﴿ورفَعْنا فوقَهُم الطُّورَ بميثاقِهم وقلنا لهُم ادخُلوا البابَ سُجَّدا وقُلْنا لَهُمْ لا تَعْدوا في السبتِ وأَخَذْنا مِنْهم ميثاقاً غليظاً﴾ لكنهم ينقضون الميثاق من جديد، إنهم يخالفون كل أوامر السماء. لذلك يجيء سؤالهم لمحمّد(ص) بأن ينزّل عليهم كتاباً من السماء مجرد قناعٍ ـ كما قلنا ـ يتستّرون به للهروب من مواجهة الرسالة الإسلامية. وما يعنينا من ذلك هو: المنحىٰ الفنيّ الذي سلكه النص في الكشف عن حقيقة الشخصية اليهودية

وذلك من خلال عرضه لمواقف سابقة لهم، حيث يتابع عرض المواقف ويعقّب على ذلك بعرض مواقف أخرىٰ عبر صياغة قصصية علىٰ هذا النحو:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٥٨].

إن هذا المنحىٰ من عرض المواقف اليهودية ينطوي علىٰ أسرار فنية في غاية الإثارة، إنه يعرض قضاياهم التي صدروا عنها في سلوك عمليٍ ولفظيّ لا مماثل له في السلوك البشري من حيث بشاعته وعدوانيته وشذوذه.

أما السلوك العملي فيعرضه من خلال إشارته إلى قتلهم للأنبياء، وهل ثمة جناية أعظم من قتل رُسل الله تعالى؟ ثم يعرض جناية كبيرة لهم وهي تصورهم المخطىء بأنهم قتلوا عيسىٰ أيضاً. صحيحٌ أنه شبّه لهم بأنهم قتلوا عيسىٰ إلا أن مجرد محاولة قتلهم لعيسى هو عمل عدواني في غاية البشاعة.

وخلال هذا العرض الفني لسلوكهم العدواني البشع، يعرض النص حقيقة الموقف ويقدّمه حقيقة تاريخية هي: أن عيسىٰ رفعه الله تعالى، وإن القضية هي ليست قتلاً ولا صلباً لعيسىٰ بقدر ما هي مجرد (تشبّه). ومن الواضح أن عرض هذه الحقيقة التاريخية قد انطوىٰ علىٰ أكثر من سرّ فني، منه إبراز النزعة العدوانية التي تمتد لتحاول قتل نبي مثل عيسىٰ، ومنه أن الله تعالى يقف بالمرصاد لمن يخيّل إليه أنه بمقدوره أن يمارس عدوانه في الحالات جميعاً.

وهذا فيما يتصل بمواقفهم عملياً.

أمّا ما يتصل بمواقفهم لفظياً، فقد عَرَض النص موقفين منها(حيث عرض موقفين عمليين كما رأينا)،(وهذا واحد من أبعاد الفن الذي يحقق جمالية التوازن والتوازي بين المواقف) والموقف الأول الذي عرضه هو قولهم: ﴿قلوبُنا غلف﴾ والموقف الآخر هو ﴿قولهم علىٰ مريمَ بهتاناً عظيماً﴾، وبالرغم من أن السلوك اللفظي هو غير السلوك العملي المتمثل في قتل الأنبياء، وعيسىٰ، إلا أن السلوك اللفظي نفسه ينطوي علىٰ نزعة عدوانية لا تقل عن سابقتها، لأن قولهم بأن قلوبهم غلفٌ هو: تعبيرٌ عن مدىٰ استهتارهم ورفضهم وعنادهم لتقبّل مبادىء الله تعالى. كما أن بهتانهم واتهامهم لمريم(ع) ينطوي علىٰ نزعة أشد عدواناً من عملية القتل، لأن طهارة مريم(ع) لا تحتاج إلى تعقيب، وحينئذٍ عندما تصدر أمثلة هذه التُهَم فهذا يعني-منتهىٰ الوقاحة والصفاقة حيال مبادىء الله تعالى.

وأياً كان، فقد ختم النص حديثه عن اليهود بالإشارة إلىٰ ظاهرة أخرىٰ هي الربا حيث تمثل هذه الظاهرة بُعداً آخر من نزعات اليهود العدوانية لأن الربا هو عدوان علىٰ حقوق الآخرين، كما أن إلقاء التهم عدوان علىٰ ذوات الآخر، وأن قتلهم الآخرين عدوانٌ على حياتهم.

إذاً، لاحظنا مدىٰ التجانس الفني بين هذه المواقف التي عرضها النص في حديثه عن سلوك اليهود حيث أخضع مختلف مستوياته إلى خيط فني مشترك يجمع بين المواقف المختلفة من قتل وتُهم وربا في خضوعها لخيط مشترك هو: النزعة العدوانية.

خلال ذلك طرح النص قضية ذات خطورة كبيرة كي ﴿وإن مِنْ أهْلِ الكتابِ إلا ليُؤمِننَّ بِهِ قبلَ موتهِ ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شهيداً﴾ [النساء: ١٥٩]. هذه الإشارة إلى أن من أهل الكتاب من يؤمن بعيسىٰ لم يمت بل رفع إلى الله، والحقيقة الأخرىٰ الذاهبة إلىٰ ظهور المهديّ(ع) وصلاة عيسىٰ

مأموماً. والمهم بعد ذلك كله، أن النص القرآني الكريم عَرَض هذه الحقائق المختلفة في سياق حديثه عن اليهود بهذا النحو الذي انطوىٰ على أسرار جمالية في غاية الإثارة والطرافة، مما يفصح عن مدىٰ إحكام عمارة النص بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿يا أَهْلَ الكتابِ لا تَغْلُوا في دينِكم ولا تَقُولوا على الله إلا الحقّ إنّما المَسيحُ عيسىٰ ابنُ مَرْيَم رَسولُ الله وَكلِمتُهُ أَلْقَاها إلى مريمَ ورُوحٌ منهُ فآمِنُوا باللّهِ ورُسُلِه ولا تَقُولُوا ثلاثَةٌ انتهَوُا خَيراً لكم إنّما اللّهُ إلٰهٌ واحدٌ سبحانَهُ أنْ يكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ وكفىٰ بالله وَكيلاً﴾ [النساء: ١٧١].

بهذا المقطع وما بعده تُختم سورة النساء التي بدأت الحديث عن الميلاد البشري وقطعت رحلة تحدثت خلالها عن العلاقات الاجتماعية بخاصة العلاقة بين الرجل والمرأة وما يواكبها من العلاقات النَّسَبيّة، وعرضت لمختلف العلاقات العامة التي تخصّ الهدف العبادي الذي أنشأ الله من أجله الإنسان فتحدثت عن الإسلاميين والمنافقين واليهود، وختمته بالحديث عن المسيحيين الذين نعرض لهم الآن. وإذا كانت الفئات اليهودية قد كشفتهم السورة بأقذر سلوكهم، والفئات المنافقة بمستوىً أقلّ منهم، فإن الفئات المسيحية عرضت لهم بمستوىٰ أقل من المنافقين، مكتفية من ذلك بالحديث عن مغالاتهم في المسيح وتشريكهم الثلاثي، أي أنها تحدثت عن الموقف العقائدي المنحرف لهم دون الموقف العملي المتمثل في العدوان ونحوه، لذلك طالبتهم بأن يؤمنوا بالله ورسوله وأن يكفّوا عن المغالاة والتشريك، مقدمةً خلال ذلك تدليلاً منطقياً هو ﴿لن يَستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً للهِ ولا الملائكةُ المقرَّبون ومَنْ يستنكفْ عَنْ عِبادتهِ ويَستكبرْ فسيحشُرهم إليهِ جميعاً﴾ [النساء: ١٧٢]،

وعندما تحدث عنهم وعن الكافرين عقّب قائلاً: ﴿إنَّ الله جامعُ المنافقينَ والكافرين في جَهنَّمَ جميعاً﴾ [النساء: ١٤٠]، وعندما تحدث الآن عن المسيحيين عقّب قائلاً: ﴿فسيَحشُرهُم إليه جميعاً﴾. إن هذه الصيغة (جميعاً) لها موقع هندسي يربط ويجانس بين المقاطع بحيث تظل الموضوعات المختلفة مشدودة بخيطٍ فني يصل بينها، محققاً بذلك وحدة السورة الكريمة.

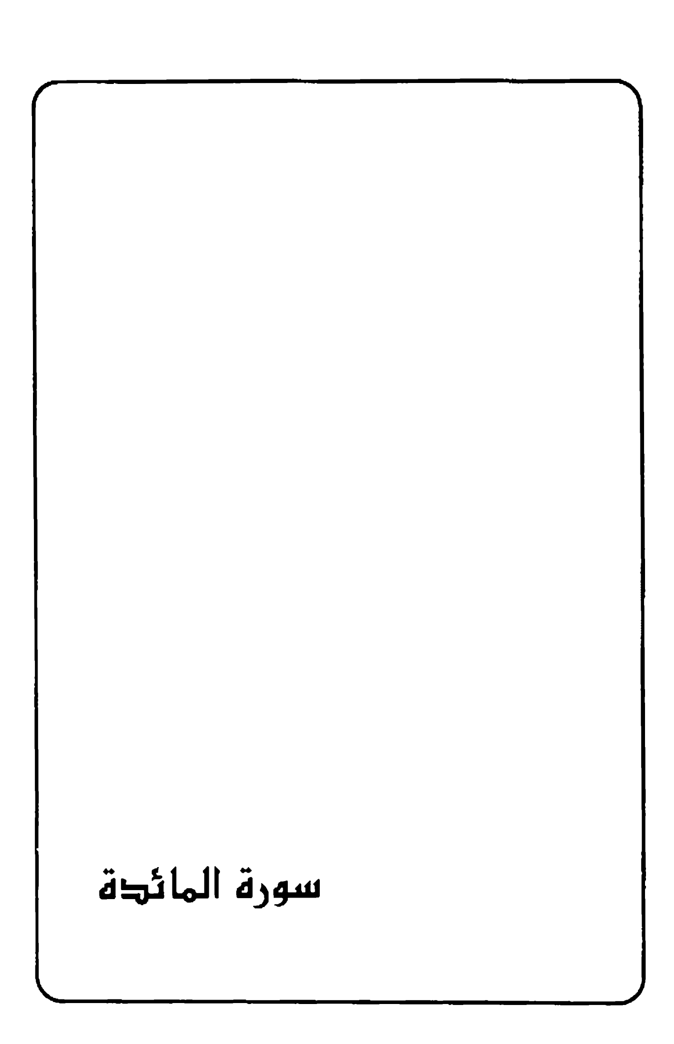
وإذا تابعنا الآن ما تبقّىٰ من السورة الكريمة، نجد أن النص يخلص من خلال عرضه لهذه الفئات المنحرفة، يخلص إلى التأكيد علىٰ الهدف الفكري العام الذي تحوم عليها كل النصوص،ونعني به الإيمان بالله وبرسالة الإسلام. لذلك خلّل النصُ حديثَه عن الموضوعات المشار إليها: إشارات إلى الأنبياء السابقين: نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، الأسباط، عيسىٰ، أيوب، يونس، هارون، سليمان، داوود، موسىٰ مع تأكيد على الاسم الأخير نظراً لشذوذ قومه الذين تفردوا عن سائر الفئات بالعدوانية المتفردة، كما خلّلها إشارات إلى أن رسالة الإسلام هي برهان ونور، منتهياً من ذلك إلى القول:

﴿فأمّا الذينَ آمَنُوا باللّهِ واعتَصَمُوا بِهِ فَسيُدْخِلهُم في رحمةٍ منهُ وفضلٍ ويَهديهم إليه صِراطاً مستقيماً﴾ [النساء: ١٧٥]، حيث تشكّل هذه النهايةُ الهدف العبادي العام لمطلق النصوص القرآنية الكريمة.

لكن ينبغي أن نلفت الانتباه (ونحن نُعنىٰ بإبراز العمارة الفنية للسورة من حيث تلاحم موضوعاتها) بأن السورة الكريمة قد خُتِمت بآية تتحدث عن الإرث بالنسبة للأخوة والأخوات، ولا بد حينئذٍ من التساؤل عن السرّ الفني لهذا الختام الذي يبدو وكأنه منفصم عن المقطع الأخير الذي تحدث عن الإيمان.

لا شك أن عرض موضوعٍ ما في الختام أو البداية أو خلال عرض موضوع آخر يعني (من الزاوية الفنّية) أن النص يستهدف لفت النظر إلى أهمية

هذا الموضوع الذي بُدِىءَ به أو خُتِمَ به أو عُرِض في سياق موضوع آخر.
يُضاف إلى ذلك أن سورة النساء قد بدأت بالحديث عن العلاقة بين الجنسين من زواج وقربىٰ ونحوهما، كما عرضت قضية الإرث وشدّدت فيه وبيّنت أحكامه مفصّلاً مما يَعْني أهميةَ هذه الظاهرة المالية عند المشرّع الإسلامي، وحينما يُختم النص بالحديث عن الإرث أيضاً، نستخلص حينئذ مدىٰ الأهمية المشار إليها، والمهمّ بعد ذلك أن نذكّر المتلقي بالخيوط العامة لعمارة السورة التي تقدم الحديث عنها من حيث تداخل موضوعاتها وإيجاد الوصلات الفنية بينها وإعادة الحديث عنها في سياقات جديدة، مما يفصح ذلك عن مدىٰ جمالية وإحكام المبنىٰ المذكور بالنحو الذي عرضنا له.



سورة المائدة

سورة المائدة، تعدّ من السور الطوال ذات الموضوعات المتنوعة، إلا أنها مثل سائر السور القرآنية الكريمة ترتبط بخيط فكري عام يوحّد بين موضوعاتها ويُخضعها لعمارة فنيّة مُحكمة، تبدأ من موضوع محدّد ثم تتنامىٰ موضوعاتها لتصل في نهاية السورة إلىٰ موضوع آخر، تصبّ جميعاً في رافدٍ فكري نبدأ الآن بتفصيل الكلام فيه، حيث نعرض لبنائه حسب تسلسل موضوعاته.

تبدأ السورة بطرح ظواهر (اقتصادية) مختلفة بحيث تشكّل مقطعاً خاصاً، بهذا النحو:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم
يا أيُّها الذين آمنوا أَوْفُوا بالعقود أُحِلَّت لكم بهيمةُ الأنعام إلاّ ما يُتلىٰ عليكم غيْرَ مُحِلِّي الصَّيد وأنتُم حُرُمٌ إنّ الله يحكُمُ ما يُريدُ﴾ [المائدة: ١].

في هذه الآية التي افتُتِحت بها السورة طرحٌ لتعاملٍ اقتصادي هو: الإيفاء بالعقود، أي: الالتزام بما يتفق عليه طرفا التعامل، وهذا الالتزام ـ فضلاً عن كونه ذا معطىً اجتماعي من حيث تحقيق التوازن في بناء المجتمعات ـ ينطوي علىٰ بُعدٍ أخلاقي أيضاً هو تدريب النفس علىٰ الاستواء في السلوك، مُتمثّلاً في تزكيتها من أورام (الذات).

بعد ذلك، تطرح الآية قضيةً أخرىٰ هي: إباحة تناول الأنعام إلاّ ما يحدده المشرع من حظر ذلك.

وهذه القضية ترتبط أيضاً بعملية تزكية النفس، ولكن من حيث الأساس الكيميائي لها: بعد أن كانت الظاهرة الأولىٰ (الإيفاء بالعقود) ترتبط بتزكية

النفس من حيث تركيبتها العامة.

ثم تتقدم الآية بطرح موضوعٍ ثالث هو: عدم إباحة الصيد في الإحرام.

وهذا الطرح بدوره مرتبط بتزكية النفس من حيث حرص التشريع الإسلامي علىٰ أن يتصاعد الشخص ـ في حالة إحرامه ـ إلىٰ سحق (الذات) تماماً، فيمتنع عن ممارسة كل ما له صلة بالهموم الذاتية مثل مطالبته بعدم التظليل من حرّ الشمس مثلاً أو مطالبته بعدم لبس (الزينة)... الخ. كل ما في الأمر أن النص اقتصر من ذلك علىٰ عرض (الصيد) فحسب، نظراً لارتباطه بالبعد الاقتصادي الذي يعالجه النص في هذه الآية الكريمة.

إذن، الموضوعات الثلاثة: الإيفاء بالعقد، إباحة الأنعام إلا ما استُثني، عدم الصيد في حالة الإحرام تظل حائمة علىٰ (تزكية النفس) من زوايا مختلفة: الاقتصاد، الحج... الخ.

بعد ذلك يتقدم النص بطرح ظواهر تتصل بممارسة الحجّ، والإحرام، ثم ما يواكب ذلك من تقديس البيت الحرام، من حيث المطالبة بعدم العدوان فيه، والمطالبة بالتعاون علىٰ البرّ والتقوىٰ ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تُحِلُّوا شعائرَ الله ولا الشهرَ الحرامَ ولا الهَدْيَ ولا القلائِدَ ولا آمِّينَ البيتَ الحرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْواناً وَإذَا حَلَلْتُم فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُم شَنآنُ قَومٍ أَن صَدُّوكُم عَنِ المَسْجِدِ الحَرامَ أَن تَعْتَدُوا وَتَعاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

إن المطالبة (بالتعاون) واضحة كل الوضوح في انتسابها إلىٰ قضية (تزكية النفس) التي استُهلت السورةُ الكريمة بها، كل ما في الأمر أن النص بَدَأَ في رسم ذلك من خلال طرحه لموضوعات اقتصادية مختلفة، يتصل بعضها بمطلق التعامل مثل (العقود)، وبعضها بالطعام، وبعضها بممارسة الحج مثل (عدم الصيد)، ثم تتويج ذلك بقضية عسكرية تتصل بحظر القتال في الأشهر الحرم،

ومن ثمَّ المطالبة بالتعاون بنحوٍ عام.

فالمُلاحَظ هنا أن النص رَصَد موضوعات تخص ممارسة الحج وتفريعاتها، محقّقاً بذلك مبنىً هندسياً قائماً علىٰ تجانس الموضوعات، إلا أنّه رسَمَ ذلك من خلال خيط فكري عام هو تزكية النفس، وهي تزكية قد تتمّ من خلال تعامل اقتصادي، أو تعامل عسكري، أو تعامل عام. وهذا ما عرضه النص حينما طالب بالتعاون علىٰ البر والتقوى في نهاية الآية التي تقدّم الحديثُ عنها.

بعد ذلك، يتابع النصُ طرح القضايا المتصلة بتزكية النفس حيث يفصّل ما سبق أن أجمله في مقدمة السورة بالنسبة لإحدىٰ الظواهر المطروحة هناك وهي: ظاهرة (الطعام) أو الأساس الكيميائي في تزكية النفس، حيث لحظنا أن المقدمة أباحت تناول لحوم الأنعام واستثنت منها البعض وها هو النص يتقدّم بعرض ما هو مستثنىٰ في هذا المقطع: ﴿حُرِّمت عليكم المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحمُ الخنزير وما أُهِلَّ لِغيرِ الله بِهِ، والمُنْخَنِقَةُ والمَوْقُوذةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنطيحةُ وما أكَلَ السَّبُعُ إلاّ ما ذكَّيتُم وما ذُبِحَ علىٰ النُّصُبِ وأنْ تَسْتَقسِمُوا بالأزلام ذلِكُم فِسق اليَوْمَ يَئِسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِن دِينكُمْ فَلاَ تَخْشَوهُمْ وَاخْشَوْنِ اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُم وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لإثْمٍ فَإنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

ففي هذا المقطع استثناءات لما هو مباح بصفتها مضادة لتزكية النفس مثل لحم الميتة، والخنزير وسواهما مما ورد في الاستثناء المذكور، إلاّ أن النص عَرَض خلال حديثه عن هذا الجانب قضية إكمال الدين أو الولاية لعلي(ع) مما يمكن تفسيره ـ من الزاوية الهندسية للنص ـ بأنّ إكمال الدين والولاية هو النموذج الأرفعَ لتزكية النفس، ما دام النص ـ كما لحظنا ـ قد استهدف (تزكية النفس) من خلال طرحه لموضوعات اقتصادية وغيرها، كما أن تعقيبه علىٰ

ذلك بقوله تعالى: ﴿أتممت عليكم نعمتي﴾ سيكون له موقع عضوي في الأفكار اللاحقة التي ستُطرح في السورة الكريمة.

* * *

ونتجه إلى مقطع جديد من السورة هو: **﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم قل أحل لكم الطيبات وما علَّمتم من الجوارح مُكَلِّبينَ تُعلّمونهن مما علّمكم الله فكُلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتّقوا الله إنَّ الله سريع الحساب * اليوم أُحل لكم الطيبات وطعام الذين أُوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم والمُحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنّ أُجورهن مُحصنين غير مسافحين ولا مُتّخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** [المائدة: ٤ ـ ٥].

في هذا المقطع يتابع النصُ معالجته للظاهرة الاقتصادية (الطعام) ليحدثنا عما هو محلّل منه بشيء من التفصيل بعد أن حدثنا (إجمالاً) عن ذلك في مقدمة السورة. التفصيل هنا يرتبط بمطلق ما هو مسموح له من الطعام (بعد أن كانت المقدمة تشير إلىٰ الأنعام فحسب)، وبما يتصل بأحد أشكال التزكية **﴿وما علّمتم من الجوارح مكلّبين﴾**، ثم بالطعام من حيث علاقة تناوله بين الإسلاميين والكتابيين، ثم يُختم المقطع بطرح جديد هو: علاقة الإسلاميين والكتابيين من حيث النكاح المسموح به بين الطائفتين.

هندسياً، ينبغي ملاحظة البناء القائم أولاً علىٰ طرح الظاهرة الاقتصادية (الطعام) بصفتها امتداداً للمقطع الأول من السورة، ثم (وهذا ما ينبغي لفت النظر إليه) استثمار هذا الجانب (الطعام) لتتناول ظاهرة جديدة سوف تأخذ مساحة كبيرة من السورة هي (سلوك الكتابيين) حيث ربط النص بينهم وبين الطعام المسموح تناوله، لينطلق منه إلىٰ معالجة سلوك الكتابيين في مختلف

أنماطه كما سنرىٰ لاحقاً، بحيث يمكن القول بأن طرح سلوك الكتابيين هنا هو بمثابة مقدمة عضوية تأخذ تفصيلا في الأقسام اللاحقة من السورة.

وأول ما يطرحه جديداً هنا هو (التناكح) بينهم وبين الإسلاميين في مستوياته التي لا يعنينا تفصيل الحديث عنها، بقدر ما يعنينا أن نشير إلى المبنىٰ الهندسي لهذا الطرح من حيث كونه يرتبط أولاً بما سبقه من الحديث عن الكتابيين، ومن حيث كونه يصبّ ثانياً في الفكرة الرئيسة للنص وهي (تزكية النفس) بصفة أن ما هو محلل من الطعام والجنس وغيرهما كما سنرىٰ يظل علىٰ صلة بتزكية النفس أو حثها في حالة عدم الالتزام بهذه التوصيات.

* * *

وما دامت (تزكية النفس) هي الخيط الفكري الرابط بين موضوعات النص من طعام وجنس وغيرهما، فإن النص يتقدم في مقطع جديد ـ بطرح ظاهرة جديدة تتصل بتزكية النفس هي: الوضوء والتيمم بصفة ذلك تطهيراً متوازياً مع ما لحظناه من التطهير المتصل بتناول الطعام والتعامل الجنسي، يقول النص: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُم وأيدِيَكُم إلى المرافِقِ وامسَحُوا برُؤُسِكُم وأرجُلَكُم إلى الكعبَينِ وإن كنتُم جُنُباً فاطَّهَّروا وإن كنتُم مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكُم من الغائِطِ أو لامستُمُ النّساء فلم تجدوا ماءً فتيمَمُوا صعِيداً طيباً فامسَحُوا بوجُوهِكُم وأيديكُم منه ما يُريدُ الله ليجعل عليكُم من حرَجٍ ولكن يُريدُ ليُطهِّرَكُم وليُتِمَّ نعمَتَه عليكُم لعلَّكُم تشكُرُون﴾ [المائدة: ٦].

لنلاحظ أن النص صريح هنا في إشارته للتطهير العبادي ﴿يريد ليطهركم﴾. كما ينبغي لفت النظر إلىٰ قوله تعالى بعد ذلك مباشرةً: ﴿وليتمّ نعمته عليكم﴾ حيث أن إشارته للتطهير يدعم ما ذهبنا إليه من الخيط الفكري الذي ينتظم موضوعات النص، وحيث أن إرداف ذلك بعبارة ﴿وليتم نعمته

عليكم﴾ له موقع عضوي في بناء النص فيما لحظنا في المقطع الأول من السورة إشارته إلى (إتمام النعمة) وحيث ستتكرر هذه الظاهرة عبر الموضوعات اللاحقة التي سنقف عليها. وبالفعل، ما أن انتهىٰ النص من إشارته (لإتمام النعمة) حتى يواجهنا بتذكرها جديداً في المقاطع الجديدة الآتية ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثَقَكُم به إذ قُلتُم سمِعنا وأطعنا واتَّقُوا الله إنَّ الله عليمٌ بذاتِ الصدور * يا أيُّها الذين آمنُوا كونُوا قوَّامين لله شُهداء بالقِسط ولا يجرِمنكُم شنئَانُ قومٍ على ألاّ تعدلُوا اعدِلُوا هو أقربُ للتقْوى واتَّقُوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون * وعدَ الله الذين آمنُوا وعمِلوا الصالِحاتِ لهم مغفِرةٌ وأجرٌ عظيم * والذين كفروا وكذَّبُوا بآياتنا أُولئك أصحابُ الجحِيم * يا أيُّها الذين آمنوا اذكرُوا نعمتَ الله عليكم إذ همَّ قومٌ أن يبسُطوا إليكم أيديَهُم فكَفَّ أيديَهُمْ عنكُم و اتَّقوا الله و علىٰ الله فليتوكَّل المؤمنون﴾ [المائدة: ٧ ـ ١١].

ففي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى النعمة مرتين كما هو ملاحظ، كما أن فيها إشارة إلى (الميثاق) الذي واثق اللّهُ تعالى به الإسلاميين بالنسبة إلىٰ إطاعتهم لرسالة النبيّ(ص). وهذه الإشارة إلى (الميثاق) ذات مهمة عضوية هي: الربط بين سلوك الإسلاميين الذين يظلون هدفاً في السورة بطبيعة الحال، وبين سلوك الكتابيين الذين سيتابع النصُ طرْحَ شرائح متنوعة من سلوكهم كما أشرنا إلىٰ ذلك قبل قليل، وبالفعل يبدأ النص بتقديم شرائح من سلوكهم، مستهلاً ذلك بالحديث عن سلوك اليهود الذين يُعتبرون أشدّ الفئات الكتابية مفارقةً. ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إنّي معكُم لئن أقمتُم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتُم برُسُلي وعزَّرتمُوهم وأقرَضتُم الله قرضاً حسناً لأُكَفِّرَنَّ عنكم سيئاتِكُم ولأُدخلنَّكُم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ فمن كفر بعد ذلك مِنكُم فقد ضلَّ سواء السبيل * فبما نَقضِهم ميثاقهُم لعنَّاهُم وجعلنا قُلوبَهُم قاسية يُحرِّفُون الكَلِم عن مواضِعه ونسُوا حظاً مما ذُكروا به ولا تزال تطَّلعُ على خائنةٍ منهم إلاّ قليلاً منهم فاعْفُ عنهم واصفَحْ إن الله

يُحبُّ المُحسنين﴾، ثم أردف ذلك بالإشارة إلى سلوك النصارىٰ:

﴿ومن الذين قالوا إنّا نصارىٰ أخذنا ميثاقهم... يصنعون﴾ [المائدة: ١٤].

فالملاحظ هنا أن النص قد جعل أخذ (الميثاق) من (اليهود) ومن (النصارى) ومن (الإسلاميين) عنصراً (رابطاً) بين أجزاء النص، فقد تحدث عن الإسلاميين ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ وتحدث عن اليهود ﴿أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾، وتحدث عن النصارىٰ ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارىٰ أخذنا ميثاقكم﴾، وكان الحديث عن ميثاق الإسلاميين تمهيداً للحديث عن اليهود والنصارىٰ كما لحظنا، وحيث أخذ يواصل تقديم شرائح من سلوكهم علىٰ النحو الآتي ـ بعد أن ذكر إجمالاً بأنهم نقضوا مواثيقهم التي واثقوا بها الله تعالى ـ: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كُنتم تُخفُون من الكتابِ ويعفوا عن كثيرٍ قد جاءكُم من الله نورٌ وكتابٌ مُبينٌ * يهدي به الله منِ اتَّبَع رِضوانَه سُبُلَ السلام ويُخرِجُهُم من الظُّلماتِ إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مُستقِيم﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦]. إن ما ينبغي لفت النظر إليه هو: أن ذكر الكتابيين يشكّل إنارةً أو وسيلةً لهدف النص من حيث كونه يتجه إلىٰ تبيين الرسالة الإسلامية وما ينبغي أن يسلكه المؤمنون حيالها، ثم ما واجهته من تعامل الكتابيين حيالها، ولذلك خاطبهم النص قائلاً ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً... الخ﴾ موضّحاً بذلك بأن رسالة الإسلام هي الرسالة التي تخرجهم من الظلمات إلىٰ النور. لكن بما أن الكتابيين ـ في غالبيتهم ـ وقفوا مضادين لهذه الرسالة، حينئذ بدأ النص بعرض شرائح من سلوكهم المنحرف، فتحدث أولاً عن النصارىٰ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريمَ قل فمَن يملِكُ من الله شيئاً إن أراد أن يُهلِكَ المسيح ابن مريم وأمّهُ ومن في الأرض جميعاً ولله مُلك السماوات والأرض وما بينهُما يخلُقُ ما

يشاءُ والله على كل شيءٍ قدير * وقالت اليهود والنّصارى نحنُ أبناءُ الله وأحِبّاؤهُ قل فلِمَ يُعذِّبكم بذُنُوبِكم بل أنتم بشرٌ ممن خلَقَ يغفِر لمن يشاء ويُعذِّب من يشاء ولله مُلك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ [المائدة: ١٧ ـ ١٨].

هنا ينبغي أيضاً أن تتنبه علىٰ جملة من الأسرار البنائية للنص، فاليهود ـ كما أشرنا ـ أشدّ انحرافاً من النصارىٰ فيما يفسّر لنا سرّ الابتداء من الحديث عنهم في المقطع الأسبق، وهذا ما يشير إليه النص القرآني في هذه السورة كما سنرىٰ لاحقاً. لكن بما أن النص يستهدف ـ في هذه السورة ـ تركيزاً علىٰ سلوك النصارىٰ (ومنه: تعاملهم مع المائدة التي نزعت عليهم من السماء ـ كما سنرى في ختام السورة) حينئذٍ فإن الحديث عنهم سوف يأخذ حجماً كبيراً، كما سيأخذ ـ في سياقات أخرىٰ ـ أولويةً، ومنها: استهلال الحديث عنهم في المقطع الذي نحن في صدده **﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح.. الخ﴾** مضافاً إلى أن مثل هذا الزعم يشكل مفارقة ضخمة لأنه كفرٌ صارخٌ كما هو واضح... بالقياس إلىٰ تصورات اليهود الذاهبة إلى أنهم بمنزلة الابن وليس الإبن ذاته.

وإذا تابعنا النص، وجدناه يتجه من جديد إلىٰ مخاطبة الكتابيين (يهوداً ونصارىٰ): **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم علىٰ فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير...﴾** [المائدة: ١٩]. هذه الآية التي جمعت بين اليهود والنصارى بعبارة (يا أهل الكتاب) لها أهمية عضوية في بناء النص فقد لاحظنا في المقطع الأسبق أن النص قد خاطبهما (اليهود والنصارىٰ) بالمصطلح ذاته: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون..﴾** [المائدة: ١٥]، ثم تحدث عن كل طائفة منهما علىٰ حدة كما رأينا. وهنا في المقطع الذي نحن في صدده **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم علىٰ فترة من الرسل:.﴾** يسلك المنحىٰ نفسه في استخدامه

لعبارة ﴿يا أهل الكتاب﴾.

والسرّ الفنيّ في ذلك هو: أن النص عندما يجمع بين الطائفتين بعبارة واحدة إنما يستهدف إبراز سلوك مشتركٍ بينهما، وعندما يفرد كلّ واحدة منهما بالحديث إنما يستهدف إبراز سلوك خاص بها، وإن كان كلا السلوكين يصبّ في حقل واحد هو: أن النص قد أخضع هذه الجزئية من النص لعمارة خاصة تنتظمها الخطوط الآتية:

١ ـ العبارتان تتماثلان في الصياغة (أي المقطعين التاليين):

ـ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون.

ـ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم علىٰ فترة من الرسل.

٢ ـ المقطعان يتكرران في سياق يختلف أحدهما عن الآخر، فالأول يتحدث عن إخفاء الكتابيين للحقائق، والآخر يتحدث عن إعطائهم الحجة بمجيء الإسلام الذي يكشف الحقائق فيما يفسّر لنا سرّ التكرار كما هو واضح.

٣ ـ المقطع الأول أردف حديثه عن الكتابيين بالإشارة إلى أنهما قالا نحن أبناء الله وأحباؤه، بينما أردف المقطع الثاني حديثه عن الكتابيين بعرض شريحة ماضية من سلوك اليهود كما سنرىٰ، مما يفسّر لنا كون النص يستهدف في كل سياقٍ إبراز ما هو أشدّ مفارقة أو أهمية، حيث كانت الإشارة إلى أن اليهود والنصارىٰ قالا بأنهما أبناء الله وأحباؤه أشد مفارقة من غيرها من السلوك، وحيث أن الاستهلال ـ في المقطع الثاني ـ بعرض شرائح من سلوك اليهود، يُجسّد مفارقة هذه الطائفة والتواءها بشكلٍ أشدَّ من التواء النصارىٰ ومفارقاتهم.

* * *

المهم، أن النص يبدأ الآن بالحديث عن جانب من السلوك اليهودي علىٰ

النحو التالي: ﴿وإذ قال موسىٰ لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكُم أنبياءَ وجعلكُم مُلُوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمينَ * يا قومِ ادخلوا الأرض المُقدّسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركُم فتنقلِبُوا خاسرِين * قالوا يا مُوسى إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخُلَها حتى يَخرُجوا منها فإن يخرجُوا منها فإنّا داخلون * قال رجلانِ من الذين يخافُون أنعم الله عليهما ادخُلوا عليهم البابَ فإذا دخلتُمُوه فإنكُم غالبُون وعلى الله فتوكّلوا إن كنتُم مؤمنين * قالوا يا مُوسى إنّا لن ندخُلها أبداً ما داموا فيها فاذهَب أنت وربُّك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون * قال ربِّ إنّي لا أملكُ إلاّ نفسي وأخي فافرُق بيننا وبين القومِ الفاسقين﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٥]، هذه الشريحة من سلوك اليهود تجسّد عنصراً قصصياً متمثّلاً في مطالبة موسىٰ(ع) قومه بالدخول إلىالأرض المقدّسة وامتناعهم عن ذلك، ومجازاتهم علىٰ تمردهم بحادثة التيه المعروفة.

بعد ذلك، أردف النصُ هذه الأقصوصة بأقصوصة أخرىٰ هي قصة ابني آدم اللذين تُقبّل قربان أحدهما وقتله على يد الآخر الذي لم يُتقبّل منه... الخ. وبما أننا تحدثنا عن هاتين الأقصوصتين في دراسة مستقلة، فلن نعرض لهما فنياً بقدر ما نستهدف الإشارة إلى موقعهما عضوياً من عمارة السورة الكريمة.

لقد سبق أن لحظنا أن النص القرآني طرح موضوع السلوك الكتابي (اليهود منه)، وحينئذٍ فإنّ عَرْضَ جانبٍ من سلوكهم هنا يعني إبراز النص لأنماط خاصة منه، متمثلة في تمرد اليهود وجبنهم وانحطاطهم العقلي حيث أن امتناعهم عن الدخول إلى الأرض المقدسة وسخريتهم من موسىٰ بأن يقاتل وربّه تعالى يكشف عن هذه السمات الثلاث. بيد أن الملاحظ هنا أن النص قد قطع سلسلة حديثه عن الإسرائيليين بتقديم أقصوصة ابني آدم(ع)، ثم تابع حديثه عن الإسرائيليين... فما هو السرّ الفني في ذلك؟ أقصوصة ابني آدم(ع)

تكشف عن أحد جوانب البناء الهندسي للنص حينما عقّب النصُ علىٰ قتل أحد ابني آدم لأخيه، قائلاً ﴿**من أجل ذلك كتبنا علىٰ بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً. .**﴾ [المائدة: ٣٢]، فعملية الربط بين قتل أحد ابني آدم لأخيه وبين ما فرضه الله تعالى علىٰ الإسرائيليين بعدم ممارسة القتل، تظل من الوضوح بمكان كبير، بمعنىٰ أن قصة ابني آدم جاءت بمثابة قصة معترضة لقصة الإسرائيليين. وكما نعرف، فإن القصة أو الجملة أو الكلمة المعترضة، تشكّل واحداً من أساليب التعبير الفني، حيث أن قطع سلسلة الموضوع ومتابعته بعد ذلك، يعني أن القصة أو الجملة أو الكلمة المعترضة تحتل أهمية خاصة لدىٰ مبدع النص يستهدف إبرازها إلىٰ المتلقي، وهذا ما حدث بالنسبة إلى قصة ابن آدم التي اعترضت قصة الإسرائيليين، حيث أن المتلقي أفاد من هذه الأقصوصة جملة ظواهر، منها: أن يكون التقرب إلىٰ الله تعالى بما هو جيّد من القربان وليس رديئه (كما صنع أحد ابني آدم ، وهو القاتل)، ومنها: إبراز (الحسد) بصفته دافعاً مقيتاً يستتلي سلوكاً يصل إلى درجة القتل، ومنها: الإشارة إلى النزعة المسالمة التي ينبغي أن تطبع سلوك الشخصية (مثل نزعة المقتول الذي قال لأخيه: لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي لأقتلك. . .). . . الخ.

بيد أن السرّ الفنيّ الأشد أهمية هنا (ما دمنا في صدد الحديث عن عمارة السورة القرآنية الكريمة) يتمثل في المنحىٰ الفنيّ الذي سلكه النص بشكلٍ غير مباشر ألا وهو خطورة (القتل) من جانب، ومشروعيته من جانب آخر، أمّا عدم مشروعيته فهو القتل بنحوه العدواني الصرف، فالمقتول (أحد ابني آدم) لم تصدر عنه أية جريمة تستوجب قتله بل العكس تماماً، أنه أخلص لله تعالى بتقديمه القربان الجيّد. وأما المشروع من القتل فهو القصاص أو القتل بسبب من الإفساد في الأرض. . . الخ، مما سيوضحه النص لاحقاً، بيد أن ما يعنينا

لفت النظر إليه هو أن النص القرآني الكريم رَسَم هذه الحقائق بنحو غير مباشر من جانب، ثم رسمها بنحوها المباشر من جانب آخر، رسمها بالنحو غير المباشر عندما قدم أقصوصة فنية عن ابني آدم، ورسمها بالنحو المباشر عندما تابع حديثه عن الإسرائيليين. وهذا هو أحد الأسرار الممتعة في عمارة السورة القرآنية الكريمة. فالقصة (قصة ابني آدم) لم تتحدث عن القتل في أشكاله التي أشرنا إليها، إنما نقلت الحادثة والمحاورة بين ابني آدم، وتركتنا نحن المتلقين نستنتج التفصيلات المشار إليها من خلال مطالعتنا الأقصوصة ولما بعدها من المقاطع، حيث يكشف ذلك عن مدىٰ الإحكام الهندسي للنص في مختلف مقاطعه.

المهم، أن النص ربَطَ عضوياً بين قصة ابني آدم وبين الإسرائيليين، ثم بدأ يواصل حديثه عن الإسرائيليين، مركّزاً علىٰ جانب جديد من سلوكهم ألا وهو (القتل). ومن الواضح أن الإسرائيليين عُرفوا ـ دون غيرهم من الطوائف ـ بقتلهم الأنبياء، وهو أمر لم يتحدث عنه النص في هذا المقطع الذي نتحدث عنه، إلا أن مجرد إشارته إلى أن الله تعالى فَرضَ علىٰ الإسرائيليين أنه من قتل نفساً بغير حق فكأنه قتل الناس جميعاً، يظل أسلوباً فنياً غير مباشر في لفت النظر إلىٰ أنهم يُعرفون بجرائم القتل لأنبيائهم وهو أشد أنماط القتل جنايةً.

والآن إذا تركنا هذا الجانب العماري من النص، واتجهنا إلىٰ الخطوط العمارية الأخرىٰ، لحظنا أن النص قد استثمر هذا البُعد المتصل بظاهرة القتل ليطرح موضوعاً جديداً هو: مشروعية القتل وعدمها في ضوء المواقف التي تتطلب ممارسة هذا الفعل أو عدمها. ولذلك نبدأ بمواجهة مقطع جديد يقول: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسُوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنفوا من الأرض.... غفور رحيم﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

واضح أن النص قد انتقل هنا من الحديث عن الإسرائيليين إلى الحديث عن ظاهرة القتل، ثم ظاهرة الجزاء المترتب علىٰ أنماط أخرىٰ من الممارسات الانحرافية، مثلما انتقل من الحديث عن المجتمع الإسرائيلي إلى الحديث عن المجتمع الإسلامي. لقد أشار إلىٰ الجزاء المترتب علىٰ محاربة الله تعالى ورسوله(ص) وعلىٰ الإفساد في الأرض، أشار إلى عملية القتل والصلب والقطع (للأيدي والأرجل) والنفي المترتبة علىٰ المحاربة والإفساد. خلال ذلك، عرض إلىٰ ظاهرة (التوبة) قبل إلقاء القبض علىٰ المنحرفين ومحاسبتهم، بصفة أنّ التوبة قبل ذلك تكشف عن ندم المنحرف حقاً، بخلاف ندمه بعد إلقاء القبض عليه حيث أنه يضطر إلى ذلك. طرح النص موضوعات تتصل بالجهاد في سبيل الله، وبالتقوىٰ، وبالجزاء المترتب علىٰ المنحرفين، ثم عَرَض إلى أحد أشكال الإنحراف الاجتماعي وهو (السرقة) ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نَكالاً من الله والله عزيز حكيم * فمن تابَ من بعد ظُلمِه وأصلح فإنَّ الله يتُوب عليه إنَّ الله غفُور رحيم * ألم تعلَم أنَّ الله له مُلك السماوات والأرضِ يُعذِّب من يشاء ويغفِرُ لمن يشاء والله على كل شيءٍ قدير**﴾ [المائدة: ٣٨ ـ ٤٠].

هنا ينبغي ملاحظة جملة من الأسرار الفنية لهذا البناء العماري القائم علىٰ عرض موضوع (السرقة) في سياق الحديث عن الانحرافات المذكورة وجزاءاتها الاجتماعية.

إن إبراز (السرقة) وجزائها في مقطعٍ مستقلٍ قد فُصِل بينه وبين الظواهر الانحرافية (المحاربة، والإفساد)، يعني: إكسابه أهمية خاصة من جانب، وارتباطه عضوياً بما سبقه من جانب آخر. ويعنينا الارتباط العضوي بطبيعة الحال. وما أن ندقق النظر قليلاً حتى نكتشف بأن السرقة تجسّد واحدةً مما يسمّىٰ في لغة المرض النفسي بـ(أمراض الشخصية) أو (الانحرافات

الاجتماعية) من حيث اشتراك هذه الأمراض في خطوط متماثلة بينها، نزعةً ودرجةً وشكلاً . . . فالمحارب الذي أشارت إليه آية سابقة **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله. . .﴾** [المائدة: ٣٣]، هو مَن يشهر السلاح ويتلصص في الطرق جهراً، وأما السارق الذي أشارت إليه الآية التي نتحدث عنها فهو من يمارس اللصوصية خفيةً. وهذا هو العنصر المشترك بينهما (أي اللصوصية) مطلقاً، وأما الجزاء المترتب على السارق فهو (القطع)، حيث يشترك مع ما تقدمه في أحد أشكال الجزاء (تقطيع الأيدي أو الأرجل من خلاف). وهذا هو العنصر المشترك الآخر بينهما.

من جانب ثالث، هناك عنصر مشترك بينهما من حيث الإشارة إلى توبة كل منهما، فقد أشار النص إلىٰ التوبة بالنسبة إلى المحارب والمفسد بالتعقيب القائل: **﴿إن الله غفور رحيم﴾**، وأشار بالنسبة إلى السارق والسارقة بالعبارة ذاتها: **﴿إن الله غفور رحيم﴾**.

إذن، أمكننا ملاحظة ثلاثة عناصر مشتركة بين الآية التي عرضت للمحارب والمفسد وبين الآية التي عرضت للسارق والسارقة، وأولئك جميعاً تكشف عن مدىٰ الإحكام العضوي بين أجزاء النص القرآني الكريم.

* * *

والآن، نجد أن النص القرآني الكريم يعود من جديد إلىٰ متابعته للسلوك الإسرائيلي بعد أن قطعه بقصة ابني آدم وبظواهر القتل والمحاربة والإفساد والسرقة عبر خطوط متواشجة عضوياً بنحو ما لحظنا، فيما لا حاجة إلىٰ تبيين السرّ الفني في متابعة النص لعرض السلوك الإسرائيلي.

يقول النص: **﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا. . . . . . . فأولئك هم الظالمون﴾** [المائدة: ٤١ ـ ٤٥].

لنلاحظ أن الفكرة الرئيسة للسورة الكريمة لا تزال تمدّ عصبها في أجزاء النص، فها هي تتناول شرائح جديدة من سلوك اليهود **﴿سماعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه...﴾** حيث يعقّب النص قائلاً **﴿أولئك الذين لم يُرد الله أن يطهّر قلوبهم﴾**. فالفكرة الرئيسة للنص (وهي: التزكية أو التطهير) ألقت بإنارتها في هذا المقطع، وذلك من خلال نفيها لسمة التطهير عند الإسرائيليين. ومن الواضح أن جمالية البناء العماري للنص تكسب إثارة أشدّ عندما تعتمد خطوط (التوازي) و(التقابل) أيضاً، ففي عرضه لسلوك المؤمنين (في مقاطع سابقة من السورة) قال النص: **﴿يريد ليطهّركم﴾**، وهنا في عرضه لسلوك الإسرائيليين يقول النص: **﴿لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم﴾**، أنه (يقابل) و(يضاد) بين تطهير المؤمن وعدم تطهير الكافر في غمرة عرضه لظواهر التطهير المختلفة من طعام وجنس وغسل وتيمم... الخ، حيث (تتوازى) هذه الخطوط، وحيث تقف إلىٰ جانبها خطوط (تتضاد) ليستكمل البناء الفنيّ جماليته الفائقة.

وإذا تابعنا المقطع نواجه شرائح جديدة من سلوك اليهود، ومنها **﴿أكالون للسحت﴾**. وهذه السمة هي (ضدّ) للتطهير، فالسحت هو الحرام في مستوياته المتنوعة سواء أكانت أموالاً مثل ثمن الخمر والميتة والبغي الخ، أم كانت أخذاً للرشوة في حقل القضاء. والمهم أنها سمة ضد التطهير، ومن ثم فإن النص في غمرة عرضه لهذه السمة الرابطة بين أجزاء السورة الكريمة، يطرح قضية (الاحتكام) و صلة سلوك الإسرائيليين به، لكن يعرض للقصاص منه، مبيّناً كيفية تلاعبهم بالأحكام: انسياقاً لمصالحهم الذاتية، معلقاً على ذلك بالعبارة الرابطة بين أجزاء السورة **﴿ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم...﴾**.

* * *

بعد ذلك، يتجه النص إلىٰ عرض الإنجيل وكونه مصدّقاً للتوراة، ملوّحاً بضرورة أن يحكم (أهل الإنجيل بما أنزل الله..) ثم اتبعه بالقرآن وبكونه مصدقاً لما قبله أيضاً، ملوّحاً بضرورة أن يحكم النبيّ(ص) بما أنزل الله تعالى، محذّراً من الحكم وفق أهواء الكتابيين.

ولا نجدنا بحاجة إلى تبيين الإحكام الهندسي لهذا المقطع من حيث صلة أجزاؤه بعضها مع الآخر. فـ(الحكمُ) هو الظاهرة أو الخيط الفكري الذي يربط بين أجزاء المقطع فيما عقّب علىٰ التوراة بعبارة:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ [المائدة: ٤٤]، وعقّب على الإنجيل بالعبارة ذاتها:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ [المائدة: ٤٧]، وعقّب علىٰ القرآن مخاطباً النبيّ(ص) بعبارة:

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ [المائدة: ٤٨]، ومحذّراً من الحكم بغير ما أنزل الله تعالى: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله﴾ [المائدة: ٤٩]. مضافاً إلى ذلك، أننا نجد بأنّ كلاّ من التوراة والإنجيل والقرآن تأخذ نسقاً هندسياً رابطاً بين الكتب الثلاثة، أمّا من خلال ما لحظناه من ظاهرة (الحكم) أو من خلال كون أنّ اللاحق منها مصدّق للآخر: الإنجيل مصدق للتوراة، والقرآن مصدّق لهما.

* * *

بعد ذلك، يتّجه النص إلىٰ طرح جملة من المبادىء التي تخصّ الإسلاميين وذلك من خلال علاقتهم بالكتابيين، مخضعاً ذلك إلىٰ نسق هندسي آخر هو: مخاطبة المؤمنين بعبارة: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ جاعلاً من هذه العبارة خيطاً فكرياً رابطاً بين أجزاء النص، بادئاً ذلك علىٰ النحو الآتي:

١ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا: لا تتخذوا اليهود والنصارىٰ أولياء. . . فأصبحوا خاسرين﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٣].

٢ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا: من يرتدّ منكم عن دينه. . . . فإن حزب الله هم الغالبون﴾ [المائدة: ٥٤ ـ ٥٦].

٣ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا: لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء. . . . قوم لا يعقلون﴾ [المائدة: ٥٧ ـ ٥٨].

فالملاحظ عمارياً، أن عمارة هذا المقطع ينتظمها:

١ ـ خيط فكري عام هو: عدم اتخاذ الكتابيين أولياء، وهذا ما تكفّل جزءان من المقطع (رقم (١) و(٣))، حيث تكفّل أحدها ببيان (النفاق) الذي طبع بعض الإسلاميين والكتابيين، وتكفّل الآخر ببيان أن الكتابيين قد اتخذوا الإسلام هزواً ولعباً، مطالباً بعدم اتخاذهم أولياء.

٢ ـ خيط فكري جزئي يتفرع من رقم(١) حيث أن النفاق الذي يطبع بعض الإسلاميين أو الضعف النفسي الذي يطبع بعضهم، يستتلي الارتداد عن الدين، ولذلك جعل لهذه الظاهرة صيغة مستقلة صيغت بالعبارة ذاتها **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾**.

٣ـ خيط فكري يشكّل جواباً لكلّ من رقم (١، ٣) أي: عندما حذّر النص من عدم اتخاذ الكتابيين أولياء، حينئذٍ رسم ما ينبغي أن يتخذوه من الأولياء، قائلاً:

﴿إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ [المائدة: ٥٥].

* * *

ونواجه مقطعاً جديداً من شرائح السلوك المرتبطة بالكتابيين: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا إلاّ أن آمنا بالله وما أُنزِل إلينا وما أُنزِل من قبلُ وأنَّ أكثركم فاسقُون * قل هل أنبّئكم بشرٍّ من ذلك مثُوبة عند الله من لعنَه الله وغضِبَ عليه وجعل منهُم القِردة والخنازير وعبد الطّاغُوت أُولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل * وإذا جاءُوكم قالوا آمنا وقد دخلُوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانُوا يكتُمُون * وترى كثيراً منهم يُسارعُون في الإثم والعُدوان وأكلِهمُ السُّحْتَ لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهُم الرّبّانيون والأحبارُ عن قولِهِم الإثم وأكلِهمُ السُّحت لبئس ما كانوا يصنعُون﴾ [المائدة: ٥٩ ـ ٦٣] بعد أن تحدّث النص عن سخرية الكتابيين بالإسلام، عرض لنزعة الحسد لديهم قبال الإسلاميين فسخر النص منهم: ﴿قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلـك مثـويـة عنـد الله مـن لعنـه الله وغضـب عليـه وجعـل منهـم القـردة والخنازير...﴾ [المائدة: ٦٠]، حيث تشكّل هذه السخرية التي تتحدث عن العقاب الذي ينتظر الكتابيين بأنه (مثوبة)، جواباً لسخريتهم التي عرضها النص في المقطع الأسبق، بخاصة أن النص ذكّرهم بأنه جعل منهم القردة والخنازير إمعاناً في الحطّ من شأنهم، ثم عرض لنفاقهم وكرّر الحديث عن ظاهرة (أكلهم السحت)، وهذا التكرار له موقع عضوي من عمارة النص التي تحوم فكرتها علىٰ (تطهير النفس) حيث أن التركيز علىٰ هذه الظاهرة بين حين وآخر تجعل الهيكل الهندسي للنص بمثابة شبكة تلتقي عندها خطوط الوصل بين أجزائها، يضاف إلى ذلك، أن تكرار (السحت) جاء في سياق جديد يختلف عن سياق الأسبق، فهناك كان الحديث عن (السحت) مرتبطاً بسلوك اليهود، وهنا يرتبط بالكتابيين يهوداً ونصارىٰ، لذلك ما أن انتهىٰ النص من الحديث عن الكتابيين، حتىٰ أفرد اليهود من جديد بحديث آخر عبر المقطع الآتي:

* * *

المقطع الجديد الذي يتحدث عن اليهود، أبرز شريحة من سلوكهم المنكر وهو قوله تعالى: **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم. . . والله لا يحب المفسدين﴾** [المائدة: ٦٤] وإبراز هذه الشريحة في مقطع مستقلٍ يعرض به سلسلة الحديث عن الكتابيين، يكشف عن مدىٰ البعد الانحرافي الذي يطبع سلوك اليهود، حتى أن النص استخدم أشدّ الصيغ البلاغية في الذمّ حينما علق قائلاً: **﴿غُلّت أيديهم﴾** ثم أردفها بعبارة **﴿ولُعِنوا﴾** مما يكشف هذا عن مدىٰ تناسب الإجابة مع سلوكهم.

* * *

وندع هذا المقطع الذي اعترض به النصُ سلسلة الحديث عن الكتابيين، لنواجه مقاطع جديدة تتحدث عن الكتابيين بنحو مطلق، ثم تفرد الطائفة النصرانية في معالجة مستقلة. ولنقرأ:

﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلْناهُم جنات النّعيم * ولو أنّهُم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم لأكلُوا من فوقهم ومن تحت أرجُلِهم منهم أُمّةٌ مُقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون * يا أيُّها الرسولُ بلّغ ما أُنزِل إليك من ربّكَ وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصِمُك من الناس إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين * قل يا أهل الكتابِ لستُم على شيء حتى تُقيمُوا التوراة والإنجيل وما أُنزِل إليكُم من ربكُم وليَزِيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّكَ طُغياناً وكفراً فلا تأسَ على القوم الكافرين﴾ [المائدة: ٦٥ ـ ٦٨]. المقاطع السابقة عرضت شرائح السلوك المنحرف لدىٰ الكتابيين. هنا يعرض المقطع الجديد عنصراً (ترغيبياً) يقرّر من خلاله واحداً من مبادىء الاجتماع الإسلامي، ألا وهو تكييف الظواهر الاجتماعية وفقاً لنمط السلوك الذي ينتخبه الناس، أي يرتب جزاءً اجتماعياً على السلوك المذكور، كما يرتب جزاء أخروياً على ذلك، فلو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل والقرآن،

لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وهكذا. ويختم المقطع حديثه عن هذا الجانب بالإشارة إلى أن من الكتابيين من هو مستثنىً من الانحراف ـ مضيفاً طائفة الصابئين إليهم، ليستكمل بذلك حديثه عن الكتابيين في طوائفهم الثلاث المعروفة.

بيد أن ما تجدر ملاحظته في هذا المقطع، أن النص قد قطع سلسلة حديثه عن الكتابيين بالآية الكريمة القائلة: **﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾** [المائدة: ٦٧]. إن هذه الآية الكريمة ـ كما تذكر النصوص المفسرة ـ وردت في حادثة (الغدير) التي نُصِبَ فيها الإمام علي(ع) خليفة لرسول الله تعالى. وحينئذٍ ما هو الموقع الهندسي لها في عمارة المقطع؟ لقد كرّرنا، أن أية ظاهرة تحتل أهمية خاصة، يستهدف النصُ إبرازها، إنما يصوغها النص وفق تقنيات متنوعة وفي مقدمتها: قطعها لسلسلة الموضوع ثم متابعته من جديد. لكن مع ذلك، فإن خطوطاً من التجانس بين الموضوع الرئيس والموضوع الطارىء لا بدّ أن تفرض فاعليتها في هذا الصدد استحكاماً لعمارة النص. ولقد لحظنا من خلال المقاطع جميعاً أو الغالبية منها أن النص بالرغم من كونه يتحدّث عن الكتابيين، إلا أنه بين حين و آخر يتجه بالخطاب إلى النبيّ(ص) وإلىٰ المؤمنين ليطرح من خلال ذلك جملةً من المبادىء التي يستهدف النص توصيلها إلىٰ المتلقي. وهنا نجد أن مخاطبة النبيّ(ص) بصيغة **﴿يا أيها الرسول﴾** جاءت متجانسة مع مقاطع سابقة صيغت بالعبارة ذاتها من نحو: **﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾** [المائدة: ٤١] حيث جاءت في سياق الحديث عن اليهود والمنافقين ومطلق الكفار بخاصة فيما يتعلق بممارسة (الحكم) أو (القضاء)، هنا أيضاً جاءت الآية الكريمة في سياق الحديث عن الكتابيين، حيث اقترنت بممارسة (التبليغ) كما هو واضح. ولعل التجانس الأشهر أهمية

هو ما نلحظه من الآية الكريمة التي أعقبت آية التبليغ حيث تقول: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم علىٰ شيء حتىٰ تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس علىٰ القوم الكافرين﴾ [المائدة: ٦٨].

لنلحظ أولاً أن كلاً من الآيتين ختمت بعبارة (القوم الكافرين) حيث أشارت الأولىٰ إلى أنه تعالى لا يهديهم، وأشارت الثانية إلىٰ عدم الأسىٰ عليهم.

ولنلحظ ثانياً أن كلاً منهما علقت شيئاً على آخر، الأولىٰ قالت: لا تتم عملية (التبليغ) إلاّ بإيصال ما أنزل علىٰ النبيّ(ص) إلى الناس. والثانية قالت: ليس الكتابيون علىٰ شيء إلاّ في حالة إقامتهم لما أنزل عليهم.

فالتبليغ والإيمان (بما أنزل) هو الطابع المشترك في الموقفين ولنلحظ ثالثاً أن الإيمان لا يستكمل أدواته في الموقف الأول إلاّ برسالة الإسلام عامة وبما أنزل من بعدُ (الغدير)، وكذلك بالنسبة إلىٰ الكتابيين، حيث أن إيمانهم بالتوراة والإنجيل لا يستكمل أدواته إلا بالإيمان برسالة الإسلام.

هذه المستويات الثلاثة من التجانس ينبغي أن يُدقَّقَ النظرُ فيها لملاحظة مدىٰ جمالية المبنىٰ الهندسي للمقطع في ضوء الحقائق المشار إليها.

* * *

ونواجه مقطعاً جديداً، يشكّل امتداداً للمقاطع السابقة التي تتحدث عن الكتابيين، إلا أن الجديد هنا هو إفراد الإسرائيليين ـ من جديد ـ بحديث خاص سبق أن طرحه النص في موقع متقدم من السورة، ألا وهو (الميثاق) الذي واثقهم به الله تعالى. فهناك جاء الميثاق في سياق خاصٍ بالصلاة والزكاة والفرض... الخ، بينا جاء هنا في سياق آخر هو: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوىٰ أنفسهم فريقاً

كذّبوا وفريقاً يقتلون * وحسبوا ألاّ تكون فتنة فعموا وصمّوا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصمّوا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾ [المائدة: ٧٠ ـ ٧١].

إذن، السياقان مختلفان، وهذا هو أحد محاور البناء الهندسي للنص، حيث تجيء ظاهرة (التكرار) لتؤدي جملة وظائف فنية، منها: التأكيد علىٰ الشيء، ومنها: إبراز الجديد الذي ورد في سياق متكرر، ومنها: (وهذا ما نعتزم لفت النظر إليه) ربط أجزاء النص بعضها مع الآخر حتى لا ينفصل جزء من السورة عن الأجزاء الأخرىٰ التي تؤلف شبكة السورة.

* * *

وكما كرّر النص حديثه عن الميثاق بالنسبة إلى الإسرائيليين، نجده يكرر حديثه عن النصارىٰ بالنسبة إلىٰ ذهابهم إلى أن الله تعالى هو المسيح. وكما أفرد للإسرائيليين مقطعاً، نجده يفرد للنصارى مقطعاً أيضاً.

وهذان الخطّان من التجانس يضافان إلىٰ عشرات الخطوط الهندسية التي لحظناها بالنسبة إلىٰ بناء العمارة.

ولكن الملاحظ هنا أن النص يقطع رحلةً طويلةً في تقديمه لشرائح السلوك النصراني، حيث قلنا في حينه: إنّ النص القرآني الكريم رسم مساحة كبيرة لهذه الطائفة في سورة المائدة وخَتَم السورة بشريحة أخرىٰ من سلوكهم كما سنرىٰ، مما يكشف ذلك عن كون النص قد استهدف في هذه السورة إبراز السلوك النصراني (بنحو ما استهدف في سورة البقرة مثلاً: إبراز السلوك الإسرائيلي) ولنقرأ إذن:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم... وضلّوا عن سواء السبيل﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٧].

السياق الجديد الذي ورد فيه تكرار قولهم: ﴿إن الله هو المسيح...﴾ هو ذهابهم إلى أنه تعالىٰ ثالث ثلاثة... الخ. فيما لا حاجة إلىٰ تحديد المهمة الفنية للتكرار وسياقه الجديد، بعد أن تحدثنا عنه قبل سطور.

وهكذا نجد أن النص يتحدث حيناً عن الكتابيين مطلقاً، وحيناً يتحدث عنهم علىٰ انفراد تبعاً للمواقف المشتركة أو المنفردة التي يستهدف النص إبرازها لدىٰ الكتابيين. لذلك يعود النص من جديد ليحدثنا عن الكتابيين مطلقاً، فيقول:

﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحقّ ولا تتّبعُوا أهواء قومٍ قد ضلُّوا من قبل وأضلُّوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السبيل * لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصَوا وكانُوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن مُنكر فعلوه لبِئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيراً منهم يتولَّونَ الذين كفروا لبئسَ ما قدَّمت لهم أنفُسُهم أن سخِط الله عليهم وفي العذابِ هم خالدون * ولو كانوا يُؤمِنُون بالله والنَّبيّ وما أُنزِل إليه ما اتّخذُوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقُون * لتجدنَّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنُوا اليهود والذين أشرَكُوا ولتَجِدنّ أقربهُم مودّة للّذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قِسّيسين ورُهباناً وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعُوا ما أُنزِل إلى الرسول ترى أعيُنَهُم تفيض من الدّمع مما عرفُوا من الحق يقولون ربَّنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لانُؤمنُ بالله وما جاءنا من الحق ونطمَعُ أن يُدخلَنا ربّنا مع القوم الصّالحين﴾ [المائدة: ٧٧ ـ ٨٤]، هنا في غمرة حديثه عن الكتابيين يربط أولاً بين المقطع الأسبق الذي تحدث عن النصارىٰ وغلوّهم، وبين المقطع الجديد الذي أشار إلىٰ ظاهرة (الغلوّ) لدىٰ الكتابيين مطلقاً ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم﴾. ثم يتقدم ثانياً إلى عرضٍ جديد يفرز من خلاله الفارقية بين الطائفتين اليهودية والنصرانية مشيراً إلى أن اليهود هم أشد انحرافاً من

النصارىٰ، وأن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للمؤمنين، وأن النصارىٰ أقربهم مودة للمؤمنين. . . الخ.

إذن، جاء كلُ مقطع يتحدث عن الكتابيين مطلقاً أو منفردين، جاء في سياق جديد، وأن التكرار لبعض المواقف ـ فضلاً عن وروده في السياق الجديد ـ قد اضطلع بمهمة الربط العضوي بين أجزاء النص بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

وبهذا يتم القسم الخاص بالكتابيين من سورة المائدة، حيث ستُختَم السورة بحادثة خاصة بالنصارىٰ: كما سنوضّح ذلك في حينه لملاحظة المبنىٰ الهندسي لهذا الختام. وخلا ذلك، فإن القسم الجديد من السورة الكريمة يتمحض للحديث عن المؤمنين بالنحو الذي نبدأ بتناوله الآن:

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أَحَلَّ الله لكم ولا تَعْتَدُوا إنَّ الله لا يُحِبُّ المعتدين * وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طيِّباً واتقوا الله الذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُون﴾** [المائدة: ٨٧ ـ ٨٨].

هذا المقطعُ يتناول إحدىٰ الظواهر العبادية المتصلة بالطعام وغيره من حيثُ طرائق تنظيمه، ومع هذا المقطع يبدأ قسم جديدٌ من السورة، حيث بدأت السورةُ بالحديث عن (تزكية المنفس) من حيث التغذية المنتقاة وانعكاساتها علىٰ ذلك، ثم جاء القسمُ الآخرُ من السورة خاصاً بسلوك الكتابيِّين حيثُ استثمر النصُ هذا الجانب فأبرز السمة المضادة لتزكية النفس عند مجتمع الكتابيين. وها هو الآن ـ في القسم الثالث من السورة ـ يعودُ إلى ظاهرة (الطعام) أو (التغذية) ليطرح مفهوماتٍ جديدةً عن علاقة ذلك بتزكية النفس.

الجديدُ في هذا المقطع ليس تحديدُ نمط الطعام من حيث حِليته وحرمته، كما لحظنا ذلك في القسم الأول من السورة بل الجديدُ هو: قضيةُ الغذاء المحلَّلِ نفسِه، وطريقةُ تنظيمه، وانعكاسات ذلك علىٰ تزكية النفسِ.

لقد ذكرت النصوص المفسِّرة أن هذا المقطع جاء بسببٍ من تصميم بعض الصحابة علىٰ نبذ الطيّبات من الطعام والنساء، زهداً بمتاع الحياة الدنيا وشوقاً إلى الآخرة: بعد أن حدثهم الرسولُ(ص) ذات يومٍ عن القيامة وبيئتها.

وأيّاً كان سببُ النزول، فإن المهمّ هو أنّ السورة القرآنية الكريمة تخضع ـ في دلالاتها ـ لعمارةٍ فنيّةٍ ترتبط موضوعاتُها واحداً بالآخر، وما دامت (فكرةُ) السورة تحوم ـ كما كررنا سابقاً ـ علىٰ مفهوم (تزكية النفس) من حيثُ صلة ذلك بالعناصر الحيوية من غذاءٍ وجنسٍ وتطهيرٍ وما إليها من الأحكام التشريعية التي صاغتها رسالةُ الإسلام، حينئذٍ فإن قضية (الغذاء) في سياقها الذي لحظناه قبل قليل، تشكّل مظهراً مهماً في تحديد المفهوم العبادي ووظيفة الإسلاميين حيال ذلك، فإذا كان تناولُ بعض الأطعمة مباحاً والآخرُ محظوراً بالنحو الذي تقدم الحديثُ عنه في أوائل السورة بما تتركه من انعكاسات علىٰ النفس، فإن تناول المباحِ منه محكومٌ بمبادىء أيضاً تتناولها مظانٌّ أخرىٰ من نصوصِ التشريع، والمهم هو أن النص القرآني الكريمَ طرحَ في هذا المقطع الذي نتحدث عنه، قضية الامتناع عن تناول الطيّبات، صحيح أنَّ الزهد بالطيبات يشكّل سِمةً إيجابيةً في سلوك الشخصية الإسلامية، من حيث انعكاساتها علىٰ تزكية النفس، إلا أنَّ إهمالَها نهائياً يُفضي إلىٰ تصوّرٍ مخطىء عن مبادىء الله. إن القسيسين والرهبانيين سمحوا لأنفسهم بممارسة هذا النمط من السلوك وهو أمرٌ ـ كما تقول النصوص المفسرة ـ شرحه النبيُّ (ص) لأصحابه الذين عزموا علىٰ ترك الطيّبات ومنَعَهم من ذلك، موضحاً لهم ان سياحةَ الإسلاميين هي الصوم، ورهبانيتهم هي الجهاد، أي: ليس تركُ الطيبات مطلقاً، بل الصوم بما يستتبعه من الإفطار (وهو تناول الطيبات) كما أنه ليس (العزلة) بل البروز إلىٰ ساحة الجهاد.

ولعل سرّ ذلك من الوضوح بمكانٍ. فالطعامُ والنساءُ ونحوهما تشكّل

حاجاتٍ حيويةً ملحةً تترتب علىٰ إشباعها نتائجُ في غاية الأهمية تتصل باستمرارية التناسل البشري، كما أن الحضورَ في الساحةِ الاجتماعية تترتب عليها أيضاً نتائج في غاية الأهمية تتصل بإشاعة مبادىء الإسلام وتوصيلها إلى الآخرين، مما يعني أنَّ العزلة مطلقاً سوف تُفضي إلىٰ عدم نشرِ مبادىء الله بين الآدميين، وأنَّ الامتناعَ عن النساء سوف يُفضي إلىٰ قطع النسل البشري، وأنَّ الامتناعَ عن الطعام سوف يُفضي إلىٰ شلِّ الشخصية حيوياً.

طبيعياً، ثمة فارقٌ بين النَّهم أو الحرصِ على الطيبات (وهو ما يُنكره المشرّع الإسلامي علىٰ أمثلة هؤلاء) وبين الامتناع عنها وهو ما ينكره أيضاً لأنَّ كليهما خروجٌ عن الاعتدال، لذلك رَسَم المقطعُ القرآني الكريم أمثلة هذا السلوك بالتعدّي لحدود الله ﴿لا تُحَرِّمُوا طيّباتِ ما أَحَلَّ اللّهُ لكُم ولا تَعْتَدُوا إنَّ الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِين﴾ فَالامتناعُ عن الطيباتِ هو تعدٍ لحدود الله، مقابل الحرص عليها وهو تعدٌّ أيضاً، والصائب هو تناولُها وِفق الاعتدال أو الحاجة، لأنّ تناولها وفق الحاجة إنما هو إشباعٌ طبيعيٌ لها لا يترتب عليه أيُّ ضررٍ عباديٍّ، والضرر ـ إنما يترتب ـ حينما يتم الإشباعُ لما هو زائدٌ علىٰ الحاجة أو حينما يمتنعُ الشخص عن تحقيق الإشباع أساساً، لأنه مضادٌ لمفهوم الحاجة نفسها.

إذن، تناول الطيّبات (من حيث انعكاساتها علىٰ تزكية النفس) يظل محكوماً بطرائق خاصةٍ من الإشباع، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

قال تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفّارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تشكرون﴾ [المائدة: ٨٩].

بهذه الآية الكريمة يبدأ مقطع جديد من السورة في قسمها الأخير، وهذا المقطع يتناول ظاهرة (الحلف) بالله تعالى، ولا نجدنا بحاجة إلىٰ التذكير بأن القسَم بالله تعالى (نظراً لقدسيته تعالى) يحتل أهمية كبيرة في حقل السلوك، ويرتبط بالفكرة الرئيسة للنص (تطهير النفس)، ولا أدلّ علىٰ ذلك من المطالبة بالكفارة المترتبة علىٰ الحنث بالقسم، حيث نعرف جميعاً بأن الكفارة هي (تطهير) من الذنب، ومن ثم (تطهير) للنفس، كما هو واضح.

* * *

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجتنبوه لعلكم تُفْلِحون * إنما يُريدُ الشيطانُ أن يُوقِعَ بينكم العداوةَ والبَغضاءَ فِي الخمرِ والميسِرِ ويَصُدَّكُم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون * وأَطيعُوا الله وأَطيعُوا الرسولَ واحذَرُوا فإنْ تَوَلَّيتُمْ فاْعلموا أنَّما علىٰ رسُولِنا البلاغُ المبين﴾** [المائدة: ٩٠ ـ ٩٢].

هذا المقطع من سورة المائدة يتحدث عن ظاهرةِ الخمرِ والقِمار كما يتحدثُ عن (الأنصاب والأزلام)، أمّا الأنصابُ والأزلامُ فقد سبق الحديثُ عنهما، إلاّ أنهما جاءا في سياق ظاهرتي الخمر والقمار، تأكيداً علىٰ السمة النفسية المشتركة بين الظواهر المنهيّ عنها.

المهم أولاً أن نتحدث عن الموقع الفنّي لهذا المقطع مِنَ السورة، وهو مقطعٌ يحوم علىٰ (الفكرة العامة) التي تتسربُ في جميع موضوعات السورة ونعني بها (تزكيةَ النفس). ونحن لا نحتاج إلى أدنىٰ تأمّل حتى ندرك بيُسْر فكرةَ (تزكية النفس) في هذا المقطع، حيث أن النّص نفسَه أشار في تعقيبه علىٰ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، بقوله عنها إنها **﴿رجسٌ من عمل الشيطان﴾**، إذن كونها (رجساً) وهو سمةٌ ضدّ (تزكية النفس) تظل من الوضوح بمكانٍ كبيرٍ مما يعني أن السورة الكريمة بالغة الإحكام في بنائها الهندسي

الفخم. . . ويلاحَظ ـ مضافاً لما تقدم ـ أن النص أشار إلىٰ مفارقات خاصة تترتب علىٰ ممارسة شرب الخمر ولعب القمار: موضحاً بأنهما يسببان العداوة والبغضاء ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ كما يسببان الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة (ويصدّكم ـ أي الشيطان ـ عن ذكر الله وعن الصلاة). فالمُلاحَظُ أن النص ركّز على هاتين الممارستين (الخمر والميسر) دون الأنصاب والأزلام، وهذا لجملةٍ من الاعتبارات الفنية المتصلة بعمارة السورة، فأولاً سبق أن أشار النص إلى الأنصاب والأزلام في مقطعٍ أسبق مما ينتفي معه المسوّغُ لإعادةِ الحديث عنه، وإنما ذُكِرا لمجرد التأكيد علىٰ أهمّيتهما من جانب واشتراكهما مع الخمر والقمار في سمات الخبث النفسي من جانبٍ آخر.

وأمّا بالنسبة إلى الخمر والقمار فبصفة أنهما الأكثرُ شيوعاً عند المنحرفين، بخاصةٍ استمراريتهما في جميع العصور، حينئذٍ جاء المسوّغ الفنّي للتركيز عليهما في مقطع خاصٍ يتحدث بشيء من التفصيل عن المفارقات المترتبة عليهما، فأولاً أشار النص إلى أنهما يُنميان النزعة (العدوانية) عند الإنسان، وثانياً أشار إلىٰ أنهما يصدان عن ذكر الله والصلاة.

بالنسبة إلى النزعة العدوانية لا نحتاج إلى التعقيب عليها من حيث وضوح سِمَتِها الانحرافية، فلا شيء ينأىٰ بالشخص عن دلالته الإنسانية مثل (الكراهية) التي تُلغي معنى (الإنسان) تماماً وتحوّله إلى كائن أشد انحطاطاً من الوحش. وأمّا سبب تنمية الخمر والقمار لهذه النزعة، فلأنّ فقدان فاعلية (العقل) من خلال ممارسة شرب الخمر يفجّر فيه رواسب (الذات الكريهة) الحائمة علىٰ إشباعاتها الخاصة، و من المعلوم أنَّ (العقل) هو الجهازُ المميّز للفجور والتقوىٰ، فإذا فَقَد عنصرَ التمييز اتجه إلىٰ (الفجور) أو (الشر) أي إلى إشباع (الذات) دون التقيّد بضوابط السلوك الموضوعي، وأوّل ما تسعى

(الذات) إليه هو إزاحة العقبات التي تعترضها متمثّلةً في وجود (الآخرين)، فتتجه إلى (كراهيتهم) للسبب المذكور.

وأما تنميةُ (القمار) للنزعة العدوانية فإنها من الوضوح بمكان، طالما نعرفُ أنَّ المقامر يسعىٰ إلى كسب الرهان أو المنفعة لـ(ذاته)، محاولاً تهشيمَ (الطرف الآخر)، وهوَ قمةُ النزعةِ المجسّدة لمفهوم العدوان.

وهذا ما يتصل بالسمة الأولىٰ التي ذكرها النص: **﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾** وأما السمة الأخرىٰ وهي: **﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾** فأمر من الوضوح بمكانٍ أيضاً. فالممارس لشرب الخمر حينما يلغي فاعلية (العقل) وهو الجهاز المسيطر والمميّز للأشياء حينئذٍ سوف ينأىٰ عن ذكر الله، كما ينأىٰ عن الصلاة (والإتيان بظاهرة الصلاة هنا يجسّد دلالة فنية هي أهمية هذه الممارسة في الحياة العبادية للإنسان).

كما أن (القمار) أيضاً، بصفته انشغالاً بهموم (الذات) وتحطيم الآخرين، سوف ينأىٰ بالشخص عن ذكر الله والصلاة، طالما نعرف أنّ إشباعات (الذات) هي الحاجز الوحيد عن التعامل مع (الله) أو المبادىء الموضوعية، وحينئذٍ تضعف أو تتلاشىٰ نهائياً.

إذن، أدركنا الآن السبب الفنّي الكامن وراء عرض النص لهاتين الممارستين وصلتهما بالفكرة العامة للسورة وهي تزكية النص (بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه).

* * *

قال تعالى **﴿ليس علىٰ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوا وآمَنُوا وعملوا الصالحات ثم اتَّقَوا وآمَنُوا ثم اتَّقَوا وأَحْسَنُوا واللّهُ يُحِبُّ المحسنين﴾** [المائدة: ٩٣].

هذا المقطع أو الآية من سورة المائدة تتضمن الإشارة إلى ظاهرة (الطعام). وقد سبق أن لحظنا أن كثيراً من مقاطع السورة تتحدث عن قضية (الطعام) وصلته بالفكرة العامة للسورة وهي (تزكية النفس) من حيث الأساس الكيميائي لها (الطعام) ومن حيث سائر الأسس التي تساهم في تزكية النفس أو عدمها.

إن المقطع هنا يتحدث عن سياقٍ خاص من (الطعام) هو: صلة الطعام بالسلوك المُجمل للمؤمن، فإذا كانت بعض الأطعمة تساهم في تزكية النفس مثلُ الذبح المشروع مثلاً كما عرضته السورة في مواقعَ سابقة أو كان بعضها يساهم في الخبث النفسي مثلُ أشكال وأجزاء الحيوان التي لحظناها في بداية السورة ﴿حُرِّمَتْ عليكم المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحمُ الخِنْزِير وما أُهلَّ لغير الله به... الخ﴾ [المائدة: ٣](الطعام) من جهة ثالثة يظل (لا جناح فيه) إذا اقترن بالإيمان بالله، وبممارسة العمل الصالح بعامة ﴿ليس علىٰ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ فقد أضاف النصُ هنا (التقوىٰ) إلى جانب الإيمان بالله، وممارسة الأعمال الصالحة، إذ أن (التقوىٰ) هي الدرجة العليا من الممارسات، كما هو واضح.

لكن يلاحَظ أن النص أضاف قائلاً: ﴿ثم اتَّقَوا وآمَنُوا﴾ ﴿ثم اتَّقَوا وأحْسَنُوا﴾، وهذه الإضافة ظلت مادةً تفسيرية قد اختلف المفسّرون حيالها من حيث تكرار مفرداتها. وفي تصوّرنا ـ ونحن نتحدث عن الهيكل الفني للسورة ـ ان هذا النمط من التكرار لمفرداتٍ بأعيانها وحذفَ مفرداتٍ أخرىٰ، يتضمن دلالاتٍ متنوّعة من حيث مراحل الإيمان ومُنحنياتُهُ.

فالنص أوّلاً ذكَر بأن: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لا جناح عليهم فيما (يُطْعَمونَهُ) إذا اقترن ذلك بالتقوىٰ أي: بأرفع درجات الإيمان (إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) حيث جاء التكرار مضافاً بظاهرة (التقوىٰ). ثم كرر

التقوىٰ ثانية حينما قال: ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ حيث قرن التقوىٰ بمزيد من الإيمان، ثم كرر التقوىٰ ثالثةً وقرنها بالإحسان فقال: ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ فالملاحظ هنا أن (التقوىٰ) هي المادة المركّز عليها في المواقع الثلاثة المتكررة، ولكن أضاف (الإحسان) إليها في التكرار الثالث، تأكيداً لِسِمَةٍ مميِّزة اجتماعية ونفسية هي (الإحسان) من حيث كونه ذا صلةٍ بالآخرين أيضاً وليس منحصراً في السلوك الفردي.

المهمّ أن النص تقدّم بعد هذا العرض لصلة (الطعام) بتزكية النفس، تقدم بنمط جديد من ظواهر الطعام، لكن من حيث صلتها بإحدىٰ العمليات وهي (الصيد)، حيث سبق أن عَرَض النصُّ هذه الظاهرة إجمالاً في أول السورة، لكنه الآن يفصّل الحديث عنها تباعاً للطريقة الفنية التي يسلكها النص في تنمية الموضوعات: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بشيء مِنَ الصيدِ تنالُه أيدِيكم ورِماحُكُم لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَخافُه بالغَيْب﴾ [المائدة: ٩٤]. إن إشارة النص إلى أن الله تعالى يستهدف (اختبار) الشخصية ﴿لَيَبْلُوَنَّكُم اللّهُ بشيء من الصيد﴾ تظل ذاتَ صلةٍ بالفكرة الرئيسة للسورة (وهي تزكية النفس) فالالتزامُ بأوامر الله هي ذاتُها (عمليةُ تزكية) مضافاً إلىٰ الأساس الغذائي (المادي) لها، لذلك أعقب النصّ هذه الإشارة الاختبارية، أعقبها بعرض جملة من الأحكام المتصلة بالصيد براً وبحراً وبحالةِ الإحرام والحِلِّ، مثل إشارته إلىٰ عَدَمِ جواز قتل الصيد في حالة الاحرام، ثم كفارة ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومَن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتَل من النَّعَم . . . الخ﴾ [المائدة: ٩٥]. ومثل إشارته إلىٰ إباحة صيد البحر وطعامه: ﴿أُحلّ لكم صيدُ البَحْرِ وطَعَامُهُ متاعاً لكُم وللسَّيَّارَةِ وحُرِّمَ عليكم صيدُ البرِّ ما دُمْتُم حُرماً. .﴾ [المائدة: ٩٦] ومثل الإشارة إلى أنه تعالى: ﴿جَعَلَ اللّهُ الكعبةَ البيْتَ الحرامَ قِياماً للنّاسِ والشَّهْرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ ذلِك لِتَعْلَمُوا أنَّ الله يَعْلمُ ما فِي السماواتِ وما في الأرض وأنَّ الله بكلِ شيء عليم﴾ [المائدة: ٩٧]. إن هذه

الإشارات جميعاً ذاتُ صلة بالطعام من حيث كونه مساهماً في تزكية النفس وعدمها من خلال الالتزام أيضاً بهذه المبادىء، حيث يُساهم الالتزامُ بها في تزكية النفس أيضاً.

ويُلاحظ أن النص طَرَحَ بعضَ هذه الأحكام في سياق الحجّ والكعبة من جانب وفي سياق الأشهر الحُرُم من جانبٍ آخر تدليلاً علىٰ أهمية هذه المناسِكِ والمواقع والأزمنة وهي طريقةٌ فنيّة لطرح موضوعاتٍ جديدة في المقطع، من خلال (الفكرة العامة) للسورة (تزكية النفس)، ومن خلال المادّة الرئيسة (الطعام) بحيث يفيد المتلقّي منها في معرفة المزيد من الأحكام والمبادىء العامة للسلوك بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.



قال الله تعالى: ﴿قل لا يَستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله يا أُولى الالباب لعلكم تفلحون * ياايّها الذين آمنوا لاتسألو عن أشياء إنْ تُبدَ لكم تَسُؤْكم و إنْ تسالوا عنها حين ينزّل القرآن تُبدَ لكم عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثمّ أصبحوا بها كافرين * ماجعل الله من بحيرةٍ ولاسائبةٍ ولا وصيلةٍ ولاحامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئًا ولا يهتدون﴾ المائدة ١٠٠ ـ ١٠٤

هذا المقطع من سورة المائدة امتداد لمقاطع سابقة تتحدث عن ظاهرة (الطعام) ونحوه مما شملته موارد الإباحة والحظر وانعكاسات ذلك على النفس من حيث تزكيتها وعدمها حيث تشكل هذه الظاهرة (فكرة) النص بعامة . لقد أوضح النصّ بصراحة حينما قال: ﴿لايستوى الخبيث والطيب﴾، وهو تعقيب على ما تعكسه الأطعمة أو التذكية من آثار على الشخص بحيث يقدّر النصّ بأنه لايستوي الخبيث من الطعام أو أيّ عنصر آخر مع (الطيب) منه من حيث منعكساته العبادية على النفس: بطبيعة الحال.

ثمّ يتقدّم المقطع إلى طرح ظاهرة عباديّة في هذا السياق ليعود إلى المحور الفكري للسورة من جديد.

الظاهرة هي: السؤال عن أشياء مجهولة عند الآدميين أو غير مقدور لهم ان يجسدوها في سلوك في حالة معرفتهم ذلك... سرّ ذلك أنّ السؤال عن الشيء إمّا يُعدّ مظهراً لما تحمله أعماق الشخص من شكٍّ أو نزعة عدوانيّة أو ضعف إلخ. لذلك حظره المقطع القرآني المذكور مستشهداً بتجربة إحدى المجتمعات التي مارست عملية سؤال عن أشياء لاينبغي لها أن تمارسها ثمّ أصبحت (كافرة) بذلك ﴿قدسألها قومٌ من قبلكم ثمّ أصبحوا بها كافرين﴾ وقد أبهم المقطع هذه التجربة أو الحادثة: مع أنه كان من الممكن أن يعرضها بوضوح، بيد أن الغموض هنا ينطوي على

أسرار جمالية في عمارة المقطع.

فالمفسّرون يذكر بعضهم أنها تجربة مجتمع عيسى عليه السلام حينما سألوه إنزال المائدة من السماء ثمّ كفروا بها.

وبعضهم يذكر أمثلة أخرى.

إلّا أنّنا ـ من الزاوية الفنية ـ نتوقّع أن تكون هذه التجربة موحية ـ لاأقلّ ـ أو ممهّدة لحادثة إنزال المائدة الّتي سنواجه رسمها في خاتمة السورة لأنّها تجسّد فعلًا السؤال عن إنزال مائدة ثمّ: الكفر بها...والأهمّيّة الفنيّة لمثل هذا النمط من الرسم والإبهام تتمثّل في انّ المتلقّي عندما يواجه حادثة المائدة سوف لن يُفاجَأ بها بل تمرّ أمامه بنحو طبيعي ممهّد له والمهمّ هو استخلاص العظة من هذا المقطع وهي عدم السماح لإبراز لحظات الضعف عند الشخص من خلال المواقف الانفعاليّة المتشرعة.

بعد ذلك يعود النصّ إلى عرض بعض التجارب الجاهليّة المتصلة بتذكية الحيوان وطعامه وهي تجارب لاترتكن إلى أيّة مسوغات عقليّة مثل عدم نحر الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن إلخ...مما ذكرته الآية القائلة **﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾** فالبحيرة هي الناقة الّتي أشرنا إليها قبل قليل وكذلك سائر ماذكرته الآية من تجارب مماثلة لذلك وهي تجارب لاتنطوي على أيّة مسوّغات بقدر ما ترتكن إلى جهل بها فنمط التذكية عندما يتّخذ إسلاميًا هذا الشكل أو ذاك إنّما يعني أنّ تلكم التذكية لها فاعليّتها في طهارة النفس...أمّا ما يتّخذ الجاهليّون و غيرهم من طرائق خاصّة في نحر الإبل أو ذبح البقر والغنم فأمر لا مستند له كما قلنا المهم أنّ ماينبغي أن يستلخصه المتلقّي من هذا كلّه هو أنّ قضيّة تذكية الحيوان لها أهمّيتها الكبيرة في صياغة النفس البشرية من حيث منعكسات ذلك على الصياغة المذكورة بخاصّة أنّ المقطع القرآني الكريم أكّد هذا الجانب بقوله: **﴿قُل لايستوى الخبيث**

والطيّب﴾ كما لحظنا سابقًا... وإذا كان الأمر ينعكس على خبث النفس أو صفاتها فحينئذٍ كم ينبغي أن نُعنىٰ بعنصر التغذية المنتقاة إلى سائر العناصر الأخرى الّتي تساهم في التطهير النفسيّ بالنحو الّذي لحظناه في المقاطع السابقة من النصّ القرآنيّ الكريم.

قال تعالى: ﴿يَاأيّها الّذين آمنوا شهادةُ بَينِكم إذا حَضرَ اَحَدَكُمُ الْمَوتُ حِينَ الوصيّةِ اثنانِ ذوا عَدْلٍ مِنْكُمْ اوْ آخران من غيركم إن اَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ في الأرضِ فأصابتكم مصيبَةُ الموتِ تحبِسُونَهُمَا مِنْ بَعدِ الصَّلاةِ فَيُقسِمَانِ بِاللهِ اِنِ ارْتَبْتُمْ لاَنَشْتَرِى به ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبىٰ وَلانَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ اِنَّا اِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ فَإِنْ عُثِرَ علىٰ اَنَّهما استحقَّا اِثمًا فآخرانِ يقومانِ مقامَهُمَا منَ الّذين استحقّ عليهِمُ الأوْلِيانِ فَيقسمان باللهِ لشهادتُنا اَحَقُّ من شهادَتِهما وَماعتدينا اِنَّا اِذًا لَمِنَ الظّالِمينَ * ذلك ادْنىٰ اَن يأتُوا بِالشهادةِ علىٰ وَجهِها اَوْ يَخافُوا اَنْ تُرَدَّ اَيمَانٌ بَعْدَ اَيمانِهِمْ واتَّقُوا اللهَ وَاسمَعُوا وَاللهُ لاَيَهدِى القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ المائدة: ١٠٦ ـ ١٠٨.

في هذا المقطع: عرض لقضيّة الشهادة بالنسبة إلى وصايا الميّت، ثمّ قضيّة القَسَم في حالة حصول الشكّ حيال الشهادة ...وهو أمرٌ يتّصل بأحد الأحكام الشّرعيّة فيما قلنا إنّ النصّ القرآنيّ الكريم يطرح في تضاعيف السورة (وهي تحوم على فكرة تزكية النفس) مختلف الموضوعات، ومنها بعضُ الأحكام الشرعيّة، يطرحها وفقَ منحىً فنّيٍّ بحيث تعالج موضوعات ثانويّة في سياق الموضوع الرئيس. والمهمّ أنّ مسألة الشّهادة تتّصل بقضيّة حفظ الاموال و ايصالها وفقاً للوصية، إلاّ أنّ ذلك قد عرضه النصُّ خلال ظاهرةِ الشهادة و مايواكِبُها من القَسَم به: حيث سَبَقَ أنْ لحظنا في مقاطِعَ سابقةٍ من السورة انّ ظاهرة القَسَم ذاتُ صلةٍ وثيقة بتزكية النفس أو عَدَمِها من حيث القدسية المترتّبةُ على القَسَم... اما في هذا المقطع فان القَسَم يأخُذُ دلالةً جديدةً هي إنارتُهُ لأهمية الاموال وغيرِها بالنسبة إلى التوصية ووصولها إلى اصحابِها الشرعيين... وهي بدورِها ظاهرةٌ لها

اهميتُها بالنسبة إلى (تزكية النفس) ما دُمنا قد عَرَفنا خلال مقاطِعِ السورة بأنَّ الاموالَ المُحلَّلَةَ أو المحرمة تعكِسُ آثارَها على النفس...

إذاً : في نهاية المطاف، لايزالُ هذا المقطعُ من السّورة حائِماً مثلَ سواهُ على الفكرةِ الرئيسة التي تطبَعُ جميعَ موضوعاتِ السورة وهي تزكيةُ النفس من خلال الطرائقِ المفضية إلى ذلك.

* * *

إلى هنا يكون النصُّ القرآنيّ الكريم قد طَرَحَ مختلف الموضوعات التي تصُبُّ في النهاية في الرافد الفكري الرئيس للسورة، بَدَأَها بعرضِ الأطعمة وغيرها من الاحكام التي تُساهِمُ في تطهير الشخص بدنيّاً ونفسيّاً ، أردفها بعد ذلك بعرض سلوك الكتابيين ثمّ الجاهليّين، ثمّ طرح احكاماً مختلفة في تضاعيف ذلك... وها هو الآن يعود إلى الكتابيّين أيضًا ولكن من خلال حادثة جديدة تتّصل بعيسى عليه السلام ومجتمعه، وبها تُختم السورة الكريمة وفق مبنىً هندسي ترتبط خاتمته بوسط السورة وبدايتها: كما سنرى.

ولنقرأ: **﴿يَومَ يجمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقولُ ماذا أُجبتم قالوا لاعِلْمَ لنا إنّكَ انتَ علّامُ الغيوب * إذ قال الله ياعيسىٰ بنَ مَريَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَليكَ وعلىٰ والدتكَ إذ أيّدتُكَ بروحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النّاسَ في المهدِ وكهلًا وإذ علّمتك الكتابَ والحكمةَ والتوراة والإنجيل وإذ تخلُقُ من الطين كهيئة الطير باذني فَتَنْفُخُ فيها فتكونُ طيرًا باذني وتبرىءُ الأكمَهَ والابرصَ باذني و اذ تخرج الموتى باذني وإذ كَفَفْتُ بني إسرائيلَ عَنْكَ إذ جئتهم بالبيّناتِ فقال الّذين كفروا منهم إنْ هذا إلّا سِحْرٌ مُبينٌ﴾** المائدة ١٠٩ ـ ١١٠ .

يُمكن القولُ بأنّ هذا المقطع ومايليه يشكّل حكايةً أو أُقصوصة بَطَلُها هو عيسى بنُ مريم وبيئتها الّتي تتحرّك فيها المواقف والأحداث هي بيئتنا القيامة والدنيا...فقد تحرّكت الأُقصوصة من البيئة الأُخرويّة حينما يوجّه الله تعالى إلى

عيسىٰ كلامًا خاصًا في خضَمّ ذلك اليوم الّذي يجمع الله الرُسل فيه فيسألهم عن ردود الفعل الّتي صدرت عنها مجتمعاتهم... الكلام الموجّه إلى عيسى هو تذكيره بنعم الله عليه من تأييده بروح القدس وتكليمه الناس في المهد وخلقه بإذن الله الطيرَ وإبرائه الأكمه والأبرص، وانقاذه من مؤامرات اليهود ثمّ كفران مجتمعه برسالة عيسى حينئذ مع كونها قد اقترنت بالظواهر الإعجازيّة المذكورة.

واضح، انّ هذا النمط من العرّض للبيئة الأخرويّة ينطوي على دلالة فنيّة ممتعةٍ حين نأخذ بنظر الاعتبار أنّ النصّ يستهدف توصيل هذه الحقائق إلى المتلقي ليفيدَ منها في تعديل سلوكه إلّا أنّه بدلًا من أنْ يسرد هذه الحقائق في نطاقها الدنيوي سرَدَها في النطاق الأخروي حيث نستخلص منها المكانية أن يفيد المتلقى من هذه الحقائق ليس مسألة الإيمان بالله فحسب بل مسألة اليوم الآخر بما يواكِبُه من الحساب بمعنى أن هدفاً مُزدَوَجًا سوف يواجه المتلقّي حينما تتحرّك الاقصوصة في بيئة الآخرة لتنقلَه ـ من ثمّ ـ إلى البيئة الدنيويّة فيتمثّل حقيقة اليوم الآخر مضافًا إلى حقائق الحياة الدنيويّة من خلال أقصوصة واحدة بالنحو الّذي فصّلنا الحديث عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ * قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾

هذا المقطع امتدادٌ لمقطع سابق يُعَد بمثابة حكاية أو انصوصة من مجتمع عيسى عليه السلام حيث عَرضَ المقطعُ السابقُ قضية الكفر برسالة عيسى... اما في هذا

المقطع فيعرض نموذجاً من ذلك: لكن مع الاشارة إلى بعض الايجابيين منهم وهم (الحواريين) الذين آمنوا برسالة عيسى ... بيد ان الملاحظ ان حادثةً خاصة يعرضها المقطع من خلال طلب الحواريين من عيسى ان ينزّلَ عليهم اللهُ مائدة من السماء من اجل اليقين والاطمئنان الوجداني والقناعة الكاملة التي لايشوبُها ترددٌ في رسالة السماء... وقد تمّ إنزالُ المائدةِ بالفعل بَعْدَ أن حَذّرَهُم عيسى من أمثلة هذا الطلب الإعجازيّ...وهنا ينبغي أن نذكر بأنّ النصّ القرآنيّ الكريم سبق له أن حذّر في مقطع متقدّم من أن يسأل النّاس عن أشياء إن تُبْدَ لَهُمْ تَسُؤهُم...وها هو الآن يُقدّمُ المقطع نموذجًا للأمثلةِ المتقدّمة متمثّلاً في طلب إنزال المائدة وتحذير عيسى للقوم...فيه أن عيسى ـ في نهاية المطاف ـ استجاب لطلبهم فأنزل الله المائدة: لكن بشرط ألّا يكفر بها القوم، وإلّا فيَلْحقُهم جزاءٌ رهيبٌ لامثيل له.

وقد سكت النصُّ القرآني الكريم عن مواصلة سَرْد القصّة وهل أنّ القوم كفروا بها أم لا إلّا أنّ المتلقّي قد يستخلص من الزاوية الفنيّة أنّ الكفران بالمائدة قد تَجسّد فعلًا بدليل التحذير المذكور مضافًا إلى النصوص المفسّرة الّتي ذكرت أنّ جزاء ذلك قد تجسد في مسخهم خنازير وهو ماياتلف مع اللغة المحذّرة من أنه ﴿فَمنْ يَكفُرْ بَعْدُ مِنكمْ فَإِنّي أُعَذِّبُهُ عَذابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أحدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ حيث يتفرّد الجزاءُ المتمثّل فى (المسخ) عن غيره من الجزاءآت الّتى لحقت غالبيّة الأقوام الكافرين...كما أنّ المقطع اللاحق لهذه القصّة يدعم المصائر السلبيّة المذكورة الّتى لحقت القوم، حيث يعرض المقطع الآتي بجانبٍ من سلوكهم المُنحرف:

﴿وَإذْ قَالَ اللهُ يَاعيسى ابنَ مَرْيَم ءَأنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُوني وأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحانَكَ مَايَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ...إلخ﴾ المائده : ١١٦.

ومهما يكن، فإن هذه القصّة ومُلحقها تظلُّ حائمةً على عَرض سلوك مجتمع عيسىعليه‌السلام بعد ان كانت مقاطع سابقة من السورة تعرض لنا سلوك

مجتمع موسى عليه السلام ومن خلال عرض هذين المجتمعين طرح النصّ مجموعةً من الأحكام الشرعيّة والمبادئ العامّة للسّلوك العباديّ أوضحنا في حينه موقعها الهندسيّ من عمارة السورة ويغنينا الآن أن نعرض للموقع الفنيّ الّذي تحتلّه خاتِمَة السورة بالنسبة إلى الفكرة العامّة لها وهي (تزكية النّفس) من خلال الوسائل المساهمة في ذلك مثل عنصر (التغذية) البدنيّة ومساهمته في تطهير النفس ومثال عنصر الطهارة من وضوء وغُسل ونحوهما ومساهمته في التطهير المعنويّ للنفس وبما أنّ السورة بدأت بالحديث عن عنصر (التغذية) من خلال إشارتها إلى الأنعام من حيث الحلية ثمّ إشارتها إلى أنواع كثيرة من موارد الحظر أو الحرمة ﴿حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير...إلخ﴾.

أقول: بما أنّ السورة بدأت بعرض هذا العنصر حينئذٍ ختمتها بعنصرٍ (مجانس) لها وهي: اقصوصةُ (المائدة) الّتي تمثّل أزكى (التغذية) بطبيعة الحال... إلّا أنّ النصّ ـ عرض ضِمن ذلك أكثر من دلالةٍ فكريّة قد استهدف توصيلها إلى المتلقي مثل قضيّة عدم التورّط في السّؤال عن أشياء ليست في صالح الآدميّين (مثل الاقتراح المذكور: إنزال المائدة)، كما طرح المقطع قضيّة «الإيمان» ومستوياته من حيث سَردُه لسلوك الحواريّين وتخلّله أمثلةً خاصّة إعجازيّة من أجل اليقين الوجدانيّ بالرسالة أو إلى أنّه من الممكن تحقيق أمثلة هذا الطلب إلّا أنّه ينبغي الالتزام بنتائجه. كلّ اولئك طرحه النصّ كما رأينا من خلال هيكلٍ فنيٍّ تتلاحم موضوعاته بعضًا مع الآخر بالرغم من اختلافها، إلّا أنّها تصبّ من رافد فكريّ موحّد بالنحو الّذي فصّلنا الحديث عنه.

قال تعالى: ﴿الحمدُ للهِ الّذي خَلق السّموات والأرض وجَعلَ الظّلمَاتِ والنّور ثمّ الّذين كفروا بربّهم يَعْدِلُونَ * وهو الّذي خَلقَكُمْ من طينٍ ثمّ قَضىٰ اَجَلًا واَجَلٌ مُسَمًّى عنده ثمّ انتم تمترونَ * وَهُوَ اللهُ في السمٰواتِ وَ في الأرضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَاتَكْسِبُونَ﴾ الانعام ١ ـ ٣.

بهذا المقطع افتتحت سورة الأنعام، وهي من السور الكبار الّتى تتضمّن موضوعات مختلفة، إلّا أنّها تنتظم في خيطٍ فكريّ يوحّد بينها عبر هيكلٍ هندسيّ نقف على تفصيلاته لاحقًا.

لقد بدأت السورة بالإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض، وجَعْل الظلمات والنور... أنّ الظمات والنّور من الممكن أن يكونا (رَمْزينِ) لكلّ من الليل والنهار، ومن الممكن ـ كما ذكر بعض المفسّرين بأنّهما رمزان للنّار والجنّة، ومن الممكن أن يكونا رمزين للكفر والإيمان حيث استُخدم هذان الرمزان في أكثر من موقع للتعبير عن الدلالة الأخيرة، ...ومن الممكن أن يكونا رمزين للمعرفة وعدمها بصفة أنّ النّور يقتادُ الشخص إلى معرفة الحقّ، والظلام يحتجزه عن ذلك.

وأيًّا كان، فإنّ النصّ القرآني الكريم عقّب على هذا الموضوع بقوله: ﴿ثمّ الّذين كفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يُشْركون به غيره، حيث يمكن أن يتوافق هذا التعقيب مع جميع الرموز المحتملة التّي أشرنا إليها...إنّ إشراك الغير مع الله تعالى لا ينحصر في التعامل مع الاصنام مثلاً؛ بل يتجاوزه إلى مطلق السلوك الّذي يتعامل عن الفاعليّة الوحيدة التي تطبعُ حركة الوجودِ من قِبلَ الله تعالى... المهمّ انّ هذا التعقيب ﴿ثمّ الذين كفروا بربّهم يَعْدِلون﴾ سوفَ تنعكسُ أصداؤهُ على الاقسام اللاحقة من السورة الكريمة، كما ينعكسُ غيرها من الموضوعات التي تضمنتها مقدّمةُ السورة ومنها قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ والإمتراءُ هو : التشكيك... ومنها قوله تعالى أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا

تَكْسِبُونَ﴾ حيث ستنعكس آثارُ التشكيك عندَ المنحرفينَ وما يمارسُه الانسانُ من السلوك: على موضوعات السورةِ التي يبدأُ تفصيلُ الحديثِ فيها بالنحو التالي:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

إذاً: هذا هو أوّل آثارِ الانعكاسِ الذي تضمّنته مقدّمةُ السورة، آثارِ الشرك و التشكيك و الانحراف: متمثلاً في أنّ المنحرفين يُعرضون عن جميع آياتِ الله، آياتِ خلقِهِ للسماوات والارض والانسان وأجَلِه.

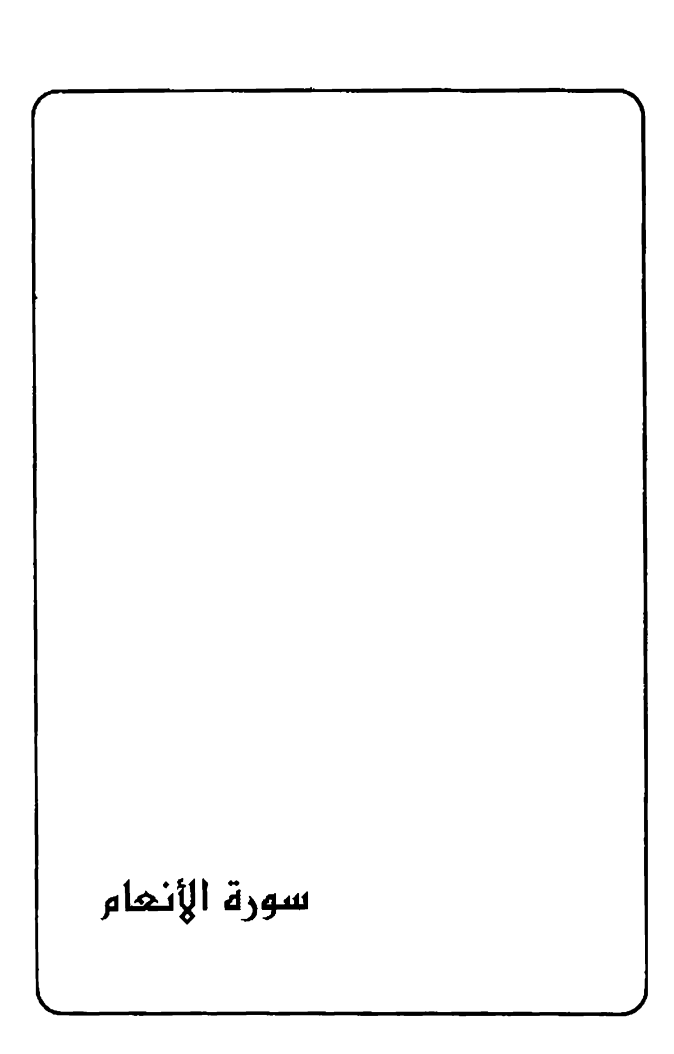
ان الانسانَ عندما يُعرِضُ عن آيةٍ أو حُجّةٍ أو دليلٍ؛ إنّما يَصْدرُ عن التواءٍ داخلي...، عن عنادٍ... عن عَمَدٍ؛ إشباعاً لِنَزواتِه فحسب... لذلك هدّدهم الله تعالى بالمصير السيء الذي ينتظرُهم، مستراً إلى انّهم كانوا (يستهزؤن) بآيات الله تعالى...وعمليّة (الاستهزاء) تفصح أنّ التشكيك والانحراف عند هؤلاء ناجم عن وساخة أعماقهم، لأنّ الاستهزاء نوع من التعبير العدوانيّ كما هو واضح ممّا يتطلّب ترتيب العقاب عليه بالنحو الّذي هدّدهم النصّ به ﴿فسوف يأتِيهِمْ أَنبَاءُ مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾.

هنا، يلفِتُ النصّ المنحرفين إلى تجارب المجتمعات السابقة الّتي أنعم الله عليها بمختلف المعطيات ومنها: أنّه تعالى مكّنهم مالم يمكّن المجتمع المعاصر لرسالة الإسلام،...لكن قد أبيدت المجتمعات المذكورة وأعقبتها مجتمعات أخرى.

النصّ القرآنيّ طالب مجتمع الرسالة الإسلاميّة بأن يعتبر بمصائر المجتمعات السابقة. وأهميّة هذه المطالبة تتمثّل في إشارتها إلى أنّ المجتمعات

السابقة كانت ذات إمكانات أكبر والإمكانات الّتي غرّت هؤلاء المُخاطبين: ومع ذلك أُبيدوا نتيجة تكذيبهم لرسالات السماء، ممّا يعني أنّ تمكين الإنسان من جانب، وإنحرافه بمختلف المعطيات من جانب آخر: إنّما يظلّ مجرّد اختبار عباديّ ينبغي أن يُؤخذ بنظر الاعتبار.

وأيّا كان، يعنينا أن نشير إلى أنّ النصّ القرآنيّ الكريم ـ وهو يتحدّث بضمير الغائب عن المنحرفين ـ قد حوّله إلى ضمير المخاطب بقوله تعالى: ﴿مكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مالم نمكّن لَكُمْ﴾ أي: وجّه الخطاب إلى مجتمع رسالة الإسلام بعامة، بينما كان الخطاب موجّهاً إلى المنحرفين فحسب ﴿ومَاتأْتِيهِمْ مِنْ آية من آيات ربّهم﴾ ﴿فسوفَ يأْتِيهِمْ أنبَاءُ مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهزِؤُنَ﴾، وهذا يعني أنّ الوجهة الفنيّة أن عمليّة الاختبار العباديّ موجّهة إلى المجتمع الإسلاميّ بعامّة كلّ مافي الأمر المشكّكين يجسّدون قمّة الالتواء في السلوك، أو أنّ منهم الممكن أن يتّعظ بمصائر اقرانه المشكّكين وهو مايستشهد فيه النصّ بالنسبة لإمكانيّة تعديل السلوك كما هو واضح.



سورة الأنعام

قال تعالى: ﴿ولو نَزَّلْنا عليكَ كتاباً في قِرطاس فَلَمَسوه بأيديهم لقالَ الذِينَ كفَروا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبينٌ * وقالوا لولا أُنزِلَ عليه مَلكٌ ولو أنزلنا مَلَكاً لقضيَ الأمرُ ثمَّ لاَ يُنظرونَ * وَلَوْ جَعَلناهُ مَلَكاً لجَعَلناهُ رَجُلاً وَلَلبسْنا عَلَيهم ما يَلْبِسُون * ولقدِ استُهزِىء بِرُسُلٍ من قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهزِءُونَ * قِلْ سيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبينَ﴾ [الأنعام: ٧ ـ ١١].

هذا المقطعُ من سورة الأنعام امتدادٌ لمقطعٍ سابق كان يتحدثُ عن المنحرفينَ الذين تطبَعهم أربع سمات في مواجهتهم لرسالة الإسلام، وهي سماتٌ: المجادلةِ، الاستهزاءِ، النفورِ وإشراكِ الغير مع الله تعالى. وها هو النص يقدّم نموذجاً لسلوك المنحرفين يجسّدُ من خلالِه تطبيعهم بالسماتِ المذكورة.

وأوضحُ نموذجٍ يقدّمه النص هو قوله تعالى: ﴿وَلو نزَّلْنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمَسوه بأيديهم لقالَ الذين كفروا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبين﴾، هذا النموذج يعتمدُ علىٰ صورةٍ فنية هي: (لَمسُ الكتابِ باليد) كما أنه ـ من حيثُ عمارةُ النص ـ يُشكّلُ نمواً عضوياً لسمةِ المجادلةِ التي تطبعُ سلوكَهم حيث وصفَهم في مقطعٍ سابق بقوله: ﴿ثمَ أنتُم تمترَون﴾ [الأنعام: ٢].

إن الشخصية الشاذة التي تجادلُ وتمتري وتشكك، لا سبيلَ لعلاجها حتىٰ لو واجَهت أوضحَ الأدلّةِ الحسيّةِ. فلو نزلَ كتابٌ في قرطاسٍ ولَمَستهُ بيدِها لقالت: هذا سحرٌ مبين.

إنّ هذه الصورةَ الفنيةَ التي اعتمدَت ما هو مألوفٌ من تجارِب الإنسانِ

وخبراتِه، تنطوي علىٰ أسرارٍ مدهشةٍ في لغةِ الفنّ. فأولاً قارنَت بينَ القرآنِ الذي نَزّل كلاماً مسموعاً وبينَ الكلامِ المكتوبِ في صحيفة، ثم قارنَت بين الكلام المكتوبِ في صحيفةٍ وبينَ لَمْسِه باليدِ بدلاً من القراءة بالعَيْن. إن أهميّة القسم الأول من هذه الصورة (كتاباً في قرطاس) هي: تجسيدُ الشيءِ في أوضحِ مستوياتِه، فقد كانَ من الممكنِ أن يقولَ لهم ﴿ولو نزلْنا عليك كتاباً﴾ مقابلَ الكلامِ المسموعِ الذي نَزلَ على محمدٍ(ص)، لكانَت الصورةُ محققةً للغرض، إلا أنّه تعالىٰ فصّلَ في هذا الجانب الحِسّي فجَعَل الكتابةِ في عيّنةٍ حسيّةٍ هي القرطاسُ حتىٰ يوضّح التجربة في أبرزِ معالِمها ليدلّل بعد ذلك علىٰ عنادِ المنحرفينَ الّذين يواجهون أبرزَ التجارب الحسية ثم يشككون فيها أو يجادِلون في صحتِها.

وليس هذا فحسب بل نجدُ أنَّ النصَّ القرآني الكريم لم يكتفِ بتقديم صورة (الكتاب في قرطاس) بل أردفَها بصورة أخرىٰ هي (فلمسوه بإيديهم)، فالمفروضُ ـ كما أشرنا ـ أنّ (الكتابة في قرطاس) أن (تُقرأ) لا أن (تُلمس) فلماذا استَخْدَمَ النصُّ عبارةَ (اللَمسَ باليد) بدلاً من (القراءة بالعين)؟ هذا سرٌ فنيٌ آخر. إنَّ لمسَ الكتاب باليد يظلُّ ـ تجريبياً ـ أمراً لا سبيل له إلىٰ أيّ تشكيك بعكس ما لو كانَ معروضاً للقراءة فحسب حيث البصرُ قد يعشو، أو قد يلتبسُ عليهِ الأمْرُ. أمّا اللمسُ باليدِ فيظَلُّ غيرَ خاضعٍ لأيّ لَبسٍ في هذا الصدد.

بعد ذلك يتقدمُ النصُ بتفسيرٍ فنيّ لهذهِ الصورةِ حينما يُردِفُها بصورةٍ أخرىٰ هي قولُه تعالى: ﴿ولو جعلناه مَلَكا لجعلناه رجلاً ولَلبسنا عليهم ما يَلْبِسون﴾ فالقارىء يستخلص من هذه الصورة الجديدة أن المنحرفين ـ عبر تشكيكهم وعنادهم ومجادلتهم ـ اعترضوا بأن الرسالة نزلت علىٰ (رجل) وليس علىٰ (مَلَك)، والنص القرآني يردّ عليهم ـ في هذا الصدد ـ بنفس الدليل الذي قدّمه في الصورة الفنية السابقة حيث يقول لهم: لو أنزلناه علىٰ (مَلك) حينئذ

فإن الملك هو جنسٌ غير مرئي فلا بدّ حينئذ أن ينزل بهيئة بشر، فإذا نزل بصورة بشر لحَدَثَ اللبس والإبهام حيث يسري التشكيك به أيضاً. إذاً في الحالات جميعاً لا سبيل إلى إقناع النفوس المريضة بأيّ دليلٍ حسيّ مما يعني أن المنحرفين حينما يعترضون بأن الرسالة نزلت علىٰ بشرٍ مثلِهم، إنما يصدرون عن حالة مَرَضية شاذةٍ لا يُجدي معها أيّ علاج في هذا الميدان.

والمهم بعد ذلك، أن نشير من جانبٍ إلى أهمية هذه الصورة الفنية التي قدّمها النص من حيث وظيفتُها في توضيح سلوك المنحرفين، وأن نشير من جانب آخر إلى صلة ذلك بعمارة النص التي بدأتها السورة بالحديث عن سمات المنحرفين من تشكيكٍ وعناد وسخرية (حيث تتكفّل الآيات التي تلي هذه الصورة بالإشارة إلى عنصر السخرية ومايترتب عليها من عقاب) وهو أمرٌ يفصح عن مدىٰ إحكام النص وتلاحم جزئياته.

* * *

قال تعالى: ﴿قل لِمن ما في السماواتِ والأرضِ قُل للّهِ كتَبَ على نفسِه الرَّحمةَ ليَجْمَعَنَّكُم إلىٰ يَوْمِ القِيامةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم فَهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ * وله ما سَكَن في اللَّيلِ والنهارِ وهو السميعُ العليمُ﴾ [الأنعام: ١٢ ـ ١٣].

يتحدَّثُ هذا المقطع عن إبداع الله تعالى ومعطياتِه إلاَّ أنَّ حديثَهُ عن الإبداعِ والمعطياتِ جاء في سِياقٍ جديدٍ من الأفكارِ. لقد بدأت سورةُ الأنعام بالحديثِ عن: ﴿الحمدُ لله الذي خلق السماواتِ والأرضَ وجَعَلَ الظلماتِ والنور...﴾ [الأنعام: ١]. وها هو المَقْطعُ يتحدَّثُ عن السّماواتِ والأرضِ والليلِ والنَهارِ أيضاً إلا انَّه عَرَضَ هذا بَعْدَ أن سَرَدَ لنا جانباً من سلوكِ المنحرفينَ المشكّكينَ برسالةِ الإسلام.

لا شكَّ، أنَّ السورة الكريمةَ عندَما تَستهلُّ حديثَها بعبارةِ (الحمدُ لله الذي

خَلَق السماوات... الخ) إنما يَعْني: أن عبارة (الحمد) سوفَ تعْكِس مدلولاتِها علىٰ موضوعاتِ السورةِ، وها هو المقطعُ الذي نتحدثُ عنه يعرضُ لنا سرَّ (الحمد) بقوله: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل للّهِ كتَب علىٰ نفسه الرحمةَ ليجمعنكُم إلى يومِ القيامة..﴾ إذاً، عندما تساءَل النصُّ: لِمَن ما في السماوات والأرض؟ أجابَ بأنّها للّهِ تعالى وأنّه تعالى كتَب علىٰ نَفْسِه الرحمة ليَجمعنَّكم إلىٰ يومِ القيامة لا رَيْبَ فيه. هذا يعني أنَّ سرَّ مُطالبتِنا بأن (نحمِدَ) الله هو: وجودُ (الرحمة)، وهذه الرحمةُ تتمثَّلُ في إمهالِ الناس إلىٰ يومِ القيامةِ حتى يسمَح لَهم المجالُ بِتَعْديل السُلوك عِلْماً بأنَّ المقطعَ السابقَ من السورةِ كانَ يتحدَّثُ عن هَلاك القرونِ الأولىٰ نتيجةَ تكذيبهم، ولذلك عندما يقولُ النص ـ بالنسبةِ لأمَّةِ محمدٍ(ص)ـ بأنّه يجمعهُم إلىٰ يومِ القيامةِ حينئذٍ نَستخلصُ بأنَّ مفهومَ (الرحمةِ) يتبلورُ في هذا الإمهالِ لهم حتى يَتمكَّنُوا من تَعديلِ سلوكِهم.

هنا سَلَكَ النَّصُ القرآنيُ الكريمُ منحىً فنياً حينما ربَط بين جَمْعِ الناسِ إلى يومِ القيامةِ وبينَ كونِ يومِ القيامةِ يَوْماً (لا رَيْبَ فيه)، فعبارةُ (لا ريب فيه) سيكونُ لها موقعٌ فنيٌ يعْكِسُ مدلولاتِه أيضاً علىٰ الموضوعاتِ اللاحقةِ مِن السورةِ، لأنَّ موضوعاتِها لا تتحدَّثُ عن مفهوماتِ الشرك فحَسب بل تتحدَّثُ عن مفهومِ التشكيكِ باليومِ الآخِر أيضاً، كما سنرى.

المهم، أنّنا عندَما نتابعُ موضوعاتِ السورة نجدُ أنها تتلاحَمُ وتترابَطُ وتتنامىٰ بعضاً مع الآخر، فها هي السورةُ تبدأ بمقطعٍ جديدٍ تتساءَلُ فيه: ﴿قل أغيرَ الله أتَّخذُ وليّاً فاطِرِ السماواتِ والأرضِ وهو يُطعِمُ ولا يُطْعَم...﴾ [الأنعام: ١٤]، هذا التساؤلُ يرْتَبِطُ ـ كما نَلْحَظُ ـ بكونِ الله تعالى فاطر السماواتِ و الأرضِ حيث يقولُ النصُّ: (كيفَ أتَّخذُ غيرَ الله وليّاً و مالِكاً و هو فاطِر السماواتِ و الأرض؟)

إذاً، جاءَ ذِكْرُ السماواتِ و الأرضِ في هذا المقطع في سياقٍ جديدٍ، بينمَا جاء في أوّل السورةِ في سياقِ الحمد لله، و جاءَ بعْدَ ذلك في سياق مالكيّتِهما لله، و جاءَ الآن في سياقٍ جديدٍ هو: ألّا يُتَّخَذَ غيرُ الله ولياً للإنسانِ بصفتِهِ تعالى فاطِرَ السماواتِ و الأرض.

إنّ هذا التّلاحُمَ بين موضوعاتِ السورة ينبغي ألّا نغْفُلَ عَنهُ و نَحْنُ نتحدَّثُ عن عمارةِ السورةِ القرآنيةِ الكريمة و هو أمْر لم يقف عندَ هذا الجانبِ بل يتَجاوزُهُ إلى مُطْلَق الموضوعات و منها مفهومُ (الرحمة) الذي عَرضنا له قبلَ قليل.

لقد قالَ النَّصُ بأنَّ الله تعالى: ﴿كتَبَ علىٰ نفسِه الرحمةَ لِيَجمَعَنَّكُم إلى يومِ القيامة﴾ وها هو المقطَعُ الذي نتحدَّثُ عنهُ يَعرِضُ لمفهومِ (الرحمةِ) أيضاً في يَوْم القيامة لكن بالنسبة إلىٰ نتائجِ الحساب فِي اليومِ الآخرِ بينَما كانَ سابِقاً يتحدَّثُ عَن الرحمةِ بالنّسبةِ إلىٰ تأخيرِ الحِسابِ إلىٰ يَوم القيامة. يقولُ المقطعُ: ﴿قُلْ إنّي أخافُ إنْ عَصَيتُ ربّي عذابَ يومٍ عظيم * مَن يُصْرَفْ عنهُ يومَئذٍ فقَد رَحِمَه. . .﴾ [الأنعام: ١٥ ـ ١٦].

إذاً، جاءَ مفهومُ (الرحمة) في هذا المقطعِ في سياقٍ جديدٍ هو أنَّ الله تعالى كما يَغدقُ (الرحمة) من حيثُ تأجيلُ العقابِ إلى يومِ القيامة يَغْدِقُها أيضاً عند ساعةِ الحساب.

وهكذا نجدُ أنَّ الموضوعاتِ التي طَرحتها السورةُ تتناسقُ وتتنامىٰ وتتلاحَمُ بعضاً مع الآخر مما يُفصحُ ذاكَ عن مدىٰ إحكامِ عمارةِ السورةِ القرآنية الكريمة، بالنحو الذي لَحِظناهُ.

* * *

قال تعالى: ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍ فلا كاشفَ لَه إلاّ هُوَ وإن يَمْسَسْكَ

بخيرٍ فهو علىٰ كلِ شيءٍ قدير * وهو القاهِرُ فوقَ عبادهِ وهو الحكيمُ الخبير * قل أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً قلِ اللّهُ شهيدٌ بيْني وبينكُم وأُوحيَ إليّ هذا القرآنُ لأنذِرَكم بهِ ومَن بلَغ أئِنّكم لتَشْهَدونَ أنَّ معَ الله آلهةً أخرىٰ قل لا أشهدُ قل إنّما هو إلهٌ واحدٌ وإنني بريءٌ مما تُشْرِكُونَ * الذين آتيناهُم الكتاب يعرفُونه كما يَعرِفون أبناءَهُمُ الذينَ خسِروا أنفُسَهم فهم لا يُؤمنون﴾ [الأنعام: ١٧ ـ ٢٠].

هذا المقطعُ امتدادٌ لسابقِهِ من المقاطِعِ التي تحدَّثَت عن الوحدانيةِ والشرك. فبعد أن تساءَلَ مقطعٌ سابقٌ ﴿قل أغير الله اتّخذُ وليّاً...﴾ [الأنعام: ١٤]، نجد في المقطعِ الذي نتحدَّثُ عنهُ الآن جواباً للتساؤل المذكور الجوابُ يقول: ﴿وإن يَمْسَسْكَ الله بضرٍ فلا كاشِفَ لَهُ إلاّ هو وإن يَمْسَسْك بخيرٍ فهو علىٰ كلِّ شيءٍ قدير﴾. إذاً، اتّخاذُ الله وليّاً يَعني أنه تعالى يَمتلكُ الفاعليةَ الوحيدةَ في توليةِ الأمور، ومنها: إذا مسَّ اللّهُ الإنسانَ بضرٍ فلا يكشِفُهُ إلا هو، وأن يُرده بخيرٍ فهو على كل ذلك قدير، وإذا كان الأمرُ كذلك فحينئذٍ لا سبيلَ إلى تشريك الغيرِ مع الله تعالى. من هنا انتقل المقطَعُ من الحديث عن وحدانية الله إلىٰ الحديث عن سلوكِ المشركين رابطاً بين كونِهِ تعالى واحداً لا شريكَ لَهُ وبينَ سلوكِ المنحرفين الذين يُشركون بالله تعالى بادئاً بالحديث عن تشكيكهم أولاً برسالةِ الإسلام ثم بالبراءة من الشِّرْك ﴿قل إنّما هو إلهٌ واحدٌ وإنني بريءٌ مما تشركون﴾.

هنا ينبغي أن نَقِفَ عند سمةٍ فنيّةٍ تتّصِلُ بعمارةِ المقطع. لقد بَدَأ المقطعُ حديثَهُ عن سلوكِ المشركين بقوله ﴿قل: أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادة قل الله شهيدٌ بيني وبينكم﴾ ثم ختَمَ المقطعُ حديثَه عن ذلك بالآيةِ التالية ﴿الّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرفون أبْناءَهم الذين خسِروا أنفُسَهم فَهم لا يُؤمنون﴾. ترىٰ ما هو الرابِطُ الفني بينَ المشركين المشككين وبين الكتابيّين الذين يعرِفونَ القرآنَ كما يَعْرِفُونَ أبناءَهم؟ النُّصوصُ المفسرةُ تَقول: إنَّ المشركين قالُوا لمحمّدٍ(ص):

لاَ أحَدَ يصدّقُك برِسالة الإسلام وإنَّ اليهودَ والنصارىٰ سُئِلوا عنكَ؟ فقالوا: لا نَعرِفُ شيئاً عنه... لكن بَعيداً عن أسبابِ النُزولِ والنُصوصِ المفسّرة، يمكُننا ـ من الزاوية الفنيّة ـ أن نَستخلصَ هذه الحقيقة التي أشارَ المفسرون إليها، ما دامَ المقطعُ بدأ بالحديث عن الشهادة ﴿قل أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً﴾ ﴿قل اللّهُ شهيدٌ بيني وبينكم﴾ حينئذٍ يستخلصُ القارىءُ (أو المستمع) أنَّ الأمرَ يتّصلُ بطلبِ شهادةٍ علىٰ صحّةِ الرسالةِ أو القُرآنِ الكريم. وحينَما يُختَمُ المقطَعُ بأنَّ اليهودَ والنصارىٰ يَعْرِفونَ هذا الأمر، حينئذٍ نستكشفُ يقيناً بأنَّ القضيةَ تحومُ علىٰ طلبِ شاهدٍ علىٰ صحةِ الرسالةِ الإسلامية.

لكنّ، ما يَعنينا بعدَ ذلك هو: أن نقفَ علىٰ الأسرارِ الفنيةِ لِشهادةِ الكتابيّين المتمثلةِ في كونهِم يَعْرِفُونَ نبيَّ الله تعالى كما يَعْرِفونَ أبناءهم.

فهذا النصُ يتضمَّنُ صورةً تشبيهيةً هي: أنّ معرفتهم لمحمّدٍ(ص) تماثلُ معرفتهم لأبْنائِهم. وهنا قد يتساءَلُ القارىءُ (أو المستمع): لماذا جاءَ التشبيهُ بالأبْناءِ دونَ سواهم؟.

النصوصُ المفسرة تقول: إنَّ النعوتَ أو الأوصافَ التي جاءَت عن محمدٍ(ص) في كُتبِ اليَهودِ والنصارىٰ من الوضوحِ بمكانٍ كبير. وهذا يَعنِي أن الكتابيّين علىٰ معرفةٍ مفصَّلةٍ بذلك... لكن بعيداً عن النُصوصِ المفسّرة أيضاً، يمكنُ أن نَستخلصَ هذه الحقيقة ـ وهذا جانبٌ من سماتِ الفنِ المدهش ـ وهي: أن معرفة الإنسانِ لِوَلدِه (وهي معرفةٌ لا سبيلَ إلى التشكيكِ بها) تقتادُنا إلى أن نستخلصَ بأنّ الكتابيينَ لديهم من الدلائلِ علىٰ صحةِ الرسالةِ أو علىٰ صحةِ نُزولِها علىٰ محمّدٍ(ص) ما لا سبيلَ إلى التشكيكِ بها، وأنّ هذه الدلائلَ لا بدَّ أن تتمثَّلَ في شيءٍ مسطورٍ في كُتبِهم لأنَّ معرفةَ أبنائهم (وهي تتم من خلالِ مشاهدتِهم تَجريبياً) لا بدَّ أن توازنَها معرفةٌ (مكتوبةٌ) من خلالِ الأوصافِ والنُعوتِ.

المهم، خارجاً عن هذا التَّشبيهِ ودلالتِهِ الفنيةِ، ينبغي ألا نغفُلَ عن الموقعِ الهندسي له بالنسبةِ إلى عمارة المقطع، كما ينبغي ألا نغفُل عن الموقع الهندسي لهذا المقطع الذي تحدَّث عن مفهوماتِ التوحيد والشرك وصلته بالمقاطع السابقة من حيثُ تلاحُم بعضِها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿ومِنهُم من يستمعُ إليك وجعَلْنا علىٰ قُلوبِهم أكنّةً أنْ يَفقهوهُ وفي آذانِهم وقراً وإن يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جاءُوكَ يُجَادِلونَكَ يَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلاَّ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنهونَ عَنْهُ ويَنْأونَ عنهُ وإن يُهْلِكُون إلاّ أنْفُسَهم وما يَشعرُون﴾ [الأنعام: ٢٥ ـ ٢٦].

يتحدثُ هذا المقطع عن شريحةٍ من سلوكِ المنحرفين الذين عاصَرُوا رسالةَ الإسلام، متمثّلة في استماعِهم لآياتِ القرآنِ الكريم وتعليقهم علىٰ ذلك بأنّهُ أساطِيرُ الأولين.

حِيالَ هذا السلوكِ المنحرف يقدّم النصُ القرآنيُ الكريم تركيباً فنيّاً هو الصورةُ التالية: ﴿وجعَلْنا علىٰ قلوبهم أكنةً أنْ يفقهوهُ وفي آذانِهم وقراً﴾، ولهذه الصُورة أهميتُها الفنيةُ بالنسبة للسياقِ الذي وردَتْ فيه. وحينَما يصوغُ النصُ القرآني استعارة أو تشبيهاً أو رمزاً، إنما يوظّفهُ لإنارة الموقف. فهؤلاء المنحرفون قد تحدَّثَ النصُ عنهم سابقاً (منذ بدايةِ السورة) واصِفاً إياهم بجملةٍ من الأعراضِ المَرَضيةِ وفي مقدمتها (المراء) فيقول (ثم أنتم تمترون) ويعني بالمراء المجادلة العقيمة، وها هو النص نفسه يعودُ إلىٰ عرضِ هذه السمةِ المَرَضية بقوله: ﴿حتىٰ إذا جاؤوك يجادلونَكَ يقولُ الذين كفَرُوا إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأوّلين﴾.

إذاً، نحن الآن أمام سمةٍ مَرَضيةٍ، يتقدّمُ النصُ القرآني برسمِها بين الحين والآخر عبر طرحٍ جديدٍ لها وسياقٍ خاصٍ ترد فيه.

السياقُ الجديدُ هو عمليةُ (الاستماع) للقرآن. وإذا كانَت معطياتُ الاستماعِ تتمثلُ في ضرورةِ الإفادةِ من القرآنِ، فإن استماعَ المجادَلينَ المنحرفينَ سوفَ لا يَقترنُ بمثلِ هذه الإفادة، بل العكس، سوف يظلّونَ عاطلينَ ذهنياً لا يَفقَهون كلامَ الله تعالى. والدليلُ على ذلك هو: تعليقهم ـ بعد استماعِهم له ـ بأنَّهُ أساطيرُ الأولين. لذلك نتوقّعُ في هذا السياقِ أو الموقفِ الذي يَصدُرُ عنه هؤلاءِ المرضىٰ، أنْ يتقدَّمَ النَّصُ القرآني الكريم برسمِ صورةٍ تتناسبُ معَ السياقِ المشار إليه. الصورةُ أو الاستعارةُ هي: إن الله تعالى جعلَ ﴿علىٰ قلوبِهم أكنةً﴾ أي أغطيةً ﴿وفي آذانِهم وقراً﴾ أي ثِقْلا بحيثُ يمنعهُم الغطاءُ الملقىٰ علىٰ أفئدتِهم، والثقلُ المُرمىٰ في آذانهم من أن يُفيدوا من عمليةِ الاستماعِ للقرآن الكريم.

ويُلاَحظُ أن النصَ لم يَقُل: إنَّ في آذانِهم وقراً أو إنَّ علىٰ قلوبِهم غطاءً ـ كما هو مذكورٌ في نصوصٍ قرآنيةٍ أخرىٰ ـ بل قالَ بأن الله تعالى جعَلَ غطاءً على قلوبِهم ووقراً في آذانهم.

سرُّ ذلك ـ من حيثُ المنحىٰ الفنيّ كما نتصورُه ـ هو إن سياقَ الحديثِ عن هؤلاءِ المنحرفينَ جاءَ من خلالِ عملياتٍ متنوعةٍ من الجِدالِ والمماحكة التي تقدَّمَ عرضُها في مقاطعَ سابقةٍ مثل قولِهم لو نَزلت الرسالةُ علىٰ مَلَكٍ أوقولِهم بأنّهم سألوا اليهودَ والنصارىٰ عن محمد(ص) ولم يعثروا علىٰ الإجابةِ. . . الخ. حيثُ أن أمثلة هذا السلوك لا بدّ أن تُفْضِيَ إلى أن يطبعَ الله تعالى علىٰ قلوبهم بحيثُ لا يفقهون شيئاً. وها هم لم يكتفوا بذلك بل نجِدُهم كما وَصَفهمُ القرآنُ بعدَ ذلك في نفسِ المقطع:

﴿وهم يَنهَونَ عنهُ وَيَنأون عنه. . .﴾ حيثُ أن نتيجة استماعِهم المقرون بعَدَمِ التفقُّه، قد اقتادَهم إلى أن يبتعدُوا عن الاستماعِ لرسالةِ النبيّ(ص) وأن يمنَعوا الغيرَ من الاستماعِ أيضاً.

هنا قبل أن نختم حديثَنا عن هذا المقطع، ينبغي ألاّ نغفُلَ عن العنصرِ الإيقاعي للعبارة الأخيرة ﴿وهم يَنْهَون عنهُ وَينْأَونَ عنه﴾ حيثُ أضفَىٰ عنصرُ (التجانس الصوتي) ونعني به (ينهَون، ينأون) جماليةً فائقةً علىٰ رسمِ الموقفِ الذي اتَّسَم ـ من حيثُ الدلالة ـ بتجانسٍ معنويٍ أيضاً.

كما ينبغي ألاّ نَغْفُلَ ـ ونحنُ نتحدَّثُ أساساً عن عمارةِ السُّورةِ القرآنيةِ الكريمة ـ تواشُجَ وتلاحُمَ وتجانُسَ هذا المقطع من حيثُ عناصرُه الصُّوريّةُ ـ الاستعارة ـ وعناصرُه الأخرىٰ، ثم تجانسُه مع سائرِ المقاطع السابقةِ بالنحوِ الذي تقدَّمَ الحديثُ عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿ولو ترىٰ إذ وُقِفوا علىٰ النار فقالوا يا ليتنا نردّ ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبل ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنّهم لكاذبون * وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين * ولو ترىٰ إذ وُقِفوا علىٰ ربّهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلىٰ وربّنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله حتىٰ إذا جاءتهم الساعة بغتةً قالوا يا حسرتنا علىٰ ما فرّطنا فيها وهم يحملون أوزارهم علىٰ ظهورهم ألا ساء ما يزرون * وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو وللدارُ الآخرة خير للذين يتّقون أفلا تعقلون﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٣٢].

النص يتحدّث عن فئتين منحرفتين أو فئةٍ منحرفةٍ ذاتِ موقفينِ من السلوك. الموقِفُ الأول هو: تعليقهُم علىٰ القرآنِ بأنّهُ أساطير الأولين. والموقِفُ الآخرُ قولُهُم ﴿إنْ هي إلاّ حياتُنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾.

إزاء هذين الموقفين ينقُلُ النصُ القرآني الكريم أصحابَ كلٍّ منهما إلىٰ بيئةِ اليوم الآخِر، عارِضاً من خلالِها طبيعةَ الاستجابةِ المتمزِّقَةِ المتصارِعةِ التي يحياها كلٌّ منهما.

عرضت أكثر من نموذجٍ من سلوك المنحرفين القائم علىٰ المكابَرَة والعناد. وكل أولئك يكشف عن مدىٰ إحكام النص من حيثُ تلاحُمُ وتواشج موضوعاته بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿وما مِنْ دابّةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطيرُ بجناحَيه إلاّ أمَمٌ أمثالُكم ما فرَّطْنا في الكتابِ من شيء ثم إلى ربّهم يُحْشَرون * والذينَ كذَّبوا بآياتِنا صُمٌّ وبُكْمٌ في الظلمات من يشأ الله يُضلِله ومن يَشأ يَجْعَلْهُ على صِراطٍ مستقيم * قل أرأيتكم إنْ أتاكم عذابُ الله أو أتتكم السّاعةُ أغيرَ اللّهِ تَدْعُونَ إن كنتُم صادقين * بل إيّاهُ تَدعونَ فيكشِفُ ما تَدْعُونَ إليهِ إن شاءَ وَتنسَونَ ما تُشْرِكُون﴾ [الأنعام: ٣٨ ـ ٤١].

هذا المقطعُ يتحدثُ عن المنحرفين الذين أشركوا مع الله غيره، وهو موضوعٌ طرحَتْهُ السورةُ الكريمة منذُ البدايةِ، وواصَلتِ الحديثَ عنه في مقاطعَ متنوّعةٍ، إلا أنَّ كل مقطعٍ يُطْرَحُ في سياقٍ جديد.

الجديدُ في هذا المقطع هو: أنَّ المشركينَ عندما تواجههم شدةٌ من الشدائد ينْسَون شِرْكَهم ويتَّجهونَ إلى الله تعالى فيكشفُ الشدائدَ عمّن يشاء. والمهمّ في هذا الطرحِ هو أنَّ عمليةَ الشركِ تظَلُّ مجرّدَ اشباعٍ لنزواتِ المرضى المنحرفين وليست تعبيراً عن الأعماقِ ويقينها بالله تعالى بدليل أنَّ المقاطعَ السابقة من هذه السورة أشارتْ إلى أنَّ هؤلاء يَجْحَدونَ بآياتِ الله وليسَ ينكرونَها، ثم جاءَ هذا المقطعُ ليُنمّيَ عضوياً أو ليفصّلَ إجمالَ الحقيقة المشار إليها، أي: اليقينُ بأنّ فاعليةَ الوجودِ لله تعالى فحسَبْ، ولا نَصيبَ للأوثانِ في ذلك، بدليل أنَّ الإنسانَ حينَما يواجهُ شدَةً تتصلُ بمصيرهِ مثلاً، حينئذٍ لا يتَّجهُ إلاّ لله تعالى بحيثُ يَنْسى ظاهرةَ الشركِ التي تلفَع بها في سُلوكه اليومي.

المهم، أنَّ النَص القرآنيَ الكريم ألمح إلى هذا المظهرِ الفكري الزائفِ

﴿ولو شاءَ الله لَجَمَعهُم علىٰ الهدىٰ﴾، وهذا يعني أنَّ الصورةَ الفنية وَظّفها النصُ لتقرير الحقيقة الذاهبة إلى أنَّ المنحرفين لن يهتدوا أبداً. وتقرير مثل هذهِ الحقيقة حينما تُستَهلُّ بكلامٍ مباشر وتُعزّز بكلامٍ مُصورَّ وتُختَم بكلام مباشر إنما يُحكمُ صوغُها بنحوٍ تعمِّقُ قناعةَ المتلقّي بالحقيقة التي يستهدفُ النصُ عَرْضَها في هذا المقطع.

أكثرُ من ذلك، نجد أنَّ النَّصَّ يتقدَّمُ إلىٰ صورةٍ فنية جديدة لتعميق الحقيقة المذكورة، وهي الصورة التالية:

﴿إنما يستجيبُ الذين يسمعون والموتىٰ يبعثُهُم الله ثم إليه يُرجعون﴾، فمن خلالِ هذه الصورةِ الجديدةِ يعرضُ النَّصُّ أكثرَ من حقيقةٍ فكرية فأوّلاً يدلِّلُ علىٰ صحة الذهاب إلى أنَّ المنحرفين لا أمَلَ في تعديل سلوكهم، بأنهم (موتىٰ) والميت لا يسمع، ثم يقرّرُ حقيقةً أخرىٰ من خلال منحىً فنيّ غير مباشِرٍ هو: أن (الموتىٰ) يُبعثون يوم القيامة فيحاسِبُهم الله علىٰ سلوكهم المنحرف.

لنلاحظ (وهذا ما يُدهِشُ فنيّاً) أنَّ صورة (والموتىٰ يبعثُهُم الله) تنطوي علىٰ أسرارٍ فنيّة في غاية الإمتاع فالموتىٰ ـ من جانبٍ ـ وهو (رمزٌ) لكل حيّ منحرفٍ لا يهتدي وهو ـ من جانبٍ آخر ـ يتداعىٰ بالذهن إلىٰ دَلالةٍ أخرىٰ هي: الموتىٰ الذين يُبعثون من قبورهم عند قيام الساعة مع ملاحَظَةِ أن المقصودَ منهم هو الدَّلالةَ الأولى كما يتوضّحُ ذلِكَ لاحقاً فيما نعرِضُ بالتفصيل لهذه الصورة الممتعة. المهم أن نشيرَ إلىٰ أنَّ هذه الصورة ختمها النصُ بقوله: ﴿وقالوا لولا نُزّل عليه آية من ربه﴾ فهذا القول يُعَدُّ (من زاويةِ عمارةِ المقطع) تعزيزاً للصورة السابقة (الموتى يبعثهم الله) وتعزيزاً لصورةٍ أسبق هي (النَّفق والسُّلم) وتعزيزاً لفكرةِ المقطعِ جميعاً حيث يحومُ علىٰ فكرةِ أنَّ المنحرفين لا أملَ في إصلاحهم، مضافاً إلى أن هذِهِ الفكرةَ تظلُّ علىٰ صلةٍ بالمقاطِعِ السابقة التي

هذا المقطَعُ يتحدَّثُ عن أسلوبِ التبليغ لرسالةِ الإسلام، وكيفيةِ التعاملِ مع المنحرفين الذين لا أمَلَ في تعدِيلِ سلوكهم، فالمنحرفون علىٰ إحاطةٍ بحقيقة الأمر إلاّ أنَّهُم يجحدون بآياتِ الله عُلواً واستكباراً وعناداً إشباعاً لنزعاتهم المريضة. هذه الحقائقُ عَرَضَها المقطع تخفيفاً لهمومِ النبيّ(ص) فيما أحزَنَهُ موقفُ هؤلاء المنحرفين مُذكِّراً إيّاه أنَّ رُسُلَ السّماء طالما واجهوا مواقفَ مماثلةً حتىٰ جاءَ نصرُ الله.

هنا، يتقدَّمُ النص ـ وهذا ما نحاوِلُ ملاحظتَهُ فنياً ـ بصياغةِ أكثرَ من صورةٍ فنيّةٍ لتجسيدِ الحقيقةِ المشار إليها.

يقول النص: **﴿وإنْ كانَ كَبُرَ عليك إعراضُهُمْ فإن استَطَعْتَ أن تبتغي نفَقًا في الأرض أو سُلَّماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم علىٰ الهدىٰ﴾**.

هذه الصورة (النزولُ إلى أعماقِ الأرض من خلال النَّفقَ، والصعود إلى السّماء من خلال السّلم) تجسِّدُ مظهراً حسيّاً للحقيقة التي عَرَضَها النَّصُ عن المنحرفين وهي: عَدَمُ استعدادِهم لأنْ يَتخلَّوا عن الانحراف.

ولو أمعنّا في هذِهِ الصورة لوجدنا أنَّها رُكِّبت فنياً بنحوٍ بالغِ الإثارة... فقد استخدمت طرفين متقابلين أحدُهُما النزولُ عن سطحِ الأرض إلى الأعماق، والآخَرُ: الصعودُ من سَطْحِ الأرض إلىٰ السماء حيث يجسِّدُ (النفقُ) أدنىٰ درجاتِ النزول وحيث تجسِّدُ السماءُ أعلىٰ درجاتِ الصعود. هذا التقابُلُ لَهُ جماليتُهُ الفائِقَةُ وإمتاعُهُ المُدهِشُ فنياً بصفةِ أنَّهُ تجسيدٌ لأقصىٰ ما يُمكِنُ أنْ نتصوَّرَهُ حِيال المنحرفينَ الذين لا أملَ البتة في أنْ يُعدِّلوا من سلوكِهم ذاتَ يوم.

إن ما يُلفِتُ النَّظَر (من حيث البناءُ الهندسي لهذا المقطع) أن النَّصَّ صَدَّرَ هذه الصورة (صورةَ النَفَق والسَّلم) بكلامٍ مباشِرٍ عن عَدَم هدايةِ المنحرفين ثم عَزَّزَهُ بصورةٍ حسيةٍ كما لحظنا، ثم ختَمَهُ بكلامٍ مباشر أيضاً هو قوله تعالى:

من قبل﴾ أي: قد اتَّضَحَ أمامَهُم ما كان الغُواةُ الذين يرتكنونَ إليهم في طَلَب شهادةِ تأييد يخفونَهُ عليهم وهم يعرفونَ كلَّ شيءٍ كما يعرفونَ أبناءَهُم.

وأمّا الفئةُ التي عَرَضَها النَّصُ أمامَ الله تعالى ـ وهي التي كانَت تُنكِرُ اليوم الآخر ـ فقد صوَّرها متحسِّرةً علىٰ ما بَدَرَ منها، حيث سُئِلت أولاً: ﴿أليس هذا بالحق﴾ أي اليومَ الآخِرَ الذي أنكَرَتْهُ، فتجيب ﴿بلىٰ وربِّنا﴾، ولكن يُقال لها: ﴿فذوقوا العذاب﴾ ثم تهتفُ قائلةً: ﴿يا حسرتنا على ما فرَّطْنا فيها﴾ لكنْ لا فائِدَةَ لمثلِ هذا التَّحَسُّرِ بل يظلون ـ كما يقول النص ـ ﴿يحملون أوزارَهُم علىٰ ظهورهم﴾.

وأياً كان أمكَنَنا ملاحظةُ أنَّ الموقفَ الذي رَسَمَهُ النص القرآني الكريم عن بيئة المنحرفين يوم القيامة، قد أرتبط عُضوياً بعمارة السورةِ التي حدَّثتنا عن جانبٍ من سلوكِ المنحرفين في الدنيا ثم نَقَلَت ردودَ الفعل التي يَصدرون عنها في مواجَهَتِهم اليومَ الآخر من خلال تلاحُمِ كُلٍ من السلوكين الدنيوي والأخروي مما يُفْصِحُ ذلك عن مدىٰ إحكامِ وجماليةِ النَّصِ القرآنيَ الكريم من حيث تلاحُمُ موضوعاته بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿قد نَعْلَمُ إنَّهُ لَيحزُنُكَ الذي يَقولونَ فإنَّهُم لا يكذّبونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ ما كُذِّبُوا وأُذُوا حَتَّىٰ أتَاهُمْ نَصْرُنا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلماتِ اللّهِ وَلَقد جَاءَكَ مِن نَبإِيْ المُرْسلينَ * وإن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْراضُهُمْ فَإنِ اسْتَطَعْتَ أن تَبْتَغِي نَفَقاً في الأَرْضِ أو سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأتِيهُم بآيَةٍ وَلوْ شاءَ اللّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الهُدَىٰ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهِلينَ * إنَّما يَسْتَجيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالمَوْتَىٰ يَبْعثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إلَيْهِ يُرْجَعُونَ * وقَالُوا لَوْلاَ نُزِّل عَلَيهِ آيَةٌ مِّن رَبِّهِ قُلْ إنَّ اللَّهَ قَادِرٌ علىٰ أن يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أكثَرَهُمْ لاَيَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣ ـ ٣٧].

الفريق الأول يقول: **﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذِّب بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين﴾**، إلا أنَّ النَّصَّ يَرُدّ عليهم قائلاً: **﴿بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبل ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾**.

الفريقُ الآخر يقول: **﴿يا حسرتنا علىٰ ما فرطنا فيها﴾**، ويعلّقُ النَّصُ عليهم: **﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورِهم ألا ساء ما يَزِرون﴾**.

يعنينا من هذين الموقفين موقعُهما من عمارة السورة القرآنية من جانب والمنحىٰ الفنيُّ الذي ينطويان عليه من جانب آخر. لقد عَرَض النَّصُ المنحرفينَ علىٰ بيئةِ النار أوّلاً ثم عَرَضَهُم أمام الله تعالى.

عندما عَرَضَهم على بيئةِ النار حينئذٍ نتوقَّعُ أن تكونَ ردودُ فِعْلِهم هي النَّدمَ وتمنّي العودِ إلىٰ الحياة حتىٰ يؤمنوا، إلاّ أن النَّصّ يوضِّح بأنَّهُم لن يؤمنوا حتى لو عادوا إلى الحياة من جديد.

والواقع أنَّ هذا التعليق علىٰ سلوكهم يرتَبِطُ هندسياً بعمارة السورة الكريمة حيث سَبَقَ أن عَرَضت لنا سلوكَ المنحرفين القائِمَ علىٰ نزعةِ الجدال والمخاصمة، لقد قال القرآنُ عنهم في حينه **﴿ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين﴾**.

إذاً، مَن لا يؤمن حتى في حالةِ التجريب الحسي المتمثّل في مشاهدتِه كتابَ الله مُنَزَّلاً من السماء لا نتوقع أن يؤمن في حالة عودته إلىٰ الحياة الدنيا من جديد لأنَّ القضيةَ لا ترتبط بكونِ المنحرفين غيرَ محيطين بالحقائِق بل بكونِهم يؤثِرون الحياةَ الدنيا من خِلالِ سلوكِهِمُ القائِمِ علىٰ حُبِّ المجادَلَةِ والمخاصمة إشباعاً لحاجات (الذات) المريضة. لقد سبق أن صوَّرهم النَّصُ ممارسين لأكثَرَ نوعٍ من أنواعِ المماحكة ومنها: طَلَبُهُم الشهادَة من الآخَرين (الكتابيين) علىٰ صحةِ رسالة محمد(ص) حيث لمَّحَ النَّصُ إلى هذا الجانب حينما نَقَلَ وقائِعَ الموقِف في اليوم الآخر قائِلاً: **﴿بل بدا لَهُم ما كانوا يُخفون**

الذي يَخلعَه الإنسانُ عندَ المواقفِ الجدّية، ويرتديهِ في حالاته الأخرى: ألمحَ إلى أصحابِ هذا المظهرِ الزائفِ بقوله تعالى: ﴿والذينَ كذَّبوا بآياتنا صمٌ وبكْمٌ في الظُلمات﴾ هذه الصورة الفنية (صمٌ وبكمٌ في الظلمات) تجسّدُ هذا النمطَ من البشرِ الذين يجْحَدون بآياتِ الله في غمرةِ تشبّثِهم بمتاعِ الحياة الدنيا مع قناعَتِهم وُجدانياً بخلافِ ذلك.

لقد وصفَهم النصَّ بأنّهم (صُمٌ وبكم) لا يَملكُون استعداداً لأنْ يَسمَعُوا صوتَ الحقيقة ولا أنْ يَنْطِقوا بها بل هم صُمٌّ عن الاستماع إليها بُكمٌ عن النطقِ بها.

وقد أردفَ النصُّ هذه الصورةَ (صمْ وبكم) بصورة أخرى هي (في الظلمات) صُمّ وبكم في الظلمات.

الظلماتُ هنا ـ كما هو بيّنٌ ـ رمز للجَهْلِ والكُفْرِ والغَفلةِ وسائرِ السماتِ التي تطبعُ المنعزلين عن مبادىء السماء. ولا أدلَّ على أنّ المنحرفينَ يَحْيَوْنَ في الظُلمات، مِن كَونِهم يَعْرِفُون آياتِ الله ثُم يُنْكِرونَها انسياقهم مع نزواتهم التي لا تَعْرِفُ إلى الجدية سبيلاً بقدر ما تَلْهَثُ وراءَ ما هو طارىءٌ وعابرٌ وزائفٌ من متاع الحياةِ.

هنا ينبغي ألا نَغْفُلَ عن أنَّ هذا المقطع الذي يتحدَّثُ عنِ المنحرفينَ الذين يُشركُون مع الله غيرَه، قد تخلَلته آية تُشيرُ إلى أنّه ما مِنْ دابةٍ أو طائرٍ إلا أمم أمثالُ البشر. حيث يمكن أن يتساءَل المتلقي (القارىء أو المستمع) عن الموقع الهندسي لهذه الآية بالنسبة إلى عمارة المقطع. في تصوُّرنا أنَّ تقديرَ أية حقائقَ علميةٍ أو عبادية ذات خطورة عندما يَسْتَهْدفُ النصُ تَوصيلَها إلينا، لا بدَّ أن تُطرَحَ في سياقِ الفكرة الرئيسةِ حتى يُحَسّسَنَا النص بأهميتها. ولذلك فإنَّ طرحَ قضيةِ العضويات غير البشرية (الدواب والطيور) مِن حيث كونُها (مجتمعاتٍ) مماثلةٍ للمجتمعِ البشري تأخُذُ مسوّغها الفني في هذا السياق الذي

يتحدَّثُ عن فاعليةِ الله تعالى وإبداعه.

وأياً كانَ الأمر، فإنَّ هذا المقطعَ يظَلُّ امتداداً لمقاطعَ سابقةٍ من السورة تتحدَّثُ عن المنحرفينَ، لكِنْ من خلالِ طرح جديدٍ لِسُلوكِهم وهو نسيانهم للشركِ حينَما يواجهون الشدائد، حيث يكشفُ مثلُ هذا الطرحُ عن إحكام النصِ وتلاحُمِ أجزائه بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿ولقد أرْسَلنا إلى أمم من قَبْلِك فأخَذْناهُم بالبَأساءِ والضّراءِ لعلَّهم يتضرَّعون * فلولا إذ جاءَهم بأسُنا تضرَّعوا ولكنْ قَست قلوبُهم وزيَّن لهم الشيطانُ ما كانُوا يعملون * فلما نَسُوا ما ذُكِروا بهِ فتَحْنا عليهم أبوابَ كلِ شيءٍ حتى إذا فَرِحُوا بما أوتُوا أخَذْناهم بغتةً فإذا هم مُبلِسون * فقُطِع دابرُ القومِ الذين ظلَموا والحمدُ لله ربّ العالمين﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٥].

هذا المقطعُ يتحدَّثُ عن شريحةٍ جديدةٍ من سلوكِ المنحرفين بالنسبة إلى الأمم البائدة.

المقاطِعُ السابقةُ من السورةِ أشارَتْ إلى مصائر الأمم البائدةِ أيضاً لكن في كلِّ مقطع نواجِهُ طَرْحاً جديداً يَشُعُّ بنكهةٍ خاصَّةٍ مما يُضفي مِثْلُ هذا التنوُّعِ حيويّةً وإمتاعاً فكرياً وجمالياً.

الجديدُ في هذا المقطع ليسَ هو المطالبَةَ بأخذِ العظة من مصائِرِ الماضينَ الذين كذّبوا رسالاتِ السماءِ فحَسبْ، بلِ الجديدُ هو عَرْضُ تجربتين خَبَرَتْهُما مجتمعاتُ البائدينَ وهما تجربةُ شدائد الحياةِ وتجربةٌ مضادةٌ لها هي: نِعَمُ الحياة. يقولُ النصُّ عن التجربةِ الأولى: ﴿فأخذناهم بالبأساء والضَّراءِ لعلَّهُم يتضرَّعون﴾ ويقول عن التجربةِ المضادةِ لها: ﴿فتَحنا عليهم أبواب كُلِّ شيء﴾، أي: أنّ الله تعالى قد اختبَر الماضينَ بالشدائدِ أوّلاً لعلَّهم يتضرَّعون ثم اختبَرهم بإغداق النِعَم عليهم لعلَّهم يشكُرون إلا أنّهم في الحالتَينِ لم يعدّلوا

من سُلوكِهم بل مَارَسُوا الانحراف، مما تَرَتَّبَ على ذلك أن يُقطَعَ دابِرُهُم، أي: أبادَهُم الله نتيجةً لسلوكِهِم المنحرف ﴿فقطع دابرُ القوم الذين ظلموا. . .﴾).

هذا هو مُلَخَّصُ التجربتين اللتين خَبَرَتهُما مجتمعاتُ الماضين. ويعنينا من هذا أن نقِفَ على الدلالة الفكرية لهاتين التجربتين، وأن نقِفَ على المنحى الفنيّ في صياغةِ ذلك.

أما الدلالةُ الفكريةُ فتتمثل في البدءِ بأنَّ تجربةَ الشدّة والنَّعيم ليسَت هَدَفاً في ذاتِه بقدر ما هي وسيلةُ اختبارٍ فحسب وهو أمرٌ يواجِهُهُ مطلقُ الآدميين أسوياءَ كانوا أو منحرفين، إلا أنَّ النَّصَّ عَرَضَ هاتين التجربتين وخَصَّهما بالنسبةِ للمنحرفين فحسب، فعندما عرضهم لتجربة البأساء والضّراء لم يستهدف من ذلِكَ ملاحظةَ ما إذا صَبَروا على ذلك أم لا (لأن تجربةَ الصّبر تخصُّ المؤمنين) بل استهدف إمكانيةَ أنْ يعدُلوا من سلوكهم، أي ـ كما يقول النص ـ (لعلهم يتضرّعون) لأمرِ الله تعالى. لكن لم يفد المنحرفون من هذهِ التجربة بل ـ كما يقول النص ـ: ﴿لكن قست قلوبُهُم وزيَّنَ لهُمُ الشيطانُ ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ٤٣].

هنا، بَعْدَ أن قَسَتْ قلوبُ المنحرفين عَرَّضَهُم لتجربةٍ جديدةٍ هي: إغداقُ النعيم عليهم ﴿فتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيء﴾.

إلاّ أن هذه التجربة لم تستهدف مجرّد إمكانيةِ تعديلِ السلوك، لأنَّ هذِهِ إمكانية تَخُصُّ المؤمِن الذي يستجيبُ للنعيم بالشكر بل جاءت ـ مضافاً لما تقدم ـ نوعاً من العقوبة في الواقع. لذلك قال النص: ﴿فلما نسوا ما ذكّروا به فَتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتى إذا فَرِحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً﴾ و هذا يعني أن تجربة النعيم جاءت بمثابةِ استدراجٍ أو عقوبةٍ لأنَّ إغداق النعيم على المنحرف سوفَ يجعلُهُ فَرِحاً كُلَّ الفرحِ به بحيث إذا سُلِبَ منه يواجِهُ ردَّ فِعْلٍ مضادٍ للفرح كلَّ التضاد وهو أمرٌ ينتهي به إلى الكآبة والتمزُّقِ والألم في أشَدِّ مستوياتها وهذا

ما أوضحه النّص حينما عَقّبَ على فَرَحِ المنحرفين بقوله: ﴿حتى إذا فَرِحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلِسون﴾، أي: يحيَون غاية التحسّر على فقدانِهم النعيم الذي فرحوا به ذاتَ يوم.

أخيراً، لا نغفلُ ـ من حيث المنحى الفني ـ أن النص قد استخدَمَ صورةً استعارية بالنسبة إلى النعيم الذي أُغدِقَ على المنحرفين هي: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ فيما تعني أنّهم قد استمتعوا كُلَّ الاستمتاع دون أن يحتجزهم شيءٌ عن ذلك، وقد قابلته صورة مضادَّةٌ بالنسبة للشدائِدِ وهي: ﴿فأخذناهم بالبأساء والضراء﴾ حيث أنَّ البأساء والضَّرّاء كُلَّ الشدائد نفسياً وبدنياً ومادياً. هذا التقابُلُ بين مستويي النِعَم والشدة له إثارته الفنية كما هو واضح من حيث التجانس وذلك يفصح عن مدى الإحكام الهندسي للنص...

* * *

قال تعالى: ﴿قل أرأيتُم إنْ أخَذَ اللّهُ سمْعَكم وأبصاركم وخَتَم على قلوبكم مَن إلهٌ غيرُ الله يأتيكُم به انظُرْ كيفَ نصَرّفُ الآياتِ ثم هم يَصْدِفُون * قل أرأيتكم إنْ أتاكم عذابُ الله بغْتَةً أو جَهْرَةً هل يُهْلَكُ إلا القومُ الظَالِمُونَ * وما نُرسِلُ المُرسَلين إلاّ مبشّرينَ وَمُنذرِينَ فَمَن آمَنَ وأصلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحزَنُونَ * وَالّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسّهُمُ العَذَابُ بِما كَانُوا يَفْسُقُون * قُل لا أقُولُ لَكُمْ عِندي خَزَائِنُ اللّه وَلا أعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أقُولُ لَكُم إنّي مَلَكٌ إنْ اتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ قُلْ هَل يَسْتوِي الأعْمى والبَصِيرُ أفَلاَ تَتفكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦ ـ ٥٠].

في هذا المقطع يطرَحُ النَّصُ القرآني الكريم معطىً جديداً من معطياتِ الله المتنوّعة ألا وهو: البصيرةُ أو وسائِلُ الإدراك من قَلْبٍ وبصرٍوسمع. هذا المعطى، يطرحُهُ النَّصُ في سياقِ الحديث عن المكذِّبين أو المشركين أو المشكّكين برسالةِ الإسلام بعد أن كانت المقاطعُ السابقةُ من السورة تطرَحُ

ظواهِرَ مختلفةً في هذا السياق.

الجديدُ في هذا المقطَعِ الذي نتحدَّثُ عنه هو: أنَّ أهَمَّ ما يميِّزُ الإنسان عن غيرِهِ هو قواهُ الإدراكية في شتّى أدواتِها من سَمْعٍ وبَصَرٍ وقلب وهذه القوى قد أودعها الله تعالى في تركيبة الإنسان. وإذا كان الأمرُ كذلك حينئذٍ يتساءلُ النَّصُ قائِلاً: **﴿قل: أرأيتُم إنْ أخَذَ الله سمعكُم وأبصارَكُم وخَتَم على قلوبكم مَن إله غيرُ الله يأتيكم به؟﴾**.

معنى هذا التساؤل أن النص يستهدف ـ وفق منحىً فنّي غير مباشر ـ أنْ يَلفِتَ نَظَرَ المشركين مع الله قوىً أخرى مثل الأصنام إلى أنَّ هذِهِ الأصنامَ لا تملِك فاعليةً لِخَلْقِ مثلِ هذه القوى السمع، البصر، القلب.

نفهَمُ هذا من خلالِ نمطِ الصياغةِ الفنية التي طَرَحَها النص وهي قوله تعالى: **﴿مَن إلهٌ غيرُ الله يأتيكم به﴾** أي: أنَّ الأصنامَ وغيرَها لا تملِكُ فاعليةَ العَطاء بل الله تعالى فحسب هو الذي مَنَحَ الإنسانَ تلكمُ القوى الثلاث السمع، البصر، القلب.

ويُلاحظ (من حيثُ عمارةُ المقطع) أنَّ النَّصَّ طرَحَ في نهايةِ المقطعَ فكرةً تحومُ على هذِهِ الدَّلالةِ ألا وهي تساؤُلُه: **﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾** هذا التساؤل ينطوي على أهميةٍ فنيةٍ كبيرة، فأولاً: طَرَحَ معادَلَةً بين السَّمْعِ والبصر والفؤادِ بصفتها وسائِلَ المعرفةِ البشرية التي تميّز الإنسان عن غيره وبين (البصير) و(الأعمى)، أي: بَعْدَ أنْ ذَكَر بأنَّ السَّمَعَ والبصر والفؤاد هي معطياتُ المعرفةِ البشرية قارن بينهما وبين مَن هو عارِفٌ مُدرِكٌ مميِّزٌ وبين مَن هو جاهِلٌ للمعرفةِ: **﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾**.

ثانياً: لقد جاء هذا الطَّرْحُ أو المقارنةُ بين العارِفِ والجاهل من خلالِ تركيبٍ صُوري هو (الرمز) أو الاستعارة، فـ(الأعمى) هنا رمزٌ للجهل، و(البصير) رمزٌ للمعرفة. ومن المعلوم أنَّ الرَّمز ـ في لغةِ الفن ـ هو الأداةُ التي

تُشحَنُ بإيحاءات ودلالاتٍ متنوّعة، ولذلك عندَما طَرَح النَّصُ هذا الرمز من خلال صيغةِ التساؤل ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾ إنّما نَفَذَ إلى صميم المتلقّي الذي خاطبه بهذهِ اللغة موضّحاً له كم هو الفارقُ بينَ العارفِ الذي ملّكهُ الله سمعاً وبصراً وقلباً وبين الفاقِدِ لهذه المعطيات.

ويُلاحظُ أيضاً أنَّ النَّصَّ قد استخدَمَ (الصورة) الفنية أيضاً عند عَرْضِهِ لظاهرةِ السمع والبصر والقلب ﴿قل أرأيتُم إنْ أخَذَ الله سمعكم وأبصاركم وخَتَم على قلوبكم﴾. فَمِنَ الواضِحِ إنّ أخْذَ السَّمع والبصر لا يعني عَدَم وجودِهما البتة بل يعني تعطيلَهما عن الفاعلية أي عدم توظيفهما في إدراك الحقائق،... ولذلك نَجِدُ أنَّ النَّصَّ يقولُ (بالنسبة إلى القلب): ﴿وخَتَمَ على قلوبكم﴾ فالختمُ على القلبِ هو: استعارةٌ وليس كلاماً مباشراً أي أنّه أعارَ سِمَةَ (الختم) ـ وهي سِمةٌ ماديةٌ للقلب ليشيرَ بذلِكَ إلى انغلاقِ القلبِ عن إدراكِ الحقائِق وليس إلى انعدامِهِ من تركيبة الإنسان.

وأياً كان الأمر يعنينا أن نُشير إلى عِمارةِ هذا المقطعِ أولاً من حيث كونُهُ قد بَدَأ بالحديث عن معطياتِ الله المتمثّلةِ في منحِ الإنسان سَمْعاً وبصراً وقلباً وانتهى بالحديثِ عن المعادلة بين البصرِ الذي يملِكُ هذه الأدوات السمعْ، البصرِ، الفؤاد وبين الأعمى الفاقد لها، مضافاً إلى أنَّ هذا المقطَعَ يظلُّ امتداداً لمقاطع سابقة من السورة تحومُ على هذا الموضوع مما يُفصحُ ذلك عن مدى إحكامِ النص وتلاحُم جزئياتِهِ بعضاً مع الآخر، كما لحظنا.

* * *

قال تعالى: ﴿وأنْذِرْ به الذينَ يَخافُونَ أنْ يُحْشَرُوا إلى ربّهم ليسَ لهم من دونِه وليٌّ ولا شفيعٌ لعلَّهم يتقون * ولا تَطْرُدِ الّذين يَدعون ربهم بالغَداةِ والعَشّي يريدونَ وجْهَه ما عليكَ من حسابِهم من شيءٍ وما مِنْ حسابِكَ عليهم من شيءٍ فتطرُدَهم فتكونَ من الظالمين * وكذلك فَتَنّا بعضَهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء منَّ

اللّهُ عليهم منْ بينِنا أليسَ الله بأعلَم بالشّاكرين * وإذا جاءَكَ الذينَ يُؤمنونَ بآياتِنا فقل سلام عليكم كتَب ربُكم على نفسهِ الرحمة أنّه مَنْ عَمِلَ منكُم سوءً بجهالةٍ ثم تابَ من بعدِهِ وأَصْلَحَ فأنّهُ غَفُورٌ رحيم﴾ [الأنعام: ٥١ ـ ٥٤].

هذا المقطعُ يتحدَّثُ عن جملةٍ من أنماطِ السُّلوك العبادي في غَمرةِ الحديث الاستمراري عن المنحرفين وعلاقةِ الإسلاميين بهم من حيثُ نَمَطُ السُّلوك الذي ينبغي أن يختطّوه في هذا الميدان. يقولُ المقطَعُ ثَمّةَ طبقةٌ من الفُقراء الذين آمنوا بالله تعالى، يَتّجهون إليه بالغَداةِ والعشي، يُريدون وجهَهُ. هؤلاء الفقراء لم يَرُقْ للمنحرفين أن يَرَوْهُم سباقين في الاستجابة لرسالة الإسلام، كما أنَّ بعضَ المؤمنين حِرْصاً منهُم على كسبِ أكبرِ عددٍ مُمكنٍ من الناس إلى تقبُّلِ الإسلام قد اقتنعوا بأنَّ المصلَحَةَ قد تَتَطلَّبُ إبعادَ الفقراء أو العبيدِ الذين سبقوا أسيادَهُم إلى الإسلام ـ عن واجهةِ المجلِسِ الذي يَفِدُ إليه الناس ممّن يحتمل دخولُهُم في الإسلام.

النَّصُّ القرآني الكريم رَسَمَ توصيَتَهُ في هذا الصّدد وهي: أنه ما على الإسلاميين من حساب هؤلاء الفقراء من شيءٍ وما من حسابِهِم على الفقراء من شيء بل أن القضيةَ هي: قضيةُ اختبارِ البعض من الناس ببعضهم الآخر، اختبار الغني بالفقير، والفقير بالغني حتى يتبيَّن المؤمِنُ عن سواه.

لقد تَوَرَّمَت ذواتُ المستكبرين وهم مجموعةٌ من المرضى الذين يُعنَون بزخارفِ الحياةِ الدنيا من أموالٍ ومواقعَ اجتماعية حتى تساءلوا قائلين عن هؤلاء الفقراء المؤمنين: ﴿أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا﴾. لقد كَبُر عليهم أن يَرَوا الفقراءَ سبّاقين إلى الدّخول في الإسلام فاستيقظَتَ في أعماقِهِم نزعاتُ الكِبر والتعالي والسيطرة فهتفوا ساخرين ﴿أهؤلاء منّ الله عليهم﴾... هنا أجابَهُم النَصُّ القرآني قائلاً: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾.

بعد ذلك طَرَحَ المقطعُ قضيةً جديدةً هي: ﴿وإذا جاءَك الذين يؤمنون

بآياتنا فقل: سلامٌ عليكم كَتَبَ ربُكم على نفسه الرحمة أنّه مَن عَمِلَ منكم سوءً بجهالةٍ ثم تابَ من بعدِهِ وأصلحَ فأنَّهُ غفورٌ رحيم﴾. هذا الطَّرْحُ ليس طارئاً على المقطع بل إنه يَرتَبِطُ بالقضية السابقة قضيةِ المؤمنين الذين حَرَصوا على أن يكسبوا أكبَر عددٍ ممكنٍ من الناس للدخول في الإسلام فيما أوضح النَّصُّ بأنَّ مثلَ هذا الحرص لا ينبغي أن يتمَّ على حسابِ طردِ الفقراء، أو قضية المؤمنين بعامّة ممّن ألمّ ببعض الذنوب، أو قضية الفقراء الذين اقتُرِحَ طردُهُم.

المهمّ أن النَّصَّ يستثمِرُ هذا الجانبَ ليطرَحَ ظاهرةً عبادية تَتَّصِلُ بالذَّنبِ وطريقةِ معالجتِهِ متمثلةً في التوبة من جانبٍ وإصلاح السلوك وتعديلِهِ من جانب آخر.

هنا ينبغي ألاَّ نغفُلَ عن عمارةِ هذا المقطع وصلتِهِ بعمارةِ السورةِ الكريمة ما دُمْنا ـ أساساً ـ نُعنى بالبناء الفني للنَّصِّ من حيث صلةُ مقاطِعِه بعضاً مع الآخر. حيث سَبَقَ للنَّص أن طرح مفهومَ (الرحمة) في أوائل السورة الكريمة وهي قوله تعالى: **﴿كتب على نفسه الرحمةَ ليَجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾** [الأنعام: ١٢]. هناك طرَح النصُ مفهومَ (الرحمة) في سياقِ الحديثِ عن مطلقِ المنحرفين من أنَّ الله كَتَبَ على نفسه الرحمة بأنْ يُمهِلَ النّاسَ إلى يوم القيامةِ بأملِ تعديل سلوكهم، وهنا ـ في المقطعِ الذي نتحدَّثُ عنه ـ طَرَحَ النّصُ مفهوم (الرحمة) في سياقِ الحديثِ عن مطلق المؤمنين فيما طالبَهم بالتوبة.

إذاً، ينبغي أن نلحَظَ هذا التقابُلَ الهندسي بينَ مفهومِ (الرحمة) التي كتبَها الله على مطلق المنحرفين بأمل تعديلِ سلوكهم وبين مفهوم الرحمةِ التي كتبها على مطلَقِ المؤمنين بأمل التوبة عن ذنوبهم.

وبهذا الرّبط بينَ أوائِلِ السورة وأوسطها نتبيَّنُ مدى إحكام النّص وتلاحم جزئياتِهِ بعضاً مع الآخر بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال تعالى: ﴿قُل إنّي نُهيتُ أنْ اعْبُدَ الذين تَدعونَ من دون الله قل لا أتّبعُ أهواءَكم قد ضَلَلْتُ إذاً وما أنا من المهتدين * قُل إنّي على بيّنةٍ من ربّي وكذّبتُم به ما عِندي ما تَستعجلونَ به إن الحكمُ إلاّ لله يقصُّ الحقَ وهو خيرُ الفاصلينَ * قُلْ لو أنَّ عِندي ما تَستعجلونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمْر بيْني وبيْنكُم واللّهُ أعْلَمُ بالظَّالمين * وَعِندَهُ مفاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعلَمُها إلاَّ هُوَ وَيَعلمُ مَا فِي البَرِ وَالبَحرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن ورَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُها وَلاَ حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلاَّ في كتابٍ مبين﴾ [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٩].

في هذا المقطع طَرْحٌ جديدٌ لسلوكِ المنحرفين عبْر تعامُلِهم مع رسالة الإسلام. الجَديدُ هو استعجالُهُم بنزولِ العقابِ الدنيوي الذي لَوَّحَ به النبيّ(ص) في غمرةِ تذكيرهم بمصائِرِ المجتمعاتِ السابقة.

في سياقِ هذا الطَّرْحِ (ونعني به استعجالَهُمُ العذاب) يطرَحُ المقطعُ قضيةً جديدةً تَتَّصِلُ بمعرفةِ الله المطلقة وهي: (وعنده مفاتح الغيب لا يَعلَمُها إلا هو... الخ).

وإذاً، نحنُ الآن أمامَ مبنًى هندسي خاصٍ في هذا المقطع الذي يواصلُ من جانبٍ عرضَ سلوكِ المنحرفين ويقدِّمُ ـ من جانبٍ آخر ـ حقائِقَ عباديةً يستهدفُ توصيلها إلينا.

إنَّ طَلَبَ المنحرفين استعجالَ العذابِ يكشِفُ عن بُعدٍ جديدٍ من أبعاد سلوكِهِمُ المَرَضيّ، أي: أنّهُ امتداد لنزعةِ التشكيك والتكذيب والعناد التي عرضها النصُ في المقاطع السابقة من السورة، بيد أن المهم بعد ذلك هو: أن النص استثمر هذا الجانب ليقدّم ـ كما قلنا ـ حقيقةً عبادية هي معرفةُ الله المطلقة. فالمنحرفونَ عندما طلبوا استعجالَ العذاب أجابَهم النصُ بأنَّ الأمر عائِدٌ إلى الله تعالى من حيثُ التوقيتُ في نزول العذاب، أي: أنَّ معرفة وقتِ العذاب هو من اختصاصِ علم الله تعالى.

هنا ـ في هذا السياق الذي رَبَطَ وقتَ نزولِ العذاب بعلمِ الغيب ـ طَرَحَ النَّصُ حقيقةَ هذا العلم ومستوياتِه فقال: **﴿وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمُها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقُطُ من ورقةٍ إلاّ يعلمها ولا حَبّةٍ في ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتاب مبين﴾**.

هذه الحقيقة تتضمَّنُ جملةً من أسرار الفن.

فأوّلاً: انتقَلَ النَّصُ من قضيةٍ (خاصة) هي معرفةُ الله بوقتِ نزولِ العذاب إلى قضيةٍ(عامةٍ) هي معرفتُهُ بمطلقِ الغيبِ (يعلَمُ ما في البر والبحر) (وما تسقُطُ من ورقة ولا حبّة) (ما هو رطبٌ ويابس).

ثانياً: طُرِحت قضيةُ (الغيب) وَفْقَ لغةٍ فنيةٍ اعتمدَت عُنْصُرَ (الصورة) من استعارةٍ ورمزٍ.

ثالثاً: طُرحت هذِهِ القضيةُ وَفْقَ أسلوبٍ يعتمد عنصر (الانتقاء) لمفرداتِ العلم بالغيب بحيث نَلِمُّ بما هو محقِّقٌ لعنصر الإقناع الفني. فعلمه بما في البر والبحر يشملُ البُعدَ الجغرافي للظواهر، وعلمُهُ بما هو رَطْبٌ ويابس يشمَلُ كلَّ الأجسامِ التي يحتويها البُعد الجغرافي المذكور، وعلمُه بما تسقط من ورقة وحبّة يشمل أدقّ العينات الحسية التي يحتويها هذا البُعد الجغرافي.

إذاً، انتقاءُ هذه العناصر جاء وفقَ صياغةٍ فنيّة لِصور حسيّةٍ تجسُدُ مفهومَ علم الغيب.

وأما الصُّوَرُ التركيبيةُ التي قَدَّمَها النَّصُ في هذا السياق ونَعني بها الاستعارة والرَّمْز في قوله تعالى: **﴿وعنده مفاتحُ الغيب﴾** وقوله تعالى: **﴿ولا حبّةٍ في ظلمات الأرض﴾** هذِهِ الصورة تنطوي على سِماتٍ فنيّة قد وُظِفت لإنارة الموقف.

لقد استعارَ النَّصُ لِعِلمِ الغيب سِمَةَ (المفاتح) أو (المفاتيح) وأهميةُ هذِهِ

الاستعارة هي أنَّ (المفتاح) هو الأداةُ التي تفتَحُ الأبوابَ للدخول إلى الساحة مما يَعني أنَّ دخولَ الساحة لا يُتاحُ إلاّ لِمَنْ يَملِكُ المفاتيح وهي بيد الله تعالى فحسب، وليسَ بيد البشر (لِنتذكر أنّ المنحرفين طَلَبوا استعجال العذاب وأُجيبوا بأنَّ عِلْمَ ذلك عند الله)، إذاً، جاءت الصورةُ (الاستعارة) موظَّفَةً لإنارةِ أفكار المقطعِ كما قلنا.

وهذا ما يتصل بصورةِ المفاتح وأما ما يتصل بصورة الظلمات، فيلاحَظُ أنَّ (الظلمات) تشكّل استعارةً أو رمزاً لباطن الأرض. وكان مِن الممكِن أنْ تُصاغَ الصورةُ بشكلٍ مباشرٍ فيقال: (ولا حبةٍ في باطِنِ الأرض) لكن قد استُخدِمَتْ صورةُ (الظلمات) بصفتها ترمُزُ إلى ما هو غيرُ متاحٍ للمعرفة البشرية فالكائِنُ الآدميُّ لا يُمكنُهُ أن يُبصِرَ شيئاً في الظلمات بعكْسِ ما لو كان في باطنِ الأرض حيث يمكنُهُ من خلالِ الحفر مثلاً أن يُبْصِرَ ما في باطن الأرض.

إذاً، جاءت صورةُ (الظلمات) لتجسِّدَ اختصاصَ معرفةِ الغيب بالله تعالى فحسب ومن ثمَّ جاءَ عنصر الصورة وغيرُها من العناصر الفنيةِ لترتبِطُ عضوياً بعمارةِ المقطع من جانب وعمارة السورةِ الكريمة من جانب آخر، مما يفصح ذلك عن مدى إحكام النص.

* * *

قال تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليلِ ويعْلمُ ما جَرحْتُم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجلٌ مسمىً ثم إليه مَرجعُكم ثم يُنبؤُكم بما كنتُم تعملون * وهو القاهر فوق عبادِهِ ويرسِلُ عليكم حفظةً حتى إذا جاءَ أحدَكم الموتُ توفَّته رُسُلُنا وهم لا يفرّطون * ثم رُدُّوا إلى الله مولاهُم الحق ألا لَهُ الحكمُ وهو أسْرَعُ الحاسبين﴾ [الأنعام: ٦٠ ـ ٦٢].

في هذا المقطع نواجِهُ طرحاً لإحدى الظواهِرِ الإبداعيةِ وهي: (النوم واليقظة) رابطاً بينَ هذِهِ الظاهرةِ وظاهرةِ اليوم الآخر التي تُشكِّلُ أحَدَ محاورِ

السورةِ الكريمة، حيث تجيءُ قضايا التشكيك والتكذيبِ عند المنحرفين موضوعاً يُتابعُ النصُ رَسْمَ مستوياتِهِ في مقاطِعَ مختلفةٍ لحظناها سابقاً.

المُلاحَظ أنَّ رَسْمَ ظاهرةِ (النوم واليقظة) جاءَ وَفْقَ صورةٍ فنيّةٍ هي الاستعارةُ أو الرمز. فقد رَمَزَ للنومِ بقوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفّاكم بالليل﴾ بصفةِ أنَّ الوفاةَ هي قبضٌ للروح حيثُ خَلَعَها على النّوم من خلال إعارة شيءٍ صفةَ شيء آخر وهو مفهومُ الاستعارة.

هنا، طَرَحَ النّصُ قضيةَ الذنوب ثم طَرَحَ بَعْدَ ذَلك ظاهرةَ (اليقظة) مقابِلَ (النوم) وهذا النوعُ من الطَّرْحِ يتضمَّنُ سِرًّا فنّياً من الأهمية بمكانٍ كبير. إنَّ النَّصَّ يتحدَّثُ عن نومِ الإنسانِ ويَقظَتِهِ والقارىء أو المستمعُ يتوقَّعُ أن يحدّثنا النَّص عن اليقظة مباشرةً بَعْد حديثِهِ عن النوم، إلاّ أنّهُ قَطَعَ هذا التسلسل ليطرَح قضيةَ ذنوب الإنسان في النهار الذي يشكّلُ زمانَ اليَقظةِ مُقابِلَ الليل الذي يشكّل زمانَ النوم فقال: ﴿ويعلَمُ ما جرحتم بالنهار ثم يبعثُكُم فيه﴾، تُرى، ما هو السِّر الفنيّ وراء ذلك؟.

عندما قال النَّصُّ بأنَّ الله تعالى يتوفّى الناسَ بالليل عَقَّبَ على ذلك بأنّهُ تعالى: ﴿يعلم ما جَرَحْتُم بالنهار﴾ محسِّساً الناس بهذا التقديم للذنوب مدى رعايةِ الله تعالى من جانبٍ وخطورةَ ما يمارسُهُ الناسُ من ذنوبٍ من جانب آخر فالنّهارُ هنا رمزٌ لليقظةِ التي يمارسُ الإنسانُ فيها ذنوبَهُ أي أنَّ النَّصَّ يُريدُ أنْ يقولَ لَنا إنَّ النهارَ الذي يَحيا الإنسانُ فيه مقابِلَ اللّيل الذي يَنامُ فيه قد استثمره الإنسانُ في ممارسة الذنب، وهذا هو أعظم مفارقةٍ للإنسانِ الذي لم يُقدّر نِعَمَ الله عليه في إتاحتِهِ مُعطيات النومِ واليقظة.

بعد ذلِكَ، اتَّجهَ النَّصُّ إلى عمليةِ اليقظة ﴿ثم يبعثُكُم فيه﴾، أي: يبعثُكم في النهار الذي استثمرتموه في ممارسة الذنب.

إذاً، بَدَلاً من أنْ يقولَ النَّصُ (ثم يبعثُكُمْ في النهار) قال: ﴿يعلَمُ ما

جرحتم بالنهار ثم يبعثُكُم فيه﴾ أي: قدّم النهارَ هنا ليجعلَهُ مقدِّمَة تَلفِتُ نَظَرَنا إلى المفارقات التي تصدُرُ عنّا في النهار.

والمهمُّ بَعْدَ ذلِكَ أنَّ قضيةَ الذنب وظاهرةَ اليقظة في النهار قد صاغَهُما النّصُ وفق صورةٍ فنية أيضاً، أي: الاستعارة أو الرمز، لقد رَمَزَ للذنبِ بقولِهِ: ﴿ويعلمُ ما جرحتم بالنهار﴾ فَخَلَعَ سمةَ (الاجتراح) على ممارسةِ الذنب كما خَلَعَ سِمَةَ (الانبعاث) على (اليقظةِ في النهار) لأنَّ الانبعاثَ هو سمةُ اليوم الآخر كما هو واضح.

وعندما نُدَقِّقُ في هذين الرّمزين نجدُ أنَّ الأسرارَ الفنية هما مثار للدهشة، فالاجتراحُ بالرّغم من كونِهِ (لُغَوِيًّا) هو: الاكتسابُ أو ارتكابُ الذنب، إلاّ أنَّ ارتباطَهُ بظاهرةِ (الجرح) أكسبَهُ دلالة رمزية، كما أن بَعْثَ الإنسانِ في النهار أكسب مفهومَ (اليقظة) دلالة رمزية ما دام الانبعاث يستدعي بالذهن إلى الحياة بعد الموت، فإذا قارنّا قوله تعالى بأنه: (يتوفّى الإنسان بالليل) بقولِهِ أنه: (يبعث الإنسانَ في النهار) حينئذٍ نُدرك مدى جماليةِ هذه الاستعارة المثيرةِ للانتباه فيما تَقْرِنُ بينَ موتِ الإنسانِ وبعثِهِ في الحياة الدنيا والآخرة وبين نومِهِ ويقظتِهِ في الليلِ والنهار.

بعد ذلِكَ يطرَحُ النصُ قضيةً أخرى هي: ﴿ويُرسِلُ عليكم حفظةً حتى إذا جاءَ أحدَكُمُ الموتُ توفَّتْهُ رُسُلُنا وهم لا يفرطون * ثم رُدُّوا إلى الله. . .﴾.

فبهذا الطَّرْحِ يربِطُ النصُ بوضوحٍ بينَ ممارسةِ الذَّنْبِ وبين (الحفظة) الذينَ يسجّلون أعمال الإنسان، ثم يربِطُ بينَ النومِ واليقظةِ وبين الموتِ والانبعاث في اليوم الآخر حيث لم يكتف النص برسمِ النومِ واليقظة وممارسة الذنب من خلالِ الاستعارةِ، بل أعقبَ (الاستعارة) بكلامٍ مباشرٍ عن الحَفَظَةِ الذين يُحصون الذنوبَ والرّسلِ الذين يَتَوفّون الناس، ومن ثَمَّ انبعاثُهُم في اليوم الآخر، وهو اليومُ الذي تتمُّ فيه محاسبةُ الإنسان.

ومن الواضح أن انتهاء المقطعِ إلى قضيةِ اليوم الآخر ومحاسبةِ الإنسانِ فيه يظل مرتبطاً ـ كما أشرنا ـ بمحور السورة الفكري حيث يتناول النص في مختلفِ مقاطِعِهِ السابقة سلوكَ المنحرفين المشكّكين باليوم الآخر. وهذا ما يُفصِحُ عن مدى تلاحم مقاطع السورة بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿قل من ينجّيكُم من ظُلماتِ البرّ والبحرِ تَدْعُونَه تضرّعاً وخُفْيَةً لئن أنجانا من هذِهِ لنكونَنَّ من الشاكرينِ * قلِ الله ينجّيكُم منها ومن كُلِّ كَرْب ثمّ أنتُم تشركون * قل هو القادِرُ على أن يَبْعَثَ عليكم عَذاباً من فوقِكم أو من تحتِ أرجُلِكم أو يَلْبِسَكم شيَعاً ويُذيقَ بعضَكم بأس بعضٍ أنظُر كيف نصرّفُ الآياتِ لعلّهم يفقهون * وكذّبَ به قومُك وهو الحقُّ قل لَستُ عليكم بوكيل * لكل نبإٍ مستقر وسوف تعلمون﴾ [الأنعام: ٦٣ ـ ٦٧].

هذا المقطع استمرارٌ لمقاطع سابقة تتحدث عن سلوك المنحرفين المشركين.

الجديد في هذا المقطع هو: أن يُذكِّر هؤلاءِ بالشدائِد التي يواجهونها حيثُ يدعونَ الله قائلين: ﴿لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾، ويُجيبُهُم النص: ﴿الله ينجّيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾.

في مقطعٍ أسبق قال النّصُ بأنَّ المشركين حينما يواجهون شدائِدَ الحياة يتّجهون إلى الله وينسون ما يُشركون. هنا يقول النص بأنَّ هؤلاء عندما يتّجهون إلى الله وينسَون ما يشركون حيث يدعون وحيث يستجيبُ الله دعاءَهُم، إذا بهم يُشركون من جديد.

إذاً، من حيث عمارةُ السورة جاءَ هذا المقطعُ بمثابةِ نموٌ عضويٍّ للمقطع الأسبق، أي جاءَ تكملةً له وتطويراً لفكرته. وهذا أحدُ الأسرار المُدْهِشَةِ فنياً

من حيث عمارةُ السورة الكريمة.

ويُلاحَظ (من حيث العنصر الصوري) إن النّص قد اتجه إلى صياغة صورة فنيّة لشدائد الحياة هي الرمز أو (الاستعارة) القائلة: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ فقد أعار أو رَمَزَ للبر والبحر سمة (الظلمات) التي ترمُزُ إلى التّيه والحيرة وسائِرِ المخاوِفِ التي تكتنف رحلةَ الإنسانِ في الصحراء والبحر، وأهميةُ هذا الرَّمْز أو الاستعارة أن (الظلمات) تشمَلُ كُلَّ أنواعِ الشدائد سواء أكانت ناجمةً من عمليةِ غرق في البحر أو افتراسِ الوحوش للإنسان في الصحراء أو التيه، والحيرة في الرّحلات البرية والبحريّة.

يلاحَظُ أيضاً أن عنصرَ الصورةِ يتكثَّفُ في هذا المقطع فنواجه صورةً أخرى تتصِلُ بالشدائِدِ أيضاً حيث هدّدهم النصُ بأنَّ الله تعالى: ﴿هو القادِرُ على أن يبعَثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلبسكُم شيعاً ويذيقَ بعضكم بأسَ بعض﴾. فصُورةُ من فوقكم أو من تحت أرجلكم تتضمَّنُ عنصراً إيحائياً مُرَشَّحاً بأكثرَ من دلالة، فقد تعني عذاباً مِثْلَ الصيحةِ والرّياح والحجارة بالنسبة إلى صورة (من فوقكم) وتعني الخَسْفَ وأمثالَهُ (بالنسبة إلى صورة مِنْ تحت أرجلكم)، وقد تعني تسليطَ الظالمِ على المنحرفين بحيث يجسِّم الملوكُ والرؤساء صورة (من فوقكم) ويجسِّمُ صغارُ الموظفين صورةَ (من تحت أرجلكم).

وهناك صورةٌ فنيةٌ ثالثةٌ هي صورةُ: ﴿أو يلبسَكُم شيعاً ويُذيقَ بعضكُم بأس بعض﴾ حيث تَجَسَّمَ مفهومُ الخلطِ والمزج بحيث يصبحون فِرَقاً متناحرةً تتقاتل فيما بينها.

وهناك صورةٌ فنية رابعةٌ هي: ﴿لكل نبإٍ مستقرٌ﴾ وهذه الصورةُ التي خُتِمَ بها المقطعُ تتضمَّنُ التلويحَ بالنتائج أو المصائِرِ التي سينتهي إليها المنحرفون وقد صيغت على نحو (استعارةٍ) تتمثل في خلع سمة مكانيةٍ هي (الاستقرار)

على ظاهرةٍ معنويةٍ هي: النبأُ أو الخبر حيث تستهدفُ الصورةُ أنْ تقول: بأنَّ لإخبار الله تعالى بمصائِرِكم وقتاً سوف يأتي لا محالة سواء أكان ذلك في نطاقِ الحياة الدنيا (كما هو شأنُ المصائر الكسيحة التي انتهى إليها المشركون في معركة بدر مثلاً) أو كان ذلك في نطاق العقاب الأخروي.

المهم، أن هذهِ الصور الفنيّة المختلفة التي تضمّنها هذا المقطعُ قد وُظِّفت فنياً لإنارة الأفكار المطروحة فيه، هي كونُ المنحرفين أو المشركين يَدعون الله في الشدائد لكنَّهم يشركون بعد انفراجها حيث سيترتَّبُ على مثلِ هذا السلوك جزاءٌ دنيويٌ وأخرويٌ سوف يقفونَ عليه في الزمان المحدَّدِ لها.

والمهم أيضاً أنَّ هذِهِ الأفكار ـ كما أشرنا ـ تظلُّ على صِلَة بالمقاطع السابقة التي أشارت إلى ظاهرة الشدائد وموقفِ المنحرفين منها حيث كانوا ينسون شركهم بالله ويدعونَهُ وحيث يعودون إلى شركهم بعد إجابة الدعاء، كما أوضح ذلِكَ هذا المقطعُ الذي نتحدّث عنه، فيما تفصح هذه جميعاً عن مدى تلاحُمِ السورة بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتِنا فأعرضْ عنهُم حتىٰ يخوضوا في حديث غيرِهِ وإمّا يُنسِيَنَّكَ الشيطانُ فلا تَقْعُدْ بعد الذكرىٰ مع القوم الظالمين * وما علىٰ الذين يتّقون من حسابِهِم من شيءٍ ولكن ذكرىٰ لعلهم يتّقون * وذرِ الذين اتّخذوا دينهم لَعِباً ولهواً وغرّتهم الحياةُ الدنيا وَذَكِّرْ به أن تُبسَلَ نفسٌ بما كَسَبَت ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ وإن تعدِلْ كلَّ عدلٍ لا يُؤخذ منها أولئك الذين أُبسِلوا بما كسبوا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون﴾ [الأنعام: ٦٨ ـ ٧٠].

هذا المقطعُ يتحدَّثُ عن نمطِ السلوك الذي ينبغي أن يختطّه الإسلاميون في علاقتهم مع المنحرفين. لقد حددت سورةُ الأنعام أنماطاً متنوعَةً من العلاقةِ

بينهما إلاّ أنّ الجديدَ في هذا المقطع هو: كيفيةُ التعامُلِ مع المنحرفين الذين يخوضون في آيات الله تعالى،أي أولئك الذين يطرحون الأفكارَ ليس علىٰ سبيل النقاش الموضوعي بل من أجل اللّهو والعبث. لقد طالبَ النصُ الإسلاميين بأنْ يُقاطعوا أمثلةَ هذِهِ المواقف العبثية ﴿وإذا رأيتَ الذين يَخوضونَ في آياتِنا فأعرِض عنهم حتىٰ يخوضوا في حديثٍ غيره﴾. وأهميةُ هذه المطالبةِ تتمثّلُ في انطوائِها علىٰ جملةٍ من الدلالات النفسية والفنية. فمن حيثُ الدّلالةُ الفنيةُ ينبغي أنْ نضع في الاعتبار أنّ سورةَ الأنعامِ استَهَلّتِ الحديثَ عن المنحرفينَ بكونِهِم مجادلين أو مُمتَرين ﴿ثم أنتم تمترون﴾ [المائدة: ٢] أي أنّهم يُثيرون الشُّبهاتِ غيرَ المُرتكَنَة إلىٰ المنطقِ حيثُ قدَّمَت السورةُ في حينِهِ نماذجَ من سلوكِ المنحرفين القائِمِ علىٰ المُماراة.

وها هو المقطع الذي نتحدّث عنه الآن يُنمي عُضوياً هذِهِ الحقيقةَ ليحدِّثنا عن كيفيةِ التعامُلِ مع أمثلةِ هذِهِ النماذج حيث يطالِبُ بمقاطَعَةِ المنحرفين الذين يمارسون هذا النَّمطِ من الكلام العابث.

هناك في المقاطع السابقةِ من السورة كان النصُ يَرُدُّ علىٰ العابثين ويدحَضُ مقولاتِهِم، هنا ـ في المقطعِ الذي نتحدث عنه ـ يُطالِبُنا بمقاطَعَتِهِم، فما هو السرُّ في ذلك؟ في تصوُّرِنا أنَّ لِكُلِّ موقفٍ سياقاً خاصاً، فبعضُ المواقِفِ يتطلّب الردَّ علىٰ المنحرفين وبعضُها يتطلَّبُ الإعراضَ عنهم. والدلالةُ النفسيةُ للإعراضِ تتمثّلُ في عَدَمِ تشجيعِهم علىٰ مِثْلِ هذا السلوك وفي عدم إضاعةِ وقتِ المؤمن فَضْلاً عن أنَّ الاستماعَ إلى العبثِ يترُكُ ظُلمةً في النفس. لذلِكَ نَجِدُ أنَّ النَّصَّ القرآني الكريم أخَذَ في الاعتبارِ إمكانيةَ أنْ ينسىٰ المؤمِنُ هذا الجانب فطالَبَهُ أن ينسَحِبَ من المشاركةِ حالةَ تذكُّرِهِ ذلك ﴿وإمّا يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرىٰ مع القوم الظالمين﴾. وقد عَقَّبَ النصُ علىٰ مشاركتِهِم في الجلوس بقوله: ﴿وما علىٰ الذين يَتَّقُونَ من حسابِهِم من شيءٍ

ولكن ذكرىٰ لَعلَّهُم يتّقون﴾ أي: لا حسابَ عليهم من المشارَكةِ بقدرِ ما ينبغي عَدَمُ تشجيعِهِم علىٰ ممارَسَةِ الباطل لعلّهم يُعَدِّلون من سلوكِهم إذا أرادوا الإعراضَ عنهم بصفةِ أن الإقبالَ علىٰ الاستماع إلىٰ الباطِلِ يشجِّعُ أصحابَهُ علىٰ ذلك ما دامَ الذي في قلبِهِ مرضٌ يستهدِفُ لَفْتَ النَّظَرَ إلى ذاتِهِ الكريهةِ في خوضِهِ لأحاديث الباطل.

أخيراً، خَتَمَ المقطعُ كلامَهُ عن هذا الجانب بالتأكيد ثانيةً علىٰ ضرورة مقاطعةِ المنحرفين الذين يُعْنون باللَّعبِ واللهو ﴿وَذَرِ الذين اتَّخذوا دينَهُم لَعِباً ولهواً وغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا وذكّر به أنْ تُبْسَلَ نفسٌ بما كسبت﴾. إنَّ هذا التحذيرَ ليسَ مجرَّدَ تكرارٍ بقدرِ ما هو مطالبةٌ جديدةٌ بتحديد العلاقةِ بين الإسلاميين والمنحرفين من حيثُ ضرورةُ مقاطَعَتِهم من جانبٍ وضرورة التذكير بالوظيفةِ العباديةِ للإسلاميين من جانبٍ آخر. فالنصُّ القرآني الكريمُ انتقَلَ - فنيّا - من الخاصِّ إلى العام، انتقل من الحديث عن الخوض في أحاديث الباطل إلىٰ مطلقِ الباطِلِ المتمثل فيمن اتخذوا دينَهُم لهواً ولعباً وغرّتهُمُ الحياةُ الدنيا، حيث طالَبَ بتركِ هؤلاءِ المنحرفين كما طالب بأنْ يمارسَ المسلمُ وظيفَتَه حيالَهُم في الآن نفسِهِ وذلك بتذكيرهم بالمصائر التي سينتهون إليها في حالة استمراريةِ الانحراف ﴿وذكّر به أن تُبسلَ نفسٌ بما كسبت﴾. أي التذكير بالعذاب الذي ينتظرهم في اليوم الآخر.. وأياً كان فإنَّ هذا المقطع يظل - من جانبٍ - طَرْحاً جديداً لنمط السّلوك الذي ينبغي أنْ يَختَطَّهُ الإسلاميون حيال المنحرفين كما أنَّهُ - من جانبٍ آخر - امتدادٌ لمقاطِعَ سابقة تتحدَّثُ عن شريحةٍ من سلوك المنحرفين متمثلةً في كونِهم يُعنون بالمجادلةِ والمماراةِ من أجل اللّعب واللهو حيث طَوَّر المقطعُ هذا الجانبَ عضوياً كما لحظنا.

* * *

قال تعالى: ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعُنا ولا يضرّنا ونُرَدُّ علىٰ

أعقابِنا بعد إذ هدانا الله كالذي استَهْوَتْهُ الشياطينُ في الأرضِ حيران لَهُ أصحابٌ يدعونَهُ إلى الهدىٰ ائتنا قل إنَّ هدىٰ الله هو الهُدىٰ وأُمِرْنا لِنُسلِمَ لربِّ العالمين * وأنْ أقيموا الصلاةَ واتّقوه وهو الذي إليه تُحشرون * وهو الذي خَلَقَ السماوات والأرضَ بالحق ويومَ يقولُ كن فيكون قولُهُ الحق وله المُلْكُ يوم يُنْفَخُ في الصّور عالِمُ الغيبِ والشهادةِ وهو الحكيمُ الخبيرُ﴾ [الأنعام: ٧١ ـ ٧٣].

هذا المقطعُ امتدادٌ لمقاطِعَ سابقةٍ تتحدّثُ عن سلوكِ المشركين والردِّ عليهم. الجديدُ في المقطع هو: الرَّدُّ على المشركين من خلالِ مناقَشَتِهم لمفهومِ الشرك وانسحابِ آثارِهِ علىٰ الشخصية. ضمن ذلك يطرَحُ النَّصُّ جملةً من الظواهر التي يستهدفُ توصيلها إلى المتلقّي في سياقِ الفكرة العامّة للنص منها: إبداعُ السماء والأرض، النفخُ في الصور، الحشر، المُطالبةُ بالصلاة وبالاتّقاء عامة. طبيعياً، ينبغي التذكيرُ بأنّ أهميةَ الفن هي: أن تُطرَحَ مختلفُ الموضوعات ضِمْنَ كلِّ مقطعٍ جديد ثم تُصَبُّ في النهاية في الفكرةِ العامة للنص. ويُلاحَظُ أنَّ الموضوعَ العامَّ للنص ـ وهو ظاهرةُ الشرك والتشكيك والمجادلةِ وإيثارِ المتاع الدنيوي فيما تقترِنُ جميعاً بظاهرةِ الشرك ـ قد طَرَحَهُ النّصُّ هنا في صياغةٍ جديدةٍ تربِطُ بينه وبين مفهومِ التوحيد عند الإسلاميين حيث يقومُ النص بعملية مقارنة بين المفهومين (الشرك والتوحيد) وانسحاب كلٍّ منهما علىٰ مصائِرِ الشخوص وذلك من خلال لغةٍ (مصوَّرةٍ) أي: لغة قائمة علىٰ مفهوم (الصورة الفنية) متمثلةً في صورتي (الرمز) و(التشبيه).

يقول النص: **﴿قل أندعوا من دونِ الله ما لا ينفعُنا ولا يضرّنا ونُرَدُّ علىٰ أعقابنا بَعْدَ إذ هدانا الله كالذي أستهوتْهُ الشياطينُ في الأرض حيرانَ لَهُ أصحابٌ يدعونه إلى الهُدىٰ ائتنا﴾**.

الصورة الرمزية هي صورةُ **﴿نُرَدُّ على أعقابنا﴾**، والصورةُ التشبيهيةُ هي صورةُ **﴿كالذي استهوتهُ الشياطين. . .﴾** أما صورةُ **﴿نُرَدُّ علىٰ أعقابنا﴾** فَتَرْمُزُ

إلىٰ الارتداد عن الدين أو التوحيد حيث أنَّ النّصَ ينقُلُ لنا كيفيةَ مناقشةِ الإسلاميين للمشركينَ الذين يجادلونَهُم في توحيدهِم أو يطالبونهم بمشاركةِ الرأي في الاتجاهاتِ المنحرفة فيما طالَبَ النصُ الإسلاميين بأن يُنكِروا ذلك لأنَّهُ عودة إلى الوراء، بَعْدَ أنْ هداهُم الله للإيمان حيث أنَّ الرَّدَّ على الأعقاب يُجَسِّدُ مفهومَ العودةِ إلى الضَّلالِ أدَقَّ تجسيدٍ كما هو واضح.

وأمّا (التشبيه) أي: أنَّ التشبيهَ للعودةِ إلى الوراء بمن تستهويه الشياطين وهو حيرانُ مقابِلَ كونِهِ ذا أصحابٍ يدعونه إلىٰ الهدىٰ.

هذا التشبيهُ ينطوي علىٰ أهمية فنية كبيرة في هذا الميدان. فهو أولاً يوضِّحُ ـ بصورة غير مباشرة ـ بأنَّ (الشيطان) ـ وليس التفكير المنطقي ـ هو الذي يستهوي الشَّخْصَ ويَدَعُهُ حيرانَ لا يهتدي إلىٰ سبيل الحق، ويوضِّحُ ثانياً بأنَّ القوىٰ التي تقابِلُ الشيطان وتجاهِدُهُ هي القوىٰ الحقةُ التي تدعو الإنسانَ إلىٰ سبيلِ الهدىٰ **﴿له أصحابٌ يدعونه إلى الهدىٰ ﴿ائتنا﴾**. هنا ينبغي ملاحظة بُعْدٍ فنيّ آخر هو هذا الحوارُ القائِمُ بين الشَّخصِ وبين الأصحاب الذين يقولون له: (ائتنا) حيث يجسِّدُ هذا الحوارُ طبيعةَ الصّراع الذي يحياه الإنسانُ بين (شياطين) تستهويه وبينَ قوىٰ مضادةٍ تقولُ لهُ: (ائتنا). فصياغةُ هذه الحقيقة من خِلالِ عبارةُ (إئتنا) تكشِفُ بأنَّ القوىٰ الخيِّرةَ حريصةٌ كُلَّ الحِرْصِ علىٰ أن تحتضن المؤمِنَ حيث تهتِفُ قائلةً (ائتنا) في حين أنَّ الشيطان لا يملِكُ إلاّ أن يستهويَ الشَّخصَ بطريقٍ أو بآخر. إنه يستهويه فحسب ويَدَعُهُ حيران **﴿كالذي استهوته الشياطينُ في الأرض حيرانَ﴾**.

إذاً، جاءت صياغةُ الحوار من خلالِ عبارةِ (ائتنا) في قوله تعالى: **﴿له أصحابٌ يدعونه إلى الهدىٰ ائتنا﴾** ذاتَ دلالةٍ فنيةٍ ونفسيةٍ بالغةِ المدىٰ من حيث المعطياتُ التي تنطوي عليها قوىٰ الإيمان مقابِلَ النزعةِ الشريرة التي تنطوي عليها قوىٰ الشيطان.

المهم، أنَّ هذِهِ الصوَر الفنية (الردَّ على الأعقاب، استهواء الشياطين، محاوَرةَ قوىٰ الإيمان) تظل (من حيثُ عمارةُ السورة القرآنية الكريمة) تظلّ علىٰ صلةٍ بالفكرةِ العامَّة للسورة التي تحومُ علىٰ إبراز سلوك المنحرفين عِبْرَ مفهوماتِ الشرك والتشكيك والمجادلة وسواها من أنماطِ السلوك المنحرف حيث يحاولُ النص في كلِّ مقطعٍ أن يعرِضَ جانباً ومنها وفق طرحٍ جديدٍ لها مما يُفصِحُ ذلِكَ عن مدىٰ تلاحُمِ النص في مختلفِ مقاطِعِه.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ أتتّخذُ أصناماً آلهةً إنّي أراكَ وقومَكَ في ضَلالٍ مبين * وكذلك نُري إبراهِيمَ ملكوتَ السماوات والأرضِ وليَكونَ من الموقنين * فلما جَنَّ عليهِ الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربّي فلما أفَلَ قالَ لا أُحبُّ الآفلين * فلما رأىٰ القمرَ بازغاً قال هذا ربّي فلمّا أفَلَ قال لئِنْ لَم يهْدِني رَبّي لأكوننَّ من القوم الضالّين * فلما رأىٰ الشمسَ بازغة قال هذا ربّي هذا أكبرُ فلما أفلَت قالَ يا قومِ إنّي برَيء مما تُشرِكُونَ * إنّي وجَّهت وجْهِي لِلَّذي فطَر السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا مِنَ المُشركين﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩].

هذا المقطعُ وما بعدَه من سورةِ الأنعام، ينطوي علىٰ عنصرٍ قصصيٍ هو: أقصوصةُ إبراهيم(ع) من حيثُ علاقتُه مع أبيهِ وقومهِ المشركين ومن حيثُ نمط شخصيتهِ الفكرية التي حدَّدَت علاقتَها بالله تعالى وبتوحيدِه وفقَ خصوصيةٍ تمَيَّزَ بها إبراهيم(ع).

وقبلَ أن نتحدَّثَ عن هذه الأقصوصةِ، ينبغي أن نُشيرَ إلى موقعِها الهندسي من عمارةِ السورة، حيث أنَّ سورةَ الأنعامِ منذُ بدايتِها طرحَت قضيةَ الشركِ، واستمرَّتْ في هذا الطَرحِ حتىٰ جاءَت هذه الأقصوصةُ لِتُوظَّف ـ فنياً ـ في إنارةِ هذه القضيةِ: قضية الشرك وما يقابلُه من التوحيدِ.

إذاً، من حيثُ عمارةُ السورة جاءَت الأقصوصةُ لتحتلَّ موقعاً مُحكماً من بناءِ السورةِ الكريمة.

وأمّا بناء الأقصوصةِ ذاتها فينطوي بدورِه علىٰ أسرارٍ فنيةٍ ينبغي الوقوف عندَها ولو عابراً.

لقد استُهِلَّتِ القصة بحوارِ إبراهيمَ(ع) لأبيه **﴿أتتَّخذُ أصناماً آلهة انّي أراكَ وقومَك في ضلال مبين﴾** فلماذا انتُخبَ إبراهيمُ(ع) دونَ غيرِهِ من الأنبياءِ في هذِهِ الأقصوصة؟

في تصوُّرِنا الفني أنَّ لذلِكَ أسراراً، فاسمُ إبراهيمَ يرتبطُ بالحنيفيةِ، وبكونِه خليلَ الله تعالى، وبكونِه مرتبطاً ببناءِ الكعبة، وبكونِه جدّاً واضحُ الانتسابِ إليه من قِبَل أكثر الطوائف. وهذا من حيثُ الشخصية.

وأما من حيثُ الارتباطُ بالموقفِ الذي صيغَت الأقصوصةُ من خلالِهِ ونَعني به: طرحَ مفهومِ الشركِ والموقفِ التوحيديِ حيالَه، فإنَّ ارتباطَ إبراهيم بأبيهِ (سواءاً كان هذا الأبُ هو عمّ إبراهيم أو جدَّه لأمه) وهو: (آزر) فَرضَ فنياً انتخابَ إبراهيمَ بطَلاً للأقصوصةِ دون غيرِهِ، طالما كان (آزر) مشركاً، وكانت السورةُ الكريمةُ في صَددِ طرحِ مفهومِ الشرك كما قُلنا. كما أنَّ إبراهيمَ قد تَمَيَّز عن غيرِه بأنَّهُ كانَ أمّةً وحْدَه حيثُ واجهَ مجتمعاً مشركاً بأكملِه بما في ذلك (آزرُ) الذي ينتسِبَ إليه بأقربِ الروابط، عدا زوجتِهِ ولوطِ اللّذينِ آمنا بالله تعالى. حينئذٍ فإنَّ انتخابَهُ شخصيةً منفردةً قبالة الشرك، يُجسّدُ دلالةً فنيةً في هذا الصدد ما دام الشركُ ومواجهتُه هو المطروحَ في فكرةِ السورة الكريمة. ولعلَّ الأهم مَن ذلك كلِه، أنّ الموقفَ الفكريَ لإبراهيمَ وهو ما طرَحتهُ السورةُ ـ كما سنرىٰ ـ من خلال محاورتِه مع نفسِهِ عندما واجَهَ كلاً من الكوكب والقَمرِ والشمسِ وانتهىٰ إلى رَفضِها حيثُ عقَّبَ على ذلك: **﴿إنّي وجَّهْتُ وجهيَ للَّذي فَطَر السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركينَ﴾** هذا الموقفُ الفكريُ

لإبراهيم يجسّدُ مسوّغاً فنياً كبيراً في انتخابهِ بطَلاً للأُقصوصةِ ما دامَت الأقصوصةُ ـ كما قلنا ـ قد وُظّفتِ فنيّاً لإنارةِ فكرةِ السورةِ الكريمةِ: فكرةِ الشرك ومواجهته.

يُضافُ إلى ذلك، أنَ نمَطَ مواجهةِ إبراهيمَ للشركِ من حيثُ استدلالاتُه المتنوعةُ التي ذُكِرتْ في هذهِ السورة وفي سُوَرٍ أخرىٰ، هذه الاستدلالاتُ التي أَخذَتْ صيغاً مختلفةً، بعضُها يَأخذُ صيغةَ الحوارِ مع النَفْسِ (أي: الحوار الداخلي)، وبعضُها يأخُذُ صيغةَ الحوارِ مع آزرَ أبيهِ، وبعضُها الثالثُ يأخُذُ صيغةَ الحوارِ مع قومِه ومجتمعهِ. كل أُولئك تشكل مسوّغاتٍ فنيةً لجعل إبراهيم(ع) دونَ سواهُ هو البَطَل لهذهِ الأقصوصة، وهو أمرٌ يكشفُ عن مدَىٰ خُطورةِ هذه الأسرارِ الفنيةِ التي اكتنَفت صياغةَ إبراهيمَ(ع) بطَلاً لأقصوصةٍ تحفَلُ بأسرارٍ فنيةٍ أخرىٰ نقفُ عليها لاحِقاً، هذا فَضْلاً عن الأسرارِ المتصلةِ بعمارةِ السورةِ الكريمة فيما قُلنا:إنَّ فكرتَها تقومُ أساساً علىٰ طرحِ مفهومِ الشرك ومواجهته بمختلفِ المواقفِ التي عرَضتْها المقاطعُ السابقة من السورة مما يكشِفُ ذلك عن مدَىٰ جماليةِ النصِ وصلةِ أجزائه بعضاً معَ الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ أتتّخذُ أصناماً آلهةً إنّي أراكَ وقومَكَ في ضَلالٍ مبين * وكذلك نُرِي إبراهِيمَ ملكوتَ السماوات والأرضِ وليَكونَ من الموقنين * فلما جَنَّ عليهِ الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربّي فلما أَفَلَ قالَ لا أُحبُّ الآفلين * فلما رأىٰ القمرَ بازغاً قال هذا ربّي فلمّا أفَلَ قال لئِنْ لَم يهْدِني رَبّي لأكوننَّ من القوم الضالّين * فلما رأىٰ الشمسَ بازغة قال هذا ربّي هذا أكبرُ فلما أفلَت قالَ يا قومِ إنّي بَرِيء مما تُشرِكُونَ * إنّي وجّهت وجْهِي لِلَّذي فطَر السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا مِنَ المُشركين﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩].

لَحَظْنا جانباً من الأسرارِ الفنيةِ لانتِخابِ إبراهيمَ(ع) بطلاً لهذه الأقصوصة. أمّا أحْدَاثُ الأقصوصةِ ومواقفُها ذاتُها فتنطوي بدورِها علىٰ أسرارٍ فنيةٍ ينبغي الوقوفُ عنْدَها. حيثُ اتَّخذَت المحاورةُ صياغةً خطابيةً علىٰ صورةِ استفهامٍ أو إنكارٍ، وهو أمرٌ ينسجمُ مع طبيعةِ الموقفِ المنحرفِ الذي صدَر عنه (آزرُ) ما دامَ قد اتَّخَذ الأصنامَ آلهةً له.

ويُلاحَظُ أنَّ إبراهيمَ(ع) بعد أنْ أنكرَ علىٰ آزرَ هذا السلوكَ، عقّب عليه قائلاً: ﴿إنّي أراكَ وقومَكَ في ضَلالٍ مبينٍ﴾. من حيثُ الصياغةُ الفنيةُ لهذا الحوارِ، نجدُ أوّلاً أنَّ عنصُر الحوارِ ساهَمَ في الكشفِ عن ظاهرةٍ خاصةٍ لم يتضمَّنْها القسمُ الأولُ من الحوار وهو تساؤلُ إبراهيمَ: ﴿أتتخذ أصناماً آلهةً؟﴾ بل إن القسمُ الآخر من الحوار وهو قولُه: ﴿أني أراكَ وقَومكَ﴾ كشفَ عن هذه الظاهرةِ ونَعنِي بها (قوم آزر) أي: أنّ إبراهيمَ استنكرَ من أبيه اتخاذَ الأصنام ثم ألْحَقَ قومَه بأبيهِ في القسم الثاني من الحوارِ وهو أمْر له أهميتُه الفنيةُ من حيثُ الصياغة، أما المسوّغُ الفني لأن يختص القسمُ الأول من الحوارِ بتوجيهه إلى آزَر فحسب فلأن العلاقةَ المباشرة بين إبراهيم وآزر تسمحُ بمثل هذا التوجيه بينا لا يمكنُ أن يوجِّهَ خطابَه لقومِ آزر كما هو واضحٌ. وأما المسوّغُ الفني لأن يَذكُرَ إبراهيمُ قومَ آزر في القسم الآخِرِ من حوارِه فلأن آزرَ بعد أن أُحيطَ بحقيقةِ الموقفِ كان من الطبيعي أن يُلفِتَ نظره إلى أنَّ قومَه مشمولون بنَفسِ السمةِ التي خَلَعها إبراهيمُ عليهم وهي سمةُ (الضلالِ المبين). هنا نواجهُ سمةً فنية ثالثة في هذا الحوارِ وهو: أن سمة (الضلال) لم يرسِمْها النصُّ في القسمِ الأولِ من الحوارِ بل جعَلَها مشتركةً في القسمِ الآخر حتّى يتحقَّقَ الاقتصادُ اللغوي.

بعد ذَلك اتَّجَه النصُ إلى رسمِ حقيقةٍ تتصلُ بسلوكِ إبراهيمَ نفسهِ وليسَ بسلوكِ أبيهِ وقومهِ، فقال: ﴿وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السماواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين﴾. هذه الآيةُ أو التعقيبُ القصصي علىٰ سلوكِ إبراهيم مع

أبيه وقومه، تثيرُ أكثر مَن تساؤلٍ فنيّ. فالمتلقي قد استكشفَ من حوارِ إبراهيمَ مع أبيهِ وقومِه أن إبراهيمَ(ع) يمتلك بصيرةً خاصة هي: عدم الإيمان بالأصنام، وعدّها نوعاً من الضلال المبين. أمّا ما هي خصائصُ هذه البصيرةِ الفكرية فأمرٌ لا يعرفُ المتلقي عنه أيَّ شيء. لكن عندَما عقَّبَ النصُ علىٰ ذلك بقولهِ: ﴿وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السماواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنينَ﴾ حينئذٍ بدأ المتلقي يدركُ جانباً من الحقيقةِ وهو: أنَّ الله تعالى أطلَع إبراهيم(ع) علىٰ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ مما يَعْني أنَّه(ع) يختصُّ بموقعٍ عباديٍ عندَ الله تعالي بحيثُ يطلعُه على ملكوتِ السماواتِ والأرض. كما يستكشف المتلقي بأنَّ مَسحةَ (اليقين) في الأيمانِ هي التي طَبعتْ فكرَ إبراهيمَ(ع) ﴿وليكونَ من الموقنين﴾. فما دامَ إبراهيمُ قد استَشْرَف ملكوتَ السماواتِ والأرْضِ حينئذٍ لا بُدَّ أنْ يكونَ من الموقنينَ. بيْد أنَّ الأهمَّ من ذلك هو أنَّ عبارةَ ﴿وليكونَ من المُوقنين﴾ سوف تحتلُّ موقِعاً عضوياً من عمارةِ هذه الأقصوصةِ له أهميتُه الكبيرةُ بالنسبةِ إلىٰ الأحداثِ والمواقفِ اللاحقةِ التي ستكشفُ عنها الأقصوصةُ، حيثُ أن مواجهتَه للكوكبِ والقمرِ والشمسِ ومحاورتَهُ مع نفسهِ حيالَ هذه الظواهرِ التي استدَلَّ من خِلالِها علىٰ وحدانيةِ الله تعالى، هذه المواجهةُ والاستدلالُ يظَلانِ علىٰ صلةٍ فنيةٍ بسمةِ (اليقينِ) التي خَلَعها النصُ عليه﴿وليكونَ من الموقنين﴾، هذا فَضْلاً عن أنَّ سِمةَ(اليقين) ، مِن حيثُ صلتُها بعمارةِ السورةِ الكريمةِ (سورة الأنعام) تَظَلُّ من الوثاقةِ بمكانٍ كبيرٍ ما دامَ النصُ قد طَرَحَ قضيةَ (الشرك) وما يقابِلُه مِن (التوحيد) عصَباً فكرياً تحومُ عليه موضوعاتُ السورةِ، مما يكشفُ ذلك كلُّه عن مدىٰ تلاحُمِ أجزاء النص بعضه مع الآخرِ بالنحوِ الذي لَحظناه، وبالنحوِ الذي سنلحظُه لاحقاً (إن شاء الله).

* * *

قال تعالى: ﴿فلما جنَّ عليه الليلُ، رأىٰ كوكباً، قال: هذا ربّي فلمَّا أَفَل

قال لا أحبُّ الآفلينَ * فلما رأىٰ القمرَ بازِغاً قال هذا ربّي فلما أفَل قالَ لئنْ لم يهدِني ربّي لأكونَنَّ من القوم الضالّين * فلما رأىٰ الشمسَ بازغةً قالَ هذا ربّي هذا أكبرُ فلما أفلَت قال يا قَوْمِ أنّي بريءٌ مما تُشركونَ * إنّي وجّهتُ وجهي للّذي فطَر السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا منَ المشركين﴾.

هذه المحاورةُ التي تنقُلُ لنا حديثَ إبراهيم مع نفسه عند رؤيتهِ لكُلٍ من الكوكبِ والقمر والشمس، ليس من السّهلِ أن تتحدَّدَ دَلالتُها بقدرِ ما تظلُّ خاضِعَةً لإمكاناتٍ وإيحاءاتٍ متنوعة. إن النصوصَ المفسِّرةَ تتفاوَتُ في تحديدِ هذه المحاورة فبعضُها يذهَبُ إلى أنَّ هذه المحاوَرةَ تمَّتْ في صِغَرِ سِنّهِ وبعضُها يذهبُ إلى أنّها تمت في كبَرِ سنّهِ. وفي هذا النّطاقِ تذهَبُ بعضُ النصوصِ إلى أنَّ ذلِكَ تمّ علىٰ نحوِ الفرضيةِ ليَخْرُجَ من الاستدلالِ إلىٰ يقينٍ علمي، ويذهَب البعضُ الآخَرُ منها إلى أنَّ هذا الاستدلالَ هو: استفهامٌ إنكاريٌ حُذِفَت أداتُه، ويذهَبُ بعضٌ منها إلى أنّه موجّهٌ إلى قومِه علىٰ سبيلِ السخريةِ من عبادتِهم للأوثانِ وللكواكبِ، كما أنَّ هناك من النُصوصِ المفسِّرة ما يشيرُ إلىٰ أنّه(ع) عندَما انتهىٰ من استدلالهِ المذكورِ، عَقَّبَ النصُ علىٰ ذلك بقولِه: ﴿وكذلك نُري إبراهيمَ ملكُوتَ السماواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين﴾. إلا أنَّ الملاحظَ أن هذه الآيةَ ذُكِرَت قبل هذه المحاورةِ وهو أمرٌ قد لا يَنسجمُ فنياً مع عمارة المقطع، إلا إذا قُلنا بأنَّ هذه الآيةَ تمثّلُ ـ في المفهومِ القصصي ـ صياغةَ الموقفِ من خاتمتِه. ثم الارتداد من الخاتمة إلى بدايةِ الموقف.

وأياً كان الأمرُ، فنحنُ نَحتمِلُ ـ فنياً ـ أن تكونَ هذه المحاورةُ نَوعاً من العملياتِ الذهنيةِ التي طالَما يلجأُ الإنسانُ إليها عندَما يفكّرُ مع نَفْسِه حيالَ ما يواجِهُه من مواقفِ الناس حيثُ يَستحضِرُ في ذهنِهِ استدلالاتِ النّاسِ ويناقِشُها ذهنياً كما لو افترضنا أنَّ إبراهيم(ع) قد استحضَرَ في ذهنه كيف أنّ الوثنيين قد اتخذوا هذا الوثنَ أو ذاك شريكاً لله تعالى فتساءَلَ مع نفسِه عندما رأىٰ

الكوكَب: هل هذا يَملِكُ فاعليةَ الحركةِ والإبداعِ والإرادةِ والهيمنة... الخ، فقال لنفسِه: لا، لأنه قد أَفَلَ. وكذلك عندما شاهَدَ القمر ووجدَهُ أكبر حَجْماً من الكوكب كرّر نفسَ التساؤل وعقّب عليه بنفسِ التعقيب، وهكذا بالنسبةِ للشمس التي وجدَها أكبرَ من القمر أيضاً، فكرَّر نفسَ التساؤلِ ونفسَ الإجابة. ثم عَقَّبَ على ذلك قائلاً: ﴿إنّي وجهتُ وجهيَ للذي فطَر السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾.

ومما يعزّزُ هذه الوجهةَ من النظرِ التي احتملناها هو تعليقُ إبراهيم علىٰ رؤيتِه للقمر حيث قال: ﴿لئن لم يَهْدِني ربّي لأكونَنَّ من القوم الضالين﴾، فقوله(ع) (لئن لم يهدني ربي) يتنافىٰ مع صحةِ التشكيك، فلو كان معتقِداً ـ في لحظة الاستدلال ـ بإمكانيةِ ربوبيّة القمر لما قال: (لئِن لم يَهْدِني ربي) وهذا يَعني أنّه(ع) معتقدٌ كل الاعتقادِ بالله تعالى لأنه طلبَ الهدايةَ منه وأنّ رؤيَتَهُ للقَمر وتساؤُلَه عن فاعليةِ هذا القمر إنما كانت مجرَّدَ استحضارِ ذهني لمناقشةِ أفكار الناس.أي أنّهُ(ع) عندَما شاهَد القمر خاطبَ نفسَه قائلاً: هل يملِكُ القمرُ فاعلية الربوبية؟ فأجابَ: كلاّ، لأنّه آفِل. ثم استمرَّ مخاطِباً نفسه لئن لم يهدِ الله الإنسانَ ليكوننَّ من القوم الضّالين.

إذاً، ما احتملناهُ فنياً ينسجِمُ ليسَ مع واقعِ شخصيةِ إبراهيم(ع) فحسب بل إنَّ النصَ القَصَصيّ نفسَه ساعَدَنا علىٰ هذا الاحتمالِ وذلك من خلال تعليق إبراهيمَ علىٰ استدلالِه بالقول: ﴿لئنْ لم يهدني ربّي لأكونَنَّ من القوم الضالين﴾. وهذا واحدٌ من أسرارِ الفنّ القرآني المُدهشِ المرتبط بالإحكام الهندسي للقصةِ القرآنية وللسورةِ القرآنية الكريمة حيث أنَّ أجزاءَ النَّصِ يُلقي بعضُهُ إنارةَ علىٰ الآخر وحيثُ أن مقدّمة القصةِ نَفسها أوضحَت بأنَّ إبراهيمَ قد قالَ لآزر: ﴿إنّي أراكَ وقومَكَ في ضلالٍ مبين﴾ وها هو إبراهيمُ نفسهُ يقولُ في استدلاله ﴿لئن لم يَهْدِني ربّي لأكونَنَّ من القوم الضالّين﴾ فعبارةُ (القوم

الضالين) هنا تتآزرُ فنياً مع العبارةِ التي استُهلَّت بها قصةُ إبراهيم ﴿أراكَ وقومكَ في ضلالٍ مبين﴾. كلُ أولئك يكشفُ ـ كما قلنا ـ عن مدىٰ تلاحم أجزاءِ النص بعضه مع الآخر، بالنحو الذي أوضحناهُ.

* * *

قال تعالى ـ في أقصوصة إبراهيم ـ: ﴿وحاجَّه قومُه قال أتحاجّونيّ في الله وقَد هَدانِ ولا أخافُ ما تشرِكونَ بِهِ إلاّ أن يشاءَ ربّي شيئاً وَسِعَ ربّي كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكّرون * وكيفَ أخافُ ما أشركتُم ولا تخافونَ أنكَم أشركتُم بالله ما لم ينزّلْ به عليكم سُلطاناً فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إنْ كُنتم تعلمُون * الَّذينَ آمنوا ولم يَلبسُوا إيمانَهم بظُلمٍ أولئك لَهُمُ الأمنُ وهم مُهتدون * وتلك حجتُنا آتينَاها إبراهيمَ علىٰ قومِه نَرفعُ دَرجاتٍ من نَشاء أنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليم﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٣].

لقد بدأت أقصوصة إبراهيم بمناقشتِهِ أباهُ وقومَه علىٰ سلوكِهم الوثني ثم عَرضت الأقصوصةُ استدلالَ إبراهيم (في قضية الكوكبِ والقمرِ والشمس) علىٰ توحيد الله. وها هي الأقصوصةُ تربِطُ من جديدٍ بين مناقشةِ إبراهيمَ السابقةِ وبين مناقشةٍ جديدة مع قومه، حيث حاجَّهُ قومُه من خلالِ تخويفهم إيّاهُ من ترْكِ عبادةِ الأصنام، هنا أجابَه إبراهيمُ قائلاً: ﴿وكيفَ أخافُ ما أشركتُم ولا تخافونَ أنّكم أشركتُم بالله﴾. إن هذه المناقشةَ امتدادٌ للسمةِ الفكريةِ التي خلَعتْها الأقصوصةُ علىٰ شخصيةِ إبراهيمَ، وهي سمةُ (الاستدلالِ) المنطقي. لقد خوّفوهُ من تركِ عبادةِ الأصنامِ، وهو أمرٌ يُسعفُ إبراهيم(ع) بأن يَرُدَّ عليهم بوضوحٍ بأنّهُ كيفَ يخافُ من أصنامٍ عديمةِ الفاعليةِ ولا يخافُونَ من الله تعالى؛ هذه المعادلةُ الواضحةُ أردفها إبراهيم(ع) بنتيجة منطقية هي ﴿فأيُّ الفريقَينِ أحقُ بالأمْنِ﴾، أي، إذا كان الأمرُ هو توفيرَ (الأمن) للإنسانِ، حينئذٍ فَإنَّ الأمنَ لمتوفّرٌ في الاتجاهِ المؤمِن بالله، لكونه يملكُ فاعليةَ التحقيقِ، وليسَ في

الاتجاهِ الوثني الذي يفتقدُ الفاعليةَ تماماً.

هنا يتدخَّلُ النصُ ليعقّبَ علىٰ مناقشةِ إبراهيمَ مع قومه في قضية (أيّ الفريقين أحق بالأمن) فيقول: ﴿الذين آمنوا ولم يلبِسُوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمنُ وهم مُهتدون﴾. هذا التعقيبُ له أهميتُه الكبيرةُ في ميدانِ الأدبِ القصصي. فما دامَ الحوارُ بين إبراهيمَ وقومه قد ارتكن إلى استدلال منطقي من قِبل إبراهيم ومن ثمَ قد طرح سؤالاً هو: (فأي الفريقين أحق بالأمن) حينئذٍ لا بدّ من إجابةٍ علىٰ هذا السؤال، لذلك ـ فإن لغة الفن ـ تتطلّب أن يتدخل النص أو إبراهيم ـ في تقديم الإجابة، وهو ما لحظناه في قوله تعالى ـ تعقيباً علىٰ أيّ من الفريقين أحق بالأمن ـ بأنّ الفريق المؤمن بالله تعالى هو الأحق بالأمن ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن﴾. من هنا، يمكننا أن نرجّح ـ من خلال لغة الفن القصصي ـ التفسير الذاهب إلى أن هذا الكلام ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن﴾ هو تعقيبٌ من النص مقابل الاتجاه التفسيري الذاهب إلى أن هذا الكلام هو تعقيب إبراهيم نفسه، حيث أنّ هذا الاتجاه يمكن ترجيحه أيضاً ما دام الأمر يتطلب جواباً لسؤالٍ في غاية الأهمية.

وأيّاً كان الأمر، فإن هذه الإجابة ـ مضافاً إلى الاستدلالات السابقة ـ تشكّل ـ كما قلنا ـ سمة فكرية خلعها النص على إبراهيم(ع)، وهذا ما أوضحه النص القرآني نفسُهُ حينما عقّب علىٰ مناقشات إبراهيم قائلاً: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم علىٰ قومه، نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ أي: أن هذه السمة الاستدلالية قد آتاها الله إبراهيم(ع) وأنه تعالى يرفع من يشاء من عباده درجاتٍ بالنسبة لأداءِ الرسالة. لذلك ختم النصُ هذه الأقصوصة بالإشارة إلى آباء إبراهيم وذريته مِمَن آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة بدءً من نوح وامتداداً إلىٰ إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسىٰ،

هارون، زكريا، يحيىٰ، عيسىٰ، إلياس، إسماعيل، اليسع، يونس، لوط. معقباً علىٰ ذلك بقوله **﴿ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾** [الأنعام: ٨٨]. ثم ختم الأقصوصة، من خلال الربط الفني بين هؤلاء الشخوص المصطفين وبين محمد(ص) من حيث أداء الرسالة.

طبيعياً ينبغي ألاّ نغفُلَ عن أهميةِ مثلِ هذا الرّبط من جانبٍ وبين العُنْصُرِ القَصَصيّ الذي عَرَضنا لَهُ من جانبٍ، من حيث صلةُ ذلك بعمارة السورةِ القرآنية الكريمة (سورة الأنعام) حيث لَحَظنا كيف أنَّ هذِهِ السّورةَ تحومُ فكرتُها علىٰ عَرْضِ مواقف الشرك والتوحيد وكيف أنَّ قِصَّةَ إبراهيم(ع) قد وُظِّفَت فنياً لإنارة هذا الجانب، ثم لَحَظنا كيفيةَ الرَّبْطِ بين نهاية الأقصوصة **﴿ذلك هدىٰ الله يهدي به من يشاء من عباده ولو اشـركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾** وبين محور السورة الكريمة، مما يُفصِحُ بوضوحٍ عن مدىٰ إحكام النَّص وجماليتِهِ من حيث تلاحم أجزاء السورة بعضها مع الآخر.

* * *

قال تعالى: **﴿وما قدروا الله حقَّ قدرِه إذ قالوا ما أنْزَلَ الله علىٰ بشَرٍ من شيءٍ قُل من أنْزَلَ الكِتابَ الذي جاءَ به موسىٰ نوراً وهدىً لِلنّاسِ تجعلونَهُ قراطيس تُبدونَها وتخفونَ كثيراً وعُلِّمتُم ما لَم تَعلموا أنتُم ولا آباؤُكم قُلِ الله ثم ذَرْهمُ في خَوْضِهم يلعَبون﴾** [الأنعام: ٩١].

هذا المقطع يتحدث عن جانبٍ جديد من سلوك المنحرفين، ألا وهو إنكارهم نزول الرسالات على البشر. لقد كانوا قبلاً ـ في سورة الأنعام ـ يُنكرون رسالة محمد(ص)، ويتهمون الرسالة بالأساطير، ويستعينون بالكتابيين في نكران رسالة الإسلام. أما الآن فينكرون نزول الرسالات علىٰ البشرِ أساساً، وها هو النص يقدّم نموذجاً من الحقائق التي تدمغ أمثلة هذا الادعاء ونعني به

قولَهُم: ﴿ما أنزل الله علىٰ بشرٍ من شيءٍ﴾. ـ يجيب النص هؤلاء بقوله ـ: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ﴾.

هذه الإجابة لها أهميتها الفنية الكبيرة من زوايا متنوعة بخاصة فيما يتصل بالبناء الهندسي للسورة، حيث لحظنا ـ في مقطع أسبق ـ أن هؤلاء المنحرفين (أي: المشركين) ينكرون رسالة محمد(ص) من خلال الركون إلىٰ أقوال الكتابيين في زعمهمُ القائل بأنهم سألوا الكتابيين عن أوصاف محمد(ص) في كُتُبهم فانكروا ـ أي الكتابيين ـ وجودَ ذِكرٍ له(ص). وهذا يعني أن المشركين قد أقرّوا بنزول رسالاتٍ سابقة. والآن يُنكرون نزول الرسالات أساساً، أليس هذا الإنكارُ مُضَاداً لإقرارهم سابقاً بنزول الرسالات؟ لذلك جاءَ هذا المقطَعُ الذي نتحدث عنه الآن، مذكّراً إيّاهم بالحقيقة التالية: ﴿قل مَن أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ﴾. إذاً، هذه الإجابة تدمَغُ المنحرفين وتجعل إنكارَهُم لنزولِ الرسالات أمراً لا قيمةَ له ما دام إنكارُهُم يتناقَضُ مع ادعاءاتهم كما هو واضح.

بعد ذلك، يتقدَّمُ النَّصُّ إلىٰ عَرْضِ الأسباب الكامنةِ وراء ذلك فيقول: ﴿تجعلونه قراطيسَ تبدونَها وتخفون كثيراً﴾. إن الكتابيين ـ وهم يساهِمون مع المشركين في مناهضتهم لرسالة الإسلام ـ يُظهرون مِن كُتُبِهِم شيئاً و يُخفونَ منها شيئاً آخر، ومما يخفونه هو عَدَمُ إبراز الإشارةِ إلىٰ رسالة الإسلام التي بشّرت بها كُتبهم، أو أنهم أبرزوا ذلك، لكنَّ المشركين ـ إمعاناً في الإنكار ـ يتجاهلون هذه الحقيقة. وفي الحالين ـ سواءٌ أكان الكتابيون (اليهود منهم بخاصة) هم الذين تُعنيهم هذِهِ الآية أو كان المشركون هم المعنيّين ـ فإنَّ إنكارَهُم لنزولِ الرسالات أساساً يظل أمراً لا قيمةَ له ما دام متناقِضاً مع ادعاءاتهم ذاتِها كما لحظنا.

بعد ذلك عقّب النصُ علىٰ هذا النمط من سلوك المنحرفين في قِيامِهِ علىٰ المكابرةِ والجحود قائلاً: ﴿ثم ذرهم في خوضِهم يلعبون﴾.

هذا التعقيبُ يتضمَّنُ بدوره سِمَةً فنية لها أهميتها في صياغةِ الموقف، فَقَد نسَبَهم إلى الخوض في الباطِلِ واللَّعِب، مما يعني أنَّ ادعاءاتهم تقومُ علىٰ مجرَّدِ العنادِ واللعب بالحقائق، ومن ثمَّ لا قيمةَ البتةَ لإنكارِهم نزولَ الرسالةِ علىٰ محمد(ص). والآن بَعْدَ أنْ أنهىٰ النصُّ المنحرفين من الحساب، اتّجه إلىٰ المؤمنين ليفيدوا من الرسالة التي أنكرها أولئك المنحرفون، يقول النص:

﴿وهذا كتابٌ أنزلناه، مبارَكٌ مُصَدِّقُ الذي بين يديه وَلِتُنْذِرَ أمّ القرىٰ ومَن حولها والذين يُؤمنون بالآخرة يُؤمنون به وهم علىٰ صلاتهم يحافظون﴾.

لانغفُلُ أَنَّ النَّصَّ وهو ينتَقِلُ من الحديث عن المنحرفين إلى المؤمنين قد رَبَطَ بين رسالةِ الإسلام التي أنكَرَها المنحرفون وبين الرسالات السابقة التي لم يتركْ النصُّ مجالاً للمنحرفين بإنكارها، قد ربط بينهما بنحوٍ فنّي غير مباشر عبر قوله تعالى: **﴿مصدِّقُ الذي بينَ يديه﴾** فالتصديقُ هنا هو تركيزٌ وتثبيتٌ للحقيقة التي أنكرها المنحرفون ظاهِراً وأقرّوا بها باطناً. كما ينبغي ألاّ نغفُلَ عن حقيقةٍ فنيةٍ أخرىٰ هي أنَّ النَّصَ قد خَتَم حديثَهُ عن المؤمنين بقوله: **﴿وهم علىٰ صلاتهم يحافظون﴾** فبالرغم من أنَّ المقطَعَ كان في صَدَدِ رَسْمِ حقائق عامّة عن نزول الرسالة حيث طالَبَ الرسولَ(ص) بأن يُنذِرَ أمَّ القرىٰ ومَن حَولها بالرغم من أنَّ هذه المطالبة تنحصِرُ في صعيدِ الإيمان بالرسالة مقابِلَ نكرانِها من قِبلَ المنحرفين، بالرّغم من ذلك نجد أن اختتامَ الحديثِ بفقرة **﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم علىٰ صلاتهم يحافظون﴾**. هذه الإشارةُ إلى المحافظةِ علىٰ الصّلاة في سياقِ الحديثِ العامّ تعني ـ من الوجهة الفنية ـ أنَّ النَّصَّ يستهدِفُ لَفْتَ نَظَرِنا إلى أهميةِ هذِهِ الممارسة كما هو واضح.

أخيراً، ينبغي ألاّ نغفُلَ أيضاً ـ ونحن نُعنىٰ بعمارة السورة الكريمة ـ عن تلاحُمِ هذا المقطَعِ مع الأجزاء السابقة من النص مما يُفصِحُ عن مدىٰ إحكامِ السورة الكريمة بالنحو الذي عرضنا له.

قال تعالى: ﴿ومن أظْلَمُ ممّنِ افْتَرىٰ علىٰ الله كذباً أو قالَ أُوحِيَ إليّ ولم يُوحَ إليهِ شيءٌ ومن قالَ سأُنزِلُ مثلَ ما أنْزَل الله ولَو ترىٰ إذِ الظالمونَ في غمراتِ الموتِ والملائكةُ باسطوا أيديهم أخْرِجُوا أنفُسَكم اليَومَ تُجْزونَ عذابَ الهُونِ بما كُنتُم تَقولون علىٰ الله غَيْرَ الحقِ وكنتُم عن آياتِهِ تَستكْبرونَ * ولقد جئتمُونا فُرادىٰ كما خلقناكم أوّل مَرةٍ وتركتُم ما خَوّلْناكُم وراءَ ظُهورِكم وما نَرىٰ معكُم شفعاءَكم الذينَ زعمتُم أنّهُم فيكم شركاءُ لقد تقطَّعَ بينكُم وضلَّ عنكُم ما كُنتُم تَزْعمُون﴾ [الأنعام: ٩٣ ـ ٩٤].

هذا المقطع (من حيثُ عمارةُ السورةِ القرآنية الكريمة) امتدادٌ لمقاطعَ سابقةٍ تحومُ عليها فكرةُ السورةِ ونعني بها عرضَ مواقفِ المشركين وما يقابلُها من مواقفِ التوحيد.

الجديدُ في هذا المقطع (وكلُّ مقطعٍ يَطْرَحُ شريحةً جديدةً من السُلوك) هو: الردُّ على المنحرفينَ من خلالِ ذهابِهم إلى أنَّ محمداً(ص) قدِ افْتَرىٰ على الله كذباً بالنسبةِ إلىٰ الوحي، ومن خلالِ ذهابِهم إلىٰ أنَّ بمقدورِهم أن يأتوا بكلامٍ مماثلٍ للقرآنِ الكريم.

هنا ربطَ النصُّ بين هذِه المزاعم وبينَ المسؤوليةِ المترتبةِ عليها، من خلالِ عَرْضِ أحدِ المواقفِ أو الوقائعِ التي تسبقُ اليومَ الآخرَ ألا وهو: الاحتضارُ وما ترافقُه من الأهوالِ والشدائدِ.

الوقائع هي: ﴿ولو تَرىٰ إذ الظالمون في غَمَراتِ الموتِ والملائِكةُ باسطُوا أيديهم أخرِجُوا أنفُسَكم...﴾. والمُلاحَظ ـ فنياً ـ أنَّ هذه الصورة تنقُل لنا تعامُلَ ملائكةِ الموتِ مع المنحرفين من خلالِ اللغة النفسية التي تضيفُ إلىٰ العذابِ الماديّ عذاباً آخر.

فالملائكةُ باسطُوا أيديهم أولاً، وهذا وحدَهُ كافٍ في إرعابِ المنحرفينَ سَلَفاً، بخاصةٍ أن بسطَ اليدِ يتزامنُ مع قبضِ الروحِ حيثُ لا يملِكُ المنحرفُ أية

فاعليةٍ في الدفاعِ عن حياته، أنه مشغول بالنَّزَعَ الأخير، أنه يتحسسُ بخروجِ الروحِ من البدن، أنه لا يملكُ حتىٰ مجرّدَ المصارعةِ مع الموت، أنَّه ـ في مثل هذه الحالة الملبّدةِ باليأسِ والمرارةِ والتمزُّقِ ـ يشاهدُ ملائكةَ الموتِ وهم يَبْسُطونَ أيديَهم حيالَه، ثم يقولُونَ له ـ وهذا هو ما يضاعِفُ من شدائدِ الحالة ـ يقولونَ له ولأمْثالِه: ﴿أخْرِجُوا أنفسَكم اليوم تُجزون عذابَ الهُون بما كنتم تقولون علىٰ الله غير الحق وكنتُم عن آياته تستكبرونَ﴾.

هنا ينبغي ألاّ نغفُلَ عن التقابُلِ الفنّي بين كونِ المنحرفين قد استكبروا عن آياتِ الله في حياتِهم وبينَ ما يُضادُّ هذه الحالةَ تماماً وهو: الاستسلامُ للموتِ والملائكة باسِطُوا أيديهم حيالَهم، كما يَنبغي ألاّ نغْفُلَ عن هذا الموقفِ الذي يتزامَنُ مع خروجِ الرُّوحِ حيثُ تقولُ الملائكة: (أخْرِجُوا أنفسكم).

ترىٰ، ماذا تَعني هذه العبارة؟

هلِ المقصودُ منها أنَّ الملائكةَ تقولُ للمنحرفين: أخْرِجُوا أنفُسَكم من العذابِ الذي ينتظركم؟ أم يقولونَ علىٰ سبيلِ السخرية أو علىٰ سبيلِ اللغة المجازية أو علىٰ سبيلِ الواقع (أخرجوا أنفُسَكم من هذا الموتِ الذي جاءَكم الساعة). أياً كان المقصودُ، فإنَّ الهول والشدّة والتمزّق والمرارة تظَلُّ هي المتحكمةَ في مثل هذا الموقف.

* * *

بعد ذلك، يتّجهُ النصُّ إلىٰ مرحلةِ ما بعدَ الموت، فيعرضُ إلىٰ شدائدِ الموقفِ بعد أن عرضَ شدائدَ الموتِ ﴿ولقد جئتمُونا فُرادىٰ كما خلقناكم أولَ مرّةٍ، وتركتُم ما خوَّلْناكُم وراء ظُهوركم، وما نرىٰ معكُم شفعاءَكم الذينَ زعمتمُ أنّهم فيكم شركاءُ. . .﴾ لا تَغْفُلَ أن النصَّ يتحدَّثُ عن المشركينَ. وها هو يعرضُ للأصنامِ التي أشركُوها مع الله وزَعمُوا أنّها تشفعُ لهم، يعرضُها في

غمرةِ هذا الموقفِ المصحوبِ بأشدِّ الأهوالِ، يعرضُها عبْر عمليةِ تذكيرٍ بسلوكِ المنحرفين حيث تركُوا ـ في دُنْياهم ـ وراءَ ظهورهم ما ملَّكهم الله من أمتعةِ الحياةِ، يعرضُها عبْر لفتِ نَظَرِهم إلى الحقيقةِ التي يواجهونَها في الموقفِ وهي قوله تعالى: ﴿لقد تَقطَّعَ بينكُم وضَلَّ عنكُم ما كُنتُم تزعمون﴾. أي: قد انقطَعت الرابطةُ الزائفةُ التي وصلَت بينَ المنحرفينَ وبين أصنامِهم التي أشْرَكُوها مع الله، وظهر لهم مدىٰ الضلالِ الذي تاهُوا فيه.

إذاً، أمكَننا أن نُلاحِظَ مدىٰ الإحكام الهندسي في هذا المقطع الذي وَصَلَ بين سلوك المنحرفينَ في بيئةِ الدنيا وبينَ المصائرِ التي ينتهونَ إليها في بيئةِ الآخرة، بدءً من الموتِ ومُرورا بالموقفِ، أما الجزاءُ ذاتهُ (وهو المرحلةُ الثالثةُ) فتتكفلُ مقاطعُ أخرىٰ بعَرْضِه.

والمهم هو: ملاحظةُ الخطوطِ التي أحكِم بناؤُها فنياً في هذا المقطعِ، فضلاً عن تلاحُمِه مع فكرةِ السورةِ الكريمة التي تحومُ علىٰ هذا الجانبِ، مما تفصح جميعاً عن مدىٰ تواشُجِ النصِ وتآزرِ جزئياتِه بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿إنّ الله فالقُ الحبِّ والنَّوىٰ يُخرجُ الحيَّ من الميتِ ومُخرجُ الميّت من الحيّ ذلكُم الله فأنّىٰ تُؤفَكونَ * فالقُ الإصباحِ وجَعلَ الليلَ سكناً والشمسَ والقمرَ حُسباناً ذلِكَ تَقديرُ العزيزِ العَليم * وهو الذي جعَل لكمُ النجومَ لتهتدوا بها في ظلماتِ البر والبحر قد فصَّلنا الآياتِ لقومٍ يعلمُونَ * وهو الذي أنشأكُم من نَفْسٍ واحدةٍ فمستقرٌ ومستودَعٌ قد فصَّلْنا الآيات لقومٍ يفقهون * وهُوَ الذي أنْزَلَ من السماءِ ماءً فأخْرَجنا به نَبَاتَ كلِّ شيءٍ فأخرجنا منهُ خَضِراً نُخْرِجُ منهُ حباً متراكباً ومن النَخْلِ من طَلْعِها قِنوانٌ دانيةٌ وجَنَّاتٍ من أعْنابٍ والزَّيتُون والرُّمَّانَ مُشتَبِهاً وغيرَ متشابهٍ انظرُوا إلىٰ ثمرهِ إذا أثْمَرَ وينْعِهِ إنّ

في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩].

هذا المقطعُ من سُورةِ الأنعام يتحدثُ عن جملةٍ من الظواهِرِ الإبداعيةِ للكون، شقِّ الحبِّ والنَّوى، إخراجِ الحي من الميت والعكس، شقِّ الاصباح، جعْلِ الليل سكناً، والشمسِ والقمر حسباناً، خلْقِ الإنسانِ من نفسٍ واحدة، إنزالِ المطر... الخ. وتعنينا من هذا الحديثِ عن ظاهرة الإبداع الكوني طريقةُ الصياغةِ الفنية لها من جانب، وصلتُها بعمارةِ السورةِ الكريمة من جانبٍ آخر.

أمّا المنحىٰ الفني في صياغةِ هذه الظواهِر فيتمثَّلُ في مستوياتٍ متنوعةٍ، منها: ربطِ كلِ ظاهرةٍ إبداعيةٍ بنوعٍ خاصٍ من التأمُّلِ الفكريّ لها، فمثلاً عقَّبَ النصُّ علىٰ جَعْلِ النُجومِ وسيلةً يُهتدىٰ بها من ظُلماتِ البرِّ والبَحْرِ، عقَّب على ذلك بقولهِ: ﴿قد فصّلنا الآيات لقومٍ يعلمون﴾ فـ(العلمُ) هنا هو الحصيلةُ التي يَنبغي أن نُفيدَ منها، بينما علَّق النصُّ علىٰ ظاهرةِ خلقِ الإنسانِ من نفسٍ واحدةٍ بقولهِ: ﴿قد فصّلنا الآياتِ لقومٍ يفقهون﴾ فـ(الفقه) هنا هو الحصيلة التي ينبغي أن نفيد منها. وأمّا بالنسبةِ لإنزالِ المطر فقد علق عليه بقوله: ﴿إن في ذلكم لآيات لقومٍ يُؤمنون﴾، فالإيمانُ هنا هو الحصيلةُ التي ينبغي أن نُفيدَ منها.

إذاً، نحنُ أمامَ ثلاثةِ مصطلحاتٍ متشابهةٍ هي (يعلمون، يفقهون، يؤمنون)، والسؤال هو: إذا كان الهدَفُ من هذه الظواهر الإبداعية هو أخذَ العظةِ منها، فلماذا لم يستخدم النصُّ عبارةً واحدة بل استخدَم ثلاثةَ مصطلحاتٍ كلُ واحدٍ منها يختلفُ عن الآخرِ مع أنّها متماثلة من حيثُ انتسابُها جميعاً إلىٰ التأمّلِ الفكري؟

هناكَ أسرارٌ فنيّةٌ دونَ أدنىٰ شكٍ وراءَ هذا التفاوُتِ بين المصطلَحاتِ المتشابهةِ. فالنجومُ التي جُعِلت لكي يُهتدىٰ بها في الظلماتِ، تتناسب مع عبارةِ (فصَّلْنا الآيات لقومٍ يعلمون) لأنَّ معرفة مواقعِ النجومِ لا تتطلبُ إلاّ

(علما) بمواقعها ولذلك جُعِلت دليلاً لقوم (يعلمون). أما خلقُ الإنسانِ من نفسٍ واحدةٍ فقد جُعلتْ دليلاً لقومٍ (يفقهون) والفقهُ غيرُ العلم، لأنَّ العلم هو مجردُ معرفةِ الشيء. أما (الفقهُ) فهو دَرجةٌ أعلىٰ من التأمُّل، إنَّه إدراكٌ لفلسفةِ الشيءِ وإحاطةٌ بأسرارِه وتَفْصيلاتِه، ولذلكَ ربَطَ النصُّ بين خلقِ الإنسان من نَفْسٍ واحدةٍ وبينَ (تفقُّهِ) هذا الخلقَ الذي يتمثلُ في انتسابهِ لنفسٍ واحدةٍ هي آدَمُ، حيثُ أنَّ إدراكَ هذه الحقيقةِ يقتادُ الإنسانَ إلىٰ تأمُّلٍ عميقٍ حيالَ فلسفةِ خلقِ الإنسان وانتسابهِ إلى أصْلٍ واحدٍ بما يترتَّبُ على ذلك من تحقيقٍ لوحدةِ السلوكِ البشري في مختلَفِ مجالاتِهِ.

وأمّا خلق النبات والحبّ والنخل والأعناب والزيتون والرمّان والأثمار... إلخ، فقد ربطها النص بنمط آخر من المعرفة هي (الإيمان) ولم يربطها بالعلم أو الفقه. وسرّ ذلك، أن هذا التنوعَ في الخلقِ: إنزال المطرِ من السحابِ، إخراج النبات بواسطته، إخراجَ الحبِ من النبات، إخراجَ الرُّطبِ منَ النَخْل، إخراجَ الزيتونِ والرمان، ابتداءً من خُروجِها إلىٰ ثمرها، كل ذلك من خلال كونِ الثمر متشابهاً وغير متشابه لا بدَّ أن يقتادَ الشخصَ إلى (الإيمان) بالقدرةِ الإبداعية لله تعالى. ولذلك ربطَ النصّ بين تأمُّلِ هذه الظواهر وبينَ (الإيمان) فجعلَها آية (لقوم يؤمنون) بينما جعلَ معرفةَ النجومِ آية (لقوم يعلمون) وجعلَ إدراكنا للنَفسِ الواحدةِ آيةً (لقومٍ يفقهون).

أما صلةُ هذا المقطعِ بعمارةِ السورةِ الكريمة التي تتحدثُ عن سلوكِ المشركين، فتتَّضح تماماً حينما يعقّبُ النصُّ علىٰ ما تقدَّمَ بقوله: ﴿**وجَعلُوا للّه شُركاءَ الجنّ وخَلَقَهُم وخَرقُوا له بنينَ وبنات بغير علمٍ سبحانه وتعالى عمّا يصفون * بَديعُ السماواتِ والأرض أنّىٰ يكونُ له ولدٌ ولم تكُن له صاحبةٌ وخلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكلِّ شيءٍ عليم**﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠١].

واضح أن النصَّ ربطَ بين قولِه ﴿**وخلَقَ كلّ شيء**﴾ حيث يشيرُ الخلقُ إلىٰ

صلته بخلقِ الحبِ والنوىٰ والإصباح والليلِ والنباتِ كما لحظنا ـ وبين سلوكِ المشركين حيث طرح نَمطاً آخرِ من سلوكِهمُ المشركَ هو: جَعْلهُم الجنَّ شركاءَ لَهُ وجَعْلهُم البنت والابنَ.

إذن، أمكننا ملاحظةُ هذا المبنىٰ الهندسي الذي وصَلَ بين أقسامِ السورة الكريمة، مما يُفصِحُ عن مَدىٰ إحكام النصِ وتلاحُمِ مقاطِعه بعضاً مع الآخر بالنحو الذي تقدَّمَ الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿ذلكمُ الله ربكُم لا إلٰهَ إلاّ هُوَ خالقُ كلِ شيءٍ فاعبدُوه وهوَ علىٰ كلِ شَيءٍ وكيل * لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ وهو اللطِيفُ الخبير * قد جاءَكم بصائرُ من ربكم فمن أبصَر فلِنفْسِه ومن عَميَ فعلَيها وما أنا عليكُم بِحَفيظ * وكذلك نُصرّفُ الآياتِ ولِيقُولُوا دَرَسْتَ ولنُبَيِّنَهُ لقومٍ يَعْلمون * اتّبعْ ما أُوحيَ إليك من ربِكَ لا إله إلا هو وأَعْرِضْ عن المشركين * ولو شاءَ اللّهُ ما أشْرَكُوا وما جَعلناكَ عليهم حفيظاً وما أنْتَ عليهم بوكيل * ولا تسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِن دونِ الله فيسبُّوا الله عَدْواً بغَيرِ علم كذلك زيناً لكلِ أمّةٍ عَملَهم ثمَ إلىٰ ربِّهم مرجِعُهم فيُنَبِّئُهم بما كانُوا يَعْمَلُون﴾ [الأنعام: ١٠٢ ـ ١٠٨].

هذا المقطع من السورة امتداد لسابقها من المقاطع التي تعرض لنا سلوك المشركين. الجديد في هذا المقطع هو: المطالبة بالإعراض عن المشركين وعدم سبّهم. بينما كانت المقاطع السابقة تناقش وترد عليهم، كما أن المقاطع اللاحقة تطرح الموضوع ذاته، مما يعني أن لكل مقامٍ سياقه الخاص، أي: أن بعض المواقف تتطلب الردّ وبعضها يتطلب الإعراض وبعضها يتطلب السكوت، وهكذا.

في المقطع الذي نتحدث عنه يعلّل النص سبب المطالبة بالإعراض عن المنحرفين وهو: ﴿لو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت

عليهم بوكيل﴾، فمهمة الشخصية الإسلامية هي: إيصال أو إبلاغ الرسالة، أمّا الاستجابة لها أو عدم ذلك فأمرٌ يعود علىٰ الناس أنفسهم، ما دام الهدف هو: اختبارهم، وإلاّ ﴿لو شاء الله ما أشركوا﴾ كما يقول النص.

والأمر نفسه بالنسبة إلىٰ سبّ المنحرفين أو أصنامهم، حيث أن السبّ لا يغيّر من واقعهم شيئاً بل العكس يقتادهم إلى أن يسبّوا الله تعالى.

هنا يقدّم النص (وهذا منحىً فنيّ في صياغة الموضوع) دليلاً عملياً علىٰ عدم جدوىٰ مناقشتهم وسبّهم فيقول: ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيْمانِهِم لَئِنْ جاءتْهُم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها قل إنّما الآياتُ عند الله...﴾ [الأنعام: ١٠٩]. ثم يعقّب النص قائلاً: ﴿ونُقَلِبُ أفئِدَتَهُم وأبْصارَهُم كما لم يُؤْمِنُوا به أوّلَ مرّةٍ ونَذَرُهُم في طُغيانِهِم يعمهون * ولو أننا نزّلْنا إليهم الملائكة وكلّمهُم الموتىٰ وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيُؤمنوا...﴾ [الأنعام: ١١٠ ـ ١١١].

فالملاحظ هنا أن النص قدّم دليلاً فنياً في غاية الإقناع من حيث عدم جدوىٰ مناقشة المشركين وسبّهم. فالمشركون أقسموا بأنه لو جاءهم دليلٌ حسيّ بالنسبة إلىٰ رسالة الإسلام لآمنوا، لكن لنلاحظ كيف أن النص عقّب علىٰ هذا الادعاء بأنه: ﴿ولو أننا نزّلْنا إليهُم الملائكةَ وكلّمهم الموتىٰ وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا﴾. إذاً (من حيث المنحى الفنيّ لهذه الصياغة) تكفّل النص بالردّ على ادعائهم القائل بأنه لو نزلت آية أو دليل حسيّ لآمنوا، ردّ عليهم بأنه لو نزلت الملائكة لما آمنوا، ولو كلّمهم الموتىٰ الذين عاينوا حقيقة الأمر وبعثهم الله أحياء وشهدوا برسالة الإسلام لما آمنوا، بل ولو جمع لهم كل الدلائل الحسية مباشرةً أي من خلال المواجهة والمعاينة لما آمنوا أيضاً.

إذاً، أدركنا السرّ الفني الكامن وراء المطالبة بالإعراض عن المشركين، لأنّ احتمال تعديلهم لسلوكهم المنحرف أمرٌ ممتنع للسبب المشار إليه.

هنا يتقدم النص (وفق منحىً فنيّ آخر) بتجربة سالفة للأنبياء معزّزاً بذلك سببيّة المطالبة بالإعراض عن المشركين. يقول النص: ﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّاً شياطينَ الإنسِ والجنِ يُوحي بعضُهم إلىٰ بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُرُوراً ولو شاء ربُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُم وما يفترون * ولِتصْغىٰ إليه أفئدةُ الذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ ولِيرْضَوهُ وليَقْترِفُوا ما هم مُقْتَرِفُون﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٣]. إن تعقيب النص علىٰ هذه الحقيقة بقوله تعالى ﴿فذرهم وما يفترون﴾ هو امتداد أو نموّ عضويّ للأفكار السابقة المطروحة في النص، أيّ أن عبارة (فذرهم وما يفترون) هو إنما نمو لقوله سابقاً (واعرض عن المشركين) حيث نجد أن النص قطع مرحلة من الاستدلال علىٰ سببية المطالبة بالإعراض عن المشركين، ثم ختم ذلك بنفس المطالبة بأن يعرض عنهم.

ولا نغفل، إن النص قدم خلال ذلك صورة فنية استعارية هي: ﴿ونقلبُ أفئِدَتَهُم وأبصارَهُم كما لم يؤمنوا به أوّلَ مرة﴾ وذلك تعقيباً علىٰ مطالبة المشركين بنزول آية جديدة حتى يؤمنوا برسالة الإسلام. حيث جاءت صورة (تقليب أفئدتهم وأبصارهم) (رمزاً) للحيرة والشك والاضطراب الذي يكابدون منه، بحيث لو جاءت الآية الجديدة التي زعموا أنهم سيؤمنون بها لكانت النتيجة هي عدم الإيمان أيضاً (كما لم يؤمنوا به أوّل مرةٍ). إذاً، جاءت الصورة الرمزية أو الاستعارية موظفةً فنياً لإنارة الأفكار التي طرحها النص وهي: المطالبة بالإعراض عن المشركين بسبب أنهم لن يؤمنوا برسالة الإسلام حتى لو واجهوا مختلف الأدلة الحسية المباشرة، كما لحظنا. والمهم، بعد ذلك، أن النص ـ وهو في صدد تقرير هذه الحقيقة ـ قد أحكم بناء المقاطع وأنماها عضوياً ووظّفها لإنارة هذه الحقيقة، مما يفصح ذلك عن مدىٰ جمالية النص وتلاحم مقاطعه بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالىٰ: ﴿أفغيْرَ اللهِ أبتغي حَكَماً وَهُو الّذي أنْزَلَ إليكُمُ الكتابَ مُفصّلاً والذينَ آتيْناهُمُ الكتابَ يَعْلَمون أنّهُ مُنزَّلٌ من ربكَ بالحقِّ فلا تكونَنَّ مِنَ المُمْتَرين * وتَمّتْ كلِمةُ ربكَ صِدْقاً وَعدْلاً لا مبدّلَ لكلماتهِ وهو السّميعُ العَليمُ * وإنْ تُطِعْ أكثَرَ مَن في الأرضِ يُضلّوك عَنْ سبيلِ الله إنْ يتّبعُونَ إلاّ الظَّنَّ وإنْ هُم إلاّ يَخْرصُون * إنَّ رَبّكَ هو أعْلَمُ مَن يَضِلُّ عنْ سَبيلهِ وهو أعْلَمُ بالمُهْتَدين﴾ [الأنعام: ١١٤ ـ ١١٧].

هذا المقطعُ امتدادٌ لسابقهِ من المقاطعِ التي تتحدّثُ عن سُلوكِ المنحرفينَ (المشركين)، حيث طالبَ النصُ القرآنيُ الكريمُ بالإعراضِ عَنْهُم. هنا يؤكدُ المقطعُ هذه المطالبةَ من جَديد، لكنْ من خلالِ تَبْيينِ الآثارِ المترتبةِ علىٰ عَدَمِ الإعراضِ ﴿وإن تُطعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يضلُّوكَ عن سبيلِ الله إن يتّبعونَ إلاّ الظَّنَّ وإن هُم إلاّ يخرصون﴾. هذا التحذيرُ يَنْطوي علىٰ وظيفةٍ فنيةٍ بالنسبةِ إلى عمارةِ السورةِ الكريمة، فقد أكد النَّصُ قبلَ ذلك بأنْ حُكْمَ الله هو الحاسِمُ في كلِ شيءٍ وأكد بأنَّ أهْلَ الكتابِ يَعْلَمون ذلك حقَّ العِلْم وحينَئذٍ فإنَّ ما عَداهُ من أقْوالِ هؤلاءِ المنحرفينَ لا يتجاوزُ كونَه ظناً أو تخميناً في الأحكام.

والسؤال: ما هِيَ هذه الأحكامُ المطبوعةُ بسمةِ الظن والخَرْص؟ لقد أبهمها النصُ كما هو مُلاحَظ، والقارىءُ قد يَقفُ منها حائراً في إدراكهِ لهذا الجانبِ، إلاّ أنّنا منْ خلالِ لُغَةِ الفنِ المُدهش سرعانَ ما نكتشفُ السّرَ في ذلك عندمَا نُواجهُ مقطعاً جديداً يتحدّثُ عن مَوضوعٍ جديدٍ هو قولُه تعالى: ﴿فَكُلوا ممّا ذُكِرَ اسمُ الله عليهِ إنْ كُنتم بآياتِه مؤمنينَ * وما لَكُم ألاّ تأكُلوا ممّا ذُكِرَ اسمُ الله عليهِ وقد فَصّل لكم ما حرّم عليكمُ إلاّ ما اضطُرِرتُم إليه وإنَّ كَثيراً لَيُضلونَ بأهوائهم بغيرِ علمٍ. . .﴾ [الأنعام: ١١٨ ـ ١١٩].

لِنُلاحظْ بدقةٍ هذا المنحىٰ الفنيَّ المُدهشَ في صياغةِ هذه الموضوعاتِ. فالنصُّ قد انتقلَ من حديثهِ عن المشركينَ إلى الحديثِ عن الذبائح، أي:

الأحكامِ المتصلةِ بتذكيةِ الحيوان المعدّ لحمُه للأكل. ونحنُ نعرفُ أن أيَّ نصٍ أدبيٍ خطيرٍ عندما يستهدفُ لَفْتَ أنظارِنا إلىٰ قضيةٍ مهمّةٍ، فإنّه يعرضُ هذه القضيةَ ضمنَ حديثِه عن قضيةٍ أخرىٰ، بحيثُ يقطعُ سلسلةَ الموضوعِ السابق ويعرضُ القضيةَ الجديدة حتى تتركز في الأذهان، وهذا ما سلَكَهُ المقطعُ الذي نتحدث عنه عندما عَرَضَ لنا أهم قضيةٍ تتصلُ بطعامِ الإنسانِ، من حيثُ أثَرُ الطعامِ في تزكيةِ النفسِ وعَدمِها، عَرضَها في سياقِ حديثِه عن المشركينَ وضَرورةِ عدمِ الالتفاتِ إلى أقوالِهم التي وصَفها بأنّها تُضل عن سبيلِ الله وأنّها مجرَّد ظنٍ، ومجردُ خَرْصٍ ﴿إن يتّبعونَ إلا الظنَّ وإنْ هم إلاّ يَخْرصُون﴾. كلّ ذلك أدركناهُ حينما عقب النصُ علىٰ قولهِ: ﴿فَكُلوا مما ذُكِر اسمُ الله عليه... الخ﴾ عقَّب عليه بقوله: ﴿وإنَّ كثيراً لِيُضلُّونَ بأهوائهم بغَير عِلْم﴾ إذاً، هذا التعقيبُ حينما نربطهُ بكلامِ سابق علىٰ الحديثِ عن الذبائحِ وهو قولُه: ﴿إن يتَّبِعُونَ إلا الظَّن... الخ﴾، أقول: حينَ نربطُ بينَ هذا كُلّهِ، حينئذٍ نستكشفُ مدىٰ الأهميةِ الفنيةِ المدهشةِ لهذا النمطِ من صياغةِ التعبير.

والآن لنتابع المقطع:

﴿ولا تَأكُلوا مما لم يُذكَر اسمُ اللّهِ عليهِ وإنّه لفسقٌ وإنّ الشياطينَ ليُوحونَ إلىٰ أوليائهِم ليُجادلوكُم وإن أطَعتمُوهم إنّكم لمشركون﴾ [الأنعام: ١٢١].

أرأيتَ كيفَ أنَّ النصَ قطعَ سلسلةَ حديثِه عن المشركين عندما أدْخَلَ قضية التسميةِ بالنسبةِ إلى الذبائحِ، ثم كيفَ عادَ إلىٰ حديثِه عَنِ المشركينَ عندَما قالَ في هذا المقطع: ﴿وإنّ الشياطينَ لَيُوحُونَ إلىٰ أوليائهم لِيجادِلُوكُم وإنْ أطَعْتُموهم إنّكم لَمُشرِكون﴾ حيث ربَطَ الإطاعَةَ لمن جادَلوا المسلمينَ في قضيةِ الذبائحِ، ربَطَها بالشِرْكِ، وبِهٰذا الرَبْطِ أعادَ النصُّ سلسلةَ حديثِه عن المشركين.

وأياً كان الأمرُ، فإنّ أهميةَ هذا المقطعِ (موضوعياً) ـ بعد أن لَحِظْنا أهميتَه فنياً ـ هو ما تضمَّنَهُ مِن التأكيدِ علىٰ قضيةِ(التسمية) في الذبائحِ، حيث

تذكُر نصوصُ التفسير أنَّ المشركينَ كانوا يُجادِلون الإسلاميينَ في تحليلِهم للحيَوان المذكَّىٰ دونَ الحيوانِ الميّت وأن الأخيرَ هو ممّن قتلَه اللّهُ، والأولُ ممّن قتلَهُ الناسُ، وإنّ ما قتَلَهُ الله أوْلىٰ بالأكْلِ ممن قتلَهُ الناس.

هذا النَمَط من مجادلةِ المشركينَ القائمةِ علىٰ الظنِ والخَرْصِ إنْ هو إلاّ من وحي الشياطين لأتباعِهم(كما يقولُ النص) وأن المهمَ هو: اتّباعُ حكمِ الله المتمثل في عدمِ تناولِ الطعام غير المذكى بالتسمية (اسم الله تعالى) إلا ما اضطرَّ الإنسانُ إليه... وكما قلنا ـ فإنَّ أهميةَ مثل هذا التأكيد علىٰ الطعامِ المذكىٰ ـ ترتبط بانعكاساتِه علىٰ النَفْسِ من حيثُ تزكيتُها، مما يفسّرُ لنا السرَّ الفنيّ أيضاً من خلالِ عرضِ هذا الموضوعِ الطارىء في سياقِ الحديث عن سلوك المشركين، وهو أمرٌ يُفصح ـ مضافاً لما تقدم ـ عن مدىٰ إحكامِ النصِ من حيثُ ترابُطُ وتلاحمُ موضوعاتِه بعضاً مع الآخر.

* * *

قال تعالى: ﴿أَو مَنْ كانَ مَيْتاً فأَحْيَيناهُ وجَعلنا له نُوراً يَمشي به في النّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها كذلكَ زُيِّنَ للكافرينَ ما كانُوا يعْملون * وكذلك جعَلْنا في كلِ قريةٍ أكابِرَ مُجرميها لِيَمْكُروا فيها وما يَمكُرونَ إلاّ بأنفُسِهم وما يَشْعُرون﴾ [الأنعام: ١٢٢ ـ ١٢٣].

هذا المقطعُ الجديد من سورةِ الأنعام يتضمّنُ تركيباً صُورياً من أشدِّ الصُورِ القرآنيةِ إثارةً ودَهْشةً وجَمالاً. أنه يتضمنُ أكثرَ من رمزٍ وتَشبيهٍ تمَّتْ صياغتُها وَفْقَ تركيبٍ خاصٍ لا يقفُ عندَ مجرّدِ الصورةِ المفردةِ التي يتألّفُ من طرفينِ بل يتمُّ ذلك وفقَ الصورةِ المركبةِ التي تتداخَلُ أو تَزْدَوِجُ صورُها الجزئيةُ بنحوٍ بالغِ الإثارة.

ولنقرأ من جديد: ﴿أَوَ من كان مَيْتاً فأَحَيْيناهُ وجَعلنا لَهُ نوراً يَمشي به في الناسِ﴾. هذا هو القسمُ الأولُ من الصورةِ الامتدادية الضخْمةِ التي نتحدثُ

عنها. (فالميْتُ) هنا هو رمزٌ للكُفرِ أو الضّلاَلِ، (والإحْياء) رمزٌ للإيمان أو الهدايةِ، وكأنَّ المقطعَ يقول: (إنَّ من كانَ ضالاً فهديناه).

ثم ماذا؟ ﴿وجَعَلنا لَه نوراً يَمشي به في الناسِ﴾. وهذه صورةٌ فنيّةٌ أخرىٰ تعتمدُ (الرمزَ) أيضاً، (فالنور) رمزٌ للإيمانِ والهداية أيضاً. لكنْ إذا كان (الإحياءُ) هو الهدايةَ و(النُور) هو الهدايةُ أيضاً فلماذا يتخالفُ الرمزان؟ هنا تكمُن خطورةُ الفنِ القرآني الكريم في صياغةِ أمثلةِ هذه الصور.

ولكي تتضحَ معالِمُ هذه الصورِ بشكلٍ أكْثَرَ جلاءً، يحسن بنَا أنْ نترجم القسم الأول منها إلى اللغةِ المباشرةِ أي اللغةِ الإخبارية بدلاً من اللغةِ المصوّرةِ. هل أن النصَ يريد أن يقولَ: أفَمَن كان ضالاً فهَديناهُ وجعَلْنا لَهُ من الهدايةِ نُوراً يَمْشي به في الناسِ كمَن مثلُه في الظلماتِ ليسَ بخارجٍ منها؟؟ لكن، لا يَزالُ هذا الكلامُ يعتمدُ الرَمْزَ أيضاً لأنَّ (النور) هو (رمزٌ) وليسَ شيئاً مادياً، كما أنَّ الظلمات هي رمزٌ للكُفْرِ والضَّلالِ وليسَتْ شيئاً مادياً، وهذا يَعْني أنّ محاولتَنا بأنْ نترجمَ الرموزَ إلىٰ كلامٍ مباشرٍ تظَلُّ غيرَ كافيةٍ، فلا بدَّ من أن نقدّمَ ترجمةً أخرىٰ، فنقول:

هل أنَّ النصَ يريدُ أن يَقولَ: أفَمن كان ضالاً فهدَيناهُ، وجعلناهُ ذا بصيرةٍ في سلوكهِ كمن هو يعيشُ ضالاً لا إمكانَ لأنْ يهتديَ ذاتَ يوم؟ يبدو أن النصَ يستهدفُ هذه الحقيقة. لكن، دَعْنا نتابعَ استكشاف السرّ الكامنِ وراءَ تقريرِ هذه الحقيقة. لقد كانَ بإمكانِ النصِ أن يكتفيَ بالقولِ: أفَمن كان مهتدياً كمن كان ضالاً فيكتفي من ذلك بأن يرمزَ له بالقولِ: أفَمن كان حيًا كمن هو في الظُلمات؟ أو أفَمن جَعلنا له نوراً كمن هو في الظلماتِ؟ أقول: كانَ بإمكانِ النصِ أن يكتفيَ بهذا المستوىٰ من الرَمْزِ لأنّه يحققُ الهدفَ المطلوبَ في هذه المقارنةِ، إلا أنَّ النصَ ـ في الواقعِ ـ لا يَستهدفُ هذا المستوىٰ من الرمزِ بقدر ما يستهدِفُ تقرير حقيقةٍ بالغة الأهميةِ بالنسبةِ للإيمان والهدايةِ من الله تعالى

بحيثُ يستكشفُ خطورةَ وأهميةَ العطاءِ الكبير الذي يَغدقُه الله تعالى علىٰ الإنسانِ عندما يهديه إلى الإيمان.

هذه الحقيقة، أي خطورة النعمةِ أو العَطاءِ الذي ينثُره الله تعالى علىٰ عبدهِ. لا بدَّ أن نلتمسَ لها ـ من حيثُ الصياغةُ الفنيةُ ـ مستوىً خاصاً من التركيبِ الصوري الذي يجمعُ بينَ الرموز والتشبيهاتِ من جانبٍ، وأن يُداخلَ ويزاوجَ بينها بشكلٍ يتناسَبُ مع خطورةِ هذه النعمةِ، نعمةِ الهدايةِ من جانبٍ آخر. لذلك، اتَّجَه إلى أنْ يقارن أولاً بين الحيّ والميت، بين المهتدي والضال ﴿أو من كانَ ميتاً فأَحْييناهُ﴾ ثم اتّجَه إلىٰ جعلِ المقارنة بينَهما (ليس علىٰ تقريرِ ما هو كائن فعلاً أي أنَّ هناكَ حَيّاً وإنّ هِناك ميتاً) بل علىٰ تقرير ما قد كان سابقاً ميتاً ثم أُحيِيَ بعد الموت، ومن الواضحِ أن النعمةَ تكونُ أكثرَ ضخامةً في حالةِ إعادةِ ميتٍ إلى الحياةِ من النعمةِ التي تشمَلُ الحيّ. إذاً، قوله تعالى ﴿أوَمَنْ كان ميتاً فأحييناهُ﴾ ينطوي علىٰ سرٍّ خاصٍ في التعبيرِ عن خطورةِ نعمةِ الإيمانِ والهداية. يبقىٰ بعد ذلك، أن نستكشفَ الأسرار الكامنة وراءَ الرموزِ الأخرىٰ التي تضمَّنتْها هذه الصورةُ الفنيّة.

لكن قبلَ أن نتابعَ هذا الاستكشافَ لا بدَّ من التذكير بأنَّ هذه الصورةَ الفنيةَ جاءَتْ في سِياقِ الحديثِ عن المشركين الذين وَصفَهم مقطعٌ أسبقُ بأنَّهم (يُضِلّونَ بأهوائِهم بغَيرِ علم) (وإن الشياطينَ ليوحونَ إلىٰ أوليائِهم) بالمجادلة، مما يعني أن هذه الصورة الفنية وُظِفّت عضوياً لإنارةِ الحقيقةِ المتصلة بسلوك المشركين مقابل سلوك المؤمنينَ الذين طالبَهم النصُّ بعدم إطاعة المشركين، حيث يكشف هذا التوظيفُ الفنيّ عن مدىٰ تلاحمِ مقاطع النص بعضها مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

* * *

إنَّ صورةَ ﴿أو مَنْ كان مَيْتاً فأَحْيَيناهُ. . . الخ﴾ يمكنُ تفكيكُها إلىٰ ثَلاثِ

صور جزئية: صورة (الميت الذي أُحيي) وصورةُ (النورِ الذي يَمْشي به) وصورةُ (الظلمات التي لا مَخرَج للكافرِ منها). أما الصورةُ الأولىٰ فقد تَحدَّثْنا عَنها، قُلنا: إنَّ أهميّتَها تتمثّلُ في كونِها (رَمزاً) للتائهِ الذي اهتدَىٰ إلى الإيمان. وأما صورةُ ﴿وجَعلنا له نُوراً يَمْشي بهِ في الناسِ﴾ فتنطَوي علىٰ أسرارٍ فنيةٍ مدهشةٍ أيضاً. فالمُلاحَظ أن (الميت) إذا كانَ رمزاً للتائه و(الحي) رمزاً للمهتدي، فإنَّ جعلَ النورِ للمُهتدي يظَلُّ (رمزاً) بِدَورِه ولكنَّه ذو دلالةٍ أخرىٰ بالرُّغمِ من أنّ كليهما (أي: الإحياءَ والنور) رمزان للهدايةِ، بيد أنّ النصَّ القرآني الكريم جَعلَ رَمْزَ (النّور) مرشّحاً بأكثَر من دلالةٍ، منها: أنّ الشخصَ الذي يحييه الله تعالى (من خلال الهدايةِ) يظَلُّ إحياؤُه مجرّد نَفْثِ الحياةِ فيه بعد أن كان مَيتاً. وأما (النُور) فهو المبادىءُ والمفرداتُ التي تحدّدُ له معالمَ الهداية، وحينئذٍ يُصبِح رمزُ (النور) غيرَ رمزِ (الإحياء) متمثلاً في مبادىءِ القرآنِ الذي تَحومُ عليه السورة الكريمة في عَرْضِها لسلوكِ المشركين المكذّبين للقرآن. ومنها: أنَّ (النور) هو (الإحياءُ) نفسُه، لكن بما أنَّ فائدةَ الإحياءِ هي جعلُ الشخصية متحركةً حينئذٍ فإن الرمزَ المناسبَ للحركةِ هو (النُور) الذي يضيءُ لها معالِمَ الطريق. والمهم، أن استخدامَ رمزينِ لدلالةٍ واحدةٍ أو لدلالةٍ متفرعة عن أخرى: يُعدُّ (من الزاويةِ الفنية) صياغةً صُوريةً متميّزةً لها إثارتُها وعمقُها المتناسبانِ مع ضخامةِ النِعَمِ التي يَنْثُرها الله تعالى علىٰ الشخصيةِ حينَما ينْقُلها من التّيه، من الموتِ، إلىٰ الهدايةِ، إلىٰ الحياة.

وهذا فيما يتصلُ بالقسمين الأوّلَين من الصورةِ الاستمراريةِ المشارِ إليها. أما القسمُ الأخيرُ منها، أي: القسمُ الذي يقارنُ بين الميتِ الذي أُحيي وجُعِلَ له النورُ، وبين من هو في الظلماتِ، أي صورة (كمَن مثلُه في الظلماتِ ليسَ بخارجٍ منها). هذه الصُورة بدورِها تَنْطوي على أسرارٍ فنيةٍ مدهشةٍ. فبالرُغمِ من أنَّ الصورة بمجموعها ملأىٰ بعنصرِ الرَمْزِ (الميت، الإحياء، النور) ثم رمز (الظلمات) الذي يشيرُ إلى (الكفرِ)، بالرُغم من قيامِ هذه الصورةِ الاستمراريةِ

على عنصرِ (الرمز) فإنّ هذه الصورةَ قد اعتَمدت (التشبيه) في عمليةِ المقارنة بين رموز الهداية ورموز الضلالِ، متمثلاً في عبارةِ (كمَن مثلُه).

ولا يَخفىٰ أنّ من يمتلكُ حِسّاً بلاغياً يُدركُ مدىٰ جماليةِ وطرافةِ مثلِ هذه الصياغاتِ القائمةِ علىٰ التزاوج بين (الرمز) و(التشبيه) في تجسيدِ الدلالةِ، فالمألوف في تجاربِ الفنِ أن يُستخدمَ إمّا الرمزُ أو التشبيهُ أو الاستعارةُ أو غيرُها من أدواتِ التركيبِ الصُوري، أمّا أن تُستخدمَ أداتان من خلالِ توكّؤِ أحداهما علىٰ الأُخرىٰ فأمرٌ مثيرٌ للدَّهشَةِ الفنيةِ دُونَ أدنىٰ شكٍّ، وهذا ما نلحظهُ في أدوات (الرموز) الأربعةِ (الميت، الإحياء، النور، الظلماتِ) التي توكَّأَت علىٰ أداة (التشبيهِ) (كمَن مثلُهُ في الظُلمات). يضافُ لذلك، أنَّ أداةَ (التشبيه) قد استُخدمتْ أيضاً من خلالِ مفردتَينِ توكّأت إحداهُما علىٰ الأُخرىٰ أيضاً الـ(ك) و(مَثَل) (كمَنْ مثلُهُ)، أي أن (ك) تمثّلُ أداةَ تشبيهٍ و(مَثَل) تمثلُ أداةَ تشبيهٍ أخرىٰ، وقد استخدمَهما النصُ في دلالةٍ واحدةٍ هي (الظُلمات) معمّقاً بهذا الاستخدامِ مدىٰ الضلالِ والتيهِ الذي يحياهُ الكافرُ مقابلَ مدَىٰ الهداية التي يحياها المؤمنُ. وأيّاً كانَ، يَعنينا أنْ نُشيرَ من جانبٍ إلىٰ مدىٰ الأهميةِ الفنيةِ لِصُورِ الإحياءِ والنور والموت والظلام في تعميق الدلالة، وأن نُشيرَ من جانبٍ آخرَ إلىٰ مَوقعِها من عمارةِ السورةِ القرآنيةِ الكريمةِ (سورة الأنعام)، حيثُ تحومُ فكرتُها ـ كما هو واضحٌ ـ علىٰ عَرْض سُلوكِ المنحرفينَ وما يقابلُه من سلوكِ المؤمنينَ، وحيثُ جاءَت الصَور أو الرموزُ المشارُ إليها موظفةً فنياً لإنارة هذا المحور الفكري للسورةِ الكريمة، مما يُفصحُ ذلك عن مدىٰ إحكامِ وَجماليةِ النصِ من حيثُ تلاحُم مقاطعِ بعضاً مع الآخرِ.

* * *

قال تعالى: ﴿وإذا جاءَتْهُم آيةٌ قالُوا لَن نُؤْمِنَ حتّىٰ نُؤْتىٰ مِثلَ ما أُوتيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أعْلمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالتَه سيُصيبُ الذينَ أجْرَمُوا صَغَارٌ عند الله وعذابٌ

شديدٌ بما كانُوا يَمكُرون * فمَنِ يُرِدِ الله أن يهديَهُ يَشرحْ صَدْرَهُ للإسلامِ ومَن يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجعلْ صدرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماء كذلكَ يَجعلُ اللَّهُ الرجسَ علىٰ الذينَ لا يُؤمنونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤ ـ ١٢٥].

هذا المقْطَعُ من سورة الأنعام يكشف عن شريحة جديدة من سلوك المنحرفين (المشركين). إن السورة الكريمة تقدّم في كل مقطعٍ جانباً من الانحرافات أو الدعاوى أو التخرّصات التي يهذي بها هؤلاء المعاندون لرسالة الإسلام، وها هم الآن يقولون لن نؤمن حتىٰ نؤتىٰ مثل ما أُوتي رسلُ الله.

ترىٰ، هل أنّ الإيمان وعدمه مرتبطٌ بمكاسب ذاتية أم بقناعة من الداخل بحقيقة الرسالة؟ يبدو أن الحسد ـ والمنحرفون عصرئذٍ مشدودون لنعرات قبليّة ـ هو الذي يتحكّم في دوافع السلوك لدىٰ المنحرفين. والنص بهذا الكشف عن دوافع السلوك يقدّم فضيحة جديدة من سمات المنعزلين عن مبادىء السماء موضحاً ـ بطريقة فنية ـ كيف أن المنحرف ـ كافراً كان أو مشركاً أو منافقاً أو فاسقاً ـ يتحرك من موقع ذاتي (مَرَضي) في رفضه لرسالات الله تعالى.

والمهم، أن النص يردّ أمثلة هذه الادعاءات بدليل منطقي هو أن الله تعالى: ﴿أعلم: حيث يجعل رسالته﴾. ثم يلوّح بالجزاء الذي سيلحق أمثلة هذه النماذج المكابرة، يقول النص: ﴿سَيُصيبُ الذينَ أجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ الله وعذابٌ شديدٌ﴾ لنلاحظ كيف أن النص رسَمَ الجزاء متناسباً مع نمط الجريمة، فدوافع الجريمة ـ كما قلنا ـ نبعت من نظرة ذاتية مشدودة إلى التعصّب القبليّ وهو تعصب مقرون بالكبر والمشاعر العرقية، ولذلك رسم الجزاء بما يقابل التكبّر والعزة بالإثم وهو الذل والهوان، فقال: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغارٌ﴾ والصَغَار هو (الذل) كما هو واضح، أي أنّ هؤلاء الذين صدروا عن التكبّر في رفضهم لرسالة الإسلام سيصيبهم ذل في الآخرة.

بعد ذلك، يتقدّم النص بتركيب فنيّ هو: صورة ﴿فَمَن يُرِد الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلامِ، ومَن يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماء..﴾.

هذه الصورة تتضمن تقريراً وتشبيهاً فنيّاً وظّفه النص لإنارة الموضوع الذي نتحدث عنه. فالنص يريد أن يقول ـ وفق لغة الفن غير المباشرة ـ أن هؤلاء المنحرفين لا أمل في تعديل سلوكهم ما داموا قد انطلقوا في ممارساتهم من دوافع مَرَضية مثل التعصّب، لذلك ختم الله علىٰ أفئدتهم وحَجَزهم عن إدراك الخير والمعرفة علىٰ العكس من المؤمنين الذين ساندتهم السماء في التعرّف علىٰ مسالك الخير والمعرفة.

هذه الحقيقة صاغها النص من خلال الصورة الفنية التي تقابل بين مَن يريد الله أن يهديه (فيشرح صدره للإسلام) وبين من يريد أن يضلّه (فيجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصعّد في السماء).

هذه الصورة الفنية تنطوي على أسرار علمية ونفسية بالغة الإثارة والدهشة مما تتطلّب الوقوف عندها. لكن قبل أن نتحدث عن هذه الصورة ينبغي ألاّ نغفل عن أن إرادة الله تعالى في هدي الشخص السوي إلى الإيمان وجعل صدره منشرحاً في تقبّل الإسلام مقابل إرادته في إضلال الشواذ وجعل صدورهم ضيقة عن تقبّل الإسلام، هذه الإرادة ينبغي ألاّ نفصلها عن الحقيقة الذاهبة إلىٰ أن الهدي والإضلال هما نتيجة للسلوك الذي يختاره الشخص بملء إرادته خيراً كان أم شراً، بحيث أن معرفة الله سلفاً بسلوك الأشخاص تجعل قضية الهدي والإضلال مترتبة علىٰ السلوك المشار إليه، وقد سبق للنص أن أشار في هذه السورة إلى أن المنحرفين لو نزلت الملائكة عليهم، ولو لمسوا الكتاب في قرطاس، ولو كلّمهم الموتىٰ، ولو حشر الله لهم كل شيء معاينةً لما آمنوا، مما يعني أن إضلال الله لأمثلة هؤلاء ناجم عن عدم استعدادهم لأن

يذعنوا للحقيقة، عناداً ومكابرة وهو أمر يشير النص إليه في نهاية هذه الصورة الفنية. كما أنّ هذه الظاهرة تظل مرتبطةً ـ كما هو واضح ـ بما طرحه النص في المقاطع السابقة من السورة الكريمة، مما يُفصح عن إحكام عمارة النص وتلاحم جزئياته بعضاً مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

* * *

إنَّ هذه الصورةُ الفنيةُ تَنطوي علىٰ جملةٍ من الأسرارِ الجماليةِ المدهشة. فهي تمتازُ أولاً بغُموضٍ فنيّ يَهبُها مَزيداً من الإثارةِ، بصفة أنّ الصورةَ الناجحة هي التي تتعدَّدُ إيحاءاتُها بحيثُ يستجيبُ لها كلُّ قارىءٍ بِحَسبِ خبرتهِ، وهي ثانياً تتضمّنُ عنصرَ (التقابل) بين متضادَّين (يشرحُ صدْرَه ـ يجعل صَدْرَهُ ضيّقاً حَرَجاً)، ثُم مضافا إلى التشبيهِ (كأنّما يصعَّدُ في السماء) ـ تتضمنُ تشبيهاً آخرَ أو تعليقاً أو لِنَقُل (تشبيهاً تعليقياً) هو قولُه تعالى: ﴿كذلك يَجْعَلُ الله الرجسَ علىٰ الذينَ لا يُؤمنونَ﴾.

من زاويةٍ فنيةٍ أخرىٰ، تُشكّلُ هذه الصورةُ الاستمراريةُ (أي التي تتألّفُ من عدةِ صُوَرٍ جزئيةٍ) ثلاثَ صورٍ يتداخَلُ بعضُها مع الآخَرِ علىٰ نحوٍ منطقيٍ من حيثُ السببُ والنتيجةُ. ولنقف عندَ كلٍّ منها: أما الصورةُ الأولىٰ فهي: ﴿فمن يُرِد الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صدرَه للإسلام﴾ فتجسّدُ استعارةً تخْلَعُ على الصَدْرِ سمة (الانشراح النفسي) من تقبُّلِ الإسلامِ، وهذه الاستعارةُ تلخص كلَّ معطياتِ الإسلامِ في كلماتٍ قليلةٍ مصوّرةٍ بصفةِ أنّ الإسلامَ هو الصياغةُ التي اختارَها الله تعالى للإنسان، وهو تعالى خيرٌ محض.

وأما الصورةُ الثانيةُ: ﴿ومَن يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيقاً حرجا كأنما يصّعّد في السماء﴾ فتجسّدُ واحدةً من الصُوَرِ المُذهلةِ في القرآنِ الكريم، أنها تحتشدُ بِقَيمٍ فنيّةٍ يعجزُ الباحثُ عن الإفْصَاحِ عنها، فهي تتضمَّنُ استعارةً وتشبيهاً علىٰ نحوٍ مزدوجٍ، الاستعارةُ هي ضيقُ الصَدْرِ، والتشبيه هو كأنّما يصعّد إلىٰ

السماءِ، أي أن (التشبيه) قد وُظّف لتوضيح (الاستعارة)، وبكلمة بديلة: الصورة تُوظّف لصورة أخرىٰ لا أن الصورة توظف من أجل العبارة التقريرية. والأهم من ذلك كله، أن تشبيه ضيق الصدر بـ(يصعّد في السماء) يظل من أشدّ تشبيهات القرآن الكريم إثارة واندهاشاً وإيحاءً. فالتصعّد نحو السماء قد يقترن بأسباب فيزيائية تتصل بطبقات الجو العليا مما تُسبّب خللاً في عملية التنفس، فيضيق الصدر تبعاً لذلك (كما أشار إلى ذلك بعض المعنيّين بشؤون التفسير العلمي لنصوص القرآن الكريم)، وقد يقترن التصعّد نحو السماء بأسباب نفسية (كما أشار إلى ذلك قدماء المفسرين)، أي: أن ضيق الصدر أو الحرج إنما هو سمة نفسية نابعة من انغلاق الخير أو الحكمة أو الاطمئنان، كما لو أُرغِمَ شخص علىٰ أن يصعد إلىٰ الأعلىٰ حيث يكلّفه ذلك إرهاقاً ومشقة. هذا إلى أن المفسّرين قدّموا جملة من الاستخلاصات والاستيحاءات التي رشحت بهذه الصورة المذهلة، خبراتهم المتنوعة.

وفي تصوّرنا أن الاستيحاءات جميعاً تظل موضع التقبّل ما دامت الصورة المعجزة هي التي ترشح بأكثر من إيحاء كما قلنا. والمهم أن المنحرف (وهذا من أوضح الحقائق في اللغة النفسية) يحيا توتراتٍ وتمزقاتٍ داخلية نابعة من طبيعة الخلل الذي يصيب جهازه الفكري، وهو جهاز قد فطره الله تعالى علىٰ التوحيد، وحينما يشكك الشخص في هذا الجانب، لا بدّ أن يكشف ذلك عن الخلل في جهازه الفطري المذكور، مما يقتاده إلى التمزق والتوتّر بالضرورة، هو ما ألمح النص إليه في صورة ضيق الصدر، الحرج، التصعّد إلى السماء.

وأمّا الصورة الثالثة ﴿وكذلك يجعل الله الرجسَ علىٰ الذين لا يؤمنون﴾ فتشكل ـ كما قلنا ـ تعليقاً علىٰ الصورة الثانية، أي: أنها (تشبّه) حالة مَن أضلّه الله بحالة مَن ختمَ على فؤاده (والرجس هنا: يعني انغلاق الخير كما نحتمل فنياً، مما نخلص من ذلك إلى أن النص يستهدف في نهاية المطاف تأكيد

الحقيقة التي أشرنا إليها، وهي: أن معرفة الله تعالى بسلوك المنحرفين سَلَفاً ممن لو قُدِّمت لهم كلّ الدلائل الحسيّة علىٰ حقيقة الإسلام ورسالته: لما آمنوا به، هذه المعرفة سلفاً بسلوك هؤلاء، تستتلي أن يضلّهم الله تعالى فيجعل صدورهم ضيقة، يختم علىٰ أفئدتهم، يُحجزهم عن الخير.

هذه الحقائق التي عرضها النص في الصورة الفنية المتقدمة، تظل علىٰ صلة بالمقاطع السابقة من السورة الكريمة فيما تحدثت عن المنحرفين الذين لو قُدمت لهم جميع الدلائل الحسية، ما كانوا ليؤمنوا، حيث تفصح مثل هذه الصلة بين الصورة الفنية التي وقفنا عندها وبين المقاطع السابقة، عن مدىٰ إحكام النص وتلاحم أجزائه بعضاً مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿وَيومَ يَحشُرُهم جَميعاً يَا مَعْشَر الجنِّ قد استكْثَرتُم من الإنْسِ وقال أولياؤُهم من الإنْسِ ربَّنَا استمتعَ بعضُنا ببعضٍ وبلَغْنا أجلَنَا الذي أجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مثواكُم خالِدينَ فيها إلاَّ ما شاءَ الله إنَّ ربَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ * وكذلك نُولّي بعض الظالمينَ بَعْضاً بما كانُوا يكسِبُونَ * يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ ألم يأتِكُم رُسُلٌ منكُم يَقُصُّونَ عليكُم آياتي ويُنذِرُونكُم لقاءَ يومِكم هذا قالوا شهِدْنا علىٰ أنفسِنا وغرَّتْهُم الحياةُ الدنيا وشهدوا علىٰ أنفسِهم أنَّهم كانُوا كافِرين * ذلك أنْ لم يكُنْ ربُّكَ مهلكَ القرىٰ بظلمٍ وأهْلُها غافلون﴾ [الأنعام: ١٢٨ ـ ١٣١].

هذا المقطع من سورة الأنعام امتدادٌ للمقاطع السابقة : في عرضها لسلوك المنحرفين، إلاّ أنّ لكل مقطعٍ جدة وطرحاً آخر من السلوك. الجديد هنا هو: دخول عنصر (الجن) في قائمة المنحرفين، أو لنقل: قد استهدف النص تحديد علاقة الإنس بالجن في ظاهرة الانحراف، حيث سلك النصُ منحىً فنياً خاصاً في صياغة هذا الطرح الجديد.

لقد تحدث النص عن البيئة الأخروية، ونقل لنا حواراً يجري بين الله تعالى وبين الإنس والجن، ومن خلال هذا الحوار نستكشف قضية مشاركة النوعين (الإنس والجن) في الانحراف. ومن الواضح (في ميدان اللغة القصصية) إن الحوار ينطوي علىٰ وظائف مهمة تجيء في مقدمتها: وظيفة الاستكشاف لأعماق الشخوص والوقائع.

لقد سَرَد النصُ أولاً قضيةَ الحشر ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ ثم خاطب الجن قائلاً: ﴿يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس﴾. ومن خلال هذا السرد والحوار نستخلص حقيقة فنية هي أنَّ دخول عنصر الجن في ميدان العرض بسلوك المنحرفين قد تمَّ بنحوٍ ممتعٍ فنياً وذلك من خلال قوله تعالى أولاً: ﴿يوم يحشرهم جميعاً﴾ ثم من خلال مخاطبته الجنّ مباشرة، حيث يستخلص القارىء أن الحشر قد قُصِدَ منه حشر الإنس والجن (وهذا طرحٌ فني لتقديم المعرفة أو عرض الحقائق من خلال اللغة القصصية) فبدلاً من أن يقول لنا النص: أن الحشر يشمل الإنس والجن، وجّه خطاباً إلى الجن حتىٰ نستخلص بأن الجن داخلون في الحشر أيضاً، وهذا واحدٌ من أشد الطرائق الفنية إمتاعاً كما هو واضح.

والحق، أن العنصر الفنيّ في هذا الميدان لم يقف عند الحقيقة المذكورة فحسب، بل تجاوز قضية إدخال الجن في المحشر، إلىٰ عرض السلوك المنحرف لدىٰ النوعين الإنس والجن، ثم علاقة بعضهما بالآخر.

والآن، ما هي هذه العلاقة الرابطة بينهما؟

لقد خاطبَ النصُ معشر الجنّ قائلاً: ﴿يا معشرَ الجِنِّ قد استكثرْتُمْ مِنَ الإنس﴾. نستخلص من هذا الحوار أن عنصر الجن قد ساهم في تضليل الناس وتكثير عدد المنحرفين منهم.

وبعد أن طرح هذه الحقيقة أمامنا (أي: حقيقة أن الجن ساهموا في تكثير

عدد المنحرفين) بدأ يكشف عن بعض التفاصيل المرتبطة بهذا الجانب، وذلك من خلال عنصر (الحوار) أيضاً. . . الحوار هنا قد تمَّ على لسان الإنس بعد أن كان الحوار السابق قد تمّ من خلال توجيه الخطاب إلى الجن، وهذا التنوع في الحوار أي: توجيه الخطاب إلىٰ الجن، وتسلّم الإجابة من الإنس يُعدّ في القمة من الإثارة الفنية المُمتعة كما هو واضح لأدنىٰ مَن له خبرة ذوقية في لغة القصص. حيث كان من الممكن عندما يخاطب الله الجن: ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أن يتلقّىٰ الإجابة من الجن، ولكنه تلقىٰ الإجابة من الإنس بهذا النحو: ﴿وقال أولياؤهم مِن الإِنْسِ ربَّنا اسْتَمتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وبلغنا أَجَلنا الذِي أَجَّلْتَ لَنَا. . . الخ﴾.

في هذه الإجابة حقائق متنوعة في ميدان المعرفة بقضايا اليوم الآخر وانعكاسات السلوك الدنيوي عليه، إلاّ أننا قبل أن نتحدث عن هذا الجانب، قد استهدفنا الإشارة إلى الإمتاع الفني لهذا النمط من الحوار المتنوع (تقديم السؤال إلى الجن، وتلقّي الإجابة من الإنس)، ومن ثم ينبغي ألاّ نغفل (ونحن نُعنىٰ في الدرجة الأولىٰ بعمارة السورة القرآنية الكريمة) ألا نغفل عن هذا النمط من العرض الفني الذي ربط بين سلوك الجن وبين سلوك الإنس الذين شكّلوا محور السورة الكريمة في عرضها لمختلف أنماط الانحراف، مما يفصح ذلك عن مدىٰ إحكام النص وتلاحم جزئياته بعضاً مع الآخر كما أوضحنا.

* * *

إنّ النصّ عندما يوجّه خطاباً إلىٰ (الجِن) في اليوم الآخر من حيث علاقة هذا العنصر بتضليل العنصر البشري ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ حينئذ يجيب البشر (بدلاً من الجن) علىٰ السؤال المتقدم: ﴿و قال أولياؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضُنا ببعض و بلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا قال النار مثواكم

خالدين فيها إلّا ما شاءالله﴾. هذه المحاورة بين الله تعالى و بين البشر تنطوي علىٰ وظائف فنيّة متنوعة، منها: لماذا أجاب الإنس بدلاً من الجن عندما يوجّهالله تعالى السؤالَ إلى الجن في تضليلهم للبشر؟ لا نحتاج إلى أدنىٰ تأمل حتى ندرك بأن السر الفني في عدم الإجابة هو أن المستهدف هو عنصر الإنس بالنسبة إلىٰ المحاكمة، أما عنصر الجن فله شأن آخر في المحاكمة ليس النصُ في صدده، بل أن النص يستهدف تقديم حقيقةٍ هي: أن الجن ساهم في تكثير عدد المنحرفين (لا نغفل أن النص تحدث عن معاصري رسالة الإسلام). والآن إذا كان الأمر كذلك، فنتوقع أن يجيب الإنس ـ بدلاً من الجن ـ علىٰ السؤال المتقدم، ومن ثمّ نجد أن إجابة البشر تحدد العلاقة النفعية أي المصالح المتبادلة بين الجن والإنس.

لنقرأ الجواب من جديد: **﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾**. إن قول البشر: **﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** تنطوي علىٰ ما هو مجملٌ من أن الجن والإنس قد أفاد كل منهم من الآخر، أما نوع الإفادة لم يتحدد في هذا الجوب، فلماذا؟. في تصورنا الفنيّ أن النص يستهدف الإشارة إلى المتاع الدنيوي العابر بشكل عام، لذلك قدم مجرد (الاستمتاع) دون تفصيل، إلا أن القارىء سوف يقفز إلى ذهنه سريعاً بأن البشر المُحاكَم هو من النمط المُشرك الذي حامت علىٰ عرض سلوكه سورةُ الأنعام، فالمقاطع السابقة للسورة تحوم على هذا الموضوع كما هو واضح. مضافاً لذلك، فهناك دلالة فنية أخرىٰ تضمنتها إجابة البشر وهي قولهم: **﴿وبلغنا أجلّنا الذي أجّلت لنا﴾** أي: الموت، علماً بأن المنحرفين كانوا مشككين باليوم الآخر، فعندما يقرّون حينئذٍ ببلوغهم الأجل وبتقديمهم إلى المحاكمة حينئذٍ نستخلص بأن المقصود من الاستمتاع هو: مساهمة الجن في تضليل الإنس من حيث تشكيكهم باليوم الآخر.

وأمّا الاستمتاع الذي حققه الجن، فهو استمتاع نفسي بطبيعة الحال، ما داموا قد اتخذوا الإنس أتباعاً خاضعين لهم.

وأياً كان الأمر، فإن النص بعد أن يقدّم هذه الحقائق المتصلة باليوم الآخر وعلاقة عنصري الإنس والجن بعضهما مع الآخر، يعقّب علىٰ هذه المحاورة: **﴿قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾**. أما التعقيب بأن مصائرهم إلىٰ النار فواضح، لكنّ الملاحظ أن النص طرح حقيقة جديدة في هذا السياق وهو قوله تعالى: **﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾**. النصوص المفسرة تقدّم أكثر من احتمال في تفسير الخلود والاستثناء من ذلك. لكننا نتوقف عن تقديم الإجابة لقصورنا عن إدراك ذلك. والمهم، أن النص يخاطب كلاً من الإنس والجن، بعد أن يحدد مصائرهم الأخروية قائلاً: **﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا علىٰ أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾**.

من الواضح، أن هذا التعقيب أو المخاطبة التي نقلت الحديث عن اليوم الآخر إلى الحديث عن السلوك الدنيوي لكل من الجن والإنس ينطوي علىٰ وظائف فنية متنوعة، منها: ما أشرنا إليه من أنها تفسّر معنىٰ الجواب الذي قدّمه البشر في قولهم: **﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾** حيث كان الاستمتاع مبهماً، وحيث فسّره الآن هذا المقطعُ الذي يقول **﴿ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾** وهو ما استخلصناه قبل قليل عندما قلنا بأن المقصود من الاستمتاع هو تزيين الجن للإنس مطلق المتاع الدنيوي وفي مقدمته التشكيك باليوم الآخر بما يستتبع ويواكب ذلك من مصالح متبادلة بين عنصري الجن والإنس، حيث يستمتع الجن بالترؤس علىٰ الإنس، وحيث يستمتع الإنس بما زيّنه لهم الجن من الإشباعات الدنيوية المختلفة.

أخيراً، ينبغي ألاّ نغفل عن صلة هذا المقطع وما قبله من المواقف التي حددت علاقة الجن والإنس فيما بينهما، ينبغي ألا نغفل عن صلة ذلك بفكرة السورة الكريمة (سورة الأنعام) ونعني بها: عرض سلوك المنحرفين، حيث وصَلَ النص بين هذا المحور الفكري وبين المقطع الذي تحدثنا عنه، وهو أمرٌ يُفصح عن مدىٰ الإحكام الهندسي للسورة الكريمة، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿وربُّكَ الغنيُّ ذُو الرّحمة إنْ يشأ يُذْهِبكُم ويَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم ما يَشاءُ كما أنْشَأكُم من ذُرّية قَوْمٍ آخَرين * إنَّ ما توعَدون لآتٍ وما أنْتُم بِمُعجزين * قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا علىٰ مكَانَتِكُم إنّي عاملٌ فسوفَ تعلمونَ مَنْ تكونُ لَهُ عاقبةُ الدّارِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالمون﴾ [الأنعام: ١٣٣ ـ ١٣٥].

هذا المقطع الجديد من سورة الأنعام، امتدادٌ للمقاطع السابقة التي تحوم عليها السورة الكريمة في عرضه لسلوك المنحرفين.

الجديدُ في هذا المقطع هو: قضية العمل العبادي (أي: خلافة الإنسان في الأرض) وانسحاب معطيات ذلك علىٰ الإنسان، واستغناء الله تعالى عن مثل هذا العمل، ومن ثم التلويح بالخسارة الأخروية لِمن يتخلّف عن ممارسة وظيفته العبادية.

وقد واكبت هذا الطرح صياغةٌ فنيّة تتصل بالمبنىٰ الهندسي لنصّ القرآن الكريم. لقد خاطب النصُ المنحرفين (أي: المشركين الذين تقدّم الحديث عنهم في مقطع سابق وهم من الإنس والجن) خاطبهم بقوله: ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾. إن القارىء قد يتساءل عن السرّ الفني لقضية الاستخلاف من ذرية قوم آخرين. لكنه سرعان

ما يستخلص بوضوح بأن النص كان في صدد الحديث عن منحرفي الإنس والجنّ وهما يمثلان جنساً أو نوعاً من المخلوقات التي أوكل إليها مهمّة العمل العبادي، وحينئذٍ فإن الإشارة إلى أنه بمقدوره تعالى أن يبيد هذه الأجناس وأن يُنشيء آخرين يقومون بأداء المهمة العبادية.

هنا يتقدّم النص بـ(تشبيهٍ) هو قوله تعالى: ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾، وأهمية هذا التشبيه تتمثل في انطوائه علىٰ وظيفة فنية مزدوجة، فمن جانبٍ نرىٰ أنّ المنحرفين كانوا قد شككوا في النشأة الأخروية، وحينئذٍ فإن تذكير هؤلاء المنحرفين من خلال تجربة حسيّة هي خلق الإنسان نفسه في تجربة الحياة يشكّل جواباً لإمكانية خلق الإنسان من جديد في تجربة الآخرة. النص لم يقل هذا مباشرةً بل أشار إلى أن الله تعالى بمقدوره أن يبيد المنحرفين ويستخلف من يشاء كما أنشأهم أول مرّةٍ من ذرية قوم آخرين، وهذا ما يجعل القارىء يتداعى بذهنه سريعاً إلى أن الله تعالى بمقدوره أن ينشيء الإنسان من جديد في اليوم الآخر. ولذلك أردف هذا الكلام بكلامٍ مباشر عن الحياة الأخروية، بقوله: ﴿إنّ ما توعدون لآتٍ...﴾. إذاً، أمكننا ملاحظة الصياغة الفنية المدهشة التي جعلت عملية التداعي الذهني تتلاحق لتصبّ في الغرض الذي يستهدفه النص ألا وهو: حتمية اليوم الآخر الذي شكّك به المنحرفون.

وأياً كان، فإن النص بعد أن يطرح هذه الظاهرة يعود ليواصل عرض جوانب جديدة من سلوك المنحرفين أي: المشركين الذي شكّلوا مادّةَ السورة الكريمة.

يقول المقطع الجديد: ﴿وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلىٰ شركائهم ساء ما يحكمون﴾ [الأنعام: ١٣٦]. النص هنا يعرض شريحة جديدة من الانغلاق والجدب والتعطّل الذهني لدىٰ المشركين

حيث جعلوا لله مما خلق من الزرع والأنعام نصيباً في الأوثان (فقالوا هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا)، وهنا يتصاعد الانغلاق الذهني لديهم إلى درجة التعطّل التام حينما يحتالون لأصنامهم في عملية فرز الحصص ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله﴾ لكن ﴿ما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾.

إن أمثلة هذا السلوك الذهني المعطّل لا يحتاج إلىٰ الردّ، نظراً لهول السخافة التي يصدر عنها ذهنُهم. لذلك لم يناقشهم النصُ القرآني الكريم، بل علّق عليه بالقول: ﴿ساء ما يحكمون﴾، تاركاً للقارىء مجال الحكم عليهم واستخلاصه درجة الغباء التي ما بعدها من غباء بالنسبة للذهنية التي تطبع كل منحرفٍ ومنعزلٍ عن مبادىء الله تعالى.

وأياً كان، فالملاحَظ أن النص القرآني الكريم سبق أن طرح موضوع التشريك لله في مواضع متقدمة من السورة، إلا أن الطرح هناك كان متصلاً لجعلهم(الجن) شركاء لله، أما في هذا المقطع فقد طرح النص نموذجاً آخر من ذهنياتهم التشريكية المتصلة بالثروات الطبيعية وغيرها، انسجاماً مع موضوعات السورة التي ستتحدث لاحقاً عن إبداع الله تعالى للثروات الطبيعية والحيوانية كما سنلاحظ، مما يُفصح مثل هذا الطرح المتجانس عن مدىٰ إحكام السورة هندسياً من حيث تلاحم جزئياتها بعضاً مع الآخر، كما سنوضح ذلك لاحقاً إن شاء الله.

* * *

قال تعالى: ﴿وكذلك زَيَّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المُشركينَ قَتْلَ أولادِهم شُرَكاؤُهم لِيُرْدُوهم ولِيَلْبِسُوا عليهِم دِينَهم ولو شاءَ الله ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُم وما يَفْتَرون * وقالوا هذِه أَنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إلاّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِم وأَنعامٌ حُرِّمت ظُهورُها وأَنعامٌ لا يَذْكُرونَ اسم الله عليها افتراءً عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالُوا ما في بُطُونِ هذِهِ الأنعامِ خالِصة لِذُكورِنا ومحرّمٌ علىٰ أزواجِنا

وإنْ يكُن مَيتةً هم فيهِ شركاء سيَجزيهِم وَصْفَهم انّه حكيم عليم * قَدْ خَسِر الذينَ قَتَلوا أولادَهم سَفَهاً بغيرِ علمٍ وحَرَّمُوا ما رَزَقهم الله افتراءً علىٰ الله قَد ضَلُّوا وما كانُوا مهتدين﴾ [الأنعام: ١٣٧ ـ ١٤٠].

يواصل النص القرآني الكريم في هذا المقطع من سورة الأنعام، حديثه عن ذهنية المشركين في تعاملهم مع الثروات النباتية والحيوانية. ثم يطرح في هذا السياق ـ وفق منحىً فنيّ خاص ـ قضيةً اجتماعية هي (وأد البنات).

المنحرفون أو الجاهليون جعلوا لله شركاء. إلا أن النص خلع صفة (الشركاء) علىٰ الشياطين والأصنام من حيث علاقتها بالمنحرفين، أي جُعلت الشياطين والأصنام (شركاء) للمنحرفين من حيث أنهم جعلوا للأوثان نصيباً من زروعهم وماشيتهم، ومن حيث أنهم انصاعوا للشياطين في تضليلهم إيّاهم. يقول النص في المقطع الذي نتحدث عنه: ﴿وكذلك زَيّنَ لكثيرٍ مِن المشركين قَتْلَ أولادِهم شركاؤُهم﴾ أي: أن شركاء المنحرفين ـ وهم الشياطين ـ قد زيّنوا للمنحرفين عملية وأد البنات.

ومن الواضح، أن إطلاق النص مصطلح (الشركاء) علىٰ الشياطين، إنما هو جوابٌ فني لإفراغ مفهوم الشرك من دلالته الجاهلية، وجعله مفهوماً يرتبط بعنصر (المشاركة) بين المنحرفين وبين الشياطين الذي يزيّنون لهم الانحراف.

وأياً كان، فالملاحظ أن النص طرح قضيتين ـ في هذا المقطع ـ هما: قتل أو وأد البنات من جانبٍ، والتعامل المنحرف مع الثروات الطبيعية والحيوانية من جانب آخر. أما التعامل الأخير فيتمثل في جملة من الأفكار الهزيلة التي تستدر الإشفاق والسخرية، مثل ذهابهم إلى أن الزرع والأنعام ينبغي ألاّ يُطعم بعضها إلاّ للقائمين علىٰ شؤون الأوثان من الرجال دون النساء، ومثل ذهابهم إلىٰ أنّ ألبانها، وما في بطونها بعامة، خاصٌ بالرجال دون النساء. أيضاً، ومثل ذهابهم إلى أن أجنّة الأنعام الميتة ـ دون غيرها ـ

يُسمح للرجال والنساء بالإفادة منها، أي: أنّ هذا النوع هو المسموح له بمشاركة النساء للرجال في الأكل منه (وهو: الميتة).

هذه المستويات من التفكير المتدنّي لا تحتاج إلى التعقيب نظراً لعدم قيامها علىٰ أي استدلال، حتى لو كان سخيفاً، أنها مجرد وساوس وخيالات أوحتها الشياطين فتقبّلوها بلا إعمال أيّ فكرٍ فيها. ولعلّ أشد المفارقات سخرية ـ وإيلاماً أيضاً ـ هو ربط هذه العادات بقضية وأد الإناث، وهو أمرٌ أكّده النص وكرّره مرتين حينما ذكَرَ أولاً: ﴿وكذلك زَيَّن لكثير من المشركين قَتْلَ أولادِهم شركاؤهم لِيردُوهم﴾ وحينما ذكر ذلك في نهاية المقطع ثانياً: ﴿قد خَسِرَ الذينَ قَتَلوا أولادَهم سَفَهاً بغيرِ علمٍ﴾. لقد تعامل الجاهليون مع المرأة تعاملاً وحشياً، سواء أكانت بنتاً أو زوجةً، فالزوجة تُحرم مما في بطون الأنعام، والبنت تحرم من الحياة ذاتِها من خلال عملية الوأد الوحشية. وهذه العملية الأخيرة تظل من الخطورة بمكانٍ يستطيع المُلاحِظ من خلالها أن يربط بين المَرض العقلي وبين النزعة العدوانية، بين مرض النفس الذي يقتات علىٰ الوهم في تحرّكاته وبين استتلائه النزوعَ إلى الجريمة بالنحو المذكور.

ومهما يكن، فإن النص القرآني الكريم (من حيث المبنىٰ الهندسي للسورة) طرح قضية وأد البنات من خلال طرحه لكلٍ من الزرع والأنعام (وهما مصدر الثروة الرئيسة كما هو واضح) حيث تلاعبوا في توزيعها بالنحو الذي لحظناه، وحيث كانت المرأة جزءً من عملية التلاعب المذكور، وذلك بحرمانها من تناول مما في بطون الأنعام، ومن ثم جاء الربط بين الحرمان من الإطعام والحرمان من الحياة (وهو الوأد) معبّراً عن وحدة المبنىٰ الهندسي للمقطع، وهو مبنىً قائمٌ علىٰ ربط الأفكار بعضها مع الآخر، حيث لحظنا أولاً كيف أن النص قد عَرَض لنا طريقة تعامل المنحرفين مع الثروات التي أتاحها الله تعالى للإنسان، معقّباً على ذلك بأنهم: ﴿وحَرَّموا ما رزَقهم الله﴾ وحيث

يعرض لنا بعد ذلك ما ينبغي أن نسلكه حيال هذه الثرواتِ فيقول: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشاتٍ وغير معروشاتٍ والنخل والزرع مختلفاً أكُله والزيتونَ والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين * ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان...﴾ [الأنعام: ١٤١ ـ ١٤٢]. وهكذا نجد أن النص ربط بين الكيفية التي ينبغي أن يفيد الإنسان منها في الثروتين الطبيعية والحيوانية (الزرع والأنعام)، وبين الكيفية التي صدرت عن المنحرفين في تلاعبهم بهذه المعطيات، مما يُفصح مثل هذا الربط عن مدىٰ إحكام السورة من حيث تلاحم جزئياتها بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿قل لا أجِدُ في ما أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّماً علىٰ طاعِمٍ يَطْعمُه إلاّ أن يكون مَيْتَةً أو دماً مَسْفُوحاً أو لَحْمَ خِنْزيرٍ فإنَّهُ رِجْسٌ أو فِسْقاً أُهِلَّ لغيرِ الله بهِ فَمَنِ اضْطرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ فإنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وعلىٰ الذين هادوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ومِنَ البَقَرِ والغَنَم حَرَّمْنَا عليهِم شُحومَهُمَا إلاّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أو الحَوَايا أو ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْناهم بِبغْيِهِمْ وإنَّا لَصَادِقُون * فإنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُم ذُو رحمةٍ واسِعةٍ ولا يُرَدُّ بأْسُهُ عن القومِ المجرمين﴾ [الأنعام: ١٤٥ ـ ١٤٧].

هذا المقطع وما قبله حيث تحدّث عن الزرع والأنعام التي أباحها الله، يجيء رداً علىٰ المشركين أو مطلق المنحرفين الذين جعلوا لهاتينِ الثروتينِ: (النباتية والحيوانية) نصيباً لأصنامهم أو حرّموا قسماً من ذلك علىٰ الأناث.

ويُلاحَظ في هذا المقطع أن النص قد استثنىٰ مما هو مباحٌ، كلاًّ من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما ذُبح بغير تذكية شرعية من حيث عدم التسمية بالله. مع أن هناك استثناءات أخرىٰ لم تُذكر في هذا النص بل

ذُكِرت في نصٍ آخر، وهذا يعني (من الزاوية الفنية) إن النص يستهدف التركيز علىٰ هذه المحرّمات نظراً لشدّة ما تنطوي عليه من مفارقات وأضرار. فالميتةُ ـ وهي ما لم يُذكرِ اسمُ الله تعالى عليها أو مطلقِ الحيوان الذي يفارق الحياة ولم يكن ذلك علىٰ الوجه الشرعي ـ والدمُ المصبوب المستقل غير المختلط باللحم، ولحمُ الخنزير، وما ذُبح باسم الأصنام. هذه الأشكال المحرّمة من الطعوم إنما تمّ التركيزُ عليها دون ما هو محرمٌ من الأشكال الأخرىٰ، فلأنّها ـ من حيث الصحة الروحية والجسمية ـ ذات أضرار ملحوظة. فمن حيث الصحة النفسية يظل مطلق ما هو محظورٌ من الطعام منسحباً علىٰ النفس من حيث نقاؤها وتزكيتُها فما يُذبح علىٰ اسم غير الله مثلاً يفقد خصوصيته الغذائية التي لا تختلف عن أية مادة كيميائية يستخدمها الطب النفسي في علاج الأمراض العقلية والنفسية. والأمر نفسه بالنسبة إلى الميتة أو الدم أو لحم الخنزير، فضلاً عما تنطوي عليه من أضرار جسمية قد خبرها الطبُ الجسمي في تقريره مستويات هذه الأضرار جسمياً.

* * *

لقد طرَحَ النصُ القرآني الكريم قضية الأنعام والزرع في سياق حديثه عن المشركين الذين شكّلوا موضوعاً للسورة. وها هو النص يتقدم بمقطعٍ جديدٍ ليعرض لنا شريحة جديدة من سلوك المشركين يقول المقطع:

﴿سَيَقُولُ الذِين أَشركوا لَو شاءَ اللّهُ ما أَشْرَكْنَا ولا آباؤُنَا ولا حَرَّمْنَا مِنْ شيْءٍ كذلِك كَذَّبَ الذين مِنْ قَبْلِهم حتى ذاقُوا بأْسَنَا قل هل عِندَكُم من عِلْمٍ فتُخرِجُوهُ لَنَا إنْ تَتَّبِعُونَ إلاّ الظَّنّ وإنْ أنْتُم إلاّ تَخْرُصُون * قل فللهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فلو شاءَ لَهداكُم أَجْمَعِين * قل هَلُمَّ شُهداءَكُم الذين يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هذا فإنْ شَهِدُوا فلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ولا تَتَّبِع أَهْواءَ الذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا والذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وهُمْ بربهم يَعْدلون﴾ [الأنعام: ١٤٨ ـ ١٥٠].

في هذا المقطع يكشف المنحرفون عن بُعدٍ جديد من تفكيرهم الهزيل، إنهم يزعمون بأنّ عبادتهم للأصنام وتحريمهم لبعض الأطعمة بالنحو الذي لحظناه إنما هو عمل مشروع، لأنه ـ لو لم يكن كذلك ـ لما سمح لهم بأن يشركوا ويحرّموا. هذا المنطق هو امتدادٌ لمواقف عقلية سابقة تبتعث السخرية والإشفاق، منطق يقوم علىٰ الاستدلال الغبيّ الذي ما بعده من غباء، حيث يعتمد علىٰ الذهاب إلىٰ أنهم ما داموا قد أشركوا ولم يحجزهم الله عن ذلك فهذا يعني مشروعية الشرك وإلا لو شاء الله لما أشركوا. إنّ أمثلة هذا الاستدلال تكشف عن أن غباء المنحرف عن مبادىء الله تعالى لا يضارعه أيّ غباء حيث يغيب عن ذهنهم أنّ الحياة هي تجربة أو اختبارٌ عبادي مُنِحَ الإنسان من خلاله قابلية التمييز بين الفجور والتقوىٰ، كما مُنح قابليةً علىٰ أن يختار أحدهما ملء إرادته دون إجبارٍ على ذلك، مما تترتب علىٰ اختياره مسؤولية العمل ما دام حرّاً في عملية الاختيار، فلو سلب الله تعالى حرّية الاختيار وأجبرهم علىٰ ألاّ يُشركوا بطلَ حينئذٍ مفهوم التجربة العبادية وسقط التكليف وانتهىٰ كل شيء.

وأيّاً كان، فإن النص القرآني الكريم، وهو يعرض لنا شريحة جديدة من نمط التفكير لدىٰ المنحرفين تُضاف إلى السلسلة التي عرضها منذ بداية السورة، إنما يظل (من حيث عمارة السورة الكريمة) مفصحاً عن مدىٰ جمالية وإحكام النص من حيث ارتباط مقاطعه حيث يتكفل كل مقطع بعرض جزء منها، ثم يصل بين هذه المقاطع بعضاً مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.

* * *

قال تعالى: ﴿قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ ربكم عليكم أَلاَّ تُشرِكُوا بهِ شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تَقْتُلوا أولادَكُم مِّن إملاقٍ نحن نرزُقكم وإيّاهُمْ ولاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ منها ومَا بَطَنَ ولا تَقْتُلُوا النفسَ التي حرَّمَ الله إلاّ بالحقِ ذلِكُمْ

وصّاكُمْ بِهِ لعلّكم تَعقِلُون. . .﴾ [الأنعام: ١٥١].

هذ المقطع وما بعده امتدادٌ للفكرة التي تنطوي عليها سورة الأنعام، حيث تعرض في كل مقطعٍ: شريحةً من سلوك المشركين. فقد زعم المشركون أن الله لو شاء ما أشركوا ولما حرّموا من شيء، وها هو النص القرآني الكريم بعد أن يردّهم علىٰ هذه التخرصات، يتجه إلىٰ عرض بعض المحرّمات التي يطالِبُ بتركها، ومنها: عدم الشرك، إطاعة الوالدين، عدم قتل الأولاد بسبب الفقر، وعدم ممارسة الفواحش، وعدم قتل النفس إلاّ بالحق، وعدم التصرف بمال اليتيم حتى يكبر، وعدم التفرقة.

ثم طالَب النصُ بإيفاء الكيل والميزان، وقول الحق حتىٰ بالنسبة إلى القرابة، والإيفاء بالعهد.

الملاحَظ (من الزاوية الفنية) إن هذه الأوامر والنواهي عامة تشمل كلّ الناس، مشركين كانوا أو موحدين إذا استثنينا المطالبة بعدم الشرك. وقد استخدم النص المنحىٰ الفنيّ المعروف في طرح هذه الأوامر والنواهي ضمن الفكرة الرئيسة للسورةِ، حيث يُدخل النص ـ ضمن حديثه عن المشركين ـ مجموعة من الأفكار التي يستهدف توصيلها إلى الناس، وهي الأفكار التي عرضنا لها.

فإذا تجاوزنا الجانب الفني لهذا العرض، واتجهنا إلىٰ الأفكار ذاتها، وجدنا أنها تتضمن أوامر ونواهي محددة ـ وليس مطلق الأوامر والنواهي ـ حيث تنحصر في عشر ظواهر فحسب، مُشعراً بهذا التحديد بأهمية الظواهر المشار إليها، وهذا بدوره واحدٌ من أشكال اللغة الفنية حيث أن النص الأدبي يختلف عن النص العادي بكونه يوزّع أهدافه في مقاطع وسور متنوعة، ويطرح كلّ واحد منها في سياق خاص.

وهنا ـ في المقطع الذي نتحدث عنه ـ طرح جملة من الظواهر المتصلة

بشؤون الاقتصاد والسياسة والجنس والأسرة والأخلاقيات... الخ. لقد طالب بإطاعة الوالدين بعد مطالبته بعدم الشرك، وهذا الاقتران بين الشرك ومعصية الوالدين (حيث تضمّن النهي عن الشرك،والمطالبة بالإحسان إلى الوالدين) ﴿ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾. هذا الاقتران بينهما ينطوي علىٰ دلالة فنية هي مدىٰ أهمية الإحسان إلى الوالدين بحيث تجيء بعد أهمية توحيد الله تعالى، ولذلك لم يجعل المطالبة بالإحسان إلى الوالدين في فقرة مستقلة بل أدمجها في سياق المطالبة بعدم الشرك، بينما جعل باقي الأوامر والنواهي كل واحدٍ منها في فقرة مستقلة مثل: ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ ﴿ولا تقتلوا النفس﴾ ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ ﴿وأوفوا الكيل﴾ ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾... الخ.

ويُلاحَظ أيضاً أن النص قد وزّع هذه الأوامر والنواهي في آيتين وليس في آية واحدة، وهذا بدوره لا بدّ أن ينطوي علىٰ دلالة فنية، فقد جعل المطالبة بعدم الشرك، والإحسان بالوالدين، وعدم قتل الأولاد، وعدم قتل النفس، وعدم ممارسة الفواحش، جعلها في آية، ثم جعل المطالبة بعدم التصرّف بمال اليتيم، وإيفاء الكيل، وقول الحق، والإيفاء بالعهد في آية أخرىٰ. وحينئذٍ لا بدّ أن ينطوي هذا التقسيم للأوامر والنواهي علىٰ نكتة فنيّة هي: إما مجانسة بعضها مع الآخر بحيث يستقل ما هو مجانس في آية، وإمّا أن تكون الظواهر الأولىٰ مثل قتل الأولاد، وقتل النفس، وممارسة الفواحش، والشرك، تخصّ ما هو مشهور عند المشركين، وأن تكون الظواهر الثانية تخص الإسلاميين، حيث أن الوفاء بالعهد، وقول الحق، والمحافظة على مال اليتيم، وإيفاء الكيل، تجسّد أنماطاً من السلوك الذي قد لا يلتزم به الإسلاميون.

إذاً، جاء هذا التقسيم لأنماط السلوك منطوياً على دلالة فنية من جانب، كما أنه يحسّسنا بأهمية هذه الأنماط من السلوك من حيث كونها ظواهرَ من

الممكن أن تكون شائعة في زمن النص فأكد عليها دون غيرها من أنماط السلوك.

وأيّاً كان، فإن الأهمية الفنية والفكرية لهذا النمط من العرض لا تقف عند الخطوط التي أشرنا إليها فحسب، بل تتمثل أيضاً في طريقة البناء الهندسي لها، حيث جاءت متجانسة مع سائر مقاطع السورة الكريمة التي تحوم على عرض سلوك المشركين، وحيث تطرح الأفكار أو الموضوعات الأخرىٰ في سياق العرض المشار إليه، وهو أمرٌ يُفصح عن مدىٰ إحكام العمارة الفنية للنص القرآني الكريم، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

* * *

قال تعالى: ﴿ثم آتينا موسىٰ الكتاب تَمَاماً علىٰ الذي أحْسَنَ وتفصيلاً لكلِ شيءٍ وهدىً ورحمةً لعلَّهم بِلقاءِ ربِّهم يؤمنون * وَهذا كتابٌ أنزَلْناهُ مُبارَكٌ فاتَّبعوهُ واتَّقُوا لعَلَّكُم تُرحَمون * أن تَقُولُوا إنّما أُنزِلَ الكتابُ على طائفتينِ مِن قَبْلنا وإن كُنَّا عن دِرَاسَتِهِمْ لَغافِلِين * أوْ تقُولوا لو أنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أهْدَىٰ مِنهُمْ فَقدْ جاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن ربِّكُمْ وَهُدىً ورَحْمَةٌ فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّن كَذَّب بِآيَاتِ اللَّهِ وصَدَفَ عَنْهَا سَنجْزي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَن آياتِنا سوءَ العذابِ بما كانوا يَصدِفُون﴾ [الأنعام: ١٥٤ ـ ١٥٧].

بهذا المقطع وما بعدَه تنتهي سورة الأنعام التي تناولت موضوعاً محدداً هو: عرض سلوك المشركين حيال رسالة الإسلام، ثم عَرضت خلال ذلك جملة من المبادىء الإسلامية التي أكّدت السورةُ عليها، ثم ختمها بهذا المقطع الذي يلخّص ويُجمل التفصيلات التي طرحتها السورة.

في هذا المقطع يُطالب النص باتّباع القرآن الكريم، مذكّراً بأنّه حجّة علىٰ الناس حتى لا يقولوا بأن الرسالات نزلت علىٰ أمم قبلنا. وانا كنّا غافلين عن ذلك، أو حتىٰ لا يقولوا: لو أن الله أنزل الكتاب علينا لكنا أهدىٰ من

السابقين، ثم يُذكّر النصُ هؤلاء بمغبة التلكؤ في الإيمان قائلاً: ﴿هل يَنظُرونَ إلاّ أنّ تأتيهُمُ الملائكةُ أو يأتِي ربُكَ أو يأتيَ بعضُ آياتِ ربِكَ﴾ أي: هل ينتظرون أن يأتيهم الجزاء الدنيوي، وحينئذٍ ﴿لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكُنْ آمَنَتْ مِنْ قبلُ أو كسبتْ في إيمانِها خيراً﴾ [الأنعام: ١٥٨].

بعد ذلك، يوجّه النص خطاباً إلى المؤمنين مطالباً إيّاهم بأن يقولوا:

﴿إنني هداني ربّي إلى صراط مستقيم﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله﴾ [الأنعام: ١٦٢].

﴿أغير الله أبغي رباً وهو ربُّ كلِ شيءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ثم تختم السورة بالآية التالية: ﴿وهو الذي جَعَلكُمْ خلائِفَ الأرضِ ورَفَع بعضَكُمْ فوق بعضٍ درجاتٍ لِيَبلوَكُمْ في ما آتاكُمْ إن رَبّكَ سريعُ العقابِ وإنّه لغفورٌ رحيم﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ويعنينا من هذا الختام أن نعرض لموقعه الفني من عمارة السورة الكريمة، وما ينطوي عليه من قيم جمالية.

فالملاحظ أولاً أن النص اتجه إلىٰ عنصر(الحوار) الداخلي، أي: حديث الإنسان مع نفسه أو عنصر الحوار المبُهم الذي يتردد بين كونه خطاباً للنفس أو خطاباً للناس، وهو الحوار الذي أجراه الله على هذا النحو:

﴿قل: إنني هداني ربي﴾.

﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله﴾.

﴿قل أغير الله أبغي رباً وهو ربّ كل شيء﴾.

في تصوّرنا أن سورة الأنعام بما أنها قد طبعها عنصرُ الحوار في غالبية أقسامها، حيث أنّ عَرْضَ سلوك المشركين قد تمَّ من خلال محاورة النبيّ وأجوبتهم أو من خلال محاورتهم وأجوبة النبي(ص)، لذلك فإن اختتام السورة بعنصر مماثل هو(الحوار) أيضاً يظل (من حيث المبنىٰ الهندسي لأجزاء

السورة) متجانساً مع أجزائها، وهو أمرٌ يُضفِي جماليةً ملحوظة على النص، فما دام النص قد ردّ على المشركين من خلال لسان النبيّ(ص)، حينئذٍ فإن التعبير عن الهداية التي أتاحها الله للمؤمنين يأخذ نفس الطابع فيتمّ من خلال ألسنتهم (إنني هداني ربي. إنّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله.. الخ). وأهمية هذا الحوار ـ مضافاً لمجانسته مع أسلوب العَرض القرآني الذي أشرنا إليه ـ تمثل في وظائف فنية متنوعة، أهمّها: أن يدلّ المؤمن ويتباهىٰ بأن هداه الله تعالى إلى الإيمان، فيردّد هذا على لسانه، تعبيراً عن فرَح الهداية، سواء أكان هذا التعبير أو الهتاف موجهاً إلى الآخرين أو موجّهاً إلى نفسه.

فإذا تجاوزنا هذا الحوار ووظيفته الفنية واتجهنا إلى الآية التي خُتمت بها السورة، وجدنا أنّ الختام يؤكد حقيقة حاسمة هي استخلاف الإنسان في الأرض (وهو الذي جعلكم خلائف.. الخ) وسواء أكان المقصود من (الخلائف) هو أن يخلف كلُّ جيلٍ الجيلَ السابق، أو كان المقصود أمة محمد(ص) فيما جعلها الله خلفاً لسائر الأمم، أو كان المقصود (وهذا ما نحتمله فنيّاً) هو خلافة الإنسان في الأرض، فإن النتيجة تظل مطبوعة بطابع واحد هو: أن يمارس الإنسان مهمته العبادية التي خُلِقَ من أجلها.

أخيراً، ينبغي أن نتذكر (ونحن نُعنىٰ بدراسة السورة القرآنية الكريمة من حيث عمارتها وصلة أجزائها بعضاً مع الآخر) أن السورة عندما تعرض في الختام قضية الخلافة في الأرض، مع أن جميع أجزاء السورة كانت منصبةً علىٰ عرض شبهات المشركين والردّ عليها، فلأنّ الهدف من عرض الشبهات هو الخلوص منها إلى بلورة مفهوم التوحيد ومن ثمّ وظيفة الكائن الآدمي حيال المبادىء المتصلة بهذا الجانب متمثلة في هذا الختام الذي يشير إلى جَعْلِ الإنسان أو جَعْلِنا (خلائفَ الأرض) ليختبرنا الله تعالى فيما آتانا.

إذاً، جاءت نهايةُ السورةِ الكريمةِ حصيلةً للهدف الفكري الذي انطوت عليه، مما يفصح ذلك عن إحكام السورة وتلاحم أجزائها بعضاً مع الآخر بالنحو الذي لحظناه.



الفهرس